د. منى المرشود

أَنْتَ لي

رواية

الجزء

1

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الطبعة الرابعة

أَنْتَ لي



رواية

الجزء الأول

منى المرشود



أطياف للنشر والتوزيع
هاتف / فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦+
جوال: ٠٥٠٥٨٦٨٧٧١ - ٩٦٦+
القطيف - شارع القدس
ص.ب. ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail atyaf-pd@hotmail com



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: 2007 م - 1428 هـ
الطبعة الثالثة: 2014 م - 1436 هـ
الطبعة الرابعة: 2015 م - 1436 هـ

ردمك 978-614-01-1249-0



أطياف للنشر والتوزيع
هاتف/فاكس ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦+
جوال: ٠٥٠٥٨٦٨٧٧١ - ٩٦٦+
القطيف - شارع القدس
ص.ب. ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail atyaf-pd@hotmail com

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

إهداء

إلى نبع الحنان الذي لا ينضب...

إلى نهر الحب الذي لا يجف...

إلى بئر العواطف الذي لا يُدرك قعره

أمّي الحبيبة

أبقيني في جنّةٍ تحت قدميكِ...

ابنتكِ: منى

مع أطيب التحيات

المحتويات

الحلقة الأولى

مخلوقةٌ اقتحمتْ حياتي!

- وليد -

توفي عمي (ياسر) وزوجته في حادثٍ مؤسفٍ قبل شهرين، وتركا طفلتهما الوحيدة (رغد) وهي طفلةٌ في السنة الثانية مِنْ عمرها، لتعيش يتيمةً مدى الحياة...

في البداية، بقيتْ الصغيرة في بيت خالتها لترعاها، ولكن، ونظراً لظروف خالتها العائلية، اتفق الجميع على أنْ يضمُّها والدي إلينا ويتولى رعايتها مِنْ الآن فصاعداً.

أنا وأخواي لا نزال صغاراً، ولأنّني أكبرهم سناً فقد تحوّلتُ فجأةً إلى (رجلٍ راشدٍ ومسؤول) بعد حضور رغد إلى بيتنا.

كنّا ننتظر عودة أبي بالصغيرة، (سامر) و(دانة) كانا في قمة السعادة لأنَّ عضواً جديداً سينضمُّ إليهما ويشاركهما اللعب!

أمّا والدتي فكانتْ متوترةً وقلقة...

أنا لمْ يعني لي الأمر الكثير... أو هكذا كنتُ أظن!

وصل أبي أخيراً...

قبل أنْ يدخل الغرفة حيث كنا نجلس وصَلَنا صوت صراخ رغد!

سامر ودانة قفزا فرحاً وذهبا نحو الباب راكضَين.

«بابا بابا... أخيراً!».

قالتْ دانة وهي تقفز نحو أبي، والذي كان يحمل رغد على ذراعه ويحاول تهدئتها، لكن رغد عندما رأتْنا ازدادتْ صرخاتها ودوّتْ المنزل بصوتها الحاد.

تنهّدتُ وقلتُ في نفسي:

«أوه! ها قد بدأنا!».

أخذتْ أمّي الصغيرة بيد يديها وجعلتْ تداعبها وتقدّم إليها الحلوى علّها تسكتْ!

في الواقع، لقد قضينا وقتاً عصيباً ومزعجاً مع هذه الصغيرة ذلك اليوم.

«أين ستنام الطفلة؟».

سأل والدي والدتي مساءَ ذلك اليوم.

«مع سامر ودانة في غرفتهما!».

دانة قفزتْ فرحاً لهذا الأمر، إلا أنَّ أبي قال:

«لا يمكن يا أمّ وليد! دعينا نبقيها معنا بضع ليالٍ إلى أنْ تعتاد أجواء المنزل؛ أخشى أنْ

تستيقظ ليلاً وتفزع ونحن بعيدان عنها!».
ويبدو أنّ أمّي استساغتْ الفكرة، فقالتْ:
«معكَ حق، إذنْ دعنا ننقل السرير إلى غرفتنا».
ثمَّ التفتَتْ إليّ:
«وليد، انقل سرير رغد إلى غرفتنا».
اعترض والدي:
«سأنقله أنا، إنّه ثقيل!».
قالتْ أمّي:
«لكن وليد رجلٌ قوي! إنّه مَنْ وضعه في غرفة الصغيرين على أيّة حال!».
«رجل قوي» هو وصفٌ يعجبني كثيراً!
أمّي أصبحتْ تعتبرني رجلاً وأنا في الحادية عشرة مِنْ عمري! هذا رائع!
قمتُ بكل زهوٍ وذهبتُ إلى غرفةِ شقيقيَّ ونقلتُ السرير الصغير إلى غرفة والدي.
عندما عدتُ إلى حيث كان البقية يجلسون، وجدتُ الصغيرة نائمةً بسلام!
لا بد أنها تعبتْ كثيراً بعد ساعات الصراخ والبكاء التي عاشتها هذا اليوم!
أنا أيضاً أحسستُ بالتعب، ولذلك أويتُ إلى فراشي باكراً.

* * *

نهضتُ في ساعةٍ مبكّرةٍ مِنْ اليوم التالي على صوتِ صراخٍ اخترق جدران الغرفة مِنْ حدّته!
إنها رغد المزعجة!
خرجتُ مِنْ غرفتي متذمراً، وذهبتُ إلى المطبخ المنطلقة منه صرخاتُ ابنة عمّي هذه...
«أمّي! أسكتي هذه المخلوقة فأنا أريد أنْ أنام!».
تأوهتْ أمّي وقالتْ بضيقٍ:
«أو تظنّني لا أحاول ذلك! إنها فتاةٌ صعبةٌ جداً! لمْ تدعنا ننام غير ساعتين أو ثلاث، والدك ذهب للعمل دون نوم!».
كانتْ رغد تصرخ وتصرخ بلا توقّف.
حاولتُ أنْ أداعبها قليلاً وأسألها:
«ماذا تريدين يا صغيرتي؟».
لمْ تجبْ!
حاولتُ أنْ أحملها وأهزّها... فهاجمتني بأظافرها الحادّة!
وأخيراً أحضرتُ إليها بعض ألعاب دانة فرمتْني بها!
إنها طفلةٌ مشاكسة، هل ستظلُّ في بيتنا دائماً؟؟؟ ليتهم يعيدونها مِنْ حيث جاءتْ!
في وقتٍ لاحقٍ، كان والداي يتناقشان بشأنها.

«إنْ استمرّتْ بهذه الحال يا أبا وليد فسوف تمرض! ماذا يمكنني أنْ أفعل مِنْ أجلها؟».
«صبراً يا أم وليد، حتى تألف العيش بيننا».
قاطعتُهما قائلاً:
«ولماذا لا تعيدها إلى خالتها لترعاها؟ ربما هي تفضّل ذلك!».
أزعجتْ جملتي هذه والدي فقال:
«كلا يا وليد، إنها ابنة أخي وأنا المسؤول عن رعايتها مِنْ الآن فصاعداً. مسألة وقت وتعتاد على بيتنا».
ويبدو أنّ هذا الوقت لن ينتهي...
مرّتْ عدّة أيّام والصغيرة على هذه الحال، وإنْ تحسّنتْ بعض الشيء وصارتْ تلعب مع دانة وسامر بمرح نوعاً ما.
كانتْ أمّي غايةً في الصبر معها. كنتُ أراقبها وهي تعتني بها، تطعِمها، تنظّفها، تلبسها ملابسها، وتسرّح شعرها الخفيف!
مع الأيام، تقبّلتْ الصغيرة عائلتها الجديدة، ولم تعد تستيقظ بصراخ وكان على وليد (الرجل القوي) أن ينقل سرير هذه المخلوقة إلى غرفة الطفلين!
بعد أنْ نامتْ بهدوء، حملتْها أمّي إلى سريرها في موضعه الجديد. كان أخواي قد خلدا للنوم منذ ساعة أو يزيد. أودعتْ الطفلة سريرها بهدوء.
تركتْ والدتي الباب مفتوحاً حتى يصلها صوتُ رغد فيما لو نهضتْ وبدأتْ بالصراخ.
قلتُ:
«لا داعي يا أمي! فصوتُ هذه المخلوقة يخترق الجدران! أبقيهِ مغلقاً!».
ابتسمتْ والدتي براحة، وقبّلتْني وقالتْ:
«هيا إلى فراشك يا وليد البطل! تصبح على خير».
كم أحبُّ سماع المدح الجميل مِنْ أمّي!
إنني أصبحتُ بطلاً في نظرها! هذا شيءٌ رائع... رائعٌ جداً!
ونمتُ بسرعةٍ قرير العين مرتاح البال.
الشيء الذي أنهضني وأقضّ مضجعي كان صوتاً تعوّدتُ سماعه مؤخراً
إنه بكاء رغد! حاولتُ تجاهله لكن دون جدوى!
يا لهذه الـ رغد...! متى تسكتينها يا أمّي!
طال الأمر، لمْ أعدْ أحتمل، خرجتُ مِنْ غرفتي غاضباً وفي نيتي أنْ أتذمّر بشدّة لدى والدتي، ألا أنني لاحظتُ أنَّ الصوتَ منبعثٌ مِنْ غرفة شقيقيَّ. نعم، فأنا البارحة نقلتُ سريرها إلى هناك!
ذهبتُ إلى غرفة شقيقيّ، وكان الباب شبه مغلق، فوجدتُ الطفلة في سريرها تبكي دون أنْ ينتبه لها أحد منهما!. لمْ تكنْ والدتي موجودةً معها.

اقتربتُ منها وأخذتها مِنْ فوق السرير، وحملتُها على كتفي وبدأتُ أطبطب عليها وأحاول تهدئتها.

ولأنها استمرّتْ في البكاء، خرجتُ بها مِنْ الغرفة وتجوّلتُ بها قليلاً في المنزل.

لمْ يبدُ أنها عازمةٌ على السكوت!

يجب أنْ أوقظ أمّي حتى تتصرف...

كنتُ في طريقي إلى غرفة أمّي لإيقاظها، ولكن...

توقّفتُ في منتصف الطريق، وعدتُ أدراجي... ودخلتُ غرفتي وأغلقتُ الباب.

والدتي لمْ تذقْ للراحة طعماً منذ أنْ أتتْ هذه الصغيرة إلينا ووالدي لا ينام كفايته بسببها.

لنْ أفسد عليهما النوم هذه المرّة!

جلستُ على سريري وأخذتُ أداعب الصغيرة المزعجة وألهيها بطريقة أو بأخرى حتى تعبتْ، ونامتْ، بعد جهدٍ طويل!

أدركتُ أنها ستنهض فيما لو حاولتُ تحريكها، لذا تركتها نائمةً ببساطة على سريري، ولا أدري.. كيف نمتُ بعدها!

هذه المرّة استيقظتُ على صوت أمّي!

«وليد! ما الذي حدث؟».

«آه أمّي!».

ألقيتُ نظرة مِنْ حولي فوجدتني أنام إلى جانب الصغيرة رغد، والتي تغط في نوم عميقٍ وهادئ!

«لقد نهضَتْ ليلاً وكانتْ تبكي... لمْ أشأ إزعاجكِ لذا أحضرتُها إلى هنا!».

ابتسمتْ والدتي، إذنْ فهي راضيةٌ عن تصرُّفي، ومدّتْ يدها لتحمل رغد فاعترضتُ:

«أرجوكِ لا! أخشى أنْ تنهض، نامتْ بصعوبة!».

ونهضتُ عن سريري وأنا أتثاءب بكسل.

«أد الصلاة ثم تابع نومك في غرفة الضيوف. سأبقى معها».

ألقيتُ نظرةً على الصغيرة قبل ذهابي! يا للهدوء العجيب الذي يحيط بها الآن!

بعد ساعات، وعندما عدتُ إلى غرفتي، وجدتُ دانة تجلس على سريري بمفردها. ما أنْ رأتني حتى بادرتْ بقول:

«أنا أيضاً سأنام هنا الليلة!».

أصبح سريري الخاص حضانة أطفال!

فدانة، والبالغة مِنْ العمر خمس سنوات، أقامتْ الدنيا وأقعدتها مِنْ أجل المبيت على سريري (الجذاب) هذه الليلة، مثل رغد!

ليس هذا الأمر فقط، بل ابتدأتْ سلسلةٌ لانهائية مِنْ (مثل رغد)...

ففي كل شيء، تودُّ أنْ تحظى بما حظيتُ به رغد. وكلّما حملتْ أمي رغد على كتفها لسبب أو لآخر، مدّتْ دانة ذراعيها إليها مطالبةً إيّاها بحملها (مثل رغد).

أظن أنّ هذا المصطلح يسمى (الغيرة)!

يا لهؤلاء الأطفال!

كم هي عقولهم صغيرة وتافهة!

* * *

كانتْ المرّة الأولى ولكنها لمْ تكن الأخيرة... فبعد أيام، تكرّر نفس الموقف، وسمعتُ رغد تبكي فأحضرتها إلى غرفتي وأخذتُ ألاعبها.

هذه المرة استجابتْ لملاعبتي وهدأتْ، بل وضحكتْ!

وكم كانتْ ضحكتها جميلة! أسمعها للمرّة الأولى!

فرحتُ بهذا الإنجاز العظيم! فأنا جعلتُ رغد الباكية تضحك أخيراً!

والآن سأجعلها تتعلم مناداتي باسمي!

«أيتها الصغيرة الجميلة! هل تعرفين ما اسمي؟».

نظرتْ إلي باندهاش وكأنها لم تفهم لغتي. إنها تستطيع النطق بكلمات وجمل مبعثرة ولكن (وليد) ليس من ضمنها!

«أنا وليد!».

لا زالتْ تنظر إلى باستغراب!

«اسمي وليد! هيا قولي: وليــــد!».

لم يبدُ الأمر سهلاً! كيف يتعلّم الأطفال الأسماء؟

أشرتُ إلى عدة أشياء، كالعين والفم والأنف وغيرها، كلها أسماء تنطق بها وتعرفها. حتى حين أسألها:

«أين رغد؟».

فإنها تشير إلى نفسها.

«والآن يا صغيرتي، أين وليد؟».

أخذتُ أشير إلى نفسي وأكرّر:

«وليد! وليــــد! أنا وليــد! أنتِ رغد، وأنا وليد!

مَنْ أنتِ؟».

«رغد».

«عظيم! أنتِ رغد! أنا وليد! هيا قولي وليد! قولي أنتَ وليد!».

كانت تراقب حركات شفتيّ ولساني، إنها طفلة نبيهة على ما أظن.

وكنتُ مصراً جدا على جعلها تنطق باسمي!

«قولي: أنــتَ ولـيـد! ولـيــد...

قولي: وليد... أنتَ وليـــد!».

«أنتَ لـي!».

كانتْ هذه هي الكلمة التي نطقتْ بها رغد!

(أنتَ لي!).

للحظة، بقيت أتأملها باستغراب ودهشة وعجب!

فقد بترتْ اسمي الجميل مِنْ الطرفين وحوّلته إلى (لي) بدلا من (وليد)!

ابتسمتُ، وقلتُ مصحّحاً:

«أنتَ وليـــد!».

«أنتَ لـي».

كرّرتْ جملتها ببساطة وبراءة!

لم أتمالك نفسي، وانفجرتُ ضحكاً...

ولأنني ضحكتُ بشكلٍ غريب، فإنّ رغد أخذتْ تضحك هي الأخرى!

وكلما سمعتُ ضحكاتها الجميلة المسلّية ازدادتُ ضحكاتي!

سألتُها مرّة أخرى:

«مَنْ أنا؟».

«أنتَ لـي!».

يا لهذه الصغيرة المضحكة!

حملتها وأخذتُ أؤرجحها في الهواء بسرور...

منذ ذلك اليوم، بدأتْ الصغيرة تألفني، وأصبحتُ أكبر المسؤولين عن تهدئتها متى ما قررتْ زعزعة جدران المنزل بصوتها الحاد...

* * *

انتهتْ العطلة الصيفية وعدنا للمدارس.

كنتُ كلما عدتُ مِنْ المدرسة، استقبلتني الصغيرة رغد استقبالاً حاراً!

كانتْ تركض نحوي وتمدّ ذراعيها إليَّ، طالبةً أنْ أحملها وأؤرجحها في الهواء!

كان ذلك يفرحها كثيراً جداً، وتنطلق ضحكاتها الرائعة لتدغدغ جداران المنزل!

ومِنْ الناحية الأخرى، كانتْ دانة تطلق صرخات الاعتراض والغضب، ثم تهجم على رجلي بسيلٍ مِنْ الضربات آمرة إياي بأنْ أحملها (مثل رغد).

وشيئاً فشيئاً أصبح الوضع لا يطاق! وبعد أنْ كانتْ شديدة الفرح لقدوم الصغيرة إلينا أصبحتْ تلاحقها لتؤذيها بشكلٍ أو بآخر...

في أحد الأيام كنتُ مشغولاً بتأدية واجباتي المدرسية حين سمعتُ صوت بكاء رغد الشهير!

لم أعِرْ الأمر اهتماماً فقد أصبح عادياً ومتوقعاً كل لحظة.

تابعتُ عملي وتجاهلتُ البكاء الذي كان يزداد ويقترب!
انقطع الصوت، فتوقعتُ أنْ تكون أمّي قد اهتمتْ بالأمر.
لحظات، وإذا بي أسمع طرقات خفيفة على باب غرفتي.
«أدخُل!».
إلا أنّ أحداً لم يدخل...
انتظرتُ قليلا، ثم نهضتُ استطلع الأمر...
وكم كانت دهشتي حين رأيتُ رغد واقفةً خلف الباب!
لقد كانتْ الدموع تنهمر مِنْ عينيها بغزارة، ووجهها عابس وكئيب، وبكاؤها مكبوت في صدرها، تتنهد بألم... وبعض الخدوش الدامية ترتسم عشوائيا على وجهها البريء، وكدمة محمرة تنتصف جبينها الأبيض!
أحسستُ بقبضة مؤلمة في قلبي...
«رغد! ما الذي حدث؟؟؟».
انفجرتْ الصغيرة ببكاءٍ قوي، كانتْ تحبسه في صدرها.
مددتُ يدي ورفعتها إلى حضني وجعلتُ أطبطب عليها وأحاول تهدئتها.
هذه المرة كانتْ تبكي مِنْ الألم.
«أهي دانة؟ هل هي مَنْ هاجمكِ؟».
لا بد أنها دانة الشقية!
شعرتُ بالغضب، وتوجهتُ إلى حيث دانة، ورغد فوق ذراعي.
كانتْ دانة في غرفتها تجلس بين مجموعة مِنْ الألعاب.
عندما رأتني وقفتْ، ولم تأتِ إلي مطالبة بحملها (مثل رغد) كالعادة، بل ظلتْ واقفة تنظر إلى الغضب المشتعل على وجهي.
«دانة أأنتِ مَنْ ضرب رغد الصغيرة؟».
لم تجب، فعاودتُ السؤال بصوت أعلى:
«ألستِ مَنْ ضرب رغد؟ أيتها الشقية؟».
«إنها تأخذ ألعابي! لا أريدها أنْ تلمس ألعابي».
اقتربتُ مِنْ دانة وأمسكتُ بيدها وضربتها ضربةً خفيفة على راحتها وأنا أقول:
«إياكِ أنْ تكرّري ذلك أيتها الشقية وإلا ألقيتُ بألعابكِ مِنْ النافذة».
لم تكن الضربة مؤلمة غير أنّ دانة بدأتْ بالبكاء!
أما رغد فقد توقفتْ عنه، بينما ظلّتْ آخر دمعتين معلقتين على خديها المشوهين بالخدوش.
نظرتُ إليها ومسحتُ دمعتيها.
ما كان مِنْ الصغيرة إلاّ أنْ طبعتْ قبلة مليئة باللعاب على خدي امتناناً!

ابتسمتُ، لقد كانتْ المرّة الأولى التي تقبّلني فيها هذه المخلوقة!

ألا أنها لعلمكم... لم تكن الأخيرة...!

* * *

توالتْ الأيام ونحن على نفس هذه الحال... غير أنَّ رغد مع مرور الوقت أصبحتْ غايةً في المرح...

أصبحتْ بهجةً تملأ المنزل... وتعلّق الجميع بها وأحبّوها كثيراً...

إنها طفلةٌ يتمنّى أيُّ شخصٍ أنْ تعيش في منزله...

ولأنَّ الغيرة كبرتْ بين رغد ودانة مع كبرهما، فإنّه كان لا بد مِنْ فصل الفتاتين في غرفتين بعيداً عن بعضهما، وكان عليّ نقل ذلك السرير وللمرَّة الثالثة إلى مكانٍ آخر...

وهذا المكان كان... غرفة وليد!

ظلّتْ رغد تنام في غرفتي لحين إشعار آخر.

في الواقع لمْ يزعجني الأمر، فهي لمْ تعدْ تنهض مفزوعةً وتصرخ في الليل إلا نادراً...

كنتُ أقرأ إحدى المجلات وأنا مضطجعٌ على سريري، وكانتْ الساعة العاشرة ليلاً، وكانتْ رغد تغط في نوم هادئ.

ويبدو أنها رأتْ حلماً مزعجاً لأنها نهضتْ فجأة وأخذتْ تبكي بفزع...

أسرعتُ إليها وانتشلتُها مِنْ على السرير وأخذتُ أهدّئ مِنْ روعها. كان بكاؤها غريباً... وحزيناً...

«اهدئي يا صغيرتي... هيا عودي للنوم!».

وبين أناتها وبكاؤها قالتْ:

«ماما».

نظرتُ إلى الصغيرة وشعرتُ بالحزن... ربما تكون قد رأتْ والدتها في الحلم.

«أتريدين الـ ماما أيتها الصغيرة؟».

«ماما».

ضممتُها إلى صدري بعطف، فهذه اليتيمة فقدتْ أغلى مَنْ في الكون قبل أنْ تفهم معناهما...

جعلتُ أطبطب عليها، وأهزُّها في حجري وأغنّي لها إلى أنْ استسلمتْ للنوم.

تأمّلتُ وجهها البريء الجميل... وشعرتُ بالأسى مِنْ أجلها. تمنيتُ لحظتها لو كان باستطاعتي أنْ أتحوّل إلى أمّها أو أبيها لأعوّضها عما فقدتْ.

صممتُ في قرارة نفسي أنْ أرعى هذه اليتيمة وأفعل كل ما يمكن مِنْ أجلها...

وقد فعلتُ الكثير...

والأيام... ستثبتُ ذلك...

* * *

ذهبنا ذات يوم إلى الشاطئ في رحلةٍ ممتعة، وذهب معنا صديقي الحميم (سيف الحازم)، وهو زميلي في الدراسة وكان جارنا قبل انتقالنا لبيتنا الحالي. ولكوننا أنا وسيف وأبي وسامر الصغير (سبع سنوات) نجيد السباحة، فقد قضينا معظم الوقت وسط الماء.

أما والدتي، فقد لاقتْ وقتاً شاقاً ومزعجاً مع دانة ورغد!

كانتْ رغد تلهو وتلعب بالرمال المبللة ببراءة، وتلوّح باتجاهنا، أما دانة فكانتْ لا تفتأ تضايقها، تضربها أو ترميها بالرمال!

«وليد، تعال إلى هنا».

نادتني والدتي، فيما كنتُ أسبح بمرح.

«نعم أمّي؟ ماذا تريدين؟».

واقتربتُ منها شيئاً فشيئاً. قالتْ:

«خُذْ رغد لبعض الوقت!».

«ماذا؟؟؟ لا أُمّي!».

لمْ أكنْ أريد أنْ أقطع متعتي في السباحة مِنْ أجل رعاية هذه المخلوقة! اعترضتُ:

«أريد أنْ أسبح!».

«هيا يا وليد! لبعض الوقت! لأرتاح دقائق...».

أذعنتُ للأمر كارهاً... وتوجّهتُ للصغيرة وهي تعبثُ بالرمال، وناديتُها:

«هيا يا رغد! تعالي إليَّ!».

ابتهجتْ كثيراً وأسرعتْ نحوي وعانقتْ رجلي المبللة بذراعيها العالقة بهما حبيبات الرمل الرطب، وبكل سرور!

جلستُ إلى جانبها وأخذتُ أحفر حفرة معها. كانتْ تبدو غايةً في السعادة أما أنا فكنتُ متضايقاً لحرماني مِنْ السباحة!

وكانتْ عيناي لا تفتآن تراقبان أبي وسامر وسيف وهم يسبحون بسعادة، وسيف يلوِّح إليَّ ويناديني.

اقتربتُ أكثر مِنْ الساحل، ورغد إلى جانبي، وجعلتُها تجلس عند طرفه وتبلِّل نفسها بمياه البحر المالحة الباردة. رغد تكاد تطير مِنْ السعادة، تلعب هنا وهناك، ربما تكون المرَّة الأولى بحياتها التي تقابل فيها البحر!

أثناء لعبها تعثرتْ ووقعتْ في الماء على وجهها في حين برهة غفلة منّي...

«أوه كلا!».

أسرعتُ إليها وانتشلتُها مِنْ الماء، كانت قد شربتْ كميه منه، وبدأتْ بالسعال والبكاء معاً. غضبتْ مني والدتي لأنني لمْ أراقبها جيداً.

«وليد كيف تركتَها تغرق؟».

«أمّي! إنها لمْ تغرق، وقعتْ لثوان لا أكثر».

«ماذا لو حدث شيءٌ لا سمح الله؟ يجب أنْ تنتبه أكثر... ابتعد عن الساحل».

غضبتُ، فأنا جئتُ إلى هنا كي استمتع بالسباحة مع صديقي، لا كي أراقب الأطفال!

«أمي اهتمّي بها أنتِ وأنا سأعود للبحر».

وحملتُها إلى أمّي ووضعتُها في حجرها، واستدرتُ مولياً. في نفس اللحظة صرختْ دانة معترضةً ودفعتْ برغد جانباً، قاصدةً إبعادها عن حضن أمي. رغد، والتي لمْ تكدْ تتوقّف عن البكاء عاودته مِنْ جديد.

«أرأيتَ؟».

استدرتُ إلى أمّي، فوجدتُ الطفلة البكّاءة تمدُّ يديها إليّ... كأنها تستنجد بي وتطلب مني أخذها بعيداً. عدتُ فحملتُها على ذراعي فتوقفتْ عن البكاء، وأطلقتْ مباشرةً ضحكةً جميلة!

يا لخبث هؤلاء الأطفال!

نظرتُ إلى أمي، فابتسمتْ هي الأخرى وقالتْ:

«إنها تحبُّك أنتَ يا وليد!».

وقضيتُ بقيّة الوقت جليساً وحارساً لهذه الطفلة!

سيف أنهى أحد أشواط سباحته وقدم إليَّ. كنتُ حينها جالساً على رمال الشاطئ قرب رغد.

«ما بكَ وليد؟ الموج ممتعٌ جداً!».

قال مستغرباً مِنْ مكوثي عند الشاطئ، فأومأتُ إلى رغد بعيني، وكانتْ تعبث بالماء والرمل وقلتُ متحسّراً:

«هذه في عنقي!».

وطوّقتُ عنقي بيميني إشارةً إلى كونها مثل القيد حول عنقي... فإذا بالصغيرة تقف وتمدُّ يديها المشبّعتين بالرمل إلى عنقي وتطوّقني وهي تضحك وتقول:

«عنقي!».

انفجر سيف ضاحكاً ولمْ يكنْ أمامي إلا أنْ أطوّقها بذراعيَّ وأضحك معه.

«رغد صغيرتي... هل تبقين مع سيف لحظة؟ سأسبح إلى سامر وأعود. هل لا بقيتِ معه؟».

قلتُ مخاطباً الصغيرة برجاء، فتنظر إلى صديقي، فيرمقني بنظرة استنكار، فأضحك وأقول:

«أرجوكَ سيف! جولة واحدة قبل أنْ تغرب الشمس! هل لا انتبهتَ عليها لدقائق؟؟».

وألتفت إلى رغد وأقول:

«هيا... اذهبي إليه صغيرتي».

فتبتسم وتتركني وتذهب إلى سيف بمرحٍ طفولي وتجلس بجواره. أسرعتُ إلى البحر وأنا ألوّح بيدي لسيف وأقول ضاحكاً:

«سأعود سريعاً. انتبه على رغد أمانة في عنقكَ!».

وألمح الصغيرة تقف وتطوّق عنق سيف بنفس الطريقة التي طوّقتْ بها عنقي وتقول: «عنقي!».

فتنطلق ضحكاتنا إلى السماء...

قبيل عودتنا مِنْ الرحلة، أخذتْ أمي تنظف الأغراض، والأطفال.

«وليد، نظّف الصغيرة وألبِسها هذه الملابس».

تفاجأتُ مِنْ هذا الطلب، فأنا لم أعتد على تنظيف الأطفال أو إلباسهم الملابس! ربما أكون قد سمعتُ شيئاً خطأً!

«ماذا أمي؟؟؟».

«هيا يا وليد، نظّف الرمال عنها وألبسها هذه، فيما اهتم أنا بدانة وبقية الأشياء».

كنتُ أظنُّ أنني أصبحتُ رجلاً، في نظر أمّي على الأقل... ولكن الظاهر أنني أصبحتُ (أماً)!

نعم... لقد كنتُ أماً لهذه المخلوقة...

فأنا مَنْ كان يطعمها في كثير مِنْ الأحيان، وينيمها في سريره، ويغني لها، ويلعب معها، ويتحمل صراخها، ويستبدل لها ملابسها في أحيان أخرى!

هكذا، مرت الأيام...

والشهور...

والسنين...

وكبرنا... شيئاً فشيئاً...

وأنا بمثابة (الأم) أو المربية الخاصة بالمدللة رغد، والتي دون أنْ أدرك... أو يدرك أحد... أصبحتْ تعني لي...

أكثر مِنْ مجرّد مخلوقة مزعجة اقتحمتْ حياتي... ذات يوم...

الحلقة الثانية

مهووسٌ بكِ

- وليد -

في كلِّ ليلةٍ أقرأُ قصّةً قصيرةً لصغيرتي رغد قبل النوم. وهذه هي آخر ليلةٍ تباتها رغد في غرفتي بعد ثلاث سنواتٍ مِنْ قدومها للمنزل. ثلاث سنوات مِنْ الرعاية والدلال والمحبة أوليتُها جميعاً لصغيرتي، كأي أم أو أب!

إنها الآن في الخامسة وقد ألحقناها بروضة أطفال تعليميَّة خاصَّة، وكانتْ في قمَّة السعادة!

في كل يومٍ عندما تعود تخبرني بعشرات الأشياء التي شاهدتها أو تعلَّمتْها في الروضة. وفي كل يوم بعدَ تناولها الغذاء أتولَّى أنا تعليمها دروسها البسيطة، وقد كانتْ تلميذةً نجيبة!

وبعد الانتهاء مِنْ الدروس تأخذ صغيرتي دفتر التلوين الخاص بها وعلبة الألوان، وتجلس على سريرها وتبدأ بالتلوين بهدوء.

تقريباً بهدوء!

«وليد لوِّن معي!».

لقد كنتُ شارداً وأنا أتأمّلها وأتخيَّل أنَّني ومنذ الغد لنْ أجد سريرها في تلك الزاوية وأستمع إلى ثرثرتها أو (هذيانها) وتحدُّثها إلى نفسها قبل النوم!

«وليـــد لوِّن معي!».

هذه المرّة انتبهت إلى صوتها الحاد، نظرتُ إليها وابتسمتُ! لقد كنتُ كثيراً ما ألوِّن معها في هذا الدفتر أو غيره! وهي تحلِّق سعادة حينما تراقبني وأنا ألون!

أطفال... فقط أطفال!

«حسناً».

قلتُ ذلك وهممتُ بالنهوض مِنْ على سريري والتوجُّه إليها، ولكنها وبسرعة قفزتْ هي ودفترها وعلبة ألوانها وهبطتْ فوق سريري في ثانيتين!

بدأتْ كالعادة تختار لي الصفحة التي تريد منِّي تلوينها وقد كانتْ رسمةً لفتاةٍ صغيرة تحمل حقيبة المدرسة!

«صغيرتي... لِمَ لا تلوِّنين هذه؟ فهي تشبهكِ!».

قلتُ لها ذلك، فابتسمتْ وأخذتْ تقلِّب دفترها بحثاً عن شيءٍ ما، ثمَّ قالتْ:

«لا يوجد ولد يشبهكَ! سأرسمكَ!».

وأمسكتْ بالقلم وأخذتْ (ترسمني) على إحدى الصفحات... وكمْ كانتْ الرسمة مضحكة، ولاحظتُ أنها رسمتْ خطاً طويلاً أسفل الأنف!

«ما هذا؟؟».

«شــــارب!».

«ماذا!؟ ولكن أنا لا شارب لديَّ!».

«عندما تكبر مثل أبي سيكون لديكَ شاربٌ طويــل هكذا لأنكَ طويــل!».

ضحكتُ كثيراً كما ضحكتْ هي الأخرى!

إنَّ طولي قد أزداد بشكلٍ ملحوظٍ في الآونة الأخيرة، ويبدو أنني سأصبح أطول مِنْ والدي!

قمنا بعد ذلك بتلوين الصورتين (رغد الصغيرة، ووليد ذي الشارب الطويل)!

مَنْ كان منا يتوقَّع... أنَّ صورة (وليد ذا الشارب الطويل) ستعيش... كل ذلك العمر...؟؟!!

عندما حلَّ الظلام، قمتُ بنقل سرير رغد وأشيائها الأخرى إلى غرفتها الجديدة.

وكانتْ صغيرة وملاصقة لغرفتي.

الصغيرة كانتْ مسرورةً للغاية، فقد أصبح لها غرفتها الخاصة مثل دانة - والتي استقلتْ بغرفة منفصلة عن سامر - ولم يعد بمقدور دانة أنْ (تعيّرها) كما تفعل دائماً.

العلاقة بين هاتين الفتاتين كانتْ سيئةً!

بالنسبة لي، فقد كنتُ حزيناً بهذا الحدث... فأنا أرغب في أنْ تبقى الصغيرة معي وتحت رعايتي أكثر مِنْ ذلك... إنها تعني لي الكثير...

انتهينا أنا وأمي مِنْ ترتيب الأشياء في الغرفة، ورغد تساعدنا. قالتْ أمِّي بعد ذلك:

«والآن يا رغد... ها قد أصبح لديكِ غرفةٌ خاصَّة! اعتني بها جيِّداً!».

«حسناً ماما».

وجاء صوت دانة مِنْ مكانٍ ما قائلةً:

«لكن غرفتي هي الأجمل. هذه صغيرةٌ ووحيدةٌ مثلكِ».

جميعنا استدرنا نحو دانة، وبعين الغضب. فهي لا تترك فرصةً لمضايقة رغد إلا واستغلَّتها.

«لكنني لستُ وحيدةً، ولنْ أشعر بالخوف لأنَّ وليد قريبٌ منِّي».

«لكن وليد ليس أمَّكِ ولا أباك ولا أخاك! إذنْ أنتِ وحيدة».

هذه المرّة والدتي زجرتْ دانة بعنفٍ وأمرتها بالانصراف. لقد كانتْ لدي رغبةٌ في صفع هذه الفتاة الخبيثة لكنني لمْ أرِدْ أنْ أزيد الأمر تعقيداً.

إنني أدرك أنَّ الأمور تزداد سوءاً بين دانة ورغد، ولا أدري إنْ كان الوضع سيتغيَّر حالما تكبران...

اعتقدتُ أنَّ الأمر قد انتهى في وقته، إلا أنّه لمْ ينته...

بينما كنتُ غاطّاً في نومي، سمعتُ صوتاً أيقظني مِنْ النوم مفزوعاً...

عندما فتحتُ عيني رأيتُ خيال شخصٍ ما يقف إلى جانبي... كان الظلام شديداً وكنتُ بين النوم والصحوة... استيقظتُ فجأةً واستطاعتْ طبلة أذني التقاط الصوت وتمييزه...

كانتْ رغد.

نهضتُ، وأنرتُ المصباح المجاور، ومِنْ خلال إنارته الخفيفة لمحتُ ومض دموع تسيل على خد الصغيرة...

مددتُ يدي وتحسستُ وجهها الصغير فبللتني الدموع...

«رغد! ما بكِ صغيرتي؟».

قفزتْ رغد إلى حضني وأطلقتْ صرخات بكاءٍ قويّة وحزينة... إنني لمْ أرَ دموع غاليتي هذه منذ أمدٍ بعيد... فكيف لي برؤيتها بهذه الحال؟؟

«رغد عزيزتي... أخبريني ماذا حدث؟ هل رأيتِ حلماً مُزعجاً؟؟».

اندفعتْ وهي تقول كلماتها هذه بشكلٍ مبعثرٍ ومضطرب... وبمرارةٍ وحزنٍ عميقين:

«لماذا ليس لديَّ أمٌّ؟!...

لماذا ماتَ أبي؟!...

هل الله لا يحبُّني لذلك لمْ يعطِني أماً ولا أباً؟!...

الأطفالُ في الروضة كلُّهم لديهم أمٌّ وأب...

هل صحيح أنَّ هذا ليس بيتي؟

أين بيتي إذن؟ فأنا أريد أنْ يصبح لديَّ غرفةٌ كبيرةٌ وجميلةٌ مثل غرفة دانة».

طوّقتُ الصغيرة بذراعيَّ وجعلتُ أمسح رأسها ودموعها وأهدّئ مِنْ حالتها. لمْ أكنْ أتخيَّل أنَّ مثل هذه التساؤلات تدور في رأس طفلةٍ صغيرةٍ في الخامسة مِنْ العمر...

بل إنها لمْ تذكر لي شيئاً كهذا مِنْ قبل رغم ثرثرتها التي لا تكاد تنتهي حين تبدأ...

«صغيرتي رغد! ما هذا الكلام! مَنْ قال لكِ ذلك؟».

«دانة دائماً تقول هذا... هي لا تحبني... أنا وحيدة لذلك لا أحدَ يحبُّني».

شعرتُ بالغيظ مِنْ أختي الشقيّة، في الغد سوف أوبخها بعنف. قلتُ محاولاً تهدئة الصغيرة المهمومة:

«رغد يا حلوتي... دعكِ مِنْ دانة فهي لا تعرف ما تقول، سوف أوقفها عند حدها... أبي وأُمّي هما أبوك وأُمُّك».

قاطعتْني:

«غير صحيح! لا أمَّ ولا أبَ لدي، وأنا يتيمةٌ ولا أحدَ يحبني».

«ماذا عنّي أنا وليد؟ ألا أحبُّكِ؟ اعتبريني أمّكِ... اعتبريني أباكِ وكل شيء».

توقّفتْ رغد عن البكاء ونظرتْ إلي قليلاً ثمَّ قالتْ:

«ولكن ليس لديك شارب!».

ضحكتُ! فأفكار هذه الصغيرة غاية في البساطة والعفوية! أما هي فقد ابتسمتْ

ومسحتْ دموعها...

قلتُ:

«حين أكبر قليلاً بعد فسيصبح لدي شاربان طويلان كما رسمتِ! أ نسيتِ!؟».

ابتسمتْ أكثر وقالتْ:

«وهل ستشتري لي بيتاً كبيراً فيه غرفة كبيرة وجميلة تخصُّني؟».

ضحكتُ مجدداً... وقلتُ:

«نعم بالتأكيد! وتصبحين أنتِ سيِّدة المنزل!».

الصغيرة ابتسمتْ برضا وعانقتْني بسرور وطبعتْ قبلة على خدِّي وقالتْ:

«أنا أحبّكَ كثيراً يا وليد! وحين أكبر سآخذكَ معي إلى بيتي الجديد!».

* * *

اللعب هو هواية الأطفال المفضَّلة على الإطلاق، ولأنني وليد (الكبير) ولأنَّ دانة هي (الطرف المعادي) فإنَّ رغد لم تجد مَنْ تلعب معه في بيتنا هذا غير سامر!

كثيراً ما كانا يقضيان الساعات الطوال باللهو معا، ربما كان هذا متنفّساً جيداً للصغيرة.

عندما كانتْ رغد تسكن غرفتي، كانتْ كلّما بقيتُ في الغرفة لسببٍ أو لآخر، أتتْ هي الأخرى وعكفتْ على دفتر تلوينها بسكون...

كنتُ أستذكر دروسي وألقي عليها نظرة من حين لآخر... وكان ذلك يسعدني...

بعد أن استقلتْ في غرفتها، لم أعد أراها معي... كانتْ كثيرا ما تقضي الوقت الآن مع سامر في اللعب!

في أحد الأيام، عدتُ مِنْ المدرسة، وحين دخلتُ إلى البيت وجدتُ الصغيرة تشاهد التلفاز...

«رغد! لقد عدتُ!».

وفتحتُ ذراعي، فهي معتادةٌ أنْ تأتي لحضني كلَّما عدتُ مِنْ المدرسة، كأنها تعبِّر عن شوقها وافتقادها لي...

ابتسمتْ الصغيرة ثمَّ قفزتْ قاصدة الحضور إليَّ، وفي نفس اللحظة دخل شقيقي سامر إلى نفس الغرفة وهو يقول:

«أصلحتُه يا رغد! هيَّا بنا».

وبشكلٍ فاجأني ولمْ أتوقَّعه، استدارتْ إلى سامر وركضتْ نحوه، وغادرا الغرفة سوياً...

ذراعاي كانتا لا تزالان معلقتين في الهواء... بانتظار الصغيرة...

نظرتُ مِنْ حولي أتأكّد مِنْ أنَّ أحداً لمْ يرَ هذا... قد يكون موقِفاً عادياً لكنني شعرتُ بغيظٍ وخيبةٍ لحظتها... ما الذي يشغل رغد عني؟؟

لحقتُ بالاثنين، فرأيتُهما في الفناء الخارجي يركبان درَّاجة سامر التي يبدو أنَّ خللاً كان قد أصابها مؤخّراً وأصلحه سامر قبل قليل...

كانتْ رغد في منتهى السرور وهي تجلس على مقعد خلفي، وسامر ينطلق بدراجته الهوائية مسرعاً...

ذهبتُ إلى غرفتي واستلقيتُ على سريري وأخذتُ أفكِّر...

مؤخراً، ظهرتْ أمورٌ عدّة تشغل الصغيرة... كالروضة وكتبها التعليمية... ودفاتر تلوينها الكثيرة... واللعب مع سامر!

طردتُ الأفكار التي استتفهتُها فوراً مِنْ رأسي وانصرفتُ إلى أمورٍ أخرى...

إنها السنة الأخيرة لي في المدرسة الإعدادية ووالدتي تعمَّدتْ إبعاد رغد عني قدر الإمكان لأتفرَّغ لدراستي.

رغد... رغد... رغد!

لماذا لا أستطيع طردها الآن مِنْ رأسي؟؟ إنها طفلةٌ مزعجةٌ لا تحبّ غير اللعب، والعناية بها كانتْ مسؤوليّةً كبيرةً ومضجرةً أُلقيَتْ على عاتقي وها أنا حرٌ أخيراً!

في الواقع، ظلّ التفكير بهذه الصغيرة يشغلني طوال ذلك اليوم... لمْ أستطعْ التركيز في الدراسة، وقبيل غروب الشمس قرّرتُ القيام بجولة في الشارع على الأقدام، علّني أطرد رغد مِنْ دماغي...

الجو كان لطيفاً ونسماته عليلة وقد استمتعتُ بنزهتي الصغيرة...

التقيتُ في طريقي بشخصٍ أبغضه كثيراً! إنّه عمّار...

عمّار هذا هو الابن الوحيد لأحد الأثرياء؛ عاطف البحري، وهو زميلي في المدرسة، فتى بغيض، مستهتِر سيئ الخلق، معروفٌ ومشهورٌ بين الجميع بانحرافه وفساده... وكان هو آخر شيءٍ أتمنّى أنْ ألتقي به وأنا في مزاجي العكر هذا اليوم!

كان يقود دراجته النارية التي أهداها والده إليه مؤخراً، والتي يتباهى بها أمام الجميع...

أوقف الدراجة وخاطبني:

«مَنْ؟؟ وليد؟ الطالب المثالي يتسكّع في الشوارع عِوضاً عن الدراسة!؟ لسوف أفضحكَ غداً في المدرسة».

قال لي هذا وأطلق ضحكةً قويّةً وبغيضة، أوليتُه ظهري وابتعدتُ متجاهلاً إياه.

قال:

«انتظر! لِمَ لا تأتِ معي لنلهو؟ سأصطحبكَ في مغامرةٍ مذهلة! اركبْ... وأعدكَ بأنْ تنجح رغم أنف الجميع! مثلي».

استدرتُ إلى عمّار وقلتُ بغضب:

«حلّ عني! لا يشرفني التحدُّث إلى ولا مرافقة شخصٍ منحرفٍ وفاسدٍ مثلكَ».

لا أدري ما الذي دفعني لقول ذلك، فأنا لمْ أعتد توجيه مثل هذا الكلام لأيٍ كان... ولكني كنت مستاءً وأفلت لساني...

عمّار شعر بغيظ، ونزل مِنْ على دراجته وسدّد نحوي لكمةً قويّة موجعة... وتعاركنا!

منذ ذلك اليوم، وأنا وهو في خصامٍ مستمر، هو لا يفتأ يستفزّني كلّما وجد الفرصة السانحة لذلك، وأنا أتجاهله حينا وأتعارك معه حيناً آخر... والأمر بيننا انتهى أسوأ نهاية... كما سترون...

في طريق عودتي للبيت، مررتُ بإحدى المكتبات، ووجدتُ نفسي أدخلها وأفتّش بين دفاتر تلوين الأطفال، وأشتري مجموعةً جديدة... مِنْ أجل رغد.

إنني سأعترف، بأنني فشلتُ في إزاحتها بعيداً عن تفكيري ذلك اليوم... لقد كانتْ المرّة الأولى التي تترك فيها ذراعيَّ معلقتين في الهواء... وتذهب بعيداً...

حين وصلتُ إلى البيت، كانتْ رغد في حديقة المنزل، مع سامر ودانة، كانوا يراقبون العصفورين الحبيبين في القفص، واللذين أحضرهما والدي قبل أيام...

كانتْ ضحكاتها تملأ الأجواء...

كم هي رائعة هذه الطفلة حين تضحك!

وكم هي مزعجة حين تبكي!

اعتقدتُ أنني لنْ أثير انتباهها فيما هي سعيدة مع شقيقيَّ والعصفورين. هممتُ بالدخول إلى داخل المنزل وسرتُ نحو الباب وأنا ممسك بالكيس الصغير الذي يحوي دفاتر التلوين...

«وليـــد!».

وصلني صوتها الحاد فاستدرتُ للخلف، فإذا بها قادمة تركض نحوي فاتحة ذراعيها ومطلقة ضحكة كبيرة...

فتحتُ ذراعي واستقبلتها في حضني وحملتُها بفرح ودرتُ بها حول نفسي بضع دورات...

«صغيرتي... جلبتُ لكِ شيئاً تحبّينه!».

نظرتْ إلى الكيس ثمَّ انتزعتْه مِنْ يدي، وتفقّدتْ ما بداخله.

أطلقتْ هتاف الفرح وطوّقتْ عنقي بقوة كادتْ تخنقني! بعدها قالتْ:

«لوِّن معي!».

ابتسمتُ برضا بل بسعادة وقلتُ:

«أمركِ سيدتي!».

اعتقد... بل أنا موقنٌ جداً... بأنني أصبحتُ مهووساً بهذه الطفلة بشكل لمْ أكنْ لأتصوّره أو أعمل له حساباً...

وسأُجنُّ... بالتأكيد... فيما لو حدث لها مكروهاً... لا قدَّر الله...

الحلقة الثالثة

أمنية رغد

- وليد -

وتوالتْ الأيام...

أشياءٌ ثلاثة تشغل تفكيري وتقلقني كثيراً في الوقت الراهن:

دراستي وامتحاناتي، رغد الصغيرة، والأوضاع السياسية المتدهورة في بلدتنا والتي تنذر بحرب موشكة!

إنه يوم الأربعاء، لمْ أذهبْ للمدرسة لأنَّ والدتي كانتْ متوعِّكة في الصباح وآثرتُ البقاء إلى جانبها. إنها بحالة جيدة الآن فلا تقلقوا.

كنتُ أجلس على الكرسي الخشبي خلف مكتبي الصغير، ومجموعة مِنْ كتبي ودفاتري مفتوحة ومبعثرة فوق المكتب.

لقد قضيتُ ساعات طويلة وأنا أدرس هذا اليوم، إلا أنَّ الأمور الثلاثة لمْ تبرح رأسي.

الدراسة، أمرٌ بيدي وأستطيع السيطرة عليه، فها أنا أدرس بجد.

أوضاع البلد السياسية هي أمرٌ ليس بيدي ولا يمكنني أنا فعل أي شيء حياله!

أما رغد الصغيرة...

فهي بين يدي... ولا أملك السيطرة على أموري معها!

وآه مِنْ رغد!

إنها في الصف التمهيدي الآن، تعلَّمتْ الكثير وساعدتُها كثيراً... وأنا لا أزال على هوسي بها ولهفتي عليها... بل إنَّ تعلُّقي بها آخذٌ بالازدياد يوماً بعد يوم...

يبدو أنَّ التفكير العميق في (بعض الأشياء) يجعلها تقفز فجأةً مِنْ رأسك وتظهر أمام عينيك!

هذا ما حصل عندما طُرق الباب ثمَّ فُتح بسرعة قبل أنْ أُعطى الفرصة المفروضة للرد على الطارق والسماح له بالدخول مِنْ عدمه!

«وليـــد وليـــد وليـــد!».

قفزتْ رغد فجأةً كالطائر مِنْ مدخل الغرفة إلى أمام مكتبي مباشرةً وهي تناديني وتتحدّث بسرعة فيما تمدُّ بيدها التي تحمل أحد كتبها التعليمية نحوي!

«وليد علَّمتنا المعلِّمة كيف نصنع صندوق الأماني. هيَّا ساعدني لأصنع واحداً كبيراً يكفي لكل أمنياتي بسرعة!».

إنني لمْ أستوعبْ شيئاً فقد كانتْ هذه الفتاة في رأسي قبل ثوانٍ وكانتْ تلعب مع سامر

على ما أذكر!

نظرتُ إليها وابتسمتُ وأنا في عجبٍ مِنْ أمرها!

«رويدكِ صغيرتي! مهلاً مهلاً! متى عدتِ؟».

أجابتْني على عجلٍ وهي تمدّ يدها وتمسِك بيدي تريد منّي النهوض:

«عدتُ الآن، أنظر وليد الطريقة في هذه الصفحة هيا اصنع لي صندوقاً كبيراً!».

تناولتُ الكتاب مِنْ يدها وألقيتُ نظرة!

إنه درسٌ يعلّم الأطفال كيفية صنع مجسّم أسطواني الشكل مِنْ الورق!

وصغيرتي هذه جاءتني مندفعةً كالصاروخ تريد منّي صنع واحد!

تأمّلتُها وابتسمتُ! وبما إنني أعرفها جيداً فأنا متأكّد مِنْ أنها سوف لنْ تهدأ حتى أنفّذ أوامرها!

قلتُ:

«حسناً سيّدتي الصغيرة! سأبحث بين أشيائي عنْ ورق قوي يصلح لهذا!».

بعد نصف ساعة، كان أمامنا أسطوانةٌ جميلةٌ مزيّنة بالطوابع الملصقة، ذات فتحة علويّة تسمح للنقود المعدنية، والنقود الورقية، والأماني الورقية كذلك بالدخول!

رغد طارتْ فرحاً بهذا الإنجاز العظيم! وأخذتْ العلبة الأسطوانية وجرتْ مسرعةً نحو الباب!

«إلى أين؟؟».

سألتُها، فأجابتني دون أنْ تتوقّف أو تلتفت إليَّ:

«سأريها سامر!».

وانصرفتْ...

اللحظات السعيدة التي قضيتُها قبل قليل مع الطفلة ونحن نصنع العلبة، ونلصق الطوابع، ونضحك بمرح قد انتهتْ...

أي نوعٍ مِنْ الجنون هذا الذي يجعلني أعتقد بِـ وأتصرّف على أساس أنّ هذه الطفلة هي شيءٌ يخصني؟؟

كم أنا سخيف!

انتظرتُ عودتها، لكنها لمْ تعد... لا بد أنها لهتْ مع سامر ونسيَتني!

نسِيتْ حتى أنْ تقول لي (شكراً)! أو أنْ تغلق الباب!

غير مهم! سأطرد هذا التفكير المزعج عن مخيلتي وأتفرغ لكتبي... أو حتى... لقضايا البلد السياسة فهذا أكثر جدوى!

بعد ساعة، عادتْ رغد...

كان الصندوق لا يزال في يدها، وفي يدها الأخرى قلم.

اقتربتْ منّي وقالتْ:

«وليد... أكتب كلمة [صندوق الأماني] على الصندوق!».

تناولتُ الصندوق والقلم وكتبتُ الكلمة، وأعدتهما إليها دون أي تعليق أو حتى ابتسامة.

هل انتهينا؟

صرفتُ نظري عنها إلى الكتاب الماثل أمامي فوق المكتب، متوقعاً أنْ تنصرف... لكن... يجب أنْ تنتبه إلى أنها لمْ تشكرني!

«وليد...».

رفعتُ بصري إليها ببطء، كانتْ تبتسم، وقد تورّد خداها! لا بد أنها أدركتْ أنها لمْ تشكرني!

قلتُ بنبرة جافّة إلى حدٍ ما:

«ماذا الآن؟».

«هل لا أعطيتني ورقةً صغيرة؟».

يبدو أنّ فكرة شكري لا تخطر ببالها أصلاً!

تناولتُ مفكرتي الصغيرة الموضوعة على المكتب، وانتزعتُ منها ورقة بيضاء، وسلّمتُها إلى رغد.

أخذتها الصغيرة وقالتْ بسرعة:

«شكراً!».

ثمّ ابتعدتْ...

ظننتُها ستخرج مِنْ الغرفة إلا أنها توجّهتْ نحو سريري، جلستْ فوقه، وعلى المنضدة المجاورة وضعتْ (صندوق الأماني) والورقة... وهمّتْ بالكتابة!

أجبرتُ عينيّ على العودة إلى الكتاب المهجور... لكن تفكيري ظلّ مربوطاً عند تلك المنضدة!

«وليــد...».

مرّة أخرى نادتني فأطلقتُ سراح نظري إليها...

«نعم؟».

سألتْني:

«كيف أكتب كلمة (عندما)؟».

نظرتُ مِنْ حولي باحثاً عن (السبورة الصغيرة) التي أعلّم رغد كيفية كتابة الكلمات عليها، فوجدتُها موضوعةً على أحد أرفف المكتبة، فهممتُ بالنهوض لإحضارها إلا أنّ رغد قفزتْ بسرعة وأحضرتها إلي قبل أنْ أتحرّك!

أخذتُها منها، وكتبتُ بالقلم الخاص كلمة (عندما).

تأمّلتْها رغد ثمّ عادتْ إلى المنضدة. بعد قليل، رفعتْ رأسها إليّ...

«وليــد!».

«نعم صغيرتي؟».

«كيف أكتب كلمة (أكبُر)؟».

كتبتُ الكلمة بخط كبير على السبورة، ورفعتُه لتنظر إليه.
بريهة أخرى ثمّ عادتْ تسألني:
«وليـــد!».
ابتسمتُ! فطريقتها في نطق اسمي ومناداتي بين لحظة وأخرى تدفع أياً كان للابتسام!
«ماذا أميرتي؟».
«كيف أكتب كلمة (سوف)؟؟».
كتبتُ الكلمة وأريتُها إيّاها، فراحتْ تنسخها على الورقة. صغيرتي كانتْ مؤخراً فقط قد بدأتْ بتعلُّم كتابة الكلمات بحروف متشابكة، ولا تعرف منها إلا القليل...
بقيتُ أراقبها وأتأملها بسرورٍ وعطف!
كم هي بريئة وبسيطة وعفوية!
يا لها مِنْ طفلة!
رفعتْ رأسها فوجدتْني أنظر إليها فسألتْ مباشرة:
«كيف أكتب كلمة (أتزوّج)؟».
فجأة، أفقتُ مِنْ نشوة التأمّل البريء...
هناك كلمةٌ غريبةٌ دخيلةٌ وصلتْ إلى أذنيَّ في غير مكانها!
حدّقتُ في رغد باهتمامٍ، واندهاش...
هل قالتْ (أتزوّج)؟؟
أتزوج!
ألا تلاحظون أنها كلمة (كبيرة) بعض الشيء! بل كبيرة جداً!
سألتُها لأتأكّد:
«ماذا رغد؟؟».
قالتْ وبمنتهى البساطة:
«(أتزوّج)! كيف أكتبها؟؟».
والدهشة تعقد لساني...
وهي تنظر إليَّ منتظرةً أنْ أكتب الكلمة على سبُورتها الصغيرة...
أمسكتُ بالقلم بترددٍ وشرود... وكتبتُ الكلمة (الكبيرة) ببطء، ثمَّ عرضتُها عليها فأخذتْ تكتبها حرفاً حرفاً...
انتهتْ مِنْ الكتابة، فوضعتُ السبورة على مكتبي، في انتظار الكلمة التالية...
انتظرتُ... وانتظرتُ لكنها لمْ تتكلّم. لمْ تسألني عن أي شيء.
رأيتها تطوي الورقة الصغيرة، ثمَّ تدخلها عبر الفتحة داخل (صندوق الأماني)!
(عندما أكبر سوف أتزوج [........]؟؟؟).
الاسم الذي تلا كلمة أتزوج هو اسمٌ تعرف رغد كيف تكتبه!

كأي اسم مِنْ أسماء أفراد عائلتنا، أو أصدقاؤها الأطفال!

كـ وليد، أو سامر، أو أي رجل!

رغد الصغيرة!

ما الذي تفعلينه!؟؟

الآن، هي قادمةٌ نحوي...

والصندوق في يدها...

«وليد اكتبْ أمنيتكَ!».

«ماذا صغيرتي؟؟».

«أكتُبْ أمنيتكَ وضعْها بالداخل، وحينما نكبر نفتح الصندوق ونقرأ أمنياتنا ونرى ما تحقَّق منها! هكذا هي اللعبة!».

إنني قد أفعل أشياء كثيرةً قد تبدو سخيفة، أما عن وضعي لأمنيتي في صندوق ورقي خاص بطفلتي هذه، فهو أمرٌ سأترك لكم أنتم الحكم عليه!

نزعتُ ورقة مِنْ مفكرتي، وكتبتُ إحدى أمنياتي!

فيما أنا أكتب، كانتْ رغد تغمض عينيها لتؤكّد لي أنها لا ترى أمنيتي!

أي أمنية تتوقعون أنني أدخلتها في صندوق الأماني الخاص بصغيرتي العزيزة...؟؟

لنْ أخبركم!

بعد فراغي مِنْ الأمر، طلبتْ منّي رغد أنْ أحفظ الصندوق في أحد أرفف مكتبتي، لأنها تخشى أنْ تضيعه أو تكتشف دانة وجوده فيما لو ظلّ في غرفتها، فتعبث به.

«وليد لا تفتحْ الصندوق أبداً!».

«أعدكِ بذلك!».

ابتسمتْ رغد، ثمّ انطلقتْ نحو الباب مغادرة الغرفة وهي تقول:

«سأخبر سامر بأنني انتهيتُ!».

بعد مغادرتها، تملّكتني رغبةٌ شديدةٌ في معرفة ما الذي كتبته في ورقتها. كدتُ انقض وعدي وأفتح الصندوق مِنْ شدَّة الفضول...

لكني نهرتُ نفسي بعنف... لنْ أخيِّب ثقة الصغيرة بي أبداً.

(عندما أكبر سوف أتزوج [...؟؟...]).

مَنْ يا رغد؟؟

مَنْ؟

مَنْ؟؟

* * *

في عصر اليوم ذاته، قرّر والدي أخذنا لنزهةٍ قصيرة إلى إحدى الملاهي، حسب طلب وإلحاح دانة!

أنا لمْ أكن أرغب في الذهاب، فأنا لمْ أعد طفلاً ولا تثير الملاهي أي اهتمام لدي، إلا أنَّ والدتي أقنعتني بالذهاب مِنْ باب الترويح عن النفس لاستئناف الدراسة!

قضينا وقتاً جيداً...

وقفتْ رغد أمام إحدى الألعاب المخيفة وأصرَّتْ على تجربتها!

طبعاً لمْ يوافق أحد على تركها تركب هذا القطار السريع المرعب، وكما أخبرتكم فإنها حين ترغب في شيء فإنها لن تهدأ حتى تحصل عليه!

وحين تبكي، فإنها تتحول مِنْ (رغد) إلى (رعد)!

والدي زجرها مِنْ باب التأديب، إذ أنَّ عليها أنْ تطيع أمره حين يأمرها بشيء. توقَّفتْ رغد عن البكاء، وسارتْ معنا على مضضْ...

كانتْ تمشي ورأسها للأسفل ودموعها تسقط إلى الأرض!

أنا وليد لا أتحمَّل رؤيتها هكذا مطلقاً... لا شيءَ يزلزلني كرؤيتها حزينة وسط الدموع!

«حسناً يا رغد! فقط للمرَّة الأولى والأخيرة سأركب معك هذا القطار، لتري كم هو مخيفٌ ومرعب!».

اعترض والداي، إلا أنني قلتُ:

«سأمسكُ بها جيداً فلا تقلقا».

اعتراضهما كان في الواقع على سماحي لرغد بنيل كل ما تريد. أنا أدرك أنني أدللها كثيراً جداً

لكن...

ألا تستحق طفلةٌ يتيمة الأبوين شيئاً يعوِّضها ولو عن جزءٍ مِنْ المائة ممَّا فقدتْ؟

تجاهلتُ اعتراض والديَّ، وانطلقتُ بها نحو القطار. ركبنا سوية ذلك القطار ولمْ تكن خائفةً بل غايةً في السعادة!

وعندما توقّف وهممتُ بالنزول، احزروا مَنْ صادفتُ!؟؟

عمّار اللئيم!

وقد شاءتْ الأقدار أنْ يستمر زميلاً لي في المدرسة الثانوية، في ذات الصف. وكان عمَّار يحسدني ويغار منِّي لاستمرار حصولي على مراتب التفوُّق. والعلاقة بيننا استمرتْ مشحونة وعدائية.

عمّار أطلق صفرةً قوية ثمَّ قال ساخراً:

«أوه انظروا! (الطالب المثالي)! مدهشٌ جداً! تتغيّب عن المدرسة لتلهو مع الأطفال؟! عظيم! سألتقط لكَ صورة تذكارية يا صديقي!».

وصوّرني كارهاً بكاميرا كانتْ في يده. تجاهلتُه، وانصرفتُ والصغيرة مبتعدين إلاّ أنّه عاد يلاحقني بكلام مستفزٍ خبيث... وهو مستمرٌ في التقاط الصور...

لمْ أستطع تجاهله أكثر، التفت إليه وسحبتُ الكاميرا وألقيتها على الأرض، وبدأنا عراكاً

عنيفاً بالأيدي!

تدخَّل مجموعةٌ مِنْ الناس ومِنْ بينهم والدي لفضّ نزاعنا بعد دقائق...

عمّار وبسبب لكمتي القوية إلى وجه سالتْ الدماء مِنْ أنفه، وأخذ يردِّد:

«ستندم على هذا يا وليد! ستدفع الثمن».

أما رغد، والتي كانتْ تراني ولأول مرّة في حياتها أتعارك مع أحدهم، وأؤذيه، فقد بدتْ مرعوبةً والتصقت بوالدتي بذعر!

عندما عدنا للبيت وبَّخني أبي بشدةٍ على تصرُّفي في الملاهي وعراكي، وقال:

«كنتُ أظنُّكَ أصبحتَ رجلاً! أنّكَ تفوقني طولاً وتتعارك كالأطفال؟».

وهي كلمة آلمتني أكثر بكثير مِنْ لكمات عمّار.

استأتُ كثيراً جداً، وعندما دخلتُ غرفتي بعثرتُ الكتب والدفاتر التي كانتْ فوق مكتبي بغضب.

لا أدري لماذا أنا عصبيٌ ومتوتِّر هذا اليوم...

بل ومنذ فترة ليستْ بالقصيرة... أهذا بسبب الامتحانات المقبلة؟؟

بعد قليل، طُرِق الباب، ثمَّ فُتِح بهدوء. كانتْ رغد.

«وليد...».

ما أنْ نطقت باسمي حتى قاطعتُها بحدّة:

«عودي إلى غرفتكِ يا رغد فوراً».

نظرتْ إلي وهي لا تزال واقفةً عند الباب، فرمقتُها بنظرة غضبٍ حادَّة وصرختُ بقسوةٍ بالغة:

«قلتُ اذهبي... هيّا.. ألا تسمعين؟؟!».

أغلقتْ الصغيرة الباب بسرعة مِنْ الذعر! لقد كانتْ المرَّة الأولى التي أقسو فيها عليها... وكمْ ندمتُ بعدها...

ألقيتُ نظرة على (صندوق الأماني) ثمَّ أمسكتُ به وهممتُ بتمزيقه!

ثمَّ أبعدتُه في آخر لحظة!

كنتُ أريد أنْ أفرغ غضبي في أي شيء أصادفه. هذا طبعي إذا ما اشتدَّ عليَّ الغضب...

إنني أعرف أنني يوم السبت المقبل سأُقابَل بتعليقاتٍ ساخرة من قِبَل عمّار ومجموعته، وسيعرض صوري على الطلبة والمدرسين، ويضعني في موقفٍ حرجٍ لا أُحسد عليه. وكل هذا بسببك أنتِ أيتها الرغد المتدللة...

لأجلكِ أنتِ أنا أفعل الكثير مِنْ الأشياء السخيفة التي لا معنى لها!

والأشياء المهولة... التي تعني أكثر مِنْ شيء... وكل شيء...

والتي يترتَّب عليها مصائر ومستقبل...

كما سترون...

الحلقة الرابعة

لا تبتعدي عنّي

- وليد -

لمْ أستطع النوم تلك الليلة...

جعلتُ أتقلب على فراشي والأمور الثلاثة: الدراسة، الحرب، ورغد... تآمرتْ علي وسببتْ لي أرقاً وصداعاً شديدين...

أوه يا إلهي... أنا متعب... متعب!

فلتذهب الدراسة للجحيم!

ولتذهب الحرب كذلك للجحيم!

ورغد...

رغد...

فلأذهب أنا إلى رغد!

قفزتُ مِنْ سريري في رغبةٍ ملحّةٍ جداً لرؤية الصغيرة...

لا بد أنها غارقة في النوم الآن... كم كنتُ قاسياً عليها! كم أنا نادم!

سرتُ ببطءٍ حتى دخلتُ غرفة رغد، وتعجّبتُ إذ رأيتُ الظلام مخيماً عليها! صغيرتي تخاف النوم في الظلام الشديد وتصرُّ على إضاءة النور الخافت.

اقتربتُ مِنْ السرير وأنا أدقِّقُ النظر بحثاً عن وجه الصغيرة، إلا أنني لمْ أره...

أشعلتُ المصباح الخافت المجاور لسريرها، وأصبتُ بالفزع حين رأيت السرير خالياً...

ارتددتُ للخلفِ مذعوراً... وتلفَّتُ مِنْ حولي... ثمَّ أنرتُ المصباح القوي ودقّقتُ النظر في كل شيء... لمْ تكن رغد في الغرفة...

خرجتُ مِنْ الغرفة كالمجنون وذهبتُ رأساً إلى غرفة دانة، ثمَّ غرفة سامر، ثمَّ جميع غرف المنزل وأنحائه ولمْ أبقِ منه متراً واحداً دون تفتيش... عدا غرفة والديَّ...

سرتُ وأنا شبه مترنّحٍ ومتشبّثٍ بأملي الأخير بأنْ تكون رغد هناك...

توقفتُ عند الباب، ورفعتُ يدي استعداداً لطرقه فخانتني قواي.

ماذا إنْ لم تكن رغد هنا؟ أين يمكن أنْ تكون؟

القلق والخوف على رغد تملكاني وألقيا جانبا أي تفكير سليم مِنْ رأسي. طرقتُ الباب طرقات متوالية مزعجة...!

ثوانٍ، وإذا بأمّي تقف أمامي في قلق:

«وليد؟ خير يا بني؟».
التقطتُ عدّة أنفاسٍ ثمّ قلتُ:
«هل رغد هنا؟».
كنتُ أحدّق بعين والدتي وكأنني أريد أنْ أخترقها إلى دماغها لأعرف الجواب قبل أنْ تنطق به...
قولي نعم أمي... أرجوكِ!
«نعم! نامتْ هنا».
كأن جبلاً جليدياً قد وقع فوق رأسي لدى سماعي إجابتها. ارتختْ عضلاتي كلها فجأة، فترنّحتُ وأنا أعود خطاً للوراءِ حتى جلستُ على أحد المقاعد.
والدتي أقبلتْ نحوي، وألقتْ نظرةً سريعةً على ساعة الحائط، ثمّ عادتْ تنظر إلي بقلق...
«وليد؟ ما بِكَ عزيزي؟».
أغمضتُ عيني لثوان، وأنا شبه عاجز عن تحريك أي عضلة مِنْ جسمي...
ثمّ نظرتُ إليها وقلتُ بصعوبة:
«قلقتُ حين لمْ أجدها في غرفتها... بل كدتُ أموت قلقاً...».
وزفرتُ وتابعتُ بصوتٍ آسف:
«زجرتُها بقسوة...».
اقتربتْ مني والدتي، ومسحتْ على رأسي وقالتْ:
«هوّن عليك يا بنيّ...
جاءتْني تبكي وتقول أنك كنتَ غاضباً منها وأخرجتَها مِنْ غرفتكَ! كانتْ حزينةً جداً!».
ربما تريد أمي معاتبتي لتصرّفي مع رغد...
أرجوكِ أماه... قد نلتُ مِنْ تأنيب الضمير ما يكفي ويزيد... ألا ترين أنني لمْ أنمْ حتى هذه الساعة بسبب ذلك...؟؟
«آسف لإزعاجكِ أمّاه، تصبحين على خير».
وابتعدتُ قليلاً فإذا بها تناديني:
«وليد».
التفتُّ إليها... كانتْ عيناها مليئتان بالكلام... ووجهها مغطى بالقلق والعطف...
كانتْ تريد قول شيء، غير أنها بدّلتْ كلامها وقالتْ:
«وأنتِ مِنْ أهل الخير... نوماً هنيئاً عزيزي».
نهضتُ متأخراً في الصباح التالي، وحينما ذهبتُ إلى المطبخ وجدتُ أمي مشغولةً في إعداد الطعام فيما تلعب رغد ببعض الدمى إلى جوارها.
عندما رأتْني رغد، ابتسمتُ لها، إلا أنها قامتْ والتصقتْ بأمّي، كأنها تطلب الحماية!
تضايقتُ كثيراً مِنْ هذا... هل أصبحتْ طفلتي الحبيبة تخاف مني؟؟

«رغد! تعالي إليّ...».

لم تتحرّك بل تشبّثتْ بوالدتي أكثر، الأمر الذي أشعرني بضيقٍ شديدٍ جداً فغادرتُ المطبخ فوراً.

سوف تنسى بعد قليل... إنها مجرّد طفلة والأطفال ينسون بسرعة!

بل مِنْ الأفضل ألا تنسى حتى تبقى بعيدةً عني وأتخلّص مِنْ أحد همومي!

في المساء، حضرتْ (أم حسام) بطفليها حسام ونهلة لزيارتنا.

أم حسام هي خالة رغد الوحيدة والتي كانتْ ترعاها في السابق، بعد وفاة والديها.

حسام هو ابنها الأكبر والبالغ من العمر سبع سنوات على ما أظن، أما نهلة فتصغر رغد ببضعة أشهر.

ويبدو أنّ (أخاً جديداً أو أختاً جديدة) على وشك الانضمام لهذه العائلة!

رغد تحب خالتها هذه كثيراً، والخالة تتردّد علينا مِنْ حين لآخر للاطمئنان على رغد.

تحوّل بيتنا إلى ملعب أطفال... لعب، ضحك، بكاء، شجار، عراك، هتاف، صراخ!

كانوا جميعاً سعداء، أما أنا فقد لزمتُ غرفتي وعكفتُ على الدراسة.

اختفتْ الأصوات تماماً فيما بعد، فاستنتجتُ أنّ الضيوف قد رحلوا.

في وقت العشاء، كنتُ أوّل الجالسين حول المائدة فقد كنتُ جائعاً، ولمْ أكنْ قد تناولتُ أي وجبة رئيسية لهذا اليوم.

الكرسي المجاور لي هو الكرسي الذي تجلس عليه صغيرتي رغد عادةً، وكنتُ أساعدها في تناول الطعام دائماً.

اجتمع أفراد أسرتي حول المائدة، لكن الكرسي المجاور ظل شاغراً!

«أين رغد؟؟».

وجّهت سؤالي إلى والدتي، فنظرتْ إليّ بعمقٍ وأجابتْ:

«أصرّتْ على الذهاب مع خالتها وبما أنّ الغد هو يوم جمة تركتُها تذهب لتبات عندهم!».

اندهشتُ، فهي المرّة الأولى التي يحدث فيها شيءٌ كهذا... لطالما كانتْ الخالة تزورنا فلماذا تصرُّ رغد على الذهاب معها اليوم واليوم فقط؟؟

لقد فقدتُ شهيتي للطعام، ولمْ أتناول منه إلا اليسير...

مساء الجمعة ذهبتُ مع أبي لإحضار رغد مِنْ بيت خالتها. دخلتُ أنا للمنزل فيما ظلّ والدي ينتظر في السيارة.

لقد كان الأطفال، رغد ونهلة وحسام، يلعبون ببعض الألعاب في إحدى الغرف.

عندما رأوني توقفوا عن اللعب، واخذوا يحدّقون بي!

هل أبدو مرعباً؟؟

ربما لأنني طويلٌ وضخم البنية نوعاً ما!

ابتسمتُ لهذه المخلوقات الصغيرة ثمّ قلتُ:

«مرحباً أعزائي! ألمْ تكتفوا مِنْ اللعب!».
لمْ يبتسم أيٌّ منهم أو يحرك ساكناً!
وجهتُ نظري إلى صغيرتي رغد، وقلتُ أخاطبها:
«صغيرتي الحلوة! حان وقت العودة إلى البيت».
«لا أريد».
كانتْ أوّل جملة تنطق بها رغد! إنها لا تريد العودة للبيت!
«ماذا رغد؟ يجب أنْ نعود الآن فغداً ستذهبين إلى المدرسة!».
«سأبقى هنا».
«رغد! سوف نأتي بكِ إلى هنا لتلعبي كل يوم إنْ أردتِ! هيا فوالدنا ينتظر في السيارة».
لمْ يبدُ أنها عازمةٌ على النهوض. والآن؟؟ ماذا افعل مع هذه الصغيرة؟؟ كيف يجب أنْ يكون التصرف السليم؟؟
تدخلتْ أم حسام قائلةً:
«بنيتي رغد، غداً سيحضركِ وليد إلى هنا مِنْ جديد. وكل يوم إذا أردتِ اللعب مع نهلة فتعالي واحضري ألعابك أيضاً».
«لا أريد».
ثمّ بدأتْ بالبكاء... ربما تظنُّ خالتها أننا نسيء إليها بشكلٍ ما!
ماذا جرى لهذه الصغيرة؟ لماذا أصبحتْ لا تريد الاقتراب منّي؟ أكلُّ هذا لأنني أخرجتها مِنْ غرفتي بقسوة تلك الليلة؟
أم حسام أخذتْ تمسح على رأس الصغيرة وتهدّئها وتكرّر:
«غدا سيحضركِ وليد إلى هنا عزيزتي».
قلتُ - محاولاً إغراءها بالحضور بأي طريقة -:
«سنمرُّ بمحلِّ البوظة ونشتري لك النوع الذي تحبين!».
يبدو أنَّ الفكرة أعجبتْها، فتوقّفتْ عن البكاء وأخذتْ تنظر إليّ...
قالتْ خالتها مشجعةً:
«هيا بنيتي، وعندما تأتين غداً سنشتري لكِ ولنهلة وحسام المزيد مِنْ البوظة والألعاب».
وأخذتْ تقرّبها نحوي حتى صارتْ أمامي مباشرة. رفعتْ رغد رأسها الصغير ونظرتْ إليّ...
إنها نظرة لا أستطيع نسيانها ما حييتُ...
كأنها تعاتبني على قسوتي معها... وتقول... خذلتني!
مددتُ يديُ ورفعتُ الصغيرة عن الأرض وضممتُها إلى صدري وقبلتُ جبينها...
كيف لي أنْ أعتذر؟
إنها اليتيمة التي ولو بذلتُ الدنيا كلها لأجلها، ما عوّضتُها عن لحظةٍ واحدةٍ تقضيها في حضن أمها أو أبيها...

قلتُ:
«ماذا تودّين بعد؟ لعبة جديدة أم دفتر تلوين جديد؟».
قالتْ:
«أريد لعبةً وأريد دفتراً».
قلتُ:
«يا لكِ مِنْ سيدة طمّاعة! حاضر! كما تأمرين سيدتي!».
فابتسمتْ لي أخيراً...
شعرتُ بشيء ما يحرك بنطالي...
نظرتُ إلى الأسفل فإذا بها نهلة تمسك ببنطالي وتهزّه، ثمّ تقول:
«احملني!».
نظرتُ إليها بدهشةٍ واستغراب!
«رغد تقول أنّك قوي جداً وكنتَ تحملها مع دانة سوية».
ربّاه!!

* * *

في تلك الليلة، جعلتُ رغد تنام على سريري... ولوّنتُ معها كثيراً وقرأتُ لها أكثر مِنْ قصّة، وطبعاً اشتريتُ لها أكثر مِنْ لعبة وأكثر مِنْ دفتر تلوين إضافةً إلى البوظة!

ربما كانتْ هذه طريقتي في الاعتذار! إنْ كنتُ أدلّل صغيرتي كثيراً فهذا لأنني أحبّها كثيراً...

وهي نائمةٌ على سريري بسلام، أخذتُ أتأملها بعطفٍ ومحبة...
كم هي رائعة! وكم أنا متعلّقٌ بها!... كم يبدو هذا جنوناً!
ذهبتُ إلى حيث وضعتُ صندوق الأماني، فأخذتُه وجعلتُ أنظر إليه بحدّة.
وكم تمنيت لو أنّ بصري يخترق الصندوق إلى ما بداخله!
ليتني أعرف... الاسم الذي تلا هذه الجملة:
(عندما أكبر سوف أتزوج [.......؟؟؟......]).
عندما تكبرين يا رغد...
فقط عندما تكبرين...؟؟؟

* * *

في أحد الأيام، قرّرنا تناول بعض المشويات في المنزل، وفي حديقة المنزل أعدّ والدي ما يلزم وأشعل الفحم.

كان يوماً جميلاً، وكنا مسرورين لهذه (النزهة المنزلية) التي قلّما تحدث.
الأطفال؛ سامر - إنْ كنتُ أعتبره طفلاً! - ودانة ورغد كانوا يتجوّلون هنا وهناك.
سامر مهووس بدراجته الهوائية والتي لا يتوقف عن قيادتها والعناية بها في جميع أوقات

فراغه، ورغد تهوى كثيراً الركوب معه، وقد تعلَّمتْ كيف تقودها بنفسها.
كانتْ تقود الدراجة فيما يجلس سامر على المقعد الخلفي، وكانتْ تترنح ذات اليمين وذات الشمال وتسقط بالدراجة مِنْ حين لآخر.
إلا أنها كانتْ سقطات خفيفة غير مؤذية، يستمتعان بها ويضحكان مرحَين!
دانة كانتْ تساعد أمي في إعداد اللحم، فيما والدي يهف الجمر فيزيده اشتعالاً...
كنتُ أنا أراقب الجميع في صمت وبرود ظاهري، بينما أشعر بشيءٍ يتحرَّك ويشتعل في صدري مثل ذلك الجمر... لا أعرف ما يكون...؟؟
ذهب والدي لإحضار شيءٍ ما...
وابتعاده عن الجمر أعطاني مجالاً أوسع لأراقب اشتعاله وتأججه... وجحيمه!
إنَّ عينيَّ كانتا تتنقلان بين رغد وسامر على الدراجة، وبين الجمر المتقد... ثمَّ شردتُ...
فجأة... ترنَّحتْ الدراجة وهي تسير بسرعة، تقودها رغد الصغيرة، وقبل أنْ يتمكَّن سامر مِنْ إيقافها ارتطمتْ بشيءٍ ما فسقطتْ...
كان يمكن لهذه السقطة أنْ تكون عادية كسابقاتها لو أنَّ الشيء الذي ارتطمتْ الدراجة به لمْ يكن صينية الجمر المتَّقد...
تعالتْ الأصوات وانطلق الصراخ القوي يزلزل الأجواء...
ركضنا جميعا نحو الاثنين بفزع...
والدتي تولول، ودانة تصرخ... ورغد تصرخ... وسامر يتخبط مستنجداً... صارخاً... مِنْ فرط الألم...
جمرة واحدة أصابتْ رغد بحرق في ذراعها الأيسر...
أمّا سامر...
فقد انتهى بوجهٍ مشوَّه، وجفنٍ منكمشٍ يجعل العين اليمنى مشوَّهةً ونصف مغلقة... على الدوام.
لقد كان حادثاً سيّئاً جداً... وانتهى يومنا الجميل بندبةٍ لا تمحى...
ورغم العملية التي خضع لها، إلا أنَّ وجه سامر ظلَّ يحمل أثر الحادثة المشؤومة على المدى الطويل...
رغد والتي خرجتْ مِنْ الحادث بأثر حرقٍ واحدٍ في الذراع، خرجتْ منه بآثارٍ عميقةٍ لا تمحى في الذاكرة والقلب.
أما دانة، فقد غرستْ في نفس رغد الاعتقاد الأكيد بأنها السبب فيما حدث لسامر لأنها مَنْ كان يقود الدراجة وقتها.
رغد أصبحتْ مرعوبةً فزعةً متوتِّرة معظم الأوقات... وأصبحتْ تخشى النوم بمفردها وتصرُّ على أنْ أبقى إلى جانبها حتى تدخل عالم النوم، وكثيراً ما كانتْ تستيقظ فزعة مِن النوم في أوائل الأيام... وتركض إليّ...

والمرّة التي كنتُ أعتقد أنها الأخيرة، تلتْها مراتٌ أخرى، نامتْ فيها الصغيرة في غرفتي... طالبةً الأمان والطمأنينة...

«(وليد أنا خائفة... النار مؤلمة...)».

«(وليد لن أركب الدراجة ثانيةً...)».

«(وليد لا أريد أن أبقى وحدي... الجمر يلاحقني...)».

«(وليد... سامر أصبح مخيفاً! أنا السبب).

«(وليد... عندما أكبر سأصبح طبيبة وأعالجه)»!

وفي إحدى تلك المرات، كتبتْ إحدى أمانيها وأدخلتْها في ذلك الصندوق! وهذه المرّة لمْ تسألني عن أية كلمة... لكنني أكاد أجزم بأنها كتبتْ:

(يا رب اشفِ عين سامر)!

توالتْ الأيام والشهور... وتأقلم الجميع مع ما حدث، وسامر اعتاد رؤية وجهه المشوّه في المرآة وتقبّله، واستسلم الجميع إلى أنها حادثة قضاء وقدر...

أما أنا...

فأشكُّ في أنَّ شيطاناً قد خرج مِن صدري وقاد الدراجة نحو الجمر المتقد... واحرق سامر ورغد بنار كان أصلها في جحيم صدري...

ولمْ تزد النار صدري إلا اشتعالاً... ولمْ تزد الحادثة الاثنين إلا اقتراباً... ولمْ تزدني الأيام إلا تعلقاً وتشبّثاً وجنوناً برغد...

الحلقة الخامسة

أحلام الجحيم

- وليد -

أنهيتُ دراستي الثانوية أخيراً!

إنني أريد الالتحاق بالجامعة، إلا أنّ القصف الجوي الذي تعرّضنا له مؤخراً دمّر مبنى الجامعة التي كنتُ أريدها. كما دمّر جزءً كبيراً مِن المصنع الذي يملكه والدي.

أوضاع بلدنا في تدهور، والحرب منذ أنْ اندلعتْ قبل عامين تقريباً لم تتوقف...

مستوانا المادي تراجع كثيراً نتيجة لهذه الأحداث. الدراسة تعني لي الكثير الكثير، خصوصاً بعد الذي
حدث...

إنها أحد أحلام حياتي... ما أكثر الأحلام!

أتذكرون صندوق الأماني الخاص برغد والذي صنعته لها قبل ثلاث سنوات؟

أضفتُ إليه حلماً جديداً يقول:

(أريد أنْ أصبح رجل أعمال ضخم!)!

اعتقد أنّ الأمور الإدارية تليق بي كثيراً!

وجدتُ فرصة هبطتْ عليّ مِن السماء لأُبتعث للدراسة في الخارج، شرط أنْ أجتاز أحد امتحانات
القبول، والذي سأجريه بعد الغد.

وما أقرب بعد الغد!

إنّ مصيري ومستقبلي معلّق بذلك اليوم...

إنني قد عدتُ لقراءة بعض المواضيع مِن المواد الدراسية المختلفة استعداداً له. ادعوا لي بالتوفيق!

في الوقت الراهن أنا بدون شاغل، أو لنقل... عاطل عن المستقبل!

خلال السنوات الثلاث الماضية ازداد طولي وحجمي كثيراً وأصبحتُ عملاقاً وضخماً!

تعديتُ طول والدي وأصبحتُ أشعر ببعض الخجل كلما وقفتُ إلى جانبه!

أما صغيرتي المدللة، فلم تتغير كثيراً!

لا تزال نحيلة وصغيرة الحجم، كثيرة المطالب، وشديدة التدلل!

والمنافسة بينها وبين دانة حتى على الأشياء البسيطة لا تزال قائمة!

واعتقد أنكم تتوقعون أنني...
لا زلتُ مهووساً بها كما في السابق، بل وأكثر...
وصلتُ الآن إلى بوابة المدرسة الابتدائية، وها أنا أرى الفتاتين تقبلان نحو السيارة!
وراقبوا ما سيحصل!
تتسابق الاثنتان نحو الباب الأمامي... تصل إحداهما قبل الأخرى بجزء مِن الثانية.. تحاول كل واحدة فتح الباب والجلوس على المقعد المجاور لي... تتنازعان... تتشاجران تحتكمان إليّ!
«وليد! أنا وصلتُ قبلها».
«بل أنا يا وليد... أليس كذلك؟».
«وليد قل لها أنْ تبتعد عني».
«أنا مَن وصل أولاً! دعها تركب خلفك وليد».
«كـفــى!».
كل يوم تتكرّر نفس القصة! والآن عليّ أنْ أضع جدولاً مقسّماً فيما بينهما!
«حسناً... مَن التي كانتْ تجلس قربي يوم أمس؟».
أجابت دانة:
«أنا».
قلتُ:
«إذن، اليوم تجلس رغد وغدا دانة وهكذا! اتفقنا؟؟».
وبزهو ونشوة الانتصار، ركبتْ (السيدة رغد) وجلستْ على الكرسي الأمامي بجانبي! فيما ترمق دانة بنظرات (التحسير)!
كم سأفتقد هاتين المشاكستين!
«وليد تعلمنا درساً صعباً في (الرياضيات) أريدك أنْ تساعدني في حل التمارين».
«حسناً رغد».
«وأنا أيضاً أريدك أنْ تساعدني في تمارين القواعد».
«حسناً دانة!».
قالتْ رغد بسرعة:
«لكن أنا أولاً فأنا سألتكَ أولاً».
قالتْ دانة:
«درسي أنا أصعب. أنا أولاً يا وليد».
أنا أولاً... أنا أولاً... أنا أولاً...
ويلي مِنْ هاتين الفتاتين! كلا! لن أفتقدهما أبداً!
كنتُ معتاداً على تعليم الفتاتين في أحيان كثيرة، خصوصاً بعد تخرجي من المدرسة...
مواقف كثيرة، وكثيرة جداً، هي التي حصلتْ خلال السنوات الماضية ولكنني اختصرتُ

لكم قدر الإمكان...

حينما وصلنا إلى البيت، بالتحديد عندما هممتُ بإدخال المفتاح في الباب لفتحه، بدأتْ منافسة جديد...

«أعطني المفتاح أنا سأفتحه».

«لا لا، أنا سأفتحه وليد».

«لا تقلديني!».

«أنتِ لا تقلديني».

واحتدم النزاع!

أوليتُ الباب ظهري ووقفتُ بين الفتاتين وعبستُ في وجهيهما!

قلتُ بحدة:

«أنا مَن سيفتح الباب وإنْ سمعتكما تتجادلان على هذا المفتاح ثانيةً فتحتُ رأسيكما وأفرغتُ ما بهما».

المفروض أنّ نبرتي كانتْ حادّة ومهدّدة، وتثير الخوف! إلا أنّ رغد أخذتْ تضحك ببساطة!

التفتُ إليها وقلتُ:

«لِمَ الضحك؟؟».

قالتْ وهي تقهقه:

«لن تجد شيئاً في رأس دانة مِن الداخل!».

قالتْ دانة:

«بل أنت الجوفاء الرأس! أتعلمين ماذا سيجد وليد في رأسكِ؟».

رغد:

«ماذا؟».

دانة:

«البطاطا المقلية التي تلتهمينها بشراهة كل يوم!».

رغد - وهي تضحك بمرح -:

«وأنت الفاصولياء التي أكلتها البارحة».

وتبادلتْ الاثنتان مجموعة مِن الأكلات والأطباق المفضلة في رأسي بعضهما البعض حتى أصابتاني بالصداع والتخمة!!

قلتُ:

«يكفي! إنني مَن سيفتح رأسي أنا حتى ارمي بكما إلى الخارج منه».

واستدرتُ، وفتحتُ الباب، فأسرعتْ دانة بالدخول لتسبق رغد، بينما سارتْ رغد ببطء وانتظرتني حتى دخلتُ، ثم أقفلتُ الباب...

«وليد!».

التفتُ إليها وأنا ممتلئ ما يكفي ويزيد مِن سخافاتهما، وقلتُ بتنهد:

«ماذا بعد؟؟».

قالتْ:

«أنا لا أريد أنْ أخرج منْ رأسك».

اندهشتُ! نظرتُ إليها باستغراب، وقلتُ:

«عفواً؟؟!».

كرّرتْ:

«أنا لا أريد أنْ أخرج مِن رأسك».

«ولماذا؟؟».

ابتسمتْ بخبثٍ وقالتْ:

«لكي أستطيع رؤية الناس مِن الأعلى فأنتَ طويـــــــل».

ابتسمتُ لها بهدوء، ثم فجأة، مددتُ يدي نحوها ورفعتها عن الأرض على حين غفلةٍ منها إلى الأعلى عند رأسي وأنا أقول:

«هكذا؟؟».

رغد أخذتْ تضحك بسعادة وبهجة لا توصف! أتذكرون كم كانت تعشق أنْ أحملها!؟ لا تزال كذلك!

دخلتُ المنزل، ثم المطبخ وأنا لا أزال احملها وهي تضحك بسرور، ثم أجلستها على أحد المقاعد وألقيتُ التحية على والدتي، والتي كانت مشغولة بتجهيز أطباق المائدة.

قالتْ أمي:

«رغد، هيا اذهبي وأدّي صلاتك ثم اجلسي عند مائدة الطعام».

قامتْ رغد، وهي تنزع الحقيبة المدرسية عن ظهرها وتنظر إلى أمي وتقول:

«بطاطا مقلية؟».

«نعم! حضّرتها لأجلك».

وانطلقتْ رغد فرحة، وغادرتْ المطبخ. للعلم، فإن صغيرتي هذه تحب البطاطا المقلية كثيرا جداً!

والدتي استمرتْ في عملها وحدثتني دون أنْ تنظر إليّ:

«لم تعد صغيرة!».

ركزتُ بصري عليها، وقلتُ:

«رغد؟ لقد كبرتْ قليلاً!».

«لم تعد صغيرة لتحملها على ذراعيك».

غيّرتْ كلمات والدتي هذه مجرى ما فهمتُ.. إذن، فهي معترضة على حملي للصغيرة هكذا..؟

«ولكن... إنها مجرد طفلة صغيرة وخفيفة! وهي تحب ذلك...».

«إنها في الثامنة مِنْ العمر يا وليد...».

جملة والدتي هذه، جعلتْ شريط الذكريات يعرض فجأة في مخيلتي...

تذكرتْ كيف حضرت إلى منزلنا قبل ست سنين أو أكثر!... آه... (المخلوقة البكاءة)!

يا للأيام...

مَن كان ليصدق أنني (ربيتُ) رغد في جحري وأطعمتها بيدي وحملتُها على ذراعي وسرحتُ شعرها ونظفتُ أذنيها وأنمتها على سريري؟!

مَن جرّب أنْ يكون أماً وأباً ليتيمة، وهو طفل ومِنْ ثمّ مراهق لم يبلغ العشرين! يا للذكريات!

في غرفتي لاحقاً، أخذتُ أقلب ألبوم الصور الذي يشمل أفراد عائلتي...

صحيح... لقد كبرتْ الصغيرة!

مرّ الوقت سريعاً...

وها أنا مقدم على الجامعة، وحين أسافر...

توقفتُ عند هذا الحد...

فأنا لا أستطيع التفكير فيما بعد ذلك.. كيف لي أن أبتعد عن أهلي ووطني...؟

كيف لي أن أتحمّل الغربة والوحدة؟

كيف لصباحٍ أنْ يطلع عليّ، دون أنْ أحتسي شاي والدتي العطر، وكيف لشمس أنْ تغرب دون أنْ أقرأ أخبار الصحف لوالدي؟

كيف لعيني أنْ تغمضا دون أنْ أتمنى لأخوتي نوماً هانئاً...

كيف لقلبي أنْ ينبض... دون أنْ أحمل رغد على ذراعيَّ؟؟؟

إنني سأذهب لإجراء الامتحان بعد الغد وإذا ما اجتزته، فسأغادر البلد خلال أسبوع أو أكثر بقليل.

إنها أفكار تجعلني أشعر بخوف وتوجّس...

هل أقوى على ذلك؟؟

لا بد لي من ذلك... فأحوالنا في تدهور وشهادتي الجامعية ستعني الكثير...

المرشحون لهذا الامتحان قليلون، وكانتْ فرصة ذهبية أنْ أُضيفَ اسمي إليهم، وأنا واثقٌ مِن قدرتي على اجتيازه، بإذن الله...

قلّبتُ الألبوم وأنا في حيرة... أي صورة آخذها معي؟؟

ثم وقع اختياري على صورة تضمنا جميعاً، تظهر فيها رغد متشبثةً برجلي!

فيما ترتسم ابتسامة رائعة على وجهها الجميل...

«هذه هي!».

أخذت الصورة، وصورة أخرى لرغد وهي تبتسم وفي يدها أحد دفاتر التلوين، ووضعتهما في محفظة جيبي.

في المساء، ذهبتُ مع أخي سامر لأحد المتاجر لاقتناء بعض الأشياء، ووقفنا عند حقائب السفر رغبةً في شراء بعضها. فيما كنا هناك، حضر مجموعة مِن الشبان، كان عمّار فيما بينهم.

عمّار نجح بصعوبة، وتخرج - رغم إهماله - مِنْ المدرسة الثانوية، واعتقد أنّ والده ذا النفوذ الكبير قد استطاع تدبير مقعد دراسي له في إحدى الجامعات... بطريقةٍ (غير قانونية!).

عندما رآني عمّار، أقبل نحوي تسبقه ضحكته البغيضة، وقال ساخراً:

«يبدو أنّ طالبكم المثالي ينوي السفر أيها الأصحاب! هل عثر والدكَ على كرسي جامعي شاغر لك!؟ أم أنّ حطام الجامعة قد حطّم قلبك يا مسكين؟؟».

وبدأ مجموعة الشبان بالضحك والقهقهة. أوليتهم ظهري فقال عمّار:

«لا تقلق! سأطلب مِن والدي أنْ يساعدك في البحث عن جامعة! أو... ما رأيك بالعمل عندنا؟! فمصنعنا لم يحترق! سأوصي بكَ خيرا!».

سامر لم يتحمّل هذه السخرية مِن ذلك اللئيم، وثار قائلاً:

«لم يبقَ إلا أنْ يعمل الأعزّة عند الأذلّة المنحرفين!».

صرخ عمّار قائلاً:

«اخرس أيها الأعور القبيح! مَنْ سمح لكَ بالتحدث! ألا تخجل مِنْ وجهكَ المفزع؟».

والتفتَ إلى أصحابه وقال:

«اهربوا يا شباب! الأعور الدجّال!».

سيل مِنْ اللكمات العنيفة وجّهتُها بلا توقف ولا شعور نحو كل ما وقعتْ قبضتي عليه مِنْ أجساد عمّار وأصحابه... لحظتها، سيطرتْ عليّ رغبةٌ ملحّةٌ في فقء عينيه وسلخ جلده...

أخي سامر نال منهم أيضاً. واحتدّ العراك وتدخّل مَنْ تدخّل، وفرّ مَنْ فرّ، وانتهى الأمر بنا إلى تدخل مِنْ قبل الشرطة!

في تلك الليلة وللمرة الأولى منذ الحادثة المشؤومة، سمعتُ صوت بكاء أخي خلسةً.

عندما أصيب بالحرق، كان لا يزال صغيراً في الحادية عشرة مِن العمر... ربما لم يكن شكله يشغل تفكيره واهتمامه بمعنى الكلمة، أمّا الآن... وهو فتى بالغ أعمق تفكيراً، فإنّ الأمر اختلف كثيراً...

ليلتها، قال أنّه يريد أنْ يخضع لعملية تجميل جديدة... لكن أوضاعنا المادية في الوقت الحالي، لا تسمح بذلك...

عندما أحصل على شهادتي الجامعية... وأعمل وأكسب المال، فسوف أعرضه على أمهر جرّاحي التجميل، ليعيده كما كان...

فقط عندما أحصل على شهادتي...

في اليوم التالي، وجدتُ سيارتي مليئةً بالخدوش المشوّهة!

«إنه عمّار الوغد! تباً له!».

أوصلتُ أخوتي للمدرسة، وشغلتُ نفسي ذلك الصباح بمزيد مِنْ الإعدادات للسفر المرتقب!

امتحاني سيكون يوم الغد... لذا، قضيتُ معظم الوقت في قراءة مواضيع شتى مِنْ كتبي الدراسية السابقة... وكلما قلبتُ صفحة جديدة مِنْ الكتاب، قلبتُ صفحة مِنْ ألبوم الصور...

كيف أستطيع فراق أهلي...؟

كيف أبتعد عن رغد؟

إنني أشعر بالضيق إذا ما مضتْ بضع ساعاتٍ دون أنْ أراها وأداعبها... وأنزعج كلما باتتْ في بيت خالتها بعيداً عني...

فيما أنا منهمكٌ في أفكاري وقراءتي، جاءتني رغد...!

طرقتْ الباب، ثم دخلتْ الغرفة ببطء، تاركةً الباب نصف مفتوح...

«وليد... لدي تمرين صعب... ساعدني بحله مِنْ فضلك».

لم يكن هناك شيءٌ أحب إلي مِنْ تعليم صغيرتي، إلا أنني يومها كنتُ مشغولاً... لذا قلتُ:

«اطلبي مِنْ والدتي أو سامر مساعدتك، فأنا أريد أنْ أذاكر!».

لم تتحرّك مِنْ مكانها! نظرتُ إليها مستغرباً وقلتُ:

«هيا رغد! أنا آسف لا أستطيع مساعدتكِ اليوم!».

وبقيتْ واقفةً في مكانها... إذن فهناك شيءٌ ما! حفظتُ هذا الأسلوب!

تركتُ الكتاب مِنْ بين يدي ونهضتُ، وقدمتُ إليها وجثوتُ على ركبتي أمامها:

«رغد... صغيرتي... ما بكِ؟».

تقوس فمها للأسفل في حزنٍ مفاجئ وقالتْ:

«هل صحيح أنّك ستسافر بعيداً؟».

فاجأني سؤالها، إنني لم أكن أتحدّث عن أمر السفر معها، فالحديث سابق لأوانه...

قلتُ مازحاً:

«نعم يا رغد! إلى مكانٍ بعيدٍ لا يوجد فيه رغد ولا دانة ولا شجار! وسأترك رأسي هنا!».

لم يبدُ أنها فهمتْ مزاحي أو تقبلته، إذ أنّ تقوُّس فمها الصغير قد ازداد وبدأتْ عيناها تحمرّان، قالتْ:

«وهل ستأخذني معك؟».

هنا... عضضتُ على شفتي وجاء دور فمي أنا ليتقوّس حزناً... طردتُ الموجة الحزينة التي اعترتني وقلتُ:

«مَنْ أخبركِ بأنني سأسافر؟؟».

«سمعتُ والديّ يتحدثان بهذا».

مسحتُ على رأسها وقلتُ:

«سأسافر فترةً مؤقتةً لأدرس ثم أعود».

«وأنا؟؟».

«ستبقين مع الجميع وحالما أُنهي دراستي سأعود وآخذكِ إلى أي مكانٍ في العالم!».

«لا أريدك أنْ تذهب وليد! مَنْ الذي سيحبّني كثيراً مثلكَ إذا ذهبتَ؟».

شعرتُ بخنجر يُغرَس في صدري... رغد... أيتها الفتاة الصغيرة... التي تربّعتْ في كل خلايا جسمي، ألا تعلمين ما يعنيه فراقك بالنسبة لي!؟؟

لا أعرف إنْ كانتْ قد أحسّتْ بالطعنةِ التي مزّقتْ قلبي أمْ أنني أهوّل الأمر، إلا أنّ دموعها سالتْ ببطء مِنْ مقلتيها...

دموع أميرتي التي تزلزل كياني... مددتُ يدي ومسحتُ دموعها وأنا أحاول الابتسام:

«رغد! عزيزتي... لا يزال معك دانة وسامر... وأمي وأبي... ونهلة وحسام وسارة.

(وسارة هي الابنة الثانية لأم حسام) مع أمّهم! وكل صديقاتك! لن تكوني وحيدةً! أنا فقط مَنْ سيكون وحيداً!».

قالتْ بسرعة:

«خذني معك!».

ضغطتُ على قبضتي، وقلتُ:

«يا ليت! لا يمكنني... صغيرتي! لكنني عندما أعود...».

ولم أكمل جملتي، رمتْ رغد بكتابها جانباً وقاطعتني بسيل مِنْ الضربات الخفيفة الموجهة إلى صدري...

إلى قلبي... إلى روحي... إلى كل عصبٍ حيٍ في جسدي... وشريانٍ نابض...

«لا تذهب... لا تذهب... لا تذهب...».

«رغد...».

«أنتَ قلتَ أنّكَ ستعتني بي كل يوم ودائماً! لا تذهب... لا... لا... لا...».

وأخذتْ تبكي بعمق... وكلما حاولتُ المسح على رأسها أبعدتْ يدي وضربتْ صدري استنكاراً...

ضرباتها لم تكن موجعةً، لو أنني لم أكن مصاباً ببعض الكدمات والرضوض في صدري، إثر عراكي الأخير مع عمّار وأصحابه... شعرتُ بالألم، ولكنني لم أحرّك ساكناً...

تركتُ لها حرية التعبير عن مشاعرها قدر ما تشاء... لم أوقفها... لم أبعدها... لم أنطق بكلمةٍ بعد...

إنها رغد التي تربّتْ في حضني... وعانقتْ ذات الصدر الذي تضربه الآن...

ليتهم لم يحرقوا الجامعة... ليتهم لم يحرقوا المصنع... ليتهم أحرقوا شيئاً آخر...

ليتهم أحرقوا عمّار!

ويبدو أنَّ صوت رغد قد وصل إلى مسامع والدي فجاء إلى غرفتي ووقف عند فتحة الباب...

عندما رأى ولدي رغد تضربني، غضب مِن تصرفها وبصوتٍ حاد قال، وهو واقفٌ عند الباب:

«رغد... توقفي عن هذا».

رغد رفعتْ رأسها ونظرتْ إلى والدي، ثم قالتْ:

«لا تدعه يذهب».

غير أنّ أبي قال بحدّة:

«خذي كتابكِ وعودي إلى أمكِ، ودعي وليد يدرس».

لم تتحرك رغد من مكانها، فرفع والدي صوته بغضب وقال:

«ألم تسمعي؟ اذهبي إلى أمّكِ وكوني فتاةً عاقلة».

رغد التقطتْ كتابها مِن على الأرض، وخرجتْ مِن الغرفة. أما قلبي أنا فكان يعتصر ألماً...

بعدها، قلتُ لأبي:

«لماذا يا أبي؟ إنها ستظل تبكي لساعات! جاءتْ تطلب مني تعليمها».

والدي قال بغضب:

«لقد كانتْ والدتك تعلّمها، وحين جيء بذكر سفرك، حملتْ كتابها وأتتْ إليك، نهيناها فلم تطع».

قلتُ مستاءً:

«لكنّكَ صرفتَها بقسوةٍ يا أبي».

لم تعجب جملتي والدي فقال:

«أنتَ تدلّلها أكثر مِن اللازم يا وليد... يجب أنْ تعلّمها أنْ تحترمك لا أنْ ترفع يدها عليك هكذا، تصرف سيئ».

«لكني لا أستاء مِنْ ذلك يا أبي... إنها مجرّد طفلة، كما أنني أتضايق كثيراً إذا أساء أحدٌ إليها، والدي... أرجوكم لا تقسوا عليها بعد غيابي...».

مَن يدري ماذا يحدث؟ بعد أنْ أغيب...؟ هل سيسيء أحدٌ إلى طفلتي؟؟ إنني لا أقبل عليها كلمةً واحدة... ليتني أستطيع أخذها معي!

انتظرتُ حتى انصرف والدي مِن المنزل، ثم فتّشتُ عن رغد، فوجدتها في غرفتها... وكما توقعتُ، كانتْ غارقةً في الحزن...

أقبلتُ إليها وناديتُها:

«رغد يا صغيرتي...».

رفعتْ رأسها إلي، فرأيتُ العالم المظلم مِن خلال عينيها البريئتين... اقتربتُ منها وطوّقتها بذراعي، وقلتُ:

«لا تحزني يا عزيزتي... لا أحبُّ أنْ أراكِ هكذا...».

قالتْ:

«لا تذهب... وليد...».

قلتُ:

«لا بد أنْ أذهب... فسفري مهمٌ جداً...».

«وأنا مهمّةٌ جداً».

«طبعاً أميرتي! أهم مَنْ في الدنيا!».

أمسكتْ بيدي في رجاءٍ وقالتْ:

«إذا كنتَ تحبّني مثلما أحبُّكَ فلا تسافر».

في لحظة جنون، كنتُ مستعداً للتخلي عن أي شيء، في سبيل هذه الفتاة... وبدأتْ أفكار التخلي عن حلم الدراسة تنمو في رأسي تلك اللحظة... ليتني... أيا ليتني استمعتُ إليها...

يا ليتني فقدتُ عقلي وجننتُ لحظتها بالفعل...

لكنني للأسف... بقيتُ متشبثاً بحلمي الجميل...

«عزيزتي، سأكون قريباً... اتصلي بي كل يوم وأخبريني عن كل أمورك! وإذا تشاجرتْ معك دانة فأبلغيني حتى أعاقبها حين أعود!».

نظرتْ إلي نظرةً سأضيفها إلى رصيد النظرات التي لن أنساها ما حييتُ...

ما حييتُ يا رغد لن أنسى هذه اللحظة...

«وليد... خذلتّني... لم أعد أحبّك!».

* * *

رغد لم تكلّمني طوال الصباح، بل ولم تنظر إليّ... كانتْ حزينةً وقد غابتْ ضحكتها الجميلة ومرحها الذي يملأ الأجواء حياةً وحيويةً...

الجميع لاحظ ذلك، واستنتجوا أنه بسبب موضوع سفري وغضب والدي منها يوم الأمس...

وكالعادة، أوصلتُ سامر إلى مدرسته، ثم دانة ورغد...

وهي تسير مبتعدةً عن السيارة ومتجهةً نحو مدخل المدرسة، كانتْ رغد مطأطئة الرأس متباطئة الخطى.

جعلتُ أراقبها قليلاً، فألقتْ عليّ نظرةً حزينةً كئيبة لم أتحمل رؤيتها، فابتعدتُ هارباً وسرتُ قاصداً المكان الذي سأجري فيه اختباري المصيري...

المشوار إلى هناك يستغرق قرابة الأربعين دقيقة، وكنتُ ألقي بنظرةٍ على الساعة بين الفينة والأخرى خشية التأخر. أعرف أنها فرصة العمر وأي تأخير مني قد يضيعها...

حينما أوشكتُ على الوصول، وردتني مكالمةٌ هاتفية عبر هاتفي المحمول، من صديقي (سيف) يتأكّد مِنْ وشوكي على الوصول. وسيف؛ صديقي الحميم، مرشّح معي أيضاً لدخول الامتحان.

بعد دقيقة، عاد هاتفي يرنُّ مِنْ جديد...

كان رقماً مجهولاً!

«مرحباً! لا بد أنك وليد!».

بدا صوتا غير معروف، سألته:

«مَنْ أنتَ؟؟».

قال:

«يا لذاكرتك الضعيفة أيّها الطالب المثالي! يبدو أنَّ الضرب الذي تلقّيته مِن قبضتي قد أودى بقدراتك العقلية!».

الآن استطعتُ تمييز المتحدِّث... إنه عمّار!

«عمّار؟؟؟!».

«أحسنتَ! هكذا تعجبني!».

استأتُ، كيف حصل على رقم هاتفي الخاص وما الذي يريده مني؟

«ماذا تريد؟».

«انتبه وأنتَ تقود! أخشى أنْ تُصاب بمكروه!».

«أجب ماذا تريد؟؟».

ضحك ذات الضحكة الكريهة وقال:

«لا شك أنّكَ في طريقكَ للامتحان! أليس كذلك! إنَّ الوقت سيستغرق منكَ ستين دقيقة فيما لو قرّرتَ الذهاب مسرعاً إلى المطار!».

ضقتُ ذرعاً به، قلتُ:

«هل لي أنْ أعرف سبب اتصالك؟ فإمّا أنْ تقول ماذا أو أنهي المكالمة».

«رويدكَ يا صديقي! سأمهلكَ ستين دقيقة فقط، حتى تمثل أمامي وتعتذر قبل أنْ أسافر بهذه الصغيرة بأي طائرة، إلى الجحيم!».

بعدها سمعتُ صرخة جعلتْ جسدي ينتفض فجأةً ويدي ترتعشان، والمقود يفلتُ مِن بينهما، والسيارة تنحرف عن خط مسيرها، حتى كدتُ أصطدم بما كان أمامي لو لم تتدخل العناية الربانية لإنقاذي...

«وليـــد... تعــال...».

لقد كان صوت رغد... نعم صوت رغد!!!!

جُنَّ جنوني...

فقدتُ كل معنى للقدرة على السيطرة يمكن أنْ يمتلكه أي إنسان... مهما ضعف.

صرختُ مذهولاً مفزوعاً:

«رغد! أهذه أنتِ رغد؟؟ أجيبي».

فجاء صوت صراخها وبكاؤها الذي أحفظه جيداً يؤكّد أنَّ أذنـيَّ لا زالتا تعملان بشكلٍ جيد...

«رغد أين أنتِ؟ رغد ردّي عليّ».

فردّ عمّار قائلاً:

«تجدنا في طريق المطار! لا تتأخر فطائرتي ستقلع بعد 90 دقيقة... إلا إنْ كنتَ لا تمانع في أنْ أصطحب شقيقتكَ معي!؟».

صرختُ مجنوناً:

«أيها الوغد أقسم... إنْ أذيتها لأقتلنّك... لأقتلنّك يا جبان».

ضحك، وقال:

«لا تتأخّر عزيزي ولا تثر غضبي! تذكّر... طريق المطار».

وقطع الاتصال...

استدرتُ بسيارتي بجنون، وانطلقتُ بالسرعة القصوى متجهاً نحو المطار...

لم أكن أرى الطريق أمامي، الشوارع والسيارات والإشارات... اجتزتها كلها دون أنْ أرى شيئاً منها.

لم أكن أرى سوى رغد... وأتذكر كيف كانت تنظر إليّ قبل قليل...

ثم أتخيلها في مكان ما بين يدي عمّار... الحقير...

لم أعرف كيف أربط بين الأحداث أو أفكّر في كيفية حدوث أي شيء...

أريد فقط أنْ أصل إلى حيث رغد...

لا أعرف كم من الوقت استغرقت...

شهر؟... سنة؟... قرن؟

بدا طويلاً جداً لا نهاية له...

سرتُ كقاربٍ تائهٍ في قلب المحيط... أو شهابٍ منطلقٍ في فضاء الكون...

لا يعرف إلى أين... ومتى وكيف سيصل...

وبم سيصطدم...

أخذتُ هاتفي واتصلتُ برقم عمّار الظاهر لديّ، أجاب مباشرةً:

«لقد انقضتْ عشرون دقيقة! أسرع فشقيقتك ترتجف خوفاً!».

«إياك أنْ تؤذيها وإلا...».

«سأفعل إنْ تأخرتَ!».

«أيها الـ.. دعني أتحدّث إليها».

جاءني صوتها الباكي المذعور:

«وليد أرجوك تعال إليَّ».

«رغد... عزيزتي أنا قادم الآن... لا تخافي صغيرتي أنا قادم».

«أنا خائفة وليد تعال بسرعة أرجوك... آه... أرجوك...».

أي عقل تبقّى لي؟؟

لماذا لا تتحرك هذه السيارة اللعينة؟ لماذا لم اشتر صاروخاً لمثل هذه الظروف؟

لماذا لم تحترق في الحرب يا عمّار... ألف لعنةٍ ولعنة عليك أيّها الجبان... ويلٌ لكَ مني..

بعد ساعة، وفيما أنا منطلقٌ كالبرق على الشارع المؤدّي إلى المطار، إذا بي ألمح سيارةً تقف جانباً، ويقف عندها رجلٌ ما... وأنا أقترب توضّح لي أنّه عمّار...

بسرعة، أوقفتُ سيارتي خلف سيارته مباشرةً ونزلتُ منها كالقذيفة وركضتُ نحوه، في الوقت الذي فتح هو فيه الباب، وأخرج رغد من السيارة...

جاءتْ رغد تركض مندفعةً نحوي فالتقطتُها ورفعتُها عن الأرض وأطبقتُ بذراعي حولها بقوة...

«رغد... رغد صغيرتي... أنا هنا... أنا هنا عزيزتي».

رغد كانتْ تحاول أنْ تتكلّم لكنها لم تستطع مِنْ شدّة الذعر...

كانتْ ترتجف بين يدي ارتجاف الزلزال المدمر... كانت تحاول النطق باسمي لكن لم تستطع النطق بأكثر مِن:

«وَ... وَ... و».

انهمرتْ دموعي كالشلال وأنا أضغط عليها وهي تضغط عليّ وتتشبّث بي بقوّة وأشعر بأصابعها تكاد تخترق جسدي فيما ترفع رجليها للأعلى كأنما تتسلّقني خشية أنْ تلامس رجلها الأرض وتفقدها الأمان...

«أنا معكِ عزيزتي لا تخافي... معكِ يا طفلتي معك...».

حاولتُ أنْ أبعد رأسها قليلاً عني حتى أتمكّن مِنْ رؤية عينيها وإشعارها بالأمان لكنها بدأتْ بالصراخ وتشبّثتْ بي بقوّة أكبر وأكبر كأنها تريد أنْ تدخل بداخلي...

«وليد! لديك امتحان مهم! هل ستضيّع الفرصة؟».

قال هذا عمّار الوغد، وأطلق ضحكةً كبيرة...

انتابتني رغبة في تحطيمه إلاّ أنّ رغد عادتْ تصرخ حينما خطوتُ خطوةً واحدةً نحوه...

«خسارة يا وليد! جرّب حظّك في مصنع والدي!».

وابتسم بخبث:

«جعلتُك تدفع الثمن... كما وعدتُ».

ثم استدار وهمّ بركوب سيارته...

خطوتُ خطوةً أخرى نحوه، فأخذتْ رغد تصرخ بجنون:

«لا.. لا.. لا.. لا.. لا».

انثنى عمّار ليدخل السيارة، ثم توقف، واستقام، واستدار نحوي وقال:

«نسيتُ أنْ أعيد هذا!».

ومِنْ جيب بنطاله أخرج شريطاً قماشياً طويلاً، ورماه في الهواء باتجاهي...

رقص الشريط كالحية في الهواء، وأنا أراقبه، في نفس اللحظة التي ظهرتْ فيها طائرة في السماء مخترقة قرص الشمس المعشية، ودوتْ بصوتها في الأجواء، فيما يتداخل صوتها مع صوت عمّار وهو يقول:

«إلى الجحيم!».

ثم هبط الشريط المتراقص تدريجياً وبتمايل حتى استقر عند قدميّ...

ركّزتُ نظري على الشريط، لأكتشف أنّه الحزام الذي تلفه رغد حول خصرها، والتابع لزيها المدرسي الذي ترتديه الآن...

رفعتُ نظري ببطءٍ وذهولٍ وصعق إلى وجه عمّار، فحرّك هذا الأخير زاوية فمه اليمنى بخبث إلى الأعلى في ابتسامة قضتْ عليّ تماماً... ودمّرتني تدميراً نهائياً...

أبعدتُ وجه رغد عن كتفي وأجبرتـُها على النظر إليّ... فيما أنا عاجزٌ عن رؤية شيء... مِنْ عشي الشمس... وهول ما أنا فيه...

لم أرَ إلا دماراً وحطاماً وناراً وجحيماً...

لهيباً... وصراخاً... ودموعاً تحترق... وآمالاً تتبعثر... وأحلاماً تنطفئ...

سواداً في سواد...

عند هذه اللحظة، نزعتُ رغد عني عنوة، ودفعتُ بها أرضاً ونظرتُ مِنْ حولي فإذا بي أرى صخور كبيرة قربي...

التقطتُ واحدة منها، وبسرعة لا تجعل مجالاً للمح البصر أنْ يدركها، وقوةٍ لا تسمح لشيء بمعاكستها، رميتُها نحو عمّار وهو يهمّ بركوب سيارته، فارتطمتْ برأسه... وصرخ... وترنّح لثوانٍ..

ثم هوى أرضاً...

وفاضتْ روحه...

إلى الجحيم...

الحلقة السادسة

لا ترحل يا وليد

- وليد -

وقفتُ جامداً في مكاني، وأنا أراقب عمّار يترنّح، ثم يهوي، وتسكن حركاته...

كان دوي الطائرة يزلزل طبلتَي أذنَي... دقّقتُ النظر إليه... لم يحرّك ساكناً... رفعتُ قدمي بصعوبة وحثثتُها على السير نحو عمّار...

بصعوبة وصلتُ قربه فرأيتُ عينيه مفتوحتين، والدماء تسيل مِن أنفه، وصدره ساكنا عن أية أنفاس...

أدركتُ... أنه مات... وإنني أنا... مَنْ قتله...

استدرتُ للخلف وعيناي تفتشان عن رغد...

صغيرتي الحبيبة... مُدللتي الغالية... مهجة قلبي...

رأيتها تقف بذعرٍ عند سيارتي، وتنظر إليّ ودموعها تنهمر بغزارة، فيما يستلقي حزامها القماشي على الرمال الناعمة بكل هدوء...

بتثاقل وبطء، بانهيار وضعف شديدين، سرتُ باتجاهها... نفذ كل ما كان في جسدي مِنْ طاقة، فكأنما كنتُ أعمل على بطارية انتزعتْ مني وتركتني بلا طاقة ولا حراك...

في منتصف الطريق، انهرتُ...

خررتُ على الأرض كما تخرّ قطعة قماش كانتْ متدلّية كالستار المثبت إلى الحائط... وارتطمتْ ركبتاي بالرمال... وهبطتْ أنظاري برأسي نحو الأرض...

رفعتُ رأسي بصعوبة ونظرتُ إلى رغد، وهي لا تزال واقفة في نفس الموضع والوضع...

بصعوبة فتحتُ ذراعي قليلاً، وقلتُ بصوت مخنوق خرج مِنْ رئتي:

«تعالي...».

رغد نظرتْ إلي دون أنْ تتحرك، فعدتُ أقول:

«إليّ... صغيرتي».

الآن، أقبلتْ نحوي بسرعة، وبقوة ارتمتْ في حضني وكادتْ تطرحني أرضاً... طوّقتني بذراعيها بقوة، وحين حاولتُ تطويقها أنا عجزتُ إلا عن رمي ذراعي المنهارتين حولها بضعفٍ وذبول...

بكيتُ كثيراً... وكثيراً جداً...

لما ضاع... ولما انتهى...

ولما هو آتٍ ومحتوم...

بقينا على هذا الوضع بضع دقائق، لا أقوى على قول أو فعل شيء... والسكون التام يسيطر على الأجواء...

كان طريقاً برياً موحشاً، ولم تمر بنا أية سيارة حتى الآن...

استعدتُ مِنْ القوة ما أمكنني مِنْ تحريك يدي قليلاً، فجعلتُ أمسح على رأس طفلتي وأنا أقول بحرقة ومرارة:

«سامحيني يا رغد... سامحيني...».

رغد استردّتْ أنفاسها التائهة، وقالتْ ووجهها لا يزال مغموراً في صدري:

«دعنا نعود للبيت».

أبعدتُ رأسها قليلاً عني وسمحتُ لأعيننا باللقاء... وأي لقاء؟؟

لقاء مبلّل بسيولٍ عارمة مِن الدموع الدامية... لم يجد لساني ما يستطيع النطق به...

حاولتُ النهوض أخيراً، وذراعاي تجاهدان مِن أجل حمل الصغيرة، ففشلتُ.

أطلقتُ صيحة حسرة وألم مريرة تمنيتُ لو أنها زلزلتْ الكون كله، وحطّمتْ كل الأجرام والكواكب ومَنْ عليها... ومحتْ الدنيا مِنْ الوجود...

وطفلتي الصغيرة تبكي على صدري مذعورةً فزعة... وعدوّي الوغد جثة هامدة تقطر دماً...

وحلمي الكبير قد ضاع وتلاشى كغبار عصفتْ به ريحٌ غادرة...

ومصيري المجهول البعيد... كما وراء الأفق... والساحة الخالية إلا مِن رغد وأنا... والشمس تشهد ما حدث ويحدث... رفعتُ يدي إلى السماء... وصرختُ:

«يـــا رب...».

استطعتُ أخيراً أنْ أُشحن بالطاقة الكافية، لأنهض وأحمل صغيرتي على ذراعي، وأسير بها نحو السيارة...

لم أجلسها على المقعد المجاور.. لا، بل أجلستها ملتصقةً بي، فأنا لا أريد لبضع بوصات أنْ تبعدها عني...

رنَّ هاتفي المحمول، والذي كان في السيارة، ألقيتُ نظرة لا مبالية على اسم المتصل الظاهر في الشاشة، كان صديقي سيف، أخذتُ الهاتف وأسكته، وألقيتُ به جانباً... فكل شيء قد انتهى...

انطلقتُ بالسيارة ببطء، وأنا لا أعرف إلى أين أتجه... فكل شيء أمامي كان مبهماً ومجهولاً...

قطعتُ مسافةً طويلة في اتجاهات متعدّدة، ونار صدري تتأجّج، ودموعي عاجزة عن إطفاء شرارة واحدة منها...

صغيرتي ظلّتْ متشبّثة بي، لا تتكلّم، وتنحدر دمعةٌ من عينها تخترق صدري وتمزّق قلبي قبل أنْ ينتهي بها المصير إلى ملابسها المتعطشة لمزيد مِنْ الدموع...

بعد فترة، مررتُ في طريقي بحديقةٍ عامّة.

وتصوّروا أي تصرّف لا يمتُّ لوضعي بصلة، هو الذي بدر مني دون تفكير!
«رغد عزيزتي، ما رأيكِ باللعب هنا قليلاً؟».
رغد رفعتْ بصرها إلي ببراءةٍ وشيءٍ مِنْ الاستغراب... فحتى على طفلةٍ صغيرةٍ محدودة المدارك، لا يبدو هذا تصرفاً طبيعياً..
«سأشتري بعض البوظة لنا أيضاً! هيا بنا».
وأوقفت السيارة، وفتحتُ الباب، ونزلتُ وأنزلتها عبر الباب ذاته.
أمسكتُ بيدها وحثثتها على السير معي نحو مدخل الحديقة. هناك، كان عددٌ قليلٌ جداً مِنْ الناس يتنزّهون، مع أطفالهم الصغار، فهو نهار يوم دراسي وحار...
إنني أعرف أنَّ صغيرتي تحبُّ الأراجيح كثيراً، لذا، أخذتها إلى الأرجوحة وبدأتُ أؤرجحها بخفة...
تخلخل الهواء ملابسها الغارقة في الدموع، فجففها، وصافحتْ أنسامه وجهها الكئيب فأنعشته...
تصوروا أنها ابتسمتْ لي!
عندما كانت رغد تبتسم، فإنّ الدنيا كلها ترقص بفرحٍ في عينيّ والبهجة تجتاح فؤادي وأي غبار لأي هموم يتبعثر ويتلاشى... أما هذه الابتسامة... فقد قتلتني...
لم أعِ لنفسي إلا والدموع تقفز مِنْ عينيّ قفزاً، وأوصالي ترتجف ارتجافاً، وقلبي يكاد يكسر ضلوعي مِنْ شدّة وقوة نبضاته...
تبتسمين يا رغد؟ بكل بساطة... وكأنَّ شيئاً لم يكن!؟
ألا يا ليتني... قتلتُكَ يا عمّار يوم تعاركنا... ليتني قضيتُ عليك منذ سنين...
ليتني أحرقتك قبل أنْ تحرق قلبي وتدمّر ماضيَّ ومستقبلي... وتحطّم أغلى ما لدي... «وليد».
انتبهتُ على صوت رغد تناديني، وأنا غارقٌ في الحزن المرير... مسحتُ دموعي بلا جدوى، فالسيل منهمرٌ والدمعة تجرُّ الدمعة...
«نعم غاليتي؟».
«هل نشتري البوظة الآن؟».
أغمضتُ عيني...
وأوقفتُ الأرجوحة شيئاً فشيئاً، فنزلتْ واستدارتْ إليّ... فأخذتها في حضني وقلتُ باكياً ومبتسماً في ذات الوقت:
«نعم يا صغيرتي، سنشتري البوظة وأي شيء تريدينه... وكل شيء تتمنينه... أي شيء أيتها الحبيبة... أي شيء... أي شيء...».
وانخرطتُ في نحيبٍ عميق...
رغد تبدلتْ تعبيراتُ وجهها وقالتْ وهي تندفع للبكاء:

«لا تبكِ يا وليد أرجوك».

وأجهشتْ بكاءً هي الأخرى...

جذبتُها إلى صدري وطوقتها بحنان وعاطفة ممزّقة... وبكينا سويةً بكاءً يعجز قلمي عن وصفه... وامتزجتْ دموعنا... ولو مرّ أحدٌ منّا لبكى...

ولو شهدتم بكاءنا لخررتم باكيين معنا...

ألا وحسبنا الله ونعم الوكيل...

بعد ذلك، مسحتُ دموعها ودموعي، وابتسمتُ لها:

«إلى البوظة الآن!».

حملتُ الطفلة الصغيرة الحجم الخفيفة الوزن الضئيلة الجسم البريئة الروح على ذراعي، فهي تحب ذلك...

وأنا سأفعل كل ما تحبه وتريده... ولو أملك الدنيا وما عليها لقدّمتُها لها فوراً... قبل الرحيل...

اشترينا البوظة، وجلسنا نتناولها قرب النافورة، وحين فرغتْ مِنْ نصيبها اشتريتُ لها واحدةً أخرى... وكذلك، أطعمتُها البطاطا المقلية فهي تحبها كثيراً!

أطعمتُها بيدي هاتين...

نعم... بهاتين اليدين اللتين كثيراً ما اعتنتا بها... في كل شيء... واللتين قتلتا عمّار قبل قليل... واللتين ستُكَبّلان بالقيود، وتذهبان إلى حيث لا يمكنني التكهّن...

جعلتها تلعب بجميع الألعاب التي تحبها، دون قيودٍ ودون حدود، بل ركبتُ معها وللمرّة الثانية في حياتها ذلك القطار السريع الذي جرّبنا ركوب مثيله قبل سنوات... وكم أسعدتها التجربة الثانية!

نعم... ببساطة... أسعدتها!

كأي طفلةٍ صغيرة وجدتْ فرصة لتلهو... دون أنْ تدرك حقائق الأمور...

لهونا كثيراً... وحين اقترب الموعد الذي يفترض أنْ أكون فيه عند مدرسة رغد ودانة، في انتظار خروجهما قلتُ:

«عزيزتي، سنذهب لأخذ دانة مِنْ المدرسة، لا تخبريها عن أي شيء».

نظرتْ رغد إليّ باستفهام، أمسكتُ بكتفيها وقلتُ مؤكداً:

«لا تخبري أحداً عن أي شيء، أنا سأخبرهم بأنك لم تشئي الذهاب للمدرسة فأخذتكِ معي... اتفقنا رغد؟ عديني بذلك؟».

وضغطتُ على كتفيها وبدا الحزم في عيني... فقالتْ:

«حسناً».

قلتُ مؤكداً:

«أخبريهم فقط أنك ذهبت معي، ونمتِ أثناء الطريق ولا تعلمين أيّ شيءٍ آخر... فهمتِ

عزيزتي؟».

«نعم».

«عديني بذلك يا رغد... عديني».

«أعدكَ... وليد».

«إذا أخلفتِ وعدكِ، فإنني سأرحل ولن أعود إليكِ ثانيةً».

توجّم وجهها، ثم أمسكتْ بيدي وشدّتْ قبضتها بقوة واغرورقتْ عيناها بالدموع وتعبيراتها بالفزع وقالتْ:

«لا لا ترحل وليد. أرجوك. لا تتركني. أعدك. أعدك».

وصلنا إلى البيت أخيراً، بدا الوضع شبه طبيعي، إلا مِنْ سكونٍ غريب مِنْ قِبَل رغد والتي يفترض بها أنْ تكون مرحة...

الكل عزا ذلك للحزن الذي يعتريها بسبب سفري المرتقب. سألتني أمي:

«كيف كان الامتحان؟».

قلتُ:

«لا بأس، سأخبركِ بعد الغذاء».

وتركتُ العائلة تنعم بوجبة هنيئة أخيرة... بعد ذلك، ذهبتُ إلى غرفة والديّ في وقت قيلولتهما الصغيرة...

«والدي... والدتي... لدي ما أخبركما به».

بدا القلق على وجهيهما، وتلعثمتْ الكلمات على لساني... أمي حين لاحظتْ حالتي المقلقة قالتْ:

«هل الامتحان...؟؟».

قلتُ:

«لم أحضر الامتحان».

اندهشا وتفاجآ... قال والدي:

«لم تحضره؟ كيف؟؟ لماذا؟؟ ماذا حصل؟؟».

نظرتُ إليهما، وسالتْ دموعي... وانهرتُ... وطأطأتُ رأسي للأرض...

هتفتْ أمي بقلقٍ وفزع:

«وليد... بنيّ!!».

أخذتُ نفساً عميقاً... ورفعتُ بصري إليهما وبلسان مرتجفٍ وجسد يرتعش وشفتين متردّدتين قلتُ:

«لقد... قتلتُ عمّار...».

الهاتف المحمول الخاص بعمار، والرقم الأخير الذي تم طلبه، والأخير الذي تم استقباله فيه، وتوقيت الاتصال، وتوقيت حدوث الوفاة، والعراك الذي حصل مؤخراً وتدخلتْ فيه

الشرطة، وعدم حضوري للامتحان، كلها أمور قد قادتْ الشرطة إليّ بحيث لم يكن اعترافي ليزيدهم يقيناً بأنني الفاعل...

بقي... شيءٌ حيّرهم... تركتُه ساكناً في قلب الرمال...

حزام رغد.

أنكرتُ أيّ صلةٍ لرغد بالموضوع بتاتاً، ولدى سؤالها أخبرتْهم بأنها لا تعرف شيئاً، حسب اتفاقنا. سيف أيضاً تمّ التحقيق معه، وأكدّ للشرطة أنّه حين اتّصل بي كنتُ على مقربةٍ مِنْ المبنى حيث قاعة الامتحان. وظل السؤال الحائر: لماذا عدتُ أدراجي؟

ما الذي دفعني للذهاب إلى شارع المطار، والشجار مع عمّار، ومِنْ ثمّ قتله؟

لماذا قتلتُ عمّار؟؟

والد صديقي سيف كان محامياً معروفاً، تولّى الدفاع عني في القضية، باعتبار أنني قتلته دون سابق ترصّد... وأثناء شجار... وكردّة فعل مفاجئة على أمرٍ كبيرٍ أصرُّ على كتمانه...

وسأظلُّ أكتمه في صدري ما حييتُ... فإنْ هم حكموا بإعدامي... أخبرتُ أمي قبل تنفيذ الحكم...

وإنْ عشتُ، سأدفن السرّ في صدري إلى أنْ أعود... مِنْ أجل صغيرتي...

تعقّدتْ الأمور وتشابكتْ... وظلّ الغامض غامضاً والمجهول مجهولاً، وحُكِمَ عليّ بالسجن لأمدٍ بعيد...

«أمي... أرجوكِ... لا تخبري رغد بأنني ذهبت للسجن... اخبريها بأنني سافرتُ لأدرس... وسأعود حالما أنتهي... وقولي لها أنْ تنتظرني».

«أبي... أرجوك... لا تقسُ على رغد أبداً... اعتنوا بها جيداً جميعكم... فأنا لن أكون موجوداً لأفعل ذلك».

كان ذلك في لقائي الأخير بوالديّ، قبل أنْ يتم ترحيلي إلى سجن العاصمة، حيث سأقضي سنوات شبابي وزهرة عمري فيه... بدلاً مِن الدراسة في الجامعة... وأعود إنْ قُدّرتْ لي العودة خرّيج سجون بدلاً مِنْ خرّيج جامعات... وبمستقبل أسودٍ منتهٍ، بدلاً مِنْ بداية حياةٍ وأمل مشرقين...

هكذا، انتهتْ بي الأحلام الجميلة...

هكذا، أُبعِدْتُ عن رغد... محبوبتي الصغيرة

هكذا... فرّقنا القدر أخيراً... بعد طول تلك السنوات من الالتصاق الحميم...

هكذا غربتْ رغد مِنْ سمائي تماماً... ولم يبقَ لي منها إلا صورتين كنتُ قد وضعتُهما في محفظتي قبل أيام...

وذكرياتٌ لا تُنسى أحملها في دماغي وأحلم بها كل ليلة...

وصورتها الأخيرة مطبوعة في مخيلتي وهي تقول:

«لا لا ترحل وليد. أرجوك. لا تتركني».

الحلقة السابعة

وبئس الحياة

- سامر -

لأنَّ أخي وليد لم يعد موجوداً، فسأخبركم أنا ببعض ما حدث في بيتنا بعد المصيبة العظمى.

لم يكن تقبُّل أيٍ منّا لا أنا ولا والديّ أو دانة أو رغد لغياب وليد بالشيء السهل مطلقاً. وخصوصاً رغد، فهي متعلقةٌ به كثيراً ورحيله أحدث كارثةً بالنسبة لها. مرضت رغد في بداية الأمر بشكل ينذر بالخطر.

وليد قبل أنْ يخرج مع أبي مِنْ المنزل ذلك اليوم إلى حيث لم نكن نعلم آنذاك، مرَّ بغرفة رغد وقد كانتْ مقيلة بعد الظهيرة. أظنه ظلّ يبكي هناك لفترة طويلة...

فتّش جيوبه ثم أخرج مجموعة مِنْ تذاكر ألعاب حديقة الملاهي، ووضعها إلى جانبها كما وضع ساعة يده... ثم قبّل جبينها بحرارة وغادر الغرفة.

أتى إلينا واحداً واحداً وجعل يعانقنا بحرارة شديدة ودموعٍ مستمرة...

عندما سألت دانة:

«إلى أين تذهب يا وليد؟؟».

أجاب أبي:

«سيسافر ليدرس كما تعلمون».

الذي نعلمه أنَّ موعد السفر لم يكن في ذلك اليوم... ولم يكن قد تحدّد. إنني لم أعرف أنّه قد أخِذ إلى السجن غير اليوم التالي، وقد أُجبِرتُ على كتم السر هذا عن الصغيرتين.

صحيح أنني تمنيتُ أنْ يهلك عمّار لحظة أنْ سخر مني وجعل الناس مِنْ حولي يضحكون علي، إلا أنني لمْ أتمنى أنْ يكون شقيقي الأكبر وأخي الوحيد هو مَنْ يهلكه...

خلال السنوات الماضية، كثيراً ما كان الشجار ينشب بينهما وعراكنا الأخير لم يكن غير حلقة من السلسلة... خاتمة السلسلة... الحلقة الأخيرة...

فيما كنا جالسين في غرفة المعيشة بعد مغادرة أبي ووليد وصلنا صراخ غير طبيعي مِن غرفة رغد. أسرعنا جميعاً نحوها فوجدناها في حالة فظيعةٍ من الذعر والخوف... وتصرخ «وليد... وليد...».

تلتْ ذلك مرّاتٌ ومرّاتٌ وحالاتٌ وحالاتٌ مِنْ الذعر والفزع والانهيار التي أودت بصحة الصغيرة لأسابيع...

في كل يوم، بل في كل ساعة، تقوم رغد بالاتصال بهاتف وليد لكن دون جدوى.

«لقد قال أنه سينتظر اتصالي كل يوم».

لقد كانت تعتقد أنه سافر...

«أنا وفيتُ بوعدي... يجب أنْ يفي بوعده».

والكثير مِن الهلاوس والوساوس والكوابيس المفزعة... والتصرفات غير طبيعية التي صدرتْ منها... وبدلاً مِنْ أنْ تكبر... أظنّها صغرتْ وعادتْ للوراء بضع سنين، أي كما جاءتنا أوّل مرّة... بكاءٌ مستمر، وخوفٌ لا مبرّر له، تشبُّثٌ جنوني بأمي، حتى في النوم.

رفضتْ الذهاب للمدرسة لفترةٍ ما، وكثيراً ما كانتْ تدخل غرفة وليد وتستلقي على سريره وتبدأ بالبكاء ثم بالصراخ، حتى اضطرّتْ والدتي لقفل تلك الغرفة لحين إشعارٍ آخر...

وما زاد الأمر سوءاً فوق سوء هو التدهور الحاد في الوضع الأمني في بلدنا وتعرّضها للهجوم العدواني، ما جعل الفزع يتفاقم في نفسها ونفوسنا جميعاً.

وتوالتْ الأيام، وبدأتْ حالة رغد تهدأ شيئاً فشيئاً، وتعتاد فكرة أنّ وليد لم يعد موجوداً، وأنّه سيعود بعد زمنٍ طويل...

أمّا تذاكر اللعب، فحين أردتُ أخذها ذات مرّة لتلهو في الحديقة، رفضتْ... وقالت:

«سأذهب مع وليد حينما يعود».

وأما الساعة، فلا تزال تحتفظ بها بين أشيائها النفيسة...

«سأعيدها لوليد حين يعود».

ولأنه نقل إلى سجن العاصمة، فإننا لاقينا الكثير من الصعوبات والمشقة في زيارة وليد، خصوصاً وأنّ أوضاع البلد قد انحدرتْ كثيراً والحرب قد اشتدتْ والدمار حلّ وانتشر وحطّم ما حطم مِنْ المباني والأراضي والشوارع... وكل شيء، واضطررنا لاحقاً لترك منزلنا والانتقال لمدينة أخرى...

- وليد -

في كل يوم، وبين الفينة والأخرى يّزج بشخصٍ جديدٍ إلى السجن. في الفترة الأخيرة، كان معظم السجناء من مرتكبي المدانين في القضايا السياسية والأمنية، أو المتّهمين بها ظلماً.

كنتُ أنا أصغر الموجودين سناً، إذ أنني لم أبلغ العشرين بعد، وكان وجودي بين السجناء مثيراً للاهتمام والتساؤل.

تعرّفتُ على (زميل) يُدعى نديم البحري. نديم هذا كان مداناً في إحدى القضايا السياسية وقد حُكِم عليه بسنواتٍ طويلةٍ مِنْ السجن والحرمان مِنْ الحياة...

«ومَنْ يعتني بزوجتكَ وابنتك الآن؟».

سألتُه أثناء حديثٍ لنا، وهل كنّا نملك غير الأحاديث؟؟

أجابني:

«ليس لديَّ الكثير مِنْ الأقارب، إلاَّ أنني اعتقد أنهما ستلجأان إلى أخي غير الشقيق (عاطف) فهو مقتدرٌ مادياً ويستطيع مساعدتهما - إن قبل».

واكتشفتُ فيما بعد، وللصدف المهولة والأقدار المفاجئة، أنَّ عاطف هذا لم يكن غير والد عمّار الذي قتلته!

الذي جعل الأمر يمرُّ مرور الكرام هو أنَّ نديم لم يكن على علاقة وطيدة بأخيه غير الشقيق عاطف أو ابنه المتوفى عمّار... ولم يبلغه نبأ موت الأخير.

والذي حدث هو أننا مع الوقت أصبحنا صديقين حميمين رغم ذلك. لقد كان هو الداعم الوحيد لي والمشجع على عيشة السجن المريرة...

وأي مر؟؟...

أي عذاب؟

أي ضياع...؟؟

في كل ليلة، اضطجع على السرير الضيّق المهترئ المتّسخ، عوضاً عن سريري الواسع المريح، وأغطّي جسدي المنهك بأغطيةٍ باليةٍ ممزّقة، بدلاً مِن البطانيات الناعمة النظيفة...

أغمض عينيَّ وأفكِّر... وأتذكَّر... وأبكي...

أخرج الصورتين مِنْ تحت الوسادة القديمة المسطحة، وأحدّق بهما...

هنا، يقف أفراد عائلتي جميعاً، هذا أبي... هذه أمي... هذا شقيقي سامر، وهذه الندبة التي شوّهت وجهه منذ ذلك اليوم... وهذه دانة... بظفيرتيها المتدليتين على كتفيها...

وهذه... هذه...

مَنْ هذه؟؟

إنها دنياي...

حبيبتي الصغيرة المدللة...

طفلتي الغالية...

نبضة قلبي... رغد

تقف إلى جانبي ممسكة برجلي...

كانتْ تريد مني أنْ أحملها إلا أنني فضّلتُ أنْ نلتقط الصورة وهي واقفةٌ إلى جواري...

وفي هذه الصورة الثانية... مع دفتر تلوينها...

ما أجملها... وما أجمل شعرها الخفيف الناعم... كم أحبُّ أنْ أمسح على رأسها... ما أنعم هذا الملمس...

مسحتُ بيدي... شعرتُ بخشونة...

خشونة السرير الذي ألقي بجسدي عليه...

خشونة الواقع الذي أعيشه...

رفعتُ يدي وأخذتُ أحدّق براحتي...

وأرى ما علق بها مِن غبار وحبات رمل تملأ السرير...

صرختُ...

صرختُ فجأةً رغما عني...

«رغد... أعيدوني إلى رغد... أخرجوني مِنْ هنا...».

وتضيع الصرخات بين القضبان...

في الصباح... أنهض عن سريري بكل كسلٍ وكل مللٍ وإحباط. فأنا سأنتظر دوري في طابور السجناء الذاهبين إلى دورات المياه، ثم أخرج مِنْ ذلك المكان البغيض وأنا أشعر أنني كنتُ أكثر نظافةً قبل دخولي إليه، وأذهب إلى حيث يُقدّم لنا فطور الصباح... وأي فطور..!!

عوضاً عن شاي أمي وأطباقها الشهية اللذيذة، التي أتناولها عن آخرها، يُقدّم لنا مشروباً سيّئ الطعم عكر اللون، لا أستطيع الحكم عليه بأنّه شاي أو قهوة أو أي مشروب آخر...

وأُجبِر معدتي الجوفاء على هضم طعامٍ رديء لا طعم له ولا رائحة، حتى إنني أترفّع عن مضغه وازدرده ازدراداً...

ويبدأ يومٌ فارغٌ لا أحداث فيه... تمرُّ الساعة تلو الأخرى دون أنْ يكون هناك أي تغيّر... لا مدرسة أذهب إليها... لا رفاق أتّصل بهم... لا أهل أتبادل الأحاديث معهم... ولا أطفال أرعاهم وأعلمهم... ولا رغد تظهر فجأة عند باب غرفتي وتقول:

«وليــد... لوّن معي!».

آه يا رغد...

ما الذي تفعلينه الآن؟

ما الذي فعلتِه بعد غيابي؟

هل يعتنون بك جيدا؟؟

رغد...

أكاد أموت شوقاً إليكِ...

ليتك تقفزين مِنْ مخيلتي وتظهرين أمامي، كما كان يحدث سابقاً...

«أخرجوني مِنْ هنا... أخرجوني مِن هنا..».

ولو لم يكن نديم موجوداً، أظنُّ... أنني كنتُ لأصاب بالجنون الحتمي.

* * *

اليوم سيأتي أهلي لزيارتي حسب الاتفاق.

في مثل هذا اليوم أكون أنا محلّقاً في السماء وفي حالة توتّر مستمرة...

أهلي بعد أنْ كانوا يزورونني مرتين في الأسبوع، اقتصروا على واحدة بسبب صعوبة الحضور ومشقّة المشوار...

أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً في توتّرٍ شديد... منتظراً لحظة مجيئهم.

«ما بكَ يا فتى؟! اجلس! ألم تتعبْ مِنْ المشي ذهاباً وعودة؟ لقد أصبتَني بالدوار!».

«لا أستطيع التوقف يا نديم... والداي وأخي سامر سيحضرون في أية لحظة! أنا مشتاقٌ لهم كثيراً جداً».

«على الأقل... أنتَ لديك مَنْ يزورك! أما أنا فلا علم لي بحال زوجتي وابنتي... ربّما أصابهما مكروه».

التفتُّ إلى نديم وأنا مندهشٌ مِنْ صبره وقدرته على التحمّل. مِنْ هذا الرجل العظيم، تعلّمتُ أشياءَ كثيرة... وأدين له بالكثير...

قلتُ:

«لا بد أنهما لم تحصلا على تصريح لزيارتك... خصوصاً وأنتَ (مجرم أمن) ويخشى منك!».

ابتسم نديم، وقال مازحاً:

«نعم! فأنا ألعب بمصير دولةٍ وشعبٍ كامل، لا رجل واحد! لِمَ لا تعمل معي بعد خروجنا مِنْ هنا؟».

«بعد خروجي مِنْ هنا، فإنّ آخر شيء أفكّر به هو العودة! أبقني بعيداً عن السياسة والأمن والدولة والشعب... إنني فقط أريد العودة إلى أهلي...».

نعم، فمَنْ يجرّب عيشةٍ مُذلّةٍ وضيعةٍ كهذه لا يمكن أنْ يسلكَ طريقاً يعيده إليها. هنا، فُتِح الباب، فاقشعر بدني وتأهّبَتْ أذناي لسماع ما سيقوله الحارس... ربّما جاء دوري للزيارة...

وقفنا جميعاً، أنا ونديم وجميع مَنْ كان معنا لدى سماعنا جلبة وضوضاء قادمةً مِنْ ناحية الباب، ومِنْ ثمَّ رؤيتنا للحراس والضبّاط يُدخِلون ثلاثة مِنْ الرجال المكبّلين بالحديد إلى داخل السجن، ويدفعون بهم دفعاً وينهالون عليهم بالضرب العنيف...

لقد كان مشهداً مريعاً هزّ قلوبنا جميعاً، وحين قاوم أحدهم رجال الشرطة وحاول مهاجمته، رُمي بالرصاص... وخرّ صريعاً أمام أعيننا.

حمل بعض الحراس الجثة وأبعدوها خارج الزنزانة، فيما واصل بعضهم ضرب الرجلين الآخرين حتى أفقدوهما الوعي...

كان منظراً فظيعا بشعاً جفلتْ أفئدتنا واكفهرّتْ وجوهنا لدى رؤيته...

ترك الضبّاط والحرّاس السجينين الجديدين ملقَين على الأرض مُثخنَين بالجراح، وغادروا.

وقفتُ جامداً في مكاني لا أقوى على الحراك، بعد أنْ كنتُ في قمّة النشاط والحركة، أجول في الغرفة دون سكون...

اقترب بعض الزملاء مِنْ الرجلين وحملوهما إلى سريرين متجاورين، واعتنوا بهما حتى أفاق أحدهما، وعلمنا منه أنهم - أي الثلاثة - مدانون في قضايا سياسية ومحكوم عليهم بالإعدام.

أخبرنا السجين الجديد هذا عن الأوضاع التي ازدادتْ تدهوراً بشكلٍ كبيرٍ جداً، وأنّه تمّ القبض على مجموعةٍ كبيرةٍ جداً مِنْ الشبّان بتهمٍ أمنية وسياسية مختلفة، وزُجَّ بهم إلى

السجون، في انتظار حكم الموت، وأنّ عدد القتلى مِنْ جنود الحرب وكذلك مِنْ عامّة الناس في ازدياد مطرد، وأنّ الحرب حامية الوطيس والمقابر ممتلئة والفوضى تعم البلاد...

بقيتُ واقفاً عند الباب أنتظر... الوقت يمرُّ وأهلي لم يحضروا... فهل أعاقهم شيء؟ أم هل أصابهم مكروهٌ لا قدّر الله؟

نديم كان يراقبني، وكلّما التفتُّ إليه التقتْ نظراتنا، أنا في قلقٍ، وهو يصبّر... وكلّما التفتُّ إلى الناحية الأخرى، وقع بصري على الدماء المراقة على الأرض... فأرفع بصري في ذعرٍ نحو السقف، فأرى مجموعة مِنْ حشرات الجدران تتجوّل بلا رادع، فأشعر باختناق في صدري، وأحاول شهق نفس عميق، فتنجذب إلى أنفي روائح كريهة مختلطة، مزيج مِنْ روائح العرق... والدماء... والأنفاس... وبقايا الطعام المتعفّن في سلة المهملات... ودخّان السيجارة التي يدخنها الحارس خلف الباب...

«أين والداي؟ لماذا لم يحضرا؟ أخرجوني مِنْ هنا... لم أعد أحتمل... أخرجوني مِنْ هنا...».

انهرتُ وأنا أبكي كطفلٍ أضاع والديه في دهليزٍ مظلم، فأقبل نديم نحوي يواسيني، بينما أطلق مجموعة مِنْ السجناء هتافات الانزعاج والاستياء أو السخرية منّي ومِنْ بكائي ونحيبي المتكرر.

إنني ابن العزِّ والنعمة والرخاء...

وقد تربّيتُ في بيتٍ نظيفٍ وسط عائلةٍ راقية محترمة... كيف لي أنْ أتحمّل عيشةٍ كهذه، ولدهرٍ طويل، لمجرّد أنني قلتُ شخصاً يستحق الموت؟

لم يحضر والداي في ذلك اليوم، ولا اليوم الذي يليه، ولا الأسبوع الذي يليه، ولا الشهر الذي يليه...

ولا السنين التي تلته واحدةً تلو الأخرى...

أصبحت منقطعاً بشكلٍ نهائي عن أهلي وعن الدنيا بأسرها. اعتقد أنَّ مكروهاً قد ألمَّ بهم، ولا أستبعد أنْ يكونوا قد قُتِلوا في الحرب...

الشخص الوحيد الذي حضر لزيارتي بعد عامين مِنْ انقطاعهم كان صديقي القديم سيف.

«لا أصدّق أنّك تذكرتني! لا بد أنني أحلم؟».

قلتُ ذلك، وأنا مطبقٌ بكل قوتي على صديقي، كمَنْ يمسك بخيالٍ يخشى ذهابه...

«لم أنسك أيها العزيز... إنني عدتُ للبلد بصعوبة قبل أيام، فكما تعلم كنتُ مسافراً للدراسة في الخارج... أوضاع البلد لم تسمح لي بالعودة قبل الآن».

سألته بلهفةٍ وخوف:

«وأهلي؟ عائلتي؟ ما هي أخبارهم؟؟ أما زالوا أحياء؟ لماذا لا يزورونني؟».

سيف طأطأ برأسه وتنهّد بمرارة، فأغمضتُ عينيّ ووضعتُ يدي فوقهما لأتأكّد مِنْ أنَّ الخبر المفجع لن يصلني...

سيف ربّتَ على كتفي وقال:

«لا علم لي بأخبارهم يا وليد... إذ يبدو أنهم اضطروا للرحيل عن المدينة وربما سافروا لمكان بعيد... ولم يتمكّنوا مِنْ العودة...».

تأوّهتُ... وشعرتُ بشيءٍ يخترق صدري فتألمّتُ... تهتُ بعيداً... إلى ما لا نهاية...

هل انتهى كل شيء؟

أمي وأبي...

سامر ودانة...

والحبيبة رغد...

حياتي كلها...

هل انتهى كل ذلك..؟؟

لقد كنتُ مسلّماً أمري ومستسلماً لقدري ولاعتقادي بأنّهم قد قُتِلوا في الحرب وأنّني لن أراهم ثانيةً وأنّ حياتي ستنتهي في هذا السجن...

ظهور سيف هو ما أنعش في قلبي الأمل الضعيف المحتضِر... وأيقظ الذكريات الميتة...

وها هو يبلغني بأنّهم... قد اختفوا...

آه... هل انتهى كل شيء؟؟

شعر سيف بألمي ومعاناتي فعانقني بعاطفة ملتهبة... وقال:

«سأحاول تقصّي أخبارهم يا وليد... الدنيا في الخارج مقلوبةٌ رأساً على عقب... ربما تكون أنتَ قد نجوتَ بدخولكَ هذا السجن!».

أبعدتُ سيف عني قليلاً بما يسمح لأعيننا باللقاء...

قلتُ:

«أريد أنْ أخرج مِنْ هنا...».

أمسكَ سيف بيدي وشدّ عليها... عيناه تقولان أنَّ الأمر ليس بيده... قلتُ:

«سيف... سيف أنتَ لا تعلم كم الحياة هنا سيئة! إنهم... إنهم يا سيف يضعون الحشرات عمداً في طعامنا ويجبروننا على قضم أظافرنا... والمشي حفاة في دورات المياه القذرة!

سيف... إنهم لا يوفّرون لنا الأشياء الضرورية كالمناديل والصابون وشفرات الحلاقة!

أنظر كيف أبدو؟ ألستُ مزرياً؟

عدا عن ذلك، فهم يضربون وبعنفٍ وهمجيّة كل مَنْ يبُدي استياءً أو يتذمّر!

زنزانتي يا سيف... لا يوجد فيها فتحة غير الباب المقفل... لا هواء ولا نور... إنني مشتاق إلى الشمس... إلى الهواء النقي... إلى أهلي... إلى الحياة... إلى كل شيءٍ حُرمتُ منه... أبسط الأشياء التي تجعلني أحس بأنني بشر... مخلوق كرّمه الله! إلى... فرشاة أسنان نظيفة أنظّف بها أسناني!».

ولو كنت استمررتُ في وصف حالي له، لكان فقد وعيه مِن الذهول... إلا أنني توقّفتُ

حين شعرتُ بيده ترتخي مِن قبضها على يدي ورأيت الدموع تتجمع في مقلتيه منذرة بالهطول...

أغمضتُ عينيّ بحسرةٍ وأنا أتخيّل وأقارن بين حياتي في البيت، وحياتي في هذه المقبرة... وجاء طيف رغد واحتل مخيلتي...

الآن...

أراها وهي تقول في لقائنا الأخير:

«لا ترحل... لا تتركني».

وتتلاشى هذه الصورة، ثم تظهر صورتها وهي مذعورة وترتجف بين ذراعي، ذلك اليوم المشؤوم...

ثم تظهر صورة عمّار، وابتسامته الخبيثة لحظة رميه الحزام في الهواء...

«إلى الجحيم...».

قلتُ دون وعي مني:

«كان يجب أنْ أقتله... ولو يعود للحياة... لقتلته ألف مرّة...».

انتبه صديقي سيف مِن شروده وتخيّله لحالتي الفظيعة، وقال:

«لماذا؟».

نظرتُ إليه، بصمتٍ موحش... فعاد يقول:

«لماذا يا وليد؟... الذي دفعكَ لأن ترمي بنفسك في حياة كهذه لا بد أنّه...؟؟».

ولم يتم جملته، استدرتُ مولياً إياه ظهري... تماماً كما استدرتُ حين سألني يوم الحادث.

سيف لم يصبه اليأس مني... قال:

«أخبرني يا وليد... فقد يكون أمراً يقلب الموازين ويخرجكَ مِنْ هنا بمدة أقصر... والدي أكّد لنا ذلك فيما مضى وقد يستطيع إعادة النظر في قضيتك بشكلٍ ما...».

بدا وكأن قلبي قد تعلّق بأمل الخروج... والبحث عن أهلي والعودة إليهم... ولكن... ألم يفت الأوان...؟؟

«وليد...».

استدرتُ لأواجه سيف... كانتْ نظرات الرجاء تملأ عينيه... إنّه الوحيد الذي أتى ليزورني مِنْ بين أصحابي وأهلي والناس أجمعين...

«لماذا وليد...؟».

«سيف...».

«كنتَ على وشك الوصول لقاعة الامتحان... ما الذي أخبركَ به، ثم أجبركَ على ترك الامتحان والذهاب إلى تلك المنطقة؟ وبالتالي... قتله؟؟».

«كان يجب أنْ أقتله...».

«لماذا قُلْ؟ أخبرني...».

«لأنه...».

«أجل..؟؟».

«لأنه... آه... لأنه اختطف صغيرتي رغد... وهدّدني بإيذائها ما لم أسرع بالحضور لتلك المنطقة...».

أصيب سيف بالذهول... واتسعتْ حدقتا عينيه وانفغر فاه مصعوقاً...

قال، دون أنْ تتلامس شفتاه:

«وَ...؟».

«وانتهى كل شيء...».

الحلقة الثامنة

نهاية وليد

- وليد -

ذات يوم...

وفيما كنا أنا ونديم وبعض شركاء الزنزانة نسلّي أنفسنا باللعب بالحصى، وهي لعبةٌ سخيفة اخترعناها مِن أجل تمضية الوقت الذي لا ينتهي، وكنّا نُسرُّ أو نتظاهر بالسرور أو نقنع أنفسنا به، فتح الباب ودخل مجموعة مِنْ العساكر.

توقّفنا جميعاً عن اللعب، وانسابتْ أنظارنا نحوهم. لم نكن نشعر بأي طمأنينة لدى دخول إي منهم... فمجيئهم ينذر بالشر والخطر.

بدأ العساكر يجولون بأبصارهم فيما بيننا بازدراء وتقزّز. ثم تقدّم أوسطهم خطوة للأمام وقال:

«نديم وجيه البحري».

وجعل ينقل بصره مِنْ واحد لآخر... نديم أجاب بعد برهة:

«أنا».

استدار العسكري إلى رفاقه وأومأ إليهم. تقدّم اثنان منهم وأقبلا نحو نديم... وقالا بحدّة:

«انهض».

نهض نديم ببرود، فإذا بهما يطبقان عليه بشراسة ويقودانه نحو الباب...

نديم سار معهما دون مقاومة، فيما كانتْ أفئدتنا وجلةً متوقعةً شراً.

لم ينبس أحدنا ببنت شفة، وبقينا في ساكنين ونحن نراقب نديم بقلق، فيستدير هذا الأخير ليلقي علينا نظرةً ويبتسم.

خرج العساكر بنديم وأقفلوا الباب وتركونا في صمتٍ موحشٍ لبضع دقائق... كنتُ أنا أوّل مَنْ أصدر صوتاً اخترق جدار الصمت حين قلتُ:

«إلى أين أخذوه؟».

هزّ البقية رؤوسهم في حيرة وتساؤل.

مضتْ ساعتان أو أكثر ونحن في هدوء وقلق... في انتظار عودة نديم وبدا أنّه لن يعود..

بدأتُ أذرع الزنزانة ذهاباً وجيئةً في بضع خطواتٍ قصيرة وأنا أدعو الله ألا يكون نديم قد أُعدِم... فهكذا قد فُعِل بسجناء سابقين.

وبينما أنا كذلك، إذا بالباب يُفتَح مجدداً، ويدخل اثنان مِنْ العساكر يحملان نديم ويلقيان

به أرضاً، ثم ينصرفان...

أقبلنا بسرعةٍ نحو نديم فإذا بالدماء تلطخ جسمه وملابسه، وإذا بالجروح والكدمات الملتهبة تغطي كامل بدنه...

«نديم! ماذا فعلوا بك؟؟».

صرختُ مذعوراً وأنا أرفع رأسه وأسنده على ركبتي... لم يكن نديم بقادرٍ على الكلام مِن شدّة الإعياء، وكان جليّاً لنا أنّه تعرّض لتعذيب شديد. تناوبنا جميعاً في العناية به حتى بدأتْ الحياة تجري في عروقه.

أخبرنا فيما بعد بأنهم أوسعوه ضرباً مِنْ أجل الإدلاء بمعلومات لا علم له بها... وأنهم في طريقهم لإعدامه حتماً.

في اليوم التالي، حضر العساكر أيضاً، وما أنْ دخلوا السجن حتى ارتعشتْ قلوبنا جميعاً واشرأبّتْ أعناقنا وتعلّقتْ أبصارنا بهم في حالةٍ لا توصف مِنْ الذعر.

في تلك اللحظة كنتُ أجلس جوار نديم أنظّف بعض جروحه وبلا شعور مني أمسكت بذراعه بقوّة خشية أنْ يأخذوه...

هتف أحد العساكر منادياً:

«معتز أنور الدوري».

انتفضنا جميعاً، وكان معتز، وهو أحد زملاء الزنزانة، وأحد المدانين في قضيّة سياسية، أكثرنا انتفاضاً وذعراً.

صرخ معتز بفزع:

«لا».

وتقدّم العساكر نحوه، وهو يتراجع للوراء ويداه ترتجفان والعرق يغرق جسمه الهزيل...

تقدّم العساكر بلا رحمة وأمسكوا به وهو يصرخ ويقاوم في عجز، وقادوه خارجاً.

وما هي إلا ساعة ونصف الساعة، حتى أُعيد إلينا بحالة سيئة، مغلّفاً بالجروح والكسور أيضاً.

أصبحنا نعيش حالةً مستمرّةً مِن الخوف الشديد، ولم يستطع أحدنا النوم بعدها. وأصبحنا لمجرّد سماعنا لأي صوتٍ يصدر مِن ناحية الباب، يركبنا الفزع المهول.

وجاء اليوم التالي، وجاء العساكر مجدداً...

كنا جميعا متكوّمين قرب بعضنا البعض، وأعيننا محدّقة بهم، وكل منا في خشيةٍ مِنْ أنْ يكون هو التالي...

«وليد شاكر آل شاكر».

عندما نُطق باسمي صعقتُ، بل وصُعِقَ جميع مَنْ معي...

أخذ قلبي يخفق بعنف، وأنا أراقب العساكر يتقدّمون نحوي خطوةً خطوة.

صرختُ:

«لكنني لستُ على علاقة بالسياسة».

لم أكد أنهي جملتي إلا والعساكر قد أمسكوا بي... حاولتُ سحب يدي مِنْ بين أيدهم بكل ما استطاعت عضلاتي إمدادي به مِنْ القوة... وفشلتُ...

«أنا هنا لجريمة قتل... لا شأن لي بالسياسة والأمن».

حاولتُ مستميتاً التخلص منهم ومقاومتهم دون جدوى. قادوني عنوةً نحو الباب ولم يستطع أحد زملائي النطق بكلمةٍ واحدة. وأنا أُسحَب إلى الخارج نظرتُ إلى نديم وقلتُ:

«ماذا سيفعلون بي؟ ما الذي فعلتُه أنا؟».

نديم أغمض عينيه بقوّة، في أسف وألم وكأنه يقول: (أرثي لك، ويلٌ لك مما ستلقى...).

ولقيتُ، ما لم ألقه في حياتي مطلقاً...

لقيتُ...

أصنافاً مِنْ العذاب التي أتوجّع وأتلوّى مِنْ مجرّد ذكرها... عذاباً... يُنسي المرء اسمه وجنسه.

تمنيتُ ساعتها، لو أنّ أمي لم تلدني.. لو أنني قتلتُ نفسي يوم قتلتُ عمّار... لو أنّ الله خلقني بلا أعصاب وإحساس...

ولا قلب...

ولو أنّ الدنيا خلتْ منْ اسم العذاب.. واسم السجون.. وحتى مِنْ اسم رغد...

الأوقات الوحيدة في حياتي كلها، التي تمنّيتُ فيها قهراً لو أنّ رغد لم تكن... ولم توجد...

أُصِبتُ بكسرٍ في أنفي جعل شكله يتغيّر وتظهر انحناءةٌ صغيرةٌ أعلاه.

بقيتُ ممدّداً على سريري بلا حراك ليومين، كان فيها مَنْ بقى مِنْ زملائي سالماً يعتني بي، وبنديم ومعتز، واثنين آخرين...

بعدها بفترة، علمنا مِنْ الحارس أنّ اسمي قد أُدِرج خطأً ضمن قائمة المدانين في قضايا الأمن!

مجرّد خطأ...!

كان ذلك بعد عدة أشهر مِنْ زيارة سيف الأولى وقبل أشهر أخرى مِنْ زيارته التالية والتي ابتدأها بقول:

«وليد!!! ماذا فعلتَ بأنفكَ!؟».

سردتُ على سيف ما حصل، ووعدني بأنْ يتم ذكر هذا في ملفي. عندما سألتُه عمّا جدَّ في موضوعي أخبرني بأنّ والده لا يزال يدرس الأمر، ويسعى جاهداً لإعادة فتح ملف قضيّتي، ولدى سؤالي عن أهلي قال:

«اختفوا!».

زاد ذلك ضيقي وإحباطي الشديدين وبدأتُ أزداد إيماناً ويقيناً بأنهم قد قُتِلوا جميعاً في الحرب... وإنْ كان الأمر كذلك، فإنني لا أرغب في الخروج...

بل أرغب في الموت...

أحقاً لم يعد لأهلي أي وجود؟؟

أماتوا؟ أم تخلوا عني؟ أم ماذا؟؟

ورغد؟؟ ماذا حلّ برغد؟؟

في تلك الليلة، رأيتُ كابوساً أفزعني...

رغد وسامر يلهوان بالدراجة الهوائية، ثم يهويان في حفرةٍ مليئة بالجمر المتقد.. ثمّ تشتعل النيران وتكبر، وتحرق منزلنا... وآتي صارخاً أحاول إخراج رغد مِنْ الحفرة... وأمدُّ يدي فإذا بي أُخرِج حزاماً قماشياً طويلاً تأكله النيران...

وأقرّب وجهي مِنْ الحفرة، فإذا بي أرى وجه عمّار في الداخل، يبتسم ثم يقهقه وأسمع صراخاً يدوي السماء...

صراخ رغد...

«وليـــد... أنا خائفة... تعال بسرعة».

أفقتُ مِنْ نومي مذعوراً، والعرق يبلل ملابسي وفراشي، كما تبلل الدموع وجهي المفزوع...

كنتُ أرتجف، وأتنفّس بقوة... وبلا إدراك أهتف:

«رغـد... رغـد».

صديقي نديم أقبل نحوي وأخذ يهدّئني ويطمئنني...

«هوّن عليك يا وليد... لم يكن إلا كابوساً».

لم أشعر بنفسي وأنا أرتمي على صدر نديم وأنخرط بكاءً وأهذي...

«أريد العودة لأهلي... دعوني أراهم ولو مرّة واحدة ثم اقتلوني... لا أريد الموت قبل ذلك... أريد أنْ أحقق أحلامي... أريد أنْ أكمل دراستي... أريد العودة إلى رغد...

كان يجب أنْ أقتله... انتظريني يا رغد فأنا قادم...».

ثمّ نهضتُ كالمجنون... وتوجّهتُ نحو الباب وأخذتُ أضربه بعنفٍ وأصرخ:

«أخرجوني مِنْ هنا... أخرجوني مِنْ هنا أيها الأوغاد».

لحق بي نديم ليمنعني مِن إثارة مشكلة ألا أنني أبعدتُه عني بركلة قوية مِن رجلي... وظللتُ أركل الباب بشدّة وأنا مستمرٌ في الصراخ...

حضر مجموعة مِنْ الحراس وفتحوا الباب، ثم انهالوا علي ضرباً بعصيهم حتى شلّوا حركتي... وانصرفوا...

لم يجرؤ أحد السجناء على فعل شيء حتى لا يلقى ذات المصير، وعوقِبتُ بأنْ مُنِع عني الطعام في اليوم التالي أيضاً.

تدهورتْ صحّتي الجسدية والنفسية بشدّة إثر تلك الليلة، وقضيتُ عدّة أسابيع طريح الفراش.

وربما هذا ما منع العساكر مِنْ تطبيق نظام التعذيب اليومي المُعتاد على جسدي... على الرغم مِنْ اكتشاف حقيقة أنّني لستُ مِنْ المدانين في قضايا الأمن.

جسدي، والذي كان ضخماً وقوياً، تحوّل إلى عظام متراكمة فوق بعضها البعض بلا حول ولا قوة...

وبعد فترةٍ وجيزة، صدر قرار يمنع زيارة السجناء، ولم يعد سيف للظهور مجدداً.

وقضى أملي الوهمي بالخروج مِنْ هنا...

واستسلمتُ أخيراً وتماماً لحياة السجون...

حاولتُ أنْ أصف لكم بعض الذي قاسيتُه في ذلك السجن الذي قضيتُ فيه فترة شبابي اليافع... والتي ضاعتْ سدى...

وما لم أذكر كان أدهى وأمر...

كانتْ فترةٌ جافة قاسية أكسبتْني جفافاً وخشونةً لم أولد بهما ولم أتربى عليهما. وغيّرتْ في طباعي وسلوكي، وبدأتُ أدخّن السجائر.

كان الحارس يتصدّق علينا بسيجارة واحدة، ندور بها فيما بين شفاهنا جميعاً... نقتسم سمومها وتقتسم همومنا...

ومرَّ عامٌ آخر...

ألمَّ المرض بصديقي نديم مِنْ جرّاء التعذيب المستمر... كان على فراشه، وكنتُ اعتني بجروحه وإصاباته التي شملت حتى أطراف أصابعه...

«وليد..».

«نعم يا عزيزي؟».

«يجب أنْ تخرج مِنْ هنا...».

قال نديم ذلك ثم رفع يده ومسح على رأسي، ثم وضعها فوق كتفي.

«يجب أنْ تخرج مِنْ هنا يا وليد وإلا لقيتَ حتفكَ».

«إنني هالكٌ لا محالة... لا جدوى ولا أمل...».

«افعل شيئاً يا وليد وغادر هذا المكان... اتصل بصديقكَ أو أي أحد.. إنّكَ لا زلتَ شاباً صغيراً... وجريمتكَ ليستْ سياسيّة...».

كنتُ الأصغر سناً بين الجميع، وأكثرهم تذمُّراً وشكوى، وبكاءً، إلا أنني هدأتُ واستسلمتُ لما فرضتْهُ الأقدار علي...

ابتسمتُ ابتسامة استهتار وسخرية، ويأس...

نديم كان ينظر إلي بعين عطف شديد ومحبة أخوية أو أبويّة... قال:

«اسمعني يا وليد...

لديَّ مزرعةٌ في المدينة الشمالية، حيث كنتُ أعيش مع ابنتي وزوجتي...

متى ما خرجتَ مِنْ هنا... فاذهب إليهما وأخبرهما بأنني بريءٌ وسُجِنتُ ظلماً... وأنني أفتقدهما كثيراً وأنني بقيتُ على أمل العودة إليهما دون يأس لآخر لحظة في حياتي...».

«نديم...».

قاطعني قائلاً:

«لا تنسَ ذلك يا وليد... وإنْ احتاجتا مساعدة منكَ... فأرجوكَ... ابذل ما باستطاعتك».

أقلقتني الطريقة التي كان نديم يتحدّث بها، هززتُ رأسي وقلتُ:

«لماذا تقول ذلك يا نديم...؟».

وانتظرتُ أنْ يجيب...

لكنه لم يجب...

وتحرّكتْ يده الممدودة على كتفي، ثم هوَتْ للأسفل... وارتطمتْ بالفراش... وسكنتْ سكون الموت...

إنا لله... وإنا إليه راجعون...

بعد أربع سنوات... وفي أحد الأيام... وفيما أنا مضطجعٌ على سريري بكسل وعدم اكتراث أدخّن بقايا السيجارة بلا مبالاة، وانظر إلى السقف وأرى الحشرات تتجوّل دونْ أن يثير ذلك أي اهتمام لدي..

إذا بالباب يُفتح، ثم يدخل بعض الضباط. معظم زملائي وقفوا في قلق...

أما أنا، فلم أحرك ساكناً... وبقيتُ أراقب سحابة الدخان التي نفثتُها مِنْ صدري ترتفع للأعلى... وتتلاشى...

«وليد شاكر».

هتف أحد الضباط... فقمتُ بتململ والتفت إليه ببرود. لم يعد يهمني إنْ كان لدي أي درس جديد في الضرب أو غيره...

عاد الضابط يهتف بحدّة:

«وليد شاكر».

نهضتُ عن فراشي ووقفتُ إزاء الضباط وأجبتُ بضجر:

«نعم؟».

وأقبل بعضهم نحوي، فرميتُ بالسيجارة أرضاً وسحقتُها بحذائي. أمسكوا بي وقادوني نحو الباب، فسرتُ بخضوع تام...

عندما صرتُ أمام الضابط الذي ناداني، رمقني بنظرة احتقار شديدة وهي نظرة قد اعتدتُ عليها ولم تعد تؤثّر بشعوري...

قال:

«وليد شاكر؟».

أجبتُ:

«نعم أنا، ولا علاقة لي بالسياسة، ومسجون في الزنزانة الخطأ منذ تسع سنين، وهذه أسطوانة حفظها الجميع، ومع ذلك ضربني مَنْ هم أضخم وأقوى منكَ... هاتَ ما عندكَ؟».

رفع الضابط يده فجأةً وصفعني على وجهي صفعةً قوية كادتْ تكسر فكّي...

ثم قال:

«هذه تذكار... لكَ منّي».

التفتُّ إلى زملائي وعيني تقدح بالشر، وقابلتْني نظراتهم بالتحذير...

فكتمتُ ما في صدري، ثم قلتُ:

«ثم ماذا؟».

ابتسم الضابط ابتسامة خبيثة دنيئة، ثم قال:

«لا شيء! فقط... صدر الأمر بالإفراج عنك!».

الحلقة التاسعة

عودة الغائب

- رغد -

أخيراً جاء دوري!

صرتم تعرفونني جميعاً...

اسمي رغد، وأنا يتيمة الأبوين أعيش في بيت عمّي الوحيد شاكر منذ الطفولة.

أنهيتُ دراستي الثانوية مؤخراً وأفكّر في الالتحاق بكلية للفنون والرسم أعشق الرسم كثيراً وأنا ماهرة فيه.

الجميع يعرفني برغد المدللة، حيث أنني تعودت منذ الصغر الحصول على كل ما أريد، وبأي طريقة!

اليوم نقيم في منزلنا الصغير حفلة متواضعة بمناسبة تخرّجي مِن المدرسة الثانوية. لم يتسنّى لنا إقامتها قبل الآن لأنّ والدتي - أي زوجة عمّي - كانت متوعكة الصحة. في الواقع، صحة والدتي ليست على ما يرام منذ سنين...

دانه تبالغ في وضع المساحيق لتبدو ملفتة للنظر!

رغم أنها لم تكن ترحّب بفكرة الحفلة، إذ أنّنا لم نقم حفلة عند تخرجها، إلا أنها مصرة على سرقة الأضواء مني هذه الليلة!

«إنها حفلة بسيطة ولا تقتضي منك كل هذا! تبدين كعروس بكامل زينتها!».

قلتُ لها وأنا واقفةٌ أراقبها وهي (مزروعة) أمام المرآة منذ ساعات!

لم تلتفتْ إلي، وقالتْ:

«ما دمنا قد دعوناهن، فلنبهرهن! قد تُعجب بي إحداهن فتخطبني لأخيها مثلاً!».

وابتسمتْ بدهاء!

أنا أعرف مَن تقصد تحديداً... لديها صديقة مِنْ عائلة ثرية جداً وشقيقها رجلٌ تحلم نصف فتيات العالم بالزواج منه، أما النصف الآخر فيبغضنه بشدّة!

إنه لاعب كرة قدم مشهور وصوره تملأ الصحف والمجلات وبرامج التلفاز أيضاً!

قلتُ:

«لا أعرف ما الذي يعجبكن في شخصيةٍ كهذه! إنه حتّى لا يتوقّف عن توزيع الضحك والابتسامات وكأنّه مهرّج!».

نظرت إلي بحدّة مِنْ خلال المرآة، ثم قالتْ:

«على كلٍ، الأمر لا يعنيك فأنتِ أخذتِ نصيبكِ وانتهى دورك!».
ثم انشغلتْ بتزيين خصلةٍ مِنْ شعرها بسائل ملمّع...
صرفتُ نظري عنها، إلى يدي اليمنى، بالتحديد إلى إصبعي البنصر، وبمعنى أدق، إلى خاتم الخطوبة الذي أضعه منذ سنين...
بمجرّد أنْ بلغتُ الرابعة عشر مِن عمري أي قبل ثلاث سنوات وأكثر، تمّ عقد قراني على ابن عمي سامر...
وبقينا مخطوبَين حتى إشعارٍ آخر.
سامر... يكبرني بخمس سنوات تقريباً، وما إنْ تخرّج مِنْ الثانوية حتى بادر بطلب الزواج منّي.
والدي، بل ووالدتي ودانة أيضا... الجميع كان يريد ذلك، فأنا أصبحتُ فتاةً بالغة ولم يكن مِنْ الممكن بقائي وابن عمي في بيتٍ واحد دون حرج على كلينا.
عدا عن ذلك، فإنّ سامر يحبني بجنون!
كما وأنني كنتُ السبب في الحادث الذي شوّه وجهه، وقلّل فُرصه لنيل إعجاب الفتيات به قطعاً.
أما أنا، وبالرغم مِنْ كوني جميلة أيضاً، إلا أنَّ هذا الخاتم يصرف الجميع عن الالتفات إليَّ...
على أية حال نحن لا نفكر في الزواج الآن، فسامر لا يزال يبحث عن وظيفة وأنا أطمح إلى الحصول على شهادة جامعية...
نبّهتْني دانة مِنْ شرودي الذي لاحظَتْهُ مِنْ خلال انقطاعي عن التعليق المستمر على مظهرها، قالت:
«أين سرحتِ؟ ألن تبدّلي ملابسكِ؟ إنهن على وشك الوصول!».
غادرتُ غرفتها واتجهتُ إلى غرفتي، حيث ارتديتُ فستاني الجديد الرائع... والذي اضطرّ والدي لشرائه لي رغم ارتفاع ثمنه، فقط لأنني قلتُ: أريده لي!
كان فستاناً خمري اللون مطرزاً بخيوطٍ ذهبية، طويل الذيل، وبدون كمين، مما يسمح للندبة القديمة في ذراعي اليسرى بالظهور...
أكملتُ زينتي وتحلّيتُ بطقم العقد الذهبي الذي أهدتني إياه والدتي قبل أيام...
حينما لففتُ السوار حول معصمي الأيسر، لم يبدُ منظره متناسقاً مع الساعة، إذ أنّ السوار ذهبي بينما الساعة فضية اللون...
هممتُ بخلعها، لكنني لم أستطع... لا أريد أنْ أبقيها بعيدةً عني في هذه الليلة...
لطالما كانتْ قريبةً مني وملتصقةً بي...
لم أكن آبه لتعليقات زميلاتي المزعجة حول ارتدائي لساعةٍ رجالية!
إنها شيءٌ لا أستطيع التخلص منه... تماماً كهذه الندبة!

نزعتُ السوار الذهبي، وحاولتُ لفّه حول معصمي الأيمن ففشلتُ!
«سحقاً!».
صحتُ بغضب، في ذات اللحظة الذي طرق فيها الباب...
لا بد أنها دانة جاءتْ تقارن بين مظهرينا كالعادة!
«ادخلي».
قلتُ ذلك وأنا ما زلتُ أحاول إغلاق السوار بيدي اليسرى حول معصمي الأيمن دون جدوى.
«مساء الخير!».
لم يكن هذا صوت دانة، بل سامر. رفعتُ بصري إليه وباندفاع قلتُ:
«سامر، هل لا أغلقتَ هذه قبل أنْ أحطّمها؟».
وأقبلتُ نحوه أمدّ إليه بمعصمي الأيمن وبالسوار...
«رويدكِ! هاتي..».
وأغلق السوار حول يدي اليمنى، فسحبتُها إلا أنّه أمسكَ بها وقال:
«تبدين رائعة! جداً جداً».
تورّد خدّاي خجلاً.. ثم قلتُ:
«مساء النور...! هل قلتُ ذلك؟».
ابتسم، وقال:
«لا أظن!».
«إذنْ مساء النور!».
ثم سحبتُ يدي فأطلقها. توجهتُ إلى سريري ألملم الأشياء التي بعثرتُها أثناء تزيين نفسي، ودخل سامر وأغلق الباب...
«رغد».
ناداني بصوتٍ مرح وبابتسامة مُشرقة، وسعادةٍ تملأ عينيه.
«نعم؟».
أقبل نحوي، وعاد يمسك بيدي وقال:
«لدي خبرٌ سارٌ جداً».
ابتسمتُ وقلتُ:
«هات؟».
«لقد عثرتُ على فرصةٍ ذهبية للعمل في وظيفةٍ مرموقة».
فرحتُ كثيراً! قلتُ بسرور:
«حقاً! أوه أخيراً... ممتاز!».
شدّ سامر قبضته على يدي وقال منفعلاً:

«أخيراً! كم أنا سعيدٌ ولا يتّسع صدري لفرحتي هذه! سأحصل على راتبٍ عظيم!».
بالنسبة لنا فهذا شيءٌ مهمٌ جداً، لأنّ أحوالنا المادية كانتْ في انحطاط بسبب ظروف الحرب، وكنا بحاجة لدعم مادي جيّد.
قلتُ:
«متى تباشر العمل؟».
«حالما أنهي الإجراءات اللازمة. سأحاول إتمامها خلال يومين أو ثلاثة».
«وفّقكَ الله».
قرّب سامر يدي إلى صدره، وقال:
«يجب أنْ نحدّد موعد الزواج».
تفاجأتُ، فنحن لم نتحدّث عن الزواج بجديّة بعد...
حالما رأى سامر علامات التعجب ظاهرةً على وجهي قال:
«عملي سيكون في مدينةٍ أخرى، وأريد أخذكِ معي».
سحبتُ يدي مجدداً، في توتر. فالخبر قد فاجأني، ولم يعجبني... قلتُ:
«في مدينةٍ أخرى؟... لم عليكَ الذهاب لمدينةٍ أخرى؟».
قال:
«تعرفين كم هو صعب العثور على وظيفة جيدة بسبب ظروف البلد... إنها فرصةٌ لا يمكنني رفضها مطلقاً. أخبرتُ والديَّ فشجّعا ذهابي».
صرفتُ نظري عنه إلى الأرض بضع ثوانٍ، ثمّ عدتُ أنظر إليه وقلتُ:
«وشجّعا زواجنا؟».
ابتسم وقال:
«لم أذكر ذلك لهما بعد. أودُّ أنْ نناقش الأمر نحن أولاً».
مِنْ البرود الذي اعترى تعبيرات وجهي أدرك سامر عدم موافقتي، فقال:
«لِمَ لا؟».
قلتُ:
«والكلية؟؟».
قال:
«الكلية... هل هناك ضرورةٌ لها؟».
«بالطبع... أريد أنْ أدرس، إنها فرصتي».
صمتَ سامر قليلاً، ثم قال:
«اصرفي نظركِ عنها يا رغد أرجوكِ... أنا لا أريد تضييع الفرصة، كما لا أريد العيش وحيداً هناك... تعلمين أنني لا أستطيع الابتعاد عنكِ...».
وأخذ ينظر إلى نظرات رجاءٍ وأمل...

كنتُ على وشك قول: (لنؤجل النقاش في الأمر لوقتٍ أنسب لأنّ ضيفاتي على وشك الوصول)، إلا أنّ طرْق الباب سبقني، ودخلتْ دانة مباشرةً وهي تقول:

«رغد! ألم تنتهي؟ وصلتْ نهلة!».

التفتنا أنا وسامر نحو دانة، والتي أخذتْ تحدّق بي قليلاً ثم التفتتْ إلى سامر وقالتْ:

«أنتَ هنا سامر؟ قل لي كيف أبدو؟ أليس فستاني أكثر جمالاً مِنْ فستان رغد؟».

سامر أخذ يدور ببصره بيننا ثم قال مداعباً:

«أنا لا أصلح للحكم بين خطيبتي وأختي! فخطيبتي ستبدو أجمل في كل مرّة!».

ثم انصرف مسرعاً وهو يضحك.

بقينا نحن الاثنتان كلٌّ منّا تتأمّل الأخرى، حتّى وقعتْ عينا دانة على ساعة يدي، فقالتْ بحدّة:

«رغد! ستبدين في منتهى السخافة هكذا! اخلعيها ولا تحرجينا أمامهن!».

نظرتُ إليها بغضبٍ وقلتُ بعناد:

«لنْ أخلعها، وسأظلُّ الأجمل أيضاً!».

في غرفة الضيوف حيث نقيم الحفلة، وجدتُ نهلة وسارة، ابنتا خالتي قد وصلتا وكانتا أوّل مَنْ حضر.

«واو!! فستانٌ رائع! ما أجمله يا رغد!».

قالتْ نهلة وهي تبعد يدها بعد مصافحتي...

نهلة كانتْ صديقة طفولتي الأولى، وانتقلتْ مع عائلتها للعيش في هذه المدينة مثلنا أيضاً منذ سنين، ولا تزال أفضل صديقة لديَّ.

أما سارة فهي الشقيقة الوحيدة لنهلة، وتصغرني بست سنوات، وتلازم نهلة كالظل!

«هل أعجبكِ حقاً؟ اشتراه والدي بسعرٍ مرتفع! إنني أعامله كأي قطعة مِن حليي الذهبية هذه!».

ابتسمتْ نهلة وقالتْ:

«كم أحسدكِ! لديكِ أبٌ يدللك كما لا يدلّل والدٌ ابنته! رغم أنك لستِ ابنته الحقيقية!».

هذه الكلمة تزعجني كثيراً، فأنا لا أحب أنْ يشير أحد إلى والديَّ بأنهما ليسا والديّ الحقيقيين. إنني اعتبرتهما كذلك منذ الصغر ولا أعرف والدين غيرهما مطلقاً.

قلتُ بنبرة مازحة:

«لأنني البنت الصغرى، وآخر العنقود... يجب أنْ أتدلّل!».

ثم نظرتُ إلى سارة وقلتُ:

«أليس كذلك سارة؟».

أجابتْ ببرود:

«كما تقول أختي».

رفعتُ نظري عن هذه الفتاة البليدة، وعدتُ أخاطب نهلة:

«وكيف حال خالتي وزوج خالتي؟ وحسام؟».

أجابتْ:

«بخير جميعاً! حسام أوصلنا إلى هنا وأظنه يلقي التحية على والدكِ الآن».

ثم أضافتْ، وهي تنظر إلي مِنْ زاوية عينها بخبث:

«وعلى فكرة، هو يبعث إليك أيضاً بتحية حارة مشتعلة!!».

رفعتُ إصبعي السبابة الأيمن وضربتُ جبينها ضربةً خفيفة وأنا أقول:

«لا تتوبين!».

وانبعث ضحكاتنا تملأ الأجواء.

ما إنْ حضرت صديقتنا الثرية (لمياء) حتى استقبلتها دانة استقبالاً حميماً، وأولتها اهتماماً مركزاً طوال الحفلة!

أتساءل... هل هذا ما يحدث مع جميع الفتيات؟!

هل يجذبن العرسان إليهن بهذه الطريقة؟؟

حقيقة لا أعرف!

بينما كنا في أحاديثنا المتواصلة في الحفلة، سألتني هذه الصديقة:

«هل أنتِ مخطوبة؟!».

وكانتْ تنظر إلى خاتم الخطوبة المطوق لإصبعي، وفي دهشة واضحة! تولّتْ دانة الإجابة بسرعة:

«ألم أخبركِ مسبقاً؟ إنها وشقيقي مرتبطان منذ زمن!».

قالتْ لمياء:

«ولكن... تبدين صغيرة!».

ومرّة أخرى تدخّلتْ دانة قائلةً:

«تصغرني بعامين وبضعة أشهر، لكن حجمها صغير!».

صحيح أنَّ طولي لا يُقارن بطول دانة أو سامر، لكنني لستُ قصيرة! بل هما الطويلان كما هما أبي وأمي!

إنني أبدو بالفعل لستُ مِنْ هذه العائلة!

قلتُ مداعبةً:

«هذا يجعلني قادرةً على ارتداء الأحذية الأنيقة ذات الكعب العالي المتماشية مع الموضة! على العكس مِنْ دانة!».

وضحكنا جميعاً بمرح...

قضينا سهرةً ممتعةً أنستني تماماً موضوع سامر الأخير. وبعد الحفلة، أويتُ إلى فراشي مباشرةً ونمتُ بسرعة، دون أنْ يخطر الموضوع ببالي.

في اليوم التالي، وفيما أنا منشغلةٌ برسم لوحةٍ جديدة في غرفتي، جاءني سامر...
«ألم تتعبي؟ قضيتِ فترةً طويلةً في الرسم!».
«الرسم لا يتعبني مطلقاً يا سامر، بل أهواه وأجد راحةً كبرى أثناءه وسعادة غامرة لا أجدها مع أي شيء آخر».
قال:
«ولا حتى معي أنا؟؟».
كان سامر يقف إلى جانبي يتأمل رسمي الجديد... وكنتُ أنا أدقّق النظر في اللوحة وألقي عليه نظرة بين الفينة والأخرى، وحين نطق بجملته الأخيرة هذه، أطلتُ النظر إليه، فشعرتُ بالخجل وطأطأتُ رأسي.
«رغد...».
لم أجب...
مدّ سامر يده فأمسك بوجهي ورفعه للأعلى...
قال:
«رغد... هل فكّرتِ بموضوعنا؟».
في تلك اللحظة فقط تذكّرت الموضوع!
آه يا إلهي كم هي ضعيفةٌ ذاكرتي!
سامر كان يتحدّث باهتمام... فالأمر يعني له الكثير، وقد قضى وقتاً طويلاً في البحث عن عمل...
لم أشأ أنْ أصيبه بخيبةٍ بقولي: (كلاّ).
فقلتُ:
«لا زلتُ أفكّر...».
سامر قال بنبرة مليئة بالرجاء:
«أرجوكِ يا رغد... يجب أنْ أبدأ الإجراءات المطلوبة قبل أنْ تضيع الوظيفة».
نظرت إليه وقلتُ:
«ماذا لو... عملتَ أنتَ هناك، وأكملتُ دراستي أنا هنا... ثمَّ...».
لم أتم جملتي، إذ أنَّ سامر هزَّ رأسه اعتراضاً وقال:
«لا... إمّا أنْ نذهب سوياً... أو نبقى سوياً...».
كنتُ أدرك أنّ سامر لا يستطيع الابتعاد عنا، كما أنّ علاقاته بالآخرين محدودة وكثيراً ما كان يتجنّب الاجتماعات المختلفة، ليتلافى الحرج مِنْ وجهه المشوّه.
حتى أنّه حين أراد إكمال دراسته، اختار مجالاً لا يدع له الفرصة للاحتكاك بالآخرين إلا نادراً.
سامر... هو شخصٌ هادئٌ ومسالم... وطيّب القلب...

قلتُ:

«دعنا نأخذ برأي أبي وأمي كذلك... يجب أنْ تتمّ أنتَ الإجراءات الآن، فيما نفكّر برويّة».

ابتسم سامر وقال:

«سأذهب الآن لإنجاز ذلك، وأعرض الأمر على والديَّ الليلة! سنفاجئهما!».

ابتسمتُ ابتسامةً قلقة حائرة، وتركتُه يذهب وواصلتُ رسم لوحتي...

كنتُ مصرّةً على إنجاز تلك اللوحة بأسرع وقت...

وفي الليل، تركتُ سامر يذهب إلى غرفة والدي لعرض الفكرة، فيما بقيتُ في غرفتي في قلقٍ وحيرة... وأخذتُ أفكّر...

ويبدو أنّ كثرة التحديق في اللوحة أصابتْ عيني بل وجسدي بالإعياء، فأغمضتُهما ولدهشتي استسلمتُ للنوم!

أفقتُ بعد ذلك فزعةً على صوت طرقٍ متواصلٍ على الباب...

نهضتُ عن سريري بفزع... وأصغيتُ إلى الهتاف...

«رغد... رغد افتحي... افتحي بسرعة!».

كانتْ دانة!

سرتُ إلى الباب بسرعةٍ وارتعاش وأنا في قمّة القلق... وقبل أنْ أصل إليه رأيتُه ينفتح وتدخل دانة في انفعال...

كانتْ في حالةٍ يصعب علي وصفها...

كان جسدها يرتعش، وأنفاسها تتضارب وتتلاحق بسرعة عبر فيها المفغور... كانتْ ذراعاها مفتوحتين... ويداها مرفوعتين، وأصابعها منفرجة، وتهتز بشدّة... والدموع تنهمر بغزارة على خديها.

قلتُ في هلعٍ وأنا أرفع يدي إلى قلبي مِنْ الذعر:

«دانة... ماذا حدث؟؟».

«رغد... رغد...».

وعادتْ تلهث... وقدرتها على النطق تخونها:

«رغد... رغد... أخي... أخي...».

تجمّدت وانحبس نفسي الأخير في صدري... حاولتُ قول: (ماذا...)؟

إلا أنني عجزتُ مِنْ الذعر...

هززتُ رأسي وأنا أشدُّ الضغط بيدي على صدري فوق قلبي، كمن يحاول حماية قلبه مِنْ تلقّي صدمة ما...

كانتْ دانة تحاول النطق وعجزتْ إلا عن إصدار أصوات مبهمة، وأشارتْ إليَّ أنْ اقترب...

خطوتُ خطوةً نحوها ونطقتُ أخيراً:

«سامر...».

هزّتْ دانة رأسها وقالتْ بصوت لا أعرف مِنْ أين خرج...

«و... و... وليد... وليد عـــــاد».

للحظة... ظللتُ أحدّق في دانة... في تشتّت...

لم أكن أعرف... هل هذا واقعٌ أم أحد أحلامي...؟

تلفّتُّ مِنْ حولي علّي أرى شيئاً واضحاً أكيداً بالنسبة لي...

دانة عادتْ تقول:

«وليد قد عاد... عاد يا رغد... عـــــاد».

لم تكن كلمات واضحة بالنسبة لي... وبقيتُ واقفةً على نفس الوضع... فأقبلتْ دانة نحوي وأمسكتْ بكتفي وضغطتْ عليهما...

لمجرّد إحساسي بيديها على كتفي أدركتُ أنّه ليس حلماً...

لم أشعر بأي شيءٍ يتحرّك في جسدي لكنني رأيتُ الجدران تتحرّك بسرعة والأرض تجري مِنْ تحت قدميّ والطريق يقودني إلى خارج الغرفة... وأطير... أطير... نحو مصدر أصوات البكاء التي أسمعها منبعثةً مِنْ مكانٍ ما في المنزل...

بالتحديد... مدخل المنزل...

وعند أعلى الدرجات المؤدية إلى المدخل... توقّف الكون عن الحركة مِنْ حولي...

وترنّحتْ ذراعاي إلى جانبيّ...

وتشبّثتْ أنظاري بالصورة التي ظهرتْ أمامي...

وتمركزتْ فوق العينين اللتين تعلوان الرأس الثابت فوق ذلك الجسد الطويل...

الحلقة العاشرة

في أحضان أحبّتي

- وليد -

ما أنْ خرجتُ مِنْ السور الضخم العملاق المحيط ببنايات السجن، حتى وجدتُ سيارةً تقف على الطريق المقابل، وإلى جانبها يقف رجل عرفت فوراً أنّه صديقي الحميم سيف...

كانتْ المرّة الأخيرة التي رأيتُها فيه قبل خمس سنوات، حين زارني في السجن قبل أنْ تُمنع الزيارة عنا.

كنتُ أسير ببطء شديد، خشية أنْ أفيق مما ظننتُه مجرّد حلم... نعم مجرّد حلم... حلم الحرية...

أنظر إلى السماء فأرى الشمس المشرقة تبعث إليّ بتحياتها وأشواقها الحارة... بعد فراق تسع سنين! وأرى الطيور تسبح بحريّة في ساحة الكون... بلا قيود ولا حواجز...

وأتلفّتُ يمنةً ويسرة فتلفحني أنسام الهواء النقيّة... عوضاً عن أنفاس المساجين المختلطة بدخان السجائر...

وأخيراً... ألتفتُ إلى الوراء... وألقيتُ نظرة الوداع على السور الكبير...

وداعاً أيها السجن!

وداعاً... لأسوأ وأبشع وأقسى سنوات عمري...

لن أطيل في وصفي لشعوري ساعتها فأنا عاجزٌ عن التصوير...

تعانقنا أنا وصديقي سيف عناقاً حاراً جداً ولا أعرف لماذا لم تنصهر دموعي ذلك الوقت!

ألأنني قد استنفذتها في السنوات الماضية؟؟.. أم لأنني كنتُ في حالة عدم تصديق؟؟

أم لأنني فقدتُ مشاعري وتحجّر قلبي وتبلّد إحساسي...؟؟

سيف أصبح أشبُّ وأكبر حجماً وأقوى عوداً، بينما أنا كعجوز واهن، في جسمي النحيل وبنيتي الهزيلة وقامتي الطويلة... إثر كل تلك السنين مِن الحرمان...

«حمداً لله على خروجكَ سالماً أيها العزيز».

قال سيف وهو يعانقني وسط بحر مِنْ الدموع... ويتأمّل جسدي البالي وتعبيرات وجهي الغريبة وعيني الجامدة... وفاهي المفغور... وأنفي المعقوف كذلك!

قلتُ:

«عدا عن (كسر بسيط) في الأنف!».

وأطردتُ:

«فعلها والدكَ؟».

فابتسم وقال مداعباً:

«والدي وأنا! بكم تدين لي؟؟».

«بعشر سنين مِنْ عمري المتبقّي أهديها لكَ!».

ركبنا السيارة وابتدأ مشوار العودة... الطويل...

كان المقعد جلدي قد أحرقته الشمس، وما إنْ جلستُ عليه حتى سرَتْ حرارته في جسدي فحرّكتْ فيه حياةً كانتْ ميتة...

طوال الوقت، كنتُ فقط أراقب الأشياء تتحرّك مِن حولي...

الطريق... الشارع... السيارات... الأشجار... كل شيءٍ يتحرّك... بعد أنْ قضيتُ تسع سنوات مِنْ الجمود والسكون والموت...

تسع سنوات مِن عمري، مِنْ شبابي... ضاعتْ سدى... فمَنْ يضمن لي العيش تسع سنوات أخرى... أو أكثر أو أقل؟؟

دهشتُ لدى رؤية آثار الحرب والدمار... تخرّب البلد. حدث الكثير في غيابي، ولم تعد الدنيا كما كانتْ.

الطريق كان شاقاً والشوارع مدمَّرة، وكان علينا عبور مناطق لا شوارع بها وقد حضر سيف بسيارة مناسبة للسير فوق الرمال والطرق الوعرة.

بين الفينة والأخرى ألقي نظرة على ساعة السيارة، ودوناً عن بقية الأشياء مِنْ حولي، لا أشعر بها هي بالذات تتحرّك...

إنني في أشد الشوق لرؤية أهلي... منزلي... مدينتي...

وشديد اللهفة إلى صغيرتي رغد!

آه يا رغد!

ها أنا أعود...

فهل أنا في حلم؟؟... هل أنا في حلم الآن؟؟

كانتْ الشمس قد استأذنتْ للرحيلٍ على وعد بالحضور صباحاً، لحظة أنْ فتحتُ عيني على صوت يناديني...

«وصلنا! انهض عزيزي».

لم أشعر بنفسي حين نمتُ مقداراً لا أعلمه مِنْ الوقت، إلا أنني الآن أفقتُ بسرعة وبقوة...

كان جسدي معرقاً وملتصقاً بملابسي وبالمقعد الجلدي... ومع ذلك لم أشعر بأي انزعاج أثناء النوم...

«وصلنا! إلى أين؟».

قلتُ ذلك وأنا أتلفَّتُ يمنةً ويسرة وأرى الدنيا مظلمة... إلا عن أنوار بسيطة تتبعثر مِنْ

مصابيح موزعة فيما حولي...

قال سيف:

«إنه منزلي يا وليد».

حدّقتُ بسيف برهة، ثم قلتُ:

«خذني إلى منزلي رجاءً!».

سيف علاه شيء مِنْ الحزن وقال:

«كما تعرف يا وليد... أهلك قد غادروا... ستبقى معي لحين نهتدي إليهم سبيلاً».

استقبلني أبو سيف استقبالاً حاراً وتعانقنا عناقاً حميماً، وكلّما حاولتُ أنْ أعبّر له عن مدى شكري وامتناني وجدتُني عاجزاً عن التعبير... ووجدتُه متفهّماً ويشدُّ على يدي بتشجيع. أدين لسيف وأبيه ببقيّة عمري.

قضيتُ تلك الليلة، أوّل ليالي الحرية، في بيت أبي سيف، معزّزاً مكرّماً محتفى بي. هل لكم بتصوّر شعوري عندما وُضِعتْ أطباق العشاء أمامي؟؟

طبخات لم أذقها منذ تسع سنين، شعرتُ بالخجل وأنا مقبلٌ على الطعام بشراهة فيما سيف يراقبني ويبتسم!

«أنا آسف! إنني جائعٌ جداً!».

قلتُ ذلك وأنا مطأطئ بعيني نحو الأسفل خجلاً، إلا أنَّ سيف ضحك وقال:

«هيا يا رجل كُلْ قدر ما تشاء واطلب المزيد! بالهناء والعافية».

رفعتُ بصري إليه وقلتُ:

«لو تعلم كيف كان طعامي هناك...!».

هزَّ سيف رأسه وقال:

«انس ذلك... لقد كان كابوساً وانتهى، الحمد لله».

هل انتهى حقاً...؟؟

رغم أنّه كان سريراً ناعماً واسعاً نظيفاً وعطراً، إلا أنني لم أستطع النوم جيداً تلك الليلة...

كيف تغمض لي عينٌ وأنا مشغول البال والتفكير... بأهلي...؟

وبعد صلاة الفجر، وحينما عادتْ الشمس موفيةً بوعدها، واطمأننتُ إلى أنها صادقة وستظهر لتشرق حياتي كل يوم، فتحتُ النافذة لأسمح بأشعتها للتسرّب إلى الغرفة ومعانقة جسدي بعد فراقٍ طويل...

رأيتُ أشياء كثيرة ومزعجة في نومي... سمعتُ صوت نديم يناديني...

«انهض يا وليد، جاء دورك».

كان العساكر يقفون عند باب السجن ينظرون إليَّ... لم أشأ النهوض... هززتُ رأسي رافضاً، لكن نديم ظل يناديني..

أفقتُ، وفتحتُ عيني لأنظر إليه، وأرى السقف والشقوق التي تملؤه، وتخزّن عشرات الحشرات بداخلها... المنظر البشع الذي اعتدتُ رؤية كلّما أفقتُ مِنْ نومي طوال تسع سنين...

لكنني رأيتُ سقفاً نظيفاً ومزخرفاً... منظراً لم أعتد رؤيته... نهضتُ بسرعة ونظرتُ مِنْ حولي...

«وليد! هل أفزعتكَ! أنا آسف!».

كان صديقي سيف يقف إلى جانبي...

قلت وأنا شبه واع، وشبه حالم:

«أأنتَ سيف؟ أم نديم؟؟ هل أنا في السجن؟ أم...».

سيف مدَّ يده وأمسك بيدي بعطف وقال:

«عزيزي... إنك في بيتي هنا، لا تقلق...».

خشيتُ أنْ يكون حلماً وينتهي، حرّكتُ يدي الأخرى حتى أطبقتُ على يد سيف بيديَّ كلتيهما، وقلتُ:

«سيف! أهي حقيقة؟ أرجوكَ لا تجعلني أفيق فجأةً فأكتشف أنه مجرّد حلم! هل خرجتُ أنا مِنْ السجن حقاً؟؟».

الآن فقط، تفجّرتْ الدموع التي كانتْ محبوسةً في بئر عينيَّ.

بعد ذلك، أصررتُ على الذهاب للمنزل حتى مع علمي بأنّ أحداً لم يعد يسكنه. وكلّما اقتربنا في طريقنا مِنْ الوصول، كلما تسارعتْ نبضات قلبي حتى وصلنا وكادتْ تتوقّف!

اتجهتُ نحو الباب وجعلتُ أقرع الجرس، وسيف ينظر إليَّ بأسىً... لم يفتحه أحد...

جالتْ بخاطري ذكرى تلك الأيام، حينما كانت رغد ودانة تتسابقان وتتشاجران مِن أجل فتح الباب!

التفتُّ إلى الخلف حيث يقف سيف، وكانتْ تعابير وجهه تقول: (يكفي يا وليد).

لكنني كنتُ في شوق لا يكبح لدخول بيتي...

نظرتُ مِن حولي، ثمّ أقبلتُ إلى السور، وهممتُ بتسلقه!

«وليد! ما الذي تفعله!؟».

أجبتُ وأنا أقفز محاولاً الوصول بيدي إلى أعلى السور:

«سأفتح الباب، انتظرني».

وبعد أنْ قفزتُ إلى الداخل فتحتُ الباب فدخل سيف...

«ولكن لا جدوى! كيف ستدخل للداخل؟».

بالطبع ستكون الأبواب والنوافذ جميعها مغلقةً وموصدة مِن الداخل، إلا أنني أستطيع تدبر الأمر!

قلتُ:

«سترى!».

وانطلقتُ نحو الحديقة...

لم تعد حديقتنا كما كانتْ في السابق، خضراء نظرة... بل تحوّلتْ إلى صحراء صفراء جافة... انقبض قلبي لدى رؤيتها بهذا الشكل...

أخذتُ أتلفّتُ فيما حولي وسيف يراقبني باستغراب. وقعتْ أنظاري على أدوات الشواء التي اعتدنا وضعها في إحدى الزوايا... كم كانتْ أوقاتاً سعيدة تلك التي كنا نقضيها في الشواء. توجهت إليها وأخذتُ أحفر الرمال بيدي...

«ما الذي تفعله بربّك يا وليد؟؟! هل أخفيتَ كنزا هناك؟؟».

وما أنْ أتمّ سيف جملته حتى استخرجتُ مفتاحاً مِنْ تحت الرمال!

تبادلتُ أنا وسيف النظرات والابتسامات، ثم قال:

«عقليّة فذّة! كما كنتَ دائماً!».

وضحكنا...

كنتُ أخفي مفتاحاً احتياطياً في تلك الزاوية تحت الرمال منذ عدّة سنوات... وسبحان الذي أبقاه سراً دفيناً حتى هذه اللحظة!

وأخيراً دخلتُ المنزل. للحظة الأولى أصابتْ جسدي القشعريرة لدى رؤية الأشياء في غير أمكنتها... تجوّلتُ في الممرّات وشعرتُ بالضيق للسكون الرهيب المخيّم على المنزل...

عادةً ما كان البيت يعجُّ بأصوات الأطفال وصراخهم... ضحكاتهم وشجارهم...

صعدتُ إلى الطابق العلوي قاصداً غرفة نومي، حيثُ تركتُ ذكريات عمري الماضي... وحين هممتُ بفتح الباب، وجدتها مقفلة...

«تباً!».

توجهتُ بعد ذلك إلى غرفة رغد الصغيرة، الملاصقة لغرفتي مباشرةً.. مددتُ يدي وأمسكتُ بالمقبض، وأغمضتُ عينيّ، وأدرتُ المقبض، فلم ينفتح الباب...

كانتْ هي الأخرى مقفلة.

أدرتُ المقبض بعنف، وضربتُ الباب غيظاً... وركلتُه مِنْ فرط اليأس... أخذتُ أحاول فتح بقيّة أبواب الغرف لكنني وجدتها جميعاً مقفلة، فشعرتُ وكأنّ الدنيا كلها... مقفِلةٌ أبوابها أمامي...

عدتُ إلى غرفة رغد وأنا منهار... جثوتُ على الأرض وأطلقتُ العنان لعبراتي لتسبح كيفما تشاء...

«أين ذهبتم... وتركتموني؟؟...».

أغمضتُ عيني وتخيلتُ... تخيلتُ الباب ينفتح، فأرى ما بالداخل...

على ذلك السرير تجلس رغد بدفاتر تلوينها، منهمكةً في التلوين... وحين تحسُّ بدخولي ترفع رأسها وتبتسم وتهتف: (وليـــد!).

ثمّ تقفز مِنْ سريرها وتركض إليّ... فألتقطها بين ذراعي وأحملها عالياً!

«أين أنتم؟ عودوا أرجوكم... لا تتركوني وحيداً... لقد تعبتُ مِنْ الوحدة والحرمان... عودوا إليَّ».

كنتُ أبكي بحرقةٍ ومرارة وعيناي تجولان في أنحاء المنزل وأتخيّل أهلي مِن حولي... هنا وهناك... وأتوهّم سماع أصواتهم... لقد رحلوا... وتركوا المنزل خالياً والأبواب مقفلة... ووليد وحيداً تائهاً...

هل تخلوا عني؟؟ هل أصبحتُ في نظرهم ماضٍ مخجل يجب نسيانه؟ مجرماً يجب حذفه مِن الحسبان؟؟

كيف يمتنعون عن زيارتي والسؤال عني كل هذه السنين... ثمّ يرحلون...؟؟

أهم أحياء؟؟ أم أنّ الحرب قد قضتْ عليهم جميعاً؟؟

أخرجتُ الصورتين اللتين احتفظ بهما منذ سنين مِنْ أحد جيوبي... وجعلتُ أتأمّل وجوه أهلي وأناديهم... واحداً تلو الآخر كالمجنون...

أبي... أمي...

سامر... دانة...

رغد...

أحبّتي.. لقد عدتُ! أين أنتم؟؟ أجيبوا أرجوكم... أنا مشتاقٌ إليكم... أنا بحاجة إليكم... لِمَ تركتموني هكذا؟؟

سيف ظلّ واقفاً يراقب عن بعد...

كنتُ لا أزال جاثياً عند باب غرفة رغد غارقاً في الحزن والبكاء المرير... حين لمحتُ شيئاً لم أكن لألمحه لو لم أجثو بهذا الوضع...

مِن بين دموعي المشوّشة للرؤية أبصرتُ شيئاً تحت باب غرفتي. مددتُ أصابعي وأخرجتُه ببعض الصعوبة، فإذا به قصاصة ورق صغيرة مثنية. وحين فتحتُها وجدتُ التالي:

(وليد، لقد ذهبتُ مع أمّي وأبي ودانة وسامر إلى المدينة الصناعية. عندما تعود تعال إلينا. أنا أنتظركَ كما اتفقنا. رغد).

لكم أنْ تعذروا سيف للذهول الذي أصابه حين رآني أنهض واقفاً فجأة، وأطلق ضحكةً قويّةً بين نهري الدموع الجاريين!

«وليد!! ماذا دهاك؟؟».

نظرتُ إليه وأنا أكاد أقفز فرحاً وقلتُ:

«إنها رغد العزيزة تخبرني بأنهم في المدينة الصناعية! هل رأيتَ شيئاً كهذا؟؟».

وأخذتُ أحضن الورقة والصور بجنون!

سيف قال:

«عقليةٌ... فذّة... أظن ذلك!!».

وضحكنا مِن جديد.

وبعد يومين، حين رتّب سيف أموره للسفر، انطلقنا أنا وهو بالسيارة ميممين وجهينا شطر المدينة الصناعية...

لقد تكبّلنا مشاقاً لا حصر لها أثناء الطريق، إذ أنّ الشوارع كانتْ مدمّرة واضطررنا لسلك طرق ملتوية ومطوّلة جداً...

كما وأننا واجهنا عقبات مع الشرطة المحليين.

إنني لمجرّد روية شرطي، ارتعش وأصاب بالذعر... حتى وإنْ كان مجرد شرطي مرور...

لن أطيل في وصف الرحلة، لم يكن ذلك مهماً... فرأسي وقلبي وكلّي... مشغولٌ بأهلي وأهلي فقط...

وأولهم... مدللتي الصغيرة الحبيبة... رغد...

رغد...

أنا قادم إليك أخيراً...

قادم أخيراً...

وصلنا إلى المدينة الصناعية مساء اليوم الثاني، وقد نال منا التعب ما نال. لذا فإنَّ سيف أراد استئجار شقّة نقضي فيها ليلتنا لنبدأ البحث في اليوم التالي...

«ماذا؟ لا أرجوك! لا أستطيع الانتظار لحظة بعد!».

تنهّد سيف وقال:

«يا عزيزي دعنا نبات الليلة وغداً نذهب إلى بلدية المدينة ونسألهم عن أهلك! أين تريدنا أنْ نبحث الآن؟؟ نطرق أبواب المنازل واحداً بعد الآخر؟؟».

«أجل! أنا مستعدٌ لفعل ذلك!».

ابتسم سيف، ثم ربّتَ على كتفي وقال:

«صبرتَ كثيراً! اصبر ليلة أخرى بعد!».

لم تمر عليّ ساعات أبطأ مِنْ هذه مِنْ قبل... لم أنم حتى لحظة واحدة وأصابني الإعياء الشديد والصداع.

وفي اليوم التالي، وقفنا عند إحدى محطات الوقود، وذهب سيف لشراء بعض الطعام وهممتُ باللحاق به، لكنّني شعرتُ بالتعب الشديد...

عندما عاد سيف، التفتَ نحوي مقدماً بعض الطعام إليَّ:

«تفضَّل حصَّتك!».

هززتُ رأسي ممتنعاً، فأنا لا أشعر بأي رغبة في الطعام فيما أنا قد أكون على بعد قاب قوسين أو أدنى مِنْ أهلي...

أسندتُ رأسي على المعقد ورفعتُ يدي إلى جبيني وضغطتُ على صدغَيَّ محاولاً طرد الصداع...

«أأنتَ بخير؟؟».

سألني سيف، فأجبتُ:

«صداع شديد».

«خُذ تناول بعض الطعام وإلا فإنك ستنهار!».

وهززت رأسي مجدداً... ثم التفتُّ إليه وقلتُ:

«هل لي ببعض المال؟؟».

أخرج سيف محفظته مِنْ جيبه ودفعها إليَّ... فأخذتها، وفتحتُ الباب قاصداً النزول والذهاب إلى محل البقالة المجاورة...

ما كدتُ أقف على قدميَّ حتى داهمني دوارٌ شديد فانهرتُ على المقعد...

«وليد!».

تركتُ رجليَّ متدليتين خارج السيارة وأنا عاجزٌ عن رفعهما. سيف أسرع فعدّل مِنْ وضعي وسأل بقلق:

«أأنتَ بخير؟؟».

«دوار...».

أسرع سيف فقرّب عبوة عصير مِنْ شفتي وقال:

«اشرب قليلاً».

رشفتُ رشفتين أو ثلاث، واكتفيتُ. سيف كان قلقاً وظلَّ يلحُّ عليَّ بتناول بعض الطعام إلا أنني لم أكن أشعر بأدنى رغبة حتى في شم رائحته...

بعد قليل، زال الدوار جزئياً وفتحتُ عيني، ومددتُ بالمحفظة إلى سيف وقلتُ:

«هل لي بعلبة سجائر؟».

كانتْ الساعة قد تجاوزتْ الثانية عشر ليلاً، حينما أشار آخر شخص سألناه عن منزل أبي؛ شاكر جليل شاكر، إلى منزلٍ صغير يقع عند المنعطف التالي...

سأل سيف الرجُل:

«أأنتَ متأكُد؟ شاكر جليل المكنّى بأبي وليد، رجل قدُمَ مع عائلته مِنْ جنوب البلاد؟ مِنْ المدينة الساحليّة؟؟».

«نعم إنه هو ويقيم هنا منذ سبع أو ثمان سنين أو أكثر!».

لم يكن الشيء الذي يهتز هو قلبي فقط، بل وأطرافي، وشعري، ومقعدي بل والسيارة أيضاً!

تبادلنا أنا وسيف النظرات... ثم تحرك بالسيارة ببطء حتى أصبحنا إزاء المنزل مباشرة...

«هيا يا وليد...».

بقيتُ في مكاني ولم تظهر مني بادرةٌ تشير إلى أنني أنوي النهوض.

«وليد! هيا بنا! أم تفضّل الانتظار حتى الغد فربما يكون الجميع نياماً!».

قلتُ بسرعة:

«لا لا... مستحيل أنْ أنتظر دقيقةً بعد...».

ومع ذلك، بقيتُ في مكاني بلا حراك، عدا عن الاهتزازات التي تعرفون...

«ما بكَ؟ قلق؟؟».

«ماذا لو لم يكن المنزل المقصود أو العائلة المعنية؟؟ هل نستمر في البحث أكثر؟؟ أنا مجهدٌ جداً».

«هوّن عليك! ربّما وصلنا أخيراً. سنتأكّد مِنْ ذلك الآن... اصمُد».

كيف لي أنْ أبقى صامداً قوياً وأنا على وشك رؤية أهلي...؟؟ بعد فراق تسع سنين... وأي تسع سنين!!

في داخل هذا المنزل... يعيش أبي وأمّي... وأخي وأختي... والحبيبة رغد! وربما هم نيام الآن!... لا بد أنهم سيفاجؤون لدى رؤيتي...

كم أنا مشتاق إليكم جميعاً... إن هي إلا لحظات... وألتقي بكم!

يا إلهي! أكاد أموتُ مِنْ الشوق والقلق...

أخرجتُ الصورتين مِنْ جيبي وأخذتُ أتأمّل أفراد عائلتي... ثمّ ثبّتُّ أنظاري على صورة رغد، وهي تلون...

رغد...

يا حلوتي الصغيرة...

ها أنا قد عدت...

«دعك مِنْ الصورة... وهيا إلى الأصل!».

قال سيف وهو يفتح الباب وينزل مِنْ السيارة...

قرعنا الجرس مراراً... حتى خشيتُ أنْ يكون البيت قد هُجر... وأهلي قد رحلوا... وأملي قد ضاع...

ولكن الباب انفتح أخيراً...

وأطلَّ منه شابٌ يافع... طويل القامة... نحيل الجسم... مشوّه الوجه بندبة أكّدتْ لي بما لا يقبل الشك... أنه شقيقي الوحيد... سامر...

«سامر... يا أخي!!».

دخلتُ في دوّامة لا أستطيع وصفها... مِن الصراخ والهتاف... البكاء والنحيب... الدموع والعناق...

تلقّفتني الأيدي والأذرع والأحضان... وأُمطِرتُ بالقبل وامتزجتْ الدموع بالآهات والتهاليل بالولاول... وما عدتُ أعي إنْ كان أهلي مِنْ حولي حقاً؟ أم أنني توهّمتُ خروجهم مِنْ الصورة...؟

لقد مضى وقتٌ لا أعرف مقداره وأنا أدور بين أحضانهم في عناقٍ تختلط فيه الدموع...

والدتي لم تقو على الوقوف مِنْ هول المفاجأة فجلسنا جميعا قربها واستحوذت على رأسي وضمّته إلى صدرها وجعلنا نبكي بحرارة...

وأبي جالسٌ قربي يكرّر حمد الله وشكره ويجهش بكاءً... وأخي سامر ممسكٌ بذراعي مِنْ جهة، ودانة مِنْ جهة أخرى... ولم يعد هناك مجال للكلمات...

لا أستطيع وصف المزيد...

أنّى لذاكرتي أنْ تستوعب حرارةً كهذه دون أنْ تنصهر؟؟

أطلقتْ والدتي سراح رأسي لبعض الوقت... فالتفتُّ نحو دانة... كم كبُرتْ وأصبحتْ... فتاةً مختلفة!

فتحتُ فمي لأتكلّم، فإذا بالدموع الحارة تتسلل إلى داخله... وربما هذا ما منح لساني القدرة على الحركة والنطق...

لكن صوتي جاء مبحوحاً خافتاً ضعيفاً، كصوت طفلٍ يختنق...

«رغد؟؟».

هبّتْ دانة واقفةً، وصعدتْ عتبات تلي المدخل عتبتين عتبتين قفزاً قفزاً، وأسرعتْ الخطى ذاهبةً لاستدعاء رغد.

وقفتُ في قلق ووقف الجميع معي، ولا يزالون يقتسمون حضني وذراعي...

كنتُ أنظر إلى الناحية التي ذهبتْ إليها دانة... ولو لم أكن مربوطاً بالجميع لذهبتُ خلفها...

لا... بل لسبقتُها...

الآن ستظهر رغد!

هل نفذ الهواء الذي مِنْ حولي؟؟ أنا أختنق...

هل طلعتْ الشمس في غير موعدها؟ إنني أحترق...

هل تهتزُّ الأرض مِنْ تحت رجلي؟؟ أنا أترنّح وأكاد أنهار... لولا أنهم يمسكون بي...

ستأتي رغد... سأحضنها... وأحملها على ذراعي... وأؤرجحها في الهواء كما كنتُ أفعل دائماً...

هيا يا رغد... اظهري... تعالي... أسرعي إليَّ...

ومِنْ حيث كنتُ أحدّق بصبر نافذ تماماً، ظهرتْ مخلوقةٌ جاءتْ تركض بسرعة... وتوقّفتْ عند أعلى العتبات...

كما توقّفتْ هي، توقّف كل شيء كان يتحرّك في هذا الكون فجأة... فما فيهم قلبي المزلزل...

توقّفت عيني حتى عن سكب الدموع، وعن الطرْف...

وتثبتَتْ فوق عيني الفتاة الواقفة أعلى العتبات... تنظر إليَّ بذهول... فاغرةً فاها...

هل جرّب أحدكم أنْ يوقف شريط الفيديو أثناء العرض؟

هكذا توقف الكون عند هذه اللحظة التي ربما تجاوزتْ القرون طولاً...

وجهاً لوجه... أمام مخلوقةٍ يُفترض بها أنْ تكون رغد...

ولم تكن رغد...!!

كنتُ انتظر أنْ تظهر رغد... تماماً كما تركتها قبل تسع سنين... طفلة صغيرة أعشقها بجنون... تركض نحوي بلهفة... وترفع يديها إليَّ بدلال... وتقول: «(وليـد... احملني!)».

لم أعد أرى جيداً... أُصِبتُ بغشاوة مِنْ هول الصدمة المفاجئة... والمشاعر المتلاطمة بعنف...

أردتُ أنْ أخرج الصورة مِنْ جيبي... وأسأل الجميع... أهذه هي صغيرتي رغد؟؟

لكنني بقيتُ جامداً متصلّباً متخشّبًا كما أنا...

أوّل شيء تحرّك كان فم الفتاة... ثمّ إصبعها الذي أشار نحوي، وبصعوبة وبجهد وبحروف متقطّعة قالتْ:

«و... لـ... يـ... ـد؟؟؟».

ثمّ فجأة، ودون أنْ تتركَ لي الفرصة لأستعد لذلك، قفزتْ رغد مِنْ أعلى العتبات باندفاعٍ نحوي فحرّرتُ ذراعيَّ بسرعة مِنْ بين أذرع البقيّة ورفعتُها نحوها فهوتْ على صدري وهي تهتف بجنون:

«وليـــد».

الحلقة الحادية عشرة

صدمة

- وليد -

كدنا نهوي أرضاً لو لم يسرع أبي وسامر لإسنادنا فأنا لم أكن قادراً على الوقوف، أما رغد...

صغيرتي التي كبُرتْ... فقد كانتْ ممسكةً بي بقوّة جعلتْني أشعر أنها ستخترق جسدي... بل اخترقته...

لتسع سنين فقط، أريد لهذه اللحظة أن تستمر...

لتسع سنين، عادتْ بي الذاكرة...

لذلك اليوم المشؤوم...

لتلك اللحظة الفظيعة، التي كانتْ فيها رغد متشبّثةً بي بذعر وتكاد تخترق جسدي...

فيما عمّار واقفٌ يبتسم ابتسامة خبيثة وهو يرمي إلي بحزامها...

لحظة أنْ تذكّرتُ هذا، أطبقتُ على رغد بقوّة وكأنني أريد حمايتها مِنْ مجرّد الذكرى الأليمة...

وشددتُ ضغطي أكثر وأكثر... ولو كانت لجسدي قوّته وعضلاته السابقة، لربما سحقتُ عظامها بين ذراعي...

إلا أنني الآن أشعر بضعفٍ شديد يسري في جسدي، وأريد أنْ أنهار...

أبعدتُ رأسها عني لأتأكّد... مِنْ أنها رغد...

رغم أنها كبُرتْ إلا أنَّ ملامح وجهها الدائري الطفولية، لا زالتْ كما هي...

«رغد! صغيرتي!».

لقد عشتُ لأراكِ ثانية... ونجوتُ لأعود إليكِ...

«آه».

أطلقتُ هذه الآهة، ثم خررتُ أرضاً...

أعتقد أنني أصبت بإغمائه لبضع دقائق.

عندما فتحتُ عيني، رأيتُ وجوه الجميع مِنْ حولي فيما أدمعهم تنهمر وتبلل وجهي وملابسي الغارقة في العرق...

صوّبتُ نظري إلى صغيرتي المحبوبة وهمستُ:

«لقد عدتُ! لن أسمح لدموعكِ بأنْ تسيل بعد اليوم!».

ثم نقلتُ بصري بين أعينهم جميعاً، وقلتُ:

«أنا متعبٌ جداً».

فساعدوني على النهوض والتوجّه إلى إحدى الغرف والاسترخاء على إحدى الأرائك. أغمضتُ عيني واسترخيتُ لدقيقتين ثمّ تذكّرتُ سيف ففتحتهما وجلتُ ببصري بين أهلي وسألتُ:

«أين سيف؟».

فأجاب سامر:

«غادر... قال أنّه سيأتي غ ً

ولأنني كنتُ متعباً جداً بـ.. فسرعان ما غفوتُ بعدما أرخيتُ جسدي المرهق على الأريكة ورميتُ بثقل همومي عليها... أفقتُ بعدها على صوت أبي يدعوني للذهاب إلى غرفة أخي والنوم على سريره. وعندما أيقظني سامر وقت صلاة الفجر، لم أكن قد نلتُ ما يكفي مِنْ الراحة... لذا لم أرافقه وأبي إلى المسجد، بل أدّيتُ صلاتي في الغرفة ذاتها.

بعد خروجهما، تجوّلتُ في المنزل بحثاً عن المطبخ فقد كنتُ شديد العطش، ولم يكن البيت كبيراً لذا فإنّ غُرفه وأجزاءه متقاربة...

وصلتُ إلى المطبخ وهناك رأيتُ شخصاً يقف أمام الثلاجة المفتوحة، مولياً ظهره إليّ، ويرتدي حجاباً...

لم يكن مِنْ الصعب عليّ أنْ أستنتج أنها رغد، مِنْ صغر حجمها. وفور إدراكي لذلك ارتعدتْ فرائضي... راقبتُها برهة ثمّ ناديتُ:

«رغد؟».

التفتَتْ رغد نحوي بفزع، إذا أنها لم تشعر بدخولي المطبخ...

«أنا آسف... هل أفزعتكِ؟؟».

أحنتْ رغد رأسها نحو الأرض وأومأتْ إيجاباً... قلتُ:

«أريد بعض الماء... رجاءً».

رغد تنحّتْ جانباً موسعةً المجال أمامي، وعندما اقتربتُ منها رفعتْ رأسها فنظرتْ إليّ برهة...

«لقد... كبرتِ!».

لم تنطق بأي كلمة، ونزلتْ ببصرها أرضاً... فتابعتُ:

«لكنكِ لم تتغيري كثيراً...».

رفعتْ رأسها مرة أخرى ونظرتْ إليّ، ثم طأطأتْه مِن جديد...

قلتُ:

«وأنا؟ هل تغيّرتُ كثيراً؟؟».

ترددتْ قليلا ثم قالتْ:

«هل بدّلت أنفك؟».

ابتسمتُ، بل كدتُ أضحك، لكنني قلتُ:

«بدّله الزمن! هل يبدو سيئاً جداً؟؟».

رغد قالتْ دون أنْ ترفع بصرها عن الأرض:

«على العكس!».

ثم أسرعتْ بالخروج مِنْ المطبخ... استدرتُ وناديتُ:

«رغد انتظري».

إلا أنها اختفتْ بسرعة!

وبسرعة شربتُ كميةً كبيرة مِن الماء البارد شعرتُ بها تجري في فمي وحلقي ومعدتي وحتى شراييني!

عدتُ إلى فراشي وأغمضتُ عينيَّ... إنه ليس مجرّد حلم... لقد عدتُ إلى أهلي أخيراً... عدتُ إلى رغد...

وحتى وإن كبُرتْ ولم تعد صغيرتي المدللة، فهي لا تزال محبوبتي التي أعشق منذ الصغر...

والتي أفعل أي شيء في سبيل إسعادها. والتي لا زلتُ مشتاقاً إليها أكثر مِنْ أي شخص آخر... والتي يجب أنْ أقرّبها منّي أكثر مِنْ أي وقتٍ مضى... فهي... صغيرتي الحبيبة المدللة...

قد كبُرتْ أخيراً...

* * *

وأنا استفيق مِن النوم، وأشعر بنعومة الوسادة تحت خدّي، وسمك ودفء البطانية فوق جسدي، والنور يخترق جفني... بقيتُ مغمضَ العينين...

حرّكتُ يدي فوق الفراش الدافئ الواسع، والوسادة الناعمة وأخذتُ أتحسسهما براحة وسعادة...

ابتسمتُ، ويدي لا تزال تسير فوق الفراش، والبطانية، والوسادة مداعبةً كل ما تلامس!

أخذتُ نفساً عميقاً وأطلقتُه مع آهة ارتياح ورضا...

كم كان النوم لذيذاً! وكم كنتُ أشعر بالكسل! والجوع أيضاً!

آه... ما أجمل العودة إلى البيت... والأهل...

فتحتُ عيني ببطء، وأنا مبتسمٌ ومشرق الوجه، وعلى أيّ شيءٍ وقعتْ أنظاري مباشرة؟؟ على وجه أمي!

كانتْ والدتي تجلس على مقعد جواري، وتنظر إليَّ، ودمعةٌ معلّقة على خدها الأيمن، فيما فمها يبتسم!

جلستُ بسرعة، وقد اعتراني القلق وزالتْ الابتسامة والسعادة مِنْ وجهي، وقلتُ باضطراب:

«أمّاه! ماذا حدث؟؟».

والدتي أشارتْ بيدها إلي قاصدة أنْ أطمئن، وقالتْ:

«لا، لا شيء، لا تقلق بنيّ».
لكنني لم أزل قلقاً، فقلتُ مرّة أخرى:
«ماذا حدث؟؟».
حرّكتْ أمي رأسها ومسحتْ دمعتها وزادتْ ابتسامتها وقالتْ:
«لا شيء وليد، أردتُ فقط أنْ أروي عينيّ برؤيتكَ».
ثم انخرطتْ في البكاء...
نهضتُ عن سريري وأقبلتُ ناحيتها وقبّلت رأسها ويديها وعانقتُها بحرارة...
«لقد عدتُ أخيراً! لا شيء سيبعدني عنكم بعد الآن».

- رغد -

طبعاً لم يستطع أحدنا النوم تلك الليلة، غير وليد!
نام وليد في غرفة سامر، إذ لم يكن لدينا أي سرير احتياطي أو غرفة أخرى مناسبة. أنا لا أستطيع أنْ أصدّق أنّ وليد قد عاد!
لقد آمنتُ بأنه قد اختفى للأبد. كنتُ اعتقد بأنه فضّل العيش في الخارج حيث الأمان والسلام والرخاء على العودة لبلدنا والحرب والدمار... لكنه عاد... وبدا كالحلم!
لا يزال طويلاً وعريضاً، لكنه نحيل! كما أنّ أنفه قد تغيّر وأصبح أجمل!
البارحة لم أتمالك نفسي عندما رأيته أمام عيني... كم تجعلني هذه الذكرى أبتسم وأتورّد خجلاً!
«رغد! كم مِن السنين ستقضين في تقليب البطاطا! لقد أحرقتِها!».
انتبهتُ مِن شرودي الشديد، على صوت دانة، وحين التفتُّ إليها رأيتُها تراقبني عن بُعدٍ، وقد وضعتْ يديها على خصريها...
ابتسمتُ وقلتُ:
«ها أنا أوشك على الانتهاء».
دانة حدّقتْ بوجهي قليلاً ثم قالتْ:
«لقد احمرَّ وجهكِ مِنْ طول وقوفكِ قرب النار! هيا انتشليها وانتهي!».
أنا أشعر بأنّ خديّ متوهّجان! ولكن ليس مِنْ حرارة النار!
انتهيتُ مِن قلي البطاطا ثم وزّعتُها على الأطباق الخاصة. مائدتنا لهذا اليوم شملتْ العديد مِن الأطباق التي كان وليد يحبها. والدتي أصرّتْ على إعدادها كلها، وجعلتنا نعتكف في المطبخ منذ الصباح الباكر!
ربما كان هذا الأفضل فإنّ أحدنا لم يكن لينام مِنْ شدّة الفرح... والآن هي بالتأكيد في غرفة سامر!
«دانة».

كانتْ دانة تقطّع الخضار لتعد السلطة، والتفتتْ إلي بنفاذ صبر وقالتْ:
«نعم؟؟».
قلتُ:
«هل كان وليد يفضّل عصير البرتقال أم الليمون؟؟».
رفعتْ دانة رأسها نحو السقف لتفكر، ثم عادت ببصرها إليَّ وأومأتْ برأسها أسفاً:
«لا أذكر! حضّري أياً منهما».
قلتُ:
«أريد تحضير العصير الذي يفضّله! تذكّري يا دانة أرجوك».
رمقتْني بنظرة غضب وقالتْ:
«أوه رغد قلتُ لك لا أذكر! اسألي أمّي».
وقفتُ أفكّر لحظة، واستحسنتُ الفكرة، فذهبتُ مسرعةً نحو غرفة سامر!
في طريقي إلى هناك صادفتُ والدي...
«إلى أين؟».
استوقفني أبي، فقلتُ بصوت منخفض:
«أريد التحدث مع أمّي».
ابتسم أبي وقال:
«إنها عند وليد!».
تقدّمتُ خطوةً أخرى باتجاه غرفة سامر، إلا أنّ أبي استوقفني مرّة أخرى:
«رغد».
التفتُّ إليه:
«نعم أبي؟؟».
لم يتكلم، لكنّه رفع يده اليمنى وبإصبعه السبابة رسم دائرة في الهواء حول وجهه، وفهمتُ ماذا يقصد...
انعطفتُ نحو غرفتي، وارتديتُ حجاباً ورداءً ساتراً، ثمَّ قدمتُ نحو غرفة سامر وطرقتُ الباب طرقاً خفيفاً...
سمعتُ صوت أمي تقول:
«تفضّل».
ففتحتُ الباب ببطء، وأطللتُ برأسي على الداخل... فجاءتْ نظراتي مباشرةً فوق عينَي وليد!
رجعتُ برأسي للوراء واضطربتُ! وبقيتُ واقفةً في مكاني...
أقبلتْ أمّي ففتحتْ الباب:
«رغد! أهلا... أهناك شيء؟؟».

قلتُ باضطراب:
«الليمون أم البرتقال؟».
أمي طبعاً نظرتْ إليّ باستغراب وقالتْ:
«عفواً؟!!».
كان باستطاعتي أنْ أرى وليد واقفاً هناك عند النافذة المفتوحة، لكنني لا أعرف بأي اتجاه كان ينظر الآن!
«هل أصنع عصير الليمون أم البرتقال؟؟».
ابتسمتْ والدتي وقالتْ:
«كما تشائين!».
قلتُ:
«ماذا يفضّل؟؟».
ولم أجرؤ على النطق باسمه!
والدتي التفتتْ نحو وليد، وكذلك فعلتُ أنا، فالتقتْ أنظارنا لوهلة...
قالتْ أمّي:
«ماذا تفضّل أنْ تشرب اليوم؟ عصير البرتقال أم الليمون؟ أم كليهما؟».
ابتسم وليد وقال:
«البرتقال قطعاً!».
ثم التفتتْ والدتي إليّ مبتسمة، وقالتْ:
«هل بقي شيء بعد؟».
«لا... تقريباً فرغنا مِن كل شيء، بقي العصير... والسلطة».
«عظيم، أنا قادمةٌ معك».
ثم استأذنتْ وليد، وخرجتْ وأغلقتْ الباب.
وعندما ذهبنا للمطبخ، وجدنا سامر هناك، وكان قد عاد لتوه مِنْ الخارج حيث أحضر بعض الحاجيات...
بادلانا بالتحية ثم سأل:
«ألم ينهض وليد؟».
قالتْ أمي:
«بلى! استيقظ قبل قليل».
«عظيم! أنا ذاهبٌ إليه».
وذهب سامر مسرعاً، فهبّتْ دانة واقفةً ورمتْ بالسكين وقطعة الخيار التي كانت بيدها جانباً وقالتْ بانفعال:
«وأنا كذلك».

ولحقتْ به وهي تقول موجّهة كلامها إليّ:

«أتمّي تحضير السلطة!».

وفي ثوانٍ كانا قد اختفيا...

ماذا عني أنا؟؟ أنا أيضاً أريد أنْ أذهب إليه...!

نظرتُ إلى أمي فقالتْ:

«أنا سأقطّع الخضار، حضّري أنتِ العصير...».

- وليد -

قبل قليل، جاءت رغد ووقفتْ عند باب الغرفة لعدة ثوان... أظن أنها جاءتْ تسال والدتي عن عصيري المفضل!

يبدو أنها نسيتْ ذلك... لطالما كنتُ آخذها معي في نزهة بالسيارة، نتوقّف خلالها لتناول البوظة أو عصير البرتقال، أو حتى أصابع البطاطا المقلية!

يا ترى... ألا تزال تحبها كما في السابق؟؟

طُرِقَ الباب، ثم دخل أخواي سامر ودانة... أقبل الاثنان نحوي يحييانني ويعانقانني مِن جديد.

قال سامر:

«أحضرتُ لكَ بعض الملابس يا أخي! إنك بحاجة إلى حمّام طويل جداً!».

ابتسمتُ بشيءٍ مِنْ الخجل، فأنا أعرف أنَّ هندامي كان سيئاً... وشعري طويل... ولحيتي نابتة عشوائيا بلا نظام، والملابس التي اشتراها لي سيف على عجل خالية مِنْ الجمال والأناقة!

قلتُ:

«هل أبدو مزريا؟؟».

ضحكتْ دانة وقالتْ:

«بل تبدو كأحد نجوم السينيما الأبطال!».

ضحكنا نحن الثلاثة، ثم قلتُ:

«بطل بلا عضلات!؟ لا أناسب حتى لدور مجرم!» .

وجفلتُ للكلمة التي خرجتْ مِنْ لساني دون شعور... (مجرم)... ألستُ حقاً كذلك؟؟؟

لكن أحداً لم يلحظ تغير تعبيرات وجهي، بل استمرتْ دانة تقول:

«بل بطل! أليس كذلك يا سامر؟ إنه ليس رأيي وحدي بل هذا ما تقوله رغد أيضاً!!».

أثارتْ جملتها هذه جل اهتمامي، هل قالتْ رغد عني ذلك حقا؟ هل أبدو كذلك في نظرها؟ تعلمون كم يهمني معرفة ذلك!

لقد كانت تعتبرني شيئا كبيرا عاليا في الماضي، والآن بعدما كبرت... ترى ماذا أصبحت أعني لها؟؟

فيما بعد، نعمت باستحمام طويل ومركز!

نظّفتُ جسدي وذاكرتي مِن كل ما علق بهما من أيام السجن... وبلاء السجن...

بدوتُ بعدها (شخصاً محترماً) إنساناً مكرّماً... رجلاً يستحق الاهتمام...

حينما حضر سامر للغرفة بعد ذلك، أطلق صفرة إعجاب وقال:

«ما كل هذه الوسامة يا رجل! بالفعل كأبطال السينما!».

ابتسمتُ، ثم قلتُ:

«يجب أنْ تصحبني إلى الحلاق اليوم لأقص شعري!».

قال:

«أبقِه هكذا يا رجل! تبدو جذاباً به!».

ضحكنا كثيراً، ثم خرجتُ معه مِنْ الغرفة فإذا بي أرى أمي وأبي يقفان في الردهة. ابتسما لرؤيتي، وتبادلنا حديثاً قصيراً، ثمّ ذهبنا أنا وأبي وسامر لتأدية صلاة الظهر في المسجد.

عندما عدنا، وما إنْ وطأت قدمي أرض مدخل المنزل، حتى هاجمتْ أنفي روائح أطعمة شهية جداً!

أخذتُ نفساً عميقاً متلذّذاً بالرائحة الرائعة!

ظهرتْ أمي، وقادتنا إلى غرفة المائدة... وذهلتُ للأطباق الكثيرة التي ملأت المائدة عن آخرها...

«أوه! كل هذا!؟».

نظرتُ إلى أمّي بتعجّب، فابتسمتْ وقالتْ:

«تفضّل بنيّ بالهناء والعافية».

لا أخفيكم أنَّ معدتي كانت تستصرخ!

انقبضتْ مصدرةً نداء استغاثة، ثم توسّعتْ أقصى ما أمكنها استعدادا للكميات الكبيرة التي أنوي التهامها!

في هذه اللحظة تذّكرتُ صديقي سيف، قلتُ:

«سيف! يجب أنْ اتصل بسيف!».

وذهبتُ إلى حيث كان الهاتف، واتصلتُ به في الشقة التي كنّا قد استأجرناها. اعتذر سيف عن الحضور وقال أنه لا يود التسبب بأي حرج على أفراد العائلة في هذا الوقت، لكنه وعد بالحضور مساءً...

اتخذتُ مجلسي حول المائدة إلى يمين والدتي...، فيما سامر إلى يسار والدي.

وأخيراً أقبلتْ الفتاتان، دانة ورغد... فجلستْ دانة إلي يمين والدي وبقي الكرسي الأخير... المقابل لي شاغراً...

أقبلتْ رغد فجلستْ مقابلي على ذلك الكرسي، واتّضح لي فيما بعد أنني جلستُ على الكرسي الذي كانتْ تجلس هي عليه في العادة!

كانتْ ترتدي رداءً طويلاً، وحجاباً. لا أخفيكم أنني كنتُ أشعر بشيء كلسعة الكهرباء كلما التقتْ نظراتنا عفوياً!

إنها صغيرتي رغد!

محبوبتي المدللة التي حُرمتُ مِن رؤيتها والعناية بها لتسع سنين... تعرفون ما تعني لي...

وقد كبُرتْ ولم يعد بإمكاني مداعبتها كالسابق...

إنني أريد أنْ أطعمها هذه البطاطا المقلية بيدي!

إنني أشعر بأنها تراقبني!

ليست هي فقط... بل الجميع يراقبني...

إنني رغم شهيتي العظمى للطعام ولهفتي عليه وحرماني مِنْ مثيله كل تلك السنين، تصرفتُ بلباقة وتهذيب، وأكلتُ بنفس السرعة التي كانوا بها يأكلون... ولكن لوقت أطول... ولكميات أكبر! ما أشهى أطباق أمي! كل شيء يبدو لذيذاً جداً... حتى الماء...

لم أذق للماء طعماً منذ تسع سنين...

وهل للماء طعم؟؟

أنا أعتبر نفسي دخلتُ الجنة بخروجي مِن ذلك الجحيم... السجن...

الحمد لله...

أمورٌ كثيرة قد تحدثنا عنها إلا أنَّ السجن لم يكن مِن ضمنها مطلقاً. كما أنّني لم أكن مقبلاً على الحديث، بل الاستماع... وعلمتُ عن أشياء كثيرة وتطورات جديدة حدثتْ في البلاد والحياة خلال سنوات غيابي.

وكانتْ رغد أقلّنا حديثاً، بل إنها بالكاد تنطق بكلمة أو كلمتين مِنْ حينٍ لآخر.

كنتُ أريد أنْ أتحدّث معها... أسألها عما عملت في غيابي... أمسك بيديها... أمسح على شعرها... أضمُّها إليَّ... كما كنتُ أفعل سابقاً... فهي طفلتي التي اشتقتُ لها كثيراً جداً جداً... أكثر مِن شوقي لأي شخص آخر...

لستُ بحاجة لوصف المزيد فأنتم تعرفون... لكنها الآن أمامي فتاة بالغة ترتدي الحجاب... لا أجرؤ حتى على إطالة النظر إليها أكثر مِنْ بضع ثوان...

هل تتصوّرون كيف هو شعوري الآن؟؟

لقد قضيتُ تسع سنوات مِنْ العذاب... تغيّر في الدنيا خلالها ما تغيّر، لكن حبّي لهذه الفتاة لم يتغيّر... وإنْ لم أعد الماضي الجميل وعلاقتي الرائعة بها فسوف أصاب بالجنون!

قلتُ، في محاولة مستميتة لإحياء الماضي الميّت وإشعارها وإشعار نفسي بأنّ شيئاً لم يتغيّر:

«رغد... صغيرتي... إلى أين وصلتِ في الدراسة؟».

رغد رفعتْ بصرها إليَّ في خجل، وقد تورّد خداها، وقالتْ:

«أنهيتُ الثانوية! وسوف ألتحق بإحدى الكليات العام المقبل».
ابتسمتُ بسعادة! فطفلتي الصغيرة ستدخل الجامعة!
«عظيم! مدهش! أبهجتني معرفة ذلك! وفقك الله».
ابتسمت رغد بخجل شديد، ثم قالتْ:
«وأنتَ؟ هل اكتفيتَ مِنْ دراستك أم لا زال هناك المزيد بعد؟؟».
تصلّبتُ تماماً لدى سماعي هذا السؤال... ونقلتُ بصري إلى أمّي... أبي... سامر... ودانة... وعلامات الذهول صارخةٌ في وجهي...
أبي قال فوراً بشيء مِنْ الارتباك:
«يكفي لحد الآن! هل تظنين أننا سنتركه يغادر ثانيةً! مستحيل».
نظرتُ إلى أمي وسامر، فإذا بهما يتحاشيان النظر إلي... أما دانة فكانتْ مشغولة بتقطيع الطعام ومضغه...
ورغد، حين عدتُ ببصري إليها وجدتها تبتسم... شعرتُ باستياء كبير لهذه الحقيقة التي فاجؤوني بها...
لم يبدُ على رغد أنها تعلم... أنني كنتُ في السجن!
انزعجتُ لاستنتاج ذلك، وفقدتُ شهيتي لتناول المزيد...
لكنني شربتُ حصتي مِنْ عصير البرتقال كاملة، لعلمي المسبق بأنّ رغد هي التي حضّرتْه...
بعد الغذاء ذهبتُ مع أهلي في جولة داخل المنزل لأتعرّف على أجزائه، وكان موضوع جهل رغد بأمر سجني يسيطر على تفكيري... ويُتعِسني...
وانتهزتُ أوّل فرصة سنحتْ لي فسألتُ والدي:
«ألا تعلم رغد بأنني... كنتُ في السجن؟؟».
والدي تردّد قليلا ثم أجاب:
«لم يكن بإمكاننا إخبارها بشيء كهذا ذلك الوقت... ثم كبُرتْ... ودانة... ولم نجد داعياً لإعلامهما بالحقيقة».
غضبتُ مِنْ هذا التصرّف، فأنا الآن وُضِعتُ في وجه المدفع... لا أعرف كيف ستتصرّف رغد حين تعلم بالأمر... ولا حتى دانة...
الاستياء اتضح على وجهي، فقال أبي:
«هوّن عليك يا وليد... نتحدّث عن ذلك فيما بعد».
كان الأمر شديد الأهمية بالنسبة لي...
في المساء، كنتُ أشاهد التلفاز مع والدي ووالدتي في غرفة المعيشة، ثم أردتُ الاتصال بصديقي سيف لأؤكد عليه الحضور. لم أشأ استخدام الهاتف الذي يقع فوق التلفاز مباشرة لذلك خرجتُ مِن غرفة المعيشة وتوجّهت نحو المطبخ... وهو الأقرب إلى الغرفة...

لقد كان الباب مغلقاً، لذا طرقتُه أولاً...

فُتِح الباب قليلاً وظهرتْ دانة:

«أهلا وليد! أتريد شيئا؟؟».

«أردتُ استخدام الهاتف».

ابتسمتْ دانة وقالتْ:

«اذهب إلى غرفة المعيشة أو الضيوف!».

استغربتُ، فقلتُ:

«أهاتف المطبخ لا يعمل؟».

ابتسمتْ وقالتْ:

«بلى! لكن رغد بالداخل!».

شيء أثار جنوني... فقبضتُ يدي بقوة... وقهر...

بعد أنْ كانتْ رفيقتي أينما ذهبتُ، أصبحتُ ممنوعاً مِن الدخول إلى حيث توجد هي...

لن يستمر الوضع هكذا لأنني سأجنُّ حتماً...

لسوف أتحدّث مع أبي بهذا الشأن في أقرب فرصة... لا... بل الآن!

واستدرتُ قاصداً غرفة الضيوف، إلا أنني وقفتُ فجأة وبذهول... حين رأيتُ باب المطبخ يتحرّك، وينفتح، وعبره يخرج سامر!

خرج سامر مبتسماً وأغلق الباب، وبقيتُ محملقاً فيه بذهول...

سامر نظر إليَّ وابتسم وقال:

«غرفة الضيوف مِنْ هنا».

أنا بقيتُ واقفاً مصعوقاً... وأخيراً تحرّك لساني المعقود فقلتُ:

«رغد... بالداخل؟؟».

أجاب مبتسماً:

«نعم!... لم تجلب الحجاب معها».

جننتُ، ولم أعد قادراً على فهم شيء أو تصوّر شيء!

ببلاهة واضطراب وتشتّت فكر قلتُ، وأنا أشير بإصبعي إلى سامر:

«لكن... أنتَ...؟؟؟».

سامر رفع حاجبيه وفغر فاه بابتسامة استنتاج، كمن فهم وأدرك لتوه أمراً لم ينتبه له مِنْ قبل...

«آه! تقصد أنا...؟؟ نعم... فـ... نحن...».

وضحك ضحكةً خفيفة، ثم أتمَّ الجملة التي قضتْ على آخر آخر ما كان فيّ مِنْ بقايا فتات وليد:

«نحنُ... مخطوبان!».

الحلقة الثانية عشرة

إربـاً إربـا

- رغد -

لقد قضيتُ اليوم بكامله في المطبخ!

فبعد وجبة الغذاء العظيمة التي أعددناها صباحاً، الآن نعد وجبة عشاء مِن أجل وليد وصديقه الذي سيتناول العشاء في منزلنا.

إنني أشعر بالتعب وأريد أنْ أنام! لكن دانة لي بالمرصاد، وكلما استرخيتُ قليلاً طاردتني بقول:

«أسرعي يا رغد! الوقت يداهمنا!».

كان سامر يساعدنا ولكنه خرج قبل لحظة، والآن أستطيع أنْ أتحدّث عن وليد دون حرج!!

«أخبريني يا دانة، ما هو التخصّص الذي درسه وليد؟؟ وأيّ شهادة حصل عليها؟؟».

دانة منهمكة في صف الفطائر في الصينية قبل أنْ تزج بها داخل الفرن...

قالتْ:

«الإدارة والاقتصاد! ربّما الدكتوراه!».

صمتُّ قليلاً ثمّ قلتُ:

«وأيّ غرفة سنعدُّ له؟ أظنها غرفة الضيوف! فالبيت صغير... ألا توافقينني؟».

قالتْ:

«بلى».

انتظرتُ بضع ثوان ثم عدتُ أسأل:

«ألا يبدو أنّه قد نحل كثيراً؟ ألم يكن أضخم في السابق؟».

قالتْ:

«بلى... كثيراً جداً! لا بد أنه لم يكن يأكل جيدا هناك».

قلتُ:

«أرأيتِ كيف التهم البطاطا التي أعددتُها كلها؟ لا بد أنها أعجبته!».

التفتتْ دانة إليَّ ببطء وقالتْ:

«وكذلك أكل السلطة التي أعددتها، والحساء الذي أعدته أمي، والدجاج والرز والعصير وكل شيء! بربّك! هل تعتقدين أنَّ طبقكِ المقلي هذا هو طبقٌ مميز!».

قلتُ مستاءة:

«أنت دائماً هكذا! لا يعجبك شيء أصنعه أنا».
انصرفتْ دانة عني لتضع صينية الفطائر داخل الفرن، وما إنْ فرغتْ حتى بادرتها بالسؤال:
«ألا يبدو أقرب شبهاً مِنْ أبي؟ فأنتِ وسامر تشبهان أمي!».
قالتْ:
«لا أعرف!».
ثم التفتتْ إليّ وقالتْ:
«وأنتِ!؟ مَنْ تشبهين؟؟».
صمتُّ قليلاً، ثم قلتُ:
«ربما أمّي المتوفاة!».
لكنها قالتْ:
«لا! تشبهين بل شخصاً آخر!».
سألتُ باهتمام:
«مَنْ؟؟».
ابتسمتْ بخبث وقالتْ:
«الببغاء! فأنتِ ثرثارةٌ جداً!».
رميتُ بقطعة مِنْ العجين ناحيتها فأصابتْ أنفها، فأطلقتُ ضحكةً كبيرة! أما هي فقد اشتعلتْ غضباً وأقبلتْ نحوي متأبّطة شراً!
تركتُ كرة العجين التي كنتُ ألتُّها مِنْ يدي وذهبتُ أركض مبتعدةً وهي تلاحقني حتى اقتربتُ مِنْ الباب وكدتُ أفتحه.
«انتظري! وليد بالخارج».
أوقفتُ يدي قبل أنْ تدير المقبض والتفتُّ إليها وقلتُ:
«صحيح؟؟».
قالتْ:
«نعم فهو مَنْ طرق الباب قبل لحظة، دعيني أستوثق مِنْ انصرافه أولاً».
تنحّيتُ جانباً، منتظرةً منها أنْ تفتح الباب، فأقبلتْ نحوي وعلى حين غرّة، وبشكلٍ مفاجئ، ألصقتْ قطعة العجين على أنفي وضحكتْ بقوّة وركضتْ مبتعدةً قبل أنْ أتمكّن مِنْ الفرار منها!
أنا فتحتُ الباب بسرعة لأهرب لكن بعد فوات الأوان!
وتخيلوا مَنْ لمحتُ في الثانية التي فتحتُ الباب فيها ثمّ أغلقتُه بسرعة؟؟
لقد كان وليد!
كم شعرتُ بالإحراج والخجل وابتعدتُ عن الباب في اضطراب. لا بد أنه رآني هكذا... وقطعة العجين ملتصقة بأنفي! أوه يا للموقف المخجل!

نزعتُ العجين ورميتُ به نحو دانة وأنا أقول:
«لماذا لمْ تقولي لي أنَّ وليد خلف الباب؟؟».
رفعتْ دانة حاجبيها وقالتْ:
«بلى قلتُ لكِ!».
«ظننتك تمزحين للإيقاع بي! لقد رآني هكذا!».
دانة ابتسمتْ ابتسامة صغيرة، ثم قالتْ:
«أنتِ ووليد مشكلة الآن! يجب ألا تغادري غرفتكِ بعد اليوم!».
قلتُ:
«شكراً لك! إذن أتمي تحضير الفطائر وأنا سأذهب للنوم!».
في هذه اللحظة فُتِح الباب فدخل سامر...
نظر مباشرة إليّ وقال:
«ذهب إلى غرفة الضيوف، إنْ كنتِ تودّين الخروج».
نظرتُ إلى دانة ثم إلى سامر، والحمرة تعلو خدّيّ وقلتُ بمكر:
«نعم سأذهب!».
وانطلقتُ مسرعةً نحو غرفتي... غير آبهةٍ بنداءات دانة المتكررة!
بعد أنْ غسلتُ وجهي ويدي في الحمام المشترك بين غرفتي وغرفة دانة توجّهتُ نحو سريري واستلقيتُ باسترخاء...
كم كنتُ متعبة! إنني لم أنم البارحة كما ينبغي وعملتُ كثيرا في المطبخ. وللعلم، فإنَّ العمل في المطبخ ليس أحد هواياتي، فأنا لا أهوى غير الرسم، لكنني أردتُ المساعدة...
تقلّبتُ على سريري يميناً ويساراً وأنا أفكّر...
ما الذي سيقوله وليد عني!؟.. فالفتيات البالغات لا يغطّين أنوفهن بقطع العجين!
إلا إذا كانتْ هذه طريقة جديدة لترطيب البشرة وتغذيتها!
شعرتُ بالدماء تصعد إلى وجهي بغزارة... لا بد أنّ وجهي توهّج الآن... لم لا ألقي نظرة!
قفزتُ مِنْ السرير وأسرعتُ نحو المرآة... ورأيتُ حمرةً قلّما أرى لها مثيل على وجهي هذا!
أبدو جميلة! ولا بد أنني مع بعض الألوان سأغدو لوحة رائعة!
نزلتُ ببصري للأسفل وفتحتُ أحد الأدراج، قاصدة استخراج علبة الماكياج بفكرة جنونية لتلوين وجهي هذه اللحظة!
الشيء الذي وقعتْ عليه يدي بمجرّد أنْ أدخلتُها داخل الدرج كان جسماً معدنياً بارداً..
أمسكتُ به وأخرجتُه دون أنْ أنظر إليه ثم رفعتُ به نحو عينيّ مباشرة...
إنها ساعة وليد...
نسيتُ فكرتي السخيفة بوضع المساحيق، وعدتُ حاملة الساعة إلى سريري واستلقيتُ

ببطء. الآن... الفكرة التي تراودني هي إعادة هذه الساعة إلى وليد...

لا بد أنه سيفاجأ حين يراها... ويعرف أنني ظللتُ محتفظة بها وأضعها أيضا خلال السنوات الماضية!

قمتُ فجأة عن سريري وارتديتُ ردائي وحجابي وطرتُ مسرعةً للخارج. دعوني أخبركم بأنني قلّما أفكّر في الشيء مرتين قبل أنْ أقدم عليه!

لقد أخبرني سامر أنه في غرفة الضيوف ومع ذلك مررتُ بغرفة سامر، ثم غرفة المعيشة، وبالطبع تجنبتُ المطبخ، قبل أنْ أذهب إلى غرفة الضيوف حاملة ساعة وليد بيدي...

حين وصلتُ عند الباب، وكان مفتوحاً، استطعتُ أنْ أرى مَنْ بالداخل، ولم يكن هناك أحد غيره...

وليد كان جالساً على أحد المقاعد، بالتحديد المقعد المجاور للمنضدة التي تحمل الهاتف وقد كان مُثنياً جذعه للأمام ومسنداً رأسه إلى يديه، ومرفقيه إلى ركبتيه في وضع يشعر الناظر إليه بأنه... حزين!

طرقتُ الباب طرقاً خفيفاً، إلا أنه لم يسمعه، فأعدتُ الطرق بشكل أقوى وأقوى، حتى رفع رأسه ببطء ونظر إليّ...

وما إنْ التقتْ أنظارنا حتى علتْ وجهه تعبيرات غريبة ومخيفة...

بدتْ عيناه حمراوين وجاحظتين ومفتوحتين لحد تكادان معه أنْ تخرجا مِنْ رأسه!

ولمحتُ زخّات العرق تقطر مِنْ جبينه العريض. حملق وليد بي بشدّة أثارتْ خوفي...

فرجعتُ خطوةً للوراء... وحالما فعلتُ ذلك وقف هو فجأة كمن لدغته أفعى!

أنا ازدردتُ ريقي ثمّ حاولتُ النطق فجاءتْ كلماتي متلعثمة:

«كنتُ... أعني... لديَّ شيءٌ أودُّ إعطاءكَ إياه...».

وليد ظلَّ واقفاً في مكانه كالجبل يحدّق بي بحدّة... ربما أزعجه أنْ أحضر بمفردي... أو ربما... ربما...

لم أستطع حتى إتمام أفكاري المبعثرة لأنه تقدّم خطوة، ثم خطوة، تلو خطوة باتجاهي. لقد كنتُ أمسك بالساعة في يدي اليمنى، ولا شعورياً تحرّكتْ يدي للخلف واختبأتْ بالساعة خلف ظهري...

لا أظن أنَّ وليد رآها ولكن... حين صار أمامي مباشرة، مدَّ يده بسرعة وانقض على يدي اليمنى وسحبها للأمام بعنف!

ارتعدتْ أطرافي وجفلتُ!

وليد قرّب يدي مِنْ عينه وأخذ يحدق بها بنظرات مخيفة وقاسية، فيما يشدُّ بقبضته عليها حتى يكاد يهشم عظامها...

نطق لساني باضطراب:

«أنا... لم... كنتُ... سأعيدها إليك!».

وليد ظلَّ قابضاً على يدي بقوّة، ويحدّق في عيني بنظرات تكاد تخترق عيني ورأسي والجدار الذي خلفي...

في تلك العيون الحمراء القادحة بالشرر... رأيتُ قطرات الدموع تتجمّع... ثم تفيض... ثم تنسكب... ثم تشق طريقها على الخد العابس... ثم تنتهي عند الفكّ المنقبض...

لقد تهتُ في بحر هذه العيون وغرقتُ في أعماقها...

أخذتْني إلى ذكرى قديمة موجعة... حاولتُ جهدي أنْ ألغيها مِنْ ذاكرتي... فرأيتُ وليد وهو يبكي بمرارة وشدّة ذلك اليوم وهو جاثٍ فوق الرمال قرب السيارة...

يمدُّ يده إلي ويقول: («تعالي يا رغد»).

«وليد...».

نطقتُ باسمه فإذا به يغمض عينيه بقوّة ويعضُّ على أسنانه بشدّة.. ويشدّد قبضته على يدي ويؤلمني...

بعدما فتح عينيه، ظلَّ يحدق في يدي قليلاً، ثم فجأة انتزع الساعة مِنْ بين أصابعي ورمى بها نحو الجدار وزمجر بقوّة:

«انصرفي».

أنا انتفضتُ بذعر... وارتجفتْ جميع أطرافي... فتحرّكتُ خطوةً للوراء... ثم انطلقتُ بأقصى ما أمكنني... وبأوسع خطى... وذهبتُ إلى غرفتي... فدخلتُ وأغلقتُ الباب بل وأوصدتُه مرتين، ثم تهالكتُ على سريري...

كان قلبي ينبض بسرعة عجيبة وأنفاسي تعصف رئتي بقوة... وأنظر إلى يدي فأراها ترتعش... فيما تشع احمراراً أثر قبضة وليد القوية عليها...

بعدما هدأتُ قليلا اقتربتُ مِنْ المرآة فهالني المظهر الذي كساني. أصبحتُ مرعبة! ألم أكن جميلة قبل قليل؟؟

لا أعرف لماذا فعل وليد ذلك...

هل غضب لأنني ظهرتُ من المطبخ والعجين يغطي أنفي، فبدوتُ كطفلة غبية؟؟

أم لأنني لم أكن ارتدي الحجاب وقتها؟؟... أم ماذا؟؟

وجعلتْ الأفكار تلعب في رأسي حتى أتعبتْهُ...

الساعة...! لقد حطّمها!

لقد احتفظت بها كل هذه السنين لأعيدها إليه... لماذا فعل ذلك؟؟ لماذا؟؟

شعرتُ بشيء يسيل على خدي رغماً عني. سالت دمعتي مِنْ الذعر والخوف... والحيرة والدهشة...

لا أعرف كيف سيكون لقاؤنا التالي...

لم يعد هذا وليد! وليد لم يكن يصرخ في وجهي ويقول: («انصرفي»).

كان دائماً يبتسم ويقول: («تعالي يا رغد!!»).

- وليد -

رميتُ بجسدي المثقل بالهموم على أقرب مقعد للباب.. وأطلقتُ العنان لشلالات الدموع لأن تعبر عن قسوتها بالقدر الذي تشاء.

لم يكن أمامي شيءٌ يُرى... أو يُسمع.. أو يثير أي اهتمام. لا شيء يستحق أنْ أعيش لأجله... بعدما فقدتُ أهم شيء عشتُ على أمل العودة إليه حتى هذه اللحظة.

رفعتُ رأسي إلى السقف وأردتُ لأنظاري أنْ تخترقه وتنطلق نحو السماء...

يا رب...

لقد كانتْ لدي أحلامي وطموحي منذ الصغر... وأمور ثلاثة كانتْ تشغل تفكيري أكثر مِن أي شيء آخر...

الحرب، وها قد قامتْ وتدمّر ما تدمّر، ولم يعد يجدي القلق بشأن قيامها.

الدراسة، وها قد انتهتْ وضاعتْ... وقضيتُ أهم سنوات عمري في السجن بدلاً من الجامعة... وانتهى كل شيء ولم يعد يقلقني التفكير فيه...

ورغد...

رغد...

أول وآخر وأهم أحلامي... رغد الحبيبة... مدللتي التي رعيتُها منذ الصغر... وراقبتُها وهي تنمو وتكبر... يوماً بعد يوم...

وقتلتُ عمّار انتقاماً لها...

وقضيتُ أسوأ وأفظع سنوات حياتي حتى الآن... في السجن... منفياً مُبعداً مهجوراً معزولاً عن الأهل والدنيا والحياة... ونور الشمس...

وذقتُ الأمرّين... وسهرتُ الليالي وأنا أتأمل صورتها وأعيش على الأمل الأخير لي... بالعودة إليها ولو بعد سنين...

أعود فأراها مخطوبةً لغيري!؟

ولِمَنْ؟؟... لشقيقي..؟؟

يا رب... رحمتك بي... فأنا لستُ حملاً لكل هذا... ولم يعد بي ذرة مِن القوة والاحتمال...

كنتُ أبكي بحرقة ولا أشعر بشيء مِنْ حولي، حتى أحسستُ بيدٍ تمسِك برأسي وتأخذني إلى حضنٍ لطالما حننتُ إليه...

«ولدي يا عزيزي ما بكَ؟ لماذا تبكي يا مهجة فؤادي؟».

وأجهشَتْ أمي بكاءً وهي تراني أبكي بحرارة. حاولتُ أنْ أتوقّف لكنني لم أستطع... لقد تلقّيتُ صدمةً لا يمكن لقلب بشر أنْ يتحمّلها...

رغد!؟

رغد صغيرتي أنا... أصبحتْ زوجة لأخي؟؟

إنّ الأرض تهتز من تحتي وجسدي يشتعل ناراً وتكاد دموعي تتبخّر مِن شدّة الحرارة...

لم أجد في جسدي أي قوة حتى لرفع ذراعي وتطويق أمي... بكيتُ في حضنها كطفلٍ ضعيفٍ هزيلٍ جريح... لا يملك مِن الأمر شيئاً...

بعد فترة مِنْ الزمن لا أستطيع تحديدها، حضر والدي وحالما رآنا أنا وأمي على هذا الوضع قال:

«يكفي يا أمّ وليد... دعي ابننا يلتقط أنفاسه أما اكتفيتِ؟؟».

والدتي أخذتْ تحدّق بي بين طوفان الدموع...

قلتُ بلا حولٍ ولا قوة وبصوت أقرب إلى النحيب منه إلى الكلام:

«أنا مُتعَب... متعبٌ جداً... لقد انتهيتُ... انتهيتُ...».

وبعد حصّة البكاء هذه صعدا بي إلى غرفة سامر، وجعلاني أضطجع على السرير وهما يقولان:

«ارتح يا بني... نمْ لبعض الوقت».

ثم غادرا...

وأنا مضطجعٌ على الفراش ووجهي ملفوفٌ نحو اليمين... ودموعي لا تزال تنهمر وتغرق الوسادة، وقع ناظري على الهاتف...

مددتُ يدي وأخذتُه واسترجعتُ بصعوبة رقم هاتف الشقة التي يقيم سيف بها واتصلتُ به.

«يجب أنْ تحضر الليلة».

ولاحقاً جاء سامر يخبرني بأنَّ سيف قد حضر. كان سامر يبتسم، وإنْ بدتْ مِن نظراته علامات القلق... خصوصاً وهو يرى الوجوم الغريب على وجهي الذي كان مشرقاً طوال النهار.

ذهبتُ معه إلى حيث كان سيف ووالدي يجلسان ويتبادلان الأحاديث...

لا بد أنَّ الجميع قد لاحظوا شرودي... وعدم إقبالي على الطعام، على عكس وجبة الغذاء التي التهمتُ حصتي منها كاملة تقريباً.

«ما بكَ لا تأكل يا وليد؟ كُلْ حتى تسترد الأرطال التي فقدتها مِن جسمك!».

أجبتُ ببرود وبلادة:

«اكتفيتُ».

وبعد العشاء جلسنا في غرفة الضيوف نشرب الشاي، وكانوا هم الثلاثة، أبي وسامر وسيف، في قمة السعادة ويتبادلون الأحاديث والضحك...

أما تفكيري أنا فكان متوقفاً وجامداً عند اللحظة التي قال فيها آخي: («نحن مخطوبان»).

بعد ساعة، استأذن سيف للانصراف وأخذ يصافح الجميع وحين أقبل نحوي قلتُ:

«سأذهب معك».

أبي وسامر تبادلا النظرات ثم حدّقا بي، كما يفعل سيف... وقالا سويّة وباستغراب:

«ماذا؟؟».

وأنا لا أزال ممسكاً بيد سيف وناظراً إليه أجبتُ:

«إذ لا سرير لي هنا...».

وتوقفت قليلاً ثم تابعتُ:

«ولا أريد ترك صديقي وحيداً».

كان سيف يعتزم السفر بعد يوم آخر، لينال قسطاً أوفر مِنْ الراحة بعد مشقّة الرحلة الطويلة التي قطعناها...

وانتهى الأمر بأنْ خرجتُ معه دون أنْ أودّع غير والدي، وسامر...

في السيارة بعد ذلك، فتحتُ الخزانة الأمامية واستخرجتُ علبة السجائر التي كنتُ قد دسستُها بداخلها أثناء تجوالنا، وفتحتُ النافذة، ثم أشعلتُ السيجارة والتفتُ إلى سيف وقلتُ:

«أتسمح بأنْ أدخّن؟؟».

صديقي سيف لم يكن مِن المدخنين، أومأ برأسه إيجاباً وفتح نافذته، وانطلق بالسيارة...

بقيتُ صامتاً شارداً طوال المشوار، ولم يحاول سيف خلخلة صمتي بأي كلام.

بعد فترة، ونحن نقف عند الإشارة الأخيرة قبل المبنى حيث نسكن، وفيما أنا في شرودي ودهليز أفكاري اللانهائي، قال سيف:

«متى بدأتَ تدخّن؟؟».

لم أجبه مباشرة، ليس لأنني لم أسمعه أو أستوعب سؤاله، بل لأن لساني لم يكن يدخر أي كلام...

«السجن يعلّم الكثير...».

قلتُ ذلك وابتسمت ابتسامةً ساخرة باهتة شعرتُ بأنّ سيف قد رآها رغم تركيزه على الطريق. تذكرتُ لحظتها تلك الأيام... وأولئك الزملاء في السجن...

لماذا أشعر بهم الآن حولي؟؟

كأني أشم راحة الزنزانة!

ربما أثارتْ رائحة السيجارة تلك الذكريات السوداء!

وهل يمكن أنْ أنساها؟

وهل يُعقل أنْ تختفي وأنا لم أبتعد عنها غير أيام فقط...؟؟

ليتهم... ليتهم قتلوني معك يا نديم... ليتنا تبادلنا الأرواح... فمُتُّ أنا... وبقيتَ أنتَ... وخرجتَ لتعود لأهلكَ وبلدكَ وأحبابكَ... أنا... لا أهل لي ولا بلد... ولا أحباب...

لمحتُ الإشارة تضيء اللون الأخضر وأنا أسحق سيجارتي في (الطفاية) ثمّ انطلق سيف بالسيارة...

أنوارٌ كثيرة كانتْ تسبح في الظلام... مصابيح السيارات القادمة على الطريق المعاكس... مصابيح المنازل... مصابيح الشارع... لافتات المحلات الضوئية...

نور على نور على نور...

كم هو أمرٌ مزعج... لم أعد أرغب في رؤية شيء... أتمنى ألا تشرق الشمس يوم الغد... أتمنى ألا يعود الغد... أتمنى... ألا أذكر رغد...

كانتْ المرة الثانية في حياتي، التي تمنيتُ فيها لو أنّ رغد لم تُخلق...

عندما دخلنا الشقة، وهي مكوّنة مِن غرفة نوم وصالة صغيرة وزاوية مطبخ وحمّام واحد... أسرعتُ الخطى نحو غرفة النوم ودون أنْ أنير المصباح. دخلتُ وألقيتُ بجسدي المخدّر أثر صدمة النبأ على أحد السريرين...

ثوان، وإذا بسيف يقبل ويشعل المصباح.

«كلا.. أرجو أطفئه».

قلتُ ذلك وأنا أرفع يدي ثم أضعها فوق عيني المغمضتين لأحجب عنهما النور...

سيف بادر بإطفاء المصباح وبقي واقفاً برهة... ثم أغلق الباب وأحسستُ به يتقدّم... ثم يجلس فوق السرير الآخر الموازي لسريري...

ساد السكون لبعض الوقت، إلا مِنْ ضوضاء تعشّش في رأسي بسبب الأفكار التي تتعارك في داخله...

«ماذا حدث؟؟».

سألني سيف بصوت هادئ منخفض... لم أجبه... ومرّتْ دقائق أخرى فاعتقدتُ أنه حسبني قد دخلتُ عالم النيام... لكنه عاد يقول:

«أخبرني...، إنك لستَ على ما يرام».

بعد ذلك أحسستُ بحركته على السرير المجاور وبصوته يقترب أكثر...

«وليد؟؟».

الآن فتحتُ عيني قليلاً ولدهشتي رأيته يقف عند رأسي ويحدّق بي...

الظلام كان يطلي الغرفة بسواد تام، إلا عن إضاءة بسيطة تتسلل بعناد مِنْ تحت الباب. ويبدو إنها كانتْ كافيه لتعكس بريق الدموع التي أردتُ مواراتها في السواد.

لحظة مِنْ لحظات الضعف الشديد والانهيار التام.. توازي لحظة تراقُص الحزام في الهواء... ثمَّ سكونه النهائي على الرمال... إلى حيث لا مجال للعودة أو التراجع... فقد قُضي الأمر...

جلستُ، ليست قوتي الجسدية هي التي ساعدتني على النهوض، ولا رغبتي الميتة في الحراك، بل الدموع التي ملأتْ تجويف أنفي وورّمتْ باطنه وسدّتْ المعبر أمام أنفاسي البليدة البطيئة... وكان لا بد مِن طردها...

تناولتُ منديلاً مِنْ العلبة الموضوعة فوق المنضدة الفاصلة بين السريرين وجعلتُ أعصف ما في جوفي وصدري وكياني... خارجاً...

إلى الخارج... يا دموعي وآلامي... يا أحزاني وذكرياتي الماضي...

إلى الخارج يا حبي ومهجة قلبي... إلى الخارج يا بقايا الأمل...

إلى الخارج يا روحي... وكل ما يختزن جسمي مِنْ ذرّات الحياة...

وإلى الخارج...

يا اعترافات لم أكن أتوقّع أنني سأبوح بها ذات يوم... لأي إنسان...

«هل واجهتَ مشكلة مع أهلك؟؟... بالأمس كنتَ... كنتَ...».

وصمتَ... فتابعتُ أنا مباشرة:

«كنتُ أملك الأمل الأخير... وقد ضاع وانتهى كل شيء... إنني لم أعد أرغب في العودة إليهم! سأرحل معك يا سيف».

قلتُ ذلك وكانتْ فكرةً وليدة اللحظة، ألا أنها كبرتْ فجأة في رأسي واحتلّتْ عقلي برمّته، ففتحتُ عيني وحملقتُ في الفراغ الذي خُلِقتْ منه هذه الفكرة ثم استدرتُ نحو سيف وقلتُ:

«أنا عائد معك إلى مدينتنا!».

طبعاً سيف تفاجأ ولم يكن الظلام ليسمح لي برؤية ظاهر ردود فعله أو سبر غورها.

سمعتُه يقول بنبرة اندهاش:

«ماذا؟!».

قلتُ مؤكداً:

«نعم! سأذهب معك... فلم يعد لي مكانٌ أو داعٍ هنا».

سيف صمتَ، ولم يعلّق بادئ الأمر، ثم قال:

«أما حدث... كان سيّئاً لهذا الحد؟؟».

وكأنّ جملته كان شرارة فجرّت برميل الوقود... ثرتُ بجنون، قفزتُ عن سريري مندفعاً هائجاً صارخاً:

«سيئاً فقط؟؟ بل أسوأ ما يمكن أنْ يحدث على الإطلاق... إنها خيانة! إنهما خائنان... خائنان... خائنان».

مشيتُ بتوتّر وعصبية أتخبط في طريقي... أبحثُ عن أي شيء أفرغ فيه غضبي بلكمة قوية مِنْ يدي لكنني لم أجد غير الجدار...

وهل يشعر الجدار؟؟

آلام شديدة شعرتُ أنا بها في قبضة يدي أثر اللكمة المجنونة نحو الجدار، واستدرتُ بانفعال نحو سيف الذي ظل جالساً على السرير يراقبني بصمت...

«لقد سرقوا رغد مني!».

لأنّ شيئاً لم يتحرّك في سيف استنتجتُ أنّه لم يفهم ما عنيتُه... قلتُ:

«أعود بعد تسع سنوات مِن العذاب والألم... والذل والهوان الذي عشتُه في السجن بسبب قتلي لذلك الحقير الذي أذاها... تسع سنوات مِن الجحيم... والمرارة... والشوق... فقدتُ فيها كل شيء سوى أملي بالعودة إليها هي... أعود فأجدها...».

وسكتُّ... لأنني لم أقو على النطق بالكلمة التالية...

ودرتُ حول نفسي بجنون، ثم تابعتُ، وقد خرجتْ الكلمة مِنْ فمي ممزوجة بالآهة

والصرخة والحسرة:

«أجدها مخطوبة؟؟».

هنا وقف سيف... إلا أنني لم أكن قد انتهيتُ مِن إفراغ ما لديَّ. قلتُ بصوت صارخ حادٍ مزمجر:

«ولمن؟؟ لأخي؟؟؟ أخي؟؟؟».

حتى لو كانتْ الغرفة مُنارة لم أكن لأستطيع رؤية شيء وسط انفعالي الشديد ساعتها... لذا لا أعرف كيف كانتْ تعابير وجه سيف... ولكن بإمكاني رؤية خياله واقفاً هناك...

اندفعتْ كلماتي مقترنةً بدموعي وزفيري القوي وصوتي الأجش المجلل... وأنا أقول:

«لو كان... لو كان شخصاً آخر... أي شخص... لكنتُ قتلتُه ومحوتُه مِن الوجود... لكنه أخي... أخي يا سيف... أخي... كيف تجرأ على سرقتها مني؟؟... كيف فعلوا هذا بي؟؟

أهذا ما أستحقه؟؟

ليتني لم أخرج مِنْ السجن... ليتني متُّ هناك... ليتني أفقد الذاكرة وأنسى أنني عرفتُها يوماً...

الخائنة... الخائنة... الخائنة...».

وانتهيتُ جاثياً على الأرض في بكاء شديد كالأطفال...

«لقد أطعمتُك بيدي... كيف تفعلين هذا بي يا رغد؟؟ أنا قتلتُه انتقاماً لكِ أنتِ... أيتها الخائنة... أكان هذا حلمك...؟ اذهبي بأحلامك إلى الجحيم...».

وأدخلتُ يدي إلى جيبي، وأخرجتُ منه الصورتين اللتين رافقتاني ولازمتاني لتسع سنين، لستين دقيقة مِنْ كل ساعة مِنْ كل يوم...

أخرجتُهما وأخرجتُ معهما القصاصة التي وجدتُها تحت باب غرفتي في منزلنا القديم.

لم أكن أرى أياً مما أخرجتُ، ولكن يدي تحسُّ... وتدري أيّها صورة رغد... فلطالما أمسكتُ بالصورة واحتضنتُها في يدي لساعات وساعات...

الدموع بللت الصورتين وكذلك الورقة...

«أيتها الخائنة... اذهبي وأحلامك إلى الجحيم...».

وقبل أنْ أتردّد أو أدع لعقلي المفقود لحظة للتفكير... مزّقتُ الورقة... إرباً إرباً...

ورميتُ بأشلائها في الهواء...

ومزّقتُ صورة رغد... قطعةً قطعة... وبعثرتُها في الفراغ...

إلى حيث تبعثرتْ آخر آمالي وأحلامي... وانتهتْ آخر لحظات حبّي الحالم...

وتلاشتْ آخر ذرات غبار الماضي...

ولم يبق لي...

غير حطام قلبٍ منفطر...

الحلقة الثالثة عشر

خُذني إليكَ

- رغد -

ذهبنا أنا ودانة لرفع الأطباق عن المائدة. كان الضيف مع أبي وسامر، ووليد في غرفة الضيوف، فيما تعد والدتي الشاي في المطبخ.

لأنّ سامر يجلس عادةً إلى يسار والدي، فلا بد أنّ الضيف قد جلس إلى يمينه، ولا بد أنّ الكرسي المجاور له كان كرسي وليد...

«مَنْ كان يجلس هنا؟».

سألتُ، بشيء مِنْ البلاهة المفتعلة، فأجابتني دانة بسخرية وهي ترفع الأطباق:

«ما أدراني؟ أتصدّقين... لم أكن معهم! لا... أقصد أنني كنتُ أجلس على الكرسي المقابل لكنني لم أنتبه لمن كان يجلس أمامي!».

قلتُ:

«وما دمتِ قد كنتُ جالسةً معهم، فلماذا لا أرى أطباقاً أمام مقعدك؟؟».

رفعتْ دانة نظرها عن السكاكين والملاعق والأشواك التي كانتْ تجمعها، وهتفتْ بغضب وحدّة:

«رغد!».

وهي تحرّك يدها مهدّدة برميي بالسكاكين! قلتُ بسرعة:

«حسناً حسناً لن أسأل المزيد».

وصمتنا للحظة، ثمّ عدتُ أقول:

«الشخص الذي كان يجلس هنا... لم يأكل شيئاً! ربما لم يعجب الضيف طعامنا!».

كنتُ أريد منها فقط أنْ تقول شيئاً يرجّح استنتاجي بأنّ وليد كان هو مَن يجلس على هذا المقعد...

جلستُ على ذلك المقعد، وأخذتُ إحدى الفطائر مِنْ الطبق الموضوع أمامي وبدأتُ بقضمها. التفتتْ إليّ دانة ناظِرةً باستهجان:

«ماذا تفعلين؟؟!».

مضغتُ ما في فمي ببطء شديد ثمّ ابتلعتُه، ثمّ قلتُ:

«أرى ما إذا كانتْ الفطائر في هذا الطبق غير مستساغة! لكنها لذيذة! لِمَ لمْ تعجبه؟؟».

طبعا كنتُ أتعمّد إثارة غيظها! فأنا أريدها أنْ تأمرني بالمغادرة فوراً لأنجو مِنْ غسل

عشرات الأطباق... فقد تعبتُ!

دانة كانتْ على وشك الصراخ بوجهي، غير أنَّ والدتنا أقبلتْ داخلة الغرفة لتساعدنا في رفع الأطباق وتنظيفها، فأسرعتُ بالنهوض وعملتُ بهمّة ونشاط خجلاً منها!

بعد أنْ انتهيتُ مِنْ درس الغسيل هذا ذهبتُ إلى غرفتي وأنا متعبة وأتذمر. كنتُ قلقة بشأن بشرة يدي التي لا تتحمل الصابون والمنظفات.

أخذتُ أتلمّسها وشعرتُ بجفافها، فأسرعتُ إلى المرطبات والمراهم، ودفنتُ جلدي تحت طبقة بعد طبقة بعد طبقة منها!

قلتُ في نفسي:

«ربّاه! إنني لا أصلح لشيءٍ كهذا! كيف سأصبح ربّة منزل ذات يوم؟ لا أريد أنْ أفقد نضارتي!».

وتذكّرتُ حينها موضوع زواجنا الذي كدتُ أنساه!

لا أعلم ما إذا كان سامر قد تحدّث مع والدي بشأن الزواج أم لا... فقد شغلنا جميعا حضور وليد عن التفكير بأي شيء آخر...

اضطجعتُ على سريري بعد فترة، وأنا متوقعة أنْ أنام بسرعة من شدة الإرهاق...

غير أنَّ أفكاراً كثيرة اتخذتْ مِنْ رأسي ملعباً ليلتها وحرمتني مِن النوم...!

حتى هذه اللحظة لا زلتُ أشعر بشيء يحرق داخل عيني... إنها نظرة وليد المرعبة الحادة التي أحرقتني...

تقلّبتُ على سريري كما تُقلّب السمكة أثناء شويها!

كنتُ أشعر بالحرارة في جسدي وفراشي... فنظرتُ مِنْ حولي أتأكّد مِنْ عدم انبعاث الدخان!

لماذا حدّق بي وليد بهذا الشكل؟؟

تحسّستُ يدي اليمنى باليسرى، وكأنني لا أزال أشعر بالألم فيها بل وتوهمتُ توهجها واحمرارها... وحرارتها...

إنه طويل جداً! لا يزال عليّ رفع رأسي كثيراً لأبلغ عينيه...

ورفعتُ رأسي نحو السقف، أعتقد أنني رأيتُ عينيه هناك! معلقتين فوق رأسي تماماً...

بسرعة سحبتُ البطانية وغطيتُ رأسي كاملاً... وبقيتُ هكذا حتى نفذتْ آخر جزيئات الأوكسجين مِنْ تحت البطانية فأزحتُها جانباً، وانتقل الهواء البارد المنعش إلى صدري مختالاً، إلا أنّ حرارتي أحرقتْه، فخرج حاراً مخذولاً!

عدتُ أنظر إلى السقف، وأتخيّل عيني وليد... وأنفه المعقوف!

وأتخيله يضع نظارة سامر السوداء التي تلازمه كلّما خرج مِنْ المنزل، كم ستبدو مناسبة له!

لا أعرف كم مِنْ الوقت مضى وأنا أتفرج على الأفكار السخيفة وهي تلعب بحماس داخل رأسي!

كنتُ أريد أنْ أنام ولكن...

نظرت إلى ساعة الجدار ورأيتُ عقربيها الوامضين يشيران إلى الساعة الثانية ليلاً...

ليس مِنْ عادتي أو عادة أفراد عائلتي السهر... لا بد أنَّ الجميع يغطُّ الآن في نومٍ عميق فيما أنا مشغولةٌ بعيني وليد!

لدى رؤيتي للساعة تذكّرتُ شيئاً فجأة، فجلستُ بسرعة:

«الساعة!».

وبسرعة خاطفة، نهضتُ عن سريري وخرجتُ مِن الغرفة وركضتُ نحو غرفة الضيوف...

لقد وجدتُ الباب مغلقاً، فوقفتُ حائرة...

ترى هل يوجد أحد بالداخل؟؟

وخصوصاً مِنْ النوع الذي تتعلّق عيناه في الأسقف؟؟

قرّبتُ رأسي وتحديداً أذني مِن الباب، قاصدةً الإصغاء إلى أي صوتٍ قد يدلُّ على وجود شخصٍ ما، مع أنني واثقةٌ مِنْ أنَّ أذني ليستا خارقتين ما يكفي لسماع صوت تنفُّس بشرٍ ما يفصلني عنه بابٌ وعدة خطوات!

لكني على الأقل، لم أسمع صوت المكيف!

لمستُ مقبض الباب الحديدي، ولأنهُ لم يكن بارداً اعتمدتُ على هذا كدليلٍ قاطع يثبت أنَّ المكيف غير مشغّل، وبالتالي فإنَّ أحداً ليس بالداخل!

أعرف!

أنا أكثر ذكاءً مِن ذلك، لكن هذه اللحظة سأعتمد على غبائي!

فتحتُ الباب ببطء وحذر... وتأكّدتُ حينها أنه لم يكن هناك أحد...

أشعلتُ المصباح وتوجّهتُ فورا إلى المكان الذي وقعتْ فيه الساعة بعد ارتطامها بالحائط... خلف المعقد الكبير...

كانتْ هناك مسافة لا تتجاوز البوصتين تفصل المقعد الكبير عن الجدار. حاولتُ النظر مِنْ خلال هذا المجال الضيق لكنني لم أستطع رؤية شيء.

صحيح أنَّ حجمي صغير لكن يدي أكبر مِنْ أنْ تنحشر في هذه المساحة الضيقة محاولة استخراج الساعة!

«تباً! ماذا أفعل الآن؟؟».

شمّرتُ عن ذراعي، وتأهّبتُ... ثمَّ أمسكتُ بالمقعد الكبير وحاولتُ تحريكه للأمام محاولةً مستميتةً، لكن مفاصلي كادتْ تنخلع دون أنْ يتزحزح هذا الجبل عن مكانه قدر أنملة!

«أرجوك أيتها الساعة أخرجي مِنْ هناك!».

ليتها كانتْ تسمعني! لماذا لم يصنع الإنسان ساعة تمشي على أرجل حتى يومنا هذا؟؟

شعرتُ بإعياء في عضلاتي فارتميتُ على ذلك المقعد...

رباه!

ستضطر غاليتي للمبيت بعيدة عني... مجروحةً وحزينةً ولا تجد مَن يواسيها!

وضعتُ وسادة المقعد على صدري وأرخيتُ عضلاتي... لم أشعر بنفسي... ولا حتى بالحر الذي يكوي داخلي قبل خارجي... واستسلمتُ للنوم!

- وليد -

ولا للحظةٍ واحدة بعد النبأ القاتل، استطعتُ أنْ أرتاح... متمدد على سريري منذ ساعات... وأفكر في نهايتي البائسة...

طلع النهار منذ مدة وامتلأتْ الغرفة ضوءاً مزعجاً، أصبحتُ أكرهه... بل وأكره الشمس التي أجبرتْ عيني على استقبال النور...

نهضتُ عن السرير وأنا أحسُّ بالآلام في جميع مفاصل بدني... وما إنْ جلستُ، حتى وقعتْ أنظاري التائهة على أشلاء الصورة المبعثرة فوق أرضية الغرفة...

أتيتها، والتقطتُها قطعةً قطعة وكوّمتُها فوق بعضها البعض وضممتُها إلى صدري...

وضعتُها في جيبي، وهممتُ برمي أجزاء الورقة الممزقة، لكنني لم أقو على ذلك...

كيف لي أنْ أمح مِنْ الوجود شيئاً جاءني منك؟؟

آخر شيء جاءني منك... وآخر شيء سأستلمه على الإطلاق...

كان الصباح الباكر... حملتُ علبة سجائري وخرجتُ من الشقة وإلى الشارع، وأخذتُ أتمشى...

لم يكن هناك سوى بعض السيارات تمرُّ بين الفينة والأخرى، وبعض عمال النظافة متناثرين في المنطقة بزيّهم المزعج اللون...

لم يكن في المنظر ما يبهج النفس أو يريح الأعصاب...

بدأتُ أدخن السيجارة تلو الأخرى، فهذا هو الشيء الوحيد الذي يشعرني بالراحة المزيفة...

تفكيري لم يكن صافياً، إلا أنني عزمتُ على الرحيل عائداً إلى بيتي...

بعد قرابة الساعتين، عدتُ للشقة فوجدتُ سيف وقد خرج لتوّه مِنْ دورة المياه بعد حمّام منعش، تفوح منه رائحة الصابون...

ألقى علي تحية الصباح بمجرّد أنْ رآني، فرددتُ وأنا أشعر بالخجل مِنْ رائحة السجائر المنبعثة مني إزاء رائحة النظافة والصابون الصادرة منه!

«هل نمتَ جيداً؟؟ لا تبدو نشيطاً!».

قال سيف ذلك، وهو يدقّق النظر في الهالتين السوداوين اللتين تحيطان بعينيَّ الكئيبتين الحمراوين...

لم يكن علي أنْ أجيب، فقد جاءه الجواب بليغاً مِنْ مظهري...

قال سيف:

«إنني أفكّر في الطعام! أ لديكم في البيت ما يؤكل أم أفتّش عن مطعم!؟».

كان يقول ذلك بمرح ودعابة، لكنني كنتُ في حالةٍ سيئة للغاية... أسوأ مِنْ أنْ تسمح لي بأي تفكير لائق أو ذوق سليم، قلتُ:

«دعنا ننطلق الآن».

سيف تسمّر في موضعه وحدّق بي بدهشة! لكن إشارات الإصرار الصارخة في عيني طردت من رأسه أي شكوك حول جديتي في الأمر من عدمها...

«الآن؟؟».

«نعم... لِمَ علينا الانتظار للغد؟؟ تبدو في قمة النشاط ولا ضير مِن السفر الآن».

سيف صمتَ قليلا ثمّ قال:

«عائلتك... أتظن أنهم...».

رفعتُ زاوية فمي اليمنى بسخرية ثمّ تنهّدتُ تنهيدة قصيرة وقلتُ:

«لم يعد لي مكانٌ بينهم... فكما نسوني طوال السنوات التسع الماضية، وعاشوا حياتهم دون تأثّر، عليهم اعتباري قد متُّ مِنْ اليوم فصاعداً... بل مِنْ الأمس فصاعداً».

لقد كنتُ محبطاً ولا أرى إلا سواداً في سواد...

بقيتُ واقفاً عند الباب أنتظر أنْ يجمع سيف أشياءه ولم أبادر بمساعدته، سيف لم يحاول مناقشتي في الأمر وإنْ كنتُ أرى الاعتراض مختبئاً خلف جفونه.

كان الوقت لا يزال باكراً، ركبنا السيارة وانطلقنا...

«سأمرُّ لوداعهم».

نعم وداعهم. بعد كل الذي تكبّلت مِنْ أجل العودة إليهم... بعد كل تلك السعادة التي عشتها يوم الأمس... بعد كل الحرمان والضياع...

أودّعهم!

كيف لي أنْ أقيم معهم وقد انتهى كل معنى لوجودي؟؟

لم يكن في الشارع غير القليل مِنْ السيارات والناس... وكان المشوار قصيراً. وحين وصلنا، ركن سيف السيارة جانباً ونزلنا سوية.

كان والدتي هي من استقبلنا عند المدخل، وبمجرد أنْ دخلتُ، أقبلتْ نحوي تعانقني وترحّب بي بحرارة، وكأنها لم ترني يوم الأمس...

قلتُ:

«سيف معي...».

وكان سيف لا يزال واقفاً خلف الباب ينتظر الإذن بالدخول.

«دعه يتفضل، خذه إلى غرفة المعيشة حيث والدك، فغرفة الضيوف حارّة الآن».

ثمّ انصرفت نحو المطبخ، فيما فتحتُ الباب لسيف:

«تفضّل».

وذهبنا إلى غرفة المعيشة حيث كان والدي جالساً يقرأ إحدى الصحف...

في الماضي، كنتُ كثيراً ما أقرأ أخبار الصحف له!

«صباح الخير يا أبي».

والدي قام إلينا مرحباً بحرارة هو الآخر... واتخذ كلاهما مجلسه، فيما استأذنتُ أنا وخرجتُ مِنْ الغرفة قاصداً المطبخ، وتاركاً الباب مفتوحاً، تشيّعني نظرات سيف مِنْ الداخل!

هناك كانتْ والدتي واقفةً عند الموقد وقد وضعتْ إبريقاً كبيراً مليئاً بالماء ليغلي فوق النار...

ابتسمتْ لدى رؤيتي وقالتْ:

«لم أعلم أنك غادرتَ البارحة إلا بعد حين... اذهبا أنت وسامر اليوم لشراء طقم غرفة نوم جديد، سنعدُّ لكَ غرفة الضيوف لتتخذها غرفة لكَ».

طبعاً لم أملك مِنْ الشجاعة لحظتها ما يكفي لقول ما أخبّئه في صدري...

قلتُ - محاولاً تغيير سير الحديث:

«هل تناولتم فطوركم؟».

«ليس بعد، فسامر والفتاتان لا زالوا نياماً!».

واستطردتْ:

«سأعد لكم فطوراً شهياً...، شغّل المكيف في غرفة الضيوف الآن ثمَّ خذ الضيف إليها».

«حسناً».

وهممتُ بالانصراف، فقالتْ أمي:

«قل لي... أي طعام تود تناوله على الفطور يا عزيزي؟؟».

إنني لا أفكّر بالطعام ولولا سيف لكنتُ اختصرتُ المسافة وودّعتكم وانتهينا...

قلتُ بلا مبالاة:

«أي شيء...».

ثمَّ خرجتُ مِنْ المطبخ متجهاً إلى غرفة الضيوف لتشغيل المكيف. كان الباب مفتوحاً، دخلتُ وذهبتُ رأسا إلى المكيّف فشغّلتُه واستدرتُ لأعود خارجاً... فاصطدمتْ عيناي بشيءٍ جعل قلبي يتدحرج تحت قدمي!

ربما كان صوت المكيّف هو الذي جعل هذا الكائن الحي يفيق فجأةً، ويفتح عينيه، ويهبُّ جالساً في فزع ويحملق بي!

أخذتْ تنظر إلي بتوتر واضطراب وتتلفّتْ يمنةً ويسرة، بينما أنا متخشّب في مكاني... لا أعرف ماذا أفعل!

ببساطة لا أعرف ماذا أفعل!

ثمَّ ماذا؟

رفعتْ الوسادة المربعة الشكل التي كانتْ موضوعةً فوق حضنها وغطّتْ بها وجهها

وهبّتْ واقفة مستترة خلف الوسادة، وركضتْ نحو الباب!

«رغد انتظري!».

توقّفتْ، وهي لا تزال تخبّئ رأسها خلف الوسادة وأنا لا أزال واقفاً مكاني لا أعرف ما أفعل مِنْ المفاجأة!

ربما أخطأتُ وشغّلتُ المكيف على وضع التدفئة! الجو حار... حار... حار!

وقطرات العرق بدأتْ تتجمّع على جبيني وشعري أيضاً...!

اعتقد أنه موقف لا يترك للمرء فرصةً للتفكير، غير أنني تذكّرتُ سيف، وهو يجلس في موقع يسمح له برؤية العابر في الممر... والبابِ مفتوح!

«أأأ... صديقي هنا... سأغلق الباب... لحظة...».

كانتْ تقف قرب الباب وحين أتممتُ جملتي تراجعتْ للوراء حتى التصقتْ بالجدار فسرتُ أنا نحو الباب وخرجتُ وعمدتُ إلى باب غرفة المعيشة فأغلقتُه دون أنْ أرفع بصري نحو سيف الذي ولا شك كان يراقبني...

عدتُ بعدها للفتاة الملتصقة بالحائط والوسادة... وقلتُ باضطراب:

«أنا... آسف... لم أعلم... أقصد لم أنتبه... أأأ...».

ولم أجد كلمة مناسبة!

مسحتُ العرق عن وجهي وقلتُ أخيراً:

«يمكنكِ الذهاب».

وأوليتُها ظهري، وسمعتُ خطاها تبتعد مسرعة...

تهالكتُ على نفس المقعد الكبير الذي كانتْ رغد نائمةً فوقه وشعرتُ بالحرارة تزداد...

لقد كان دافئاً بل وحاراً أيضاً!

ما الذي يدفعكِ للنوم في هذا المكان وبدون تكييف!؟ وتتدثّرين بالوسادة أيضاً!

يا لكِ مِنْ فتاة!

لا أعرف كيف تسلّلتْ ابتسامة إلى قلبي... لا! ليستْ ابتسامة بل شيء أكبر مِنْ ذلك... إنها ضحكة!

لم يكن ظرفاً مناسباً للضحك وحالتي كما تعرفون هي أبعد ما تكون عن السعادة، لكنه موقف أجبر ضحكتي على الانطلاق...

لم يطل الأمر... وقفتُ، وأخذتُ أحدّق بالمقعد الذي كانتْ رغد تنام عليه... ثمَّ أتحسسه بيدي...

عندما كانتْ رغد صغيرة، كنتُ أجعلها تنام فوق سريري وأظلُّ أراقبها بعطف... وأداعب شعرها الأملس...

كانتْ تحب أنْ تحتضن شيئاً ما عند النوم... كدمية قماشية أو بالونة أو حتى وسادة!

وكم كانتْ تبدو بريئة وملائكية!

لم يكن لضحكتي تلك أي داع لأنْ تولد وسط مجتمع الدموع الحزينة، سرعان ما لقيتْ حتفها بغزو دمعة واحدة تسلّلتْ مِنْ بين حدقتي قهراً... وحسرةً... على ما قد فقدتُ...

- رغد -

لم أدرك أنني نمتُ حيث كنتُ، على ذلك المقعد الكبير الثقيل، (الكنبة) إلا بعد أنْ استفقتُ فجأة فرأيتُ عينَي وليد تحدّقان بي!

فزعتُ، ونظرتُ مِنْ حولي واكتشفتُ أنني كنتُ هنا!

كان جسمي حاراً والعرق يتصبّب منه، وجلستُ مذعورة أتلفّتُ باحثةً عن شيء أختفي خلفه... ولم أجد غير وسادة المقعد التي كنتُ ألتحفها. غطّيتُ بها وجهي وقمتُ مسرعةً أريد الهروب!

لا أصدق أنني وصلتُ إلى غرفتي أخيراً بسلام! يا إلهي ما الذي يحدث معي!؟ كيف نمتُ بهذا الشكل؟؟ وكيف لم يوقظني الحر؟؟ وما الذي كان يفعله وليد هناك؟؟؟

كنتُ لا أزال أحتضن الوسادة وأسند ظهري إلى الباب الموصد، وألتقط أنفاسي بقوة!

كانتْ غرفتي باردة ولكن ليس هذا هو سبب ارتعاش أطرافي!

كم أنا مُحرجةٌ مِن وليد!

أمس يراني بقطعةِ عجين تغطّي أنفي واليوم بهذا الشكل! ماذا سيظنني؟؟

كما تقول دانة.. عليّ ألا أغادر غرفتي بعد الآن! كنتُ أشعر بعينيه تراقباني! أحس بهما معي في غرفتي الآن!

ببلاهة نظرتُ إلى السقف، في الموضع الذي توهّمتُ رؤيتهما فيه البارحة وتورّد خداي خجلاً!

لماذا أشعر بالحرارة كلما عبر وليد على مخيلتي؟؟ ولماذا تتسارع دقات قلبي بهذا الشكل؟؟

بعد أنْ تجمّعتْ الأشياء التي تبعثرتْ مِنْ ذاتي أثر الفزع نعمتُ بحمّام منعش وبارد وارتديتُ ملابسي وحجابي وذهبتُ بحذر إلى المطبخ...

كانتْ أمي تنظف السمك عند المغسل، قلتُ باستياء:

«صباح الخير أمي! لا تقولي أنَّ غذاءنا اليوم هو السمك!».

ابتسمتْ والدتي وقالتْ:

«صباح الخير! إنّه السمك!».

أطلقتُ تنهيدة اعتراض، فأنا لستُ من عشّاق السمك كما وأنني لا أريد حصة طبخ جديدة هذا اليوم!

«ألم تنهض دانة بعد؟؟».

سألتني، قلتُ:

«ليس بعد...».

ثمَّ غيرت نبرة صوتي وقلتُ:

«ألدينا ضيوف اليوم؟؟».

«إنه صديق وليد... سيف...، لسوف نستضيفه ونكرمه إلى أنْ يسافر غداً، فهو الذي ساعد ابني على...».

وتوقَّفتْ أمّي عن الكلام...

«على ماذا؟».

قالتْ بشيء من الاضطراب:

«على... على الحضور إلى هنا... فلم يكن يعرف أين نحن!».

أنا تركتُ رسالةً أخبر فيها وليد بأننا رحلنا إلى هذه المدينة! لا أدري إنْ كان قد وجدها! بالطبع لا... كيف كان سيدخل إلى منزل موصد الأبواب!؟

كم أنا متلهفة لمعرفة تفاصيل غيابه... دراسته... عمله... كل شيء!

سكبتُ لي بعض الشاي، وتوجّهتُ نحو الطاولة الصغيرة الموجودة على أحد جوانب المطبخ قاصدةً الجلوس واحتسائه على مهل. فيما أنا في طريقي نحو الطاولة، وإذا بوليد وسامر مقبلين... يدخلان المطبخ!

ما إنْ وقع بصري على وليد حتى اضطربتْ خطاي واهتزّتْ يدي، واندلق بعض الشاي الحار على أصابعي فانتفضتْ أصابعي فجأة تاركة قدح الشاي ينزلق مِنْ بينها ويهوي... ويرتطم بالأرضية الملساء ساكباً محتواه على قدمي وما حولها!

«آآآي».

شعرتُ بلسعة الشاي الحار وابتعدتُ للوراء وأنا أهفُّ على يدي لتبريدها... سامر أقبل مسرعاً يقول:

«أوه عزيزتي... هل تأذيتِ؟!».

قلتُ:

«أنا بخير».

وأنا أتألم...

سامر أسرع نحو الثلاجة وأخرج قطعة جليد، وأتى بها إليّ، أمسك بيدي وأخذ يمررها على أصابعي... لملامسة الجليد لأصابعي شعرتُ بالراحة... قلتُ:

«شكراً».

وابتسم سامر برضا.

تركتُه مشغولاً بتبريد أصابعي وسمحتُ لأنظاري بالتسلل مِنْ فوق كتفه، إلى ما ورائه...

كان يقف عند الباب، ساداً بطوله وعرضه معظم الفتحة، يحدّق بنا أنا وسامر بنظرات مخيفة!

لا أعرف لماذا دائماً تشعرني نظراته بالخوف... والحرارة!

الجليد أخذ ينصهر بسرعة...

رفعتُ أنظاري عنه وبعثرتها على أشياء أخرى، أقل إشعاعاً وحرارة... كالثلاجة، كإبريق الشاي، أو حتى... لهيب نار الموقد!

لكني كنتُ أشعر بنظراته تحرقني عن بعد! أأنتم واثقون مِنْ أنكم لا تشمّون شيئاً؟؟

وليد الآن تحرّك، متقدماً للداخل... ومبتعداً عنا، ومتوجهاً نحو أمي...

قال:

«ماذا تصنعين أمّاه؟».

«سأحضّر لكم السمك المشوي هذا اليوم... ألم يكن صديقك يحبه في الماضي حسب ما أذكر؟؟».

سكتَ وليد برهة ثمَّ قال:

«لا داعي... يا أمي..».

وسكت برهة أخرى ثمَّ واصل:

«سوف يسافر سيف الآن...».

جميعنا، أنا وسامر وأمي، نظرنا إلى وليد باهتمام... قالتْ أمي:

«يسافر؟ ألم تقل أنه سيبقى يوماً بعد؟».

«بلى... لكن خطّته تغيرتْ وسيخرج... فوراً».

قال (فوراً) هذه بحدّة وهو ينظر باتجاهنا أنا وسامر. أمي قالتْ:

«أقنعه يا وليد بالبقاء حتى وقت الغذاء على الأقل... أقنعه بنيَّ!».

وليد كان لا يزال ينظر باتجاهنا، ورأيتُ يده تنقبض بشدة ووجهه يتوهج احمراراً وعلى جبينه العريض تتلألأ قطيرات العرق...

لم يكن الجو حاراً ولكن... هذا الرجل... ناري... ملتهب... حار... يقدح شرراً!

نظر إلى أمي نظرة مطوّلة ثمَّ قال:

«أنا... ذاهبٌ معه».

سامر، ترك قطعة الجليد فوق أصابعي واستدار بكامل جسده نحو وليد، كما فعلتْ أمي...

قال سامر:

«عفواً؟؟ ماذا؟؟».

وليد لم ينظر إلى سامر بل ظلّ يراقب تعابير وجه أمي، المندهشة الواجمة، وقال:

«نعم أمي... سأسافر معه... حالاً».

* * *

لم تجدِ الدموع والنداءات والتوسلات التي أطلقها أفراد عائلتي في صرف نظري عن السفر...

بل إنني وفي هذه اللحظة بالذات، أريد أنْ أختفي ليس فقط مِن البيت، بل مِن الدنيا بأسرها. لقد كانتْ حالة أمّي سيئةً جداً... ولكن صورة الخائنين وأيديهما المتلامسة... وقطعة الجليد المنزلقة بدلال بين أصابعهما أعمتْ عيني عن رؤية أي شيء آخر...

وأقيم مهرجان مناحةٍ كبير ساعة وداعي...

كان يجب أنْ أذهب، ولم يكن لدي أي نوايا بالعودة... فقد انتهى كل شيء...

تحججتُ بكل شيء...

أوراقي... شهادتي... أشيائي... وكل ما خطر لي على بال، مِنْ أجل إقناعهم بتسليمي مفاتيح المنزل...

سيف ينتظرني في السيارة، وهم متشبثون بي يعيقون خروجي، محيطون بي مِنْ الجهات الأربع... أمي وأبي، وأختي وآخي الخائن...

أما الخائنة رغد... فكانتْ تراقب عن بعد... إذ أنني لم أعد شيئاً يجوز لها الاقتراب منه...

للحظة اختفتْ رغد، وصارتْ عيناي تدوران وتجولان فيما حولي...

أين أنتِ...؟؟ أين ذهبتِ؟؟

أعليها أنْ تحرمني حتى مِنْ آخر لحظة لي معها؟؟

كنتُ ممسكاً بالباب في وضع الخروج... أردتُ أنْ أسير خطوةً نحو الخارج غير أنَّ قبضة موجعة في صدري منعتني من الخروج قبل أنْ... أراها للمرّة الأخيرة...

فقط... للمرّة الأخيرة...

«أين رغد؟؟».

قلتُ ذلك، وعدتُ نحو الداخل أفتّش عنها. وجدتها في غرفة الضيوف وكانتْ للعجب... تحاول تحريك المقعد الكبير عن مكانه!

«رغد...!».

التفتتْ إليّ، فرأيتُ الدموع تغرق عينيها فيما هي تحاول جاهدةً زحزحة المقعد. دموع رغد تقطّع شرايين قلبي...

أشعر بالدماء تغرق صدري ورئتي... وتسد مجرى هوائي...

إنني أختنق يا رغد! ليتكِ تحسّين بذلك...

«ماذا تفعلين؟؟ ألن... تودّعيني؟؟».

حرّكتْ رأسها نفياً واعتراضاً...

تقدّمتُ نحوها، وأمسكتُ بالمقعد وحرّكته عن موضعه نحو الأمام بالشكل الذي أرادتْ فأسرعتْ هي إلى خلفه، وانحنتْ على الأرض والتقطتْ شيئاً ما، لم يكن غير ساعتي القديمة...

رغد أقبلتْ نحوي تمدُّ يدها إليّ بالساعة وتقول:

«لقد تركتُ الجميع يسخر مني... وأنا محتفظةٌ بها وأضعها حول معصمي طوال سنين... في انتظار عودتك كما وعدتَ! لكنك كذبتَ علي... ولم تعد!».

ورمتْ بالساعة نحوي فأصابتْ أنفي... وهوتْ أرضاً. انحنيتُ ورفعتُها عن الأرض... وبقينا نحدّق ببعضنا لبرهة، ثمّ قلتُ:

«لم تعودي بحاجة للاحتفاظ بها... فصاحب الساعة... لم يعد موجوداً... ولن يعود يوماً».

وأوليتُها ظهري، وانصرفتُ نحو باب المدخل...

لم أعطِ بصري الفرصة لإلقاء أي نظرة على أيٍ منهم... لم ألتفتْ للوراء... وكنتُ اسمع نداءاتهم دون أنْ أستجيب لها...

تريدون عودتي؟؟ أعيدوا رغد إليّ أولاً!

أم تظنون أنني سأحتمل العيش بينكم، وهي... خطيبة لأخي؟؟ دون رغد... فإنّ وليد لم يعد له وجود على وجه الأرض...

ألا تدركون ذلك؟؟ ألا تدركون ما فعلتم بي؟؟

قتلتموني... شرّ قتلة...

«وليـــد».

كان هذا صوت رغد... يخترق أذني... ورأسي... وقلبي... وكل خلية... وكل ذرة مِنْ جسدي...

لم أستطع أنْ أقاوم... التفتُّ نحو الوراء ولم أرَ شيئاً... غير طفلةٍ صغيرة... ضئيلة الحجم... دائرية الوجه... واسعة العينين... خفيفة الشعر... يتدّلى شعرها القصير الأملس على جانبيها بعفوية... ترفع ذراعيها نحوي بدلال وتقول:

«وليـــد... احملني!».

«رغد... تعالي!».

رأيتُ شبحها يقبل نحوي... راكضاً... ضاحكاً... حاملاً في يده اليمنى دفتر تلوين... وفي الأخرى صندوق الأماني... ويمد ذراعيه إلي... فأطير به إلى الهواء...

إلى الفضاء... إلى السماء... إلى حيث ترتفع أرواح الموتى... وتصعد دعوات المعذبين...

يا رب... أتوسل إليك...

خذني إليك...

الحلقة الرابعة عشر

هدنة مشاعر

- وليد -

طريق العودة لم يكن بأقل مشقة مِن طريق الذهاب...

غير أنني بسبب التعب والإجهاد النفسي نمت معظم ساعات النهار الأول.

حطام الأشياء التي أراها مِن حولي لا يختلف عن حطام قلبي... إلا أنَّ الجماد لا ينزف دماً.

التلاوة المنبعثة مِنْ مذياع السيارة بصوت قارئ رخيم عذب هي الشيء الوحيد الذي خفّف على قلبي آلام التمزّق والتقطّع والاحتراق...

توالتْ الساعات، وكنتُ أتابع باهتمام مزيّف كل ما أسمعه مِنْ المذياع هروباً مِن التفكير في الطريق الذي ولّى... والطريق القادم... في الماضي... والمستقبل...

بلغنا مدينتنا قبيل غروب الشمس الثانية التي أنارتْ دربنا...

«خذني إلى بيتي».

قلتُ ذلك ونحن أمام مفترق طرق، يؤدي أحدهم إلى بيتي وآخر إلى بيت سيف.

«الآن؟ دعنا ننزل بيتنا ونرتاح مِن عناء المشوار الطويل...».

«أرجوك يا سيف... إلى بيتي...».

لم أكن هذه المرّة أشعر بأي شوق أو حماس لدخول المنزل المهجور. وسيف همّ بالحضور معي غير أنني قلتُ:

«لا بد أنّ والديك في انتظارك الآن... سأشكركَ كما ينبغي لاحقاً، بلّغهما تحياتي».

كان سيف قلقاً بشأني ولكنني صرفتُه، ودخلتُ المنزل المظلم وحيداً.

رفعتُ يدي لإنارة المصباح، بل المصابيح واحداً تلو الآخر فاكتشفتُ أنَّ الكهرباء مقطوعة.

وعلى الضوء الباقي مِنْ آخر خيوط الشمس، سرتُ في منزلي الكئيب الساكن وصعدتُ إلى الطابق العلوي...

ذهبت رأساً إلى غرفة نومي... أخرجتُ المفاتيح، ثمَّ فتحتُ الباب ببطء...

وخطوتُ خطوة إلى الداخل... سرعان ما عادتْ بي السنين إلى الوراء...

حين كنتُ فتى مراهقاً في الثامنة عشر مِنْ العمر... أجلس على هذا الكرسي أذاكر بشغف...

يا إلهي!

لا تزال كتبي التي تركتُها على المكتب في مكانها! مفتوحةً كما تركتها قبل تسع سنين!

جلتُ ببصري في الغرفة... وفوجئتُ برؤية الأشياء كما هي...

تقدّمتُ خطوة بعد خطوة...

السرير... نفس البطانية والأغطية التي كانتْ عليه قبل رحيلي...

اقتربتُ من المكتب... إنه كتاب الرياضيات الذي كنتُ أقرأه آخر ليلة قبل الرحيل، استعداداً لامتحان الغد!

وقلم الرصاص لا يزال موضوعاً على الصفحة المفتوحة...

وبقيّة الكتب مبعثرة على الطاولة تماماً كما تركتُها منذ ذلك الزمن...

مددتُ يدي فلمستُ الغبار الذي يغطي الكتاب، وكل شيء...

فتحتُ الأدراج لألقي نظرة... لا شيء تغيّر! لا يبدو أنّ أحداً قد وطأ أرض هذه الغرفة مذ هجرتها.

استدرتُ نحو سريري... لطالما احتضنني هذا السرير وامتصّ تعبي وأرقي... ألا زال يصلح للنوم؟ أأستطيع رمي أثقال صدري وجسدي عليه؟؟

كان أيضاً غارقاً في الغبار... ومع ذلك رميتُ بجسدي المهموم عليه وسمحتُ لسحابة الغبار أنْ تحلّق... وتنتشر... وتهاجم أنفي وتخنقني أيضاً...

داهمتني نوبةٌ مِنْ العطاس إثر استنشاقي لغبار الزمن، فنهضتُ وتلفّتُّ مِنْ حولي بحثاً عن علبة المناديل.

لا بد أنها ستكون مدفونةً تحت أطنانٍ مِنْ الغبار هي الأخرى...

لكن أنظاري التصقتْ فجأة بشيءٍ يقف على أحد أرفف مكتبتي القديمة...

شيء أسطواني الشكل، مغطّى بطوابع وملصقات صغيرة طفولية...

ومِن بين تلك الملصقات، يظهر جزءٌ مِن كلمة مكتوبة عليه: (أمـاني).

سرتُ ببطء شديد، بوصةً بوصة، نحو هذا الصندوق الصغير...

أكان حلماً أم حقيقة؟؟

لقد رأيتُه أمامي مباشرةً، ولمستُه بيدي... ورججتُه، وسمعتُ صوت قصاصات الورق تتضارب داخله!

صندوق أماني رغد... لا يزال حياً؟؟

أمسكتُ بالصندوق الأسطواني، وقرّبتُه مِن عيني، ثمّ مِن صدري، وأرخيتُ جفني، وسحبتُ نفساً عميقاً مليئاً بالغبار...

رأيتُ الصغيرة مقبلةً نحوي بانفعال وفرح، حاملة كتابها بيدها: («وليد اصنع صندوق أماني لي»).

ورأيتُها تساعدني في صناعته... ثمّ تغطيه بالملصقات الصغيرة... ثمّ تجلس هناك على سريري، قرب المنضدة، وتكتب أمنيتها الأولى...

((عندما أكبر سوف أتزوج [.....؟؟؟....])).

عند هذا الحد... ارتفع جفناي فجأة، وانقبضتْ يدي بقوة... ضاغطةً على الصندوق بلا رحمة حتى خنقتْ أنفاسه...

تدحرجتْ عبرة كبيرة حارقة مِن مقلتَي اليمنى، فاليسرى، تبعها سيل عارم مِنْ الدموع الكئيبة التائهة، تغسل ما علق بوجهي وأنفي مِنْ الغبار العتيق...

شقّتْ نظرتي طريقاً سالكاً بين الدموع، مسافرةً نحو صندوق الأماني المخنوق... محرّضة يديّ على التعاون للفتك به... وتمزيقه كما تمزّقتْ كل آمالي وأحلامي... وصورة رغد ورسالتها... وقلبي وروحي...

لكنني توقفتُ في منتصف الطريق... لم أعد أرغب في رؤية ما بداخله...

فأنا أعرف كل شيء...

[أتمنى أنْ أصبح رجل أعمال كبير ومهم!]

[أريد أنْ تصبح ابنة عمي رغد زوجة لي]

[يا رب اشفِ عين سامر]

[عندما أكبر سوف أتزوج...؟؟؟...]

سامر قطعاً...

كم كنتُ غبياً!

ضغطتُ على الصندوق بقوة أكبر فأكبر... ولو كان شيئاً مصنوعاً مِنْ الحديد لتحطم في قبضتي...

«أيتها الخائنة... رغد».

رميتُ الصندوق بعنف بعيداً عني... إلى أبعد زاوية في الغرفة، ثمَّ خرجت هارباً مِنْ الذكرى الموجعة. أوّل شيء التقيتُ به في طريقي كان غرفة رغد!

فهي الأقرب إليّ...

وقفتُ عند الغرفة لدقائق... ويدي تفتش عن المفتاح بتردد... رفعتُ يدي... وطرقتُ الباب طرقاً خفيفاً. ثمَّ مددتها نحو المقبض وأمسكتُ به وبقيتُ في هذا الوضع لزمن طويل.

سأفتح الباب ببطء وحذر وهدوء... قد تكون صغيرتي نائمة بسلام... لا أريد إزعاجها

أريد فقط أنْ ألقي نظرة عليها كما أفعل كل ليلة... لا أحب إلى قلبي مِن رؤيتها نائمة بهدوء كالملاك.. وملامسة شعرها الناعم بخفة...

نظرة أخيرة... واحدة فقط... أريد أنْ ألقيها على طفلتي...

رغد... لقد اشتقتُ إليك كثيراً!... منذ أنْ رأيتك وأنتِ نائمة... هنا قبل تسع سنين، وجفناك متورمان أثر البكاء الشديد الذي بكيته ذلك اليوم المشؤوم...

أتذكرين كيف لعبنا يومها؟؟ أتذكرين البطاطا التي أطعمتك إياها...؟؟

ما كان يدريني أننا لن نلتقي بعد تلك اللحظة...؟

وأنها كانتْ المرة الأخيرة التي أتسلل فيها إلى غرفتك، وألقي عليك نظرة، وأداعب خصلات شعرك، وأقبّل جبينك...؟

ارتجفت رجلاي وكذا يداي وجسمي كله، وفقدتُ أي قدرة على تحريك أي عضلة في جسدي، حتى جفوني. لم أجسر على فتح الباب...

عدتُ أطرقه وأنادي...

«رغد... صغيرتي... افتحي! أنا وليد...».

لكنها لم تفتح وأخذتُ أطرق بقوة أكبر...

«افتحي يا رغد... لقد عدتُ إليك».

وبقي الباب ساكناً جامداً... لم تعد رغد موجودة ولم يعد وليد موجوداً...

ولم يعد لفتح هذا الباب... أي داعٍ...

هويتُ على الأرض... كسقف أزيلتْ أعمدته فجأة... ورفعتُ ذراعيّ إلى الباب وصرختُ...

«رغد... عودي إليّ...».

- رغد -

مَن تتوقعون زارنا قبل أسبوع؟؟ إنها عائلة اللاعب الشهير (نوّار)!

وهل استنتجتم ما سبب الزيارة؟

أجل!

مشروع زواج!

بصراحة أنا فوجئتُ بشدة! لم أكن أعتقد أنّ الأمر سيسير حسبما كانتْ دانة ترسم! ولكن يبدو أنّ هناك أمور أخرى لا أعلم عنها شيئاً...

زيارتهم كانتْ بعد رحيل وليد ببضعة أسابيع...

خلال الأسابيع تلك، كان الجميع يعيش حالة كآبة وحزن مستمرين.

لم تطلع أو تغرب عليّ شمس دون أنْ أفكّر بوليد... وبلقائنا الحميم، ثمّ نظراته القاسية، ثمّ رحيله المفاجئ...

والدتي أصابها حزنٌ شديد لازمتْ بسببه الفراش فترة مِنْ الزمن...

أنا أيضا حزنتُ كثيراً جداً...

أنا لم أكد أره... لم أكد أشعر بوجوده... إنني لا أصدق أنّه عاد بالفعل... لقد كبرتُ على الاعتقاد بأنه لن يعود...

وحقيقة... هو لم يعد...

«رغد! ألم تنهي حمّامك بعد؟؟».

جاءني صوت دانة من الخارج، تحثني على الخروج بأقصى سرعة... كنتُ لا أزال أمشّط شعري القصير المبلل أمام المرآة المغطاة بطبقة مِن الضباب!

فتحتُ الباب فانطلق بخار الماء متسرّباً للخارج، ووجدتُ دانة واقفة وذراعاها مضمومان إلى صدرها، تنظر إليّ بحنق!

«أهو حمام بخاري؟ هيا أخرجي يكاد ضيوفي يصلون وأنا لم أستعد بعد!».

سرتُ ببطء شديد، متعمّدة الإطالة أقصى ما يمكن...! دانة تحدّق بي بغضب ونفاذ صبر وتصرخ:

«أوه يا لبرودك! هيا أخرجي!».

«لم كل هذا الانفعال!؟ كأنك ستقابلين جلالة الملكة!».

«أنتِ لا تفهمين شيئاً! لا يمكنك أنْ تحسّي بمثل أحاسيسي الآن! لم تجرّبي ذلك ولن تجرّبيه!».

قالتْ هذا ثمّ دفعتني قليلاً بعيداً عن الباب، ودخلتْ دورة المياه الغارقة في البخار وصفعتْ بالباب بقوة!

ذهبتُ إلى غرفتي بكسل... وأخذتُ أتابع تمشيط شعري المبلل أمام مرآتي...

هل تحسُّ كل فتاة على وشك مقابلة أهل عريسها بكل هذا التوتر؟؟

أنهم سيعلنون الموافقة الرسمية ويناقشون شروط العقد هذه الليلة، وسنقيم حفلة صغيرة بعد أيام لعقد القران...

دانة أصبحتْ لا تطاق بسبب توتّرها وعصبيتها، لكنها سعيدة! سعيدة جداً...

أنا لم أجرّب هذا الإحساس... ولا أعرف كيف يكون... إنني فقط أعرف أنني مخطوبة لابن عمي سامر لأنني يجب أنْ أكون مخطوبة له...

وسأتزوج منه لأنني يجب أنْ أتزوج منه...

سامر في الوقت الحالي مسافر إلى مدينة أخرى، مِنْ أجل العمل.

موضوع زواجنا تم تأجيل النقاش فيه، بسبب حضور ورحيل وليد الذي أربك الأجواء، ثمّ خطبة دانة التي شغلتنا أواخر الأيام...

وليد لم يتصل بنا منذ رحيله، ووالدي يحاول جاهداً الاتصال به بطريقة أو بأخرى مِنْ أجل إبلاغه عن خطبة دانة وحفلة العقد.

مجرد تفكيري بهذا الأمر يشعرني بالسعادة... فوليد سيأتي ولا شك... لحضور حفلة شقيقته والمشاركة فيها...

ألقيتُ بالمشط جانباً وخرجتُ مِن الغرفة في طريقي إلى المطبخ، ووصلني صوت دانة وهي تغنّي داخل دورة المياه!

أنا لم أغنِّ عند خطبتي!

حين وصلتُ، كانتْ أمي تتبادل الحديث مع والدي بشأن دانة... لكنهما توقفا عن الكلام لدى رؤيتي!

«أمي... ماذا عن وليد؟؟».

فهو كان شغلي الشاغل منذ أنْ رحل...
بل منذ أنْ وصل!
أمي وأبي تبادلا نظرة سريعة، قال والدي بعدها:
«لقد استطعتُ التحدّث إلى سيف، وأوصيته بزيارة وليد بأقصى ما يمكنه، وإبلاغه بأننا ننتظر مكالمة ضرورية منه».
فرحتُ بذلك، وقلتُ تلقائياً:
«إذن سأعتكف عند الهاتف!»؟
في ذات اللحظة رنَّ هذا الأخير، وقفزتُ مسرعةً إليه!
«مرحباً! هنا منزل شاكر جليل... مَنْ المتحدّث؟».
كانتْ ابتسامتي تعلو وجهي، وحين وصلني صوت الطرف الآخر:
«رغد! أهذه أنتِ؟؟».
تلاشتْ الابتسامة بسرعة، وقلتُ بشيء من الخيبة:
«نعم... سامر، إنها أنا».
وبعد بضع عبارات تبادلناها، دفعتُ بالسماعة إلى والدي:
«إنه سامر... لن يحضر الليلة».
وانصرفتُ عن المطبخ.
حين سافر سامر... لم أبكِ كما بكتْ أمي... وكما بكيتُ لسفر وليد...
لم يكن هناك أي هاتف في غرفة نومي، لذا جلستُ في غرفة المعيشة، وكلما رنَّ الهاتف بادرتُ برفع السماعة قبل أنْ تنقطع الرنة الأولى!
وفي كل مرة أصاب بخيبة أمل...
لكن...
لماذا أنا متلهّفة جداً للتحدّث إليه؟؟
بعد فترة، حضر الضيوف المرتقبون، العريس ووالداه وشقيقاته، مِنْ بينهن (لمياء) صديقة دانة.
لو أؤلّف كتاباً في وصف دانة لسبّبتُ أزمة ورق!
سألخّص ذلك بقول: كانتْ غاية في الجمال، والخجل، واللطف، والسعادة!
تمّ الاتفاق على كل شيء، وتعيّن تحديد ليلة الخميس المقبلة لعقد القران!
لم أجلس مع ضيفاتنا غير دقائق متفرّقة، وتمركزتُ عند الهاتف في انتظار اتصال مَنْ اتصل رجال العالم كلهم ببيتنا سواه!
عند العاشرة والنصف، استسلمتُ... وذهبتُ في اتجاه غرفتي..
مررتُ بغرفة دانة، فوجدتُها مشغولةً بإزالة المساحيق والإكسسوارات التي تزيّن بها شعرها!

«كنتِ جميلة!».
نظرتْ إليَّ بغرور، وقالتْ:
«أعرف!».
ثمَّ استطردتْ:
«وسأكون أجمل في الحفلة! علي أنْ أذهب للسوق غداً لشراء الحاجيات!».
«عظيم! أنا أيضا سأشتري فستاناً جديداً وبعض الحلي!».
ابتسمتْ دانة بسعادة، وقالتْ:
«كم أنا متوترة وقلقة! ستكون حفلة رائعة».
ثمَّ أضافت ببعض الخبث:
«أروع مِنْ حفلتك».
لم أكن في السابق أتضايق كثيراً لتعليق كهذا، لكنني الآن شعرتُ بالانزعاج... قلتُ:
«أنا لم تقم لي حفلة حقيقية... لم يكن يوماً مميزاً أصلاً».
قالتْ:
«وضعي أنا يختلف! سأتزوج مِنْ أشهر لاعبي الكرة في المنطقة، وأغناهم أيضاً... شيء مميز جداً!... والدي وعدني بليلة لا تنسى!».
أصابني كلامها بشيء مِن الخذلان والحزن، فأنا لم يعمل والدي لأجلي شيئاً يُذكر ليلة عقد قراني... هممتُ بالانصراف، توقّفتُ قبل أنْ أغلق الباب، وسألتُ:
«هل سيكون وليد موجوداً؟؟».
شيء ما برق في عينيها وقالتْ:
«نعم، بالتأكيد سيكون موجوداً...».
ذهبتُ إلى غرفتي وأنا حزينة... فوليد لم يتصل... ودانة تسخر مني... ومِنْ الطريقة التي تمّتْ خطبتي بها... قبل سنين.

- وليد -

فيما كنتُ أسخّن بعض الفاصوليا على لهيب الموقد في المطبخ، حضر صديقي سيف.
لم أكن أتوقع زيارته، كانتْ الساعة السادسة مساءً، لكنني سررتُ بها.
«تفضّل! إنني أعدُّ بعض الفاصوليا... عشاءً مبكراً! ستشاركني فيه».
قلتُ ذلك وأنا أقوده إلى المطبخ...
حينما وصل وشمَّ رائحة الفاصوليا قال بمرح:
«تبدو شهية! سأتناول القليل فقط، فلديَّ ضيوفٌ على العشاء هذا المساء».
وضعتُ مقدارين منها في طبقين صغيرين، مددتُ بأحدهما نحو صديقي وقلتُ:
«جرّب طهو - أو بالأحرى تسخين يدي!».

تناول سيف بعضها واستساغ الطعم... ثمَّ قال:

«لكنها لا تُقارن بأطباق والدتي! يجب أنْ تشاركنا العشاء الليلة يا وليد».

ابتسمتُ ابتسامة باهتة، ولم أعلق...

«هيا يا وليد! سأعرفك على زملائي وأصدقائي في العمل».

قلتُ:

«كلا لا يمكنني، لدي ارتباطاتٌ أخرى».

سيف نظر إلي باستنكار...

«أي ارتباطات؟؟!».

ابتسمتُ وقلتُ:

«سآخذ الأطفال إلى الملاهي! فقد وعدتهم بذلك».

سيف كان يحرّك الملعقة باتجاه فمه، فتوقف في منتصف الطريق وقال:

«أي أطفال؟؟».

قلتُ بابتسام وأنا أقلّب الفاصوليا في الطبق لتبرد قليلاً:

«رغد ودانة وسامر! سأجعلهم يستمتعون بوقتهم!».

أعاد سيف الملعقة وما حوتْ على الطبق... وظلَّ صامتاً بضع ثوان...

«ما بك؟ ألم تعجبك؟».

أعني بذلك الفاصوليا. سيف تنهد ثمَّ قال:

«وليد... ما الذي تهذي به بربك؟؟».

تركتُ الملعقة تنساب مِن يدي، وقد ظهرتْ علامات الجدية على وجهي الكئيب وقلتُ:

«أتخيّل أموراً تسعدني... وتملأ فراغي...».

هزَّ سيف رأسه اعتراضاً، وقال:

«ستُصاب بالجنون إنْ بقيتَ هكذا يا وليد! بل إنك أصبتَ به حتماً... ينبغي أنْ تراجع طبيباً».

دفعتُ بالكرسي للوراء وأنا انهض فجأةً واستدير مولياً سيف ظهري... سيف وقف بدوره، وتابع:

«لا تفعل هذا بنفسك... أتريد أنْ تُجن؟؟».

استدرتُ إلى سيف، وقلتُ:

«ما الفرق؟ لم يعد ذلك مهماً».

«كلا يا وليد... لا تعتقد أنَّ الدنيا قد انتهتْ عند هذا الحد... لا يزال أمامك المستقبل والحياة».

قاطعتُه بحدّة وزمجرتُ قائلاً:

«المستقبل؟؟ نعم المستقبل... لرجلٍ عاطلٍ عن العمل متخرّج مِن السجن لا يحمل سوى

شهادة الثانوية المؤرخة قبل تسع سنين! ويخبّئ بعض النقود التي استعارها مِنْ أبيه في جيب بنطاله ليشتري بها الفاصوليا المعلّبة فيسد بها جوعه... نعم إنه المستقبل».

سيف بدأ يتحدّث بانفعال قائلاً:

«تعرف أنّ فرص العمل في البلد ضئيلة بسبب الحرب، لكنني سأتدبّر الأمر بحيث أتيح الفرصة أمامك للعمل معي...».

قلتُ بسرعة:

«معك؟ أم عندك؟؟».

استاء سيف مِنْ كلمتي هذه وهمّ بالانصراف. استوقفته وقدّمتُ إليه اعتذاري...

لقد كان اليأس يقتلني... ولا شيء يثير اهتمامي في هذه الدنيا...

قال سيف:

«المزيد مِنْ الصبر... وسترى الخير إنْ شاء الله».

ثمّ تقدّم نحوي وقال:

«والآن... تعال معي... فالأشخاص الذين سيتناولون العشاء معنا سيهمّك التعرف إليهم».

لكنني رفضتُ، لم أشأ أنْ أظهر أمام رجال الأعمال وأُحرِج صديقي، لكوني شخص تافه خرج مِن السجن قبل أسابيع...

«كما تشاء... لكنك ستحضر غداً! لعشاء خاص بنا نحن فقط!».

أومأتُ إيجاباً، إكراماً لهذا الصديق الوفي...

قال سيف:

«يا لكَ مِنْ رجل! لقد أنسيتَني ما جئتُ لأجله!».

«ما هو؟؟».

«تلقّيتُ اتصالاً مِنْ والدك اليوم، يريد منك أنْ تهاتفه للضرورة».

شعرتُ بقلق، فلأجل ماذا يريدني والدي؟؟

«أتعرف ما الأمر؟؟».

«لا فكرة لدي، لكن عليك الاتصال بهم فوراً».

وأشار إلى الهاتف المعلّق على الجدار... قلتُ:

«الخط مقطوع!» .

«حقاً؟؟».

«كما كانتْ الكهرباء والمياه أيضا! تصوّر أنني عشتُ الأيام الأولى بلا نور ولا ماء!».

ضحك سيف ثمّ قال:

«معكَ أنتَ يمكنني تصوّر كل شيء! هل تريد هاتفي المحمول؟».

«لا لا، سأتصل بهم مِنْ هاتف عام فيما بعد».

سار سيف نحو الباب مغادراً، التفتَ قبل الانصراف وقال:

«موعدنا غداً مساءً!».
«كما تريد».
وعدتُ إلى طبقَي الفاصوليا التي بردتْ نوعاً ما، وأفرغتُهما في معدتي...
لم يكن في المنزل أي طعام، وكنتُ اشتري المعلبات وألتهم منها القدر الذي يبقيني حياً...
تعمّدتُ عدم الاتصال بأهلي طوال الأسابيع الماضية، وعشتُ مع أطيافهم داخل المنزل. حاولتُ البحث عن عمل ولكن الأمر كان أصعب مِنْ أنْ يتم في غضون بضع أسابيع أو أشهر...
في ذلك المساء ذهبتُ إلى أحد المحلات التجارية لشراء بعض الحاجيات، قبل أنْ أجري المكالمة الهاتفية.
حين حان دوري للمحاسبة، أخذ المحاسب يدقّق النظر إليَّ بشكلٍ غريب!
نظرتُ إليه باستغراب، فقال:
«ألستَ وليد شاكر جليل؟؟».
فوجِئتُ، فلم يبدُ لي وجه المحاسب مألوفاً... قلتُ:
«... هل تعرفني؟؟».
قال:
«وهل أنساك! متى خرجتَ مِنْ السجن؟؟».
عندما نطق بهذه الجملة أثار اهتمام مجموعة مِنْ الزبائن فأخذوا ينظرون باتجاهي... شعرتُ بالحرج، وتجاهلتُ السؤال... فعاد المحاسب يقول:
«ألم تعرفني؟ لقد كنتُ زميلاً للفتى الذي قتلتَه! عمّار».
أخذ الجميع ينظر باتجاهي، وشعرتُ بالعرق يسيل على صدغي... جاء صوتٌ مِنْ مكانٍ ما يقول:
«أتقول أنّ المجرم قد خرج مِنْ السجن؟؟».
تلفّتُّ مِنْ حولي فرأيتُ الناس ينظرون إلي بعيون حمراء، يقدح الشرر مِنْ بعضها، وينطلق الازدراء مِنْ بعضها الآخر...
شعرتُ بجسمي يصغر... يصغر... يصغر... ثمَّ يختفي...
خرجتُ مِنْ المكان بسرعة... دون أنْ آخذ حاجياتي، وركبتُ سيارتي القديمة وانطلقتُ مسرعاً تشيعني أنظار الجميع...
لقد أصبحتُ ذا سمعةٍ سيّئة تشير إليَّ أصابع الناس بلقب (مجرم)...
توقّفتُ عند أحد الهواتف العامة، واتصلتُ بمنزل عائلتي في المدينة الأخرى... كانتْ الساعة حينئذ الحادية عشر... ورنَّ الهاتف عدّة مرات ولم يجب أحد...
وأنا واقفٌ في مكاني أراقب بعض المارة، تخيّلتهم ينظرون إليَّ ويتحدثون سراً...
ربما كانوا يقولون: «(إنه وليد المجرم)»!

ومرّتْ مني سيارة شرطة تسير ببطء...

شعرتُ برعشة شديدة تسري في جسدي لدى رؤيتها، كانتْ النافذة مفتوحة وأطلّ منها الشرطي وأخذ ينظر باتجاهي.

كدتُ أموت فزعاً... وتخيلته مقبلاً نحوي ليقبض علي ويزج بي في السجن من جديد... شعور مرعب مفزع...

ظلّتْ يدي تضغط على أزرار عشوائية، تتصل ربما بالمريخ أو المشتري، دون أنْ أملك القدرة على التحكم بها... حتى ابتعدتْ السيارة شيئاً فشيئاً واستعدتُ بعض الأمان...

أعدتُ الاتصال بمنزل عائلتي وبعد ثلاث رنات أو أربع، أجاب الطرف الآخر...

«نعم؟».

لم أميّز الصوت في البداية، لكنه عندما كرّر الكلمة أدركتُ أنها كانتْ رغد...

«نعم؟ مَنْ المتحدّث؟؟».

كان فكّي الأسفل لا يزال يرتجف أثر رؤية سيارة الشرطة... وربما سمعتْ رغد صوت اصطكاك أسناني بعضها ببعض...

قرّبتُ السماعة مِنْ فمي أكثر، وبيدي الأخرى أمسكتُ بفكّي وطرف السماعة كمن يخشى تسرب صوته للخارج...

ربما سمع رجال الشرطة صوتي وعادوا إليّ!

قلتُ:

«أنا وليد».

لم أسمع أي رد فظننتُ أنْ الطرف الآخر قد أقفل السماعة، قلتُ:

«رغد ألا زلتِ معي؟؟».

«نعم».

ارتحتُ كثيراً لسماع صوتها... أو ربما... تعذّبتُ كثيراً...

«وليد كيف حالك؟».

«أنا بخير، ماذا عنكم؟».

«بخير. كنتُ أنتظرك، أقصد كنا ننتظر اتصالك».

قلتُ بقلق:

«ما الأمر؟؟».

رغد قالتْ:

«لقد نام الجميع، والدي يريد التحدث معك، يجب أنْ تحضر».

أقلقني حديثها أكثر، سألتُ:

«ما الخطب؟؟».

«إنه موضوع زواج دانة! لن أخبرك بالتفاصيل وإلا وبختني! يجب أنْ تحضر قبل مساء

الأربعاء المقبل».

كان أمراً فاجأني، وهو أكبر مِنْ أنْ أناقشه مع رغد ورغد بالذات على الهاتف في مثل هذا الوقت... والمكان...

لذا اختصرتُ المكالمة بنية الاتصال نهار اليوم التالي لمعرفة التفاصيل...

«حسناً، سأتصل غداً... إلى اللقاء».

«وليد...».

حينما سمعتُ اسمي على لسانها ارتجف فكّي أكثر مما كان عند رؤية سيارة الشرطة... خرجتْ الكلمة التالية مُبعثرة الحروف...

«نـ... ـعم... صـ... ـغيـ... ـرتي؟؟».

«عُدْ بسرعة!».

والتي عادتْ بسرعة هي ذكريات الماضي...

والذي طردها بسرعة هو أنا!

لم أكن أريد لشيء قد مات أنْ يعود للحياة... قلتُ:

«سأرى، وداعاً».

وبسرعة أيضاً أغلقتُ السماعة... كم شعرت بقربها... وبعدها...

حينما عدتُ إلى المنزل، وقفتُ مطوّلاً أمام غرفة رغد أحدّق ببابها... حتى هذه اللحظة لم أجرؤ على فتحها هي بالذات مِنْ بين جميع غرف المنزل الموحش...

دخلتُ إلى غرفتي الغارقة في الظلام، وتمدّدتُ على سريري بهدوء...

(عد بسرعة... عد بسرعة... عد بسرعة...).

ظلّتْ تدور برأسي حتى حفرت فيه خندقاً عميقاً!

سمعتُ طرقاً على الباب... طرقاً خفيفاً... جلستُ بسرعة وركّزتُ نظري ناحية الباب... كان الظلام شديداً...

شيئاً فشيئاً بدأ الباب ينفتح... وتتسلّل خيوط الضوء للداخل...

وعند الفتحة المتزايدة الحجم، ظهرتْ رغد!

رغد وقفتْ تنظر إليّ ووجهها عابس... والدموع منحدرة على خديها الناعمين...

هتفتُ...

«رغد!».

بدأتْ تسير نحوي بخطى صغيرة حزينة... مددتُ ذراعي وناديتُها:

«رغد تعالي...».

لكنها توقفتْ... وقالتْ:

«وليد... عُد بسرعة».

ثمّ استدارتْ عائدة مِن حيث أتتْ. جُنّ جنوني وأنا أراها تغادر، قفزتُ عن سريري

وركضتُ باتجاهها وأنا أهتف:

«رغد انتظري... رغد لقد عدتُ... رغد لا تذهبي».

لكنني عندما وصلتُ إلى الباب كانتْ قد اختفتْ... أسرعتُ إلى غرفتها أطرق بابها بعنف...

كدتُ أكسره، أو أكسر عظامي... لكنه ظل موصداً... كما هي أبواب الدنيا كلها في وجهي...

أفقتُ مِن النوم مذعوراً، فوجدتُ الغرفة تسبح في الظلام والباب مغلق... لم يكن غير كابوس مِنْ الكوابيس التي تطاردني منذ سنين...

في اليوم التالي، اتصلتُ بوالدي وعرفتُ منه تفاصيل الموضوع... ولكم أنْ تتصوّروا اللهفة التي كان هو وأمي ودانة أيضا... يخاطبونني بها.

أختي الصغيرة... التي كبُرتْ بعيداً عن أنظاري ورعايتي واهتمامي، أصبحتْ عروساً.

«وليد يجب أنْ تحضر وتجلب لي هدية أيضاً!».

والآن... وبعد مرور شهر مِنْ هروبي منهم، وعزلتي في المنزل، صار علي أنْ أعود إليهم مِنْ جديد...

في المساء، ذهبتُ لسيف وأخبرته بما جدَّ مِنْ أمري، وأخبرني بأنه استطاع تدبير وظيفة لي في الشركة التي يعمل فيها ويملك جزءاً منها. وبدأ أول أبواب الدنيا ينفتح أمامي أخيراً...

«يجب أنْ تعود خلال أيام لتباشر العمل».

الحلقة الخامسة عشر

البارد الحارق

- رغد -

أكاد أطير مِنْ الفرح... لأنَّ وليد سيأتي اليوم...

إنني منذ وقعتْ عيناي عليه يوم حضوره قبل شهر، وأنا أحسُّ بشيء غريب يتحرّك بداخلي!

أهي كريات الدم في عروقي؟؟

أم شحنات الكهرباء في أعصابي؟؟

أم تيارات الهواء في صدري؟؟

بين الفينة والأخرى، أخرج إلى فناء المنزل... وأترقب حضوره. متى سيصل؟؟

سامر أيضاً سيعود هذه الليلة، فمنذ سافر للمدينة الأخرى قبل أسابيع مِنْ أجل العمل لم نره...

استدرتُ للخلف، فإذا بأمي واقفة عند المدخل الرئيسي، تنظر الى!

«رغد... ما ذا تفعلين؟؟».

اضطربتُ قليلاً، ثمّ قلتُ:

«لا شيء...».

والدتي ابتسمتْ، وقالتْ:

«لقد قال سامر إنه سيصل ليلاً! لا تُقلقي أعصابك!».

شعرتُ بغصّة في حلقي وكدتُ أختنق!

إنني لمْ أرَ سامر منذ أسابيع... وأعلم أنه سيعود ليلاً... لكنني... لكنني كنتُ أرتقّب وليد!

كان هذا يوم الأربعاء... وفي هذا المساء سيتمُّ عقد قران دانة. إنها مشغولةٌ جداً هذا اليوم، وكذلك هي أمي... والاضطراب يسود الأجواء...

«تعالي وساعدينا!».

ألقيت نظرة على الباب الخارجي للمنزل، ومضيتُ مذعنةً لطلب أمي!

كانتْ دانة تجفّف شعرها بمجفِّف الشعر الكهربائي المزعج، قلتُ:

«فيمَ أساعدك؟؟».

ويبدو أنَّ صوته الطاغي منعها مِنْ سماعي، فكرّرتُ بصوتٍ عال:

«دانة فيمَ أساعدك؟؟».

انتبهتْ لي أخيراً، وقالتْ:

«تعالى رغد وجفّفي هذا المتعب!».

دانة كان لها شعرٌ طويل وكثيف مع بعض التموجات، على العكس مِنْ شعري القصير الأملس الناعم!

تناولتُ المجفّف الساخن مِنْ يدها وبدأتُ العمل!

صوت هذا الجهاز قويٌّ وأخشى أنْ يعيق أذني عن سماع صوت جرس الباب! مرّتْ الدقائق وأنا أحاول الإسراع مِنْ أجل العودة للفناء!

«رغدا جفّفي بأمانة!».

قالتْ ذلك دانة وهي تنظر إليَّ عبر المرآة... فابتسمتُ!

فستان دانة كان جميلاً وأنيقاً جداً، وموضوعاً على سريرها بعناية. لدانة ذوقٌ رائعٌ جداً في اختيار الملابس والحلي وأدوات التجميل!

لدى عبور هذه الفكرة برأسي تذكّرتُ طقم الحلي الذي رأيتُه ليلة الأمس وأثار إعجابي الشديد وأردتُ اقتنائه، غير أنَّ نقودي لم تكن كافية فأجّلتُ الأمر لهذا اليوم.

«يجب أنْ أذهب مع أبى لشراء ذلك الطقم قبل أنْ يحل الظلام!».

«حقاً ستشترينه؟ إنه باهظ الثمّن!».

«طبعاً سأشتريه! ماذا سأضع هذه الليلة إذن؟؟».

«لم لا تضعين العقد الذي أهدتكِ إياه والدتي قبل أسابيع؟؟».

لم تعجبني الفكرة، فلقد رأته لمياء - شقيقة نوّار، خطيب دانة - يوم حفلة تخرّجي!

إنها أمورٌ نكترث لها نحن الفتيات!... أو على الأقل، معظمنا!

قلتُ:

«بل سأشتري شيئاً جديداً! يليق بقرانك!».

وضحكنا! لمحتُ والدتي مقبلة مِنْ ناحية الباب فأوقفتُ تشغيل الجهاز وقلتُ بسرعة:

«هل حضر؟».

ثمّ أضفتُ بسرعة، تغطيةً على الحقيقة:

«أقصد والدي؟ أريد أنْ يصطحبني لسوق المجوهرات!».

قالتْ والدتي:

«ماذا تودين مِنْ سوق المجوهرات؟؟».

«سأشتري عقداً جديداً أرتديه الليلة!».

بدا على والدتي بعض الاستياء... ثمّ قالتْ:

«أليس لديك ما يناسب؟ سأعيرك مما عندي إنِ شئتِ».

عرفتُ مِنْ طريقة كلامها أنها لا تريد مني شراء المزيد. أعدتُ تشغيل الجهاز وواصلتُ

تجفيف شعر دانة الطويل حتى انتهيتُ... بصمت...

بعدها خرجتُ من الغرفة قاصدة الذهاب إلى غرفتي، إذ أنَّ بي شحنة استياء أريد إفراغها...

وأنا أمرُّ مِنْ والدتي قالتْ:

«رغد اذهبي للمطبخ وأتمّي تحضير الكعك، سأوافيك بعد قليل».

أذعنتُ للأمر... وقضيتُ قرابة الساعة في عمل المطبخ الممل، حتى أتتْ والدتي وتقاسمنا العمل...

بعد فترة هممتُ بالانصراف، فبالي مشغول بانتظار وليد، وحين رأتني أمي سائرةً نحو الباب:

«إلى أين رغد؟؟».

«سأذهب للاستحمام!».

«انتظري! تعرفين ما مِنْ مساعد لي غيرك اليوم...! اغسلي الأطباق والصواني ورتّبي الأواني في أماكنها، ثمّ تولّي كي وطي الملابس! العمل كثير هذا اليوم!».

شعرت بالضيق! لم أكن أحب العمل في المطبخ وكنتُ أتولّى أقل مِنْ ثلث العمل المقسم بيننا نحن الثلاث، أمي ودانة وأنا، لكنني اليوم مضطرة للتضحية بنعومة يدي!

أثناء ترتيبي للأواني سمعتُ صوتاً مقبلاً مِنْ جهة مدخل المنزل الرئيسي. ربما يكون وليد!

أسرعتُ بوضع الأواني على عجل فانزلق مِنْ يدي بعضها وتحطم على الأرضية الملساء الصلبة!

«أوه رغد! ماذا فعلتِ!».

والدتي نظرت إليَّ بانزعاج، فزاد ضيقي..

«انزلقتْ مِنْ يدي!».

قلتُ مدافعة، وتركتُ كل شيء وهممتُ بالانصراف.

«إلى أين؟؟».

«سأرى مَنْ عند الباب أمي!».

ولم أكد أغادر، إذ أنَّ والدي قد وصل، ودخل المطبخ يحمل الكثير مِنْ الأغراض. عدتُ إلى الأواني المحطمة أرفعها عن الأرض وأنظف الأرضية مِنْ شظايا الزجاج. ثمّ كان علي ترتيب الأغراض التي جلبها أبي في أماكنها المخصصة... والكثير الكثير قمتُ به فيما دانة في غرفتها، تسرّح شعرها وتتزين!

حالما انتهيتُ مِنْ جزء مِنْ عمل المطبخ، قلتُ لوالدي والذي كان يجلس على المقعد عند الطاولة يكتب بعض الملاحظات على ورقة صغيرة:

«أبي... هل لا اصطحبتَني إلى أحد محلات الحلي؟ لي حاجةٌ سأشتريها وأعود».

أمي نظرتْ إليّ وقالتْ مباشرة:

«عدنا لذلك؟ خذي ما تشائين مِنْ حُليي ولا داعي لإضاعة المال والوقت! لدينا الكثير لنفعله الآن!».

قلتُ:

«ولكن... إنه جميل جداً وأريد أنْ أضعه الليلة!».

قالتْ:

«هيا يا رغد! عوضاً عن ذلك رتبي الملابس أو غرفة الضيوف والصالة... النهار يودّعنا».

لم أناقش أمي، بل نظرتُ إلى أبي وهو منهمكٌ في تدوين كلمات على الورقة وقلتُ:

«أبي... لن أتأخر! سأشتريه ونعود فورا!».

والدي قال دون أنْ يرفع عينيه عن الورقة:

«فيما بعد رغد، لدي مهامٌ أخرى أقوم بها الآن».

خرجتُ من المطبخ وأنا أشعر بالخيبة والخذلان... وذهبتُ إلى الغرفة الخاصة بالملابس، أكويها وأطويها وأرتّبها، ودمعة تتسلّل مِنْ بين حدقتي مِنْ حين لآخر...

كنتُ أكوي فستاني الجديد الذي سأرتديه الليلة بشرود وأسى...

لماذا عليّ أنْ أعمل بهذا الشكل!؟ لماذا لا يجلب والدي خادمة للمنزل؟؟

هنا سمعت صوت جرس الباب يُقرع...

لا بد أنه وليد!

تركتُ كل شيء بإهمال وطرتُ نحو باب المخرج، في نفس اللحظة التي أقبل فيها والدي نحو الباب...

قال:

«اذهبي وارتدي الحجاب، قد يكون وليد!».

رجعتُ فوراً إلى غرفة الملابس وسحبتُ حجاباً لي مِنْ كومة الملابس (المجعدة) ولبسته كيفما اتفق، وهرعتُ نحو المدخل...

فتحتُ باب المدخل لأطل على الفناء الخارجي، وأرى أبي ووليد متعانقين عند البوابة الخارجية...

أقبلتْ أمي مسرعةً وفتحتْ الباب وتجاوزتني وخرجتْ مهرولةً إلى وليد...

وقفتُ أنا أمام الباب الداخلي أنظر ودموعي تفيض مِنْ عيني رغماً عنها...

لقد كان وليد واقفاً بطوله وعرضه وجسده العظيم، يحجب أشعة الغروب عن وداع ما غطّاه ظلّه الكبير، يضمُّ والديه إلى صدره وينهال برأسه البارز على رأسيهما بالقبل...

وقفتُ أراقب... وأنتظر...

لقد طال العناق والترحيب... ولم يلتفتْ أو لم ينتبه إليَّ!

وفيما أنا كذلك، وإذا بالباب يُفتح، وتنطلق منه دانة مسرعة كالقذيفة الموجهة نحو وليد!

تعانقا عناقاً حميماً جداً، ودانة تقول بفرح:

«كنتُ واثقة مِنْ أنك ستحضر! كنتُ واثقةٌ مِن ذلك».

ووليد يضمّها إلى صدره ثمّ يقبّل جبينها ويقول:

«طبعاً سآتي! كم شقيقة لديّ؟؟... ألف مبروك عزيزتي».

كل هذه الحرارة المنبعثة مِنْ اللقاء الحميم أمام عيني جعلتني أنصهر! وبدا وأنّ دموعي على وشك التبخر مِنْ فرط حرارة خدّيّ.

وليد!

مِنْ أي طينة خُلقت أنتَ؟؟ ولماذا تنبعث منك حرارة حارقة بهذا الشكل!

ألا تحسُّ الأشجار أنَّ الشمس قد ارتفعتْ مجدداً بعد الغروب!؟ وأخيراً، تحرّك الأربعة مقبلين نحوي... نحو المدخل...

أخيراً لامستْ نظراتي الجمرتين المتقدتين، المتمركزتين أعلى ذلك الرأس... مفصولتين بمعقوف حاد، يزيدهما شراراً... وحدّة... واشتعالاً!

توهّج وجهي احمراراً وتلعثمّ قلبي في نطق دقاته المتراكضة... وشعرتُ بجريان الأشياء الغريبة في داخلي...

الدماء... سيالات الأعصاب... والأنفاس!

وهو يخطو مقترباً، وحجمه يزداد... ورأسه يعلو... وعنقي يرتفع!

سقطتْ أنظاري فجأة أرضاً وكأنَّ عضلات عيني قد شُلَّتْ! لم أستطع رفعهما للأعلى لحظتها...

وجاء صوته أخيراً يدق طبلتي أذني...

بل يكاد يمزقهما!

«كيف حالكِ صغيرتي؟؟».

وكلمة صغيرتي هذه تجعلني أحسُّ أكثر وأكثر بصغر حجمي وضآلتي أمام هذا العملاق الحارق!

رفعتُ عيني أخيراً ببعض الجهد وأنا أضمُّ شفتي مع بعضهما البعض استعداداً للنطق!

«بخير...».

ولكن... حين وصلتْ عيناي إلى جمرتيه، كانتا قد ابتعدتا...

لم يكن وليد ينظر إليّ، ولا حتى ينتظر جوابي!

لقد ألقى سؤاله بشكلٍ عابر وأشاح بوجهه عني قبل أنْ يسمع الإجابة... وهاهي دانة تفتح الباب... وها هو يدخل مِنْ بعدها... ويدخل والداي مِنْ بعده... وينغلق الباب مِنْ بعدهم!

وقفتُ متحجّرةً في مكاني لا شيء بي يتحرّك... حتى عيناي بقيتا معلقتَين في النقطة التي ظنتا أنهما ستقابلان عيني وليد عندها...

مرّتْ برهة... وأنا أحدّق في الفراغ!

هل كان وليد هنا؟؟ هل مر وليد من هنا؟؟ هل رأته عيناي حقاً؟؟؟

لم أجدْ جوابا حقيقياً... بدا كل شيء كالوهم والخيال!

أفقتُ مِنْ شرودي واستدرتُ، وفتحتْ الباب فدخلتْ... ووصلتني أصوات أفراد أسرتي من غرفة المعيشة...

حرّكتُ قدمي بإعياء شديد متجهةً إلى حيث هم يجلسون...

كان وليد يجلس على مقعد كبير، وهم إلى جانبيه... لا أظنُّ أنَّ أحداً انتبه لوجودي! وقفتُ عند مدخل الغرفة أراقبهم وجميعهم مسرورون وأنا تعيسة!

بعد قليل، أمي قالتْ فجأة:

«أتشمّون رائحة شيءٍ يحترق؟؟».

الشيء الذي قفز إلى رأسي هو المقعد الذي يجلسون عليه! ربما احترق مِنْ حرارة وليد! وبالفعل شممتُ الرائحة!

«إنها قادمةٌ مِنْ هناك!».

وأشارتْ والدتي نحوي... طبعاً كانتْ تقصد مِنْ خارج الغرفة غير أنني ألقيتُ نظرةً سريعة على ملابسي لأتأكّد مِنْ أنها لا تقصدني!

وقفتْ أمي وكذلك وقف الجميع، وأقبلتْ هي مسرعةً قاصدةً التوجه نحو المطبخ...

لم تجد ما يحترق هناك... ثمّ سمعتُ صوتها تنادي بقوة:

«رغد تعالى إلى هنا».

ذهبتُ إليها، كانتْ في غرفة الملابس... تفصل سلك المكواة عن مقبس الكهرباء!

صحتُ:

«أوه! يا إلهي!».

وأسرعتُ إلى الفستان الذي نسيتُ المكواة فوقه وأنا أخرج مسرعةً لاستقبال وليد!

«انظري ما فعلتِ! سترتدينه الليلة محروقاً بهذا الشكل!».

أخذتُ الفستان وجعلتُ أدقّق النظر في البقعة المحروقة، وأعضُّ شفتي أسفاً وحسرة...

«ماذا سأفعل الآن؟؟».

قلتُ بيأس... فأجابتْ أمي بغضب:

«ترتدينه محروقاً! فنحن لم نشتره لنرميه».

عند هذا الحد... ولم أتمالك نفسي... وانخرطتُ في بكاءٍ شديد رغماً عني...

في نفس اللحظة التي كانتْ أمي تغادر فيها الغرفة كان البقية مقبلين يتساءلون عمّا حدث وما احترق...

والدي قال:

«ماذا حصل؟؟».

أمي أجابتْ باستياء:

«تركتْ فستانها يحترق! وقبل قليل كسرتْ الأطباق! لا أعرف متى ستكبر هذه الفتاة».

كان الأمر سيغدو مختلفاً لو أنَّ وليد لم يكن موجوداً يرى ويسمع... كم شعرتُ بالحرج والخجل...

إنني لستُ طفلة ومثل هذه الأمور لم تكن لتحدث لو أنني لم أكن مضطربة ومشتتة هذا اليوم... كما وأنَّ أمي لم تكن لتصرخ بوجهي هكذا لو لم تكن هي الأخرى مضطربة وقلقة، بسبب الليلة...

رميتُ بالفستان جانباً وأسرعتُ الخطى قاصدةً الهروب والاختفاء عن الأنظار...

كان وليد يقف عند الباب ويسدُّ معظمه، وحين وصلتُ عنده لم يتحرّك...

كنتُ أنظر إلى الأرض لا أجرؤ على رفع نظري إلى أيٍ منهم، لكن بقاء وليد واقفاً مكانه دون أنْ يتزحزح جعلني أرفع بصري إليه...

الدموع كانت تغشي عيني عن الرؤية الواضحة...

وليد نظر إليَّ نظرة عميقة دون أنْ يتحرّك...

«إذا سمحتَ...».

قلتُ ذلك، فتنحّى هو جانباً، وانطلقتُ أسير بسرعة نحو غرفتي. في غرفتي، أطلقتُ العنان لدموعي لتفيض بالقدر الذي يكفيها. كان يومي سيئاً! كم كنتُ سعيدة في البداية!

والآن... حزينة... مُحرجة... مجروحة الخاطر... مخذولة...

بدموع جارية... وقلب معصور... وفستان محروق! وبلا حلي!

أكثر ما أثّر بي... هو الاستقبال البليد الذي استقبلني به وليد... وأنا مَنْ كنتُ أحترق شوقاً لرؤيته!

غمرتُ وسادتي البريئة مِنْ أي ذنب بالدموع الحارة المالحة... وبقيتُ حبيسة الألم والغرفة فترة طويلة...

بعد مدّة سمعتُ طرق الباب... قمتُ بتململ وفتحته، فرأيتُ أمي...

تحاشيتُ النظر إليها، فأنا خجلةٌ منها ولستُ مستعدة لتلقي أي توبيخ هذه الساعة...

أمي قالتْ:

«رغد! على الأقل ابدئي الاستعداد! ألم تستحمّي بعد؟؟».

وجدتُ نفسي أقول بغضب وانفعال:

«لن أستحم، ولن أحضر معكم وسأنام حتى الغد».

أمي صمتتْ قليلاً ثمّ قالتْ بنبرة عطوفة:

«يا عزيزتي لم أقصد توبيخك، لكنك تتصرفين بشكلٍ غريب اليوم! هيا ابدئي الاستعداد...».

رفعت رأسي إليها وقلتُ:

«بِمَ؟ لا فستان ولا حلي!».

تنهّدتْ أمي وقالتْ:

«ارتدي أي شيء! ما أكثر ما لديك».

لم أقتنع، فأنا أريد أنْ أظهر جديدة في كل شيء الليلة! أليستْ ليلة مميزة؟ إنه عقد قران أختي الوحيدة دانة!

قلتُ:

«لن أحضر دون فستان جديد ومجوهرات! دعوني أبقى في غرفتي فهذا أفضل ومتى ما انتهيتم سأساعدكم في تنظيف المنزل».

وبكيتُ. بكيت بشدة، وليس سبب بكائي هو الفستان أو الأواني المكسورة! إنه قلبي الذي يعتصر ألماً مِنْ تجاهل وليد لي بهذه الطريقة!

لماذا فعل ذلك؟؟ ألم أعد مهمّة لديه؟؟ ألم يعد بألا يسمح لدموعي بالانهمار؟؟

إنه هو الذي يفجرها مِنْ عينيّ بغزارة هذه اللحظة...

أعرف أنّ أمي تحبني وتدللني، مثل أبي... وهذا ما اعتدتُه منهما... لذلك حين قالتْ:

«حسناً... اذهبي بسرعة مع أبيك لشراء شيءٍ مناسب على عجل».

لم أفاجأ، بل مسحتُ دموعي مباشرةً خصوصاً وهي تنظر إلى الساعة بقلق... أخرجتُ حقيبتي مِنْ أحد الأدراج... وقلتُ:

«لا أملك مبلغاً كافياً».

ذهبتْ أمي وعادتْ بعد قليل تحمل بعض الأوراق المالية، وقالتْ:

«سأخبر أبيك كي يشغّل السيارة، أسرعي رغد».

وذهبتْ، وارتديتُ عباءتي وحجابي وخرجتُ بعدها... وفيما أنا أجتاز الردهة، إذا بها مقبلة نحوي تقول:

«لا فائدة يا رغد لقد خرج والدك!».

كان والدي مشغولاً طوال اليوم، وها قد غادر مِنْ جديد... أطلقتُ تنهيدة يأس مريرة ورميتُ بالحقيبة جانباً وقلتُ:

«ألمْ أقل أنني لن أحضر؟؟... دعوني وشأني».

أمي قالتْ:

«قد يعود بعد قليل...».

لكنني كنتُ قد فقدتُ الأمل.. جلستُ على المقعد وأسندتُ خدّي إلى يدي في أسى...

«أيمكنني فعل شيء؟؟».

كان هذا صوتاً رجالياً جعلني أسحب يدي فجأة مِنْ تحت خدّي فينحني رأسي للأسفل ومِنْ ثمّ يرتفع للأعلى... للأعلى...

العملاق وليد!
أمي ووليد تبادلا النظرات، ثمّ قالتْ أمي:
«ننتظر أنْ يعود والدك ليصطحبها إلى السوق!».
قال:
«لديَّ سيارة... إذا كان الأمر طارئاً...».
الأشياء الغريبة الثلاثة بدأتْ تجري في داخلي وتتسابق!
أمي قالتْ:
«أنتَ... قدمتَ لتوّك! اذهب ونمْ قليلاً في غرفة سامر...».
«لستُ متعباً جداً».
«... ثمّ أنك لا تعرف المنطقة!».
قال وهو ينقل بصره بيني وبين أمي:
«لكنكما تعرفان!».
أي نوع مِنْ الأفكار تعتقدون أنني رأيتها؟؟ مجنونة!
قالتْ أمي بتردد:
«إنني مشغولة في المطبخ».
فاستدار وليد إليَّ وقال:
«وأنتِ؟ تحفظين الطريق؟؟».
ربما كان سؤاله عادياً... أو ربما استهانة بي! فهل أنا طفلة صغيرة لا أعر ف الطرق؟؟
قلتُ:
«نعم! طبعاً».
ثمّ نظرتُ إلى أمي أحاول قراءة رأيها مِنْ عينيها... أمي بدتْ مترددة... لكنها قالتْ بعد ذلك موجهة كلامها لي أنا:
«ما رأيكِ رغد؟؟».
أنا أقرّر قبل أنْ أفكّر في أحيانٍ ليست بالقليلة! قلتُ:
«حسناً».
ووقفتُ وسحبتُ حقيبتي في الحال. التفتتْ أمي نحو وليد وقالتْ:
«انتبه لها».
وليد دخل على غرفة المعيشة وأحضر مفتاح سيارته، والذي كان قد تركه على المنضدة...
تقدّمتُ نحو باب المنزل ووقفتُ في انتظاره، حتى إذا ما أقبل فتحتُ الباب وخرجتُ قبله!
خطواتي أنا قصيرة وبسيطة، كيف لها أنْ تضاهي خطواته الواسعة الشاسعة!؟
سبقني وخرج مِنْ البوابة الخارجية لفناء المنزل... وسمعتُ صوت باب سيارة ينفتح...

ما إنْ خرجتُ من البوابة، حتى وقعتْ عيناي على سيارة وليد... نفس السيارة التي كان يقودها منذ سنين...

المرّة الأخيرة التي ركبتُ فيها هذه السيارة كانت في أسوأ أيام حياتي...

شعرتُ بقشعريرة شديدة تجتاحني وثبتُّ في مكاني ولمْ أجرؤ على المضي خطوة للأمام...

وليد شغّل السيارة وانتظرني... وطال انتظاره!

التفتَ نحو الباب فوجدني واقفةً هناك بلا حراك. ضغط على جرس السيارة لاستدعائي لكنني لم أتحرك. الشيء الذي تحرّك هو شريط الذكريات القديمة البالية... الموحشة البائسة... التي طردتها مِنْ خيالي عنوة...

وليد فتح الباب وخرج مِنْ السيارة ونظر باتجاهي وقال:

«ألن تذهبي؟؟».

تحرّكتْ قدماي دون إدراك مني واقتربتُ مِنْ السيارة. مددتُ يدي فإذا بها تلقائياً تتوجّه إلى الباب الأمامي، فأجبرتها على الانحراف نحو الباب الخلفي، فتحتُه وجلستُ على المقعد الخلفي

فيما وليد يجلس في المقدمة وإلى اليسار منّي... يكاد شعره الكثيف يلامس سقف السيارة!

عندما كنّا صغاراً، أنا ودانة... كنّا نتشاجر مِنْ أجل الجلوس على المقعد الذي أجلس خلفه مباشرة الآن!

وليد انطلق بالسيارة نحو الشارع الرئيسي ثمّ سألني وهو يراقب الطريق:

«أين نتجه؟».

سار وليد ببطء نسبياً يسألني عن الطرق والمنعطفات، وأرشده إليها حتى بلغنا المكان المطلوب.

كان مجمّعاً تجارياً صغيراً مليئاً بالناس.

أوقف وليد السيارة، ففتحتُ الباب وخرجتُ وتقدّمتُ للأمام. وليد لم يخرج، وسمعتُ صوته عبر نافذة الباب الأمامي المفتوحة يقول:

«كم ستلبثين؟؟».

تعجّبتُ، فقلتُ وأنا أقرب وجهي مِنْ النافذة بعض الشيء:

«ألن تأتي معي؟؟».

وليد صمتَ قليلاً، وربما ارتبك، ثمّ قال:

«وهل يجب أنْ آتي معك؟؟».

قلتُ:

«نعم!».

قال:
«أفضّل الانتظار هنا».
بقيتُ واقفةً في مكاني لحظة، فعاد يقول:
«هل يجب أنْ أرافقك؟؟».
قلتُ:
«أو تعيدني للمنزل».
وتراجعتُ للوراء ومددتُ يدي قاصدةً فتح الباب الخلفي. وليد فتح بابه ونزل ودار حول السيارة نصف دورة حتى صار إلى جانبي. قلتُ:
«مِنْ هنا».
وسرنا نحو بوابة المجمّع الصغير، هو مجمع اعتدنا أنا ودانة وأمي شراء حاجياتنا منه. حينما بلغنا المتجر المقصود، وهو متجرٌ للملابس، وكان يعجُّ بالكثيرين، دخلتُه وتوجّهتُ نحو زاوية معينة. التفتُّ إلى الخلف فوجدتُ وليد واقفاً في الخارج ينظر مِن خلال زجاج المتجر. عدتُ أدراجي إليه بسرعة... ثمّ قلتُ:
«ألن تدخل معي؟؟».
وليد بدا حائراً... ربما هو غير معتاد على ارتياد الأسواق! لذا تحرّك ببطء. ولأنني كنتُ قد زرتُ المتجر يوم أمس فأنا أعرف ما يوجد وما يناسب، لذا لم استغرق سوى دقائق حتى اشتريتُ فستاناً مختلفاً عن فستاني المحروق!
إنه أجمل وأغلى!
حينما هممتُ بدفع النقود أخرج وليد محفظته، ودفع للبائع! كم أنا خجلة منه! آمل ألا يفعل ذلك في متجر المجوهرات!
لم يكن وليد يتحدّث، بل كان يسر على مقربة مني بصمت واضطراب. أنا أيضاً كنتُ خرساء جداً!
أقبلنا نحو متجر المجوهرات، وكان الآخر مزدحماً بالناس، ومعظمهم سيدات. دخلناه وأخذتْ عيناي تفتّشان عن الطقم الجميل الذي أغرمتُ به يوم أمس... لم يكن موجوداً في مكانه فخشيتُ أنْ تكون سيدة ما قد سبقتني بشرائه!
جلتُ ببصري في المتجر حتى وجدتُ ضالتي، التفتُّ للوراء فلم أجد وليد. تلفّتُّ يمنةً ويسرة ولم أجده. أقبل صاحب المتجر يسألني:
«ماذا أعجبكِ سيدتي؟».
أسرعتُ مهرولة نحو الباب ونظرتُ مِنْ حولي فوجدتُ وليد واقفاً يتأمّل بعض التحف المعروضة في متجر مجاور.
«وليد».
ناديتُه وأنا مقبلة إليه أحثُّ الخطى. التفت إليّ:

«هل انتهيتِ؟».

«لا».

«إذن؟؟».

قلتُ:

«لا تبتعد عني».

بقى مستغرباً برهة ثمّ أقبل معي وعدنا لذلك المتجر. اشتريتُ الطقم الباهظ الثمّن وحين سمع وليد بالسعر اضطرب. فتح محفظته ليلقي بنظرة على ما بداخلها غير أنني أسرعتُ بإخراج النقود مِنْ حقيبتي ودفعتها إليه. قبل أنْ نغادر المتجر قال وليد:

«أي شيء يصلح هدية صغيرة لدانة؟ فأنا لا أعرف ماذا تحب!».

أما أنا فاعرف ماذا تحب!

أعتقد أنَّ الرجال لا يحتارون كثيراً في اختيار هدية لامرأة! لأنَّ المجوهرات موجودة دائماً... وتتجدّد دائما... وغالية دائماً... ونعشقها دائماً!

اخترتُ شيئاً جميلاً وبسيطاً، ومعتدل السعر، فاشتراه وليد دون تردد. خرجنا بعد ذلك مِنْ المتجر متجهين نحو البوابة، وأثناء ذلك عبرنا على أحد محلات الأحذية الرجالية فقال وليد:

«سألقي نظرة».

وسار خطىً سريعة نحو مدخل المتجر. كان في المتجر عدد مِنْ الرجال والأطفال. وأنا أرى وليد يبتعد... ويهم بدخول المتجر... والمسافة بيننا تزداد خطوة بعد خطوة... والناس يتحركون من حولي... ذهاباً وإياباً...

ورجال يدخلون... ورجال يخرجون... ووليد يكاد يختفي بينهم، ناديتُ بصوت عال:

«وليد».

ورغم الازدحام والضوضاء الصادرة مِنْ حركة الناس وكلامهم، سمعني وليد فالتفت إليَّ. أنا أسرعتُ الخطى المضطربة باتجاهه... وهو اقترب خطوتين... وحين أصبحتُ أمامه قلتُ:

«لا تتركني وحدي».

وليد يعلوه الاستغراب، قال مبرراً:

«سألقي نظرة سريعة فحسب... لدقيقة لا أكثر».

عدتُ أقول:

«لا تتركني وحدي!».

عدل وليد عن فكرة إلقاء تلك النظرة، وقال:

«هل تريدين شيئاً آخر؟؟».

«كلا».

«إذن... هيا بنا».

عندما عدنا إلى المنزل، وقبل أنْ يُفتح لنا الباب بعد قرع الجرس، التفتُّ إليه وقلتُ:

«شكراً... وليد».

لكن أذهلني الوجوم المرسوم على وجهه! كأنه مستاء أو أنَّ مرافقتي قد أزعجته. إنني لم أطلب منه ذلك بل هو مَنْ عرض المساعدة!

دخلنا إلى الداخل، فتوجه هو تلقائياً نحو المطبخ، فسرتُ خلفه. والدتنا كانت لا تزال منهمكة في العمل، حين رأتنا بادرتْ بسؤالي:

«هل وجدتِ ما أردتِ؟؟».

وأخذتْ تنظر إلى الكيس الذي أحمله...

«نعم».

وفتحتُ الكيس، وأخرجتُ منه كيساً آخر صغير يحتوي على علبة المجوهرات. ما إنْ رأتها أمي حتى هزّتْ رأسها اعتراضاً واستنكاراً... فهي لم تكن تشّجعني على شراء المزيد، فقلتُ بسرعة مبررة:

«إنه طقمٌ رائع جداً! انظري...».

وقرّبتُه منها فتأمّلته وقالتْ:

«نعم رائع ولكن...».

لم تتم الجملة، بل قالتْ:

«ولكنك اشتريتِه على أية حال!».

ابتسمتُ ابتسامة النصر! والتفتُّ نحو وليد الذي كان يتابع حديثنا وقلتُ:

«أليس رائعاً؟ ما رأيك؟؟».

وليد بدا مضطرباً بعض الشيء، ثمّ قال:

«لا أفهم في هذه الأمور، لكن... نعم رائع».

وتوجه نحو أحد المقاعد وجلس باسترخاء...

أمي قالتْ:

«بني... اذهب واسترخ في غرفة سامر لبعض الوقت! إنك مجهد».

الآن وليد ينظر باتجاه والدتي، ولا أقع أنا في مجال الرؤية لديه... باستطاعتي أنْ أدقّق النظر في أنفه المعقوف دون أنْ يلاحظ. ما حكاية هذا الأنف يا ترى!؟

أخذتُ أتخيّل شكل وليد قبل أنْ يسافر... كم يبدو مختلفا الآن!

«رغد ألن تستعدي؟؟».

انتبهتُ على صوت والدتي تكلمني، أجبتُ باضطراب وكلي خشية مِنْ أنْ تكون شاهدتني وأنا أتأمّل ذلك الأنف!

«حاضر، نعم سأذهب».

وانطلقتُ نحو غرفتي.

- وليد -

بعد أنْ غادرتْ رغد، هممتُ بالذهاب إلى غرفة أخي سامر وتأدية الصلاة ثمّ الاسترخاء لبعض الوقت. إنني مجهد بعد مشوار الحضور الطويل. نظرتُ إلى فتحة الباب لأتأكّد مِنْ أنَّ رغد قد ابتعدتْ، ثمّ قلتُ:

«أمي... لم كانتْ رغد تبكي؟؟».

أمي كانتْ تزيّن قالب الكعك بطبقة مِنْ الشوكولا، وكانتْ الكعكة شهية المنظر! قالتْ:

«لأنها حرقتْ فستانها كما رأيتَ! تصوّر! لقد اشترته يوم الأمس بمبلغ كبير...!».

صمتُّ برهة ثمّ قلتُ:

«والآخر أيضاً غال الثمَن، وحتى هذا الطقم».

ابتسمتْ والدتي وقالتْ:

«إنها تبذّر النقود، هذا أحد عيوبها!».

أوه هكذا؟ جيد...!

لقد عرفتُ شيئاً جديداً عن طفلتي... أصبحتْ مبذّرة للمال أيضاً؟؟ وماذا بعد...؟؟

قلتُ بتشكّك:

«هل... هل... تحسنون معاملتها؟؟».

رفعتْ أمي بصرها عن الكعكة ونظرتْ نحوي باستغراب... ثمّ قالتْ:

«طبعاً! بالتأكيد! بل إننا... ندلّلها كثيراً!».

تنهّدتُ بارتياح نسبي، وعدتُ أقول:

«إذن... لماذا كانت تبكي؟؟».

أمّي تعجّبتْ أكثر، وقالتْ:

«قلتُ لكَ... بسبب الفستان!».

قلتُ:

«لا أمي... أعني قبل ذلك».

«قبل ذلك؟؟».

«عندما خرجتْ لاستقبالي فور وصولي...».

* * *

في غرفة أخي سامر، والذي سيصل بعد قليل قادماً مِنْ المدينة الأخرى حيث يعمل، اضطجعتُ على السرير وسبحتُ في محيط لا نهائي مِنْ الأفكار. الشيء الذي أثار قلقي هو الطريقة التي وبّختْ بها والدتي رغد بعد وصولي بقليل. فهل حقاً يحسن الجميع معاملتها ويدللها؟؟

لم أتحمّل رؤيتها تبكي...

عندما كنا في منزلنا القديم، لم أكن لأسمح لأحد بأنْ يحزنها بأي شكل مِنْ الأشكال، مهما

فعلتْ. كانتْ دانة دائماً تتشاجر معها أو تضربها، وكنتُ دائماً أقف في صف صغيرتي ضد أيٍ كان...

تُرى... هل تذكر هي ذلك؟؟ أم أنني أصبحتُ مِنْ الماضي المنسي... والأحلام الوهمية... والذكريات المهجورة؟؟

حاولتُ النوم ولم أستطع، لذا عدتُ إلى غرفة المعيشة فوجدتُ والديَّ ورغد هناك.

تبادلنا بعض الأحاديث عن عريس دانة، وهو لاعب كُرة ذاع صيته واشتهر في الآونة الأخيرة.

قلتُ:

«ولكن ألا تفكّر في متابعة دراستها؟ إنها لا تزال صغيرةً على الزواج!».

قال أبي:

«لا تريد الدراسة، وهو عريسٌ جيد! كما وأنها في سن مناسب! فليوفقهما الله!».

لحظات وإذا بسامر يحضر، ويحظى بترحيب لا يقل حرارة عن ترحيبهم بي. بدأ سامر بأكبرنا، ثمّ حين جاء دوري، صافحني بحرارة وشوق كبيرين جداً... وأطال عناقي الأخوي...

أشعرني هذا بقربه مني، بعدما فرّقتْ السنين بيننا... وبأنني لا زلتُ أملك عائلةً تحبُّني وترغب في وجودي في أحضانها. شيءٌ رفع مِنْ معنوياتي المتدهورة... لكن...

سرعان ما انحطّت هذه المعنويات واندفنتْ في لبِّ الأرض تحت آلاف الطبقات مِنْ الحجر والحديد والإسمنت، حين أقبل إلى رغد يصافحها ويضمُّها إلى صدره ويقبّل جبينها بكل بساطة...!

لو كنتُ بركاناً... أو قنبلة... أو قذيفة نارية، لكنتُ انفجرتُ لحظتها ودمّرتُ كوكب الأرض بأسره ونسفتُه نسفاً وحوّلتُه إلى مسحوق غبار.

لكنني كنتُ وليد... أو بالأصح... شبح وليد...!

ما الذي دعاني لتمالك نفسي؟؟ لا أعرف... لقد كان باستطاعتي أنْ أحطّم رأس أي مخلوق يقف أمامي شر تحطيم.

ولو ضربتُ الجدار بقبضتي هذه لسبّبتُ زلزالاً مدمراً ولهوى السقف وقضى علينا جميعاً...

لكنني اكتفيتُ بأنْ أبرد أسناني مِنْ شدة الضغط، وأمزّق أوتار يدي مِنْ قوّة القبض...

ليت أمي لم تلدك يا سامر!

ليتك تتحوّل إلى أي رجلٍ آخر في العالم، لكنتُ استأصلتُ روحك مِنْ جسدك ومزّقتُك خليّةً خليّة...

«أين العروس؟؟».

سأل أخي وهو لا يزال ممسكاً بيد رغد.

«في غرفتها! تتزيّن!».

قالتْ رغد، فقال:

«سأذهب لرؤيتها».

وشدّ رغد يحثها على السير معه... وذهب الاثنان وغابا عن ناظري...

ليتني لم أعد... أي جنون هذا الذي جعلني أعود فاحترق؟؟ إنني أكاد انفجر... هل يحس أحد بي؟؟

سمعتُ أمي تقول:

«ما بكَ وليد؟ ألنتَ متعب بني؟؟».

متعب؟؟ فقط متعب؟؟

ابتعدوا عني وإلا فأنني سأحرقكم جميعاً!

رميتُ بجسدي المشتعل على المقعد وأخذتُ أتنفس بعمق أنفاس متلاحقة علّ الهواء يبرّد شيئاً مما في داخلي.

مرّتْ لحظةٌ صامتةٌ إلا عن تيار الهواء المتلاعب في صدري. أمي وأبي لا يزالان واقفين كما هما... وأنا أشعر بحرٍ شديد وأكاد أختنق...

رفعتُ رأسي فإذا بهما يراقبانني... أظن أنَّ وجهي كان شديد الاحمرار ويتصبّب عرقاً...

القلق كان بادٍ على وجهيهما. قلتُ:

«الجو حار...».

أمي سارتْ نحو المكيّف وزادتْ مِنْ قوة دفعه للهواء. التفتُّ إلى أبي وقلتُ:

«وهذان؟؟ متى ارتبطا؟؟».

لم يجبْ أبي مباشرة، ثمّ قال:

«عقدنا قرانهما قبل ما يزيد عن السنوات الثلاث».

مزيدٌ مِنْ الاختناق والضيق... كأنَّ الهواء قد سُحِب مِنْ الغرفة تماماً... قلتُ:

«ألا ترى يا والدي أنهما لا يزالان صغيرين؟ على الأقل رغد... صغيرة جداً».

أبي قال:

«إننا لن نزوّجهما قريباً على أية حال، فرغد تود الالتحاق بالجامعة أولاً ولا أدري إنْ كان سامر سيفلح في إقناعها بغير ذلك».

أثارتْ الجملة اهتمامي، قلتُ:

«غير ذلك؟؟».

قالتْ أمي:

«قد نزوّج الثلاثة في ليلةٍ واحدة قريباً!».

وابتسمتْ، ثمّ قالتْ:

«ويأتي دورك!».

وقفتُ مستاءً، ويمّمتُ وجهي شطر المطبخ فأنا أحسُّ بعطشٍ شديد وبحاجة لنهر كاملٍ ليرويني ويخمد نيراني... وتركتُ والديَّ في حيرة مِنْ أمري.

- رغد -

تمَّ عقد القران وانتهتْ الليلة بسلام أخيراً!. لقد بذلتُ جهوداً مضاعفة في تنظيف المنزل بعد مغادرة الضيوف!

أمّا دانة فكان القلم مرفوعاً عنها هذا اليوم!

طلبتُ مِنْ أمي أنْ تذهب للراحة وتوليتُ أنا، مع سامر تنظيف الأطباق. أما الرجل الناري فلا علم لي أي أرض يحرق هذه الساعة!

كنتُ واقفةً أمام صنبور الماء البارد أغسل الأطباق، وسامر إلى جانبي. سألته:

«كيف بدا العريس؟؟».

أجاب:

«مهذّباً وخلوقاً وبشوشاً!».

قلتُ:

«لا يعجبني!».

ابتسم سامر وقال:

«ولكن لِمَ؟؟».

«لا أعرف! لكنني أجده ثقيل الظل! إنه مغرور ويتحدّث عن نفسه بزهو وخيلاء أمام الكاميرات! كيف تتحمّل دانة زوجاً كهذا؟؟».

سامر ضحك، فضحكتُ معه. قال:

«ليس المهم رأيكِ أنتِ به! المهم رأي العروس به!».

ثمّ غيّر نبرة صوته حتى غدتْ أكثر لطفاً ورقّة، وقال:

«ورأيكِ بي أنا...».

ارتبكتُ.. واضطربتْ تعبيرات وجهي، وأخفيتُ نظراتي في حوض الغسيل!. وصلنا هذه اللحظة صوت حركة عند الباب، فالتفتْنا للخلف فإذا به وليد. وصدقوني، شعرتُ بماء الصنبور يحرقني!... تبادلنا النظرات...

قال وليد:

«هل لي بلحاف؟ سأنام في غرفة الضيوف».

غسل سامر يده واستدار نحو وليد قائلاً:

«أوه كلا يا أخي، بل ستنام في غرفتي وعلى سريري، سأنام أنا على الأرض أو في غرفة الضيوف أو أي مكان!».

لم يظهر على وليد أنه يرحّب بالفكرة أو حتى سمعها! قال:

«أريد لحافاً لو سمحتَ».

كان وجهه جامداً صارماً، ورغم أنَّ سامر كان يبتسم، إلا أنَّ وليد كان عابساً. قال سامر:

«أرجوك استخدم غرفتي! أنا سأسافر بعد الغد على أية حال».

قال وليد:

«وأنا كذلك. هلاّ أحضرتَ لحافاً الآن؟؟».

وليد شخص غريب... نعم غريب!

نحن لا نعرفه! ولا نعرف كيف هي طباعه ولا كيف كانت حياته في الخارج... ربمّا كان صارماً جداً... قلّما رأيتُه يبتسم مذ عودته!

انتهى الأمر بأنْ نام وليد في غرفة الضيوف، على المقعد الكبير، الذي نمتُ عليه ذلك اليوم! أتذكرون؟؟

توقّعت أنْ أجد صعوبة في النوم... طالما تفكيري مستعمَر مِنْ قِبَل وليد... إلا أنّني نمتُ بسرعة مدهشة!

في اليوم التالي، اجتمعتْ العائلة في غرفة الطعام لتناول الفطور الصباحي، في ساعةٍ متأخرة مِنْ الصباح. أعددنا الأطباق في غرفة المائدة، وجاء الجميع ليتّخذوا مقاعدهم.

كالعادة جلس والداي إلى طرفي المائدة، ودانة إلى يمين أبي، وسامر إلى يساره، وهممتُ بالجلوس على مقعدي المعتاد يمين أمي، لكنني انتظرتُ وليد. وليد حرّك ذات المقعد وقال:

«مقعدكِ...».

وتركه وذهب للجهة المقابلة وجلس إلى يسار أمّي. جلستُ أنا على مقعدي المعتاد، وصار وليد مواجهاً لي؛ وضع يسمح للأشعة المنبعثة مِنْ ناحيته بأن تلسعني!

فجأة، وقف وليد... وخاطب دانة قائلاً:

«هل لا تبادلنا؟؟».

وتبادلا المعقدين. ربما رأى الجميع هذا التصرف عادياً وفسّروه بأنّ وليد يرغب بالجلوس قرب والده أو أي تفسير آخر، غير أنني فسّرتُه بأنّ وليد لا يرغب في الجلوس مقابلاً لي. صار هذا الوضع هو الوضع الذي نجلس عليه خلال الأيام التي قضاها وليد معنا.

وليد كان يلتزم الصمت، وأنا أريد أنْ أسمع منه أخباره، ولا أجرؤ على طرح الأسئلة عليه. بين لحظة وأخرى، ألقي نظره باتجاهه، لكن أعيننا لم تلتق مطلقاً.

بعد الفطور، ذهب الجميع إلى غرفة المعيشة، والدي يطالع الصحف وسامر يقلّب قنوات التلفاز، ودانة شاردة الذهن... فيما وليد وأمي يتبادلان الحديث، يشاركهما البقية بتعليقٍ أو آخر مِنْ حينٍ لآخر.

تركتُ الجميع كما هم، وذهبتُ إلى غرفة الضيوف لرفع اللحاف وترتيب ما قد يكون مضطرباً.

دخلتُ الغرفة، فوجدتُ اللحاف مطوياً وموضوعاً على المقعد الكبير، وعلى المنضدة المجاورة وجدتُ سلسلة مفاتيح وليد، ومحفظته.

مشيتُ بخفّة حتى صرتُ أمام المنضدة وجعلتُ أحدّق في المحفظة بفضول! وانتقل

فضولي مِنْ عيني إلى يدي، فمددتها ونظرتُ مِنْ حولي لأتأكّد مِنْ أنَّ أحداً لا يراقبني!

انفتحتْ المحفظة المثنية، فظهرتْ بطاقة وليد الشخصية وفيها صورة حديثة له؛ بأنفه المعقوف!

والآن... ما هي الفكرة المجنونة التي قفزتْ إلى رأسي؟

سأرسمه!

لم أدع أي فرصة لعقلي ليفكّر، وأخذتُ المحفظة وطرتُ مسرعةً إلى غرفتي، وبدأتُ أرسم رسمة سريعة خفيفة لمعالم وجهه وأنظر للساعة في وجس وخوف. ما إن انتهيتُ، حتى أسرعتُ الخطى عائدةً بالمحفظة إلى غرفة الضيوف. وتوقّفتُ فجأةً واصفرّ وجهي وارتجفتْ أطرافي حين رأيتُ وليد في الغرفة مقبلاً نحو الباب، يحمل في يده سلسلة المفاتيح.

أوّل شيء وقعتْ عينا وليد عليه هو محفظته التي تتربع بين أصابع يدي!

رفع وليد بصره عن المحفظة ونظر إليَّ، فأسرعتُ بدفن أنظاري تحت قدمي، قال باستنكار:

«أظن أنها... تشبه محفظتي المفقودة تماماً!».

ازدردتُ ريقي وتلعثمتْ الكلمات على لساني مِنْ شدّة الحرج والخجل. وإذا بوليد يقول:

«خائنة... مبذّرة... متدللة... وماذا بعد؟ هل تسرقين أيضاً؟؟».

رفعتُ نظري إليه وفغرتُ فاهي بذهول... مِنْ هول ما سمعتُ!

الحلقة السادسة عشر

العصفور المذعور

- وليد -

لقد قضيتُ خمسة أيام في بيت عائلتي، كان يمكن أنْ تكون مِنْ أجمل أيام حياتي... لكنها كانتْ مْنْ أسوأها. كنتُ أودُّ الرحيل عنهم في أقرب فرصة، لكنني اضطررتُ كارهاً للبقاء بإلحاح مِنْ أبي وأمي. سامر غادر يوم الجمعة، وقد ودّعتُه وداعاً بارداً، وكنتُ سأغادر صباح الثلاثاء التالي باكراً.

خلال الأيام الخمسة كنتُ أتحاشى الالتقاء برغد قدر الإمكان ولا أنظر أو أتحدّث إليها إلا للضرورة. وهي الأخرى، كانتْ تلازم غرفتها معظم الوقت وتتحاشى الحديث معي، خصوصاً بعد أنْ قلتُ لها: («هل تسرقين؟»).

اعترف بأنني كنتُ فظاً جداً غير أنني لم أجد طريقةً أفضل لأعبر بها عن غضبي الشديد ومرارتي لفقدها.

في آخر الأيام، طلبتْ مني والدتي اصطحاب رغد إلى المكتبة لتشتري بعض حاجياتها. لم أكن لأفعل ذلك، غير أنني شعرتُ بالحرج إذ أنَّ والدي كان قد عاد قبل قليل مِنْ العمل وبالكاد حظي بقسطٍ يسير مِنْ الراحة، فيما أنا أنعم بالكسل، دون مقابل.

ذهبنا إلى تلك المكتبة المترامية الأطراف. رغد توجّهتْ إلى الزاوية الخاصة ببيع أدوات الرسم والتلوين وخلافها، وبدأتْ تتفرّج وتختار ما تريد. وعلى فكرة، علمتُ أنها رسّامة ماهرة. لكَمْ كانتْ تعشق التلوين منذ الصغر!

أخذتُ أتفرّج معها على حاجيات الرسم والتلوين، ثمّ انعطفتُ في طريقي، مواصلاً التفرج، ولم يعدْ باستطاعتي رؤيتها أو باستطاعتها رؤيتي.

شُغِلتُ بمشاهدة بعض الرسوم المعلقة على الحائط وما هي إلا ثوان حتى رأيتُ رغد تقف بجواري! قلتُ:

«رسوم جميلة!».

«نعم. سأشتري الألوان مِنْ هناك».

وأشارتْ إلى ناحية أخرى، فسرتُ معها. انهمكتْ هي في اختيار الألوان وغيرها، فسرتُ أتجوّل وأتفرّج على ما حولي حتى بلغتُ زاوية أخرى فانعطفتُ. مضتْ دقيقتين أو ثلاث، وإذا بي أسمع صوت رغد يناديني مجدداً. استدرتُ للخلف فرأيتُها تقف قربي وبيني وبينها مسافة بضع خطوات.

«هل انتهيتِ؟؟».

«لا».

«إذن؟؟».

«لا تبتعد عني».

يا لهذه الفتاة! قلتُ:

«حسناً!».

ومضيتُ معها إلى حيث كانتْ أغراضها موضوعة على أحد الأرفف. رأيتها تأخذ أغراضاً أخرى كثيرة، فتلفّتُ مِنْ حولي بحثاً عن سلة تسوّق، ولم أجد. ذهبتُ لأفتّش عن واحدة فإذا بي أسمعها تناديني:

«إلى أين؟».

«سأحضر سلّة لحمل الأغراض».

فإذا بها تترك ما بيدها وتأتي معي. عدنا مجدداً للأغراض، وتابعتْ هي اختيار ما تشاء، وتجوّلتُ أنا حتى بلغتُ ناحية الكتب.

الكثير مِنْ الكتب أمام عيني! يا له مِنْ بحرٍ كبير! كم أنا مشتاقٌ للغطس في أعماقه! لم أكن قد قرأتُ كتاباً منذ مدّة طويلة. أخذتُ أتفرّج عليها وأتصفّح بعضها، وانتقل مِنْ رفٍ إلى آخر، ومِنْ مجموعة إلى أخرى، حتى غرقتُ في البحر حقاً!

كانتْ أرفف الكتب مصفوفةً على شكل عدّة حواجز تقسّم المنطقة، والعديد مِنْ الزبائن ينتشرون في المكان ويتفرجون هنا أو هناك. دقائق، وإذا بي أسمع صوت رغد مِنْ مكانٍ ما!

كان صوتها يبدو مرتبكاً أو قلقاً... لم أكن في موقع يسمح لي برؤيتها، فسرتُ بين الحواجز بحثاً عنها وأنا أقول:

«أنا هنا».

ولم أسمع لها صوتاً! أخذتُ ألقي نظرة بين الحواجز بحثاً عنها ثمَّ وجدتها بين حاجزين.

«أنا هنا!».

حينما رأتني رغد أقبلتْ نحوي مسرعةً تاركةً السلة التي كانتْ تحملها على الأرض وحين صارتْ أمامي مباشرة فوجِئتُ بها تمسك بذراعي وترتجف!...

كانتْ تبدو فزِعة ومتوتّرة! نظرتُ إليها باندهاش وقلتُ:

«ما بكِ؟؟».

قالتْ وهي تلتقط أنفاسها عبر فمها:

«أين ذهبتَ؟».

«أنا هنا أتفرّج على الكتب!... ما بكِ؟؟».

رغد ضغطتْ على ذراعي بقوة... وقالتْ بتوتّر:

«قلتُ لكَ لا تبتعد عنّي... لا تتركني وحدي».

نظرتُ إليها بشيء مِنْ القلق... والحيرة... فقالتْ:

«لا تدعني وحدي... أنا أخاف».

لكم أنْ تتصوّروا الذهول الذي علاني لدى سماعي لها تقول ذلك، ورؤيتها ترتجف أمام عيني بذعر. لقد ذكّرني هذا الموقف، باليوم المشؤوم...

«أأنتِ... بخير؟؟».

فعادتْ تقول:

«لا تتركني وحدي... أرجوك...».

لم يبدُ لي هذا تصرفاً طبيعياً... توتّرتُ خوفاً وقلقاً... وتأملتّها بحيرة. سرنا باتجاه السلّة، فأردتُ سحب ذراعي مِنْ بين يديها لحمل السلة لكنها لم تطلقها مباشرة، وعوضاً عن ذلك تشبّثتْ بها أكثر...

لم يكن موقفاً عادياً، لذا فإنّ أوّل شيءٍ سألتُ أمي عنه بعد عودتنا للبيت:

«ما الذي جعل رغد تفزع عندما تركتُها في المكتبة وابتعدتُ قليلاً؟؟».

أمي نظرت إليّ باهتمام... ثمّ قالتْ:

«ماذا حدث؟؟».

«لا شيء... ذهبتُ ألقي نظرة على الكتب وبعد دقائق وجدتُها ترتجف ذعراً!».

عبس وجه والدتي، وقالتْ:

«ولماذا تتركها يا وليد؟ قلتُ لكَ... انتبه لها».

أثار كلام أمي جنوني، فقلتُ:

«أمي... ما الخطب؟؟».

قالتْ أمي بمرارة:

«لديها رهبةٌ مرضيّة مِنْ الغرباء... تموتُ ذعراً إذا لم تجدْ أحدنا إلى جانبها... إنها مريضةٌ بذلك منذ سنين... منذ رحيلك يا وليد!».

لقد صُدِمتُ بالنبأ صدمةً هزّتْ كياني ووجداني...

أخبرتْني أمي بتفاصيل حدثتْ للصغيرة بعد غيابي، والحالة المرضية التي لازمتها فترةً طويلة والذعر الذي ينتابها كلما وجدتْ نفسها بين غرباء. لم يكن صعباً عليَّ أنْ أربط بين الحادث المشؤوم وحالتها هذه.

وكم تمنيتُ... كم تمنيتُ...

لو أنّ عمّار يعود للحياة... فأقتله... ثمّ أقتله وأقتله ألف مرّة...

تابعتْ أمي:

«وعندما توالتْ الهجمات على المنطقة، اشتدَّ عليها الذعر والمرض... ووجدنا أنفسنا مضطرّين للرحيل مع مَنْ رحل عن المدينة... لم يكن الرحيل سهلاً، لكن البقاء كان أصعب. قضيتُ معها فترات متفرّقة في المستشفى... لم تكن تفارقني لحظة واحدة! بمشقّة قصوى

ذهب والدك وشقيقك لزيارتك في العاصمة، تاركين الطفلة المريضة وأختها في رعايتي في المستشفى، إلا أنهما مُنِعا مِنْ الزيارة وأُبلِغا أنَّ الزيارة محظورة نهائياً على جميع المساجين!».

وأمي تتحدّث وأنا رأسي يدور... ويدور... حتى لفَّ المجرة بأكملها. تساؤلات كان تملأ رأسي منذ سنين، وجدتُ إجابات صاعقةً عليها دفعةً واحدة.

أسندتُ رأسي إلى يدي. رأتني أمي أفعل ذلك فقالتْ:

«بني... أأنتَ على ما يُرام؟؟».

رفعتُ يدي عن رأسي وقلتُ:

«لكن... لماذا... لماذا زوّجتموها لسامر وهي في تلك السن المبكرة جداً؟؟».

قالتْ:

«ولِمَنْ كنتَ تظنّنا سنسلّم ابنتنا؟؟ إنها تموتُ ذعراً لو ابتعدتْ عنا... هل تتصوّر أنها تستطيع الخروج مِنْ هذا المنزل؟؟ لا تخرج في مكان عام إلا بوجود أبيك أو سامر. ليس لديها صديقات تتبادل الزيارات معهنّ. كانتْ ستتزوّجه إنْ عاجلاً أم آجلاً... فرفعنا الحرج عنهما لبقائهما في بيتٍ واحد».

قلتُ:

«لكن يا أمي... إنها... إنها...».

ولم تخرج الكلمة المعنية... فأتممتُ:

«إنها صغيرةٌ جداً... ما كان يجب أنْ تقرّروا شيئاً كهذا...».

وتابعتُ:

«كان يجب... كان يجب... أنْ...».

ولم أتم... ماذا عساي أقول...؟؟ لقد فات الأوان وانتهى كل شيء... لكن الأمور بدتْ أكثر وضوحاً أمامي...

وقفتُ هامّاً بمغادرة المطبخ حيث كنّا وأنا أقول:

«ألهذا لم تخبروها بأنّني دخلتُ السجن؟؟؟ هل أخبرتموها أنني... لن أعود؟؟».

والدتي أجابتْ:

«أخبرناها بأنك قد تعود... ولكن... بعد عشرين عاماً... وقد لا تعود...».

«ولكنني عدتُ...».

وأضفتُ أخيراً:

«وسأرحل مجدّداً».

وتابعتُ طريقي. كنتُ أريد الانفراد بأفكاري في غرفة شقيقي. وجدتُ قدمَيّ تأخذاني إلى غرفة رغد، ووجدتُ يدي تتجرّأ وتطرق باب الغرفة:

«أنا وليد».

بعد قليل... فُتح الباب. كنتُ أقف عن بعد... أطلّتْ رغد مِنْ الداخل ونظرتْ إليَّ فرأيت

جفونها الأربعة متورّمة. قلتُ:

«صغيرتي... أنا آسف...».

ما إنْ قلتُ ذلك... حتى طأطأتْ رغد رأسها، ثم استدارتْ وابتعدتْ داخل الغرفة، وجلستْ على السرير منحنية الظهر... في وضعٍ حزين...

«رغد...».

ناديتُها ولم تجبْ. بقيتُ واقفاً عند الباب لا أقوى على شيء... لا على التقدّم خطوة، ولا على الانسحاب.

«رغد يا صغيرتي...».

لم تتحرّك رغد بل بقيتْ على نفس الوضع. تقدّمتُ خطوةً واحدة متردّدة نحو الداخل، ونظرتُ إلى ما حولي...

المرآة كانتْ على يميني، وحين تقدّمتُ خطوةً بعد، رأيتُ انعكاس صورتي عليها، وحين التفتُّ يساراً... رأيتُ صورتي أيضاً!

فوجئتُ وتعلّقتْ عيناي عند تلك الصورة! لقد كانتْ صورةً مرسومة لي على لوحة ورقية، لم تكتمل ألوانها بعد!

نقلتُ بصري بين رغد الجالسة على السرير، وصورتي المرسومة على الورقة! أدهشتْني دقّتها وأنا أظهر فيها بمظهري الحالي... بأنفي المحفور.

لكن... كيف ومتى أمكنها ذلك؟؟

«يشبهني كثيراً!».

ما إنْ أنهيتُ جملتي حتى قفزتْ رغد بسرعة، وعمدتْ إلى اللوحة فغطّتها بورقة بيضاء. ثمّ بعثرتْ أنظارها في أشياء كثيرة... بعيداً عني. رجعتُ للوراء، وهممتُ بالمغادرة فإذا بها تقول:

«سأريكَ شيئاً».

وتوجّهتْ نحو مكتبتها وأخرجتْ كراسة رسم كبيرة، وأقبلتْ نحوي ومدّتها إليّ. أخذتُ الكراسة والتقتْ نظراتنا فإذا بي أقول:

«وأنا؟ ألا تخافين منّي؟».

وليتني لم أقل ذلك، لأنّ رغد رمقتْني بنظرة قويّة والأسى يكتسح وجهها ثمّ قالتْ:

«أرجوك... انصرف الآن».

في غرفة سامر، جلستُ على السرير، أقلّب صفحات كراسة رغد. الكثير مِنْ الرسومات الجميلة لأشياء كثيرة، ليس مِنْ بينهم صورة لأحد أفراد العائلة غير دانة!

صورة لها وهي صغيرة وغاضبة! والعديد مِنْ صور أشياء خيالية وأشباح، لم أعرف ما الذي تقصده بها. ومع كل صفحة أقلبها أقلب ذكرى مِنْ ذكريات الماضي... السعيدة والبائسة.

بعد ساعتين استدعتْني أمّي لتناول العشاء.

في غرفة الطعام. ولم أسمح لنظراتي أنْ تلتقي بعيني رغد أو للساني أنْ يكلّمها طوال الوقت. بعد ذلك، ذهبتُ مع أبي إلى غرفة المعيشة نتابع آخر الأخبار عبر التلفاز.

لا يزال الدمار ينتشر، والحرب التي هدأتْ نسبياً لفترة مؤقتة عادتْ أقوى وأعنف وأخذتْ تزحف مِنْ قلب البلدة إلى الجهات الأربع.

تم غزو مدينتين أخريين مؤخراً، لم تكن الحرب قد نالتْ منهما حتى الآن، وتندرج المدينة الصناعية التي نحن فيها الآن، في قائمة المدن المهدّدة بالقصف.

كنتُ مندمجاً في مشاهدة لقطات مصورة عن مظاهرات متفرقة حدثتْ صباح اليوم في مدن مختلفة مِنْ بلدنا... ورؤية العساكر يضربون المدنيين ويقبضون على بعضهم. منظرٌ مريع جعل قلبي ينتفض خوفاً... وأثار ذكريات السجن المؤلمة المرعبة...

في هذا الوقت، أقبلتْ رغد تحمل مجموعة مِنْ الكراسات واللوحات الورقية، وجاءتْ بها إليّ!

«تفرّج على هذه أيضاً... هذا كل ما لديَّ».

وضعتُ الكراسات على المنضدة المركزية، وجلستْ رغد على مقعد مجاور لمقعدي... تراقبني وتنتظر تعليقاتي حول رسوماتها الجميلة...

إنَّ عيني كانتْ على الرسومات، غير أنَّ أذني كانتْ مع التلفاز!

بعدما فرغتُ مِنْ استعراض جميع الرسومات قلتُ:

«رائعة جداً! أنتِ فنانة مبدعة! أهذا كل شيء؟؟».

رغد ابتسمتْ بخجل وقالتْ:

«نعم... عدا اللوحة الأخيرة».

وأخفتْ أنظارها تحت أظافر يديها!... لماذا قرّرتْ رغد رسمي أنا؟ وأنا بالذات!؟؟

قلتُ:

«متى تنهينها؟».

لا زالتْ تتأمل أظافرها وكأنها تراهم للمرة الأولى! قالتْ:

«غداً أو بعد الغد...».

«خسارة! لن أراها كاملةً إذا!».

رفعتْ رغد عينيها نحوي وقالتْ:

«لماذا؟».

أجبتُ:

«لأنني... سأرحل غداً باكراً... كما تعلمين!».

اختفى صوت الأخبار فجأة، التفتُّ إلى التلفاز فإذا به موقف، ثمّ إلى أبي، والذي كان يحمل جهاز التحكم في يده، فرأيتُه ينظر إليّ بعمق... وإلى أمي فوجدتها متسمرة في مكانها، تحمل صينية فناجين الشاي...

وكنتُ شبه متأكد، مِنْ أنني لو نظرتُ إلى الساعة لوجدتها هي الأخرى متوقفة عن الدوران!

حملق الجميع بي... فشعرتُ بالأسى لأجلهم... كانتْ نظرات الاعتراض الشديد تقدح مِنْ أعينهم. أول مَنْ تحدّث كان أمي:

«ماذا وليد؟؟ ومَنْ قال أنك سترحل مِنْ جديد؟؟».

صمتُّ قليلاً ثمّ قلتُ:

«قلتُ ذلك منذ أتيتُ... انتهتْ الزيارة ولا بد لي مِنْ العودة».

قال والدي مقاطعاً:

«ابقَ معنا بني».

هززتُ رأسي، وقلتُ:

«والعمل؟؟ ماذا أفعل ببقائي هنا؟؟».

ودار نقاش طويلٌ حول هذا الموضوع، وبدأتْ أمي بالبكاء، ورغد كذلك!

وحين وصلت دانة - والتي كانتْ لا تزال تتناول العشاء مع خطيبها في غرفة الضيوف، وجاءت تسأل أمي عن الشاي، ورأتْ الوجوم على أوجهنا ثمّ عرفتْ السبب - بكتْ هي الأخرى!

أردتُ أنْ أختصر على نفسي وعليهم آلام الوداع.. سرعان ما قلتُ:

«سأخلد للنوم».

وذهبتُ إلى غرفة سامر. أخذتُ أقلّب كراسة رغد مجدداً...

كم كانتْ شغوفة بالتلوين! لقد كنتُ ألون معها... وكان ذلك يسعدها... كم أتمنى لو... تعود تلك الأيام...

جمعتُ أشيائي في حقيبة سفري الصغيرة التي جئتُ بها من مدينتي، وضبطت المنبه ليوقظني قبل أذان الفجر بساعة. كنتُ أريد أنْ أخرج دون أنْ يحسّ أحد بذلك، لئلا تبدأ سلسلة عذاب الفراق وألم الوداع... كالمرة السابقة. وحين نهضتُ في ذلك الوقت، تسللتُ بهدوء وحذر خارجاً مِنْ المنزل.

كان السكون يخيمّ على المنزل... والكون غارقٌ في الظلام الموحش... إلا عن إنارة خافتة منبعثة مِنْ المصباح المعلّق فوق الباب.

خرجتُ إلى الفناء الخارجي، وكان علي أنْ أترك الباب غير موصد. وسرتُ إلى البوابة الخارجية، فإذا بي أسمع صوت الباب يُفتح مِنْ خلفي...

استدرتُ إلى الوراء... فإذا بي أرى رغد تطلُّ مِنْ فتحة الباب!

تسمّرتُ في مكاني مندهشاً!

رغد أخذتْ تنظر إليّ وإلى الحقيبة التي في يدي... ثمّ تهزّ رأسها اعتراضاً... ثمّ تقبل نحوي مسرعة...

«وليد... لا... لا ترحل أرجوك».

حرتُ ولم يسعفني لساني بكلمة تناسب مقتضى الحال... سألتُها:
«لِمَ... أنتِ مستيقظة الآن؟؟».
رغد حدّقتْ بي مدّة، وسالتْ دمعتان مِنْ محجريها...
«أوه... كلا أرجوك!».
قلتُ ذلك بضيق، فأنا قد خرجتُ في هذا الوقت خلسةً هروباً مِنْ هذا المنظر... غير أنَّ رغد استمرّتْ في هذر الدموع:
«لا تذهب وليد أرجوك... أرجوك... ابق معنا».
قلتُ:
«لا أستطيع ذلك... أعني... لديَّ عملٌ يجب أنْ أعود إليه».
وفي الحقيقة، لديَّ واقعٌ مرٌّ يقف أمامي... علي أنْ أهرب منه...
رغد تحرّك رأسها اعتراضاً واستنكاراً... ثمّ تقول:
«خُذني معك!».
ذُهِلتُ لهذه الجملة المجلجلة! واتسعتْ حدقتا عيني بدهشة... رغد قالتْ:
«أريد أنْ أعود إلى بيتنا».
«رغد!!».
ارتفع في صوت بكائها، خشيتُ أنْ يصل إلى البقية ويوقظهم... ونبدأ دوامة جديدة مِنْ الدموع...
«رغد... أرجوك كفى...».
رغد قالتْ بانفعال، وصوتها أقرب للنوح مِنه إلى الكلام:
«أنا... وفيتُ بوعدي... ولم أخن اتفاقنا... لكنك كذبتَ عليَّ... ولم تعد... والآن بعد أنْ عدتَ... تتجاهلني... وتبادر بالرحيل... وتنعتني أنا بالخائنة؟ إنك أنتَ الخائن يا وليد... تتركني وترحل مِنْ جديد».
كالسم... دخلتْ هذه الكلمات إلى قلبي فقتلته... وبعد تأمّل عميق سألتُها مندهشاً:
«ألَمْ... ألَمْ... تخبري أحداً...؟؟!!».
رغد أومأتْ برأسها نفياً... قلتُ بذهول:
«ولا... حتى... سامر؟؟».
وأومأتْ نفياً وبألم... فشعرتُ بالدنيا تهتزُّ وترتجف مِنْ هول المفاجأة... تحت قدميَّ.
قالت:
«كنتُ أنتظر أنْ تعود... لكنهم أخبروني أنك لن تعود... ولا تريد أنْ تعود... وكلّما اتصلتُ بهاتفك... وجدتُه مقفلاً... ولم تتَّصل لتسأل عنّي ولا مرّة طوال هذه السنين... لماذا يا وليد؟؟».
لحظتها تملّكتني رغبةٌ مجنونة بأنْ أضحك... أو... أو حتى أتقيأ مِنْ الصدمة، لكن... ما الجدوى الآن...؟

كبتُّ رغبتي في صدري ومعدتي، ورفعتُ نظري إلى السماء... أُشهِد ملائكة الليل على حالٍ ليس كمثلها حال... وحسبي الله ونعم الوكيل...

سمعتُ صوت تغريد عصفورٍ شقَّ سكون الجو... ونبّهني للوقت الذي يمضي... والوقت الذي قد مضى... والوقت القادم المجهول...

كم سخِرتْ الدنيا مني... فهل مِنْ مزيد؟؟؟

«صغيرتي... أنا ذاهب...».

رغد ظلّت تنظر إليَّ وتبكي بغزارة... ولم يكن باستطاعتي أنْ أمسح دموعها... استدرتُ مولياً إياها ظهري... لكن صورتها بقيتْ أمام عيني مطبوعةً في مخيلتي. سرتُ خطىً مبتعداً عنها... نحو البوابة الرئيسية للفناء، وفتحتُها...

قلتُ:

«اقفلي الباب مِنْ بعدي..».

دون أنْ التفتُ نحوها... فهو دوري لأذرف الدموع... التي لا أريد لأحد أنْ يراها ويسبر غورها...

«وليـــــد».

وكعصفورٍ يطير بحرية... بلا قيود ولا حدود... ولا اعتبار لأي شيء... أقبلتْ نحوي...

استدرتُ... وتلقيتُ سهماً اخترق صدري وثقب قلبي... وبعثر دمائي ومشاعري في لحظة انطلقتْ فيها روحي تحلّق مع الطيور المرفرفة بأجنحتها... احتفالاً بمولد يوم جديد...

الحلقة السابعة عشر

إلى حيث يجرفني التيار

- وليد -

منذ الساعة التي أجريتُ فيها المقابلة الشخصية، وطُرِحَ عليَّ السؤال عنْ خبراتي ومؤهّلاتي وعملي في السابق، أدركتُ أنَّ الأمر لن يكون يسيراً.

حصلتُ على الوظيفة رغم ذلك بتوصيةٍ حادّة مِنْ صديقي سيف، الذي ما فتئ يشجّعني ويحثّني على السير قُدماً نحو الأمام.

وخلال الأشهر التالية، واجهت الكثير مِنْ المصاعب... مع الآخرين.

بطريقةٍ ما انتشر نبأ كوني خرّيج سجون بين الموظفين، وتعرّضتُ للسخرية والازدراء والمعاملة القاسية مِنْ قبل أغلبهم.

كنتُ أعود كل يوم إلى المنزل مثقلاً بالهموم، وعازماً على عدم العودة للشركة مجدداً، غير أنَّ لقاءً قصيراً أو مكالمة عابرة مع صديقي سيف تُنسيني آلامي وتزيح عني تلك الهموم...

أصبح صديقي سيف هو باختصار الدنيا التي أعيشها...

توالتْ الأشهر وأنا على هذه الحال، وكنتُ اتّصل بأهلي مرّتين أو ثلاث مِنْ كل شهر... اطمئن على أحوالهم وأحيطهم علماً بآخر أخباري.

علِمتُ أنَّ رغد التحقتْ بكليّة الفنون وأنَّ دانة قد حدّدتْ موعداً لزفافها بعد بضعة أشهر... وأنَّ والدَيَّ يعتزمان تأدية الحج هذا العام...

أما سامر، فقليلاً جداً ما كنتُ أتحدّث إليه حين أتصل ويكون صدفةً متواجداً في المنزل، إذ أنّه كان يعمل في مدينة أخرى...

في الواقع، أنا مَنْ كان يتعمّد الاتصال في أيام وسط الأسبوع أغلب الأوقات.

لقد تمكّنتُ بعد جهدٍ طويل، مِنْ طرد الماضي بعيداً عن مخيلتي، لكنني لا زلتُ احتفظ بصورة رغد الممزّقة موضوعةً على منضدتي قرب سريري - إلى جانب ساعتي القديمة - ألمُّها ثمّ أبعثرها كل ليلة!

حالتي الاقتصادية تحسّنتْ بعض الشيء، واقتنيتُ هاتفاً محمولاً مؤخّراً، غير أني تركتُ هاتف المنزل مقطوعاً عن الخدمة.

أما أوضاع البلد فساءتْ عمّا كانتْ عليه... وأكلتْ الحرب مدناً جديدة... وأصبح محظوراً علينا العبور مِنْ بعض المناطق أو دخول بعض المدن...

في مرات ليست بالقليلة، نتبادل أنا وسيف الزيارة، ونخرج سويةً في نزهات قصيرة أو

مشاوير طويلة، هنا أو هناك...

في إحدى المرات، كنتُ مع صديقي سيف في مشوار عمل، وكنّا نتأمّل مشاهد الدمار مِنْ حولنا...

الكثيرُ الكثير مِنْ المباني المحطّمة... والشوارع الخربة...

مررنا في طريقنا بأحد المصانع، ولم يكن مِنْ بين المباني التي لمستْها يد الحرب... فتذكّرتُ مصنع والدي الذي تدّمر...

قلتُ:

«سبحان الله! نجا هذا مِنْ بين كل هذه المباني المدمّرة! ألا يزال الناس يعملون فيه؟؟».

أجاب سيف:

«نعم! إنّه أهم مصنع في المنطقة يا وليد! ألا تعرفه؟».

«كلا! لا أذكر أنني رأيتُه مسبقاً!».

ابتسم سيف وقال:

«إنه مصنع مواد البناء! مصنع عاطف... والد عمّار... يرحمهما الله!».

دُهِشتُ! فهي المرّة الأولى التي أرى فيها هذا المبنى...! أخذتُ أتأمّله بشرود... ثمّ انتبهتُ لكلمة علِقَتْ في أذني...

«ماذا؟ (رحمهما الله)؟؟».

سألتُ سيف باستغراب، معتقداً بأنّه قد أخطأ في الكلام... قال سيف:

«نعم... فعاطف قد تُوفي أيضاً العام الماضي... رحمه الله».

- رغد -

بين يوم وآخر، يحضر (نوّار) لزيارة دانة أو الخروج معها للعشاء في أحد المطاعم أو للتنـزّه... أو شراء مستلزمات الزفاف وعُش المستقبل!

«إلى أين ستذهبان اليوم؟؟».

سألتُها، وهي ترتدي عباءتها استعداداً للخروج، قالتْ:

«إلى محلات التحف أولاً، ثمّ إلى الشاطئ! سأعود ليلاً!».

قلتُ:

«الشاطئ؟ رائع! كم أشتاق الذهاب إليه!».

قالتْ بمكر:

«تعالي معنا!».

نظرتُ إليها باستهتار ثمّ أشحتُ بوجهي عنها... قلتُ:

«كنتُ سأفعل لو أنّ خطيبك لم يكن ليرافقنا!».

قالتْ بخبث:

«نذهب وحدنا؟ أنا وأنتِ؟؟».
«نأخذ أبي وأمي! ما رأيكِ دانة؟؟ اصرفيه ودعينا نذهب نحن الأربعة!».
«لا تكوني سخيفة!».
وانصرفت عنّي ترتب عباءتها أمام المرآة. قلتُ:
«في كل يوم تخرجين معه! لِمَ لا تتنازلين عن هذا اليوم لنخرج معا؟؟ إنني أشعر بالملل».
قالتْ:
«غداً يعود سامر واذهبي معه حيث تريدين!».
وغداً هو موعد زيارة سامر، الذي يأتي مرّة أو مرّتين مِنْ كل شهر... ليقضي عطلة نهاية الأسبوع معنا. لكن...
لكنني لا أشعر بالحماس للذهاب معه...
حين أُقارن بين وضعي ووضع دانة أشعر بفارقٍ كبير... إنها منذ لحظة ارتباطها تعيش سعادةً وبهجة متواصلتين... وتستمتع بحياتها كل يوم. خطيبها رجلٌ ثري ويغدِق عليها الهدايا والهبات!
كل يوم أذهب أنا للكلية ثمَّ أعود وأقضي وقتاً لا بأس به في الواجبات وفي الرسم، بينما تستمتع دانة بالنزهات والرحلات مع خطيبها المغرور...
وفي أحيان أخرى تقضي ساعات طويلة في التحدث معه عبر الهاتف!.. حين يتصل سامر فإنَّ حديثنا لا يستغرق غير دقائق...
فهل كل المخطوبين مثل دانة عداي أنا؟؟
قلتُ أستفزّها:
«وعلى كلٍ... فخطيبك شخصٌ مغرورٌ وبغيض! لا أعرف كيف تحتمّلين البقاء معه كل هذه الساعات!».
التفتتْ دانة نحوي ونظرتْ إليَّ بخيلاء وقالتْ:
«مغرور؟ وحتى لو كان كذلك! يحقُّ له... فهو أشهر وأغنى لاعب كرة في المنطقة! أما بغيض... فلا تعني شيئاً! فهو رأيكِ المطلق في جميع الرجال!».
وصمتتْ لحظة ثمَّ قالتْ:
«وربما حتى سامر! أنتِ خاليةٌ مِنْ الرومانسية يا رغد! ولا تعرفين كيف تحبّين أو تدلّلين خطيبك!».
وهنا سمعنا صوت جرس الباب، فانطلقتْ دانة مسرعةً تحثني على الخروج مِنْ غرفتها، ثمَّ تقلق الباب... وتغادر...
ربّما نسِيَتْ دانة ما قالتْ حتى قبل أنْ تغادر غرفتها، لكن كلماتها ظلّتْ تدقُّ مسماراً مؤلماً في قلبي لوقتٍ طويل...
أنا فعلاً لا أشعر باللهفة للقاء سامر! لكنه دائماً يشتاق إليَّ... وفي الآونة الأخيرة، بعد أنْ

انتقل إلى مدينة أخرى، صار يعاملني بطريقةٍ أشدّ لطفاً وحرارة كلما عاد.

ذهبتُ إلى غرفتي وأنا متأثرة مِنْ جملة دانة الأخيرة هذه... فهل أنا فعلاً خاليةٌ مِنْ الرومانسية؟؟

وهل بقية الفتيات يتصرّفن مثل دانة؟؟

أنا لَمْ أحتك مباشرةً بصديقةٍ مخطوبة، فأنا أوّل مَنْ خُطِبَتْ مِنْ بين صديقاتي رغم أنني أصغرهن سناً!

أردتُ طرد هذه الأفكار الموجعة عن رأسي، فعمدتُ إلى كرّاساتي... وأقبلتُ على الرسم...

شيءٌ ما دعاني لأنْ أفتّش بين لوحاتي المتراكمة فوق بعضها البعض عن صورة وليد!

لا تزال الصورة كما هي... منذ رحل... لم أملك أي رغبة في إتمام تلوينها...

لستُ مِنْ النوع المتباهي بنفسه، لكن هذه اللوحة بالذات... رائعةٌ جداً!

وليد... له وجهٌ عريض... وجبينٌ واسع... وشعرٌ كثيف... وعينان عميقتا النظرات... وفكٌ عريض منتفخ العضلات... وأنفٌ معقوف حاد وجميل!

إنّه أكثر وسامةً مِنْ نوّار الذي تتباهى دانة به!

ومِنْ سامر المشوّه طبعاً...

لم أكن لأرسم شيئاً مشوّهاً كوجه سامر... إنه لا يصلح عملاً فنياً.

في لقائي الأخير به، عند رحيله ليلاً... بكيتُ كثيراً... ربما أكثر مما بكيتُ يوم علمتُ أنّه سافر للدراسة دون وداعي قبل سنوات...

أوصدتُ الباب ودخلتُ، والعبرات منزلقةٌ بانطلاق على خدي الحزين.

فوجئتُ برؤية والدتي تقف عند النافذة المشرفة على الفناء، والتي تسمح للناظر مِنْ خلالها أنْ يرى البوابة، ومَنْ يقف عند البوابة، وما يحدث قرب البوابة!

لم أعرف لحظتها ما أفعل وما أقول... أصابني الهلع والخرس... أمّي اكتفتْ برشقي بنظرات مخيفة وحزينة في آنٍ واحد، ثمَّ انصرفتْ...

منذ ذلك الحين وهناك شيءٌ ما يقف بيني وبينها... لا أعرف ما كينونته ولا أجله...

في المساء، زارتْني ابنة خالتي نهلة، وطبعاً سارة معها فهي تلازمها كالذيل ليلاً ونهاراً!

كنتُ أرغب في التحدث مع نهلة عن أمور تشغل تفكيري وتحيّرني... وأشياء لا أستطيع التحدّث عنها لشخصٍ آخر... ولكن كيف لي أنْ أصرف هذه الصغيرة المتطفلة؟؟

«سارة... هل تحبّين الذهاب إلى غرفتي والتفرج على رسوماتي؟ يمكنك أيضا رسم ما تشائين!».

«سأذهب حين تذهب أختي».

أوه... كيف لي أنْ أصرفها...؟؟

«إذن... ما رأيكِ بمشاهدة فيلم كوميدي جديد مُدهش... أحضره أبي يوم أمس؟ اذهبي لغرفة المعيشة وتفرّجي مع أمي!».

«سأبقى معكما».
نهلة نظرتْ إليّ نظرة استنتاج، ثمّ قالتْ لشقيقتها:
«عزيزتي سارة... شاهدي الفيلم ونحن سنأتي بعد قليل!».
«سأذهب حين تذهبان».
يا لها مِنْ فتاة مزعجة! ألا أستطيع أنْ أنفرد بصديقتي لبعض الوقت؟؟
قالتْ نهلة:
«لا بأس رغد! فهي لا تكترث لما نقول!... أهناك شيء؟؟».
تردّدتُ، ولكنني بعد ذلك أطلقتُ لساني لقول أمورٍ لم أظن أنَّ سارة ستفهمها... فهي إلى كونها لا تزال صغيرة، غبيةٌ لحدٍ ما!
قلتُ:
«سامر سيأتي غداً!».
قالتْ:
«و...؟؟».
قلتُ:
«سيفتح موضوع زواجنا مِنْ جديد، كما في كل مرة! إنه يريد أنْ نتزوج مع دانة... ويبدو أنَّ والدتي اقتنعتْ بالفكرة وصارتْ تشجِّعني عليها...».
قالتْ:
«وأنت؟؟».
تنهدّتُ ثمّ قلتُ:
«تعرفين... إنني أريد أنْ أنهي دراستي أولاً... و... و... أعرف رأي وليد».
نهلة ترفع حاجباً، وتخفِض آخر... وتميل إحدى زاويتي فمها بمكر!
«وأعرف رأي وليد! وإذا قال وليد: الزواج ممنوع!؟».
قلتُ بسرعة:
«لن أتزوج!».
قالتْ:
«وإن قال: الزواج واجب!؟».
لم أرد... نهلة تأمّلتْني برهة، ثمّ قالتْ:
«رغد! ولماذا تنتظرين رأي وليد؟؟ إنّه ليس وليّ أمركِ أو المسؤول عنكِ!».
استأتُ مِنْ هذه الحقيقة الموجعة... فلطالما كان وليد مسؤولاً عني منذ الصغر... ولطالما قال أنّه لن يتخلّى عني... ولطالما اعتبرتُه أهمّ شخصٍ في حياتي... إلى أنْ غاب...
قلتُ:
«لكنه... لكنه... أكبرنا... وأنا أحترم رأيه كثيرا... و... سأعمل بما يقول».

نهلة قالتْ:

«ألا يزال كما كان في الماضي؟ أذكر أنّه كان طويلاً وقوياً! كان يلعب معكِ كثيراً سابقاً!».

ابتسمتُ، وتوسّعتْ الشعيرات الدموية في وجهي! وقلتُ بخجل:

«إنّه كذلك! لكن... لا مزيد مِنْ اللعب فقد أصبح رجلاً كبيراً!».

قالتْ:

«صحيح! على فكرة هل تزوّج؟؟».

الشعيرات التي كانتْ متفتّحةً قبل ثوان انقبضتْ وخنقت الدماء في داخلها... أيقظتْ جملة سارة في نفسي شيئاً كان نائماً بسلام... قلتُ بارتباك أمحو السؤال وأطرده مِنْ الوجود:

«لا... لا».

قالتْ نهلة:

«إذن لا بد أنّه يفكّر في الزواج الآن! بعدما عاد للوطن واستقرَّ في العمل!».

ثم أضافتْ مداعبة:

«هل تريدين عروساً له؟؟ جميلة وجذّابة ورائعة مثلي!؟».

قلتُ بحنقٍ بدا معه جلياً استيائي مِنْ الفكرة:

«لا تكوني سخيفةً يا نهلة!».

استغربتْ نهلة استيائي هذا، ثمّ قالتْ:

«إنه كبير على أيّة حال! ولا يناسب فتاةً تصغره بعشر سنين!!».

فكرة أخرى - أنْ يتزوّج وليد - رافقتْ الفكرة الأولى - خالية مِنْ الرومانسية - في اللعب بالمضرب والكرة في رأسي طوال الساعات التالية!

قلتُ:

«إنه... لا يفكّر في الإقامة هنا... أتمنى لو نعود إلى بيتنا السابق... معه».

قالتْ:

«ماذا عن خطيبك؟؟ هل سيستقر هو الآخر في المدينة الأخرى؟؟».

«لا أعرف...! عمله هناك... ولا بد له مِنْ البقاء هناك».

«وإنْ تزوجتما؟؟؟ ستنتقلين للعيش معه حتماً!».

لم تعجبني الفكرة!

لا أريد أنْ أبتعد عن أهلي... إنني لا أستغني عنهم... أريد البقاء في بيتهم...

«... سأنتظر رأي وليد».

تقوّس حاجبا نهلة دهشةً وقالتْ ببلاهة:

«رأي وليد؟؟ في أنْ تقيمي مع زوجكِ أو مع والديكِ؟؟».

قلتُ بغضب:

«حمقاء! أعني في أنْ نؤجّل موضوع الزواج لوقتٍ لاحق... فربّما تتغيّر الأوضاع...».

«عليكم أنْ تقرّروا بسرعة! فموعد زواج دانة يقترب! أين هي على فكرة؟؟».

«دانة؟ خرجت كالعادة تتنـزّه مع خطيبها!».

ابتسمتْ نهلة... لكنني أزحتُ ابتسامتها جانباً بسؤالي:

«نهلة... هل يشعر جميع المخطوبين بسعادة مميّزة عندما يتنـزّهون مع بعضهم البعض... أو يتبادلون الهدايا... أو المكالمات الهاتفية؟؟».

طبعا نهلة اندهشت، وقالتْ:

«أكيد! طبعاً!».

صمتُّ لثوان، ثمَّ قلتُ:

«لكنني لا أشعر بشيءٍ كهذا! إنني أتحدّث معه كما أتحدّث معكِ! لا شيء مميّز... ليس كما تكون دانة حين تتحدّث مع خطيبها أو تخرج معه! غاية في السرور!».

دُهِشتْ نهلة بكلماتي هذه... وقالتْ:

«أنتِ... لا تحبينه؟؟».

قلتُ بسرعة:

«بالطبع... أحبّه!».

نظرتْ نهلة نحو سارة البليدة... ثمَّ قالتْ:

«كما تحبُّ دانة خطيبها؟؟».

«لا! كما تحبين أنتِ حسام!».

نهلة عادتْ تسأل:

«ليس كما تحبُّ امرأةٌ رجلاً؟؟».

توتّرتُ مِنْ سؤالها... وبعثرتُ نظراتي فيما حولي... ووقع سهم منها على سارة، والتي كانتْ تنظر إلينا ببلادة وغباء مُزعجين!

قلتُ بعصبية:

«وكيف يُفترض أنْ يكون حبُّ امرأةٍ لرجل؟؟».

قالتْ نهلة بأسى:

«أوه يا عزيزتي! رغد! إنك لا تزالين طفلة!!».

* * *

عادتْ دانة مِنْ سهرتها الخارجية عند العاشرة والنصف... كنتُ أشاهد الفيلم الذي أحضره والدي مؤخراً، وحين دخلتْ غرفة المعيشة رمتْ بحقيبة يدها على المقعد وتهالكتْ عليه بتنهد...

«آه... لِمَ لَمْ تنامي بعد رغد! عادةً ما تنامين باكراً كالدجاجة!».

لم ألتفتْ إليها، وأجبتُ:

«سأتابع الفيلم حتى النهاية».

صمتتْ لحظة، ثمَّ قالتْ:
«سأريكِ شيئاً».
وسحبتْ حقيبتها، ومنها أخرجتْ علبة مجوهرات صغيرة، وفتحتْها لتريني الخاتم الذهبي الرائع الذي بداخلها...
«رائع! كم ثمنه؟؟».
رفعتْ رأسها ونظرتْ إليَّ من طرف عينيها وقالتْ:
«كم ثمنه؟؟ لا أعرف طبعاً، ولكن بالتأكيد باهظ... أهداني إياه خطيبي الليلة! كم هو رائع!».
قلتُ وأنا أتأمل هذه التحفة المبُهرة:
«نعم! رائعٌ بالفعل، هنيئاً لكِ!».
قالتْ دانة:
«حقاً! هل غيّرتِ رأيكِ فيه أخيراً!».
قلتُ:
«الخاتم؟؟».
«بل خطيبي!! يا نبيهة!».
حدّقتُ بها قليلاً ثمَّ قلتُ:
«بغيض ومغرور...!».
ثم أشحتُ برأسي عنها...
وإن كان بغيضاً في عيني، فهو في عينيها رائع... ومميّز!
لم تكترثْ دانة لقولي، وأخذتْ تنقل الخاتم مِنْ إصبعٍ لإصبع بسرور ودلال!
«دانة...».
«نعم؟».
كنتُ أريد أنْ أسألها... وشعرتُ بالخجل... ولزمتُ الصمت!. دانة نظرت إليَّ باستغراب:
«نعم رغد؟؟ ماذا أردتِ القول؟؟».
تردّدتُ قليلاً ثمَّ قلتُ بحياء وبصوتٍ منخفض ونبرة متوترة:
«هل... تحبين نوّار؟».
دُهِشَتْ دانة مِنْ سؤالي، لذا حملقتْ بي وهلة، ثمَّ قالتْ:
«ما هذا السؤال!؟».
ندمتُ لأنني طرحتُه! إنّه موضوعٌ حسّاس لم أجرؤ مِنْ قبل على التحدّث فيه مع أيٍ كان... ولمّا لحظتْ دانة تراجعي الخجِل، قالتْ:
«نعم أحبُه! إنه شريك حياتي...! نصفي الآخر!».
صمتُّ قليلاً ثمَّ سألتْ:

«إذن... كيف تشعرين حين يكون معكِ؟؟».

أنا بنفسي لاحظتُ ذلك... رغم المساحيق التي تغطّي وجهها غير أنَّ اللون الأحمر المتوهج طلى وجهها وهي تجيب على سؤالي:

«أشعر...؟؟... بالحرارة!».

وأشارتْ إلى قلبها بيديها كلتيهما...

الحرارة... في صدري وجسمي كله، هي شعورٌ لم أحس به في حياتي... إلا عندما اقتربتُ مِنْ شخصٍ واحد فقط... هو وليد...

* * *

«وليد! هل فقدتَ صوابكَ!!؟؟».

قال سيف وهو فاغرٌ فاه لأقصى حد مِنْ هول المفاجأة... لقد أخبرتُه بخبر فعلتي الجنونية الأخيرة...

«نعم يا سيف! استقلتُ وانتهى الأمر».

أخذ يهزُّ رأسه ويضرب يداً بالأخرى مِنْ الغيظ والأسف...

«أرجوكَ يا سيف... قُضِيَ الأمر... لم أكن لأستطيع الاستمرار والجميع ينظر إليَّ ويعاملني بهذا الشكل... يحتقرونني ويتحاشون الاقتراب منّي وكأنني وباءٌ خطير».

«وما لكَ ولهم؟ وليد! لم يكن الحصول على هذه الوظيفة بالأمر السهل... لقد تسرّعتَ».

استدرتُ بغضب، وقلتُ بانفعال:

«فليذهبوا بوظيفتهم للجحيم!».

أعرف أنَّ العثور على عملٍ هو مِنْ أكثر الأمور صعوبةً في الوقت الحالي، لكنني ضقتُ ذرعاً بالهمزات واللمزات التي يرمي بها الآخرون عليَّ بقسوة، لكوني قاتل وخرّيج سجون...

كما وأنني سمعتُ بعضهم يذكر صديقي سيف بالسوء بسبب علاقته الوطيدة معي... بقائي في العمل بشركته صار يهدّد سمعته هو... وأنا لم أكن لأرضى عليه بأي أذية...

أليس هو الباقي لي مِنْ الدنيا؟؟

تلا هذا صمتٌ مغدق...

سيف استاء كثيراً جداً مِنْ إقدامي على هذه الخطوة التي وصفها بالتهور... غير أنني كنتُ أراها حلاً لا بد منه.

«ما أنتَ فاعلٌ الآن؟؟».

ابتسمتُ ابتسامة سخرية... وأجبتُ:

«أفتّش مِنْ جديد».

نعم... عدنا للصفر!

لو أنني أتممتُ دراستي، مثلكَ يا سيف، لكنتُ الآن... رجلاً محترماً مُقدّراً... أتولّى إدارة إحدى الشركات كما كنتُ أحلم منذ الصغر...

وفشلي في تحقيق أيٍ مِنْ أحلامي، هو أمرٌ لا يجب أنْ تتحمّل أنتَ مسؤولياته، أو ينالكَ سوءٌ بسبب علاقتك بي.

سيف كان قلقاً... أردتُ أنْ أغيّر الموضوع، فقلتُ:

«أخبرني... ما النبأ الجميل الذي تحمله؟؟».

وكان سيف قد أبلغني بأنّ لديه خبرٌ جميل، عندما وصل إلى بيتي قبل دقائق!

سيف قال:

«لقد... عزمتُ على إتمام نصف الدين!».

فاجأني الخبر، وأسرّني كثيراً، فأمطرتُ صديقي بالتهاني القلبية! إنّه أوّل خبرٌ سعيد أسمعه منذ شهور...

«أخيراً يا رجل! فليبارك الله لكَ!».

«شكراً أيها العزيز... العقبة لكَ! متى يحين دورك؟؟».

دوري أنا! إنّ مثل هذا الموضوع لم يكن ليخطر على بالي!

وهل يفكّر في الزواج رجلٌ خرج مِنْ السجن قبل شهور، وبالكاد بدأ يتنفّس الهواء... وكان وعاد عاطلاً عن العمل؟

وفوق كل هذا... ذو جرحٍ كبير لا يبرأ...

قلتُ:

«قد تمضي سنوات وسنوات قبل أنْ تعبر الفكرة على رأسي مجرّد العبور!».

«لِمَ يا رجل!؟ إننا في السابعة والعشرين! وقتٌ مناسبٌ جداً!».

قلتُ:

«فلأجد ما يعيلني أولاً! كيف لي أنْ أتحمّل مسؤولية إعالة زوجة وأطفال!».

قال سيف:

«إنّكَ تحب الأطفال يا وليد! ألستَ كذلك؟».

«بلى!...».

«ستكون أباً عطوفاً جداً!».

وضحكنا. يمكنني أنْ أضحك بين حلقات سلسة همومي التي مذ بدأتْ لم تنته...

قضيتُ أسابيع أفتّش عن عمل... وفشلتُ. حتّى أقاربي الذين لجأتُ إليهم طالباً الدعم، خذلوني. لو كان سبب دخولي السجن شيئاً آخر، لربّما عاملني الناس بطريقةٍ أفضل... كرهتُ الدنيا وكرهتُ نفسي وكرهتُ كل شيء مِنْ حولي... وبدأتْ نقودي التي جمعتُها خلال الأشهر الماضية تنفذ... وأعود للفقر مِنْ جديد.

تزوّج صديقي سيف بعد ثلاثة أشهر خطوبة... وينعم الآن بحياة جديدة، ويتولّى مسؤوليات أكبر... ولم يعد متفرّغاً لي...

حصلتُ بعد جهد على عملٍ بسيطٍ جداً في أحد المحلات التجارية... لكنني لم استمر

فيه بسبب المشاكل التي واجهتني، لكوني موصوماً بالإجرام والقتل...

أُصِبتُ بإحباطٍ شديد... وأنا أفقد القليل الذي كنتُ قد حصلتُ عليه... وضاقتْ بي الدنيا... كما وداهمني الإعياء والمرض... فقرّرتُ الهروب مِنْ مدينتي إلى مكانٍ ألقى فيه شيئاً مِنْ الاحترام والمودّة.

بعيداً عن السمعة المجروحة... إلى حيث يوجد مَنْ يحبّني ويرغب بوجودي ويتقبّلني على ما أنا عليه مِنْ عيوبٍ ووصم عار... إلى أهلي.

كانتْ شهورٌ عشرة قد انقضتْ منذ رحلت عنهم... كلما اتصلوا بي أو اتصلت بهم، أخبرتهم بأنني في أحسن حال، بينما أنا في أسوئه.

كنتُ جالساً في حديقة المنزل الميتة... أدخّن السيجارة تلو الأخرى... غارقاً في التفكير والهموم... كانتْ الأرض أمامي قاحلةً... لا زرع فيها ولا حياة... تماماً مثل حياتي...

انفث الدخان السام مِنْ صدري... وأفكّر... أأعود إليهم؟؟ أيمكنني ذلك؟؟

أتخيّل نفسي بينهم مِنْ جديد... فتظهر صورة رغد لتحتل منطقة الخيال مِنْ رأسي... فأبعدها وأبعد الفكرة...

«لا... لن أعود».

وأرمي بالسيجارة على الأرض، وأدوسها بحذائي فتندفن تحت الرمال... إلى جانب شقيقاتها... في قبورٍ متجاورة ومزدحمة... لماذا لا أموت أنا مثلها؟؟

إلى متى أستمرُّ في تدخين هذه الأشياء القذرة؟؟ ألا يكفي السجن أنّ لوّث سمعتي وضيّع مستقبلي؟؟ أأترك دروسه ومخلّفاته تلوّث صدري وتفسد صحتي؟؟

أتذكّر قول نديم لي... (لا تدع السجن يفسدك يا وليد).

هل أنا شخصٌ فاسدٌ الآن؟؟... نديم... ليتك معي الآن...

فجأة... تذكّرتُ شيئاً كان غائباً عن مذكرتي تماماً!. يوم وفاته، نديم أوصاني بشيء... طلب مني أنْ أزور عائلته وأطمئن عليهم وأبلّغهم أنّه قد سُجِنَ ظلماً وظلّ على أمل العودة إليهم لآخر العمر.

وقفتُ منفعلاً... يا للأيام! لم يخطر هذا الأمر ببالي مِنْ ذي قبل... وكيف له أنْ يجد فرصةً للظهور فيما تحتلُّ تفكيري أمورٌ أخرى...

ربما وفاءً لذكرى صديقٍ عزيزٍ لطالما كان يدعمني في أسوأ أيام حياتي... أو ربمّا كان فراغاً طويلاً لم أجد معه ما أفعله. أو حتى هروباً مِنْ هذه المدينة وسمعتي المنحطّة فيها. أياً كان الدافع، فقد عزمتُ يومها على زيارة عائلة نديم!

نديم أخبرني بأنّه يملك مزرعةً في المدينة الشمالية، وهذه المدينة بعيدةٌ عن مدينتي الساحلية الجنوبية، وهي أقرب إلى المدينة الصناعية الشمالية، حيث يعيش أهلي...

جمعتُ كل ما أحتاجه وما قد أحتاجه، واستعددتُ للرحيل...

الهدف لم يكن زيارة عائلة نديم تنفيذاً لوصيته التي ماتتْ يوم وفاته، بقدر ما كان الفرار

مِنْ الفشل الذريع الذي أعيشه في هذا المكان.

الآن أدرك لم قرّر والدي الرحيل، ولم لا يفكّر في العودة. لا بد أنّه تعرّض لمثل ما تعرّضتُ له... بسبب جريمتي النكراء...

ذهبتُ لزيارة سيف في مسكنه الجديد، وأبلغته أنني راحل... كان وداعنا مؤلماً لكنه قال:

«في أي وقت... وكل وقت... تشعر بأي حاجة لأي شيء، تذكّر أنني موجود».

ودفع إليّ مبلغاً مِنْ المال قبلتُه على شرط أنْ أردّه له في أقرب فرصة... ولا أعلم كم تبلغ المسافة بيني وبين هذه الفرصة!

أقفلتُ أبواب المنزل الكئيب... وتركتُ الذكريات القديمة سجينة... تغطُّ في سبات أبدي...

بما فيها صندوق الأماني المخنوق، والملقى بلا اهتمام عند إحدى زوايا الغرفة. إن كُتِبَ لي أنْ أعود يوماً... فسأفكّر في فتحه!

انطلقتُ مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه... متجهاً إلى المدينة الزراعية شمالاً. لم أكن قد زرتُها في حياتي مِنْ قبل، لكنني أعرف أنَّ الطريق إلى المدينة الصناعية يؤدي إليها، وأنها لا تبعد عن الأخيرة إلا قليلاً.

وصلتُ إلى المدينة الصناعية... وشوقي سحبني نحو بيت عائلتي سحباً... كيف لي أنْ أعبر مِنْ هنا... ثمّ لا أمرُّ لألقي ولو نظرةً عابرةً على أهلي..؟؟

كان الوقت عصراً... أوقفتُ سيارتي إلى جانب سيارة أبي، والسيارة الأخرى التي تبدو جديدة وعلى آخر طراز!

- رغد -

مؤخراً صار سامر يأتي إلينا مرةً واحدة في الشهر... أصبح يعمل عملاً مضاعفاً وقلّتْ حتى اتصالاته. وحين جاء البارحة، طلبتُ منه أنْ يصطحبني إلى الشاطئ هذا اليوم!

طبعاً سامر فرح كثيراً بهذا الطلب... وأنا كنتُ أريد أنْ أرفّه عن نفسي وأقلّد دانة! إنها دائماً تُشعِرني بأنّني لا أصلح امرأة!

الجميع مِنْ حولي يعاملونني على أنني لا أزال طفلة!

إنني الآن في الثامنة عشر... وأحسُّ بأنني خلال الأشهر الماضية كبِرتُ كثيراً!

لقد أخذتُ استخدم المساحيق بكثرة مثلها، وأشتري الكثير مِنْ الحلي والملابس... بالرغم من أنني لا أجهّز للزفاف مثلها!

فكرة الزواج الآن لم أقتنع بها... ولسوف أنتظر حتى أنهي دراستي وأكتسب صفات المرأة التي تعرف كيف تحب وتدلّل شريك حياتها!... أليس هذا هو المطلوب؟؟

«هيا رغد! الوقت يمضي!».

سامر يناديني، وهو يقف خلف الباب، ينتظر خروجي... أجبتُ وأنا ارتدي شرابي ثمَّ حذائي الجديد ذا الكعب العالي، على عجل:

«قادمة... لحظة».

وفي ثوان كنتُ أفتح الباب. حين صرتُ أمامه راح يحدّق بي باستغراب، ثمَّ قاد بصره إلى حذائي!

«رغد! لقد طلتِ بسرعة! لم تكوني هكذا البارحة!».

ابتسمتُ وقلتُ وأنا أظهر حذائي الطويل مِن خلف عباءتي:

«إنها الموضة!».

سامر ضحك وقال:

«ولكن يا عزيزتي هل ستسيرين بحذاء هكذا على الشاطئ؟؟».

«لا يهم! أنا أريد أنْ أظهر أطول قليلاً حتى لا يظنني الناس طفلة!».

«كما تشائين! هيّا بنا».

وخرجنا، ومررنا بالمطبخ حيث وضعتُ سلّة صغيرة تحتوي بعض الحاجيات، فحملها سامر وهممنا بالانصراف... وإذا بدانة تقول:

«هل آتي معكما؟؟».

أنا وسامر تبادلنا النظرات. طمّاعة! ألا يكفيها أنها تخرج مع خطيبها كل يوم فيما أنا جالسة وحيدة في المنزل؟؟ قلتُ:

«لا! إنها رحلة خاصة!».

سامر ابتسم بخجل، ودانة نظرتْ إليَّ مِنْ طرف عينها مع ابتسامةٍ خبيثة أعرفها جيداً... وأعرف ما تعنيه منها! تجاهلتُها وسرتُ مبتعدةً...

«انتبهي لئلا تنـزلقي زرافتي!».

وأخذتْ تضحك!

قلتُ بحنق:

«ليس مِنْ شأنكِ».

وخرجتُ مسرعةً. دانة تتعمّد التعليق على أي شيء يخصّني... ودائماً تعليقها عنه يوحي بعدم رضاها أو سخريتها منه! منذ كنّا صغاراً وهي تترصّد لي!

غير أنها تشعر بالغيرة مِنْ طولي الذي يسمح لي بارتداء أحذية كهذه، وهي محرومة منها!

خرجنا إلى الفناء الخارجي وسامر يبتسم بسرور! حتى وإنْ كانتْ نظارته السوداء الكبيرة تخفي عينيه... كنتُ أعرف أنه يحدق بي!

أعتقد أنّه سعيد جداً... السعادة المميّزة... التي لم أذقْ لها أنا طعماً حتى الآن...

فيما نحن نقترب مِنْ الباب، قُرِعَ الجرس! تقدّم سامر وفتحه... وتوقّفتْ الكرة الأرضية

عن الدوران!

أعتقد أنَّ شهاباً قد ارتطم بها... هنا خلف هذا الباب! شعورٌ مفاجئ... واصطدامٌ مجلجل... وحرارةٌ محرِقة شاوية... وحممٌ... وضبابٌ... واختناقٌ... وارتجافٌ... وعرقٌ... وذهولٌ... كلها مجتمعة انبثقتْ فجأةً مِنْ عند الباب واجتاحتني...

هل أصدّق عيني!؟

هل يقف أمامي المارد الناري الضخم المرعب... متمثّلاً في صورة... وليد؟؟؟

هتف سامر بذهول وبهجة عارمة:

«أخي وليد!».

وتعانقا عناقاً طويلاً... يا لها مِنْ مفاجأة مذهلة! اعتقد أنّه كان علي الأخذ بنصيحة سامر وتغيير حذائي... إنني أوشك على الانزلاق! لماذا فقدتُ توازني بهذا الشكل؟؟

بعد لقائهما الحميم... استدارا نحوي...

حينما وقعتْ عيناه على عيني، طردهما بسرعة وغضّ بصره... وقال بهدوءٍ لا يتناسب والحمم والبراكين والانفجار والنيران الذي تولّدتْ لحظه ظهوره مِنْ فتحة الباب:

«كيف حالكِ صغيرتي؟».

لقد حاولتُ أنْ أحرّك لساني لقول أي شيء... لكن بعد احتراقها، فإنَّ كلماتي قد تبخّرتْ وصعدتْ للسماء!

طأطأتُ رأسي للأرض خجلاً... حين عبرتْ ذكرى لقائنا الأخير سريعةً أمام عيني!

الرجلان يقتربان... رفعتُ رأسي فإذا بعينيه تطيران مِنْ عيني إلى الشجرة المزروعة قرب الباب الداخلي... سمعتُه يقول:

«ألا يبدو أنها كبُرتْ!؟».

التفتُّ إلى الشجرة... صحيح... لقد كبُرتْ خلال الشهور الطويلة التي غاب فيها وليد عنا!

لكني سمعتُ سامر يضحك ويقول:

«إنّه الكعب!».

أدركتُ أنّه كان يقصدني أنا!

قال وليد:

«أكنتما... خارجين؟؟».

قال سامر:

«أوه نعم... لكن يمكننا تأجيل ذلك لما بعد... تعال للداخل ستطير أمي فرحاً!».

قال وليد:

«أرجوكما امضيا إلى حيث كنتما ذاهبَين! إنني سأبقى في ضيافتكم فترة مِنْ الزمن!».

مدهش! عظيم!

وأقبلا نحو الباب الداخلي، ودخلنا نحن الثلاثة. كانت مفاجأةٌ مذهلة أحدثتْ في بيتنا

بهجةً لا توصف... عشر شهور مضتْ... وهو بعيد... لا يتّصل إلا قليلاً... وحين يتّصل يتحدّث مع الجميع عداي... وإنْ تحدّث معي صدفة، ختم جُمَله المعدودة بسرعة...

لكنه الآن موجودٌ هنا! أنا فرحةٌ جداً!

علمنا في وقتٍ لاحق أنه مرَّ منا قبل ذهابه إلى المدينة الشمالية لأمرٍ خاص...

«كم ستظل هناك؟؟».

سألته أمي، فأجاب:

«لا أعرف بالضبط، ربمّا لبعض الوقت... سأفتّش عن عملٍ هناك فقد أجد فرصة أفضل!».

دانة قالتْ:

«وماذا عن عملكَ في المدينة؟؟».

وليد اضطربتْ تعبيرات وجهه، وقال:

«تركتُه».

ثم غيّر الموضوع لناحية أخرى...

فجأة سألني:

«كيف هي الكلية؟؟».

أنا تلفتُّ مِنْ حولي بادئ الأمر... كأنني أود التأكُّد مِنْ أنَّ وليد يتحدّث إليَّ أنا! بالطبع أنا! لا يوجد مَنْ يدرس في الكلية غيري الآن! قلتُ بصوت خفيف خجل:

«الحمد لله... تسير الأمور على ما يرام».

قال سامر:

«إنها مجتهدة ونشيطة! ومغرمة بالفن أكثر مِنْ أي شيءٍ آخر! حتى منّي!».

الجميع أخذوا يضحكون... سوانا أنا ووليد... أنا لم تعجبني هذه الجملة... أمّا وليد... فلا أعرف لم اكفهر وجهه هكذا...؟؟

قالتْ دانة وهي ترمقني بنظرة ساخرة:

«إذن فقد أفسدتِ رحلتكِ زرافتي الطويلة!».

واستمرّتْ في الضحك... أنا استأتُ أكثر... وليد سأل دانة:

«أية رحلة؟».

أجابت:

«كانا يودّان الذهاب للشاطئ! سامر لا يأتي غير مرّة في الشهر وخطيبته متلهفةٌ لقضاء وقت ممتع ومميّز معه! إنها تغار مني!».

ورفعتْ رأسها بتباهٍ... ربّما كانتْ تقصد مداعبتي، لكنني حملتُ كلماتها محمل الجد... ووقفتُ فجأة، واستأذنتُ للانصراف...

ذهبتُ إلى غرفتي مستاءة... وغاضبة... ومجروحة الإحساس...

* * *

قلتُ:

«يبدو أنها تضايقتْ...».

فجميعنا لاحظ ذلك... أما زالتْ دانة على ما كانتْ عليه منذ الطفولة؟؟ تتعمّد مضايقة رغد بشكلٍ أو بآخر؟؟ نظرتُ إلى شقيقتي باستياء... وكذلك كان سامر ينظر إليها... قالتْ:

«كنتُ أداعبها فقط!».

سامر قال:

«لكنّها انزعجتْ منكِ! سأذهب إليها».

وغادر مِنْ فوره... أنا طبعاً لم أملك مِنْ الأمر مْنْ شيء... غير تبادل النظرات مع أبي ثمّ أمّي... وهذه الأخيرة بدتْ نظراتها عميقة وغامضة. أخيراً قلتُ لدانة:

«أحقاً كانا يودّان الذهاب إلى الشاطئ؟ أنا آسف أنْ حضرتُ وأفسدتُ مشروع نزهتهما!».

«لا تكترث وليد! فهي فكّرتْ في الذهاب فقط لأنني أوحيتُ لها بأنْ تذهب! إنها لا تحب الخروج مِنْ المنزل خصوصاً للأماكن العامة».

التزمتُ الصمت ولم أعلّق على جملتها الأخيرة... قالتْ:

«ما رأيكم أنْ نذهب جميعا غداً لنزهة عند الشاطئ! كم سيكون ذلك رائعاً!».

نزهة عند الشاطئ؟ يبدو حلماً! إنني لم أقم بكهذا نزهة منذ سنين! ويبدو أنَّ الفكرة قد راقتْ للجميع...

سألتُ:

«وماذا عن نوّار؟؟».

قالتْ:

«في البلدة المجاورة! إنها مباريات حاسمة! ألا تتابع الأخبار؟؟».

في الواقع، أخبار كرة القدم ليستْ مِنْ أولويات اهتماماتي!

تحدّثنا عن أمورٍ عدّة... وشعرتُ براحةٍ كبيرة... هنا حيث أحظى باهتمام أناسٍ يحبونني ويعزونني... مهما كان حالي...

أنا أرغب في العيش مع أهلي فقد سئِمتُ الوحدة... ألا يكفي أنّني حُرِمتُ منهم كل هذه السنين؟؟

خرجتُ مِنْ كنفهم وأنا فتىً مراهق... مليءٌ بالحماس والحيويّة ومقبلٌ على الحياة... طموحٌ وماضٍ في طريق تحقيق أحلامه...

وعدتُ إليهم... وأنا رجلٌ كئيبٌ محبطٌ مثقلٌ بالهموم... فاقد الاهتمام بأي شيء... موصومٌ بالإجرام... صقلني الزمن وشكّلتني الأقدار...

لكنهم لا زالوا يحترمونني...

بعد مدّة، عاد سامر لينضمّ إلينا... لم تكن رغد معه. كنتُ أريد أنْ أسأله عنها، ولم أجرؤ! إنها لم تعد طفلتي... لم يعد لي الحق في الاهتمام بها...

«إذن فتلك السيارة الرائعة في الخارج هي لكَ يا سامر!».
سألتُه، فأجاب:
«نعم! اشتريتُها مؤخراً... ما رأيكَ بها؟؟».
«مظهرها رائع!».
«ومزاياها كذلك! كلّفتني الكثير!».
مقارنةً بسيارتي القديمة فإنَّ أي شيء في سيارة سامر سيبدو مدهشا!... إذن... فأحوال أخي المادية جيدة...
كم أبدو شيئاً صغيراً أمامه... كم خذلتُ والديَّ اللذين كانا في الماضي... يعظمّان مِنْ شأني ويتوقّعان لي مستقبلاً مشرّفاً...
شعورٌ جديد تولّد هذا اليوم، ينفّرني مِنْ فكرة البقاء هنا...
ففي الوقت الذي يتمتّع فيه سامر بعمل جيّد ودخلٍ وفير ومستقبلٍ مضمون... افتقر أنا لكل شيء... حتى رغد... أصبحتْ له...
ألمٌ شديدٌ داهمني في معدتي هذه اللحظة، كان يتكرّر عليَّ في الآونة الأخيرة ولكنني لم أزر أي طبيب...
استمرَّ الألم فترةً طويلة ولم أشعر معه بأي رغبة لتناول الطعام المعد على مائدة العشاء... لذا ذهبتُ إلى غرفة شقيقي ناشداً الراحة والاسترخاء.
في صباح اليوم التالي أردتُ الذهاب إلى المطبخ حيث يجلس الجميع... قبل دخولي تنحنحتُ وأصدرتُ صوتاً مِنْ حنجرتي حتى أثير انتباههم لوصولي، اقصد انتباه رغد لوصولي...
«تفضّل بُنَي».
قالتْ أمي... فدخلتُ وأنا حذرٌ في نظراتي... لم أكن أريد أنْ أراها... لكنني رأيتُها!
«صباح الخير جميعاً».
ردوا تحية الصباح وطلبوا مني الجلوس إلى مائدة المطبخ الصغيرة التي يجتمعون حولها.
«تعال وليد! إننا نخطّط لرحلةٍ اليوم! هل تتحمّل الرحلة أم أنك لا تزال متعباً؟؟».
التفتُّ إلى دانة التي طرحتْ السؤال، ولم يكن بإمكاني منع عيني مِنْ رؤية رغد التي تجلس إلى جوارها... كم أنا مشتاق لأن...؟؟...
«أحقاً قرّرتم ذلك؟ رائع!».
أمي قالتْ وهي تشير إلى المعقد الشاغر:
«تعال عزيزي... أعددتُ فطوراً مميزاً مِنْ أجلكَ!».
نظرتُ باتجاههم، لقد كانوا جميعاً ينظرون إليَّ، بلا استثناء... قلتُ معتذراً:
«سـ... أذهب إلى غرفة المعيشة».
وانسحبتُ مِنْ المطبخ. وافتْني أمّي بعد قليل إلى غرفة المعيشة تحمل أطباق الفطور...
«شكراً...».

ابتسمتْ أمّي، وبدأتُ أنا في تناول وجبتي بهدوء، بينما هي تراقبني!

«أمّي... أهناك شيء؟؟».

سألتها بحرج، قالتْ بابتسامة:

«لا عزيزي... فقط أروي ناظري برؤيتك...».

شعرتُ بالطعام يقف في بلعومي... برؤية ماذا تودّين يا والدتي الارتواء؟؟ برؤية الخذلان والفشل؟؟ الحطام والبقايا؟؟ برؤية رجلٍ موصوم بالجريمة؟؟

كم خذلتُك!كم كنتِ فخورةً بي في السابق! إنني الآن شيءٌ يثير النفور والازدراء في أعين الجميع...

«الحمد لله».

حمدتُ ربي، ووضعتُ الملعقة جانباً...

«لِمَ توقّفتَ! ألم يعجبك؟؟».

«بلى أمّاه... لكني اكتفيتُ».

«عزيزي سأخرج إنْ أزعجكَ وجودي... أرجوكَ أتم وجبتكَ».

«لا يا أمي، لقد اكتفيتُ والحمد لله».

أمي بعد ذلك، عادتْ بالأطباق إلى المطبخ، ثمَّ أقبل الجميع إلى غرفة المعيشة وحاصروني بنظراتهم... وأسئلتهم حول أموري... أنا كنتُ اكتفي بإجابات مختصرة... فلا شيء فيما لدي يستحق الذكر والاهتمام... وكالبقية كانتْ رغد تتابعني بعينيها وأذنيها، ولكن في صمت...

«ما رأيكَ بتجربة سيارتي يا وليد! لنقم بجولة قصيرة!».

بدتْ فكرة ممتازة ومُنقِذة، فوافقتُ فوراً ونهضتُ مع سامر، وخرجنا...

- رغد -

«هل غضبتِ مني أمس حقاً! أنا آسفة يا رغد! كنتُ أمازحك!».

نظرتُ إلى السقف وقلتُ:

«حسناً، انتهى الأمر الآن».

ثمَّ إليها وأضفتُ:

«ولكن لا تنعتيني بسخافاتكِ ثانيةً... خصوصاً أمام وليد».

«وليد؟؟».

اضطربتُ... قالتْ:

«تعنين سامر!؟».

قلتُ:

«وليد أو سامر أو أي كان... أمام أيٍ كان!».

وأشحتُ بوجهي بعيداً عنها، فعادتْ تبرد أظافرها بالمبرد وتغنّي!

كنا نجلس في المطبخ، وللمطبخ نافذةٌ مطلّة على ساحةٍ خارجية خلفية تنتهي إلى المرآب. مرآب منزلنا مفتوحٌ للداخل مِنْ ثلاث جهات، ويسدُّ جهته الخارجية بوابة كهربائية...

أقبلتْ أمّي تحمل سلة الملابس المغسولة ودفعتْ بها إليّ:

«رغد... انشريها على الحبال».

أوه... يا لعمل المنزل الذي لا ينتهي!

أردتُ أنْ أعترض وأوكّل المهمّة إلى دانة، التي تجلس أمامي تبرد أظافرها بنعومة!

«انشريها أنتِ يا دانة!».

هزّتْ رأسها اعتراضاً، فهممتُ أنْ أتذمّر!

لكني لمحتُ مِنْ خلال النافذة بوابة المرآب تنفتح، وأدركتُ أنهما قد عادا! وبسرعة ابتلعتُ جملة التذمّر قبل أنْ أتفوّه بها وقلتُ متظاهرةً بالاستسلام:

«حسناً... لا تؤذي أظافركِ! سأنشرها أنا!».

وحملتُ السلّة، وخرجتُ إلى الفناء الخلفي... وليد ركَن السيارة في المرآب ثمّ خرج منها هو وسامر... وهاهما الآن يُقْبِلان باتجاهي... سامر نزع نظارته السوداء... وسارا متوازيين جنباً إلى جنب يسبقهما ظلاهما... ويدوسان عليهما...

وليد... بطوله وعرضه وبنية جسده الضخم... والذي اكتسب عدّة أرطال مذ لقائي الأخير به قبل شهور... زادتْ وجهه امتلاءً وجسده عظمةً... وكتفيه ارتفاعاً... وصار يشغل حيزاً محترماً مِنْ هذا الكون ويفرض وجوده فيه!

يخطو خطاً أكاد أسمع صوت الأرض تتألم منها!

وسامر... بجسمه النحيل... وقوامه الهزيل... ووجهه الطويل... المشوّه... وخطاه الهادئة البسيطة... وأنظاره الخجلة التي غالباً ما تكون مدفونة تحت الأرض...

شيءٌ ما أحدث في نفسي توتّراً وانزعاجاً...

إنهما مختلفان...

لماذا تنجرف أنظاري لا إرادياً نحو وليد؟؟؟ لماذا يشدّني التيار إليه هو؟؟

حين صارا أمامي مباشرةً، توقّف سامر وقال:

«أأساعدكِ؟؟».

بينما تابع وليد طريقه مروراً بي... ثمّ ابتعد دون أنْ ينظر إليّ... لكني كنتُ أراقبه... توقّف برهةً واستدار ماداً يده نحو سامر قائلاً:

«المفتاح».

مفتاح السيارة كان يسبح في كفّه كسمكة في البحر!

تناول سامر المفتاح منه، ثمّ أخذ يساعدني في نشر الملابس على الحبال... في الحقيقة قام هو بالعمل... فأنا كنتُ شاردةً وسارحة أفكر...

هل هذا هو شريك حياتي حقاً؟؟ لماذا عليَّ أنا أنْ أتزوّج رجلاً مشوّهاً؟؟

لقد شغلتْ الفكرة رأسي حتى ما عدتُ بقادرةٍ على التركيز في شيءٍ آخر... هل حقاً سأتزوّج سامر؟؟

كم كانا متباينين... وهما يسيران جنباً إلى جنب...

في وقت الغذاء، لم أساهم في إعداد المائدة ووافيتُ البقية متأخرةً بضع دقائق. أتدرون ماذا حدث عندما دخلتُ غرفة المائدة وجلستُ على مقعدي المعهود؟؟

قام وليد... وغادر الغرفة!

تلوّتْ معدتي ألماً حين رأيتُه يذهب... إنّه لا يريد أنْ يجلس معي حول مائدة واحدة!

الجميع تبادلوا النظرات وحملقوا بي. أمي تبعتْه، ثمّ عادتْ بعد أقل مِنْ دقيقة وقالتْ:

«رغد... خذي أطباقكِ إلى المطبخ».

صُدمتُ واهتزَّ وجداني... وشعرتُ بالإهانة... وبأنني أصبحتُ شيئاً لا يرغب وليد في وجوده... شيئاً يزعجه... ويتحاشى اللقاء به... نعم فأنا ابنة عمّه التي كبُرتْ وأصبحتْ... شيئاً محظوراً...

رفعتُ أطباقي وذهبتُ إلى المطبخ شاعرةً بالإهانة وبِالحزن المرير...

بعد قليل أتتْني دانة تحمل أطباقها هي الأخرى:

«رغد! ولم هذا الوجوم أيتها الحمقاء!».

لم أعرها أذنا صاغيةً، فقالتْ:

«إنّه يشعر بالحرج والخجل! تعرفين كيف هو الأمر! هذا مِنْ حُسْن الأدب!».

قلتُ بعصبيّة:

«بل مِنْ قلّة الذوق! أَلَمْ أكن معكم في المرّة الماضية؟».

قالتْ مبرّرة:

«ربمّا لم يكن آنذاك قد اعتاد فكرة أنكِ... كبرتِ!».

ليتَني لم أكبر! تركتُ أطباقي غير ملموسة وخرجتُ مِنْ المطبخ متوجّهة إلى غرفتي، ودانة تشيعني بنظراتها...

في الغرفة... تأمّلتُ صورة وليد التي رسمتُها قبل شهور... وأخذتُ أخاطبها وأعاتبها وأبثّها شكواي ومشاعري...

وفي العصر، أتتني دانة...

«ألم تستعدي بعد؟ سننطلق الآن!».

«إلى أين؟؟».

«أوه رغد هل نسيتِ! إلى الشاطئ كما اتفقنا!».

بالفعل كنتُ قد نسيتُ الفكرة... وبالرغم مِنْ أنني كنتُ مسرورةً جداً بها مسبقاً ألا أنها الآن... لا تعجبني!

«لا أريد الذهاب».

حملقتْ دانة بي وقالتْ:

«عفواً! ألم تكوني أنتِ المشجّعة الأولى!؟ هل ستبقين في البيت وحدك؟؟».

«هل سيذهب الجميع؟؟».

«بالطبع! إنهم في انتظارنا فهيا أسرعي!».

وذهبتْ إلى غرفتها تستبدل ملابسها.

أنْ أبقى وحدي في البيت هي فكرةٌ غير واردة... لم يكن أمامي إلا الذهاب معهم. توزّعنا على سيارتَي أبي وسامر...

جلس وليد على المقعد المجاور لسامر، وأنا خلفه، ودانة إلى جانبي، وتركنا والديّ معاً في السيارة الأخرى...

وليد وسامر كانا يتبادلان الأحاديث المختلفة تشاركهما دانة، أمّا أنا فبقيتُ صامتة... أراقب واستمع... وأشعر بالألم...

عندما وصلنا، فرشنا بساطاً كبيراً ووضعنا أشياءنا وجلسنا عليه، غير أنَّ وليد ظلَّ واقفاً... ثمَّ ابتعد... وسار نحو البحر...

هل تعرفون كم دقيقة في الساعة؟؟

ستون طبعاً!

وهل تعرفون كم مرّة في الساعة فكّرتُ به؟

ستون أيضاً...

وهل تعرفون كم ساعة بقينا هناك؟؟

ست ساعات!

هل أحصيتم كم (وليد) جال برأسي خلال الرحلة؟؟

الثلاثة، أبي ووليد وسامر ذهبوا للسباحة، أمّي تصفُّ قطع اللحم في الأسياخ ودانة تساعدها... وأنا، معدتي تئن!

«رغد! لم لا تبتلعين أي شيء ريثما يجهز العشاء؟؟ لَمْ تُضرم النار بعد وسنستغرق وقتاً طويلاً!».

نظرتُ إلى دانة وقلتُ:

«لِمَ لا تسرعان؟».

«لا يزال الوقت مبكراً! أنتِ مَنْ فوّت وجبة الغداء!».

لقد كنتُ جائعةً بالفعل! وفتّشتُ في السلاّت فلم أجد شيئاً يستحق التهامه حتى يجهز طعام العشاء المشوي!

نظرتُ مِنْ حولي فرأيتُ مقصفاً صغيراً على مقربة منا...

«أريد الذهاب إلى هناك!».

قالتْ دانة:

«اذهبي!».

«تعالا معي!».

ابتسمتْ دانة ابتسامتها الساخرة التي تعرفون وقالتْ تغنّي:

«نعامتي الصغيرة... تخشى مِنْ الظلام... وترتجف خوفاً... مِنْ فئرانٍ نيام!».

وهو مطلع أغنية للأطفال! غضبتُ منها فاسترسلتْ في الضحك... تجاهلتُها وخاطبتُ والدتي:

«تعالي معي...».

أمّي مدّتْ يديها الملطختين بعصارة اللحم، تُريني إيّاهما وتقول:

«فيما بعد رغد».

نظرتُ نحو الشاطئ فوجدتُ وليد يجلس على أحد المقاعد... ووالدي وسامر لا يزالان يسبحان... التفتُّ إلى دانة وقلتُ:

«دعينا نقترب مِنْ الشاطئ... أريد أنْ أبلل قدمي!».

دانة قالتْ:

«أنا لا أريد! اذهبي أنتِ».

«لا أريد الذهاب وحدي».

وعادتْ تغني:

«نعامتي الصغيرة... تخشى مِنْ الظلام!!».

أصبحتْ لا تطاق...! وأمّي منهمكةٌ في إعداد أسياخ اللحم...

«اذهبي رغد... إنهم هناك! اذهبي عزيزتي...».

قالتْ أمي مشجّعة إياي. لم يكن هناك الكثيرون على مقربةٍ منا... ولكنني ترددتُ كثيراً... في النهاية أقنعتُ نفسي بأنهم قريبون مِنْ الساحل، كما أنَّ وليد يجلس هناك... ولا داعي لأي خوف...

سرتُ نحوه وأنا أحسُّ بنظرات أمي تتبعني... فهي تريد لي التخلّص مِنْ خوفي المفرط... مِنْ أماكن لا تستوجب أي خوف أو حذر...

كانتْ أمواج البحر تتلاطم بحرية... ونسمات الهواء باردة منعشة تغزو صدري الضائق منذ ساعات... فتفتح شعبه وتوسعه... اقتربتُ مِنْ وليد... ولم يشعر بي...

تجاوزتُه نحو الماء... فلم أحس بحركة منه... التفتُّ فرأيتُه مغمض العينين، وربما نائم!

سمحتُ للماء البارد بتبليل قدمي... وشعرتُ بانتعاش!

لوّح سامر لي... فشعرتُ بأمان أكثر وتجرأتُ على خطو خطوتين يميناً ويساراً... إلا أنني لم ابتعد أكثر مِنْ ذلك... لم أخرج عن الحيز الذي يحيط بوليد ويشعرني بالطمأنينة...

والآن تجرأتُ على خطوةٍ أكبر... وجلستُ على الرمال المبللة ومددتُ يدي لألامس

الأمواج...

كان شعوراً رائعاً!

أقبل مجموعة مِنْ الأطفال بألعابهم وأطواق نجاتهم، وبدؤوا يلعبون بمرح... كنتُ أراقبهم بسرور!

ليتَني أعود صغيرةً لألهو معهم!

التفتُّ للوراء... إلى وليد... استعيد ذكريات ظلّتْ عالقةً في ذاكرتي...

كان وليد يلاعبني كثيراً حينما كنتُ صغيرة! وفي المرات التي نقوم فيها برحلة إلى الشاطئ... كان يبقى حارساً لي ولدانة!

عدتُ بنظري للأطفال... أتحسّر!

يبدو أنَّ أصواتهم قد أيقظتْ وليد مِنْ النوم... سمعتُ صوته يتنحنح ثمَّ يتحرك، استدرتُ للخلف فوجدتُه يقف وينظر إلى ما حوله...

وليد تحرك مقترباً مِنْ البحر... فنهضتُ بسرعة وقلتُ:

«إلى أين تذهب؟؟».

وليد توقّف، ثمَّ... قال:

«سأسبح...».

قلتُ:

«انتظر... سأعود لأمي...».

في نفس اللحظة أقبل سامر يخرجَ مِنْ الماء نحو اليابسة...

«وليد... تعال يا رجل! يكفيك نوماً!».

قال سامر، فردَّ وليد:

«أنا قادم... لكن ألا يجب أنْ نُشعِل الجمر الآن؟؟».

«لا يزال الوقت مبكراً!».

والتفتَ سامر إليَّ وقال:

«رغد أخبري أمّي بأننا سنقضي وقتاً أطول في السباحة!».

قلتُ:

«حسناً!».

بينما تصرخ معدتي: (كلا)!

سامر خرج مِنْ الماء، وصار واقفاً إلى جوار وليد... وأدّى بعض التمارين الخفيفة... التفتُّ إلى ناحية البساط الذي نفترشه، وخطوتُ متجهةً إليه...

مجموعة مِنْ الناس كانوا يلاحقون كرة قدم... فيضربها هذا ويركلها ذاك... يتحركون في طريقي...

وقفتُ في منتصف الطريق لا أجرؤ على المضي قدماً... التفتُّ إلى الوراء فوجدتُ

الاثنين يراقباني...

وإلى حيث تجلس أمي وأختي... فإذا بهما أيضا تراقباني...

الآن... تدحرجتْ الكُرة نحوي واقتربتْ مِنْ قدمي... وأقبل اللاعبون يركضون نحوها...

وصل إليّ أحدهم وقال:

«معذرةً يا آنسة».

أصبتُ بالذعر... فجأة...

خطوةٌ للوراء...

ثم خطوةٌ أخرى...

ثم أطلقتُ ساقي للريح راكضةً باضطراب وفزع...

إلى حيث جرفني التيّار... نحو وليد...!

الحلقة الثامنة عشر

القرار الأخير

- وليد -

أفقتُ مِنْ غفوتي القصيرة...

كنتُ أجلس على أريكةٍ بمحاذاة الشاطئ، تتدلّى قدماي في مياه البحر وتعانقان أمواجه الراقصة...

الهواء كان منعشاً جداً والبحر غاية في الجمال... منظرٌ لم تره عيناي منذ سنين. إنها المرة الأولى منذ عشر سنين، التي يبتهج فيها صدري وأنا بين أهلي وأحبابي...

أصوات مجموعةٍ مِنْ الأطفال تغلغلتْ في أعماق أذني وأيقظتْني مِنْ راحتي النادرة.

ما إنْ فتحتُ عينيَّ الناعستين حتى تلقّتا منظراً جعلني أقف منتصباً فوراً!

كانتْ رغد... صغيرتي الحبيبة... خطيبة أخي الوحيد... تجلس على الرمال المبلّلة تعبث بالماء... إلى جواري تماماً!

نهضتُ وقد أصابني الروع!... وسرعان ما هبّتْ هي الأخرى واقفةً، تنظر إليَّ...

وجّهتُ سهام بصري إلى البحر... ليبتلع أي شعور يفكّر في الاستيقاظ في داخل قلبي... وخطوتُ مبتعداً عنها.

استوقفتْني، فأخبرتُها بأنّني ماضٍ للسباحة فقالتْ بسرعة:

«انتظر! سأعود لأمي...».

لم أعرف ما إذا كانتْ تقصد مني مرافقتها أو مراقبتها تحديداً، غير أنها حين سارتْ مبتعدةً بقينا أنا وسامر - والذي خرج مِنْ الماء للتو ووقف إلى يساري لا يفصلني عنه غير شبرين - نراقبها وهي تبتعد...

وحين ظهر فتىً في طريقها يريد أخذ كرة القدم التي تدحرجتْ منه نحوها، اضطربتْ صغيرتي... واستدارتْ نحونا... وأقبلتْ مسرعةً وأمسكتْ بذراعي اليمنى واختبأتْ خلفها!

أنا طبعاً وقفتُ كالجدار لا أحسّ بشيءٍ ممّا حولي ولا أعرف ماذا يحدث وماذا علي أنْ أفعل!

أردتُ أنْ أسحب ذراعي لكنها غرستْ أظافرها بي وآلمتني...

الفتى ذاك كان يحمل الكرة وينظر بتعجّب نحونا... وأمّي ودانة أيضاً تنظران بتعجب...

أما النظرات التي لم أعرف ما طبيعتها هي نظرات أخي سامر...

«صغيرتي... صغيرتي... لا بأس عليك... اهدئي أرجوكِ».

رغد الآن تنظر إليّ وقد اغرورقتْ عيناها بالدموع، وقالتْ بانفعال واضطراب:

«لماذا لم تأتِ معي؟ لماذا تركتَني وحدي؟ هل تريد أنْ يؤذيني أحدٌ بعد؟».

كلمتها هذه جاءتْ كالخنجر المصوّب إلى القلب مباشرة... جعلتْ عضلاتي تنقبض جميعها فجأة، ولا شعورياً أمسكتُ أنا بيديها وشددتُ عليهما بقوّة...

لحظة جحيم الذكرى... وأعيينا تحدّق ببعضها البعض بحدّة... مِنْ عيني يقدح الشرر الحارق... ومن عينها تنسكب الدموع المجروحة... وفي بؤبؤيها أرى عرضاً للشريط المشؤوم اللعين... وصورة لعمّار يبتسم... والحزام يتراقص...

«لكنتُ قتلتُه».

نطقتُ بهذه الجملة لا إرادياً وأنا أحدّق بها في نظراتٍ ملؤها الشر... والقهر...

لقد شعرتُ بأشياء تتمزّق في داخلي... وأشياء تعتصر... وأشياء تتوجع وتصرخ...

كيف لي أنْ أتحمّل موقفاً كهذا؟؟

لو ظلّ سامر صامتاً، ربّما بقيتُ شهوراً واقفاً عند نفس النقطة، غير أنّ صوته قطع الحبال المشدودة وأرخى العضلات المنقبضة...

«رغد...».

أطلقنا نظراتنا المقيّدة ببعضها البعض وسمحنا لها بالانتقال إلى عيني سامر...

لا يُخفى عليكم الذهول والحيرة والدهشة التي كانتْ تغلّف وجه سامر الواقف ينظر إلينا...

قال:

«رغد... عزيزتي...».

ولم ينطق بعدها بجملة واضحة تفسّر التعبيرات الغامضة المرسومة على وجهه الحائر...

رغد الآن بدأتْ تمسح دموعها وقد هدأتْ نوعاً ما...

الآن... تصل أمّي وأختي... وتستدير رغد إليهما، وتنطق بمرارة:

«قلتُ لكِ لا أستطيع... لا أريد المجيء... لا أستطيع... لا تتركوني وحدي».

وانخرطتْ في مزيدٍ مِنْ البكاء المؤلم...

أمّي أحاطتْها بذراعيها وأخذتْ تتمتم بكلمات لم أستطع استيعابها مِنْ هول ما أنا فيه...

ثم رأيتهن هن الثلاث، رغد وأمي ودانة، يبتعدن عائدات مِنْ حيث أتين...

سامر ظلّ واقفاً لثوان أخرى، ثمّ همّ باللحاق بهن... وحانتْ منه التفاتة إليّ... فرآني وأنا أنهار على الرمال وأضغط بيدي على معدتي وأتأوّه ألماً...

لقد شعرتُ بأشياء تتمزّق وتعصر في أحشائي... ودوار داهمني دون إنذار مسبق... وخور ووهن مفاجئ في بدني... فهويتُ أرضاً...

كنتُ أعرف أنّ قلبي ينزف مِنْ الداخل، كما تنزف أنسجة جسدي كله مِنْ شدّة الموقف وقسوته... وشعرتُ بالدماء تجري بكل الاتجاهات في جسمي... وأحسستُ بها تصعد مِنْ

جوفي... وتملأ فمي... ثمّ تخرج وتنسكب على الرمال ملوّنة إياها هي ويدي المرتكزة عليها باللون الأحمر...

الآن... تستطيع عيناي رؤيتها بوضوح... تماماً كما ترى النور...

دماء حقيقية خرجتْ مِنْ جوفي ممزوجة بعصارة معدتي المتلوية ألماً...

«وليد!».

رفعتُ رأسي، فإذا بي أرى سامر ينظر إلى موضع الدماء بذعر...

«ما هذا؟؟».

ما هذا؟ أظن أنّها دماء! وهي المرّة الأولى التي تخرج فيها دمائي مِنْ جوفي... وأنا أشعر بألم حاد جداً في معدتي...

ما هذا؟

أظن أنَّ هذا عرضٌ لمرضٍ ما...

بعد فترة... كنا نجلس قرب موقد الجمر، نستنشق الأدخنة المتصاعدة مِنْ المشويات... ونتلذّذ برائحتها الشهية...

كان والدي يقلّب الأسياخ ويهفُّ الجمر... وكلما نضج اللحم في أحد الأسياخ دفعه إلى واحدٍ منا، فيلتهمه بشهية كبيرة...

والآن جاء دوري...

«تفضل يا وليد».

كنتُ أودُّ مشاركتهم هذه الوجبة اللذيذة التي لم أذق لها طعماً منذ سنين... لكن الآلام الحادّة في معدتي حالتْ دون إقبالي على الطعام...

«شكراً أبتاه... لا أستطيع التهامها فمعدتي مضطربةٌ جداً».

قال سامر:

«لقد تقيّأ دماً قبل قليل».

الجميع ينظر إليّ الآن بقلق... ابتسمتُ وقلتُ:

«ربما أكلتُ شيئاً لم تتقبّله! لا تكترثوا».

أمي قالتْ بقلق:

«بني... عساه خيراً؟؟».

«لا تقلقي أمّاه... ستهدأ بالصيام لبعض الوقت».

ثمّ حاولتُ تغيير مجرى الحديث...

أبي مدَّ سيخ اللحم المشوي نحو الشخص التالي قائلاً:

«نصيبكِ يا رغد».

رغد كانتْ تجلس على مؤخرة البساط، بعيدةً عن موقد الجمر الذي نجتمع قربه...

رغد نهضتْ، وأقبلتْ نحونا ومدّتْ يدها وأخذتْ السيخ، ثمّ همّتْ بالعودة إلى المؤخرة...

نهضتُ أنا وقلتُ:

«تفضلي هنا... أنا سأتمشّى قليلاً».

وابتعدتُ كي أدع لها المجال لتجلس مكاني، قرب الجميع... وتستمتع معهم بوجبة الشواء الشهية...

ذهبتُ أولاً نحو سيارة أخي، واستخرجتُ علبة السجائر التي كنتُ أضعها في جيب بنطالي الذي استبدلتُه بملابس السباحة... ثمَّ انطلقتُ إلى البحر... وجلستُ على الرمال... أدخّن بشرود...

صوت أبي الجهور كان يصلني خافتاً ضاحكاً... إذن فالجميع يستمتعون بوقتهم. كم أتمنى لو أعود للحياة الدائمة معهم... ليتَني أستطيع ذلك...

ليتَني أستطيع رمي الماضي في قلب البحر... ونسيانه...

بعد قرابة النصف ساعة جاءتني دانة. ابتسمتُ عند رؤيتي لها، فابتسمتْ هي الأخرى إلا أنها سرعان ما حملقتْ بي بتعجب...

«أنتَ تدخّن؟؟».

مرّغت السيجارة التي كانتْ في يدي في الرمل المبلل، إلى جوار أختها... وابتسمتُ ابتسامة واهنة تنمُّ عن الاستسلام والقنوط... أجبتُ:

«عادة سيئة... لا خلاص منها!».

دانة جلستْ إلى جانبي وأخذتْ تراقب الأمواج المتلاطمة... ثمَّ قالتْ:

«لم أكن أعلم بذلك! لو كان نوّار يدخّن لرفضتُ الارتباط به! لا أطيق رائحة هذه المحروقة السامة!».

قلتُ ببعض الخجل:

«معذرة».

ثم أضافتْ مداعبة:

«وعلى فكرة... فإنَّ جميع الفتيات مثلي أيضاً! وإنْ استمررتم في التدخين فستُسبِّبون أزمة عزّاب وعوانس!».

أطلقتُ ضحكةً عفوية على تعليقها خرجتْ مِنْ أعماق صدري ممزوجة ببقايا الدخان! قلتُ بعد ذلك:

«إذن... هل استعديتما للزفاف؟؟».

بشيءٍ مِنْ الخجل قالتْ:

«تقريباً... إنه يريد أنْ نتزوج بعد عودة والديّ مِنْ الحج مباشرة! أبي يود تأجيل ذلك شهرين أو ثلاثة... أما والدتي فتراه موعداً مناسباً، وتريد أنْ يتزوّج سامر ورغد معنا دفعةً واحدة!».

وهذا خبرٌ ليس فقط يحبس الأنفاس في صدري ويعصر معدتي، بل ويستلُّ روحي مِنْ

جسدي... ولن أعجب إنْ رأيتها تنسكب على الرمال أمامي كما انسكبتْ دمائي قبل قليل!

في هذه اللحظة أقبل سامر ورغد... لينضمّا إلينا. قال سامر:

«هل لنا بالانضمام إليكما؟ تركنا الوالدين يشويان السمك!».

قالتْ دانة ضاحكةً:

«أوه أمي! مَنْ سيلتهم المزيد؟ أخبرتُها ألا تحضر السمك ولكنها مولعةٌ به كثيراً!».

واستدارتْ نحوي:

«وليد كيف معدتك الآن؟ ألا تحب أنْ تتناول بعض السمك المشوي؟؟».

«كلاً، لا طاقة لي بالطعام هذه الليلة».

وجلس سامر إلى جانبي الآخر، ورغد إلى جانب دانة... قال سامر:

«فيم كنتما تتحدثان؟؟».

قالتْ دانة:

«فيكما أنتَ ورغد! كنتُ أخبر وليد أنكما حتى الآن لم تتّخذا قراراً نهائياً حاسماً بشأن موعد الزفاف!».

سامر ابتسم وقال:

«أنا جاهز وفي انتظار أوامر العروس!».

العروس هي رغد! ورغد هي صغيرتي الحبيبة... التي كنتُ أحلم بالزواج منها ذات يوم... ثمّ فقدتُها للأبد... فهل لكم أنْ تتخيّلوا حالي هذه اللحظة؟؟

قالتْ دانة موجّهةً خطابها إلى رغد:

«هيا يا رغد! قولي نعم ودعينا نحتفل سوية!».

ثمّ غيّرتْ النبرة وقالتْ مداعبة:

«ولكن كوني واثقةً مِنْ أنني سأكون الأجمل بالتأكيد!».

أذناي طارتا نحو رغد، حتى كادتا تلتصقان بشفتيها أو حتى تخترقان أفكارها لأعلم ما ستقوله قبل أنْ تقوله... تكلّمي رغد؟؟

رغد ظلّتْ صامتةً... وأنا أذناي تترقّبان بصبرٍ نافذ... هيّا يا رغد قولي أي شيء... ارمني بسهام الموت واحداً بعد الآخر...

اِطعَنيني بخناجر الغدر وحطّمي قفصي الصدري ومزّقي الخافق الذي ما فتئ يحبُّكِ مذ ضمّكِ إليه طفلةً يتيمةً وحيدةً... توهّم أنها خُلِقَتْ مِنْ أجله فجاءتْ قذائفكِ تدمّر قلعة الوهم التي بنيتُها وعشتُ بداخلها خمسة عشر عاماً... أو يزيد...

وأقسم... أقسم أنّكِ لو تزوّجتِ مع شقيقتي في نفس الليلة، فإنني سأتخلّى عنها وأخذلها وأدفن نفسي بعمق آلاف الأميال تحت الأرض، لئلاّ أحضر أو أشارك أو أبارك ليلةً تـزَفّين فيها إلى غيري... مهما كان...

بعد كل هذه المشاعر التي تصارعتْ في داخلي في ارتقاب كلمتها التالية... وأذاني

تصغيان باهتمامٍ وتركيز شديد أكاد معه أسمع دبيب النمل...

بعد كل هذا... جاءني السهم المباغت التالي:

«وليد... ما رأيكَ؟؟».

أنّى لي أنْ أصف ما أودُّ وصفه وأنا بحالٍ كهذه؟؟

تسألينني أنا عن رأيي؟؟ رأيي في ماذا؟؟

في أنْ تتزوجي شقيقي اليوم أو غداً أو بعد قرن؟؟

في أنْ تذبحيني اليوم أو غداً... أو بعد قرن؟؟

أتشهد أيها البحر؟؟

ألا يا ليتَك تبتلعني هذه اللحظة... فأمواجكَ العاتية ستكون أكثر لطفاً ورأفة بحال رجلٍ تسأله حبيبة قلبه: (ما رأيك بموعد زفافي)!

تحرّكتْ يداي إلى علبة السجائر الموضوعة على الأريكة الجالسة خلفي، وتناولتُ واحدةً وأشعلتُها في محاولة مستميتة للفرار مِنْ سؤال رغد، التي كنتُ قبل ثوانٍ أتوق لسماعها وأرسل أذنيّ نحو لسانها لالتقاط الجملة بسرعة فور خروجها...

بدتْ اللحظة التالية كالساعة بل كالقرن في طولها...

سحبتُ نفَساً عابقاً بالدخان المنبعث مِنْ السيجارة المضغوطة بين شفتي... وأطلقتُ زفرةً قوية... خلقتْ سحابةً كثيفةً مِنْ الدخان... حسِبتُ أنَّ روحي قد انتزعتْ مِنْ صدري معها...

قلتُ... بعدما عثر لساني على بضع كلمات مرميّةً على جانبية:

«الأمر عائد إليكما».

ووقفتُ...

«معذرة... سأدخّن في مكانٍ آخر».

وانصرفتُ عنهم...

سرتُ مبتعداً، ووقفتُ مولياً إياهم ظهري... انفث السموم مِنْ وإلى صدري وأقاوم آلام قلبي ومعدتي... وأحترق...

بعد فترة، انتهتْ رحلتنا وآن أوان العودة إلى البيت...

لم أكن أريد أنْ أركب سيارة سامر... فقربه وقربها منّي يعني مزيداً مِنْ الألم والاحتراق، لكنني حين رأيت دانة تركب سيارة والدي، ورغد تقف عند سيارة سامر... توجّهتُ تلقائياً وجلستُ على المقعد الأمامي، لأمنعها مِنْ الجلوس عليه والانفراد بسامر!

مشوار العودة كان طويلاً مُملاً... فقد التزمنا الصمت... ورغد نامتْ!

«وصلنا عزيزتي!».

قال سامر ذلك وهو يلتفتُ إلى الوراء، ليوقظ رغد...

كنا قد وصلنا قبل الآخرين... فتحتُ أنا الباب وهبطتُ مِنْ السيارة، ورأيتُ رغد تستفيق.

ذهبتُ إلى مؤخرة السيارة أفرغ حقيبتها مِنْ حاجيات الرحلة، ثمَّ أحملها إلى داخل المنزل. وأقبل سامر يساعدني، وحين وصلتُ إلى الباب، جاءتْ رغد بمفتاح سامر وفتحتْه لي... وانطلقتْ مسرعةً نحو الباب الداخلي تفتحه على مصراعيه لأدخل بما تحمل يداي، وأتجّه نحو المطبخ...

وضعت الأشياء في المطبخ واستدرتُ راغباً في العودة لجلب البقية... رغد واقفة عند باب المطبخ تراقبني...

حين مررتُ منها...

«وليد».

وقفتُ... وعاودني الشعور بالألم في معدتي فجأة... يكفي أنْ أسمعها تنطق باسمي حتى تتهيج كل أوجاعي...

لم أردْ، ولكنني توقّفتُ عن السير منتظراً سماع ما تود قوله...

«وليد».

عادت تناديني... تعصرني...

«نعم؟؟».

قالتْ:

«ألم يعد يهمُّكَ أمري؟؟».

فوجئتُ بسؤالها هذا فالتفتُّ إليها مندهشاً...

كانتْ عيناها حمراوين ربما مِنْ أثر النوم... ولكن القلق بادٍ عليهما...

«لِمَ تقولين ذلك!؟».

«لِمَ لمْ تبدِ رأيكَ بشأن زواجي؟؟».

تصاعدتْ الدماء المحترقة إلى شرايين وجهي وربما إلى حلقي لكنني ابتلعتها عنوة.

«إنه أمرٌ يخصّكما وحدكما... ولا شأن لي به».

رغد هزّتْ رأسها اعتراضاً ثمَّ قالتْ:

«لكن وليد... أنا...».

ولم تتم الجملة، إذ أنَّ أخي سامر أقبل يحمل بعض الأغراض، فسرتُ أنا خارجاً لجلب المتبقي منها...

فيما بعد، وسامر يحمل بطانية ووسادة قاصداً الذهاب للنوم في غرفة الضيوف وتركي أنام في غرفته، كما أصر... وقبل أنْ يخرج مِنْ الغرفة توقّف وقال:

«وليد... هل لي بسؤال؟».

«تفضّل؟؟».

تأمّلني لحظة وهو متردّد، ثمَّ قال:

«وليد... لماذا... قتلتَ عمّار؟؟».

ذهبتُ مباشرةً إلى غرفتي، قبل أنْ تحضر أمّي ودانة ثمّ تطلبان منّي مساعدتهما في الغسل والتنظيف...

فأعمال المنزل هي آخرُ آخر شيء أفكّر بالقيام به في هذه الساعة، وهذه الحال.

يكاد قلبي ينفطر أسىً... لحقيقة مُرّة أتجرّعها رغماً عنّي. وليد لم يعد يهتم لأمري... ولم أعد أعني له ما كنتُ أعنيه وأنا طفلة صغيرة...

ربما ظنَّ الجميع أنني أويتُ لفراشي ونمتُ... فعادتي أنْ أنام مبكّرة، لكنني قضيتُ ساعات طويلة في التفكير والحزن...

لماذا يعاملني وليد بكل هذا الجفاء ويبتعد كلما اقتربتُ؟؟

ودليلٌ آخر... تكرّر صباح اليوم التالي...

فقد نهضتُ متأخّرة... ووجدتُ الجميع مجتمعين في غرفة المعيشة يتناقشون حول أمورٍ شتى...

دخلتُ الغرفة فتوقّف الجميع عن الحديث، وألقيتُ تحية الصباح... ثمّ خطوتُ باتجاه أحد المقاعد راغبةً في مشاركتهم أحاديثهم...

والذي حدث هو أنَّ وليد نهض، وهمَّ بالمغادرة...

شعرتُ بجرحٍ حاد في صدري...

قلتُ:

«كلا... ابق حيث أنتَ... أنا عائدةٌ إلى غرفتي... اعتذر على إزعاجكم».

واستدرتُ بسرعة مماثلة للسرعة التي بها انهمرتْ دموعي... وغادرتُ المكان... ذهبتُ إلى غرفتي وسبحت في بحر الأحزان...

وافتني أمي بعد قليل ورأتني على هذه الحال...

«رغد يا عزيزتي... لا تأخذي الأمر بهذه الحساسية! إنّه لا يقصد شيئاً... لكنّه الحياء!».

انفجرتُ وتفوّهتُ بجملٍ لم أفكّر فيها إلا بعد خروجها، مِنْ شدّة تأثّري...

«إذا كان وجودي في هذا البيت يزعجه فأنا سأرحل إلى بيت خالتي... ليأخذ حرّيته التامة في التجوّل حيثما يريد».

أمي صُدِمَتْ بما قلتُ، وحملقتْ بي باندهاش...

«رغد! كيف تقولين ذلك؟؟».

«إنه يتعمّد تجاهلي وتحاشيَّ... كأنني فتاة غريبة وموبوءة... أ لهذا الحد لم يعد يطيقني؟ ألَمْ أعد أعني له شيئاً؟؟ ألم يكن يعني لي كل شيءٍ في الماضي؟؟».

وسكتُّ، التقط بعض الأنفاس وأمسح الدموع بكومة مِنْ المناديل متكدِّسة في يدي... كنتُ أبكي بانفعال...

والدتي قالتْ فجأة:

«والآن؟؟».

نقلتُ بصري مِنْ كومة المناديل المبلّلة في يدي، إلى عيني أمي ونظراتها المقلقة... والآن؟؟

أعتقد أنّ أمّي كانتْ تلمّح إلى شيء، لم تجرؤ على التصريح به... وإنْ قرأتُ بعض معالمه في عينيها...

إنها نفس النظرة التي رمقتْني بها تلك الليلة، ليلة رحيل وليد السابق، قبل أذان الفجر... بعد أنْ راقبتْنا ونحن واقفَين عند البوابة...

وخِفتُ... مِنْ الحقيقة التي لا أريد أنْ أكتشفها أو يكتشفها أي كان... حقيقة الشعور بالحرارة التي تتأجج داخلي كلما كان وليد على مقربة...

في ذات اليوم، أصررتُ على الذهاب إلى بيت خالتي وتناول الغذاء مع عائلتها.

كنتُ أريد أنْ أبتعد مسافةً تسمح لي بالهدوء، فنبضاتي لا يمكن أنْ تهدأ ووليد في مكانٍ قريب...

هناك فوجئتُ بأمرٍ آخر!

خالتي انفردتْ بي لبعض الوقت في إحدى الغرف وبدون أية مقدمات سألتني:

«هل صحيح أنّك... أنك لا ترغبين في الزواج مِنْ ابن عمك سامر؟؟».

دهشتُ وهالني ما سمعتُ... قلتُ بذهول:

«أنا؟ مَنْ... قال ذلك؟؟!».

خالتي كانتْ تحدّثني بجدية وقلق واضحين...

«لقد سمعَتْكِ سارة تخبرين نهلة بهذا ذات مرّة... وذكرتْ الأمر على مسمع منّي ومِنْ حسام... ومِنْ حينها وهو وأنا معه في جنون!».

لم أعِ الأمر بالسرعة المفروضة، بل بقيتُ أحملق بدهشة وبلاهة في عينَي خالتي... وربما هي فسّرتْ صمتي موافقةً على ما تقول...

«رغد... أخبريني بكل شيء... فإنْ لم تكوني ترغبين في الزواج مِنْه فثقي بأنني لن أسمح لهذا الزواج بأنْ يتم أبداً».

فيما بعد، كنتُ أجلس مع نهلة في غرفتها دون وجود سارة - لوحدنا أخيراً!

قلتُ:

«وتقولين أنها لا تعي شيئاً؟ إنها أخطر مما ظننتُ! يا لجرأتها... كيف تخبر خالتي وحسام بأمرٍ كهذا!؟ هل أنا قلتُ ذلك؟؟».

نهلة تنهّدتْ وقالتْ:

«هذا ما ترجمه دماغها الصغير! لقد قلتِ أنك لا تريدين الزواج الآن! أخضعتْني أمي لاستجوابٍ مكثّف، وأخي حقّق معي مطوّلاً بسبب هذا الأمر!».

«يا إلهي!».

ابتسمتْ نهلة ابتسامة سخرية ماكرة، ثمّ وقفتْ فجأة ونفختْ صدرها هواءً، ورفعتْ كتفيها عالياً، وقطبتْ حاجبيها وعبستْ بشكلٍ غريبٍ مرعب وقالتْ بنبرة خشنة - تقلّد حسام:

«أمّي يجب أنْ تتأكّدي مِنْ الأمر لأنّني إنْ اكتشفتُ أنهم أرغموها على هذا الزواج أو استغلوا كونها يتيمة وصغيرة وضعيفة، فأقسم بأنني سأشوّه النصف الآخر مِنْ وجه ذاك اللئيم الماكر».

قفزتُ أنا واقفةً بغضب...

«نهلة!».

إلا أنها تابعتْ تمثيل المشهد:

«قلتُ لكِ يا أمي... تدخّلي وامنعي هذا الارتباط منذ البداية... أترين أنّ فتاة في الرابعة عشر هي مُدركة بالقدر الكافي لتحديد مصيرها في أمر كهذا؟؟ كيف تجرءوا على فعل هذا كيف؟؟ تباً لذلك المشوّه».

«يكفي نهلة...».

قلتُ بعصبيّة، فعادتْ نهلة إلى شخصيّتها الطبيعية، وقالتْ:

«هذا ما كان يحصل كل يوم! تعرفين أنّ حسام يبغض خطيبك مِنْ ذلك الحين!».

قلتُ:

«لا أقبل أنْ ينعته أحد بالمشوَّه... وتشوُّه وجهه ليس شيئاً يستحق أنْ يُعيَّر عليه».

نهلة جلستْ على السرير، وقالتْ:

«ليس بسبب التشوُّه هو ناقمٌ منه! تعرفين! إنّه بسببك أنتِ! لا زال مولعاً بكِ!».

انزعجتُ مِنْ هذا... فقد كنتُ أظن أنّ الأمر قد انتهى... لكن...

«أرجوكِ نهلة لنغيّر الموضوع... لقد أكّدتُ لخالتي أنّ سارة فهمتْ خطأً... وإنْ بدا عليها عدم الاقتناع... لكن لندع الأمر ينتهي الآن...».

وأتيتُ وجلستُ قربها... ثمّ اضطجعتُ مسترخيةً على السرير...

«إذنْ... ماذا قرّرتِ؟ مع دانة أم بعدها؟؟».

تنهّدتُ بانزعاج مِنْ الموضوع برمّته... قلتُ:

«لم أقرّر يا نهلة... لماذا يطاردني الجميع بهذا السؤال؟؟».

نهلة أمسكتْ بيدي اليمنى وأخذتْ تحرّك خاتم الخطوبة حول إصبعي البنصر وتقول:

«لأنّ هذا الخاتم سئِم البقاء حول هذا الإصبع! إنها أربع سنوات يا رغد!».

قلتُ:

«لكنني لا أزال صغيرة! ألا ترين ذلك؟؟ أريد أنْ أتخرّج مِنْ الجامعة أولاً.. وأريد أنْ... تتغيّر علاقتي بسامر فأنا لا أشعر بشيء مميّز تجاهه».

كنتُ أنظر إلى السقف، ولكن رأس ابنة خالتي ظهر أمامي فجأة... وأجبرني على النظر

إلى عينيها...

«تقصدين لا تحبينه...».

وكان تقريراً إجبارياً لا سؤالا... التفتُّ يميناً فأمسكتْ هي بوجهي وأعادتْه حيث كان وأجبرتْني على النظر إلى عينيها الناطقتين بالحق...

«لا تهربي رغد! أنتِ لا تحبينه!».

استسلمتُ... وغضضتُ بصري... أتحاشى تلك النظرة الثاقبة الفاهمة... نهلة هي أكثر شخص يفهمني وأبوح إليه بأسراري وكل ما يختلج مشاعري...

نهلة مسحتْ على رأسي بعطف وقالتْ:

«رغد... لا تتزوّجيه إذا لم تكوني ترغبين في ذلك... إنّه كالأخ بالنسبة إليك! أبقيه أخاً فأنتِ بحاجة إليه كأخ لا كزوج!».

«نهلة!...».

وضربتْ أنفي بإصبعها ضربةً خفيفةً وهي تقول:

«أليس كذلك؟؟».

عدتُ أحدّق بها... في حيرة مِنْ أمري... قلتُ:

«مَنْ أتزوّج إذن؟؟».

هي ابتسمتْ وقالتْ بمكر:

«أخي حسام!».

رفعتُ رأسي وصَدَمْتُ جبينها بجبيني عمداً ثمّ جلستُ وأخذتْ هي تمثّل دور المتألمة!

«آه... رأسي! كسرٌ في الجمجمة! انجدوني!».

قلتُ بنفاذ صبر:

«قلتُ لكِ! أنتِ لا تتوبين!».

قالتْ وقد بدتْ عليها الجدية الآن:

«صدقيني يا رغد... إنه مهووسٌ بكِ!».

قلتُ:

«والآخر كذلك! لم تظنينه يلحُّ علي بالزواج؟ إمّا أنْ نتزوّج أو يفتِّش عن وظيفةٍ أخرى تبقيه قربي!».

قالتْ، تنظر إليَّ بعين شبه مغمضة وحاجبيها مرفوعان أقصاهما:

«مَنْ مِثلكِ! عاشقان في وقتٍ واحد! يا للحظ! كم أنا مسكينة!».

«قلتُ لكِ لا تتوبين! أوه نهلة! لسوف أطلب مِنْ خالتي التفتيش عن عريس لكِ حتّى أتخلّص منكِ كما تخلصتُ مِنْ دانة!».

ضحكتْ نهلة وقالتْ:

«سأتزوّج مِنْ شقيق زوجكِ حتّى آتي للعيش معكِ! لن تتخلّصي مني!».

واستمرتْ في الضحك...
الجملة أثارتْني كثيراً... غضبتُ وقلتُ بانفعالٍ لا يتناسب ودعابتها العفوية:
«قلتُ لكِ دعي وليد وشأنه... لا تأتي بذكر هذا ثانية أ فهمتِ؟؟».
نهلة ابتلعتْ ضحكتها ونظرتْ إليَّ بشيء مِنْ التعجّب والحيرة...
«ما الأمر رغد! كنتُ أمزح... لم انفعلتِ هكذا؟؟».
خجلتُ مِنْ نفسي فأنا لا أعرف لم انفعلتُ بهذا الشكل بينما هي تمزح ليس إلا...
بل، وحتى لو كان كلامها غير مزاح... لِمَ عليَّ الانفعال هكذا؟؟
أعتقد أنَّ وجهي تورّد... فنظرات نهلة توحي بأنها تلحظ شيئاً غريباً على وجهي...
التفتُ نحو اليسار أُخفي شيئاً مما قد يكون ظاهراً على وجهي دون أنْ أملك القدرة على مواراته لكن توتّري كان أوضح وأفصح مِنْ أنْ يغيب عن ذهن نهلة... التي تعرفني عزَّ المعرفة...
«رغد... ماذا دهاكِ؟؟».
«أنا؟ لا شيء... لا شيء».
والآن استدرتُ كلياً، وأوليتُها ظهري... بل وسرتُ نحو المجلّة الموضوعة على المنضدة قرب سرير نهلة... متظاهرة بالبرود...
قالتْ تحاصرني:
«هل وليد غائبٌ الآن؟؟».
«لا... عاد إلينا منذ يوم أمس الأوّل...».
وأمسكتُ بالمجلّة، وجلستُ على السرير، وأخذتُ أقلّب صفحاتها وأُلْهي نفسي بالتفرّج على الأزياء والمساحيق والعطور... وحتى الأخبار السياسيّة والرياضيّة... وصور اللاعبين!
«أوف!».
أغلقتُ المجلة بسرعة، بعد أنْ وقعتْ عيناي على صورة نوّار يبتسم!
يا إلهي! كم أنفر مِنْ هذا الشخص! رغم أنّه محبوبٌ مِنْ قبل الكثيرين والكثيرات!
«ماذا دهاكِ؟؟».
«إنه ذلك المغرور! مِنْ أمنيات حياتي... أنْ أتصفّح مجلةً ذات يوم ثمّ لا أجد صورةً له فيها! يا له مِنْ شخصٍ بغيض! أتساءل ما الذي يجذب هؤلاء البشر إليه؟؟ دانة المسكينة!».
«ولِمَ هي مسكينة..؟ ألستِ تقولين أنها تحبّه؟؟».
«كثيراً! إنه سيعود الليلة مِنْ رحلته وستقيم الدنيا وتُقعِدها مِنْ أجله! لا بد أنها الآن تعد أطباق العشاء والكعك! الحمد لله إنني لستُ معها في المطبخ هذه الساعة!».
وضحكنا بمرح... ثمَّ قالتْ:
«وخطيبك هل سيرحل اليوم؟».
«نعم... خلال ساعتين».

«إذنْ... ألا يجدر بكِ أنْ تكوني معه الآن؟؟».

وقفتُ... وسرتُ في الغرفة بضع خطوات حائرة... فقد خرجتُ مِنْ منزلي منذ الصباح، وها هي الساعة تتجاوز الثالثة ظهراً... ولا بد أنَّ سامر ينتظر عودتي الآن...

قلتُ:

«إنه مع وليد... الكل محتفٍ بعودته ومشغولٌ به! مَنْ سيذكرني هذه اللحظة؟».

قالتْ:

«وهل سيرحل وليد عاجلاً؟».

«لا... على ما أظن وأتمنى».

«تتمنّين؟؟».

وقعتُ في شركي! قلتُ محاولةً التصحيح والتعديل:

«أقصد نتمنّى جميعاً... فلا أحد يود رحيله ووالداي سيحزنان كثيراً جداً كالمرّة السابقة والتي سبقتْها إنْ هو رحل... أتمنّى أنْ يستقر هنا ويريح الجميع».

ربّما كانتْ الحمرة تعلو وجهي هذه المرّة أيضاً... والآن... إي شيء أشغِل يدي به تغطيةً على اضطرابي هذا؟ ألا يوجد في الغرفة مجلّة أخرى...؟؟

وقع بصري على مجموعة زجاجات العطر أمام مرآة الغرفة، فذهبتُ أليها أشمّها واحدةً تلو الأخرى...

أقبلتْ نهلة ووقفتْ إلى جانبي...

قالتْ:

«ربّما لديه ارتباطات هامّة في الجنوب! عمل... منزل... عائلة... زوجة!».

استدرتُ إليها وقد اكفهرّ وجهي... وقلتُ بسرعة:

«إنّه غير متزوِّج».

«أحقاً؟؟».

كانتْ نظراتها تشكيكية مخيفة! قلتُ:

«طبعاً! وهل تظنين أنّه سيتزوّج دون إبلاغنا! مستحيل! ما يبقيه هناك هو العمل... ليته يجد فرصةً للعمل هنا ويستقر معنا...».

قالتْ:

«بالتالي، لتضمنوا عدم رحيله... زوِّجوه!».

وأضافتْ وهي تبتسم بمكر:

«أنتم الأربعة في ليلة واحدة! ونتخلّص منكم!».

رفعتُ إحدى زجاجات العطر أمام وجهها بغتةً وتأهّبتُ لرش العطر على عينيها!

«أوه لا لا رغد كنتُ أمزح!».

وفرّتْ وصرتُ أطاردها حتى جلسنا على السرير نضحك بشدّة!. بعد قليل... قلتُ:

«عليّ العودة للبيت! سامر ينتظر اتصالي!».

وقمتُ، متوجّهةً إلى الهاتف الموضوع على مكتب نهلة...

واتّصلتُ بالمنزل... وإذا بالدماء تتصاعد مِنْ جديد وبغزارة إلى وجهي... ونهلة تقترب مني وتراقبني...

«وليد؟ إنها أنا».

«(مرحباً... رغد)».

«إمم.. أود التحدُّث إلى سامر».

«(سامر... أظنه يستحم الآن! هل تريدين شيئا؟)».

«أأأ... أريد أنْ يأتي إليّ... هل لا أبلغتَه بأنني أنتظره؟».

«(حسناً)».

«شكراً».

«العفو... صغيرتي».

وأغلقتُ السمّاعة بصعوبة... فقد كانتْ يدي ترتجف!... وبدأتُ أتنفس بعمق وأشعر بالحر... وأيضاً... أتصبّب عرقاً!

نهلة وقفتْ أمامي مباشرة تشاهد الاضطراب الذي اعتراني فجأة... بحيرةٍ وفضول...

«رغد...».

«نعم؟؟».

«لماذا تنفعلين كلما جيء بذكر وليد!؟».

«أنا؟؟ مَنْ قال ذلك!؟».

ومدّتْ نهلة يدها وتحسّستْ جبيني براحتها...

«إنّك تغلين! وجهك أحمر ناضج وجبينك مبلّل بالعرق!».

أربكتْني كثيراً كلمات نهلة... وحاولتُ التملّص مِنْ نظراتها الثاقبة لكنها حاصرتني...

ابتعدتُ عنها وذهبتُ إلى حيث أضع عباءتي لأرتديها استعداداً للمغادرة!

«ولكن خطيبك لم يحضر بعد!».

«سأستعد...».

كنتُ أريد أنْ أنشغل بشيءٍ بعيداً عن نظرات نهلة التي تخترق أعماقي... كنتُ أضبط حجابي موليةً إياها ظهري... حين قالتْ:

«خطيبك شابٌ جيّد يستحق فتاةً رائعةً مثلكِ!».

تابعتُ ترتيب حجابي دون أنْ أعير جملتها هذه اهتماماً...

فقالتْ:

«وأخي شابٌ جيد ويستحق فتاةً رائعةً مثلكِ!».

ولم ألتفتْ إليها! حتّى لا أدع لها مجالاً لفتح الموضوع مجدّداً!

وتابعتُ ارتداء عباءتي...

«ووليد شابٌ جيّد... ويستحق فتاةً رائعةً مثلي!».

استدرتُ فجأةً نحو نهلة... باضطرابٍ وتوتّر وانزعاج جلي!...

اصطدمتْ نظراتنا الحادّة العميقة... وبقينا لبضع ثوان نحملق في بعضنا البعض...

نهلة أوقعتْ بي... إنها خبيثة! كنظراتها التي ترشقني بها الآن...

أتتْ نحوي... ورفعتْ يدها وأمسكتْ بعباءتي وسحبتْها...

«رغد يا ابنة خالتي العزيزة... لن تخرجي مِنْ هنا حتى أعرف ما حكايتكِ مع وليد!».

بعد عشر دقائق كنتُ أجلس في السيارة إلى جانب سامر...

«هل تحبّين أنْ نتجوّل قليلاً قبل العودة؟؟».

«كما تشاء».

قضينا قرابة النصف ساعة نجول في شوارع المدينة... ونتبادل الأحاديث... سامر... والذي لَمْ يجد الفرصة السانحة قبل الآن لفتح الموضوع، سرعان ما تطرّق إليه...

«الوقت يمضي يا رغد... لقد بدأتُ أضيق ذرعاً بالوحدة هناك... لا أريد أنْ أخسر وظيفةً ممتازة كهذه، لكنني لا أريد أنْ أبقى بعيداً أطول مِنْ ذلك...».

حِرْتُ ولم أجد تعقيباً ملائِماً... وربّما صمتي أحبط سامر... ففقد حماسه للمتابعة بعد بضع جمل...

حينما وصلنا إلى المنزل، وجدنا والديَّ ووليد يجلسون في الفناء الخارجي، حول الطاولة الصغيرة القريبة مِنْ الشجرة الطويلة، بجانب الباب الداخلي...

كان الجو جميلاً... والعصافير تغرّد بحماس على أغصان الشجرة... والدخان يتصاعد مِنْ أقداح الشاي الموزّعة على الطاولة...

سامر كان يمسك بيدي، ثمّ أطلقها وسار نحوهم بسرعة...

«شاي أم وليد! أين نصيبي؟؟».

وانضمَّ إليهم...

ألقيتُ نظرةً على وليد فرأيتُه ينظر نحوي ولكن سرعان ما بدّد نظراته نحو الفراغ... لم يكن يريد النظر إليَّ...

عليَّ أنْ أنصرف قبل أنْ ينهض مغادراً ظانّاً بأنني سأنضم إليهم...

توجهتُ نحو الباب ودخلتُ إلى الداخل...

كنتُ بالفعل أتمنّى أنْ أشاركهم! ولكن لو فعلتُ... فبالتأكيد سيغادر وليد. ما إنْ دخلتُ حتى وصلتْني رائحة الكعك الشهية! وسرتُ إلى المطبخ.

«دانة! رائحة كعكتكِ زكيّةٌ جداً! دعيني أتذوقها!».

«عدتِ أخيراً! لا يا عزيزتي! هذه لنوّار ونوّار فقط!».

«وهل سيأكل الكعكة كاملةً! مسكين! كيف سيلعب إذا انفجرتْ معدته؟».

نظرتْ إليَّ بانزعاج وصرختْ:
«رغد... انصرفي فوراً!».
ضحكتُ وخرجتُ، متوجهةً إلى غرفتي حيث وضعتُ حقيبتي وعباءتي، ووقفتُ أمام المرآة أتأمّل وجهي...
لم يكن الإفلات مِنْ محاصرة نهلة سهلاً... أي حكاية لي مع وليد؟؟؟ ما أكثر الحكايات!
أريد أنْ أنضم إليهم! أو على الأقل... سأراقبهم مِنْ النافذة!
وبسرعة خرجتُ مِنْ غرفتي قاصدةً الذهاب إلى النافذة المشرِفة على الفناء الأمامي... حيث هم يجلسون...
مَنْ تتوقّعون صادفتُ في طريقي؟؟
نعم وليد!
دخل للتو... وحينما رآني توقّف برهةً... ثمَّ غيّر مسار طريقه...
ربّما كان يودُّ القدوم مِنْ ناحيتي إلا أنّه غير اتجاهه وانعطف ناحية المطبخ...
ألهذا الحد لا يريد أنْ يراني أو حتّى يمر مِنْ ممرٍ أقف أنا فيه؟؟
«وليد».
تجرّأتُ وناديتُه بألم... إذ أنَّ تصرُفه هذا جرحني...
لم يلتفتْ إليَّ، وردَّ ببرود:
«نعم؟».
تحشرج صوتي في حنجرتي... وبصعوبة نطقتُ، فجاء صوتي خفيفاً ضعيفاً لم أتوقّع أنّه سمعه... لكنه سمعه!
«أريد أنْ أتحدّث إليك».
«خيراً؟».
كل هذا وهو مُديرٌ ظهره إليَّ... أمرٌ ضايقني كثيراً وأثار أعصابي...
«وليد... أنا أحدِّثكَ! أنظر نحوي!».
استدار وليد بتردّد، ونظر إلى عينيَّ نظرةً سريعة ثمَّ طارتْ أنظاره بعيداً...
كم آلمني ذلك...
قلتُ:
«لماذا لا تودُّ التحدُّث معي؟؟».
بدا مضطرباً ثمَّ قال:
«تفضّلي... قولي ما عندكِ».
وتنهّد بضيق... قلتُ بمرارة:
«إذا كنتَ لا تودُّ الاستماع إلي... ولم يعدْ يهمُّك أمري... فلا داعي لقول شيء».
وليد التزم الصمت... ثمَّ وبعد أنْ طال الصمت بنا، استدار راغباً في الانصراف...

أنا جُنّ جنوني مِنْ إهماله لي بهذا الشكل... وأسرعتُ نحوه وقبضتُ على يده وقلتُ بحدّة ومرارة:

«انتظر...».

وليد سحب يده واستدار نحوي بغضب... ورأيتُ النار تشتعل في عينيه... كان مرعباً جداً...

الدموع تغلّبتْ على الجفون... وتحرّرتْ من أسرها وشقّت طريق العصيان بتمرّدٍ وإصرار على الخدين...

وليد توتّر... وتلفّتَ يمنةً ويسرة... ثمّ قال:

«لماذا تبكين الآن؟؟».

قلتُ بعدما أغمضتُ عيني أعصر دموعها... ثمّ فتحتهما:

«لماذا لم تعد تهتم بي؟ لماذا تتحاشاني؟ لماذا تعاملني بهذه الطريقة القاسية وكأنني لا أعني لكَ شيئاً؟؟».

الرعب... والذعر والهلع... أمورٌ أثارتْها نظراته الحادّة المخيفة التي رماني بها بقسوة... قبل أنْ يضربني بكلماته التالية:

«يا ابنة عمّي... لقد كبِرتِ ولم تعودي الطفلة المدللة التي كنتُ أرعاها... أنتِ الآن امرأةٌ بالغة... وعلى وشك الزواج... لديَّ حدودٌ معكِ لا يجوز تخطّيها... ولديكِ سامر... ليهتم بأمركِ مِنْ الآن فصاعداً».

وتركني... وسار مبتعداً إلى الناحية التي كان يريد سلكها قبل ظهوري أمامه...

اختفى وليد... واختفتْ معه آمال واهية كانتْ تراودني...

وليد الذي تركني قبل عشر سنين، لم يعد حتى الآن...

مسحتُ بقايا دموعي وآثارها... وخرجتُ إلى حيث كان والديَّ وسامر يجلسون حول الطاولة...

أقبلتُ نحوهم فوقف سامر مبتسماً يُزيح الكرسي المجاور له إلى الوراء ليفسح المجال لي للجلوس...

سامر... كان دائماً يعاملني بلطفٍ واهتمام بالغ، ويسعى لإرضائي وإسعادي بشتى الوسائل...

اقتربتُ مِنْ سامر ونقلتُ بصري منه، وإلى والديّ، ثمّ إلى أكواب الشاي والدخان الصاعد مِنْ بعضها... ثمّ إلى الخاتم المطوق لإصبعي منذ سنين... ثمّ إلى عينَي سامر اللتين تراقباني بمحبّة واهتمام... ثمّ قلتُ:

«سامر... لقد اقتنعتُ... سنحتفل مع دانة».

الحلقة التاسعة عشر

لا تستيقظ أيها الحب

- وليد -

كنتُ قد دخلتُ إلى داخل المنزل لإحضار سيجارة...

فكلما شعرتُ بالضيق، عكفتُ على التدخين بشراهة... ورؤية رغد وسامر يقبلان نحونا... وأصابعهما متشابكة جعلتْ شعبي الهوائية تنقبض وتنسد...

سامر جلس معنا، وذهبتْ رغد إلى داخل المنزل...

بعد قليل دخلتُ قاصداً الذهاب إلى غرفة سامر وإحضار السجائر، فرأيتُها أمامي...

الغضب الذي كان يسد شعبي مع ذلك الهواء خرج فجأةً باندفاع مصبوباً عليها... فتحدّثتُ معها بقسوة رافضاً الإصغاء إلى ما كانتْ تودُّ إخباري به...

الآن أنا في الغرفة أشعر بالندم...

لماذا أصبحتُ أعاملها بهذه الطريقة؟؟

أليستْ هذه هي رغد... طفلتي الحبيبة المدلّلة؟؟

رغد...

أتسمعون؟؟ أتدركون؟؟

إنها رغد! رغد!

حملتُ سجائري وذهبتُ في طريقي إلى الخارج...

عند عبوري الممر قرب المطبخ لمحتُ أختي دانة، وكانتْ ترتدي مريلةً خاصةً بالمطبخ وتوشك على المسير نحو الباب...

«وليد!... أوه سجائر!».

ثمَّ مسكتْ أنفها بإصبعيها كمنْ يمنع رائحة كريهة مِنْ اقتحام أنفه!

«لن أدخِّن هنا!».

قالتْ:

«أنا أيضاً ذاهبةٌ لوداع سامر! رغد الكسولة تركتْني أعمل وحدي!».

وخرجنا سوية...

رغد كانتْ تجلس قرب سامر... الذي يبدو على وجهه الانفعال والسرور!

قالتْ دانة:

«آسفة سامر سأودّعك الآن وأعود للمطبخ!».

ووجّهتْ كلامها إلى رغد:

«فالكسالى يجلسون هنا! ولكن بعد أنْ أتزوّج ستقع على رؤوسهم أعمالُ المنزل رغماً عنهم!».

سامر ضحك، وكذلك والدي... أمّا رغد فألقَتْ نظرةً لا مبالية على دانة، ثمّ أخذتْ تشرب الشاي...

والدتي قالتْ:

«بل على رأسي أنا! فأنتما ستخرجان مِنْ هنا في ليلةٍ واحدة!».

أنا صُعِقتُ... واكفهرّ وجهي... وحملقتُ في رغد... أمّا دانة فقالتْ:

«ماذا... أمّي؟؟ هل...؟؟».

سامر قال:

«قرّرنا أخيراً!!».

دانة سارتْ نحو رغد متهلّلة الوجه، فوقفتْ الأخرى وتعانقتا...

«أيتها الخبيثة! هل تريدين سرقة الأضواء منّي؟؟».

وضحكتا بمرح...

ثمّ عانقتْ دانة سامر وتمتمتْ ببعض الكلمات، ثمّ ودّعته وعادتْ إلى الداخل...

«يجب أنْ أغادر الآن!».

قال ذلك سامر... فوقف والداي، واحتضنهما وقبّل رأسيهما... ثمّ أمسك بيدَي رغد، وضمّها إليه في عناقٍ طويل...

كل هذا وأنا واقفٌ كالشجرة التي إلى جانبي... أشعر بالصواعق تضربني مِنْ كل جانب، وأعجز عن فعل شيء...

والآن... يُقبِل الخائن نحوي أنا... يريد توديعي...

ابتعد يا سامر فأنا أشعر برغبة جنونية في ضربك! ولا أعرف أي قوة امتلكتُ لحظتها ومنعتُ يدي مِنْ أنْ تحطّم وجهه...

صافحتُه وعانقتُه عناقاً بارداً خالٍ مِنْ أية مشاعر... وتركتُه يذهب...

بعدما خرج، تجاوزتُ الطاولة ومَنْ يجلس حولها، ووقفتُ بعيداً لئلا أزعج أحداً بدخان سجائري...

كنتُ أسمع أصوات الثلاثة، أبي وأمي والخائنة يتحدّثون عن أمور الحفلة والإعداد لها...

وكنتُ أشعر بأنّ طبقةً سميكةً مِنْ الإسمنت قد صُبّتْ على صدري ويبستْ وكتمتْ أنفاسه...

أمي ذهبتْ بعد ذلك للمطبخ لتساعد دانة، وبقي والدي مع رغد...

كنتُ أختلس نظرةً ناحيتهم مِنْ حينٍ لآخر... والدي كان يجلس مولياً ظهره إليّ، أمّا

الخائنة فكانتْ تواجهني...

ولم يحدث أنْ التفتُّ إلاّ واصطدمتْ نظراتنا، فزادتْ الإسمنت على صدري طبقةً بعد طبقة...

والدي تلقّى مكالمةً عبر هاتفة المحمول، ثمّ انصرف إلى الداخل...

وبقيتْ صغيرتي وحدها تشرب الشاي... توقّفتُ عن الالتفات إلى الوراء... وشردتُ في اللاشيء الذي لا أراه أمامي...

والآن شعرتُ بحركة خلفي... وبقيتُ كما أنا أرتقّب... وظهر ظلٌ أمامي يكبُر ويكبُر... والفتاة الواقفة خلفي تقتربُ وتقتربُ... والآن توقّفت...

لثوانٍ معدودة... ظلّتْ رغد واقفةً خلفي وأنا لا أملك مِنْ الشجاعة والقوّة ما يمكّنني مِنْ الاستدارة إليها... ولكنني أرى ظلّها أمامي... وأرى يدها تتحرّك نحوي... ثمّ تتراجع... ثمّ تستدير... ثمّ تنسحب...

عندما ابتعدتْ استدرتُ أنا للخلف ورأيتُها وهي تسير مبتعدةً ويدها تمسح ما قد يكون دموعاً منسكبة على وجهها...

مددتُ يدي... أريد أنْ أمسك بها... أمسك بظلّها... أمسِك بطيفها... أمسِك بدمعها... أمسِك بذرّات الهواء التي لامستْها... واختفتْ رغد... وعادتْ يدي فارغة لم تجني غير الحسرة والألم...

عندها، تلوّتْ معدتي أيمّا تلوّ... وعصرتُ كما تُعصَر الملابس المبلّلة باليدين...

في تلك الليلة، حضر نوّار خطيب شقيقتي وقد جالستُه لبعض الوقت...

ورغم أنّه دمث الخلق، إلاّ أنّ نفسه لا تخلو مِنْ الغرور والتعالي... وقد أحرجني لدى سؤاله لي عن دراستي المزعومة وأعمالي وخبراتي المعدومة!

وكنتُ أختصر الإجابات ببعض جملٍ غامضة، وسرعان ما انسحبتُ تاركاً الخطيبين يستمتعان بعشائهما...

ولشدّة الآلام - الجسدية منها والنفسية - فإنني اكتفيت بقدرٍ يسير مِنْ الطعام... وذهبتُ إلى غرفة سامر متحجّجاً بالنعاس...

رغد لم تكن قد شاركتْنا الوجبة، فلا أظنُّها تفكُّر في فعل ذلك بعد الطريقة الفظّة التي عاملتُها بها...

الندم يقرصني ويوخِز جميع أعصابي الحسية... إضافةً إلى آلام المعدة الحادّة...

ومرّة أخرى خرجتْ الدماء مِنْ جوفي وزاد قلقي... لا بد أنني مصابٌ بمرض... ولا بد لي مِنْ مراجعة الطبيب...

على السرير تلوّيت كثيراً حتّى قلبتُ المفارش والبطانيات والوسائد رأساً على عقب...

أفكاري كانتْ تدور حول رغد... كيف لي أنْ أهدأ لحظةً واحدة... وموعد زفافها قد تحدّد!

لو كان باستطاعتي تأجيله قرناً بعد... فقط لقرنٍ واحد... أضمن فيه أنها تبقى معزولة عن أي رجل... وتموت دون أنْ يصل إليها أحد...

أخرجتُ صورة رغد الممزّقة وجعلتُ ألملم أجزاءها، وأتأمّلها، ثمّ أبعثرها مِنْ جديد وأعود لتجميعها كالمجنون...

نعم مجنون... لأنّ تصرفاً كهذا لا يمكن أنْ يصدر مِنْ كائنٍ عاقل...

تركتُها ملمومةً على المنضدة التي بجواري... وقمتُ أذرع الغرفة ذهاباً وجيئةً كبندول الساعة!

اقتربتْ الساعة مِنْ الواحدة ليلاً... وأنا ما بين ألم معدتي الحارق وألم قلبي المحترق... حتّى رغبتُ في تناول أي شيء مِنْ شأنه أنْ يهدّئ الحريق المشتعل بداخلي...

وتنفُّس أي شيء يطرد الضيق مِنْ صدري...

أخذتُ علبة سجائري... وخرجتُ مِنْ الغرفة... تاركاً الباب مفتوحا...

ذهبتُ أولاً إلى المطبخ وحملتُ علبة حليب بارد معي فقد لاحظتُ تأثيره المهدِّئ على معدتي، وخرجتُ إلى الفناء... وبدأتُ بشربه والتدخين معاً...

- رغد -

لا أستطيع أنْ أنام وأنا أفكّر... وأفكّر وأفكّر... فيما قاله وليد لي... والصداع يشتدُّ لحظةً بعد أخرى...

كم آلمني... أنْ أكتشف أنّه لم يعدْ يهتم بي أو يرغب في رعايتي كالسابق...

لقد تغيّر وليد... وأصبح قاسياً ومخيفاً... وغريباً...

كنتُ أسبح في بحر الحسرة والمرارة... فأنا فقدتُ شيئاً كان يشغل حيّزاً كبيراً مِنْ حياتي في الماضي...

ومنذ ظهوره، وأنا في صراعٍ داخلي...

بقيتُ فترةً طويلة أتأمّل صورته التي رسمتُها قبل شهور... ولم أتمّها...

وإذا بي أرى نفسي ألّوّن بياض عينيه باللون الأحمر الدموي...! غضباً وأسىً...

صار مُخيفاً... مُرعباً...

دانة كانتْ تمضي وقتاً غاية في السعادة والمتعة مع خطيبها الذي تحبّه... وهذا يجعلني أتألّم أكثر... لأنني لا أحظى بالسعادة التي تحظى بها... ولا أشعر بالمشاعر التي تشعر هي بها تجاه خطيبها...

غداً هو يوم دراسة، ويجب أنْ أنام الآن وإلا فإنني سأنام في القاعة وسط الزميلات!

خرجتُ مِنْ غرفتي وفي نيتي ابتلاع قرص مسكّن للصداع مِنْ الأقراص الموجودة في الثلاجة، وفيما أنا أعبر الردهة لاحظتُ باب غرفة سامر مفتوحاً...

تملّكني الفضول!

سرتُ بحذر وهدوء نحو الغرفة!

وقفتُ على مقربة وأصغيتُ جيداً... لم أسمع شيئاً...

اقتربتُ أكثر خطوة بعد خطوة، حتى صرتُ عند فتحة الباب، وأطللتُ برأسي إلى الداخل بتهوّر... لكني لم أجد أحداً!

عندها فتحتُ الباب على مصراعيه بسرعة... وبهلع صحتُ:

«فعلها!!».

قفزتُ وأنا أركض كالمجنونة... أجول في أنحاء المنزل وفي رأسي الاعتقاد الصاعق بأنّ وليد قد فعلها ورحل خلسةً...

سرتُ أترنّح في مشيتي مخطوفة الفؤاد... منزوعة الروح... وانتهى بي الأمر إلى باب المدخل...

وقفتُ عنده وأمسكتُ بقبضته وركّزت كل ثقلي عليها لتدعمني... فإنْ انفتح الباب... فلا شكَّ أنّ وليد قد غادر وتركه غير مقفل...

وانفتح الباب وانهرتُ مع انفتاحه...

لقد فعلها وفرَّ خلسةً دون وداعي... خارتْ قواي وجعلتُ أنحب بصوتٍ عال...

«لماذا؟ لماذا يا وليد لماذا؟؟».

فجأة... ظهر شيءٌ أمامي!

كنتُ أجلس عند الباب بلا حول ولا قوة... وشعرتُ بشيء يتحرّك فأصابني الذعر الشديد... فإذا به وليد يظهر في المرأى...

«رغد!!؟».

لم أصدّق عيني... هل هذا شبح؟؟ أم حقيقة؟؟

جسم كبير... طويل عريض... متخفٍّ في الظلام... يتقدّم نحوي... لا يُرى شيءٌ مِنْه بوضوح غير لهيب السيجارة التي بين إصبعيه...

«رغد... ما... ماذا تفعلين هنا...؟؟».

وكدُميةٍ كهربائية قد فُصِل سلكها عن المكبس، شُلِلتُ عن الحركة...

حتّى رأسي الذي كان ينظر إلى الأعلى... الأعلى... حيث موضع عيني وليد، هوى إلى الأسفل... متدلياً على صدري سامحا للدموع بأن تبلل الأرض...

لم أجد في بدني مقداراً من القوة لتحريك جفوني...

وليد وقف مندهشاً متوجِّساً خيفة... ثمَّ جلس القرفصاء أمامي... وقال بصوت حنونٍ جداً...

«صغيرتي...؟؟».

الآن... كسبتُ مِنْ الطاقة ما مكّنني مِنْ رفع رأسي للأعلى والنظر إليه...

وبقيتُ أنظر إلى عينيه وتحجبني الدموع عن قراءة ما فيهما...

«ما الذي تفعلينه هنا؟؟».

«هل تريد الرحيل دون وداعي؟؟».

لم تخرج الكلمات كالكلمات... بل خرجتْ كالبكاء الأجش...

«الرحيل؟؟ مَنْ قال ذلك؟؟».

«ألستَ... ألستَ تريد الرحيل؟؟».

«لا... خرجتُ أدخّن!... لكن... ما الذي تفعلينه أنتِ هنا في هذا الوقت؟؟».

أخذتُ نفساً عميقاً وأطلقتُ الكلمات التالية باندفاع وبكاء:

«ظننتُ أنك رحلتِ... دون علمي ووداعي... كما فعلتَ في قبل سنين... تركتني وحيدةً... في أبشع أيام حياتي...».

مدَّ وليد يده فجأة وبانفعال نحوي، ثمَّ أوقفها في منتصف الطريق، وسحبها ثانيةً... ثمَّ قال بنبرة منزعجة:

«كفى...».

فقلتُ:

«... حتى لو لم أعد أعني لكَ شيئاً ولم تعد تكترث لأمري... أرجوك... لا ترحل دون علمي... أرجوك وليد... عدني بذلك...».

وليد ظلَّ صامتاً لا يجرؤ على شيء سوى الإصغاء إليَّ...

«عدني بذلك وليد أرجوك...».

أومأ وليد برأسه إيجاباً وقال:

«أعدكِ...».

نظرتُ إليه بتشكّك... كيف لي أنْ أثق بوعوده...؟؟

«أَقسِم».

وليد تردَّد قليلاً ثمَّ قال:

«أُقسِم... لن أرحل دون علمكِ...».

شعرتُ بالراحة لقسمه... وسحبتُ نفَساً عميقاً ليهدِّئ مِنْ روعي...

وليد حملق بي قليلاً ثمَّ وقف... ورفع سيجارته إلى فمه وسحب بدوره نفساً عميقاً...

وقفتُ وسمحتُ للباب الذي كنتُ أستند عليه وأحول دون انغلاقه أنْ ينغلق. نفث هو الدخان للأعلى، ثمَّ قال وهو لا يزال ينظر عالياً:

«لِمَ استيقظتِ الآن؟؟».

قلتُ، وأنا أراقب الدخان يعلو وينتشر...

«لم أنم بعد».

«لِمَ؟ ألن تذهبي غداً إلى الكلية؟».
«بلى... لكن... لديَّ أرق».
وصمتُّ... ثمَّ سألتُه:
«وأنتَ؟».
«كذلك، لذا خرجتُ أدخّن... في ساعةٍ كهذه».
«هل... يريحكَ التدخين؟؟».
وليد لم يجب مباشرة، ثمَّ قال:
«نعم... إلى حدٍ ما... يرخي الأعصاب...».
قلتُ:
«دعني أجرّب!».
وليد التفتَ إليَّ ونظر باستغراب!
«ماذا؟؟».
«أجرّب!».
أعتقد أنها ابتسامة تلك التي ظهرتْ على إحدى زاويتي فمه!
«هل تعنين ما تقولين؟؟».
«نعم... أتسمح؟؟».
وليد حرّك رأسه اعتراضاً وقال:
«لا... لا أسمح».
ثمّ أضاف:
«لا أسمح لشيءٍ كهذا بدخول صدرك...».
«لكنه يدخل صدرك!».
قال:
«أنا صدري اعتاد على حمل السموم والهموم...».
ثمَّ رمى بالسيجارة أرضاً وسحقها تحت حذائه... وعلتْ وجهه علامات التألم، وضغط بيده على بطنه وقال:
«لندخل».
وحينما دخلنا، قال:
«تصبحين على خير».
واتّجه نحو المطبخ...
تبعتُه فرأيتُه يُخرِج علبة حليب بارد ويجلس عند الطاولة ويرشف منها...
وبعد رشفة أو رشفتين سمعتُه يتأوّه... ويُسنِد رأسه إلى الطاولة في وضعٍ يوحي للناظر إليه بأنّه يتألّم...

- وليد -

صحوتُ مِنْ النوم على صوت والدتي توقظني مِنْ أجل تأدية صلاة الفجر... كنتُ قد نمتُ قبل ساعة ونصف، وأشعر بإعياءٍ شديد...

أفقتُ فوجدتُها واقفةً قربي... نهضتُ وذهبتُ للتوضؤ، وعندما عدتُ وجدتُها لا تزال واقفةً عند نفس المكان تنظر إلى المنضدة...

ما إنْ أحسَّتْ بوجودي حتى استدارتْ نحوي بسرعة، وقالتْ:

«والدكَ ينتظرك...».

ثمَّ خرجتْ مِنْ الغرفة...

ألقيتُ نظرةً على المنضدة التي كانتْ أمي تراقبها قبل مجيئي... فإذا بي أرى صورة رغد الممزّقة... التي نسيتُ إعادتها إلى محفظتي ليلاً...

شعرتُ بالقلق... لا بد أنَّ أمي رأتْ الصورة واضحة... ولا بد أنَّ شكوكاً قد راودتها

إلا إذا كان احتفاظ رجل لصورة ممزَّقة لطفلة كان متعلقاً بها بجنون... هو أمرٌ مألوفٌ ومشهدٌ تراه كل يوم...!

أدَّينا الصلاة في مسجدٍ قريب وعدتُ إلى السرير ونمتُ بسرعة قياسية...

عندما نهضتُ، كان ذلك قبيل الظهر ولم يكن في البيت غير والدتي، فوالدي في مكتبه، ورغد في الكلية، ودانة مدعوَّة للغداء في مطعم، مع خطيبها...

أمي لم تشر إلى أي شيء حيال تلك الصورة... لذا، تجاهلتُ الأمر... وأقنعتُ نفسي بأنها نسيتْ أمرها...

لم أرَ صغيرتي ذلك النهار، إذ يبدو أنها عادتْ مِنْ الكلية عصراً وذهبتْ للنوم مباشرة في وقتٍ كنتُ أنا فيه مشغولاً بشيء أو بآخر...

وفي الليل... وقبل ذهابي إلى غرفة المائدة لتناول العشاء، مررتُ بالمطبخ فرأيتُ صغيرتي تأكل وجبتها منفردة هناك...

عندما رأتني توقّفتْ عن الأكل وانخفضتْ بعينيها إلى مستوى الأطباق... في انتظار مغادرتي... آلمني أنْ أراها وحيدةً هكذا فيما نحن مجتمعون معا... قلتُ:

«هل لا انضممتِ إلينا؟».

رغد حملقتْ بي قليلاً متشكّكة ثمَّ سألتْ:

«ألا يزعجكَ ذلك؟؟».

«لا...».

وسرعان ما حملتْ أطباقها وطارتْ إلى غرفة المائدة... بمنتهى البساطة!

فيما نحن نتحدَّث عن أمورٍ شتى، قال والدي:

«أيمكنك يا وليد اصطحاب رغد مِنْ وإلى الجامعة يومياً؟؟ إنْ تفعل تزيح عن عاتقي

مشواراً مربِكاً».

ولأنّه لم يكن لدي ما أقوم به، لم أجد حجةً تمنعني مِنْ الموافقة... لكن بعض الاستياء ظهر على وجه والدتي... أنستْني إياه البهجة التي ظهرتْ على وجه رغد... أو ربّما توهّمتُ أنها ظهرتْ على وجه رغد!

في اليوم التالي كان علي أنْ أنهض باكراً مِنْ أجل هذه المهمّة، ورافقتْنا والدتي هذه المرّة...

المشوار كان يستغرق قرابة العشرين دقيقة.

رغد كانتْ تركب المعقد الخلفي لي، ذهاباً وإياباً... وكانتْ تلتزم الصمت معظم المشوار إلا عن تعليقات بسيطة عابرة...

في المساء، كنا نقضي أوقاتَ مُمتعة في مشاهدة أحد الأفلام، أو مُزعجة في متابعة الأخبار وما آلتْ إليه الأوضاع الأخيرة، أو مُحرقة في الحديث عن الزفاف المرتقب...

أتناول وجباتي معها... آخذها إلى الجامعة أو أي مكان تود... أتبادل بعض الأحاديث معها بشأن دراستها وما إلى ذلك... أتفرَّج على لوحاتِها الجديدة...

أرافقها هي ودانة وأمي إلى الأسواق... أُنصِتُ باهتمام كلما تحدثتْ وأراقبها دون أنْ تشعر كلما تحركتْ...

كل هذا... قد أثار جنوني... وذكريات الماضي... فصرتُ أشعر بأنها عادتْ لي... طفلتي الحبيبة التي أعشقها وأعشق رعايتها...

أخذني جنوني إلى التفكير بعدم الرحيل...

كيف لي أنْ أبتعد عنها وأنا متعلّق بها بجنون... كيف لي أنْ أسمح للمسافات والزمن بتفريقنا؟؟؟

إنني سأبقى حيث تكون رغد... لأنّه لا شيء في هذه الدنيا يهمُّني أكثر منها هي...

سأبحث عن عمل، واستقرُّ هنا إلى جانبكِ...

سأبقى قربكِ يا رغد... نعم قربكِ يا صغيرتي الحبيبة...

ثمّ... وباتصال هاتفي واحد مِنْ سامر... يتحطّم كل شيء، وأسقط مِنْ برج الأوهام الطرية، إلى أرض الواقع القاسية الصلبة... ويتدمّر كل شيء...

لم تكن صغيرتي تملك هاتفاً في غرفتها، لذلك فإنَّ مكالماتها تكون على مرأى ومسمع مِنْ الجميع... وكلما تحدثتْ إلى سامر غمرتني رغبةٌ في تقطيع أسلاك الهاتف والكهرباء... في المنزل وفي الحيِّ برمته!

في أحد الأيام، كنتُ ذاهباً لإحضارها مِنْ الجامعة، وصادف أنَّ الشارع كان مزحوماً وشبه مسدود بسبب حادث مروري...

طال بي المشوار وأنا أسير ببطء شديد بسبب الحادث... وعوضاً عن الوصول خلال عشرين دقيقة وصلت بعد خمسين دقيقة على الأقل...

عادةً ما تكون صغيرتي تنتظرني عند الموقف حيث تقف الطالبات، غير أنني الآن لم أجدها...

انتظرتُ بضع دقائق، لكنها لم تخرج... وقفتُ في مكاني حائراً...

ثمَّ اتجهتُ إلى الحارس وأخبرتُه بأنني أنتظر قريبتي ولم أرها، فطلب اسمها ثمَّ اتصل برقم ما، وبعدها بدقيقتين رأيتُ رغد تخرج مِنْ البوابة... مع بعض الفتيات.

كنتُ لا أزال واقفاً قرب الحارس، نظرتْ هي باتجاهي وظلّتْ واقفة حيث هي... وتتحدّث إلى زميلاتها...

شكرتُ الحارس ثمَّ تقدّمتُ إليها فودّعتْهن وأتتْ نحوي...

«أنا آسف... تأخرتُ بعض الشيء».

«بل كثيراً».

قالتْ بغضب... ثمَّ سارتْ نحو السيارة...

بعدما اتخذنا مقعدينا، وقبل أنْ ننطلق عدتُ أقول:

«آسف صغيرتي...».

ولكنها لم تجب، وفتحتْ نافذة السيارة لأقصى حد... يبدو أنها مستاءةً وغاضبة!

ونحن نسير بالسيارة مررتُ مِنْ حارس الأمن ذاته فألقيتُ التحية عبر النافذة وانطلقتُ...

«كيف تلقي تحيةً على شخصٍ بغيض وغير مهذّب كهذا؟؟».

«لِمَ تقولين عنه ذلك؟؟».

«كلما خرجتُ لأرى ما إذا كنتَ قد وصلتَ أم لا، وجدتُه ينظر باتجاه المدخل... كان أجدر بك أنْ تصفعه... لقد كنتُ أخرج فأجد والدي في انتظاري هنا كل يوم... إيّاك وأنْ تتأخّر ثانيةً».

يا له مِنْ أسلوب!

«حاضر... أنا آسف».

صمتتْ برهة ثمَّ قالتْ:

«وكذلك ابقِ هاتفك المحمول مُشغلاً، كلما اتصلتُ وجدتُه مغلقاً».

وأخرجتُ هاتفي مِنْ جيبي فاكتشفتُ أنّه كان مغلقاً سهواً...

«حسناً... لم انتبه له».

وأيضاً صمتت برهة ثمَّ عادتْ تقول:

«ولا تخرج مِنْ السيارة... ابقَ حيث أنتَ وأنا سآتي إليكَ».

عجباً لأمر هذه الفتاة!

«ولِمَ؟؟».

قالتْ بعصبية:

«افعل ذلك فقط... هل لا فعلتَ؟؟».

«حسناً صغيرتي!».

لحظتها اجتاحتني رغبة بالضحك، كتمتُها عنوة! وتوقفتْ رغد عن الكلام...
وطوال الوقت ظلّتْ صامتةً بشكل لم يرحني... لا بد أنها لا تزال غاضبة لأنني تأخّرتُ...
حينما شارفنا على بلوغ المنزل... راودتني فكرةٌ استحسنها قلبي واستسخفها عقلي...
لكنني قبل أنْ أقع في دوامة التردُّد طرحتُ السؤال التالي:
«هل... هل ترغبين ببعض البوظة؟؟».
طبعاً السؤال كان غاية في السخف والحماقة... لكنني كنتُ أسيراً للذكريات... ففي تلك الأيام... كنتُ أغدق العطاء بالبوظة وغيرها على صغيرتي كلما غضبتْ لإرضائها!
شعرتُ بالندم وبالسخافة لأنني تفوّهتُ بهذه الجملة الغبية... وكنتُ على وشك الاعتذار غير أنّ رغد قالتْ بمرح وعلى غير ما توقعت:
«نعم... بالتأكيد!».
أوقفتُ السيارة عند محل لبيع البوظة، قريب مِنْ المنزل... وسألتُها:
«أي نوع تفضلين؟؟».
«سآتي معك».
دخلنا المحل، وكان يحوي عدداً مِنْ الزبائن، ما جعل رغد تسير شبه ملتصقةً بي.
بعد ذلك... انتهى بنا المطاف إلى المنزل، ولو تركتُ الساحة لأحلامي لأخذتني مع صغيرتي في نزهة... كما في السابق...
لكنني طردتها بعيداً وعدتُ بالصغيرة إلى المنزل... وأنا مسرورٌ ومرتاح... فرائحة الماضي أنعشتْ رئتي...
ليت الأقدار لم تفرّقني عنك يا رغد...
ليتك تعودين إليّ!
ليتنا نتناول البوظة أو البطاطا المقلية سوية... كما في الماضي...
ما أجملها مِنْ لحظات...
ونحن نحمل البوظة اللذيذة برضا وسرور دخلنا إلى داخل المنزل، ثمّ إلى غرفة المعيشة... حيث فوجئت بالنار تصهر ما بيدي... وما بصدري... وما بجوفي وداخلي...
هناك كان سامر يجلس مع والديّ ودانة... حضر على غير توقّع ودون سابق إبلاغ... حينما رآنا نهض بسرور وجاء يرحّب بنا...
نصيبي مِنْ الترحيب كان محدوداً... مقابل نصيب الفتاة التي تقف إلى جواري... تحمل البوظة في يد، والحقيبة في اليد الأخرى...
السعادة المؤقتة التي أوهمتُ نفسي بها تلاشتْ نهائياً... وأنا أرى سامر يطوّقها بذراعيه...
البوظة وقعتْ ولوّثتْ الأرض...
بل قلبي هو مَنْ وقع أرضاً ولوثتْ دماؤه الكرة الأرضية بأكملها...
انثنيتُ نحو البوظة المنصهرة أود التقاطها...

«دعها بني، أنا أرفعها».
وأقبلتْ أمي لتنظِّف ما تلوّث...
«ملابسك تلوَّثتْ وليد».
«حقاً؟ سأذهب لتغييرها».
أهي ملابسي مَنْ تأذَّت؟؟
وانصرفتُ مسرعاً... لا يحرّكني شيءٌ غير الغضب والغيرة المشتعلة في صدري... ورغبةٌ مجنونة في أنْ أوسع سامر ضرباً... إنْ بقيتُ انظر إليه دقيقة أخرى بعد...
مُحال أنْ أبقى في هذا المنزل ليلة أخرى... والليلة بالذات... سأرحل وبلا عودة.

- رغد -

بدأتُ أشعر بأنَّ وليد يهتم بي... إلى حدٍ ما... وهو شعور جعلني أحلّق في السماء.
واليوم، تأخّر عن موعد حضوره للجامعة عصراً، وبعدما وصل خرجتُ أنا وبعض زميلاتي كل واحدة في طريقها لسيارتها...
وليد كان يقف قرب حارس البوابة... وهو شخصٌ غير محترم... نبغضه جميعنا...
رأتني إحدى زميلاتي أنظر ناحية وليد فسألتني:
«إلى مِنْ تنظرين!؟».
قلتُ باستياء:
«مَنْ تظنين؟ الحارس؟ طبعاً إلى ابن عمّي».
قالتْ وهي تنظر إليه:
«تعنين هذا الرجل؟؟».
«نعم».
«واو! كل هذا ابن عمك!؟ حجم عائلي!».
وضحكتْ هي وفتياتٌ أخريات ضحكات خفيفة! وقالتْ أخرى:
«ما شاء الله! مع أنك صغيرة الحجم! أنتِ وثلاث أخريات معكِ مطلوبات مِنْ أجل التوازن!».
وضحكن كلهن! قلت بغضب:
«مهلاً فليس هذا هو خطيبي».
ثمّ ودّعتُهن على عجل وسرتُ نحوه...
عندما عدنا إلى البيت ونحن نأكل البوظة باستمتاع، وجدتُ سامر هناك فدُهِشتُ!
لم يكن قد أبلغنا بأنه قادم، كما وأنّه غير معتاد على الحضور نهاية أسبوعين متتاليين!
أخبرني في وقتٍ لاحق بأنّه اشتاق إليّ... ويريد أنْ نتحدّث عن ونرتب للزفاف المرتقب، والذي لم يسعه الوقت للحديث حوله في المرّة الماضية...

قضينا أمسية عائلية هادئة لم يشاركنا فيها وليد معلِّلاً بآلام معدته المزعجة...

أظن أنَّ السبب هو التدخين!

في اليوم التالي، أيقظتني أمي لتأدية صلاة الفجر... عندما رأيتُ عينيها حمراوين متورمتي الجفون، سألت بقلق:

«أمي.. ماذا هناك؟؟».

أمي مسحتْ براحتها على رأسي وقالتْ بحزن:

«رحل وليد».

جُنَّ جنوني...

وقفزتُ... وركضتُ خارجةً مِنْ غرفتي... إلى غرفة سامر... فوجدتها خالية... وجلتُ في أنحاء المنزل غير مصدّقة وغير مقتنعة... لا يمكن أنْ يكون قد رحل!

لقد وعد بألاّ يرحل دون وداعي... بل أقسم على ذلك...

تدفّقتْ دموعي كمياه السد المتهدّم... تجري بعنف وتدمّر كل أمل تصادفه في طريقها... باب المنزل كان موصداً... والدي وسامر قد ذهبا للمسجد... فتحتُ الباب... وخرجتُ إلى الفناء مُندفعة... ثمّ إلى البوّابة الخارجية... فتحتُ منها القدر الذي يكفي لأنْ أرى الموقف خالٍ مِنْ أي سيارات... استدرتُ... وهرولتُ أقصد المرآب... والدتي أوقفتْني... وأمسكتْ بكتفي...

«لا داعي يا رغد... لقد ودَّعنا قبل قليل...».

صُعِقتُ... وانتفضتْ أطرافي... وصحتُ:

«لماذا لم يودّعني؟؟».

أمي هزّت رأسها بأسى... صرختُ:

«لماذا يفعل بي هذا؟؟ لماذا؟؟ لماذا؟؟».

وأمسكتُ بعضدي أمي بقوّة... وزمجرتُ بعصبية:

«لماذا يعاملني بهذا الشكل؟؟ لقد وعد بألاّ يرحل دون وداعي... إنه كاذب... كاذب... كان يسخر مني... كان يستغفنلي ويهديني البوظة!... كما فعل في الماضي... أنا أكرهه يا أمّي... أكرهه... أكرهه... أكرهه...».

الحلقة العشرون

شمسٌ جديدة

- وليد -

لم يكن العثور على مزرعة نديم بالأمر السهل... استغرقتُ وقتاً لا بأس به في التفتيش، خصوصاً وأنا أقدم إلى هذه المدينة للمرّة الأولى.

المدينة الزراعية هي مدينة ريفية زراعية تكثر فيها الحقول والمزارع، وبها مِنْ المناظر الطبيعية الخلابة ما يبهج النفس المهمومة ويطرد عنها الحزن...

كان الوقت ضحىً عندما وصلتُ أخيراً إلى مزرعة نديم بعد مساعدة البعض.

كنتُ مرهقاً جداً، فأنا لَمْ أنم لحظة واحدةً منْذ نهضتُ صباح الأمس... ولم أهدأ دقيقةً واحدة مذ رأيتُ الخائنين يتعانقان أمامي...

عدا عن هذا، فإنَّ معدتي لم ترحم بحالي وعذّبتني أشدّ العذاب طوال هذه الساعات.

كانت مساحة المزرعة صغيرة، محاطة بسور وسياج، وبها الكثير مِنْ الأشجار المثمرة...

ركنتُ سيارتي جانباً ودخلتُ عبر البوابة الكبيرة المفتوحة. كنتُ أسير ببطءٍ وأراقب ما حولي، ورأيتُ منْزلاً صغيراً في آخرها.

فيما أنا أسير نحو المنزل لمحتُ سيدة تقف عند الأشجار، وإلى جانبها عدَّة صناديق خشبيّة مليئة بالثمار.

كانت السيدة تقطف الثمار وتضعها في تلك الصناديق. وكانتْ ترتدي جلباباً واسعاً وتلف رأسها بوشاح طويل...

اقتربتُ ببطء مِنْ السيدة وأصدرتُ نحنحةً قويّة للفتِ انتباهها.

السيدة استدارتْ نحوي ونظرتْ إليَّ بتساؤل، ومِنْ الوهلة الأولى توقّعتُ أنْ تكون امرأة أجنبية، في الأربعينات منْ العمر.

قلتُ:

«معذرة سيدتي، إنني أبحث عن مزرعة السيد نديم وجيه وعائلته».

«مَنْ أنتَ؟؟».

«أنا صديق قديم له، أُدعى وليد شاكر».

تهلّل وجه السيدة، وقالتْ:

«أنتَ صديق نديم؟؟».

قلتُ:

«نعم... في الواقع كنتُ زميلاً له في...».

وصمتّ لحظة، ثمّ تابعتُ:

«في السجن...».

علامات الاهتمام ظهرتْ جليّةً على وجه السيدة وأخذتْ تحدّق بي، فخجلتُ وغضضتُ بصري. قالتْ:

«أنا زوجة نديم... أحقاً تعرفه؟».

«نعم... سيدتي وهو مَنْ دلّني إليكم».

«وأين هو الآن؟؟ ألا يزال في السجن؟؟».

صُعِقتُ لدى سماعي هذا السؤال ورفعتُ بصري إليها فوجدتُها تكاد تخترقني بنظراتها القوية الملهوفة جداً...

عادتْ تكرّر بخشية:

«أما زال في السجن؟؟».

ربّاه! لقد قُتِل نديم قبل سنين! ألَمْ يخبروا أهله بذلك؟؟ بِمَ أجيب هذه السيدة الآن؟؟ أنا في ورطة. السيدة رفعتْ يدها إلى صدرها كمَنْ يتوقّع خبراً سيئاً، قرأته في عيني...

أنا هربتُ بعيني... نحو أشياء عدّة... إلا أنني في النهاية عدتُ أواجه نظراتها... وقلتُ بنبرةٍ حزينة:

«البقاء لله».

السيدة هلعتْ... وانفتحتْ حدقتاها على مصراعيهما وانفغر فاها...

ثمّ لطمتْ صدرها... وخدّها... وصرختْ:

«وا مصيبتاه...».

أنا كنتُ أريد أنْ... أعتذر عن نقل خبر مفجعٍ كهذا وأتمتم بكلمات المواساة، ولكني لم أعثر على ما يلائم... كما وأنني شُغِلتُ بحالة السيدة المفجوعة...

فجأة... ترنّحتْ السيدة وهوتْ أرضاً! اقتربتُ منْها مذعوراً وناديتُ بصوت خائف:

«سيّدتي!».

وظهر لي أنها فقدتْ الوعي. عدتُ أنادي دون جدوى... ارتبكتُ ولم أعرف كيف أتصرّف... تلفتُّ يمنةً ويُسرة ولم أجد أحداً، وناديتُ بأعلى صوتي:

«أيسمعني أحد؟؟ ساعدوني...».

ولم أسمع أو أرى أي تجاوب... لم يكن في المزرعة على ما يبدو غير هذه السيدة. ركضتُ بسرعة نحو ذلك المنزل وأنا أنادي:

«أمِنْ أحدٌ هنا؟ أرجوكم ساعدوني».

وقفتُ أمام المنزل برهة، ثمّ اقتحمتُه! كنتُ أنادي واستنجد... وكانتْ أبواب المنزل مفتوحة...

فجأة وصلني صوتٌ مِنْ خلف أحد الأبواب:
«مَنْ هناك؟؟».
قلتُ بسرعة:
«أسرعوا... السيدة في الخارج فقدتْ وعيها».
اندفع الباب مُنْفتحاً فجأةً وبقوة كادتْ تصدّع الجدار الذي اصطدم به، وانطلق مِنْ الداخل شهابٌ ذهبي!
«أمي!».
صرختْ الفتاة الشقراء التي ظهرتْ مسرعة وركضتْ مسرعةً كالبرق نحو الخارج وأنا... أتبعها...
وصلنا إلى حيث السيدة، وبدأتْ الفتاة تصيح وتصرخ بذعر...
«أمي... أمي... ردّي عليَّ أرجوكِ...».
وهوتْ إلى جانبها تحاول إيقاظها. أنا وقفتُ مذهولاً مسلوب الإرادة والتفكير... الفتاة أخذتْ تنادي بصوت قوي:
«خالي... تعال بسرعة».
تلفتُّ منْ حولي ولم أرَ أحداً... نهضتْ الفتاة الشقراء بسرعة وركضتْ مبتعدةً وهي تنادي:
«خالي... أسرع».
يا إلهي... هل ماتتْ السيدة؟؟ إنني مَنْ تسبب في موتها... ماذا أفعل الآن؟؟
لحظة شعرتُ فيها برغبة قوية في الهروب... لكن رجليّ لم تسعفاني...
ظهرتْ الآن الفتاة الشقراء، تمسك بيد رجلٍ عجوز أشقر، تجبره على الركض، وهو لا يقوى عليه...
وأخيراً وصلا إلينا... في نفس اللحظة التي بدأتْ فيها السيدة تفتح عينيها...
أقبلتْ الفتاة بسرعة لمساعدة أمّها على الجلوس وهي تقول بفزع:
«أمي... ماذا جرى لكِ؟؟».
السيدة بدتْ مُتعبَة ومنْهارة، وضعتْ رأسها على صدر ابنتها وأغمضتْ عينيها... الفتاة نظرتْ الآن ولأوّل مرّة نحوي أنا!
«مَنْ أنتَ؟؟ ماذا حدث؟؟».
ارتبكتُ وبدأتُ أُتأتئ. الرجل العجوز اقترب مِنْ السيدة وقال:
«ليندا! ماذا جرى لكِ؟؟».
قالتْ الفتاة:
«يجب أنْ ننقلها إلى المستوصف... هيا بسرعة».
وتعاون الاثنان على إسنادها... قال العجوز:

«السيارة في المؤخرة!».
قالتْ الفتاة:
«أوه كلاًّ!».
حينها أنا تدخّلتُ وقلتُ:
«أيمكنني المساعدة؟؟ لديَّ سيارةٌ تقف بالخارج... على مقربة».
نظر العجوز إليَّ، وكأنّه ينتبه لوجودي الآن فقط، وقال:
«مَنْ أنتَ؟؟».
قلتُ:
«أنا... وليد شاكر... صديق نديم».
الفتاة نظرتْ إليَّ باهتمام، إلا أنَّ والدتها تأوّهتْ، فأهملتْ الفتاة نظراتها إليَّ ونادتْ:
«أمي... تماسكي أرجوك...».
قلتُ:
«تعالوا معي...».
ولم يتردّد الآخرون كثيراً، بل ساروا خلفي مباشرة...
وُضِعتْ السيدة في السيارة، وجلس الرجل العجوز إلى جانبي، ثمَّ ذهبتْ الفتاة مسرعةً وعادتْ خلال ثوانٍ، وجلستْ إلى جانب أمها في على المقاعد الخلفية.
تولّى العجوز إرشادي إلى أقرب مستوصف، وهناك تمَّ إسعاف السيدة وإجراء اللازم...
الأحداث جرتْ بسرعة لدرجة أنني لا أتذكّر بقيّة التفاصيل!
قال الطبيب:
«نوبة قلبية... يجب أنْ تُنقل للمستشفى مِنْ أجل الملاحظة والعلاج».
رباه!
هل تسبّبتُ دون قصدٍ منّي في نوبةٍ قلبية لزوجة صديقي؟؟
كم أنا نادم على الحضور... بل نادم على تذكر وصيتك يا نديم... فعوضاً عن مساعدة عائلتك ها أنا أتسبّب بمرض زوجتك!
الذي حدث هو أنَّ صحة السيدة تحسّنتْ قليلاً، ورفضتْ هي الذهاب للمستشفى وأصرّتْ على العودة إلى المزرعة.
بصعوبة أقنعتْها ابنتها بالبقاء بعض الوقت، حتى تتحسّن أكثر. تُركت السيدة في غرفة الملاحظة، وبقينا أنا والعجوز على مقربة...
الآن تخرج الفتاة مِنْ الغرفة، وتأتي نحونا. العجوز يبادر بالسؤال:
«كيف هي؟؟».
«نائمة، لكنها أفضل».
وبعدها تنظر إليَّ أنا. غضضتُ بصري... فسألتني:

«مَنْ أنْتَ؟؟».

«وليد شاكر... كنتُ أحد أصدقاء السيد نديم وجيه».

«إنه والدي».

«نعم... عرفتُ».

«ولِمْ جِئتَ لمزرعتنا؟ ألا تعرف أنَّ أبي في السجن منْذ سنين؟؟».

صمتُّ... إذا ما بإمكاني القول؟؟ قالتْ:

«بِمَ أخبرتَ أمي؟؟».

وأيضاً بقيتُ صامتاً... قالتْ:

«والدي قُتِل... أليس كذلك؟؟».

رفعتُ نظري إليها منْدهشاً... وأسِفاً... وكم كانتْ تعبيرات وجهها تنمُّ عن القوة والجرأة. ثمَّ نظرتُ إلى الرجل العجوز... فرأيتُه هو الآخر يحملق بي...

قلتُ:

«أنا... آسف...».

خشيتُ أنْ تأتي ردّة فعل الفتاة كأمها لكنني عجِبتُ مِنْ رباطة الجأش والصمود اللذين تملّكاها. قالتْ:

«كنتُ أتوقّع ذلك...».

ثم انصرفتْ عائدة نحو الغرفة.

بعد ذلك بدأ العجوز يستجوبني... وسردتُ عليه بعض أخبار نديم وأوضاعه في السجن قبل موته... وعلمتُ أنهم كانوا قد مُنِعوا مِنْ زيارته والتواصل معه بأي طريقه، ولم يُبلّغوا بنبأ وفاته...

وكم أثار ذلك حزني وحنقي...

أبعد العذاب الذي صبّوه عليه كل تلك المدة، يقتلونه ويدفنونه ثمَّ لا يبلّغون أهله حتى بأنه مات!؟

اتركوا العائلة تعيش مرتقبةً عودته فيما هو رميم تحت الأرض..؟؟

طال الانتظار، ولم أعرف... أعليَّ الذهاب وتركهم؟؟ أم علي البقاء ومساعدتهم؟ ولكنني آثرتُ البقاء... مِنْ باب الأدب والوفاء لصديقي الراحل...

بعد فترة، اشتدَّ عليَّ ألم معدتي، وبدأتُ أحسُّ بالغثيان والدوار...

لم أكن قد تناولتُ شيئاً بعد تلك البوظة الأخيرة. لاحظ العجوز اضطرابي ووهني، إذ كنتُ أسند رأسي إلى الحائط القائم خلف المقعد الذي أجلس عليه تارةً، وأنحني للأمام وأضغط بيدي على معدتي تارةً أخرى.

«هل أنتَ على ما يرام؟؟».

سألني العجوز... أجبتُ:

«أشعر بالإعياء...».

قمتُ بصعوبة، وسرتُ خطىً متعثرة حتى وصلتُ إلى عيادة الطبيب... رميتُ بجسدي على السرير وقلتُ:

«أنا مرهق... ساعدني...».

اشتدَّ بي الدوار وجعلتُ أتقيأ... عصارةً ممزوجةً بالدم...

بعد أربعين دقيقة مِنْ العلاج شعرتُ بتحسّنٍ كبير... وشكرتُ الطبيب. الطبيب سألني عدة أسئلة عرف مِنْها عن آلام معدتي المتكررة والدماء التي تخرج مِنْ جوفي فأجرى لي بعض الفحوص ثمَّ رتّب لإرسالي إلى قسم المناظير لإجراء منْظرة لمعدتي...

الرجل العجوز كان يأتي للاطمئنان عليَّ بين الفينة والأخرى...

«أأنتَ بخير يا هذا؟».

«أنا بحال أفضل الآن. شكراً لسؤالكَ أيّها العم، ماذا عن السيدة؟».

«لا تزال نائمة ويريد الطبيب نقلها إلى مستشفى أكبر، لكن ظروفنا لا تسمح بذلك».

دخلتْ الممرضة إلى الغرفة وقالتْ:

«هيا يا سيّد، سنأخذكَ إلى قسم المناظير».

الرجل العجوز نقل بصره بيني وبينها في تساؤل، فقلتُ:

«سأعود».

وذهبنا إلى قسم المناظير وتمَّ إجراء مَنْظرة لمعدتي... وبعد الفراغ مِنْ ذلك قال لي الطبيب:

«إنها قرحة نازفة... في معدتك أيها السيّد».

خمس ساعات مضتْ ونحن في ذلك المستوصف، ننتظر تحسّن السيدة زوجة نديم كي نغادر.

وصف لي الطبيب أدوية اقتنيتُها مِنْ صيدلية مجاورة، بسعر باهظ... كما وأنني دفعتُ مبلغاً كبيراً نسبياً مِنْ أجل مستحقات الطبيب والفحوص والمنظرة. أتساءل، أي مبلغ خسرتْ عائلة نديم يا ترى؟؟

أقف الآن عند المخرج، وأرى الفتاة، ابنة نديم تدفع كرسي العجلات الذي تجلس عليه والدتها، وإلى جانبهما العجوز الطيب.

حينما صاروا قربي، انطلقتُ نحو السيارة وأنا أقول:

«مِنْ هنا رجاءً».

أخذ الثلاثة يتبادلون النظرات، ثمَّ نظروا إلي. في أعينهم كانتْ آثار الدموع واضحة، كما علامات الحيرة والتردد. قلتُ:

«سأوصلكم إلى المزرعة... إنْ سمحتم؟؟».

وصلنا إلى المزرعة وطلب منّي العجوز أنْ أوقف السيارة في الداخل، إمام المنزل

مباشرة. قام الاثنان بمساعدة السيدة على السير حتى دخلوا المنزل، وأنا واقفٌ أراقب إلى جانب سيارتي... بعد قليل حضر العجوز وناداني:

«تفضل بالدخول يا... ما قلتُ اسمك؟».

«وليد... وليد شاكر أيها العم».

«تفضل يا وليد شاكر».

تردّدتُ قليلا، إلا أنني آثرتُ البقاء معهم لبعض الوقت، إذ لا بد أنهم يودّون معرفة شيءٍ منْ تفاصيل موت نديم، رحمه الله.

المنزل كان صغيراً وبسيطاً، وأثاثه عادي وقديم، ما يعطي الزائر انطباعاً عن المستوى المادي البسيط الذي تعيش به هذه العائلة الصغيرة.

أخذني العجوز إلى الصالة الرئيسية في المنزل، وبعد أنْ جلستُ بدأ يرحّب بي...

«أهلاً بك... نحن شاكرون لكَ صنيعك النبيل».

«لا داعي لأي شكر أيها العم... بل أنا آسف على نقل الخبر الأليم».

«لا عليك. كيف تشعر الآن؟؟ هل تحسّنت؟؟».

«كثيراً ولله الحمد، كل ما في الأمر أنني قضيتُ ساعات طويلة بلا نوم ولا طعام لذا داهمني الدوار والإعياء!».

«نعم أجل... الطعام».

ونهض وذهب إلى غرفةٍ مجاورة، وعاد مع الفتاة. الفتاة ألقتْ تحية علي، ونطقتْ ببعض كلمات الترحيب، ثمَّ استأذنتْ.

أخذنا أنا والعجوز نتحدّث عن نديم ومأساة وفاته...

«لقد كنا نتوقّع ذلك، فجميع مَنْ سُجِنوا معه بلغتْنا أنباء وفاتهم، كل هذه السنين ونحن لسنا على يقينٍ مِنْ حياته أو موته... ليندا لم تفقد الأمل في عودته ذات يوم».

كم شعرتُ بالأسى... لأجل هذه العائلة البائسة... التي عاشتْ محرومةً مِنْ مُعيلها كل تلك السنين، وبعد كل هذا الانتظار تكتشف أنّه مات!

كيف يفعلون هذا؟؟ يسجنونه ويعذّبونه ويقتلونه، ثمَّ لا يخبرون أهله بأنه مات؟؟

«يوم وفاته... طلب منّي أنْ أزور عائلته وأطمئن على أحوال أهله... وأخبرهم بأنه كان بريئاً مِنْ التهمة المنسوبة إليه وسُجِن ظلماً... وظلَّ مشتاقاً إليكم حتى آخر حياته... كان ذلك قبل سنين... إلا أنّني...».

العجوز كان يراقبني باهتمام شعرتُ معه بالخجل، وبرغبة في الاختفاء في الحال!

«رحِمَه الله... وانتقم مِمّنْ ظلمه. ها نحن نعيش حياتنا والحمد لله... أدعوه أنْ يحفظ لي صحّتي وقوّتي لأرعى أختي وابنتها».

وهنا دخلتْ (ابنتها) تحمل صينية ملأى بالطعام. وضعتْ الصينية على الطاولة الماثلة أمامي وعادتْ ترحّب بي... ثمَّ قالتْ:

«تفضَّل يا سيِّد وليد».

وانصرفتْ. شعرتُ بالحرج... فأنا وسط عائلة غريبة عليَّ... أناس لم يسبق لي رؤيتهم قبل اليوم... وهم على ما يبدو كرماء!

«تفضَّل يا بني... طعام خفيف لحين موعد العشاء».

دُهِشْتُ وقلتُ:

«العشاء!؟».

«نعم.. فأنتَ ستتناول عشاءك معنا هذه الليلة».

«أوه كلاَّ... إنني... إنني سأنصرف بعد قليل».

وأصرَّ العجوز على استضافتي ليس فقط على العشاء، بل وللمبيت عندهم هذه الليلة!

العشاء كان لذيذاً جداً، علمتُ أنَّ الفتاة هي التي أعدَّته! كما علمتُ أنَّ حالة السيدة قد تحسَّنتْ، ولذا فإنها وابنتها كذلك شاركتانا الجلسة بعد الوجبة.

الثلاثة يبدون متشابهين في المظهر! جميعهم مِنْ السلاسة الشقراء!

السيدة كانت تمطرني بالأسئلة عن نديم وما حصل معه، وأنا أحاول الإجابة بالقليل الذي لا يسبِّبْ لها انتكاسة، ومع ذلك أخذتْ تبكي، وتبعتها ابنتها. قالتْ الابنة بانفعال وهي لا تملك منْع نفسها عن البكاء:

«أرجوك يا أمي توقَّفي عن البكاء... كنتِ تعرفين أنّه لن يعود... جميعنا نعلم أنهم ولا شكَّ قتلوه... الظلمة القساة الحقرة... الأوغاد المجرمون... احرقهم يا رب جميعاً... انتقم منْهم فأنتَ العزيز ذو الانتقام... وافعل بهم ما فعلوه بنا... وأفظع».

أما أنا فقد كنتُ أردِّد دعوتها عليهم في صدري... يا رب انتقم منْهم جميعاً...

عاد بي شريط الذكريات إلى سنين السجن... وعذاب السجن... والزنزانة... والطعام الرديء... والأسرَّة المهترئة... والحشرات!... والرائحة العفنة... التي اختزنتْ في ذاكرة أنفي! أكاد أشمها!

رفعتُ يدي إلى أنفي أسدّه لأمنْع ذكرى الرائحة الكريهة مِنْ التسلُّل إلى تجويف أنفه، فلامستْ أصابعي الحفرة الصغيرة التي تركها السجن علامةً عليه... شعرتُ بنار تتأجَّج في صدري... نارٌ كنتُ أخالها قد خمدتْ بعد هذه الشهور التي قضيتُها خارج السجن... إلا أنني... وأنا أرى المناحة والبؤس والدموع المنسكبة مِنْ أعين الأرملة واليتيمة... وأتذكَّر نديم وهو يحتضر... والكدمات والجروح التي كانتْ تغطي جسمه أكثر مِنْ شعيرات جلده... عادتْ واشتعلتْ بعنف...

ومنْ خلال الساعات التي قضيتُها في تبادل الأحاديث معهم، شعرتُ بقربي لهم وقربهم مني... وكأنني وسط عائلتي، وكأنني أعرفهن مِنْ سنين...

لقد ألفتُ هذه العائلة وأحببتُها في الله!

في اليوم التالي، ورغم أنني نمتُ باكراً كما نامتْ العائلة، استيقظتُ قرابة الساعة الحادية

عشرة...

كنتُ قد نمتُ في غرفة صغيرة في الطابق السفلي للمنزل مفترشا فراشاً أرضياً بسيطاً وملتحِّفاً ببطانية ثقيلة.

على الأقل، وفّرتُ كلفة ليلةٍ واحدة كنتُ سأبيتها في فندقٍ أو ما شابه...

نهضتُ وخرجتُ مِنْ الغرفة وأنا أتنحنح...

بعد قليل، كنتُ أقف في الصالة الرئيسية وحيداً، تلفّتُّ مِنْ حولي فلم أشعر بأي حركة توحي بوجود كائن حي على مقربةٍ منِّي!

مضيتُ نحو المخرج، وخرجتُ مِنْ المنزل راغباً في استنشاق الهواء العليل العابق برائحة الأشجار والزهور...

كم كان مُنْعشاً وباعثاً للنشاط!

أخذتُ أتجوّل سيراً حول المنزل وفي ممرّات المزرعة... وأتأمّل الجمال الطبيعي مِنْ حولي، وأستمع إلى غناء العصافير وأشاهد استعراضاتها الجميلة في السماء...

المكان كان غاية في الروعة... وأيْ امرئ يقضي هنا سويعات معدودة، لا شك أنّه سيخرج بنفسٍ مبتهجة ونفسية مرتاحة!

فيما أنا أسير... وجدتُ السيدة والفتاة على مقربة...

كانتا ترتديان ملابس سوداء... ربما حداداً على تأكيد موت نديم، رحمه الله... وكانتا تسحبان صناديق مليئة بالثمار... تجرانها جراً... إلى حيث تقف سيارة حوض زرقاء، يعلو حوضها الرجل العجوز، ويقوم بترتيب صناديق الثمار المكشوفة، التي ترفعها السيدة والفتاة متعاونتين وتضعانها في الحوض.

تفعلان ذلك، ثمَّ تعودان لجر المزيد مِنْ الصناديق...

اقتربتُ مِنْ السيارة وألقيتُ التحية على العجوز المنهمك في ترتيب الصناديق، ويبدو أنه لمْ يسمع!

تبعتُ السيدتين إلى حيث وجدتُ مجموعة مِنْ الصناديق المليئة بالثمار تنتظر دورها للشحن في السيارة...

وهاهما تسيران نحوي وتجرُّ كل واحدة منْهما صندوقاً جديداً...

«صـ باح الخير».

حيَّيتُهما فتركتا الصندوقين وردّتا التحية، ثمَّ قالتْ السيدة:

«هل نمتَ جيداً؟ أتمنى ألا يكون الفراش قد أتعبك؟؟».

«على العكس... نمتُ بعمق... شكراً لكم جميعاً».

السيدة قالتْ مخاطبة ابنتها:

«أروى اذهبي وأعدِّي الفطور لضيفنا».

الفتاة نظرتْ إلى الصندوق ثمّ إلى أمها وقالتْ:

«حسناً».
وهمَّتْ بالذهاب...
أنا قلتُ:
«شكراً لكن لا داعي لذلك... لا أشعر بالجوع الآن».
قالتْ السيدة:
«بلى! سيكون فطورك جاهزاً خلال دقائق، ومعذرة فأخي مشغولٌ الآن لكن تصرّف بحرية».
ثم التفتتْ إلى الفتاة وقالتْ:
«هيا أروى».
الفتاة ذهبتْ في طريقها إلى المنزل... والسيدة تابعتْ سحب صندوقها...
سرتُ أنا نحو الصندوق الآخر، وحملتُه ونقلتُه إلى حوض السيارة... فيما هي لا تزال تجر صندوقها!
الآن انتبه العجوز إليَّ!
«صباح الخير أيها العم».
«أوه! شاكر... نهضتَ إذن! لا بد أنك كنتَ متعباً جداً! صباح الخير».
وضعتُ الصندوق في السيارة وقلتُ:
«كنتُ، لكنني الآن بحالة ممتازة والحمد لله. شكراً لكم. اسمي وليد أيّها العم!».
سحب العجوز الصندوق ليصفه بنظام قرب أخوته ثمَّ قال:
«أجل تذكّرتُ! وليد. سآخذ هذه إلى السوق، أتفضِّل انتظاري أو مرافقتي؟».
نظرتُ ناحية السيدة المقبلة تجرُّ الصندوق، ثمَّ إلى العجوز وقلتُ:
«أفضِّل مساعدتكم!».
ثم بدأتُ بنقل الصناديق واحداً تلو الآخر... وطلبتُ مِنْ العجوز أنْ يطلب مِنْ السيدة أنْ ترتاح، فقد عاشتْ أزمةً قلبية يوم أمس!
أقبلتْ الفتاة بعد ذلك، ورأتني أحمل أحد الصناديق... فتعجّبتْ! ثمَّ قالتْ:
«طعامكَ جاهز أيها السيد... تفضّل إلى المنزل».
ومضتْ نحو ما تبقى مِنْ الصناديق وجرّتْ أحدها. وضعتُ ما بيدي في حوض السيارة، وعدتُ ناحية الصناديق...
كانتْ الفتاة تجر صندوقها بجهد... قلتُ:
«دعي الأمر لي سيدتي أستطيع نقلها جميعاً وحدي دون عناء».
فتركتْ صندوقها وتنحَّتْ جانباً، فحملتُه ونقلتُه إلى السيّارة، وسارتْ هي مِنْ بعدي حتى صارتْ واقفةً إلى جوار والدتها...
انتهيتُ مِنْ مهمتي، فشكرني الجميع ثمَّ قالتْ السيدة الأم:

«لقد برد فطورك! أرجوكَ تفضَّل لتناوله».

شعرتُ بالخجل، ونظرتُ نحو الأرض بحياء، فنادتْ السيدة على العجوز:

«إلياس... تعال لتكرم ضيفنا!».

نزل العجوز أرضاً، ورافقنا نحو المنزل. هناك جلستُ عند المائدة أتناول فطوري الشهي، وإلى جانبي العجوز يشرب الشاي، بينما السيدة وابنتها تراقباننا عن بعد وتتابعان أحاديثنا!

في معرض الحديث، قال العجوز:

«ليتني أعود لمثل شبابك وقوّتك! اخبرني... ماذا تعمل؟؟».

توقّفتُ عن مضغ اللقمة الموجودة في فمي، وابتلعتُها كما هي!

«في الواقع أيها العم الطيِّب... أنا عاطلٌ عن العمل!».

دُهِشَ العجوز، فأخبرتُه بأنَّ تخرُّجي مِنْ السجن حال دون قبولي في الوظائف التي حاولتُ الالتحاق بها، وأخبرتُه إنني هنا للبحث عن عمل...

قال:

«شُبّان هذه الأيام يحبّون الوظائف المكتبية والإدارية التي لا تتطلّب مِنْهم سوى الجلوس على المقعد وتقليب الأوراق! سيصعب عليك العثور على وظيفة كهذه في هذه المدينة!».

«سأجرّب! فإنْ فشلتُ، عدتُ مِنْ حيث أتيتُ!».

قال:

«إذن... ما هي خطّتك الآن؟؟».

«سأذهب إلى قلب المدينة، استأجر غرفةً صغيرة، وأبحث عن وظيفة... عسى الله أنْ يوفِّقني هذه المرة».

بعد ذلك رافقتُ العجوز إلى السوق، حيث قام ببيع الثمار على أحد تجار الخضار والفاكهة، ثمّ عدنا إلى المزرعة...

حينما وصلتُ، وفيما أنا في طريقي إلى سيارتي، لمحتُ السيدتين واقفتين عند الأشجار، تقطفان الثمار وتجمعانها في السلات والصناديق...

نظرتُ إلى العجوز السائر جواري وقلتُ:

«ألا يساعدكم أحد في العناية بهذه المزرعة؟؟».

«كلا! نحن الثلاثة مَنْ يعتني بها، لكننا نستأجر بعض العمَّال لقطف الثمار أو التنظيف أو ما إلى ذلك مِنْ حين لآخر!».

يا للحياة الشاقة التي تعيشها هذه العائلة! لو تعلم يا نديم...!

«دعوني أساعدكم قبل المغادرة!».

وبدأتُ العمل! قطفنا كميات كبيرة مِنْ الثمار، ووزَّعناها على الصناديق، وتركناها قرب بعضها البعض، لحين الغد، حيث سيتم نقلها إلى السيارة مِنْ جديد...

بعد ذلك قمنا بجمع الأوراق والثمار المتساقطة وتنظيف الأرض!

كل ذلك استغرق منّا ساعات مِنْ العمل، وكلّما حاول العجوز ثنيي أو الاعتذار، قلتُ له: «هذا واجبي، ونديم يستحق أكثر مِنْ ذلك».

بعد ذلك، دخلنا إلى المنزل ومِنْ ثمّ تناولتُ وجبة الغداء المتأخّرة مع العجوز الطيب...، شكرتُه على حسن ضيافته ووعدتُه بالعودة لزيارتهم كلما أمكنني...

وخرجتُ مِنْ المنزل وركبتُ سيارتي الواقفة أمام المنزل، وسرتُ بها...

عبرتُ على مجموعة الصناديق، وفكّرتُ... في العناء الذي ستلاقيه السيدتان غداً في نقلها إلى السيارة الزرقاء... غداً وبعده وكل يوم... اعتقد أنّ مِنْ واجبي تقديم المزيد مِنْ المساعدة لهذه العائلة التي أوصاني صديقي الراحل بها خيراً.

أوقفتُ السيارة وعمِدتُ إلى الصناديق وجعلتُ انقلها إلى السيارة الزرقاء المركونة على مقربة، واحداً تلو الآخر... دون علم أحد!

الشمس كانتْ على وشك المغيب... لم أكن أشعر بأي تعب أو إعياء يُذكر، كما وأنّ آلام معدتي قد اختفتْ تقريباً بعد العلاج السحري الذي وصفه لي الطبيب! أو ربما العلاج السحري في هذه المزرعة الجميلة ومناظر الطبيعة الخلابة، والهواء المنعش...

كم أنا سعيد لأنني استطعتُ خلال الساعات الماضية طرد آلامي الجسدية والنفسية... وأفكاري المهمومة... بما فيها الخائنة رغد!

رغد...

ما تراكِ تفعلين الآن؟؟؟ وما تراك فعلتِ بعد علمكِ برحيلي؟؟

ما تراكِ فاعلة إنْ علمتِ أنني لنْ أعود إليكِ مرّة أخرى... وأنني في سبيل الابتعاد عنكِ مستعدٌ لهجر أهلي للأبد؟؟؟

«ماذا تفعل!».

روعتُ فجأة حين سمعتُ صوتاً آتٍ مِنْ خلفي، واستدرتُ بفزع!

كانتْ ابنة نديم!

كنتُ أحمل الصندوق على ذراعي وأسير نحو السيارة الزرقاء، وأفكّر في رغد!

ثمّ وجدتُ نفسي في موقفٍ لا أُحسد عليه، أمام ابنة نديم... تنظر نحوي بدهشة!

تأتأتُ في الحديث، قلتُ:

«أأأ... فكّرتُ في... بما أنني لا زلتُ هنا... يمكنني المساعدة قبل... معذرة فأنا لم أقصد سوءاً!».

وخفضتُ بصري نحو الأرض...

شعرتُ بثقل الصندوق فوق يدي، فرفعتُه أكثر، ثمّ اعتذرتُ، وذهبتُ إلى السيارة لأضعه فيها...

الفتاة تبعتْني، وأخذتْ تنظر إلى الصناديق الموضوعة في السيارة بتعجب!

قالتْ:

«لم كلّفتَ نفسك عناء كل هذا!؟ لم يكن واجباً عليكَ!».

قلتُ:

«بلى... مِنْ واجبي ومِنْ دواعي سروري أيضاً! نديم كان صديقي الحميم في السجن... ليتني أملك أكثر مِنْ هذا لأفعله مِنْ أجله... وأجل عائلته».

الفتاة قالتْ بعد صمتٍ قصير:

«شكراً لكَ... أنتَ رجلٌ نبيل».

وصمتتْ، ثمّ قالتْ:

«لماذا دخلتَ السجن؟؟».

ولمّا لم تجد منّي جواباً، قالتْ:

«اعتذر... تجاهل سؤالي إنْ كان يزعجك...».

أنا كنتُ في غاية الاضطراب، هناك مواقفٌ كثيرة في الحياة لا أعرف التصرّف حيالها، وهذا أحدها!

سرتُ إلى الصناديق وتابعتُ عملي بصمت وهدوء، وإنْ كان داخلي متوتّراً مُضطرباً، والفتاة واقفة على مقربة!

متى تنقشعين!؟ يبدو أنها امرأة قويّة وجريئة!

ربما لأنَّ أمُّها - وكذلك خالها - مِنْ أصل بلدة أخرى... ذات طباع وشخصيات أخرى... غريبة ومختلفة عما تعوّدتُ أنا عليه!

بعد فراغي مِنْ نقل الصناديق، قالتْ لي:

«شكراً لكَ يا سيّد وليد... والدي يعرف كيف يختار أصدقاءه...».

قلتُ بخجل:

«العفو... سيدتي».

ثم ابتعدتُ وأنا أقول:

«مع السلامة».

- رغد -

«وقعتِ أخيراً!».

صاحتْ نهلة بصوتها العالي وهي تشير بإصبعها نحوي، وتضيّق الحصار عليّ! تلفّتُّ مِنْ حولي وقلتُ:

«نهلة أرجوكِ! اخفضي صوتكِ! لا بد أنَّ أمي تسمعه في المطبخ!».

نهلة أقبلتْ نحوي وهي لا تزال تمدُّ بسبّابتها نحوي حتى تكاد تفقأ عيني! قالتْ بحدّة ومكر:

«اعترفي يا رغد... لن يُجدي الإنكار أو المواراة! أنتِ مهووسةٌ بابن عمّك!».

مددتُ يدي وأمسكتُ بعنقها وضغطتُ عليه!

«سأخنقكِ يا نهلة».

نهلة الأخرى طوّقتْ عُنقي بيديها وقالتْ تمثل دور المخنوقة:

«سأنطق بالحق حتى النفَس الأخير... رغد تحب ابن عمّها وليد... دون أنْ تدرك اللهمّ إني بلّغت، اللهمّ فاشهد!».

وبالفعل كدتُ أخنق هذه الفتاة! طرقٌ على الباب منَع جريمتي مِنْ الوقوع! تركتُ عنق ابن خالتي ومضيتُ لفتح الباب... كانتْ دانة!

«رغد... وليد على الهاتف! إنْ كنتِ ترغبين بإلقاء التحية!».

حدّقتُ بها لثوانٍ شبة واعية لما قالتْ، ثمَّ انطلقتُ مسرعةً إلى حيث كانتْ والدتي تمسك بسماعة الهاتف وتتحدّث إلى وليد...

عندما رأتْني أمي قالتْ له:

«بُني... هذه رغد ترغب في التحدّث معكَ».

ومدّت السماعة إليّ...

أخذتُ السماعة وألصقتُها بإذني وفمي! بقيتُ صامتة لثانيتين، ثمّ قلتُ:

«وليد؟؟».

أستوثق مِنْ كونه هو مَنْ على الطرف الآخر... صوت وليد وصلني خافتاً وهو يقول:

«مرحباً... صغيرتي».

بمجرد أنْ سمعتُ صوته، انفجرتُ!

قلتُ بصرخةٍ منْطلقة مِنْ أعماق حنجرتي بجنون:

«كذّاااااااااااب».

وأغلقتُ السماعة، وجريتُ نحو غرفتي، وصفعتُ الباب وأوصدتُه بانفعال!

نهلة أخذتْ تنظر إليّ باندهاش واستغراب...

«رغد!؟؟».

صرختُ بانفعال...

«رغد تكره وليد... أفهمتِ؟؟ تكرهه... تكرهه... تكرهه».

ومضيتُ إلى سريري فجلستُ وسحبتُ الوسادة، وغمرتُ وجهي فيها... حتى كدتُ اختنق!

بعد قليل، نهلة ربّتتْ على كتفي وقالتْ:

«نعم... مفهوم».

أبعدتُ أنا الوسادة عن وجهي وتنفّستُ الصعداء... وسمحتُ لنظرات نهلة بسبر غوري...

«عزيزتي...».

ما إن قالتْ نهلة ذلك وبنبرة تعاطف حتى انهرتُ تماماً... ورميتُ برأسي في حضنها وطوّقتُها بذراعي باستسلام... قلتُ وأنا في غمرة الحزن... في لحظة صدق واعتراف:

«لماذا رحل دون وداعي؟؟ لماذا كذب علي؟؟ لماذا كذبوا كلهم علي؟؟ أخبروني بأنه لن يعود... لكنه عاد... لكنه تركني... لم يعد يهتم بي... لأنني سأتزوج سامر... لكني لا أحبُّ سامر... لا أحبُّه...».

وأبعدتُ وجهي عن حضنها ونظرتُ إليها باستنجاد مرير...

«نهلة... أنا... لا أحبُّ سامر... أنا... لا أريد أنْ أتزوَّج مِنْه».

نهلة وضعتْ يدها بسرعة على فمي لكتم كلماتي، وتلفَّتَتْ، ثمَّ عادتْ تنظر إلي...

«اخفضي صوتك...».

شعرتُ باليأس وفقدِ الأمل... وطأطأتُ برأسي أرضاً باستسلام لحكم القدر... كيف لي أنْ أقول هذا... ولا تفصلني عن موعد الزفاف غير أسابيع؟؟ لا يحقُّ لي حتى مجرّد التفكير... فقد قُضِيَ الأمر... وانتهى كل شيء...

بعدما هدأتُ منْ نوبة انهياري... ولزمتُ ونهلة الصمت لعدة دقائق، قالتْ هي:

«رغد... لم يفتْ الأوان بعد... دعي أمي تتدخّل وتوقِف هذا الزواج في الحال».

هززتُ رأسي اعتراضاً وقلتُ:

«لا... كلاّ كلاّ... نهلة إيّاك والإقدام على هذا...».

«لكن يا رغد...».

«أرجوكِ نهلة... لا تُفسدي عليَّ الأمور... لقد فاتَ الأوان... وانتهى كل شيء... لا تضعيني في موقفٍ كهذا مع أمي وسامر والجميع...».

نهلة أمسكتْ بيدي وقالتْ:

«لكن... أنتِ لا تحبّين سامر! إنكِ لا ترغبين في الزواج مِنْه! كيف تربطين مصيرك به؟».

«قدري ونصيبي».

«ووليد؟؟».

وقفتُ ببطء... وأنا أتذكّر تلك الليلة، حين وعدني وأقسم بألاَّ يرحل دون علمي، ثمَّ نقض الوعد والقسم... مُستغفِلاً إياي بعلبة بوظة!

«لم يعد له وجود... أو داعٍ للوجود».

طُرِقَ الباب مجدّداً، فتوجّهتُ لفتحه فإذا بها أمي...

أمي حملقتْ في عينيَّ برهة ثمَّ قالتْ:

«رغد... أهناك شيء؟؟».

واريت أنظاري تحت الأرض، وقلتُ:

«لا... لا شيء».

وحين رفعتُ نظري إليها وجدتُها تنظر إليَّ بتشكك... هربتُ مِنْ نظراتها ونظرتُ إلى ابنة خالتي... والتي بدورها قالتْ:

«يجب أنْ أذهب الآن...».

وذهبتْ إلى المرآة تضبط حجابها. قلتُ:

«نهلة! كلا لن تذهبي الآن!».

«لدى سارة دروسٌ تستصعبها وهي تنتظرني لتعليمها الآن!...».

قالتْ أمي:

«لا يزال الوقت مبكراً... ابقي للعشاء معنا».

ابتسمتْ نهلة وقالتْ وهي تحرّك يدها عند نحرها:

«ستذبحني سارة إنْ تأخرتُ أكثر!».

رافقتُها إلى الباب الخارجي، وقلتُ لها قبل أنْ تنصرف:

«نهلة... لا تذكري ما دار بيننا على مسمعٍ مِنْ أحد... أرجوك».

نهلة ابتسمتْ ابتسامة مُطمئِنة، ثمّ غادرتْ... عندما عدتُ إلى غرفتي وجدتُ دانة هناك!

ما إن رأتني حتى بادرتْ بسؤالي:

«بربّكِ رغد! ماذا تقصدين مِنْ تصرّفكِ الأحمق هذا؟؟ لقد كادتْ السماعة أنْ تنكسر! أخشى أنْ تكوني بصرختكِ قد أحرقتِ الأسلاك بين المدينتين!».

لم يكن لدي مزاجٌ مناسب للجدال مع دانة هذه الساعة، قلتُ بنفسٍ متضايقة:

«أخرجي دانة، أريد البقاء وحدي».

دانة نظرتْ إليّ باستنكار، ثمّ قالتْ:

«لا تُطاقين يا رغد! متى أتزوّج وأتخلّص منْكِ؟!».

ثم مضتْ مغادرةً، وقبل أنْ تخرج قلتُ:

«قريباً يا ابنة عمي... ماذا بعد؟؟ أهذا يكفي؟؟».

وصفعتُ الباب بعد خروجها...

اعتقد أنّ تصرّفاتي لم تكن لائقةً لهذا اليوم، بل ومنْذ رحيل وليد وأنا في حالةٍ عجيبة... عصبيّة دائماً، حزينة دائماً، ضائقة الصدر... مُنْعزلة في غرفتي... فاقدة الاهتمام بأي شيء مِنْ حولي حتى بالرسم...

ومع مرور الأيام ازدادتْ حالتي سوءاً... وبدأ العد التنازلي لموعد الزفاف... لموعد النهاية... لموعد الحلقة الأخيرة مِنْ مسلسل حياتي التعيسة...

لو كان لي أمّ... لو كان لي أمّ تخصُني أنا... لا تكون هي أمّ سامر... لكنتُ أخبرتها بكل ما يختلج صدري مِنْ مشاعر...

لكنتُ أخبرتها بما أريد وما لا أريد...

أمّي هذه، أمُّ سامر خطيبي... العريس المتلهّف للزفاف، وحتى وإنْ حاولتْ التحدُّث معي، أتحاشاها وأُخفي في صدري ما لم أعد قادرة على كتمانه...

كما أنّ شحنة غريبة... كانتْ قد تولّدتْ منذ شهور... بيني وبينها...

فكيف لي أنْ أخبرها فجأةً بأنني لم أعد أرغب في الزواج مِنْ ابنها، الذي خُطِبتُ له مُنْذ

أربع سنين!؟ بِمَ سأبرّر؟؟

كيف سيكون موقفي مِنْ سامر... وأبي... والجميع... ولماذا أفعل هذا بهم؟؟ أيكون هذا جزاء مَنْ آووني ورعوني كل هذه السنين، التي لم أشعر فيها أبداً بأنني يتيمة الأبوين...؟؟

عدا عن ذلك... فأي رجلٍ سأتزوّج ما لم أتزوّج سامر؟؟ مَنْ سأعطيه ثقتي المطلقة مثله...؟ حسام الذي لا يختلف عنه كثيراً؟؟

أم... وليد... الذي... الذي... لم أعد أعني له شيئاً...؟؟

وليد... الكذاب!

* * *

كذّاب!

كلمة قاسية هزّتني وأربكتْني حتى كدتُ معها أوقع هاتفي مِنْ يدي... لها الحقُّ بنعتي بهذه الصفة... ألم أعدها بألا أرحل بدون علمها ثمَّ رحلتُ؟؟؟

لكن لماذا تأثّرتْ هي كثيراً مِنْ ذلك؟؟ ماذا كان يفرق لديها... بقائي مِنْ رحيلي؟؟

أم تظنني سأبقى أرعاها وأدلّلها كما كنتُ في السابق، فيما هي زوجةٌ لأخي! الخائنان!

كنتُ في سيارتي في طريقي إلى الغرفة الصغيرة التي استأجرتُها، ودفعتُ مبلغاً لا بأس به لأجل ذلك، على الرغم مِنْ نقودي المحدودة التي تتضاءل يوماً بعد يوم.

بحثتُ جاهداً عن وظيفة في هذه البلدة، وكلما صادفتُ أعلاناً عن وظيفةٍ شاغرة في الصحف بادرتُ بالاتصال، رغم أنني لا استوفي شيئاً مِنْ الشروط المطلوبة...

كانتْ أيام سبعة قد انقضتْ منْذ وصولي إلى هذه البلدة، وهي فترةٌ قصيرةٌ طبعاً لكنني أشعر بملل ووحدة قاتلين... وفكّرتُ في العودة إلى مزرعة نديم!

شيٌ ما يُشعِرني بأنَّ أهل نديم هم أهلي... وأنَّ لهم حقٌ عليَّ... لذا، فإنني غادرتُ الغرفة، وذهبتُ لزيارتهم... في اليوم التالي.

عندما وصلتُ، كانتْ ابنة نديم هي أوّل مَنْ التقيتُ به...

الفتاة كانتْ جالسةً بين مجموعة مِنْ الصناديق الخشبية، مُنْهمِكة في إصلاح وتجبير كسورها بالمطرقة والمسامير!

ألقيتُ التحية فلم تسمعني، فعدتُ أحيِّي بصوتٍ مرتفع فانتبهتْ لي. رمتْ الفتاة بالمطرقة جانباً ونهضتْ واقفة وقالتْ:

«مرحباً بكَ أيها السيِّد النبيل...».

هبطتُ ببصري أرضاً وقلتُ:

«كيف أحوالكم؟».

«الحمد لله. ماذا عنكَ؟».

«بخير سيِّدتي... هل العم إلياس موجود؟».

«خالي ذهب لجلب بعض الأشياء... سيعود قريباً... تفضَّل».
وأرادتْ منِّي أنْ أتبعها إلى المنزل، لكني قلتُ:
«سوف أنتظر العم... إذا لم يكن في ذلك ما يزعجكم؟».
«لا بأس، أهلاً بك... سوف أخبر والدتي عن مقدمك».
وذهبتْ مسرعةً إلى المنزل. أنا جعلتُ أتأمّل طابور الصناديق المكسورة التي تنتظر دورها في التجبير!
إنها مهمةٌ شاقة لا تناسب المرأة! أليس كذلك؟؟
بعد قليل أتتْ السيّدة الأم مع ابنتها، ترحّب بي بحرارة وكأنها تعرفني مُنْذ زمن! شعرتُ بالخجل مِنْ ذلك، ولكن يبدو أنّه وضعٌ مألوفٌ لدى هذه العائلة الغريبة!
قلتُ وأنا أنظر ناحية الصناديق:
«أيمكنني تقديم العون؟».
طبعاً السيدتان اعترضتا إلا أنني قلتُ:
«ريثما يعود العم إلياس».
ورغم أنها المرّة الأولى التي أقوم فيها باستخدام المطرقة والمسامير، إلا أنني أتقنتُ العمل! في الواقع، شعرتُ بالخزي مِنْ نفسي... فأنا عاطلٌ عن العمل أتسكّع في المدن والشوارع، بينما تقوم فتاةٌ شابة في العشرينات بإصلاح كسور صناديق خشبية، وقطف الثمار، وحمل الصناديق الثقيلة، والحرث والزرع وما إلى ذلك...
أمرٌ مخزٍ بالفعل!
بعد قليل وصل العم إلياس وما إنْ رآني حتى أسرع نحوي يريد أخذ المطرقة مِنْ يدي...
«مرحباً أيها العم الطيّب! مررتُ للإطمئنان عليكم... أرجو ألا تكون زيارتي ثقيلة!».
«حللتَ أهلاً ونزلتَ سهلاً... تشرّفنا زيارتك بنيّ».
وأراد أخذ المطرقة مِنْ يدي فقلتُ:
«لا تقلق... إنه عملٌ يسعدني كثيراً!».
اعتقد أنّه شعر بالخجل، وتمتم بعبارات الشكر وبسيل مِنْ الدعوات والأماني.
أنهيتُ عملي خلال ساعة... أمطرني الجميع بكلمات الشكر اللانهائية... شعرتُ حينها بأنني شخصٌ ذو قيمة وأهميّة وقدرة على العمل وإفادة الآخرين... بعد شهور مِنْ التفاهة والبطالة والتشتّت...
قال العجوز:
«أعطاكَ الله القوّة والصحة يا بني، آمل أنْ تكون قد وُفِّقتَ في العثور على وظيفةٍ تلائِمك؟؟».
«ليس بعد!».
«إذن؟؟».

قلتُ:

«هل... أجد عندكم عملاً مقابل المأوى والطعام فقط، إلى أنْ أجد وظيفةً ملائمة؟؟».

ستّة أسابيع مضتْ مُنْذ أنْ اقتحمت عالم الفلاحة، وأصبحتُ مزارعاً!

شيءٌ لم أكن أحلم به أو أتخيّل أنْ يمر ببالي مروراً عابراً... فقد كنتُ أحلم بأنْ أصبح رجل أعمال مهم... مثل والدي، صديقي سيف...

في كل صباح، كنتُ أقوم بحرث الأرض، وزرع البذور، وقطف الثمار وتنظيف المزرعة، وإصلاح كل مكسور، الصناديق... أنابيب المياه، الأغصان!

وقبيل الظهيرة أذهب لبيع ثمار اليوم في سوق الفاكهة، وحين أعود أتابع العمل في هذا الشيء أو ذاك... عمل شبه مستمر حتى غروب الشمس...

وجباتي الثلاث كنتُ أتناولها إمّا مع العم إلياس أو في الغرفة الجانبية التي خُصِّصتْ لي، خارج المنزل...

رغم أنه كان عملاً شاقاً ألا أنني سررتُ به، بل ووجدت، فيه شيئاً مِنْ ذاتي التائهة... وتعلّقتُ بعائلتي الجديدة كما تعلّقتْ هي بي...

أما عن صحّتي، فقد تحسَّنتْ كثيراً مع تحسُّن نفسيّتي، واختفتْ الآلام تقريباً وكسبتُ عدّة أرطال مِنْ الوزن!

وأفضل ما في الأمر... أنني تقريباً أقلعتُ عن التدخين!

اليوم تلقّيتُ اتصالاً مِنْ والدي يخبرني فيه بأنه وأمي سيسافران لأداء الحج بعد الغد، ويرغبان في رؤيتي... أمر يتطلّب منّي العودة إلى المنزل رغماً عني...

أمرٌ وإنْ كان صعباً فإنّ عليَّ تحمُّله مِنْ أجل رؤيتهما... ليلة واحدة فقط ثمَّ أرحل عن ذلك المنزل ومَنْ به!

هكذا كان تفكيري قبل أنْ يقول أبي:

«ولأنَّ سامر لا يستطيع أخذ إجازة لكونه حجز أجازته بعد عودتنا مِنْ أجل الزواج، فلا بد مِنْ بقائك هنا حتى نعود!».

قلّبتُ الأفكار في رأسي ووجدتها مهمةً يصعب علي تحمُّلها، فقلتُ:

«لا أستطيع ذلك يا أبتي... سآتي مِنْ أجل تحيّتكما فقط...».

«ومَنْ يبقى لرعاية المنزل والفتاتين إذن؟؟».

أنا؟؟

أأعود أنا لأرعى تلك الخائنة مِنْ جديد، وأعيش معها أيام استعدادها للزفاف؟؟

لم تبقَ غير أسابيع ثلاثة عن ذلك الموعد المشؤوم! إنني أفضل السفر إلى المريخ أو المشتري على العودة إليها... ومشاهدتها عروساً تودّع العزوبية!

«لا يمكنني... يا أبي...».

«في حالٍ كهذه... لا أملك غير تأجيل حجِّي للعام المقبل!».

«أوه كلا أبي... مادمتما قد عقدتما العزم... فتوكّلا على الله!».

«والفتاتان؟؟ أأتركهما وحدهما في البيت؟؟ مستحيل طبعاً».

أشياء كثيرة تبدو مستحيلةً جداً، غير أنك حين توضع في وجه التيار، تجد نفسك مضطراً لتنفيذها رغماً عن أنفك، مستقيماً كان أو معقوفاً!

خلاصة القول، رضختُ للأمر... ووافقتُ على العودة إلى جهنّم...

كنتُ أرتّب أشيائي في حقيبة سيارتي حين أقبل العم ومعه الآنسة أروى، ابنة نديم ووقفا يراقبانني...

قال العم:

«نحن محزونون لفراقك... أرجوك أنْ تعود إلينا مِنْ جديد فوجودك عنى الكثير».

ابتسمتُ له بفرح، وقلتُ:

«بالطبع سأعود يا عمي، إن شاء الله... ما إنْ يعود والداي مِنْ الحج حتى أوافيكم مِنْ جديد... هنا عملي وفي أي قطر مِنْ أقطار الأرض لن أجد الراحة كما أجدها هنا».

وهي حقيقة أدركها... تماماً.

قالتْ أروى:

«نتمنّى أنْ تحضر عائلتك لزيارتنا ذات يوم! هلاّ فعلتْ؟؟».

«سأرى ما إذا كان ذلك ممكناً...».

«ألديك شقيقات؟؟».

«نعم، واحدة فقط، وشقيق واحد فقط أيضاً».

«أحضرها لزيارتنا ذات يوم... سيعجبها المكان كثيراً».

«أنا واثق منْ ذلك...».

وأغلقتُ حقيبة سيارتي، ثمّ فتحتُ الباب وقلتُ مودّعاً:

«نلتقي على خيرٍ إنْ شاء الله بعد أسبوعين... دعوا الأعمال الشاقة لأنجزها حين أعود».

وابتسم العم، وكذلك ابتسمتْ أروى... ثمّ لوّحتْ بيدها مودِّعة...!

أروى نديم... فتاةٌ قوية... شخصيّة مميّزة تستحق التقدير...!

- رغد -

أجلس أمام التلفاز في غرفة الضيوف أشاهد برنامجاً ترفيهياً، علّ ذلك يفيد في طرد الأفكار التعيسة مِنْ رأسي...

تركتُ الجميع مجتمعين في غرفة المعيشة يتناقشون بشأن العرس، وأنا أشاهد برنامجاً سخيفاً لا أهدف مِنه إلا شغل نفسي بشيء أبعد ما يكون عن... وليد.

في أي لحظة قد يصل...

لا لستُ أرتقّب حضوره، فلم يعد يهمّني ذلك، بل على العكس، لا زلتُ ألحُ على سامر

كي يبقى هو معنا خلال الأسبوعين اللذين سيغيبهما والداي... في الحج...

أقبل سامر الآن يحمل كأس عصير برتقال، يقدّمه لي!

«عروسي... تفضّلي هذا».

أخذتُ الكأس وشكرتُه وقلتُ:

«لِمَ تُحضِره بنفسك!؟».

ابتسم وقال:

«عروسي وأحبُّ تدليلها! لم تجلسين وحدكِ هنا؟ إننا نشرب العصير في غرفة المعيشة ونتحدَّث بشأن الحفلة!».

ازدردتُ شيئاً مِنْ العصير، ثمَّ وضعتُه على المنضدة التي بجانبي وعدتُ أتابع البرنامج متظاهرةً بالاهتمام والاندماج...

سامر جلس على المقعد المجاور وأخذ يشاهد البرنامج بضع دقائق، وأظنّه استسخفه! قال:

«لو كان باستطاعتي الحصول على إجازة أطول، لكنتُ بقيتُ هذين الأسبوعين معك...».

قلتُ في نفسي: (ألا يكفي أنني عشتُ منْذ طفولتي وسأقضي بقيّة حياتي معكَ...؟؟ إنهما أسبوعان ليس إلاّ! ألا تسأم منّي!!؟؟).

الآن أمسك بيدي وقال:

«ثلاثة أسابيع فقط... كم أنا متلهِّفٌ لذلك الحين!».

سحبتُ يدي بين يديه وأمسكتُ بكأس العصير، ورشفتُ رشفتين، وأبقيتُه بين يدي حتى لا يعود للإمساك بي!

«فيمَ تفكّرين؟؟».

التفتُّ إليه أخيراً... إذ أنني طوال الوقت كنتُ أتظاهر بمتابعة البرنامج، قلتُ:

«منْدمجة مع التلفاز!».

سامر هزَّ رأسه تكذيباً، وقال:

«بل أنتِ في مكانٍ آخر!».

لم أستطع نفي الحقيقة... فنظرتُ إلى كأس العصير، وجعلتُ أؤرجحه بعض الشيء...

قال سامر:

«تختلفين عن دانة... فهي متحمّسة جداً للعرس! أهناك ما يقلقكِ عزيزتي؟؟».

التزمتُ الصمت، ما عساي أقول؟؟ نعم هناك ما يكاد يخنقني!

أنا لا أريد الزواج مِنْك! هلاّ أعفيتَني مِنْ هذه المهمة الأبديّة لو سمحتَ؟؟

سامر أمسك بيديَّ الممسكتين بكأس العصير وقال:

«لا تقلقي! كل شيء سيكون على ما يرام! وستكونين أجمل مِنْ دانة حتماً!».

في هذه اللحظة سمعنا تنحنحاً فالتفتنا ناحية الباب، ورأينا دانة تقف وتراقبنا باستنكار...!

بمجرّد أنْ نظرنا إليها قالتْ بحنق:

«سامر! الويل لكَ! مَنْ هي الأجمل منّي؟؟ سأريكَ!».

سامر ضحك وسحب يديه عن يديَّ وقال:

«إنا أعني فتاةً أخرى تُدعى دانة ستتزوج في نفس ليلتنا!».

قالتْ دانة:

«آه نعم صدّقتك! أجل أعرفها... ولها شقيقٌ اسمه سامر ستقتله بعد دقيقتين، وآخر اسمه وليد وصل إلى البيت قبل دقيقتين!».

جفلتُ، وتوجّس فؤادي خيفة... قال سأل سامر مُتهلّلاً:

«هل وصل وليد حقاً؟؟».

«نعم وصل! إنّه في غرفة المعيشة!».

عادةً ما أحسُّ بالحرارة لدى ذكر وليد على مسمعي أو في خاطري، أما الآن فشعرتُ بالبرودة!

البرودة في رجلي بالتحديد... لأنَّ كأس العصير البارد انزلق مِنْ يدي المرتعشتين وانسكب محتواه على ملابسي ورجلي!

دانة لاحظتْ وقوع الكأس مِنْ يدي، قالتْ:

«ماذا فعلتِ! أوه... العصير الذي تعبتُ في إعداده!».

وقفتُ أنا ووقف سامر وأخذتُ أحدّق في البقعة التي ظهرتْ على ملابسي! أهذا وقته؟؟

سامر قال:

«فداك!».

ثم التفتَ إلى دانة وقال...

«إلى وليد!».

وذهب مسرعاً ليحييّ شقيقه...

دانة قالتْ وهي تنظر إلى ملابسي بشيءٍ مِنْ السخرية:

«ألن تأتي لتحيّته؟؟».

«سأبدل ملابسي...».

ومضيتُ نحو الباب فلمّا صرتُ قربها قلتُ:

«أرجو أنْ تغلقي باب غرفة الضيوف فأنا لا أضع حجابي».

دانة ذهبتْ إلى غرفة الضيوف، فدخلتْ وأغلقتْ الباب، بينما صعدتُ أنا ليس فقط لتبديل ملابسي، بل وللاستحمام، وغسل ملابسي وعباءتي أيضاً، وعصرها، وكيّها كذلك!

شغلتُ نفسي بكل شيءٍ وأي شيءٍ يؤجّل موعد اللقاء المحتوم...

مَنْ قال أنني أريد أنْ أذهب للقائه؟؟ مَنْ قال أنني أتحرّق شوقاً لرؤيته؟؟

أنا لا أريد رؤية وجهه ثانيةً... أبداً!

مضتْ ساعتان، وأنا في غرفتي أؤدي كل ما تقاعستُ عن تأديته خلال الأسابيع الماضية!

ألستُ عروساً على وشك الزواج؟؟

لا ألامُ إذنْ إنْ أنا اعتنيتُ ببشرة وجهي، ووضعتُ عليها الكريمات والمرطِّبات والمعالجات كلها واحداً تلو الآخر!

وبعدما فرغتُ منْها، وقفتُ أمام المرآة... مصرّةً على تجريب علبة الماكياج الجديدة التي اقتنيتُها مؤخّراً!

أليس هذا مِنْ حقي؟؟؟

طُرِقَ الباب وسمعتُ صوت دانة تناديني فأذِنتُ لها بالدخول... دخلتْ وفوجِئتْ بما كنتُ أصنع! نظرتْ إليّ بتعجب... وقالتْ:

«بربِّك! ما ذا تفعلين؟؟».

قلتُ وأنا أمشّط رموش عيني بدقّة:

«أتزيّن! ما ترين!؟».

«تتزيّنين! الآن؟؟».

«ماذا في ذلك؟؟».

«ألنْ تأتي لإلقاء التحيّة على وليد؟؟ إنّه يسأل عنكِ!».

«وأنا هكذا؟ لا طبعاً... بلّغيه تحياتي...».

ثم انغمستُ في تلوين وجهي كما ألوّن لوحةً أرسمها... بمهارة...

دانة كانت تحدِّثني باستنكار، غير أنها في النهاية تركتني وانصرفتْ، وبمجرّد ذهابها أقفلتُ الباب، ورميتُ بالفرشاة جانباً وارتميتُ على سريري...

لماذا أتصرّف بهذا الشكل الغبي؟؟

لم أعد أفهم نفسي... ألم أكن متلهِّفة لرؤيته؟؟

ماذا جرى لي الآن؟؟

جلستُ، ونظرتُ مِنْ حولي فوجدتُ لوحات رسمي المتراكمة فوق بعضها البعض... ذهبتُ إليها واستخرجتُ منْها صورة وليد... ذي العينين الحمراوين والأنف المعقوف...

لماذا لا يزال هنا معي؟؟ لِمَ لَمْ أتخلّص مِنْ هذه الصورة؟؟

لماذا لا أحسُّ بالحرارة الآن؟؟

كم كان شعوراً جميلاً... رائعاً...

وانتهى...

وإنْ هربتُ كل تلك المدّة لم يكن باستطاعتي البقاء حبيسة الغرفة دون أنْ يستغرب البقية ذلك ويقلقون...

أتتْ أمي إليّ، فتحتُ الباب لها فنظرتْ إليّ ببعض الدهشة!

«رغد... أتنوين استقبال أو زيارة إحدى صديقاتك؟؟».

«أنا؟؟ لا أبداً».

«إذن... لم هذه الزينة!».

حتى أنتِ يا أمي؟؟

هل يجب أنْ أتزيّن فقط وفقط حين أقابل صديقاتي؟؟ لماذا تبقى دانة بكامل زينتها معظم الأوقات!

أهِيَ أفضل منّي؟

«هل هذا عيب!؟ أم ممنوع؟؟».

«لا لم أقصد، لكنها ليستْ عادتكِ!».

قلتُ:

«كيف أبدو؟؟ إنها ألوان الموضة!».

«جميلة طبعاً... لكن... ألنْ تتناولي العشاء معنا؟؟».

«كلاً، لا أشعر بأي رغبةٍ في الطعام...».

«حسناً... ولن تأتي للانضمام إلينا؟؟».

«لا أشعر بمزاجٍ جيّد للحديث يا أمي».

صمتَتْ أمي قليلا، ثمَّ قالتْ:

«ولن تأتي... لتحيّة وليد؟؟».

صمتُّ أنا لبرهة ثمَّ قلتُ:

«لم يرغب في وداعي... إذن... لا أرغب في استقباله... أنا... لا أطيق مجالسة الكذابين!!».

الحلقة الواحدة والعشرون

دلال الأحبّة

- وليد -

عندما اقتربتُ مِنْ المنزل اتّصلتُ بهاتفه فأجابني والدي، فأبلغتُه بأنني قد وصلتُ. والدي خرج لاستقبالي عند بوابة السور الخارجي للمنزل، وطبعاً استقبلني استقبالاً شديد الحرارة!

بعدها ذهبتُ معه إلى غرفة المعيشة حيث وجدتُ أمي وأختي دانة، واللتين بدورهما رحّبتا بي ترحيباً حميماً...

ثم ذهبتْ دانة لإبلاغ البقية عن وصولي. والبقية تعني: سامر، ورغد...

قالتْ:

«إنهما يختبئان في غرفة الضيوف! سأفاجئهما!».

كانتْ مازحة، أو ربّما جادّة، في كلا الحالتين هذا يشعرني بالانزعاج... مِنْ أوّل لحظة!.

جلستُ مع والديّ وسكبتْ لي أمي عصير البرتقال الطازج في أحد الكؤوس وقدّمته لي...

«تفضّل بُنيّ... هذا نصيبك».

نصيبي؟؟ هل كانوا يحسبون لي حساباً؟؟ إني أرى أربعة كؤوس شُرِب محتواها، وهذا كأسي الخامس...

بعد قليل أقبل أخي سامر فاتحاً ذراعيه... قمتُ وعانقته، ومنها شعرتُ بأوّل آلام المعدة!

قال:

«ما شاء الله! ماذا كنتَ تأكل يا رجل! إنك تنتفخ مرّة بعد مرّة!».

الجميع ضحك، وتمتمتْ والدتي بعبارات التهليل والتكبير والصلوات! قلتُ:

«هل أبدو سميناً لهذا الحد؟؟».

قال سامر:

«سمين؟ لا! بل عظيم البنية ومفتول العضلات! هل كُنتَ تمارس رياضة حمل الأثقال أم ماذا؟؟».

«كنتُ ألتهم بقرةً مشويّةً كاملة كل يوم!».

وهنا أقبلتْ دانة فدخلتْ وأغلقتْ الباب مِنْ بعدها وقالتْ مداعبةً وموجِّهةً حديثها إلى أبي:

«سيسبِّب لنا الإفلاس! هاتْ مصروفاً إضافياً!».

أبي قال وهو يضحك:

«أفلستُ بسببك يا ابنتي! أما كفاكِ كل ما أخذتِ؟؟».
قالتْ وهي تضحك:
«مَنْ قال لكَ أنْ تزوّج ثلاثة أبناء دفعةً واحدة!؟».
قال سامر:
«ما ذا لو انضمَّ الكبير إلينا!؟».
يقصدني بذلك! أمي ابتسمتْ ونظرتْ إليّ وقالتْ:
«دعوا الكبير لي! لن أسلّمه لامرأةٍ ما وأنا لم أتهنّى بعد به!».
وضحكنا...
ربّما هم يضحكون مِنْ قلوبهم لكنني أضحك مجاراةً لهم... وأدور بعيني فيما بينهم... وأشعر بشيءٍ ناقص...
طبعا تعرفون ما أعني!
الصغيرة المدلّلة لم تأتِ لتحيّتي ولا للعشاء معنا، والساعات تمرُّ وهي في غرفتها وحين كرّرتُ سؤالي عنها لوالدتي على العشاء قالتْ:
«إنها منزعجةٌ مِنكَ!».
«منّي أنا؟؟».
«نعم! فأنتَ على ما يبدو كنتَ قد وعدتها بألاّ تسافر دون وداعها ثمَّ خرجتَ خِلسةً!».
قالتْ دانة:
«دعكَ مِنْ هذه الفتاة المتدلّلة يا وليد! لها ألفُ مزاجٍ في اليوم الواحد! يا إلهي كيف سأتحمّل تصرّفاتها وحدي طوال هاذين الأسبوعين!».
سامر قال:
«حذار مِنْ القسوة على عروسي يا دانة! وإلا حبستُكِ في المطبخ ليلة زفافك!».
الجميع كان يضحك بمرح، إلا أنني كنتُ أشعر برغبةٍ في غرس الشوكة التي أمسك بها في صدر شقيقي...
توقفوا عن الحديث عن الزفاف المشؤوم هذا... أفرغتْ الدنيا مِنْ المواضيع؟؟
قلتُ مغيّراً مسار الحديث الذي كان متمركزاً حول الزواج المترقب:
«متى ستعودان مِنْ رحلة الحج تحديداً؟».
قال أبي:
«ليلة السابع عشر مِنْ شهر الحج إنْ شاء الله».
إنها فترة طويلة سأضطر لتمضيتها مع رغد تحت سقفٍ واحد! ليت الأيام تنقضي بسرعة!
رغد لم تظهر حتى الآن... حقيقةً هي أنني أنظر ناحية الباب بين الفينة وأختها وأرتقّب طلوعها...
كم اشتقتُ إليها...! هكذا بدون أي تكلّف ومكابرة، أنا اشتقتُ إليها!

مرّتْ الساعات ولم تظهر فتملّكني الضيق... ولولا الحياء والحرج لذهبتُ بنفسي إليها... أَهِيَ غاضبةٌ منّي لهذا الحد حقاً؟؟

والشخص الذي ذهب إليها كان بطبيعة الحال شقيقي...

لكنّه عاد إلينا عندما أتى ضيوفٌ لزيارتنا، هم أبو حسام وعائلته... أتوا لوداع ولديَّ قبل سفرهما غداً... وكانتْ المرّة الأولى التي ألتقي فيها بهم منذ عشر سنين...

الصغير حسام أصبح شاباً يافعاً... ولا أظنه يتذكّرني جيداً... أما أبو حسام فلم يتغيّر... وقد فرح جداً للقائي وأخذني بالأحضان... وبتبادل الأحاديث أدركتُ أنّهما يجهلان حقيقة دخولي السجن...

أمّا أُمُّ حسام وابنتاها فقد اجتمعن بوالدتي وشقيقتي، ولا علم لي إنْ كانتْ رغد قد جالستهنّ.

بعد مغادرة الضيوف رميتُ بجسدي على الأريكة فغرقتُ في أعماقها... في غرفة الضيافة.

وللعجب نمتُ بسرعة لم أتوقعها! وحين نهضتُ وجدتُ جسدي غارقاً في العرق! ساعات الصباح انقضتْ والصغيرة لم تظهر، أكاد أُجن... لِمَ لا تأتِ لتحيّتي ولو بشكلٍ عابر؟؟

على مائدة الغذاء انتظرتُ حضورها فلمّا لم أجدها سألتُ:

«أين رغد؟؟ ألن تشاركنا؟؟».

دانة بدأتْ بالضحك، ثمّ قالتْ:

«إنها تقلي البطاطا، فأطباقنا اليوم لم تعجبها وستأكل البطاطا المقلية كالعادة!».

نظرتُ نحو أمي وقلتُ:

«أرجو ألا أكون السبب في...».

أمّي أومأت برأسها نفياً وقالتْ:

«لا أبداً بني! إنها لا تحب السمك كما تعلم كما وأنها كثيراً ما تتغيّب عن المائدة خصوصاً في الفترة الأخيرة!».

قالتْ دانة بحدّة:

«تتدلّل!».

قال أبي:

«دعوها تفعل ما تشاء».

قال سامر:

«سأستدعيها».

وقفتُ أنا وقلتُ:

«أنا سأستدعيها... هل يمكن؟».

وحين أومأتْ أمّي إيجاباً تحرّكتُ فوراً لأسبق سامر... حين وصلتُ إلى المطبخ وجدتُ الباب شبه مغلق. طرقتُه وقلتُ:

«أيمكنني الدخول؟؟».
سمعتُ صوت رغد يرد علي...
«مَنْ أنتَ!؟».
عجباً! مَنْ أنا؟؟ مَنْ عساي أكون!؟ بالطبع وليد! قلتُ:
«وليد!».
«وليد؟ كلاّ!».
ثم إذا بي أرى الباب يُغلق بدَفعةٍ قوية!
تراجعتُ للخلف خطوةً وبقيتُ محدّقاً في الباب... هل تقصد أنها لا ترتدي الحجاب؟
قلتُ:
«هل أذهب؟؟».
قالتْ:
«ماذا تريد؟».
«فقط... أنْ ألقي التحية و... أسأل عن الأحوال».
«بخير وشكراً واذهب!».
شعرتُ بالحرج مِنْ ردّها هذا، فقلتُ معتذراً:
«سأذهب، أنا آسف».
واستدرتُ منصرفاً...
فجأة سمعتُ الباب ينفتح مِنْ خلفي، فالتفتُّ إلى الوراء...
هناك عند الفتحة، رأيتُ عيني رغد تطلاّن عليَّ!
ظهرتْ رغد واقفةً أمامي... بحجمها الصغير ووجهها الطفولي وحجابها الطويل الذي يكاد يصل إلى ركبتيها!
لدى رؤيتي لها بعد كل تلك المدّة مِنْ الغياب شعرتُ بأنَّ قلبي قد تخدّر وأعصابي قد تبلّدت... وعضلاتي استرختْ لبرهة كادتْ تفقدني توازني...
قلتُ بصوت خفيف وبابتسامة تفجّرت على وجهي رغماً عني:
«كيف حالك صغيرتي؟؟».
صغيرتي كانتْ تنظر إليَّ بنظرات ملؤها الغضب والانزعاج... كأنني أقرأ في وجهها كلمات اللوم والتأنيب والتوبيخ... والشتم أيضاً!
قلتُ:
«أنا آسف!».
رغد أشاحتْ بوجهها عنّي، واستدارتْ ودخلتْ المطبخ، تاركةً الباب مفتوحاً. توجّهتْ نحو الموقد، تحرّك أصابع البطاطا في المقلاة...
تجرّأتُ وخطوتُ خطوةً للداخل، وخطوةً أخرى فأخرى حتى صرتُ على مقربةٍ مِنْ الوعاء

الذي أعدّته لوضع البطاطا المقلية فيه...

ها هي الآن تضع أوّل دُفعَةٍ مِنْ البطاطا فيه... دون أنْ تلتفت إليّ...

قلتُ:

«تبدو شهيّة!».

لم تعلّق!

«أتسمحين لي بتذوُّقها؟؟».

«تفضل».

طبعاً دون أنْ تلتفِت إليّ...

ولأنني كنتُ مخدّر الإحساس فأنا لم أشعر بحرارة البطاطا المقلية لا بين أصابعي ولا في فمي!

بل حتى طعمها لم أشعر به، غير أنني قلتُ:

«لذيذة!».

«خذها إنْ شئتَ».

«شكراً، سأتناول الغذاء الآن».

بقيتْ صامتة وهي تخرج دفعات البطاطا واحدة بعد الأخرى حتى انتهتْ... ثمّ رفعتْ الطبق ووضعته على المائدة وسحبتْ الكرسي استعداداً للجلوس...

قلتُ:

«ألن تأتي معنا؟؟».

«لن آكل مِنْ أطباقكم».

«تعالي بطبقكِ».

«لا داعي».

وجلستْ على الكرسي، وانتظرتْ مغادرتي! وعوضاً عن الانصراف اقتربتُ مِنْ الطاولة قليلاً وقلتُ:

«صغيرتي... هل أنتِ غاضبة منّي؟؟».

لم تجب...

«أنا آسف... سامحيني».

رغد الآن رفعتْ بصرها إليّ وقالتْ بحنق:

«أطلب السماح ممّنْ استهنتَ بعَظَمَته لخداعي... يا كذّاب».

كخنجرٍ مسموم طعنتْ كلماتها صدري بعنف... لم يكن أمامي إلا الانسحاب مخذولاً...

عدتُ وحيداً إلى مَنْ كانوا ينتظرون عودتي برغد... وحين رأيتُ أعينهم تحدّق بي بتساؤل، قلتُ:

«لا تود الحضور...».

وجلستُ على مقعدي وبدأنا تناول وجبتنا...

لم يكن مضغ الطعام وبلعه مِنْ السهولة بمكان... لقد اشتدَّ عليَّ الألم، لا أدري أبسبب الطعام الغير مهضوم، أم بسبب الخناجر التي طعنتْ أحشائي؟؟

ربما لاحظتْ والدتي شيئاً فقد كانتْ تعلّق:

«كُلْ يا وليد! ما بكَ لا تأكل؟؟».

مِنْ حينٍ لآخر...

هل يطيب لي الطعام وصغيرتي متّخذة منّي هذا الموقف؟؟ بل... هل يطيب لي أي شيء... وهي على وشك الزواج مِنْ أخي؟؟

أي غباء جعلني أوافق على الحضور؟؟

في وقتٍ لاحق، اجتمعنا في غرفة المعيشة، عدا رغد...

والدي طلب مِنْ دانة استدعاءها فهو يودُّ قضاء الوقت معنا قبل السفر... ذهبتْ دانة ثمَّ عادتْ تقول:

«لا تريد الحضور! وعندما قلتُ لها أنها تتصرّف كالأطفال صرختْ في وجهي ثمَّ بدأتْ بالبكاء! أوه خذاها معكما وخلّصاني مِنْ سخافتها يا والدي!».

جميعنا تبادلنا النظرات... والدي قال:

«إنّها على غير سجيّتها منذ فترة... دانة... تحاشي الاصطدام بها يا بنيتي، دعيها تفعل ما تشاء».

دانة قالتْ:

«كالعادة يا أبي ستقول لي ذلك، حسناً، أنا لا شأن لي بهذه الطفلة الكبيرة... أتركُ الأمر لوليد بالكامل حتى لا يتّهمني أحد بأنني متعجرفةٌ معها».

همّ سامر بالنهوض لكن أمّي استوقفتْهُ وقامتْ هي، وذهبتْ إلى رغد... قال أبي موجهاً كلامه لي:

«اعتن بشقيقتيك جيّدًا يا بُنيَّ، دانة لن تتعبكَ في شيء، فهي معتمدةٌ على نفسها في تصريف أمورها، لكن رغد... معتمدة علينا كثيراً... وطلباتها لا تنتهي!».

قالتْ دانة معقّبة:

«هذا لأنّك تدلّلها كثيراً يا أبي! كما الأطفال تماماً!».

والدي قال:

«دانة إيّاك وتعمّد مضايقتها... رجاءً... تعرفين كم هي حسّاسة».

سامر قال مؤكّداً:

«إياكِ!».

دانة نقلتْ بصرها بين الاثنين ثمَّ قالتْ:

«لا تخشيا على مدلّلتكما الصغيرة!».

والتفتتْ نحوي وقالتْ:

«ألقي عليك المسؤولية كاملةً!».

أنا وجدتُ الثلاثة يحملقون بي بمختلف التعبيرات المتقلّبة على أوجههم...

قلتُ بتردد:

«لا تقلقوا... سيسير كل شيء على ما يرام...».

بينما أنا في الداخل شديد القلق...

- رغد -

أنا مستاءةٌ بشكلٍ لا يمكنكم تصوّره!

سأتزوّج بعد ثلاثة أسابيع مِنْ سامر، فيما يقف وليد إلى جانبي ليعتني بي أثناء ابتعاد أمي عني...

ثلاثة أمور جعلتْني في غاية التوتّر خصوصاً هذا اليوم، وآخر شيءٍ كنتُ لأتقبّله هو كلمات السخرية مِنْ دانة التي تردّدها منتقدةً إياي...

لم أحتمّل كل ذلك وبدأتُ بالبكاء بشكلٍ غريب!

هم يجلسون الآن معاً يودّعون بعضهم البعض وأنا قابعةٌ هنا أبلّل المناديل بالدموع المالحة المتدفقة بغزارة...

أريد أنْ أبقى مع والديّ قبل رحيلهما!

ليت وليد يختفي!

سمعتُ صوت والدتي تناديني، مِنْ خلف الباب المغلق...

«نعم أمي».

والدتي فتحتْ الباب ودخلتْ قبل أنْ تدع لي الفرصة لمسح دموعي، والتي وإنْ مسحتُها لا أسهل عليها مِنْ أنْ ترى آثارها مطبوعةً على وجهي...

أمي نظرتْ إليّ بقلقٍ وقالتْ:

«وبعد؟؟ ما نهاية حكايتك هذه؟؟ ما بكِ يا رغد أخبريني؟؟».

«لا شيء أمي».

«إذن... لم تحبسين نفسكِ في غرفتكِ وتسبحين في بركة الدموع هذه؟؟».

قلتُ بانفعال:

«لا شيء أمي لا شيء... لا شيء... لا شيء...».

وانخرطتُ في البكاء باستسلام...

لم أقاوم أو أواري أي دمعة تحدثْني بالظهور... بكيتُ بحرقة... لم أعهدها مِنْ قبل... لم أكن أشعر بمثل هذه الأشياء تتحرك في صدري قبل الآن... لكنني أشعر الآن بصرخةٍ كبيرة تودُّ الانطلاق رغماً عني... إنني منهارة وأريد مَنْ يواسيني...

مَنْ يُسندني... مَنْ يساعدني... مَنْ يُنقذني مما أنا مقبلة عليه...

مَن؟... مَنْ؟؟

أمي أقبلتْ نحوي، ومسحتْ بيدها الحنونة على رأسي وربّتتْ على كتفي بلطف. قالتْ:

«بنيّتي... أخبريني ما بكِ... إنني قلقةٌ عليكِ ولا أريد السفر قبل أنْ أطمئن... ما بكِ؟؟ ممَّ أنتِ مستاءة؟؟».

أنظر إلى أمي، فأرى في عينيها عالماً كبيراً محيّراً... أرى فيها أكواماً مِنْ القلق والخوف... والخشية والاضطراب...

ومعانٍ غامضة لَمْ أفهمها...

ليتك يا أمي تدخلين إلى أعماقي وترين بنفسك...

أترين يا أمي؟؟ إنني لا أريد أنْ تسافري وتتركيني... أيقلقك ذلك؟؟

إنني لا أريد الزواج مِنْ سامر... أيفجعكِ ذلك؟؟

إنني أريد أنْ استعيد وليد... أيذهلكِ ذلك؟؟

إنني أريد أنْ تعود أمّي للحياة... أيخذلكِ ذلك؟؟

إنني أموت ببطءٍ يا أمّي... أيرضيكِ ذلك؟؟

أموتُ وأنا لم أحيَ بعد... لم أولد بعد!

أترين كل ذلك يا أمي؟؟

«لا شيء أمي... لا شيء...».

برقتْ دموعٌ في عينَي والدتي لتأثّرها بحالتي هذه، والدموع في عين أمي هي شيءٌ لا أحتمله مطلقاً... مطلقاً...

مسحتُ دموعي بسرعة وقلتُ:

«أمي... لا شيء صدقيني، أنا فقط متأثّرة لسفركما، فهي أوّل مرّة في حياتي تبتعدان فيها عني... لا أتصوّر حياتي بدونكما».

والدتي ضمتْني إلى صدرها وقالتْ:

«ستعيشين حياتكِ بسعادة وراحة... لا تقلقي... فابني سيعتني بكِ جيّداً كما نفعل نحن وربّما أفضل... إنّه يحبّكِ كثيراً... الله قسم هكذا».

رفعتُ رأسي ونظرتُ إليها بشيءٍ مِنْ الحيرة... فكلماتها بدتْ غامضة، فقالتْ هي:

«والآن عزيزتي... ألن تأتي لمجالسة والدك؟ إنْ هي إلا فترة قصيرة ثمَّ نسافر!».

أجبتُ بإذعان:

«بلى».

واستدركتُ:

«وليد معكم؟؟».

«نعم...».

طبعاً هو معهم! أين يمكن أنْ يكون؟؟

أخذتُ حجابي وسرتُ نحو المرآة لارتدائه، وهالني منظر عيني الحمراوين وجفوني المتورمة!

تركتُ الحجاب جانباً ومضيتُ لأغسل وجهي... عندما خرجتُ مِنْ دورة المياه وجدتُ أمي تنتظرني...

«هيا عزيزتي...».

ارتديتُ حجابي على عجل وأقبلتُ نحوها...

قالتْ:

«سيسير كل شيءٍ على ما يرام، وإنْ احتجتِ شيئاً لا تترددي في طلبه مِنْ دانة أو وليد أو سامر... سنبقى على اتصال دائم».

بعدها ذهبنا إلى غرفة المعيشة...

كانوا جميعهم مندمجين في الأحاديث المختلفة، وما أنْ رأونا حتى قال سامر:

«تعالي رغد! كنّا نوصي الكبير والعروس بكِ خيراً!».

والدي قال موجّهاً حديثه إليَّ وهو يبتسم بابتهاج:

«أهلا بالعزيزة المدللة! تعالي واجلسي قرب أبيك ليرتوي منكِ قبل السفر».

سرتُ كالآلة نحو المقعد الذي يجلس عليه أبي وجلستُ إلى جواره، ففتح ذراعه وأحاطني بها...

«ما بكِ صغيرتي؟ على الوجبات لستِ معنا، وفي الجلسات لا تشركينا! ألن تشتاقي لشيبتي هذه؟؟».

سامر ضحك، ودانة نظرتْ إلى السقف باستنكار... وأمي ابتسمتْ، أما الكائن الأخير فلم ألتفتْ نحوه لأعرف ما فعل!

قلتُ:

«بلى... كثيراً جداً! خذاني معكما!».

قال سامر مداعباً:

«وأنا أيضاً!».

قالتْ دانة:

«ماذا عنّي؟؟».

قلتُ:

«نتركِكِ مع المغرور!».

ضحك مَنْ ضحك، أما صوت وليد - والذي كان خفيفاً ومع هذا تمكّنتْ مجسّات أذني مِنْ التقاطه - فجاء في الكلمتين التاليتين:

«تقصدينني أنا؟؟».

وأجبرني سؤاله على الالتفات إليه... لقد كان ينظر إليّ بغرابة...

لم أردْ عليه، بل التفتُّ إلى أبي، ودانة تولّتْ الإيضاح بنفسها إذ قالتْ:

«بل تقصد خطيبي... فهي لا تطيقه وتنعتُه بالمغرور دوماً».

الآن أنا التفتُّ إلى دانة وقلتُ بصوت حاد:

«على الأقل... خير مِنْ الكذابين».

بعض الصمت خيّم علينا لبعض الوقت... وبعض الندم شعرتُ به لبعض الوقت!

قال أبي:

«ومُنْ الكذابّون بعد يا ترى؟؟».

قلتُ:

«بعض معارفي يا أبي! لا يُطاقون!...».

والآن تكلم وليد وقال:

«المغرورون، والكذابون، والخونة كذلك... كلهم لا يطاقون!».

التفتُّ إلى وليد وقلتُ:

«مَنْ تقصد؟؟».

قال:

«بعض معارفي يا ابنة عمي... لا يُطاقون!».

بدا كل هذا سخفاً! أليس كذلك؟؟

قال سامر:

«دعونا مِنْ هذا... ولنعد إلى موضوعنا.. لدينا عروسان، بالتالي موكبا زفاف... أبي ووليد، مَنْ سيقود موكب مَنْ؟؟ دعونا نحدّد الآن».

قلتُ أنا بسرعة:

«أنا أريد أبي».

التفتْ سامر نحو دانة وقال:

«إذن أنتِ مع وليد».

دانة نظرتْ إلى وليد وقالتْ:

«إذن يجب أنْ تستأجر سيارةً فخمة مِنْ أجلي! أفخم مِنْ سيارة سامر!».

والدتي ضحكت وقالتْ:

«يا لتفكيركنّ العجيب يا فتيات هذا الزمن!».

قالتْ دانة:

«لن أقبل بسيارة قديمة كهذه!».

ووجّهتْ كلامها إلى وليد قائلةً:

«لم لا تستبدل سيارتك يا وليد؟؟ لقد عثا عليها الدهر!».

قال وليد:

«سأفعل... عندما تتحسّن الأحوال!».

الأحوال بالتأكيد يقصد بها الأحوال المادية!

ولكن هل ابن عمي هذا ضئيل المال؟؟ ألم يذهب للدراسة في الخارج؟ لا بد أنّ لديه شهادة عظيمة تمكّنه مِنْ احتلال وظيفة مرموقة... ذات دخل محترم!

مثل سامر!

لا أدري ما كان يقصد بتحسّن الأحوال هذه!

وليد قال:

«ألديكِ دراسة هذه الفترة؟».

طبعاً كان يقصدني! لكنني تظاهرتُ بأنني لم أنتبه! لذا قال والدي:

«نعم لمدّة خمسة أيام قبل إجازة العيد... ستأخذها للجامعة خلال هذه الأيام».

قال وليد:

«حسناً، أهناك أي تغيير في مواعيدك؟؟».

الكل ينظر إليّ بانتظار جوابي!

قلتُ بنفور:

«لا، ولكنني أفكّر في عدم الذهاب هذه الأيام».

قال وليد:

«لِمَ؟؟».

قلتُ باستياء:

«ليس مِنْ شأنك».

بعض الصمت سكن الغرفة تلاه صوت أبي:

«لم لا تودّين الذهاب رغد؟؟».

قلتُ:

«لا أريد ترك دانة وحيدةً معظم النهار».

دانة نظرت إليّ بتشكّك وقالتْ:

«لا تكترثي بشأني! سأقضي الوقت في إعداد الطعام والعناية بالمنزل!».

ثم أضافتْ بجرأة:

«والتنـزّه مع نوّار!».

قالتْ أمي:

«على ذكر الطعام... ماذا عن كعكتكِ يا دانة؟؟».

قامتْ دانة وقالتْ:

«آه نعم... سأحضرها لكم الآن...».

وذهبتْ إلى المطبخ، فقمتُ أنا ولحقتُ بها...

* * *

عادتْ دانة ورغد بعد قليل تحملان الكعكة وكؤوس العصير... وقامتا بتوزيعها علينا...

الذي آلمني هو أنها - أي صغيرتي رغد - كانتْ تعاملني بنفورٍ شديد... حتى أنها حين جاء دوري لأخذ كأس عصيري لم تدع لي المجال لأخذه، بل أمسكتْ هي به ووضعتْه على المنضدة الماثلة أمامي بسرعة كادتْ معها أنْ تدلق محتوياته فوقها!

كانت الكعكة لذيذة جداً... قلتُ:

«ما ألذها! سلمتْ يداك يا دانة! أنتِ ماهرة».

قالتْ دانة بزهو:

«شكراً يا أخي، سترى! سأذيقكَ أصنافاً لذيذة مِنْ الحلويات فأنا ماهرةٌ في إعدادها!».

«عظيم! فأنا أحبُ الحلويات!».

والتفتُّ نحو رغد وقلتُ محاولاً استدراجها في الحديث:

«وأنتِ؟؟».

رغد رفعتْ بصرها عن قطعة الكعك التي بين يديها ببطء، ونظرتْ إليَّ بنفاذ صبر وقالتْ:

«أنا لا أحبُ الحلويات».

«أقصد ماذا ستذيقيننا مِنْ صنع يدك؟؟».

لم يبدُ على رغد أنها تريد تبادل الأحاديث معي أصلاً... قالتْ بضجر:

«لا شيء...».

قالتْ دانة:

«إنها كسولة! لا تحبُ الطهو ولا تجيده! لا أعرف كيف ستتولّى مسؤولية بيتها المستقبلي! مسكين سامر!».

ضحك سامر وقال:

«سأعود لأمي كلّما قرصني الجوع!».

وأخذ الجميع يضحكون عدانا أنا وهي...

قالتْ دانة وهي تضحك:

«أو صبّر معدتكَ بالبطاطا المقلية المقرمشة!».

واستمروا في الضحك بمرح... رغد وقفتْ الآن بغضب وقالتْ:

«أنتم تسخرون مني».

الجميع توقّف عن الضحك، ونظروا إليها باهتمام... كانتْ منفعلة... قال سامر:

«لا عزيزتي نحن نمزح فقط!».

«بل تسخرون مني».

وتوجّم وجهها بما يوحي بدموع على وشك الانهمار...

وقفتُ أنا وقلتُ:
«معذرة... صغيرتي».
التفتتْ رغد نحوي بعصبية وقالتْ بحدة:
«أنتَ أُسكُت... آخر مَنْ يُسمح له بالكلام».
صُعِقتُ بهذا الرد الجارح وعلاني الصمت العميق... الجو صار مشحوناً بتيّارات متعارضة متضاربة، والنظرات أخذتْ تصطدم ببعضها مُحدِثةً فرقعة!
والآن؟؟
خرجتْ رغد مسرعةً مِنْ الغرفة في غضب واستياء...
بقينا بعد خروجها بعض الوقت صامتين مُنصتين لفرقعة نظراتنا الحائرة! وقف سامر هامّاً باللحاق بها، إلا أنّ أمي طلبتْ منه أنْ يلتزم مكانه...
«دعوها فهي اليوم في مزاجٍ شديد التعكّر».
قالتْ هذا أمي، فعقّبتْ دانة:
«اليوم فقط؟؟ بل كل يوم! لا أدري ما ذا جرى لهذه الفتاة مؤخراً!».
كنتُ أنا لا أزال واقفاً أنظر ناحية الباب...
قالتْ أمي:
«اجلس بُنيَّ!».
فجلستُ على طرف المعقد مشدود العضلات... على أهبّة النهوض! تنهّد أبي وقال أبي:
«أمرها يقلقني».
قالتْ أمي:
«وأنا كذلك، لستُ مطمئنةً للسفر وتركها!».
قالتْ دانة:
«خذاها معكما! أنا لا أطيق تصرّفاتها هذه!».
أبي التفت إليَّ وقال:
«احرصْ في التعامل معها... كُنْ حليماً... هي فتاة مراهقة وصعبة المراس أحياناً».
قالتْ دانة:
«وهي لا تزال غاضبة مِنكَ وليد! كان الله في عونك على مراسها هذا!».
أمّا أمّي فجعلتْ تردّد وهي شاخصةٌ بعينها للأعلى:
«اللهمَّ اهدِها... اللهمَّ سهّل الأمور... وذلّل الصعاب».
بعد قليل آنَ أوان مغادرة والدي وسامر، الذي سينقلهما إلى المطار ثمَّ يذهب إلى شقّته في المدينة الأخرى...
أخذتُ أحمل الحقائب وأنقلها إلى سيارة أخي، ولمـا انتهيتُ مِنْ وضع الحقيبة الأخيرة ودخلتُ المنزل وجدتُ والدتي تقف عند الباب الداخلي...

قالتْ:

«أعطاكَ الله العافية يا بُنيَّ».

«عافاكِ الله أمّاه».

هممتُ بالدخول لكن أمي أمسكتْ بذراعي واستوقفتْني...

«وليد».

«نعم أمي؟؟».

أمي تحدّثتْ بصوت منخفض، وبنبرة جدية... وتعبيرات قلِقة، قالتْ:

«انتبِه لرغد جيداً يا بُنيَّ».

تعجّبتُ! قلتُ:

«بالطبع أمي!».

أمي بدا المزيد مِنْ القلق جلياً على وجهها وقالتْ:

«كنا سنؤجّل حجّنا للعام التالي لكن... كتبه الله لنا هذا العام... هكذا قضتْ الظروف يا بُنيَّ».

وهذا زادني حيرة!

«لو أنَّ الظروف سارتْ على غير ذلك... لكانتْ الأوضاع مختلفة الآن... لكنّه قضاء الله يا ولدي... سأدعوه في بيته العظيم بأنْ يعوّضكَ خيراً ممّا فاتكَ... فلنحمدهُ على ما قسَم وأعطى».

قلتُ:

«الــ.. حمد لله على كل شيءٍ... أمي أنتِ تلمّحين لشيءٍ معين؟؟».

قالتْ:

«لم تتغيّر هي عمّا تركتَها عليه قبل سنين... كما لم تتغيّر أنتَ...».

ثم أضافتْ:

«إلا أنَّ الظروف هي التي تغيرتْ... وأصبح لكلٍ منكما طريقه...».

توهّج وجهي تأثُراً مع كلمات أمي والحقيقة الصارخة أمامي... لم أستطع البنس ببنت شفة أمام نظرات أمّي التي كشفتْ بواطن نفسي...

قالتْ:

«اعتنِ بها كما يعتني أي شقيقٍ بشقيقته... كما تعتني بدانة، وادعُ معي الله أنْ يسعدهم هم الثلاثة، وأنتَ معهم».

في هذه اللحظة فُتِح الباب وظهر بقيّة أفراد عائلتي بما فيهم رغد، وخرجوا واحداً تلو الآخر... واجتمعنا قرب بعضنا البعض... عند الشجرة الطويلة... في وداعٍ مؤلم جداً...

بالنسبة لي، فقد اعتدتُ فراق أحبّتي وجمدتْ عيناي عن أي دموع. أمّا البقية فقد كانتْ الدموع تغرق مشاعرهم...

كلمات أمي...
وكلمات أبي كذلك
وتوصيتهما الشديدة على الفتاتين
وخصوصاً رغد، جعلتْني أشعر بالخوف...
فهل أنا أهلٌ لتحمّل مسؤولية هذا البيت ومَنْ به في غياب والديّ؟؟
وهل هي مسؤولية خطِرة تقتضي منهما كل هذه التوصيات والتنبيهات؟؟
أم... أنّ هناك شيءٌ... يخبّئه القدر...؟؟
خرج الثلاثة المسافرون، فعدنا نحن الثلاثة إلى الداخل... وقضيتُ وقتاً أراقب دموع الفتاتين...
كنّا نجلس في غرفة المعيشة... والحزن يخيّم على الأجواء فشعرتُ بالضيق.
قمتُ بتشغيل التلفاز فرأيتُ مشهداً مُريعاً لآثار قصفٍ تعرضّتْ له إحدى المدن هذا اليوم... فزاد ذلك ضيقي...
كم كنتُ مرتاحاً هانئاً في مزرعة نديم! ليتني أعود إلى هناك!
قلتُ - في محاولة لتغيير الأجواء وطرد الكآبة -:
«ما رأيكما بالذهاب في نزهةٍ بالسيارة؟؟».
دانة تفهّمَتْ وقدّرت الأمر، فقالتْ:
«نعم يا ليت! هيا بنا».
نظرتُ إلى رغد أنتظر جوابها، لكنها ظلّتْ صامتة... قلتُ:
«ما رأيكِ؟».
قالتْ بصوتٍ حاد ونبرة جافّة مزعجة:
«لا أريد الذهاب لأي مكان».
دانة قالتْ:
«إذن سنذهب وأنتِ ابقي هنا».
رغد بسرعة التفتَتْ إلى دانة وقالتْ:
«تتركاني وحدي؟؟».
قالتْ دانة:
«ما نصنع معكِ؟؟ أنا بحاجة لبعض الهواء المنعش... إمّا أنْ تأتي معنا أو ابقي مخنوقةً وحدكِ».
وقفتْ رغد منفعلةً وقالتْ:
«كان عليّ أنْ أذهب معهما... كم كنتُ غبيّةً... ليتَني ألحقُ بهما الآن».
وقفتُ أنا وحاولتُ تهدئة الوضع فقلتُ:
«لا بأس... سنؤجِّل نزهتنا لوقتٍ لاحق... لا تنـزعجي هكذا صغيرتي».

رغد التفتتْ نحوي بعصبيّة وقالتْ صارخة:

«لا شأن لكَ أنتَ بي... مفهوم؟؟ لا تظن أنّكَ أصبحتَ مسؤولاً عنّي... لا تزعج نفسكَ في تمثيل دور المعتني فهذا لم يعدْ يناسبكَ... يا كذّااب!».

اللهم استعنّا بكَ على الشقاء!

ذهبتْ الصغيرة الغاضبة إلى غرفتها... وبقيتُ مع دانة التي بدتْ مستاءةً جداً مِنْ تصرّف رغد... اقترحتُ عليها بعد ذلك الجلوس في الفناء الخارجي فرحّبتْ بالفكرة

خرجنا معا وجلسنا على المقاعد القريبة مِنْ الشجرة... وبدأنا نتجاذب أطراف...

أخبرتُ دانة عن مزرعة صديقٍ لي قمتُ بزيارتها مؤخَراً وأعجبتْني... وعن متفرّقات مِنْ حياتي... غير أنّني لم أشرْ إلى السجن، ولا ما يتعلّق به...

شقيقتي بدتْ متلهفةً لمعرفة كل شيء عني! وكأنها اكتشفتْ فجأةً أنَّ لديها شقيقٌ يستحق الاهتمام والفخر!

اعتقد أنها كانتْ تنظر إليَّ بإعجاب وفخر بالفعل!

بعد مدّة حضرتْ رغد... كانتْ عيناها حمراوين... قالتْ:

«دانة، مكالمة لكِ».

أجابتْ دانة:

«مَنْ؟؟».

قالتْ رغد:

«مَنْ غيره؟ خطيبكِ المبجّل».

دانة نهضتْ بسرور واستأذنتْ للدخول إلى المنزل...

ولحقتْ بها رغد بعد ثوان، وبقيتُ وحيداً إلى أنْ سمعتُ الآذان يُرفع...

دخلتُ بعدها واستعددتُ للخروج لتأدية الصلاة في المسجد المجاور. كانتْ دانة في غرفتها أمّا رغد فأظنها في غرفة المعيشة!

خرجتُ إلى الفناء وفيما أنا أعبره نحو البوابة الخارجية سمعتُ صوت نافذة يُفتَح ونداء باسمي

«وليد».

التفتُ نحو الصوت فإذا بها رغد تطلُّ مِنْ النافذة المشرفة على الفناء وتقول:

«إلى أين تذهب؟؟».

«إلى المسجد».

«ستتركنا وحدنا؟؟».

حرتُ في أمري!

«هل هناك مشكلة؟؟ سأصلّي وأعود مباشرةً... تعالي وأوصدي البابين...».

وافتْني بعد قليل ووقفتْ عند البوابة وبيدها المفتاح. قالتْ:

«لا تتأخّر».

«حسناً».

وعندما عدتُ بعد أداء الصلاة كانتْ هي مَنْ فتح الباب لي... ثمّ قدّمتْ لي مفتاحين وقالتْ:

«هذا لبوّابة السور وهذا للباب الداخلي، احتفظ بهما».

«شكرا لكِ».

تولّتْ رغد قاصدةً دخول المنزل فناديتُها:

«رغد».

التفتتْ إليّ، وقالتْ بنفسٍ ضائقة:

«نعم؟؟».

«أما تزالين غاضبةً مني؟؟ كيف لي أنْ أكسب عفوكِ؟؟».

«لا يفرق الأمر معي».

وهمتْ بالانصراف، قلتُ:

«لكنه يفرق معي كثيراً».

توقّفتْ وقالتْ:

«حقاً؟؟».

«نعم بالتأكيد...».

«هذا شأنكَ...».

وانصرفتْ... الواضح أنني سألاقي وقتاً عصيباً... كان الله في عوني...

بعد ساعات، أعدَّتْ دانة مائدة العشاء ولم تشاركنا رغد فيه... لقد مضتْ الليلة الأولى مِنْ ليالي تولّيّ مسؤولية هذا المنزل على هذه الحال...

في الصباح التالي كنتُ أجلس مع دانة في المطبخ، ورغد على ما يبدو لا تزال نائمةً... قلتُ:

«أخبريني دانة... كيف أقدّم المساعدة؟؟ فأنا أجهل الأمور المنزلية!».

ضحكتْ دانة وقالتْ:

«لا تهتم! أنا أستطيع تولّي الأمور وحدي!».

«أرغب في المساعدة فأنا بلا شاغل! أخبريني فقط بما عليَّ فعله!».

وباشرتُ المساعدة في أعمال المنزل!

ليس الأمر سيّئاً كما قد يظنّه البعض، كما أنّه ليس مِنْ تخصّص النساء فقط! كنتُ أرتب الأواني في أرففها الخاصة حين دخلتْ رغد إلى المطبخ...

كانتْ دانة آنذاك تفتّش في محتويات الثلاجة... قالتْ رغد:

«صباح الخير».

التفتنا لها وردنا التحية. الحمد لله، تبدو أكثر هدوءاً هذا الصباح! قالتْ دانة:
«تناولنا فطورنا قبلكِ!».
قالتْ رغد:
«غير مهم».
قالتْ دانة وهي لا تزال تقلّب بصرها في محتويات الثلاجة:
«إنني حائرةٌ ما أطهو للغذاء اليوم!؟ ماذا تودّان؟؟».
ونظرتْ باتجاهي، فقلتُ:
«أي شيء! كما يحلو لكِ».
ثم نظرتْ باتجاه رغد وسألتُها:
«ما ذا تقترحين؟؟».
قالتْ رغد:
«لا شيء».
«لا شيء؟؟».
«لا تعملي لي حساباً فأنا حين أرغب بشيءٍ سأصنعه بنفسي».
قالتْ دانة بعد تنهّد:
«أما زلتِ على ذلك! أفٍ منكِ!».
رغد انسحبتْ فوراً مِنْ المطبخ... وضعتُ أنا الأواني في أماكنها وقلتُ لدانة:
«دانة... لا تكوني فظّة معها!».
«أنا يا وليد؟؟ ألا ترى كيف تردُّ عليَّ بنفسٍ مشمئزّة؟؟».
«لكن... أرجوكِ لا تعامليها بخشونة... لحين عودة والديَّ...».
«لا تقلق. لن أتعمّد إزعاجها.. تصرّف أنتَ معها».
مضتْ ساعات والفتاة حبيسة غرفتها... الأمر ضايقني كثيراً... وقبل ذهابي لتأدية صلاة الظهر في المسجد طلبتُ مِنْ دانة أنْ تذهب لتفقدّها، وعندما عادتْ سألتُها عنها فقالتْ:
«لم تفتح لي الباب! عنيدة!».
الأمر زاد مِنْ قلقي وخوفي... وبعدما عدتُ، سألتُها عنها فكرّرتْ الإجابة ذاتها...
«حسناً... سوف... سوف أحاول التحدّث معها... أيمكنني ذلك؟؟».
«حاول وليد!علّك تحرز نجاحاً!».
ذهبتُ بعد تردّد، وطرقتُ باب غرفتها...
«هذا أنا وليد».
لم تردْ عليَّ... شعرتُ بخوف... فعدتُ أطرق الباب طرقاً أقوى وأنادي:
«رغد... صغيرتي هل أنتِ بخير؟؟».
ولمّا لم تجبْ أصابني الجنون... ماذا لو أنَّ مكروهاً قد حلَّ بها ونحن لا نعلم؟؟

طرقتُه الآن بقوّة...

«رغد افتحي الباب أرجوك...».

كدتُ أفقد السيطرة على نفسي لو لم ينفتح الباب في اللحظة الأخيرة!

ظهرتْ رغد... وراعني مظهرها...

صغيرتي أنا... مدلّلتي الغالية... تتبعثر دموعها الغالية سدىً لتشربها المناديل... وينتهي مصيرها إلى سلة المهملات؟؟

«ماذا تريد؟».

قالتْ بصوتٍ حزين مخنوق... التفّ حول عنقي أنا وخنقني حتى الموت... قلتُ:

«ما بكِ صغيرتي؟؟».

قالتْ وتعبيرات وجهها تزداد حزناً وكآبة:

«ماذا تريد قُلْ لي؟؟».

«رغد... أريد أنْ تتوقّفي عن البكاء والحزن أرجوكِ... أنا قلقٌ عليك».

«قلِقٌ عليّ؟».

«نعم يا رغد...».

«ولِمَ؟ هل يهمّك أمري؟؟».

«وهل هذا سؤال؟ طبعاً يهمّني! لِمَ أنا هنا الآن؟؟».

«لأنَّ والدي طلب منك ذلك، ووجدتَ نفسكَ مضطراً للحضور. لم تكن لتحضر لأجل أحد... خصوصاً لفتاةٍ غبيةٍ تصدّق قسم الكذّابين وتستَغفل بكأس بوظة يشتريه لها رجلٌ مثلكَ ليلهيها بها قبل الرحيل».

صفعتْني كلماتها...

وإذا بالدموع تقفز مِنْ عينيها قفزاً...

«تسخر منّي؟؟ أتظنّني تلك الطفلة اليتيمة الوحيدة التي تخلّيتَ عنها قبل سنين وهي في أحوج الأوقات إليك؟؟».

«رغد...!».

«أُسكتْ...!».

صمتُّ، وأنا في قلبي صرخة لو أطلقتُها لحطّمت زجاج المنزل...

«لا تدّعي القلق عليّ يا كذّاب... لا أريدكَ أنْ تعتني بي... فلديَّ خطيبٌ يهتم لأمري ويحرص عليَّ... أفضل مِنْكَ... أليس هذا هو كلامك؟ يا ابن عمّي الكذّاب؟؟».

لا إرادياً رفعتُ يدي وضربتُ الباب بقوة مِنْ فرط الغضب...

عندها، توقّفتْ رغد عن الكلام وعن البكاء أيضا... ونظرتْ إليَّ بفزع...

كانتْ النار تتأجّج في صدري...

قلتُ بعصبيّة لم أملك إخفاءها:

«لا تتحدّثي معي بهذِهِ الطريقة ثانيةً يا رغد... فهمتِ؟؟».
رغد كانتْ تبدو مذعورةً وتنظر إليّ بدهشة...
«إنكِ لا تعرفين شيئاً... لا تقلبّي عليّ المواجع وتذيقيني الأمرّين... ودعي هذه الأيام تمرُّ بسلام... أتسمعين؟؟».
وأوليتُها ظهري وانصرفتُ...
جلستُ في الردهة... وجلستْ معي وتحديداً في رأسي كلماتُ رغد الأخيرة...
(لديَّ خطيبٌ يهتمُّ لأمري ويحرص عليَّ أفضل مِنْكَ).
تباً لكَ يا سامر!
بعد نصف ساعة رأيتُ رغد تعبر الردهة... في طريقها إلى المطبخ...
ألقتْ عليّ نظرةً غريبة، ثمَّ تابعتْ سيرها...
لحقتُ بها أنا بعد قليل، فرأيتُها تقشِّر البطاطا وتقطِّعها... ورأيتُ دانة وقد انتهتْ مِنْ إعداد المائدة... فقالتْ:
«الغذاء جاهز... تفضَّل وليد».
رافقتُ دانة وأنا أسير ببطءٍ وتردّد... إلى غرفة المائدة حيث الوجبة اللذيذة التي أعدَّتها...
«قلْ لي ما رأيكَ؟؟».
«أنتِ ماهرةٌ يا دانة! محظوظٌ هو نوّار!».
ابتسمتْ بخجل وقالتْ:
«شكراً لك..».
ثم قالتْ:
«على فكرة دعاني للعشاء في مطعم هذه الليلة!».
«جميل!».
ثم استدركتُ وقلتُ:
«ماذا قلتِ؟؟ للعشاء في مطعم؟؟».
«نعم».
«و... نحن؟؟».
قالتْ:
«هل تودّان مرافقتنا؟؟».
ابتسمتُ وقلتُ:
«لا، لا أقصد... لكن...».
«آه فهمتُ! لا تقلق! سأعدُّ لكما طعاماً قبل انصرافي!».
«أوه لم أقصد هذا أيضاً! إنْ ذهبتِ ستبقى رغد وحدها!».
دانة رفعتْ نظرها نحو السقف لتفكر، ثمَّ قالتْ:

«لكن غداً السبت وسوف تنام مبكّرة! أنتَ مَنْ ستظلُّ وحيداً!».
«لا يفرق الأمر معي كثيراً...».
فلطالما عشتُ وحيداً... لا تشاركني أيامي سوى الهموم والذكريات...
«فيمَ شردتَ أخي؟».
سألتْني دانة حين رأتْني سارحا... قلتُ:
«دانة... اذهبي واستدعي رغد لتجلس معنا».
«لن تفعل! أعرفها!».
«إذن... دعينا نذهب نحن إليها!».
وقرنتُ القول بالعمل!
رفعتُ الطبق الرئيسي وحملتُه إلى المطبخ، ووضعتُه وسط الطاولة... بينما رغد تجلسُ على أحد المقاعد وتأكلُ أصابع البطاطا مِنْ طبقٍ أمامها.
حين رأتني نظرتْ إليّ باستغراب، فقلتُ:
«أنا أيضاً أحب البطاطا المقلية! هل لي بمشاركتك؟؟».
وللمرّة الأولى منذ عودتي للمنزل أرى ابتسامة على وجهها - وإنْ كانت ابتسامة سطحية...
جلستُ على أحد المقاعد، فقرّبتْ هي طبق البطاطا منّي وتناولتُ بعضها...
أقبلتْ دانة تحمل بقية الأطباق وترتبها أمامنا واحداً بعد الآخر...
صحيح أنَّ رغد لم تشاركنا طعامنا ولا حتى الحديث لكنها على الأقل شاركتنا المائدة، والتنظيف أيضاً!
بعد عدة ساعات حضر نوّار وجالستُه بعض الوقت قبل أنْ يخرج هو ودانة للاستمتاع بسهرة خاصة...
نوّار شخص مغرورٌ بالفعل واتّفِق مع رغد في حكمها عليه!
بعدما خرجتْ دانة أدركتُ أنني أصبحتُ في البيت منفرداً مع رغد!
هي كانتْ تجلس في غرفتها منذ ساعات، وأنا أتجوّل في المنزل بملل لا أجد ما أفعله...!
رنَّ الهاتف فأسرعتُ إليه... لأشغل نفسي به... كنتُ انتظر اتصالاً مِنْ والديَّ، لكن الذي اتصل هو آخر شخص كنتُ أودُّ سماع صوته... أخي سامر!
سأل عن أحوالنا وما إلى ذلك، ثمَّ طلب مني أنْ استدعي رغد...
ألكم أنْ تتصوَّروا ذلك؟؟
أستدعي رغد لكي يتبادل الأحاديث معها هو...
رغد لم تكن تملك هاتفاً في غرفتها لذلك حين أخبرتها أتتْ معي وجلستْ في نفس الغرفة تتحدّث معه!
في وضعٍ كهذا، فإنه لمِنْ اللياقة والذوق أنْ أنصرف... لكنني لم أرغب في الانصراف...
بل على العكس... استرقتُ السمع عمداً لأعرف ما يدور بينهما مِنْ أحاديث...

«ذهبتْ مع خطيبها وتركتني وحدي! لكنني كنتُ أدرس، وبعد قليل سآوي للنوم... لا تقلق عليّ عزيزي».

(عزيزي)؟؟ (عزيزي)؟؟

لم يمكنني تحمّل المزيد... ألقيتُ بالصحيفة التي كنتُ أتظاهر بقراءتها ونهضتُ مستاءً وذهبتُ إلى غرفة سامر، وذرعتُها جيئةً وذهاباً حتى صدّعتُ أرضها!

تناولتُ إحدى السجائر - والتي كنتُ على وشك الإقلاع عنها - وخرجتُ مِنْ الغرفة ومِنْ المنزل، إلى الفناء الخارجي رغبةً في التدخين...

إلى أنْ تنتهي الأيام المتبقية لي في هذا المنزل فإنني بالتأكيد سأتدهور وأعود إلى الصفر...

سمعتُ الباب يُفتح بعد خروجي ببرهة... وأتتْ رغد.

«إلى أين تذهب؟؟».

التفتُّ إليها وقلتُ:

«ليس لأي مكان... سأدخّن هنا فقط».

قالتْ:

«لا تخرج وليد، أنا وحدي».

وحدكِ؟ أليس (عزيزكِ) معكِ؟؟ عودي إليه!

«أعرف».

توقّعتُ بعد ذلك أنْ تعود للداخل لإتمام مكالمتها، لكنها على العكس مِنْ ذلك خرجتْ ووقفتْ قرب الباب... تراقبني!

قالتْ:

«يجب أنْ أخلد للنوم الآن... أغادر عند السابعة والنصف صباحاً».

«حسناً. اطمئنّي، سأنهض في الوقت المناسب».

صمتتْ قليلا، ثمّ قالتْ:

«ألن تنام الآن؟؟».

«لا! لا يزال الوقت مبكراً بالنسبة لي، كما وأنني سأنتظر دانة... اذهبي أنتِ».

وظلّتْ واقفة مكانها...

وحين رأتْ علامات التعجب فوق رأسي قالتْ:

«ألن تأتي معي؟؟».

«إلى أين؟؟».

«إلى الداخل».

«سأبقى هنا لبعض الوقت!».

ولم أر منها أي بادرة تشير إلى أنها تعتزم الدخول!

«ما المشكلة؟؟».

«لا تخرج وليد رجاءً».

«لا أنوي الخروج أبداً...».

«إذن أدخل».

يا لهذه الفتاة! ألم تعد تصدّقني أبدا؟؟ أم تظن أنني سأرحل وأتركها ودانة هكذا؟؟

تخلّصتُ مِنْ سيجارتي، ودخلتُ معها. هي ذهبت للنوم وأنا بقيتُ أشاهد التلفاز لساعتين، حتى عادتْ دانة مِنْ سهرتها.

«وليد سأذهب ونوّار غدا لشراء بعض حاجيات منزلنا عصراً وقد أغيب حتى الليل».

«ورغد؟؟ تتركينها وحدها؟؟».

«لا! أتركها معك!».

في صباح اليوم التالي نهضتُ باكراً واستعددتُ لمرافقة رغد إلى الجامعة...

كنتُ في المطبخ وقد أعددتُ بعض الشاي وجعلتُ أحتسيه ببطء... وأراقب عقربَي الساعة اللذين يقتربان مِنْ السابعة والنصف...

وأخيراً ظهرتْ رغد!

أهناك أجمل مِنْ أنْ تستقبل صباحك برؤية وجوه مَنْ تحب؟؟

قلتُ:

«صباح الخير... صغيرتي».

ردّتْ عليَّ بشيء مِنْ الخجل...!

قلتُ:

«أأ... أ نذهب الآن أم.. ترغبين بتناول الفطور؟؟».

نظرتْ رغد نحو إبريق الشاي الذي أعددتُه، وقالتْ:

«هل مِنْ مزيد؟؟».

قلتُ متوتراً:

«نعم، أعتقد، أجل... تفضّلي».

وأنا في خشيةٍ مِنْ ألا يعجبها طعم الشاي البسيط الذي أعددتُه!

سكبتُ لها قليلاً مِنه في أحد الأكواب فرشفتْ منه قليلا ولم يظهر على وجهها أي استياء.

الحمد لله! فشايي مقبول الطعم!

وبعدها شربتْ المقدار كاملاً، ثمّ غادرنا المنزل.

الجو كان منعشاً جداً ومِنْ خلال نوافذ السيارة النصف مفتوحة تتسلّل تيارات الهواء الباردة عابثةً بشعري!

رغد كانتْ تجلس خلفي ملتزمة الصمت... ورغم برودة الجو، إلا أنَّ مجرّد وجودها في الصورة يكفي لجعل الحريق ينشب في داخلي...

في عصر ذلك اليوم وبعدما خرجتْ دانة مع خطيبها بقينا وحدنا في المنزل، هي في غرفتها كالعادة، وأنا لا أجد ما أفعله.

شعرتُ بملل شديد وأجريتُ عدّة مكالمات مع بعض معارفي مِنْ أجل تمضية الوقت غير أنّ الساعات مرّتْ بطيئة جداً...

لم لا أخرج في نزهة بسيطة... وآخذها معي؟؟

أتراها ترحّب بذلك؟؟ أأكون مجنوناً إنْ طلبتُ هذا؟؟

لِمَ لا أجرّب؟!

ذهبتُ إلى غرفتها وطرقتُ الباب، وبعد قليل فتحته...

«هل أنتِ مشغولة؟؟».

«أهناك شيء؟؟».

«كنتُ... أرغب بالخروج للتنـزُّه لبعض الوقت وشراء بعض الحاجيات».

وبدا على وجهها الاعتراض وقالتْ بسرعة:

«وتتركني وحدي؟؟».

قلتُ:

«لا، لا... أصطحبكِ معي... إنْ كنتِ لا تمانعين؟».

تردّدتْ رغد قليلاً ثمّ قالتْ:

«حسناً ولكن لفترة قصيرة فأنا أريد أنْ أذاكر».

«نعم، لساعة لا أكثر».

وخرجنا معاً...

حينما مررتُ قرب إحدى الصيدليات أوقفتُ سيارتي وهممتُ بالنزول قائلاً:

«سأشتري بعض الأشياء وأعود سريعاً».

رغد فتحتْ الباب مباشرةً وهي تقول:

«سآتي معكَ».

«لن أتأخر!».

«ليكُن، سآتي معكَ».

كنتُ أنوي شراء ما نفذ منْ أدويتي، وبعض الأشياء الأخرى...

تجوّلنا بالسيارة على الشوارع الداخلية للمدينة... ومررنا بعدة محلاّت ومتاجر...

سألتُها بعد ذلك عمّا إذا كانتْ ترغب في شراء أي شيء، أجابتْ بالنفي، قلتُ:

«ولا حتّى... بعض البوظة؟؟».

فإذا بها تقول:

«البوظة ثانيةً؟؟ لِمَ؟ هل قرّرتَ الرحيل هذه الليلة؟؟».

انزعجتُ مِنْ كلامها فقلتُ:

«وهل أنا مجنونٌ لأرحل وأترككما وحدكما؟؟».
«لا... لست مجنوناً».
ثم أضافتْ:
«إنما كذّاب!».
عند هذه اللحظة قررتُ إنهاء جولتنا القصيرة، وعدتُ إلى البيت.
لم أنطق بكلمة بعد، ودخلنا المنزل وذهبتْ هي مباشرة إلى غرفتها وبقيتُ أنا في الردهة، أكثر ضيقاً مما كنتُ عليه قبل خروجي...
لماذا لا تتوقّف عن نعتي بهذا؟؟ ألا تدرك أنها تجرحني؟؟
يجب أنْ أضع نهايةً لهذا الموقف...
فيما بعد... ذهبتُ لأسألها عمّا إذا كانتْ ترغب في أنْ نحضِر عشاءً مِنْ أحد المطاعم، بما أنَّ دانة ستتناول عشاءها مع خطيبها...
كان باب الغرفة مفتوحاً وكانتْ هي تستعرض بعض لوحاتها...
«أيمكنني أنْ أتفرج عليها؟؟».
«حسناً... هذه الجديدة».
كانت الرسومات جميلة ومتقنة... وفيما أنا أتفرّج عليها رأيتُ شيئاً أذهلني!
أتذكرون صورتي التي رسمتْها رغد في السابق! كانتْ ضمن المجموعة... إلا أنَّ شيئاً قد تغيّر!
كانتْ العينان حمراوين!
عندما وقعتْ يدي وعيني على هذه الصورة، أسرعتْ رغد بسحبها مني!
قلتُ:
«دعيني أرى!».
قالتْ بارتباك:
«هذه لا!».
«ماذا فعلتِ بعينيَّ؟؟».
«لا شيء!».
«لكن لم طليتهما باللون الأحمر؟».
نظرتْ نحوي بحدة وقالتْ:
«هكذا هي عيون الكذابين».
اشتططتُ غضباً ورميتُ ببقية اللوحات على المكتب وخرجتُ مِنْ الغرفة...
ونسيتُ أمر العشاء وكل أمور الدنيا عدا موقف رغد المزعج مني...
ومِنْ حينها بدأتُ أعاملها بالمثل... بجفاءٍ وخشونة.
توالتْ الأيام، والأجواء بيننا متنافرة، أقوم بواجباتي بمصمت ولا أتبادل أحاديث تُذكر

معها... حتى أقبل يوم الأربعاء، وهو اليوم الذي يأتي سامر فيه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معنا...

مع اقتراب موعد حضوره تعمّدتُ ملازمة الغرفة فأنا لا أريد أنْ أشهد استقبالاً حميماً مِنْ النوع الذي يقرّح المعدة... بين الخطيبين...

وأوّل حديث دار بينه وبيني:

«ألا يمكنكَ أخذ إجازة مِنْ الآن يا سامر؟».

«لا أستطيع! ولكن... هل واجهتَ أي مشاكل؟؟».

«لا، غير أنني سئِمتُ، وأودُّ المغادرة!».

وانتهزتُ فرصة تواجد سامر في المنزل، وقضيتُ معظم الأوقات في الخارج...

ليس لأنني أرغب في الترويح عن نفسي بل لأنني لا أرغب في التواجد في مكانٍ يجمعهما...

ومهما توهّمتُ أنها عادتْ لي...

في النهاية... استيقظ على الواقع المر...

إنها أصبحتْ له.

- رغد -

أخبرني سامر بأنّ وليد أبلغه عن سأمه مِنْ رعايتنا أنا وأختي دانة! الأمر أزعجني... رغم أنني أعرف مُسبقاً أنّه لا يهتم بنا... أو على الأقل بي، وأنّه مجبورٌ على البقاء معنا. لم تكن بالفترة الهيّنة تلك التي قضيتُها مع وليد تحت سقف واحد!

كنتُ أُجبر نفسي على التظاهر بالاستياء والانزعاج مِنْه لأكتم حقيقة تصرخ في داخلي... أنا سعيدة بوجوده وأكاد أطير فرحاً...

وفرحتي هذه تنتهي في الليل ببحر مِنْ الدموع والآهات، للمصير الذي ينتظرني...

ليتَ أحداً يشعر بي!

ليتَ أحداً ينقذني!

سامر كان يتحدّث معي بلهفةٍ وشوق... وكلّما رأيتُ مِنْهُ هذه المشاعر كرهتُ نفسي وكرهتُ الدنيا أكثر فأكثر...

لم يكن لديَّ سوى نهلة أبثُّها همومي... وسأدعوها الليلة لقضاء بعض الوقت معي بعد أنْ يغادر سامر.

وليد كان قد خرج منذ الصباح ولم يعد حتى الآن!

إنه يوم الجمعة والساعة الرابعة عصراً وسامر يريد الذهاب...

ألهذا الحد هو - أي وليد - متضايقٌ مِنْ وجوده معنا ولم يصدّق أنْ جاء سامر ليخرج دون عودة؟!

«تأخّر وليد! سأتّصل به».
قال سامر، فعقّبتُ:
«ربّما رحل!».
نظر إليّ سامر باستغراب وقال:
«رحل! مستحيل طبعاً! كيف يرحل هكذا؟؟».
«إنّه يرحل هكذا دون مقدّمات! أمْ نسيتَ ذلك؟؟».
«لكن الآن مستحيل».
وذهب للاتصال به. عندما فرغ مِنْ مكالمته قال:
«إنه في طريقه إلى هنا».
وشعرتُ بالاطمئنان... قلتُ:
«متى ينقضي هذا الأسبوع...».
كنتُ أعني أنْ تعود أمي ويعود أبي، وتعود الأمور إلى أماكنها، إلا أنّ سامر فهم حسب مزاجه!
ابتسم ابتسامة لطيفة وأمسك بيدي وقال بصوتٍ حنون:
«أنا أيضاً أنتظر على نار! متى يا رغد! متى ينقضي!».
ولم ينقذني مِنْ نظراته تلك غير رنّة الهاتف...
أسرعتُ إليه وكان والدي على الطرف الآخر...
كان والداي يتصلان مِنْ حين لآخر خلال الأيام المنصرمة، وهذه المرة تعمّدتُ الإطالة في الحديث معهما واستدعيتُ دانة مِنْ أجل وضع حواجز بيني وبين نظرات سامر...
أنا لم أعد أحتمل... ليتني أستطيع قول شيء... سامر... سامحني... لكني لا أحبُّك... ولا أريد الزواج منك! ألا تلاحظ ذلك؟؟
بعد قليل وصل وليد... قال سامر ممازحاً:
«ما هذا يا أخي! أخبرني أين كُنتَ تتسكّع كل هذه الساعات!؟».
وليد لم يبدُ عليه أي علامات المرح! بل كان عابساً! قال سامر:
«عليّ أنْ أذهب الآن...».
ثم أضاف وهو ينقل بصره بيني وبين دانة:
«اعتني بشقيقتي وعروسي جيداً!».
قال وليد بنبرة حادّة تنم عن الاستياء:
«لستُ بحاجة لتوصية، ماذا تظنني كنتُ أفعل؟ أتركهما وأتسكّع في الشوارع؟؟».
فوجئنا أنا وسامر ودانة بالنبرة الغريبة التي تحدّث بها وليد، وكلماته الجدية القوية!
سامر قال:
«كنتُ أمزح! ما بكَ!؟؟».

لم يرد وليد... بل جلس على المقعد، ونزع ساعته وأخرج هاتفه المحمول ومحفظته ومفاتيحه مِنْ جيبه ووضعها جميعاً على المنضدة وأسند رأسه إلى المسند بشكل يُفهِم الناظر إليه بأنّه مستاء جداً...

تبادلنا نحن الثلاثة النظرات... المتعجّبة قال سامر:

«ما بكَ وليد؟؟».

«لا شيء».

«تبدو مستاءً... هل حدث شيءٌ ما؟؟».

«قلتُ لكَ لا شيء! ألا تسمع؟؟».

صمتَ الاثنان قليلاً، ثمّ قال سامر:

«إنْ كان البقاء هنا يزعجك لهذا الحد...».

ولم يتم إذْ أنّ وليد قال مقاطعاً:

«أنا هنا الآن... انصرف مطمئِناً على عروسك وأختها... إنْ هي إلا أيام فقط وينتهي كل شيء».

لم يجرؤ أحدنا على النطق بكلمة بعد...

رافقنا سامر إلى البوابة الخارجية وقبل انصرافه قال:

«هل هناك شيء؟؟ هل هو عصبيٌ هكذا معكما؟؟».

دانة قالتْ:

«لا مطلقاً! على العكس تماماً، لكن... اعتقد أنَّ شيئاً ما حدث معه وهو في الخارج».

عندما عدنا للداخل، وجدنا وليد وقد اضطجع على المقعد وغطّى عينيه المغمضتين بذراعه...

شعرتُ بالقلق الشديد عليه... إذ يبدو مِنْ تصرّفه ومنظره الآن أنَّ شيئاً ما قد ضايقه كثيراً... فهل هو مستاءٌ منْ البقاء معنا؟؟

قالتْ لي دانة:

«سيمرُّ نوّار لاصطحابي إلى السوق بعد قليل».

قلتُ:

«ماذا؟؟ ستخرجين وتتركيني؟؟».

«ألن تأتي نهلة لزيارتكِ الليلة؟؟».

«بلى ولكن إلى ذلك الحين، هل سأظلُّ وحدي؟؟».

«وحدكِ؟؟ ومعك كل هذا؟؟».

وأشارتْ بيدها نحو وليد. قلتُ بقلق:

«إنه يبدو مخيفاً!».

ضحكتْ دانة وقالتْ:

«حتى وليد!؟ أخشى أنّك تشعرين بالخوف مِنْ زوجك أيضاً!».
وانصرفتْ إلى غرفتها تستعد للخروج...
بقيتُ أنا واقفةً أراقب وليد الذي يبدو أنه نام...
خطوة خطوة، بهدوء تام اقتربتُ منه! كان لديَّ فضول لألقي نظرة عن كثب على الأشياء التي وضعها على المنضدة!
يبدو شكل (سلسة المفاتيح) جذاباً لكنّه قديم!
مددتُ يدي بحذر حتى أمسكتُ بالسلسلة وحرّكتُها ببطء فأصدرتْ صوتاً خفيفاً، راقبتُ وليد بتمعن، ولم ألحظْ عليه أيَّ حركة...
الآن السلسلة في يدي! ما أكثر المفاتيح!
والآن، هل أستطيع أنْ أُلقي نظرةً على الهاتف أيضاً؟؟ إنّه مِنْ طرازٍ مختلِف عن هاتِفَي سامر وأبي...
مددتُ يدي نحو الهاتف ولم أكد ألمسه!
«ماذا تفعلين!؟».
قال وليد فجأة وهو يزيح ذراعه عن عينيه وينظر إليَّ!
جفلتُ وأُصِبتُ بالروع فانتفضتُ فجأة!
وقع المفتاح مِنْ يدي على المنضدة...
همَّ وليد بالجلوس ورأيتُ وجهه شديد الاحمرار وزخّات مِنْ العرق تلمع على جبينه...
شعرتُ بارتباك شديد وقبل أنْ يستوي جالساً أطلقتُ ساقي للريح وفررتُ هاربة!
في غرفتي بعد ذلك تنفّستُ الصعداء!
كم يبدو مخيفاً هذا الرجل! هل ظنَّ أنني أحاول سرقته؟؟ كما في المرّة السابقة؟؟
ما الذي دفع بي إلى حماقة كهذه!
عندما أخبرتُ نهلة بالأمر انفجرتْ ضاحكةً.
كنتُ قد اصطحبتُ نهلة إلى غرفتي كالعادة، وتركتُ وليد في البداية مع حسام، ثمَّ وحيداً بعد انصرافه.
عادةً ما تطول جلساتنا أنا ونهلة وبالتالي سيظل وليد وحيداً في المنزل، وأخشى أنْ يخرج...
«سوف أذهب لأتأكّد مِنْ وجوده!».
«هيا رغد! لا أظنه سيغادر وهو يعلم أنكِ بمفردكِ!».
«بل أنتِ معي!».
قالتْ نهلة وهي تنفخ صدرها وتقطب حواجبها وترفع كتفيها - كعادتها حين تتقمّص شخصية رجل:
«ما دمتُ معكِ فلسنا بحاجة لوجود أي وليد!».

خرجتُ مِنْ الغرفة لهدفين، لجلب بعض العصير، ولتفقّد وليد! والهدفان وجدتهما في المطبخ!

واحد بارد...

والثاني حار!

هو يجلس على المقعد يقلب صفحات إحدى الصحف، لكني متأكّدة مِنْ أنَّ عينيه تخترقان الأوراق...

تناولتُ ثلاثة كؤوس وملأتُ اثنين منها بالعصير البارد الذي كنتُ قد أعددتُه قبل ساعة ووضعتُهما في صينية...

ثم قلتُ:

«أترغب... ببعض العصير؟؟».

قال دون أنْ يرفع عينيه عن الصحيفة:

«نعم، شكراً».

سكبتُ العصير في الكأس الثالث وحملتُه إليه...

وضعتُه قربه على المنضدة، وسرعان ما أمسك به ودلق نصف محتواه في جوفه دفعةً واحدة!

كان بارداً جداً، ويكاد يتجمّد!

كيف استطاع شربه بهذا الشكل!؟؟ كل هذا وعيناه محدّقتان في الصحيفة!

حملتُ الصينية وسرتُ نحو الباب...

«رغد».

نطق باسمي بغتةً كدتُ معها أترنّح وأُسقِط الصينية مِنْ يدي بما حوتْ!

التفتُ إليه فرأيتُه ينظر إليّ...

«نعم؟؟».

فجاء صوتي أشبه بصوت تلميذة نسيتْ حل الواجب وتقف بذعر أمام معلّمتها!

«هل أجلب لكما طعاماً للعشاء مِنْ أحد المطاعم؟؟».

قلتُ بسرعة:

«ماذا؟؟؟ لا!».

«ولكن هل ستتركين ضيفتكِ دون عشاء؟».

«لا تهتم، إنها نهلة ليس إلا...».

«ولكن...!، حسناً... كما تشائين».

وعاد يطالع الصحيفة..

هممتُ أنا بالانصراف، ثمَّ توقفتُ وقلتُ:

«لا تخرج وليد».

فرأيتُ عينيه تنظران إليَّ مِنْ فوق الصحيفة... بحدّه!

أسرعتُ خطاي نحو غرفتي حيث نهلة، دفعتُ إليها بالصينية فأمسكتْ بها وأنا تهالكتُ على السرير!

«حمداً لله على السلامة!».

ضحكتُ مِنْ تعليق نهلة رغم أنني لا أجد الوقت مناسباً للضحك!

قلتُ:

«مرعبٌ يا نهلة! اليوم يبدو مخيفاً جداًّ! كالفهد الأسود!».

«صحيح؟؟ دعيني أرى!».

«أوه نهلة! توقّفي عن ذلك!».

ضحكتْ نهلة ووضعتْ الصينية على المنضدة وأحضرتْ لي العصير وهي تقول:

«خذي اشربي، فأنتِ تبدين كاللبؤة الحمراء!».

أخذتُ منها الكأس ورشفتُ رشفةً صغيرة...

«بارد جدا!».

قالتْ نهلة:

«أنتِ حارة جداًّ! هيا اشربيه!».

بعدما فرغنا مِنْ شرب العصير... قلتُ:

«اليوم... بدا مستاءً مِنْ شيءٍ ما... عندما يكون مغتاظاً فإنه يصبح مخيفاً جداً... وجذاباً جداًّ!».

نهلة كتفتْ يديها وقالتْ:

«رغد! عدنا للجنون؟؟!».

كلمتها هذه أيقظتني مِنْ غفوتي القصيرة في عالم الوهم...

وحين رأتْ نهلة تعبيرات الأسى تعود للظهور على وجهي قالتْ بعطف:

«عزيزتي... أنا قلقةٌ بشأنك وأخشى... أنْ تحطّمي نفسكِ بهذا الشكل».

وقفتُ كشخص يخرج مِنْ البحر... ويرفع رأسه للأعلى ويجر رجليه بقوّة محاولاً الفرار مِنْ الأمواج التي لا شك مهلكة إياه... وقلتُ:

«إنْ كان عليَّ أنْ أعيش مع شخصٍ لا أحبُّه طوال عمري، فهل كثير عليَّ أنْ أسعد نفسي بأوهام عابرة قبل الغرق في بحر الواقع؟؟».

وقفتْ نهلة إزائي وقالتْ:

«لم يفتْ الأوان بعد... إنْ أردتِ أنْ تتشدّقي بطوق النجاة...».

طردتُ الأفكار السخيفة التي غزتْ رأسي لحظتها، وهززتُ رأسي لأتأكّد مِنْ نثرها خارجاً... ثم قلتُ:

«دعينا مِنْ ذلك، ما رأيكِ بالخروج معي إلى السوق غداً؟ سأشتري ملابس للعيد!؟».

نهلة استجابتْ لرغبتي في محي الألم، وقالتْ مشجِّعة:

«فكرة رائعة! لكن نؤجّلها لبعد الغد».

بعدما انصرفتْ نهلة، وكان ذلك قرابة العاشرة مساءً، بحثتُ عن وليد فوجدتُه يشاهد التلفاز في غرفة الضيوف...

«وليد».

لم يجب، فقط نظر إليَّ...

«أنا آسفة لكنني أخشى البقاء في البيت مع ابنة خالتي وحدنا».

لم يعلّق!

قلتُ:

«دانة لم تعد».

«أعرف».

«أأ... أردتُ أنْ أطلب مِنْكَ شيئاً... إنْ سمحتَ».

«تفضّلي؟؟».

«بعد الغد أودُّ الذهاب إلى بيت خالتي كي اصطحب نهلة إلى السوق... ممكن؟؟».

«حسناً».

وأبعد نظره عني، إلى التلفاز!

«أترافقنا إلى المجمّع التجاري؟».

قال بنفاذ صبر وضيق:

«ألم أقل حسناً؟؟ إذن حسناً».

لم تعجبني الطريقة التي تحدّث بها... ولكني أردتُ أنْ أوضّح الأمر أكثر:

«أعني أنْ تصطحبنا وتلازمنا أثناء التسوّق... أيمكنكَ ذلك؟؟».

قال بنبرة ضايقتني أكثر:

«نعم، كما تأمرين يا ابنة عمي... ألستُ هنا لحراستك؟ سأنفّذ وصايا خطيبكِ العزيز ووالديه بدقّة، ماذا بعد؟؟».

وقفتُ مخذولةً مِنْ جملته هذه... فهل يظن هو أنَّ وجوده يعني فقط مهمة حراسة وخدمة موكّلة إليه سينتهي منها ويختفي مِنْ جديد؟؟

هل أعني أنا له فقط مهمّة مؤقتة مجبور على تنفيذها كارهاً؟؟

قلتُ بانفعال:

«انسَ الأمر، لن أذهب معكَ لأي مكان».

وخرجتُ مِنْ الغرفة بسرعة، وإلى غرفتي...

دقائق وإذا به يقف عند الباب...

«أنا آسف رغد! أرجوكِ لا تغضبي منّي».

قلتُ بعصبية:

«أنا الآسفة لأنني حمّلتُك ما لا ترغب في تحمّله! ولكن مَنْ كان ليرافقني وأبي وسامر غائبان؟؟ مَنْ كان سيهتم لأمري وأنا لا أهل لي سواكم؟؟».

«أرجوكِ لا تسيئي فهمي».

«حسام لا يوافق على مرافقتنا إلى المجمّعات التجارية، خصوصاً في مواسم الأعياد، وإلا لكنّا ذهبنا معه... إنْ هي إلا أيام وتتخلّص مِنْ هذا العبء الثقيل ومنّي».

وليد قال بعصبية:

«قلتُ لكِ لم أقصد هذا.. سأرافقكما إلى حيث تشاءان... فلننهِ الأمر الآن...».

وليد لا يزال منزعجاً جداً كما ظهر مِنْ تعبيرات وجهه وانفعاله... لذا أنهيتُ المشادة بسلام...

وفي يوم الأحد التالي، رافقنا إلى السوق واشتريتُ بعض الحاجيات... فيوم العيد سيكون غداً!

وكان مِنْ بينها هدية لدانة وأخرى لوليد!

وليد كان يسير إلى جانبنا ويساعدنا في حمل الأكياس! ونهلة بين حينٍ وآخر تلقي بتعليقاتها المداعبة حوله!

اعتقد أنني بالغتُ كثيراً في تسوقي! وبالتأكيد شعر وليد بالضجر... إلا أنّ وجوم وجهه منعني مِنْ تقديم أي اعتذار!

عندما أوصلنا نهلة إلى بيتها دخلتُ معها لبعض الوقت لألقي تحياتي على العائلة، وخرج حسام وتحدّث مع وليد...

اخترتُ هدية لدانة هذه المرّة علبة أنيقة لحفظ المجوهرات، أما لوليد - ولأنني لا أفهم في هدايا الرجال وقلّما أُهدي أبي وسامر شيئاً - فقد اشتريتُ له سلسلة مفاتيح أكثر جمالاً وأناقة مِنْ سلسلته الحالية!

كنتُ سعيدة بما اشتريتُ وقرّرتُ إهداءهما الهديتين الليلة...

عندما عدنا للبيت وجدنا دانة وقد دعتْ خطيبها لقضاء أمسية معها في المنزل...

ما أنْ علم وليد بوجود نوّار حتى سأل دانة:

«متى سيغادر؟؟».

«منتصف الليل! لِمَ؟؟».

«ما دام موجوداً هنا إذنْ أستطيع الخروج قليلاً!».

ونظر باتجاهي...

لم يكن باستطاعتي منعه... لكنني اغتظتُ مِنْ إثباته مرّة بعد أخرى بأنّه يفتش عن أقل فرصة ليغادر المنزل...

ومرّتْ الساعات وأنا وحيدة في غرفة المعيشة... دانة تستمتع بوقتها مع خطيبها المغرور

ووليد يتجوّل في مكان ما... وأنا مرغمة على مشاهدة التلفاز!

أوه... متى يعود هذا؟؟

واقتربتْ الساعة مِنْ الثانية عشر منتصف الليل... أنا أشعر بالنعاس ولكنني لا أستطيع النوم قبل أنْ يعود! كما أنّني أريد تقديم الهدية له...

لماذا لم يعد حتى الآن؟؟ هل فعلها ورحل؟؟

كنتُ على وشك الاتصال به حين سمعتُ صوت الباب ينفتح، فأسرعتُ نحو المدخل ورأيتُ وليد يدخل ويغلق الباب خلفه.

حين رآني قال:

«ألا زلتِ مستيقظة!؟».

قلتُ بتوتّر:

«لماذا تأخّرتَ؟؟».

«هل حدث شيء؟».

«وهل كنتَ تنتظر أنْ يحدث شيء حتى تعود؟؟ لا تدعني وحيدةً هكذا ثانية».

وزادني حنقاً البرود الذي قابلتْني به نظراته!

وببساطة قال:

«حسناً».

ثم سار ذاهباً إلى غرفة سامر!

بعد نصف ساعة غادر نوّار، وتعجّبتْ دانة لدى رؤيتي ساهرةً لهذا الوقت أمام التلفاز!

«متى ستنامين؟؟».

«متى ما شعرتُ بالنعاس!».

وقبل أنْ تأوي لفراشها أهديتُها هدية العيد فشكرتْني وعانقتْني... وأرتْني العقد اللؤلئي الجديد الذي تلقّتْه مِنْ خطيبها الليلة، ثمّ ذهبتْ للنوم قريرة العين.

الساعة الثانية عشر والنصف، جاء وليد إلى غرفة المعيشة...

كان شعره مبلّلاً... لا بد أنّه كان يستحم!

قال:

«ألم تنامي بعد؟؟».

قلتُ:

«لا أشعر بالنعاس! أصابني الأرق!».

لم يكترثْ لي، بل ذهب إلى المطبخ، ثمّ عاد ومرَّ بي قبل ذهابه للنوم... قال:

«تصبحين على خير».

وأولاني ظهره... وقبل أنْ ينصرف ناديتُه:

«وليد».

استدار إليّ ولم يتكلّم بل انتظر سماع ما سأقوله...
أنا فقدتُ شجاعتي التي كنتُ أتوهّم امتلاكي لها... ووقفتُ بخجل وارتباك وأنا أُخفي علبة الهديّة خلف ظهري!
وليد راقبني بحيرة وضجر!
اقتربتُ منه شيئاً فشيئاً وأنا مطأطئة الرأس خجلاً وبالتأكيد وجنتاي متوهجتان احمراراً!
رفعتُ بصري بحياء وقلتُ:
«كل عام وأنتَ بخير».
ثم أظهرتُ الهدية وقدّمتها إليه:
«هذهِ لكَ».
لقد كانتْ يداي ترتجفان وأنا أقدّمها نحوه، وبالتأكيد لاحظ هو ذلك...
نظراتنا الآن متشابكة... كنتُ أبحث عن أي كلمة شكر أو إشارة سرور... وأخيراً ابتسم وليد ابتسامة جميلة مذهلة وقال بارتباك...
«و... أنتِ بخير!... أأ... شكراً!».
وليد مدّ يده وأمسك بالهدية...
قال:
«هل أفتحها؟؟».
غضضتُ بصري حياءً وقلتُ:
«كما تشاء».
وهمَّ هو بفتحها، بينما قلبي أنا يخفق بشدّة!
لكن الصوت الذي سمعتُه ليس صوت انفتاح العلبة، بل صوت انفتاح باب...
رفعتُ نظري إليه وحدّقنا ببعضنا برهة، ونحن نسمع صوت باب المدخل ينفتح...
شعرتُ بذعر...
قلتُ:
«ما هذا؟؟».
وليد سار ببطء وحذر ذاهباً ناحية الباب وتبعتُه أنا بخوف...
قال وليد قبل أنْ يصل إلى المدخل:
«مَنْ هناك؟؟».
أنا أردتُ أنْ أمسك بيد وليد مِنْ الذعر... ربما يكون أحد اللصوص...
وليد أشار إليّ أنْ ألزم مكاني، وتقدّم هو نحو المدخل...
أوشك قلبي على الوقوع أرضاً...
وللمفاجأة المذهلة رأينا سامر يظهر أمامنا!
وقفنا متسمرين في مكانينا في ذهول!

قال وليد:

«سامر!!».

سامر نظر إلينا بدهشة هو الآخر، وقال:

«آه! أنتم مستيقظون؟».

قال وليد:

«هل هناك شيء؟؟».

قال سامر:

«أردتُ أنْ أفاجئكم بظهوري غداً! لكن أُفسِدت المفاجأة!».

الآن سامر نظر إليَّ وابتسم، وقال:

«لم أشأ أنْ يمر العيد وأنا بعيد!».

وأقبل نحوي، وأمسك بيدي وقال:

«عروسي الحلوة... كل عامٍ وأنتِ بخير!».

الحلقة الثانية والعشرون

خلّصوني منه

- رغد -

لم تنقضِ ليلتي بسلام...

ورغم أنني نمتُ متأخرةً على غير العادة إلا أنني نهضتُ باكراً...

لم يكن أحدهم قد نهض آنذاك، وبعد قليل نهضتْ دانة وذهبنا للمطبخ لإعداد كعكة العيد!

دانة كانتْ مُفعمةً بالحيوية والنشاط أما أنا فكنتُ في غاية الكسل والملل والكآبة أيضاً...

بعد مدّة اجتمعنا نحن الأربعة حول مائدة الفطور... وتناولنا حصصنا منْ الكعكة... سامر كان متحمِّساً للغاية، ويتحدّث عن النزهات التي ينوي القيام بها هذا اليوم...

قالتْ دانة:

«أنا لن أشارككم فأنا سأخرج مع خطيبي!».

قال وليد:

«وأنا سأخرج الآن».

ونهض مباشرة... سامر سأل:

«إلى أين؟؟».

«سأتجول في المنطقة».

وسرعان ما غادر. قال سامر:

«ما بِه؟ ألا يزال متضايقاً؟!».

قلتُ:

«إنّه يريد الرحيل».

«لن يغادر قبل زفافنا على أية حال!».

ثم ابتسم ابتسامته التي تزعجني وهو يقول:

«بعد أيام فقط...».

أهداني سامر زوجاً منْ الأقراط الذهبية، أما أنا فأهديتُه إحدى لوحاتي المميّزة! لم تكن لديَّ فكرة عن شيءٍ جديد أُهديه إليه!

قضينا نهار العيد، أنا وسامر نتجوّل منْ مكان لآخر... وعند العصر، ونحن في الطريق إلى البيت قال:

«حصلتُ على هذا اليوم بصعوبة، لا زال أمامي مشوار العودة الممل».

«أنتَ تكلّف نفسكَ مشقّة! ما كان يجدر بكَ الحضور!».

سامر التفتَ إليّ باستغراب وقال:

«لا أحضر؟؟ في يومٍ مميّز كهذا؟؟».

قلتُ متراجعة:

«أقصد.. مشقّة السفر... حضوراً وذهاباً...».

«لأجلكِ أنتِ».

صمتُّ، وأخذتُ أراقب الأشياء المتحركة مِنْ حولي مِنْ خلال النافذة... بعد قليل، قال سامر:

«لم كنتِ ساهرة لذلك الوقت المتأخر... البارحة؟؟».

التفتُ نحوه بتعجُّب!

قلتُ:

«لم أشعر بالنعاس قبلها...».

وأضفتُ:

«كما وأنَّ... وليد كان قد عاد قبل ذلك بقليل مِنْ الخارج، ولم أشعر بارتياح للنوم وهو خارج المنزل».

«هل... يسهر متأخراً كل ليلة؟؟».

«لا! أبداً... فقط البارحة، ربمّا حضر أحد احتفالات العيد!».

عندما عُندنا للمنزل كنا أوّل الواصلين.

تجاوزتْ الساعة السادسة ولم يعد لا وليد ولا دانة... سامر بدأ يلقي بنظرة بين حين وآخر على ساعة يده في اضطراب...

«تأخّرا! يجب أنْ أغادر الآن فأمامي مشوارٌ طويل».

والمشوار بين المدينتين يستغرق زمناً طويلاً يقضيه سامر في قيادة السيارة. لا بد أنّه مُتعب الآن! فقد قضينا ساعات أيضاً في السيارة...

قام سامر واتّصل بوليد، ويبدو أنَّ هذا الأخير أخبره بأنّه لن يعود قريباً. لذا أتى سامر وقال:

«أآخذكِ إلى منزل خالتك؟؟».

لم أحبّذ الفكرة ومع ذلك اتّصلتُ بهاتف منزلهم، ولم أجد أحداً... لا بد أنهم ذهبوا أيضاً للتمتُّع بيوم العيد...

قلتُ:

«أين هو وليد؟؟».

«يقول أنّه في مكانٍ بعيد، وقد يتأخّر في الحضور...».

وتنهد سامر باستياء!

إنها المرة الأولى التي يكون فيها معي ويرغب في الذهاب!

قبيل الثامنة، خرجنا مجدّداً واشترينا عشاءً خفيفاً مِنْ مطعمٍ قريب وعُدنا للمنزل. وأيضاً لم نجد أحداً هناك...

عاود سامر الاتصال بوليد بعد العشاء...

«إنَّ عليَّ الذهاب الآن... فمتى ستعود؟؟».

ومِنْ خلال تعابير سامر المستاءة استنتجتُ رد وليد!

قال سامر:

«والآن هل لا حضرتَ؟؟».

بعد أقل مِنْ ساعة مِنْ المكالمة وصل وليد... بادره سامر بالعتاب:

«تأخّرتَ يا وليد... متى سأصل إلى شقّتي؟؟».

قال:

«شاركتُ الآخرين مهرجانات العيد... لا أحد يبقى في المنزل في يومٍ كهذا».

فهمتُ أنّه يقصد أنَّ وجودي يعيقه عن الترفيه عن نفسه في يومٍ مميّز... التزمتُ الصمت...

قال سامر:

«سأذهب الآن...».

وصافحني، ثمَّ صافح وليد وقال:

«تصبحان على خير».

بقيتُ مع وليد... وحيدين في المنزل... حينما رأيتُ الضجر باد عليه قلتُ:

«إنْ كنتُ تود الذهاب لمتابعة سهرتك في مكانٍ ما... فخذني إلى بيت إحدى صديقاتي ثمَّ اذهب».

وببساطة تجاهلني! قلتُ بغضب:

«وليد أنا أتحدّث معك!».

التفتَ إليَّ وقال:

«أسمعكِ، لكنني لستُ مخبولاً لأفعل ذلك».

صمتُّ قليلاً، ثمَّ قلتُ:

«أنا آسفة... للتسبّب بإزعاجك طوال هذه المدّة... بقيتْ بضعة أيام».

لم يرد... قلتُ:

«أنا أستطيع المكوث في بيت خالتي، لكن المشكلة مع دانة... وإلاّ لكنّا وفّرنا عليكَ عناء البقاء معنا».

رماني وليد بنظرة مخيفة أخرستْ لساني!

لم أشأ أنْ أتركه وحيداً وأنعزل في غرفتي... أحضرتُ كرّاستي وعُدّة الرسم إلى غرفة المعيشة، حيث يجلس هو، وبدأتُ أرسم!

وليد كان يتصفّح قنوات التلفاز ولا يجد فيها ما يجذبه للمتابعة، لكنه مهووسٌ على ما يبدو بالأخبار...

بعد قليل، أوقف وليد التلفاز وأخذ الهاتف، وطلب أحد الأرقام...

أنا لم أكن أرسم بقدر ما كنتُ أراقب تحركاته... وها هو يتحدّث إلى الطرف الآخر:

«مرحباً، أنا وليد شاكر».

«أهلاً بكِ آنسة أروى، كل عامٍ وأنتم بخير، كيف هي أموركم؟؟».

تركتُ القلم مِنْ يدي وأصغيتُ باهتمام...

«ماذا؟؟ متى حدث ذلك؟؟».

«أوه... أنا آسف... وكيف حالتها الآن؟؟ أهي أفضل؟؟».

«لا تقلقي، بلّغيها والعم سلامي... وأخبريهما بأنني سأعود في أقرب فرصة إنْ شاء الله».

«شكراً لكِ، وافوني بأخباركم أولاً بأول، تصبحين على خير».

وأنهى المكالمة...

وعاد وشغّل التلفاز، لكنه كان شارداً...

تُرى... مَنْ تكون أروى هذه؟؟

تركتُ اللوحة جانباً، وقلتُ بعد تردّد قصير ضعيف غلبه الفضول الشديد:

«وليد».

«نعم؟؟».

«إلى مَنْ كنتَ تتحدّث؟؟».

بدا عليه الاستغراب، ثمّ قال:

«لِمَ السؤال؟؟».

«لاحظتُ... استيائك مِنْ خبرٍ وصلك مِنْ الطرف الآخر... خيراً؟؟».

قال:

«زوجة صديقي رحمه الله تعرّضتْ لنوبةٍ قلبية وترقد في المستشفى».

صمتُّ قليلاً ثمّ سألتُه:

«وهي مَنْ كنتَ تتحدّث معها؟؟».

«كلاّ. هذه ابنتها».

ابنة صديقه؟ إذنْ لا بد أنها مجرّد طفلة!

بعد قليل أوقف وليد التلفاز ونهض هاماً بالمغادرة. قلتُ:

«إلى أين؟؟».

التفت إليّ بانزعاج وقال:

«سأذهب للنوم، إلاّ إذا كنتِ تريدين مِنْ حارسكِ البقاء ساهراً لحين نومكِ؟».

لم أجبْ، فأنا لم أجد الكلمات المناسبة... وهو لا يدرك كم هي جارحةٌ كلماته وقاسيةٌ معاملته...

ليته يعرف!

استدار ليخرج فعدتُ أناديه:

«وليد».

تنهّد وهو يلتفت نحوي قائلاً:

«ماذا الآن؟؟».

تقدّمتُ نحوه قليلاً، وفتّشتُ في وجهه عن أي ملامح تشجّعني على سؤالي، لكنني لم أجدْ... فبقيتُ صامتة...

«نعم؟؟ ماذا لديكِ؟؟».

توتّرتُ، لكني كنتُ مستميتةً لأعرف رأيه... بعدها جمعتُ غبار شجاعتي وقلتُ:

«هل أعجبَتْك؟؟».

«ما هي؟؟».

«الهدية!».

وليد بعثر نظره هنا وهناك، ثمّ قال:

«لا أذكر أين تركتُها... آسف!».

هنا عند هذه اللحظة تمزّقت أوهامي...

فإنْ كان قد أضاع هدية أعطيتُها له مساء الأمس... قبل أنْ يفتحها... فكيف بماضٍ ولّى منذ عشر سنين؟؟

وإدراكي لحقيقة أنَّ وليد لم يعد وليد... قتل كل رغبة في الحياة والسعادة لديَّ...

الأيام التالية قضيتُها حبيسة الغرفة في أنهار مِنْ الدموع... حتى أنَّ دانة والتي عادةً ما تتهمني بأنني أتدلّل بدموعي هذه بدأتْ تقلق بشأني وصارتْ تحضر لي الطعام إلى غرفتي...

زارتني نهلة، وخالتي... الجميع يحاول التحدُّث ليعرف سبب حزني إلا أنني لم أكن أدع الفرصة لهم...

وعندما تتّصل أمي أكتفي بكلمات بسيطة معها أو مع أبي، وأعود إلى غرفتي... أما سامر، فقد كنتُ أتحاشى الحديث معه قدر الإمكان...

في إحدى الليالي، جاءتني دانة وقالتْ بمرح - محاولةً بث البهجة في قلبي -

«رغد! أنتِ مدعوّة على العشاء معي ومع وليد في أرقى مطاعم المدينة! هيا بسرعة وليد ينتظرنا».

هي نظرة عابرة ألقيتُها على دانة ثمّ أشحتُ بوجهي عنها وقلتُ:

«لن أذهب».

«ماذا رغد! هيا لا تدعي الفرصة تفوتنا!».
«لا أريد دانة رجاءً دعيني وحدي».
دانة اقتربتْ مني... وقد غطّتْ وجهها تعبيرات القلق وقالتْ:
«هيّا رغد!».
هززتُ رأسي اعتراضاً، فقالتْ:
«إذن سنذهب ونتركِكِ وحدكِ!».
كانتْ تعرف أنَّ نقطة ضعفي هي الوحدة... وأتتْ تستخدمها كسلاحٍ لجبري على الذهاب معهما...
حدّقتُ بها لبرهة ثمَّ قلتُ:
«افعلا ما تشاءان».
رفعتْ حاجبيها دهشة وقالتْ:
«رغد! معقول! هل تخلّصتِ مِنْ عقدة الخوف!».
قلتُ بعصبية:
«اذهبا واتركاني وحدي... دعيني وحدي يا دانة... دعيني وحدي...».
وانخرطتُ في بكاءٍ مرير...
دانة خرجتْ... وبعد قليل عادتْ مع وليد...

- وليد -

أحوال صغيرتي كانتْ غريبة، وأصبحتْ مُقلقة جداً آخر الأيام...
في الواقع هي كانتْ مستاءةً جداً منذ أنْ قدمتُ، إلا أنَّ استياءها ازداد درجة كبيرة مؤخراً... وكأنّ شيئاً كبيراً يجثو على صدرها...
كانتْ تحبس نفسها في الغرفة، ولا تشاركنا لا الطعام ولا الكلام.
قررتُ أنْ نخرج معها لتناول العشاء في أحد المطاعم ومِنْ ثمَّ التنـزّه فعلَّ ذلك يُنعِشها... لكن دانة أخبرتْني بأنها رفضتْ القدوم معنا وقالتْ لها: («اذهبا ودعاني وحدي»).
في السابق كانت دانة تترجم تصرّفات رغد على أنها تدلُّل وتغنّج، فهي متدللة جداً... إلا أنها الآن قالت:
«أنا قلقةٌ يا وليد... هناك شيءٌ تخفيه عنا... لا أعرف ما الذي يحزنها هكذا».
كنتُ خلال الفترة الأخيرة أتحاشى اللقاء بها، فلا قلبي ولا معدتي بقادرين على تحمّل المزيد... غير أنني هذه اللحظة لم أتمالك نفسي وذهبتُ مع دانة إلى رغد...
الأخيرة كانتْ في غرفتها تبكي بغزارة تفطر قلب الحجر... فكيف بقلبي أنا؟؟
حاولتُ التحدث معها لكنها لم تستجب لي، وقالتْ بعصبية:
«اخرجا ودعاني وشأني».

بقِيتْ أيام على موعد عودة والديّ مِنْ رحلة الحج... ربما يعود كل شيء على ما كان بعد عودتهما...

ولكن إلى ذلك الحين يجب أنْ أفعل شيئاً!

صبرتُ ساعة أو ما شابه، ثمَّ عدتُ إليها بمفردي... وللأسى وجدتُها لا تزال غارقة في الكآبة...

«رغد... انهضي... دعينا نذهب لأي مكان تحبّين!».

ما وصلني منها أي جواب...

كانت تجلس على السرير وتضع الوسادة في حضنها...

«رغد... ما بكِ؟؟ أخبريني؟؟».

«لا شيء».

«إذن لِمَ أنتِ مكتئبة هكذا؟».

«لا لسبب».

«أرجوكِ... أبلغيني بما يزعجكِ؟؟».

«قلتُ لا شيء».

«ربما أنا؟؟».

حين قلتُ ذلك نظرت إليّ رغد نظرة غريبة مليئة بالمعاني...

«إنْ... كنتِ منزعجةً بسببي... فأنا آسف... ما هي إلا أيام معدودة ويعود والداي وسامر...».

عندها أغمضتْ رغد عينيها وارتفع صوت بكائها المرير...

كيف لي أنْ أحتمّل رؤيتها هكذا؟؟

بصعوبةٍ بالغة منعتُ يدي مِنْ التربيت على كتفيها... ولكنني لم أستطع منع نفسي مِنْ قول:

«صغيرتي الغالية كفى أرجوكِ... لا أتحمّل دموعكِ».

رغد قالتْ:

«أخرجْ!».

وكررتْ الكلمة مرّتين، فغادرتُ الغرفة وأنا في قعر التعاسة والكآبة...

عند الفجر كنتُ في طريقي للخروج مِنْ المنزل قاصداً المسجد... فيما أنا أمرُّ مِنْ غرفة المعيشة سمعتُ صوتاً يصدر مِنْ هناك...

سرتُ بحذر حتى أطللتُ مِنْ الباب، وأذهلتْني رؤية رغد وهي جالسة على سجّادة الصلاة... تبكي وتنحب...

«رغد!».

التفتتْ إليّ رغد بذعر إذ يبدو أنها لم تنتبه لقدومي... ثمَّ نهضتْ واقفةً بارتباك...

تقدّمتُ منها، وقلتُ:

«باللهِ عليك أخبريني... ما بكِ؟؟».

رغد أرادتْ الخروج لكنني وقفتُ ساداً فتحة الباب مانعاً إياها مِنْ الخروج.

«أخبريني ما بكِ أولاً».

«دعني وشأني».

«لن أدعكِ حتى تخبريني».

«ولِمَ تودُّ أنْ تعرف؟؟ ماذا يهمُّك أنتَ؟؟».

«يهمُّني كل شيء يتعلّق بكِ... كل شيء».

«كذّاب!».

انقبضتْ عضلاتي استياءً... واستدرتُ للمغادرة...

خطوتُ بضع خطوات مبتعداً، وتوقّعتُ أنْ تخرج رغد مِنْ بعدي، إلا أنها لم تخرج...

عدتُ إلى الغرفة فرأيتُها جاثيةً على الأرض باستسلام ويأس...

نفس الجلسة التي كانت تجلسها وهي طفلة، حين يعتصرها الألم...

لَمْ يكن بمقدوري التهرّب... وأنا أراها هكذا... مهما قالتْ عنّي ومهما فعلتْ...

دنوتُ منها حتى صرتُ إزاءها مباشرة، وانحنيتُ وقلتُ بصوت أجشٍ عطوف:

«أرجوكِ يا رغد.. أرجوكِ... أخبريني بما يزعجكِ، إنْ كان غياب أبوينا فهما على وشك العودة... إنْ كان وجودي أنا فأنا على وشك الرحيل... إنْ كان نكثي لقَسَمي تلك المرّة فأنا سأقدّم ألف اعتذار واعتذار حتى تصفحي عنّي... إنْ كان لأي خطأ اقترفتُه فأنا آسفٌ ثمَّ آسف... وأستميحكِ عذراً...

هل أنا سبب ما أنتِ فيه الآن؟ هل أنا السبب؟».

رغد أغمضتْ عينيها بقوّة... ففهمتُ أنّها تجيب (نعم)، لكنّها عادتْ وأومأتْ برأسها (لا). فسألتُ:

«ماذا إذن؟».

فلم تجبْ. فتابعتُ:

«أرجوكِ أخبريني... أتظنّين أنّني لا أكترثُ بكِ؟ بل أنا ضائق الصدر بحالتكِ هذه...».

ولمْ تعلّق. فواصلتُ:

«أرجوكِ... امنحيني ثقتكِ ولوْ مرّة واحدة أخيرة... أخبريني بما يزعجكِ لهذا الحد... وأياً كان... أنا سأزيحه عنكِ... لن أذّخر جهداً لتخليصكِ مِنه... أبداً».

رغد رفعتْ نظرها... كأنها تطلب التأكيد...

قلتُ:

«أي شيء يضايقكِ ويحزنكِ لهذه الدرجة...؟؟ أبلغيني... وأنا أبعده عنك...».

«صحيح؟؟».

أجبتُ مؤكّداً:

«نعم يا رغد، لا تظني أنني فقط أكذب وأدّعي... لا تعرفين كم هي غالية دموعكِ عندي...».

نطقتْ رغد أخيراً قائلة:

«حتى لو كانتْ غالية... كما تدّعي... هناك ما هو أغلى... وهناك ما لا يمكن فعله أبداً».

كرّرتُ مؤكّداً:

«أخبريني أنتِ فقط، وسترين».

رغد أومأتْ برأسها نفياً... وقالتْ:

«لا لن تفعل! لن تستطيع شيئاً!».

«أخبريني ماذا تريدين؟؟».

فإذا بها تجيب:

«أريد أمّي».

قلتُ بتعجُّب:

«تريدين أمّي!؟؟».

أومأتْ رغد برأسها اعتراضاً وقالتْ في صيحة قاتلة:

«أريد أمّي أنا... لا أمُّكَ أنتَ... أنا أريد أمّي... فهي مَنْ يستطيع مساعدتي... لو بقِيَتْ حيّة... لا أحد منكم يستطيع... هل يمكنكَ إحضارها إليّ؟؟».

فوجئتُ بقولها هذا وشعرتُ بشرايين قلبي تتفجّر بعنف...

أيُعقل أنها لا تزال تفكّر في أمها - التي لم تعرفها يوماً - حتى الآن؟؟

أتقصّر أمي في شيءٍ للحدِّ الذي يجعل رغد تبحث عن المساعدة مِنْ أمها الراحلة منذ ستة عشر عاماً؟؟

بعدما فرغتْ مِنْ نوبة بكائها قالتْ بتحدٍ:

«هل تستطيع إحضار أمّي إليّ؟؟».

أفحمني كلامها... ثمّ إذا بلساني يقول:

«اعتبريني أنا أمُّكِ...».

ثم أضفتُ:

«ألَمْ أكن كذلك ذات يوم؟؟».

نظرتْ إليّ رغد بيأس... ثمّ أشاحتْ بوجهها عنّي...

قلتُ:

«لطالما كنتِ تعتمدين عليّ وتثقين بي...».

ولمّا لَمْ أجدْ منها تفاعلاً... نهضتُ وأنا أقول:

«سأذهب لتأدية الصلاة».

لمّا عُدتُ مِنْ الخارج، ولم أجدها حيث تركتُها... ذهبتُ إلى غرفة سامر واضطجعتُ على سريره وأخذتْني دوّامة الأفكار إلى عالم مِنْ المتاهات والدهاليز...

تذكّرتُ... يوماً كنتُ فيه في غرفتي بمنزلنا القديم، وسمعتُ طرقاً خفيفاً على الباب... وحين فتحتُه، وجدتُ رغد تبكي بألم... مليئةً بالخدوش والكدمات...

أعتقد أنني تعلّقتُ بها ابتداءً مِنْ ذلك اليوم... ولا أعلم انتهاءً بأي يوم؟؟

فجأةً... هُيّئ لي سمع طرقات خفيفة على الباب...

هل هي ذكريات الماضي عادتْ للحياة؟؟

وإذا بي أسمع الطرقات مِنْ جديد... طرقات حقيقية خفيفة بالكاد التقطتْها أذناي، ما يدلُّ على تردُّد اليد الطارقة...

قمتُ وفتحتُ الباب... ووجدتُ رغد تقف عنده...

تماماً... كما هي الذكريات القديمة...

كانت عينا رغد شديدتي التورُّم والاحمرار، ووجهها شديد الحزن والكآبة...

همستُ:

«صغيرتي...!!».

فإذا بالدموع تقفز مِنْ عينيها... حاولتُ تهدئتها... فمسحتْ الدموع ولملمتْ شيئاً مِنْ شتات قوّتها وهمّت بالكلام... لكن التردُّد كان مسيطراً عليها...

قلتُ مشجِّعاً:

«نعم صغيرتي... قولي ما تودِّين؟ أنا مصغٍ...».

ازدردتْ ريقها وسحبتْ عدّة أنفاس... ثمَّ نظرتْ إليَّ نظرةً مريرة... ثمَّ تراجعتْ، وخطتْ خطوةً للوراء لكنني استوقفتُها:

«أرجوكِ رغد... ثقي بي...».

«لن تستطيع مساعدتي».

«بلى سأفعل... امنحيني ثقتكِ هذه المرّة... أرجوكِ!».

هنا انفجرتْ بالبكاء وغطّتْ وجهها بيديها وقالتْ بصوت متقطع:

«وليد... أنا... أنا... لا أريد أنْ... أتزوّج سامر!».

لقد كان ذلك هو آخر شيء أتوقّعه على الإطلاق... الذهول الذي أصابني وهول المفاجأة لمْ يدعا لي فرصة للتفكير... أو حتى استيعاب الموقف...

إلا أنَّ المرارة التي رأيتُها في عيني رغد وهي تستنجد... وتبحث بيأس عن شخص يُنقذها رغم كل اعتبار... والقنوط الذي دفعها للتفكير في أمها المتوفاة منذ أنْ كانت هي طفلة صغيرة... وشعوري بالمسؤولية عليها... كلها أمورٌ امتزجتْ مع بعضها البعض ودفعتْني في النهاية لقول:

«اطمئنّي، لن يكون لكِ إلا ما تريدين».

الآن، دخلتُ مرحلةً جديدة... وبدأتْ الحلقة الأولى مِنْ سلسلة المصاعب التي واجهتُها فيما بعد...

حين سألتُها ساعتها:

«تقصدين... تأجيل الزفاف؟؟».

قالتْ وهي تنفي:

«لا أريده... أنا لا أريده».

وعندما سألتْني قبل انصرافها:

«أحقاً؟ تستطيع فعل شيء لأجلي؟».

أجبتُها:

«أي شيء... مهما كان.. ثقي بي».

فأي شيء أغلى وأهم عندي مِنْ راحة وسعادة رغد؟؟

في النهار التالي بدتْ هي أكثر راحةً وابتهاجاً، وخرجتْ مِنْ عزلتها وبدأتْ تعود للحياة...

شاركتنا الوجبات والجلسات، والنزهات... وبدتْ لحدٍ ما راضية...

حتى أنَّ دانة قالتْ لي تعليقاً على تقلّب أحوال رغد:

«أرأيتَ! قلتُ لكَ! سبحان مقلّب الأحوال!».

في يوم الأربعاء التالي، يوم حضور سامر للزيارة، بدتْ في غاية التوتر والقلق...

طلبتُ منها أنْ تذهب إلى بيت خالتها، كما صرفتُ دانة مع خطيبها بشكلٍ ما، وبقيتُ وحدي في البيت أنتظر...

عندما حضر سامر استقبلتُه استقبالاً طبيعياً، وحين سأل عن الاثنتين أبلغتُه عن أمرهما...

تركتُ له فرصة ليرتاح مِنْ عناء السفر... وبعدها أخبرتُه بأنَّ هناك ما يجب أنْ يعرفه...

التوتر تملّكه بطبيعة الحال... أمّا أنا فتظاهرتُ بالبرود بينما النيران تأكل أحشائي...

أخي لم يكن يتحدّث عن شيءٍ غير الزواج المرتقب... إنني أدرك كم هو مولعٌ برغد ويحبُّها بشغف... وأدرك معنى أنْ يجد المرء نفسه فجأةً محروماً ممّن يحب ويتمنى... كيف لي ألا أدرك هذا وأنا صاحب التجربة المرّة القاسية...؟

لكن... بالنسبة لي أنا... فلا شيء يهمُّ بعد رغد... وكل شيءٍ يهون مِنْ أجل رغد...

وإنْ كنتُ ارتكبتُ جريمةً مِنْ أجلها... فهل سيصعب عليَّ تحطيم قلب أخي في سبيل راحتها؟؟

«خيراً يا وليد؟؟».

خير!؟ أتظنه خيراً يا سامر! سامحني يا أخي فأنا... أنا كنتُ ولا زلتُ مجرماً...

قلتُ بدون مقدمات:

«إنّه بشأن زواجك».

«ماذا بشأن زواجي؟؟».

نظرتُ إليه بجدية وقلتُ بصوت قوي وثابت:

«يجب تأجيله».

نظر إليّ ببلاهة وعدم استيعاب:

«تأجيله؟؟».

«أنا جادٌ يا سامر. ركّز معي. زواجك سيتأجّل إلى أجلٍ غير مسمّى».

«وليد... هل لكَ أنْ تتحدّث بوضوحٍ أكثر؟؟».

«بوضوحٍ أكثر يا أخي... العروس لا ترغب في الزواج الآن وإلى أنْ تحدّد هي الوقت الملائم سيتم تأجيل كل شيء».

كانتْ هذه الجرعة الأولى التي لم أستطع سَقيَه أكثر منها...

سامر هاج وماج وغضب وثار وتخبّط بجملٍ متعارضة متناقضة... ثمَّ قرّر الذهاب لإحضارها مِنْ بيت خالتها.

قلتُ له:

«ليس الآن... سأحضرها أنا بعد قليل».

حدثتْ بيننا مشادّة قال فيها سامر:

«أريد التحدّث معها مباشرة».

قلتُ:

«أنا أتحدّث نيابةً عنها».

«بل سأتحدّث إليها هي، فهي صاحبة الشأن».

قلتُ:

«وأنا المسؤول عنها الآن».

قال بعصبيّة:

«مسؤولٌ عنها في حال غيابي لكنني موجود وأنا زوجها... فلماذا تخبركَ أنتَ ولم تخبرني؟؟».

قلتُ:

«كيف ستخبرك بشيءٍ كهذا!؟ إنها مرعوبةٌ مِنْ الفكرة فهي تدرك أنَّ الأوان قد فاتَ للتراجع... والزفاف بعد أيام...».

«وما الذي جعلها تغيّر رأيها هكذا فجأة؟؟ إننا كنّا معاً يوم العيد ولمْ تأتِ بذكر شيءٍ عن هذا مطلقاً».

«بل كان الموضوع يشغلها منذ فترة... وأنتم مَنْ ضغط عليها... لكن الفتاة بحالةٍ سيّئة تزداد يوماً بعد يوم بسبب اقتراب الموعد... ألمْ تلاحظ ذلك؟؟

قال سامر:

«تباً...!!».

وسار بانفعال نحو المدخل يريد الذهاب لإحضارها...

«انتظر يا سامر».

لم يكن يصغي إليَّ، ولكنه وبمجرد أنْ فتح الباب وقف متسمِّراً في مكانه، وظلَّ مُمسِكاً بالباب المفتوح وينظر إلى الخارج...

ثوانٍ وإذا بي أرى رغد تدخل المنزل، يتبعها ابن خالتها حسام!

أوّل ما نظرتْ، نظرتْ إليَّ... تودُّ استنباط مكنون ما حصل... ثمَّ نظرتْ إلى سامر ومِنْ التعبيرات الكاسية لوجهه المكفهر أدركتْ أنني تحدّثت معه...

حسام كان أوَّل مَنْ تحدّث إذ ألقى التحية... فرددناها. قال:

«أوصلتُ ابنة خالتي وأردتُ أنْ ألقي التحيّة...».

رحّبتُ به، ودعوتُه للدخول إلى غرفة الضيافة، وحدّثتُ رغد قائلاً:

«اذهبي إلى غرفتك».

سامر قال:

«انتظري رغد».

فقلتُ مقاطعاً:

«فيما بعد، رغد اذهبي إلى غرفتك».

دخلتُ مع الضيف إلى غرفة الضيوف. قال حسام، وهو يلحظ شحنات غريبة في الجو:

«أهناك شيء؟؟».

«كلا!».

ثم فتحتُ موضوعاً جانبياً للحديث...

بالي كان مشغولاً هناك مع رغد... دقائق واستأذنتُ الضيف وذهبتُ أبحث عنها...

وجدتُها وسامر في الردهة، وهي مطأطئة الرأس، فيما سامر يتحدّث بعصبية، بل بصراخ... قلتُ:

«كفى سامر، لنؤجّل ذلك قليلاً».

«لا تتدخّل أنتَ! دعنا نناقش أمرنا وحدنا».

نظرتُ إلى رغد فرأيتُ الاستنجاد والخوف يملآن عينيها...

سامر كان منفعلا جداً... قال:

«والآن يا رغد أخبريني ما الذي جعلكِ تغيّرين رأيكِ بعدما رتّبنا كل شيء؟؟ ولماذا لَمْ تُبلغيني أنا؟ هل أنا أجبرتكِ على هذا الموعد؟؟ ألمْ أترك تحديد الموعد لكِ؟؟ ألستِ مَنْ قرّر الزواج مع دانة في النهاية؟؟».

رغد لم تتكلّم، بل انحنتْ برأسها على ذراعها بقنوط...

سامر قال:

«سيتمُّ كل شيء كما خطّطنا له تماماً».

رفعتْ رغد رأسها وتنقّلتْ ببصرها بيننا وحاولتْ النطق:
«لكن...».
قاطعها سامر:
«كما خطّطنا يا رغد... فلا مجال للتراجع الآن».
قلتُ بغضب:
«سامر كفى... كيف تصرخ عليها هكذا؟؟».
زمجر سامر بغيظ:
«وليد لو سمحتَ لا تتدخّل أنتَ».
قلتُ:
«بل سأتدخّل... لأنني لا أسمح لأحد بمخاطبة رغد بهذا الشكل».
قال:
«ومَنْ ينتظر الإذن مِنْكَ؟ مَنْ تظن نفسكَ؟ انسحب رجاءً».
لكني بقيتُ واقفاً في مكاني...
سامر تقدّم مِنْ رغد وأمسكِ بذراعها يحثها على السير قاصداً الذهاب إلى غرفتها...
رغد حاولتْ التملّص، لكن سامر أطبق عليها بقوة قائلاً:
«تعالي إلى الداخل».
تدخّلتُ:
«أتركها يا سامر».
نظر إليّ بانزعاج وسار معها خطوتين نحو الغرفة...
قلتُ:
«اتركها يا سامر قبل أنْ أفقد أعصابي».
زمجر بصوت عال:
«قلتُ انصرف أنتَ».
وفي هذه اللحظة... فقدتُ بالفعل السيطرة على أعصابي، والتي كنتُ كابحاً إياها منذ زمن...
اندفعتُ نحو سامر بلا تفكير وأمسكتُ بذراعه وسحبتُه بعنف حتى تحرّرتْ رغد مِنْ قبضة يده، وقلتُ:
«قلتُ دعها وشأنها أيها الجبان».
وسددتُ إلى بطنه لكمة قوية مِنْ قبضي جعلتْه يترنّح... ويهوي... ويتلوّى...
صرختُ:
«حين تقول أنها لا تريد الزواج الآن فهذا يعني أنها لن تتزوّج الآن... أفهمت؟؟...».
واستدرتُ إلى رغد وقلتُ:

«اذهبي إلى غرفتك».
رغد نظرتْ إلى سامر... فقلتُ لها:
«هيّا...».
في نفس اللحظة، حضر حسام والذي على ما يبدو سمع شجارنا فأقبل متعجّباً...
«ماذا يحدث؟؟».
رغد حين رأتْ حسام أقبلتْ نحوه وهي تقول:
«أعدني إلى خالتي...».
نهض سامر... ونادى:
«رغد».
رغد وهي مذعورة وعلى وشك البكاء قالتْ لحسام:
«أعدني إلى خالتي... لا أريد البقاء هنا».
سامر الآن يسير نحو رغد، وحسام ينظر إليها ويسأل:
«ماذا حدث رغد؟؟».
سامر قال بحدّة:
«الأمر لا يعنيكَ يا هذا».
حسام قال بانفعال وقد تبدّلتْ سحنته:
«إذن فهي حقيقة... أنتم مَنْ يُجبرها على هذا الزواج...».
سامر وقف مصعوقاً يحدّق برغد... وأنا مصعوقٌ أحدّق بحسام...
قال حسام موجّهاً الحديث إلى رغد:
«أليس كذلك؟؟».
رغد قالتْ بانهيار:
«دعوني وشأني... دعوني وشأني...».
وركضتْ نحو غرفتها وأغلقتْ الباب...
سامر همّ باللحاق بها غير أنني اعترضتُ طريقه وقلتُ:
«دعها وحدها... لا تضطرني لفقد أعصابي مِنْ جديد».
سامر حينها غيّر اتجاهه ودخل غرفته وصفع الباب بقوّة. بقينا أنا وحسام...
قال:
«ماذا حصل؟؟».
لم أجبه... لذا قال:
«أنا أستأذن...».
وهم بالمغادرة...
استوقفته وسألته:

«حسام... لم استنتجتَ أنَّ هناك مَنْ يُجبر رغد على الزواج؟؟».

قال:

«أنا لمْ أستنتج، أنا أعرف ذلك».

دهشتُ لقوله، فسألتُه:

«ومَنْ أخبرك؟؟».

تردَّد قليلاً، ثمَّ أجاب:

«شقيقتي».

بعدما غادر، صبرتُ قليلاً ثمَّ ذهبتُ إلى رغد...

كانتْ ي حالٍ يُرثى لها... قالت:

«أرأيتَ؟؟ لقد قُضِيَ الأمر... لن تستطيع شيئاً».

قلتُ:

«لماذا لم تخبريني بذلك قبل الآن؟؟».

رغد نظرت إليَّ بألم وقالتْ:

«ما الفرق؟؟ النتيجة واحدة... إنَّه نصيبي».

قلتُ بإصرار:

«لا أحد سيستطيع إرغامكِ على ما لا تريدين... وأنا على قيد الحياة... وبمجرّد أنْ يعود والداي... هذا الزواج سيُلغى بالتأكيد».

الحلقة الثالثة والعشرون

لأحطّمنّك

- وليد -

خرجتُ لإحضار بعض متطلّبات المنزل في صباح اليوم التالي، وقضاء بعض الحوائج. نمتُ الليلة الماضية على مقعد في الردهة... بعدما أعياني التفكير المتواصل.

عندما عادتْ دانة وأرادتْ الذهاب إلى سامر لتحييه منعتها، وبنبرةٍ حادّة طلبتُ منها أنْ تلزم غرفتها حتى الصباح...

لم أكن أريد لشجار أنْ ينشب تلك الليلة، أردتُ فرصة يتمكّن فيها الجميع مِنْ ترتيب أفكارهم واستيعاب حقائق الأمور.

حين عدتُ إلى المنزل وجدتُ أختي دانة جالسةً في المطبخ في وضع يقلق...

قلتُ:

«خيراً؟ هل حصل شيء؟؟».

قالتْ:

«رغد المجنونة! قرّرتْ تأجيل زفافها! لا يفصلنا عن ليلة الزفاف غير ليالٍ معدودة».

صمتُّ، ولم أعقّب. قالتْ:

«ألن نفعل شيئاً؟؟».

قلتُ:

«دعها هي تفعل ما تريد».

تعجّبتْ دانة واستاءتْ في آنٍ واحد، وقالتْ:

«تعني أنَّ الأمر لا يزعجك؟؟».

«ليس للحد الذي تتوقّعين... لا أريد أنْ يضطرّها أحدٌ لفعل مالا تريد».

«لكن الزفاف بعد أيام! سامر في حالٍ يُرثى لها... إنه مشتعلٌ كالبركان».

شعرتُ بالضيق، قلتُ:

«هل تحدّثتِ معه؟».

«لم أكدْ، تحدّثتُ مع رغد، ثمَّ جاء وطلب منّي تركهما بمفردهما...».

انزعجتُ مِنْ الفكرة، قلتُ:

«أين؟».

«في غرفتها».

تركتُ الأكياس التي كنتُ أحملها تنساب مِنْ يدي وذهبتُ إلى هناك. عندما اقتربتُ مِنْ الباب، سمعتُ صوت أخي.

كان يتحدّث بعصبية... أصغيتُ فإذا بي أسمع رغد تتحدّث باكية...

وقفتُ لحظةً... بين رغبة في التدخّل وخشية مِنْ التطفل... لكنّي حسمتُ الأمر وقررتُ التدخّل.

طرقتُ الباب وناديتُ:

«سامر».

بعد عدّة ثوانٍ فُتِحَ الباب وخرج أخي. كان مكفهر الوجه مقطب الحاجبين متورم الأوردة.

«نعم؟».

تكلّم بحنق... تجاوزته ونظرتُ إلى ما ورائه. رأيتُ رغد، ووجهها الكئيب المبلل بالدموع. قلتُ بصوتٍ هادئ:

«أرغب في التحدُّث معكَ».

فقال بصوتٍ غاضب:

«فيما بعد يا وليد».

ألقيتُ نظرة أخرى على رغد فطأطأتْ الأخيرة برأسها باستسلام. قلتُ:

«الآن يا سامر... رجاءً».

فقال بعصبية أكبر:

«ألا ترى أنني مشغول بالنقاش مع خطيبتي؟».

ومجرّد نسبها إليه يحرّض شياطين رأسي على الشر والقتال. قلتُ وأنا أجاهد نفسي والدماء التي تصعد إلى وجهي والنار التي تشتعل شيئاً فشيئاً:

«حسناً، لكن... بهدوء... لا أريد لأي دمعة أنْ تراق».

وانصرفتُ.

بقيتُ جالساً على مقربة... أضربُ أخماساً بأسداس... وأشدُّ قبضتيَّ وأرخيهما بين فينة وأخرى.

بعد قرابة الساعة، سمعتُ الباب يفتح فنهضتُ مسرعاً... رأيتُ سامر يمشي أمامي فلمّا رآني قال:

«سوِّينا الأمور».

قلتُ بذهول:

«ماذا تعني؟».

قال:

«سنتمُّ الزواج كما خطّطنا له».

أدق الشعيرات الدموية في وجهي أحسستُ بها تتفجر فجأة.

قلتُ:

«ورغد؟؟».

«أقنعتُها».

«أقنعتَها؟؟ أم أجبرتَها؟؟».

قال بعصبية:

«اذهب واسألها لتتأكّد بنفسك».

سرتُ مِنْ فوري نحو غرفة رغد. طرقتُ الباب وقلتُ:

«أنا وليد».

لم أسمع جواباً. قلتُ:

«أأدخل؟».

«نعم».

سامر كان يقف خلفي. فتحتُ الباب ورأيتُ رغد تجلس على السرير تخفي نظرها تحت قدميها.

قلتُ:

«صغيرتي».

تردّدتْ ثمَّ رفعتْ رأسها ونظرتْ إليَّ. كنتُ أرى في عينيها نظرات الخوف والاستسلام. ربما هذا ما جعلها تتردّد في النظر نحوي. قلتُ:

«هل كل شيء على ما يرام؟».

نظرتْ نحو سامر ثمَّ نحوي وقالتْ:

«نعم».

لم أرتح للإجابة مطلقاً، قلتُ:

«والزفاف؟؟ نؤجّله أم نقيمه؟».

قالتْ:

«نقيمه».

صمتُّ برهة ثمَّ قلتُ:

«أواثقةٌ مِنْ ذلك..؟ أخبريني بما تريدينه أنتِ لا ما يريده سامر والبقيّة».

رغد نظرتْ نحو سامر ثمَّ قالتْ:

«نعم. واثقة».

قلتُ:

«إذن لماذا أخبرتِني بأنك لستِ مستعدة للزواج الآن؟؟ لماذا غيّرتِ رأيكِ بهذه السرعة؟؟».

لم تجبْ. قلتُ:

«هل يجبركِ سامر على شيء؟».

سامر قال بعصبية:
«ولماذا أجبرها؟ بربّك يا وليد! دع الأمور تسير كما هي».
التفتُ إليه وقلتُ:
«ابتعد لو سمحتَ، ودعني أتحدّث معها هي بحريّة».
قال:
«بل ابتعد أنتَ، لاحظ أنّكَ تتحدّث إلى خطيبتي أنا».
هيّجتني الكلمة مرّة أخرى واستفزّتْ مَنْ كان هادئاً مِنْ شياطيني... قلتُ بانفعال:
«أرجوكَ... انصرفْ يا سامر الآن... ولا تدعني أفقد أعصابي مِنْ جديد».
والتفتُ إلى رغد وقلتُ:
«اسمعي يا رغد، لن يحدث شيءٌ لا تريدينه أنتِ. إيّاك والخوف مِنْ شيء. فإنْ كنتِ ترغبين في تأجيل الزواج فأخبريني الآن بصراحة... فالأوان لمْ يفتْ بعد... هل تريدين الزواج الآن أم أنّك مضطرّة إليه؟؟».
رغد طأطأتْ برأسها مِنْ جديد وأخفتْ وجهها خلف يديها وأجهشتْ بكاءً.
ثار جنوني وأنا أراها هكذا... التفتُ نحو سامر الذي لا يزال يقف خلفي وقلتُ:
«لن يُقام هذا الزفاف وأنا حيٌ أُرزق».
سامر صاح بعصبية:
«وليد وما شأنك أنتَ بهذا؟؟ أصلاً ما دخلكَ؟».
«لن أسمح لأحد بأنْ يُرغم صغيرتي على شيء مطلقاً».
«وليد!! تُضحِكني!! أي صغيرتك وأي كبيرتك! مَنْ قال أننا ننتظر سماحك! هيّا! فالظرف غير مناسب للضحك... ما علاقتك أنتَ مِنْ الأساس؟؟ ثمّ مَنْ قال لحضرتكَ أننا نرغمها؟؟».
والتفتَ نحو رغد وقال بعصبية:
«هل أنا أرغمتكِ؟؟ أخبريه».
رغد وقفتْ وأولتْنا ظهرها وصاحتْ:
«دعاني وشأني. سأفعل ما تريدون جميعاً. أُخرجا الآن ودعاني وحدي».
قلتُ:
«أرأيتَ؟».
سامر دخل الغرفة واتّجه نحوها وأمسك بكتفيها وأدارها باتجاهنا وهو يقول:
«واجهينا يا رغد... قولي له أنكِ قرّرتِ ذلك ولم يجبركِ أحد».
رغد قالتْ بعصبية:
«بل أجبرتموني».
حملقنا كلانا فيها... قال سامر:
«مَنْ أجبركِ؟».

قالتْ:

«كلّكم. وإنْ ليس بشكلٍ مباشر. ليس أمامي إلا الرضوخ لقدري. لما تريدون أنتم جميعاً... لما تخطِّطون له أنتم... أنتم مَنْ قرّر بمن أتزوّج ومتى أتزوّج وكيف تسير حياتي... أنتم تقررون وأنا أنصاع لحكمكم...».

أنا وسامر تبادلنا النظرات الحادّة... كان مُفاجأً... ومصدوماً... وقد اصفرّ لونه وسال العرق على جبينه كالمطر...

قال:

«إذن فأنتِ لا ترغبين في الزواج الآن؟؟».

ردّتْ وهي فاقدة السيطرة على نسفها وتصرخ في وجه سامر:

«لا الآنَ ولا بعد ألف عام... أنا لا أريد أنْ أتزوّج أصلاً».

كان سامر يمسك بكتفيها، لكن يده تحرّكتْ الآن... وفجأة سدَّدتْ صفعة إلى وجهها... أمام عيني...

ربّما لم يكن في الصفعة مِنْ القوّة ما يحدِث الألم الجسدي بمقدار ما كان فيها مِنْ إيلام معنوي... صاحتْ صغيرتي:

«آي».

ووضعتْ كفّها على خدها المتألّم...

أنا.. وليد... أرى صغيرتي.. مدللتي.. حبيبتي رغد.. تتلقى صفعة على وجهها مِنْ يد كائن بشري... أياً كان... أمام عيني هاتين؟؟

«سامر! أيها الوغد... كيف تجرؤ؟؟».

وقبل أنْ أدع له الفرصة حتى ليلتفت إليّ قفزتُ قفزة واحدة باندفاع إليه وانقضضتُ عليه، وووجّهتُ لكمة قوية فتّاكة نحو وجهه...

تلاها سيلٌ مِنْ القذائف التي أشبعتُ بها جسد أخي مِنْ رأسه حتى إخمصي قدميه...

الرغبات التي كبتُّها في صدري منذ الطفولة... ولم أجرؤ على التعبير عنها خرجتْ كلها مِنْ داخلي هذه اللحظة... دفعةً واحدةً...

ضربتُه بوحشيّة وعنف لم أضرب بهما سواه، ولم أضرب بهما مثيله منذ سنين...

صرتُ أرفع فيه وأخفض... وأهزّ وأرمي... وألكم وأرفس... وألوي وأثني... وأمارس كل أنواع الضرب المبرح التعذيبي الذي تلقّيتُه في السجن على أيدي العساكر... في جسد أخي...

جُنَّ جنوني ولم أتمالك نفسي... لم أملك منعها أو إيقافها... ضربتُ وضربتُ حتى أصاب عضلاتي الإعياء وتصبّب العرق مِنْ جسدي كله... ونفذ الهواء مِنْ غرفة رغد فما عدتُ بقادرٍ على التنفس...

ولم يكن أخي يقاوم أو يدافع... بل استسلم لضرباتي... لا أدري أَمَنَعَه مِنْ صدِّها الذهول أم العجز؟؟ أم الصدمة التي تلقّاها مِنْ رغد...؟؟

لم أنتهِ مِنْ درس الضرب هذا إلا بعد أنْ فرغتُ شحناتي كلها... وتطايرتْ شياطيني مِنْ رأسي واحداً بعد الآخر...

يداي كانتا تطوّقان عنقه بينما كنتُ أجثو على صدره... أكاد أخنقه...

لا أعرف ما الذي جعلني أتوقّف...

قلتُ وأنا أشد الضغط على عنقه تارة وأرخي قبضتي تارة:

«ألا تعرف ما الذي أفعله بمَنْ يتجرّأ على إيذاء صغيرتي...؟؟».

شددتُ الضغط وسامر ينظر إلي بفزع...

قلتُ:

«أقتله...».

وتراءتْ لي صورة عمّار وهو يبتسم ابتسامته الأخيرة للدنيا... قبل أنْ أكسِر جمجمته بالصخرة...

حرّرتُ عنق أخي مِنْ قبضتي فجأة... ونهضتُ كالمجنون... أتلفتُ يميناً ويساراً... كأنني أبحث عن عمّار... خُيّل إلي أنّه معي الآن...

لكن عينَيَّ وقعتا على أربع أعين تنظر إليَّ بذعر وفزع وذهول...

اثنتان منها تخصّان أختي دانة، والأخريان المغمورتان بالدموع هما عينا صغيرتي المذعورة رغد...

مشيتُ نحو رغد، فسارتْ هي للوراء خوفاً... حتى اصطدمتْ بالجدار... ورفعتْ يديها نحو وجهها وكأنّها تريد صد ضربة تتوقّع تلقّيها مِنْ يدي...

ولمّا صرتُ أمامها مباشرة حملقتُ فيها برهة ثمّ قلتُ:

«زواجكِ مِنْ هذا المخلوق منتهٍ تماماً، وإنْ حاول أيّ شخصٍ إرغامكِ على أيّ شيءٍ، فالويل له مِنْ قبضتي... لأحطّمنّه...».

وشددتُ على قبضتي وأنا أرفعها أمام رغد، فشهقتْ مرعوبة...

بعد ذلك... خرجتُ مِنْ الغرفة ومِنْ المنزل وإلى الفناء الخارجي... أفرغ ما تبقى مِنْ غضبي في السجائر...

بعد قرابة الساعة والنصف حضرتْ السيدة أم حسام لزيارة رغد.

- رغد -

كنتُ أعلم أنّ الأمر سينتهي بكارثة. ها قد أقبلتْ خالتي وتعقّدتْ الأوضاع أكثر فأكثر...

خالتي تحدّثتْ مباشرةً إلى سامر وقالتْ له أنّ أقل ما يجب فعله هو تأجيل موعد الزفاف حتى تستقر الأمور.

سامر والذي كان مُثخناً بالكدمات محمرّ الوجه متهيّج الأعصاب طلب منها بنبرة حادّة ألا تتدخّل لكن خالتي قالتْ:

«لن أدعكم تتحكّمون في مصير ابنة أختي كيفما شئتم».
ثم نظرتْ إليّ وقالتْ:
«سآخذها معي إلى أنْ تعود أم وليد ونضع حداً لهذا الزواج».
سامر اعترض وكذلك دانة، لكنني تشبّثتُ بخالتي وخرجتُ معها رغم ذلك. حين كنتُ أعبر الفناء الخارجي وجدتُ وليد هناك...
قال:
«إلى أين؟».
خالتي تولّتْ الإجابة:
«سآخذها معي لبعض الوقت».
لم أرَ في عيني وليد أي اعتراض، فخرجتُ معها...
في غرفة نهلة ذرفتُ الكثير مِنْ الدموع وأنا أروي لها ما حدث وأصف الهجوم الوحشي الذي قام به وليد... وأرعبني.
«كنتُ أعرف أنَّ كارثةً ستقع... الآن أنا أحدثتُ شرخاً في العائلة... ماذا سيفعل والداي حين يعودان؟؟ أنا نادمةٌ على تهوّري... كان يجب أنْ أرضخ لقدري...».
«يكفي يا رغد... أنتِ لَمْ ترغبي في الزواج مِنْه، هذه الحقيقة إذن دافعي عنها».
قلتُ:
«لأجل ماذا أدافع عنها؟ ماذا سأربح إنْ تخلّصتُ مِنْ سامر وجعلتُ الجميع يتّخذ منّي موقفاً مُعادياً؟ ثمَّ ماذا؟ هل تتخيّلين كيف سأعيش بينهم وقد حصل ما حصل؟».
«ابقي معنا هنا».
«مستحيل... عمّي هو ولي أمري... إنّه أبي ولا يمكنني العيش في غير بيته».
«ستعيشين في بيت زوجك!».
«أي زوج هذا؟؟».
«الذي تحبّين!».
قلتُ بألم ويأس:
«وهل تعتقدين أنّه بعد أنْ أنفصل عن أخيه سيكون مِنْ الطبيعي أنْ أرتبط به هكذا ببساطة! أم هل تظنين أنَّ وليد يفكر بي؟».
«إذن لماذا ساندكِ في موقفكِ؟».
«لأنّه يشعر بالمسؤولية تجاهي... كما لو كنتُ واجباً عليه تأديته لا أكثر...».
وهي الحقيقة المرّة التي أتجرّعها لحظةً بعد لحظة... رغماً عنّي.
ساعات طويلة قضيتُها في التفكير... إلامَ سيؤول أمري بعد الذي حصل؟
وكلّما تخيلتُ الوحشية التي طغتْ على وليد هذا الصباح شعرتُ بالخوف والفزع...
أهذا هو ابن عمي الذي كنتُ أعرف؟؟

أهذا هو الرجل الذي وقعتُ في حبّه فجأة دون أنْ أدري؟

إنني حتى لا أجرؤ الآن على مجرّد النطق باسمه...

عندما عدتُ إلى البيت في المساء لم يكن هو موجوداً، استقبلتني دانة بوجهٍ عابس مليء باللوم والعتاب...

قالتْ:

«هل أنتِ راضيةٌ عمّا فعلتِ؟ أي جنونٍ هذا الذي أصابكِ؟».

كنتُ أريد الهروب منها لكنها لاحقتني وتابعتْ كلامها بكل قسوة:

«رغد اخبريني ماذا جرى لكِ؟ إنَّ سامر في قعر التعاسة والألم... فهل يرضيكِ هذا؟ ألا تشعرين بما يحسُّ به؟ ألا تعلمين أنّه متلهفٌ للزواج منكِ منذ زمن؟ إنّه يحبّك بجنون... أنتِ شخصٌ أناني وخسيسٌ وعديم المسؤولية وخالٍ مِنْ المشاعر... تماماً كالجدار الذي خلفكِ».

قلتُ بعصبية:

«خُلّي عنّي! اتركوني وشأني».

«لا لنْ أدعكِ وشأنكِ وأنا أراكِ تتصرفين بغباءٍ ودناءة وتحطّمين أخي بهذا الشكل. ستتزوجين منه وينتهي الأمر كما رسمنا له».

«وماذا عن مشاعري أنا؟؟ ألا يحقُّ لي الزواج مِنْ الرجل الذي اختاره؟».

نظرتْ إلي دانة بدهشة واستهجان وقالتْ:

«ماذا تقصدين؟؟ أنك لا تريدين أخي؟».

التزمتُ الصمت، قالتْ:

«لا تحبين أخي؟؟».

قلتُ بانفعال:

«بلى أحبّه... تماماً كما تحبينه أنتِ... كأخي الذي تربّيتُ معه... فهل علي أنْ أتزوَّج مِنْ أخي؟؟».

دانة بدتْ مذهولة وقالتْ:

«رغد... ما الذي تعنينه؟؟ بعد كل هذه السنين؟؟ هل اكتشفتِ اليوم فقط أنّكِ تحبينه كأخ؟؟ قبل بضع ليالٍ مِنْ موعد الزفاف؟؟».

«بل اكتشفتُ ذلك منذ شهور... لكنّكم ضغطتم عليَّ كي أوافق على موعد الزفاف... لَمْ يسألني أحد عن مشاعري ورغبتي أنا... سامر ليس الرجل الذي يناسبني».

«رغد!!! أتعنين أنّك... تحلمين بالزواج مِنْ شخصٍ آخر؟؟».

فاجأني سؤالها وأربك تعبيرات وجهي، ما جعل الشكوك تكبر في ر أسها... صمتتُ برهة ثمَّ قالتْ:

«لقد فهمت... فهمتك أيتها الخبيثة... إذن فقد أقنعتكِ خالتك وعائلتها... تبا لكم جميعاً».

لم أستطع قول كلمة بعد.. بقيتُ أحملق في دانة بذهول وتشتت، أما هي فقالت:

«سأخبر والدتي بكل شيء... سترين».

وتركتني وانصرفتْ.

لازمتُ غرفتي لبعض الوقت ثمَّ ذهبتُ إلى غرفة سامر... حينما طرقتُ الباب وذكرتُ اسمي لمْ يأذن لي بالدخول... غير أنني فتحتُ الباب وتركته نصف مفتوح.. وتقدّمتُ إلى الداخل.

سامر كان يجلس على كرسي مكتبه في شرود وحزن... حينما وقعتْ عيناه عليَّ رأيتُ فيهما بحراً مِنْ الآهات والألم...

سامر نهض ووقف ليواجهني، كنتُ أعرف أنني لا أستطيع مواجهته... غير أنني لا أستطيع أيضاً تركه هكذا..

تقدّم سامر نحوي وقال بصوتٍ كئيب:

«لماذا يا رغد؟».

لم أقوَ على إبقاء عيني مركزتين في عينيه بل هويتُ بهما نحو الأرض في خجل وخذلان.. وشعور بالذنب والإثم...

اقترب منّي أكثر وأمسك بوجهي ورفعه إليه ليجبرني على النظر إليه.. وقال:

«أخبريني.. لماذا؟ هل فعلتُ ما ضايقكَ منّي ذات يوم؟».

أومأتُ برأسي نفياً... أبداً... مطلقاً... كلا.. إنه لم يكن هناك مَنْ يهتم بي ويحرص على مشاعري ويحسن معاملتي بمقدار ما كان سامر يفعل...

قال:

«إذن لماذا؟ أنْ... تؤجّلي موعد الزفاف ربمّا بعد عسر كبير أجد له مبرراً أو آخر... وأتقبّله مرغماً بعد كل التحضيرات والترتيبات التي بذلتُ قصارى جهودي للقيام بها...».

وتابع:

«أمّا أنْ... أنْ... تعتبري جسر الوصل بيننا... فرضاً أُجبرتِ عليه... هكذا تصرّحين فجأة... فجأة ودون سابق تلميح... تعلنين أنّك اضطررتِ للارتباط بي... وأنك لم تكوني ترغبين بذلك... بعد كل هذه السنين يا رغد... بعد كل هذه السنين... فهذا ما لا أستطيع أنْ أجد له أي تفسيرٍ أو سبب مهما فتّشتُ... لماذا... أخبريني؟؟».

فاضتْ الدموع مِنْ عيني جواباً على سؤال لم يعرف لساني له إجابة... سامر أخذ يمسح دموعي... وقال بعطف:

«أنا آسف لما حصل هذا الصباح.. كنتُ مجنوناً.. سامحيني».

أغمضتُ عينيّ إشارةً إلى أنني قد نسيتُ الأمر... وحين فتحتُهما رأيتُ لمعان دمعةٍ محبوسة في عين سامر المشوّهة... يخشى إطلاق سراحها...

قال:

«لا تفعلي هذا بي يا رغد.. تعلمين كم أحبُّك..».

وطوّقني بين ذراعيه بعاطفة حميمة...

فتحتُ المجال أمام سامر للتعبير عن مشاعره، وبقيتُ أسيرةً بين ذراعيه فترة مِنْ الزمن... لم أتحرّك إلا حين سمعتُ صوتاً قادماً مِنْ ناحية الباب فالتفتُّ كما التفتَ سامر... ورأينا وليد يقف هناك.

لا أستطيع أنْ أصف لكم النظرات الوحشية المرعبة التي كان يرمينا بها... لقد كنتُ أشعر بها تلسعني وتحرقني...

تقدّم خطوة بعد خطوة، تكاد خطواته تهز الأرض مِنْ قسوتها... كان الشرر يتطاير مِنْ عينيه وهو يحملق في سامر ويعضُّ على أسنانه...

شعرتُ بالخوف... تراجعتُ للوراء... اختبأتُ خلف سامر... امتدَّتْ يدا وليد وأمسك بتلابيب سامر بعنف وقال:

«قلتُ لكَ لا تحاول استدرار تعاطفها ثانيةً... حذّرتك مِنْ الاقتراب منها حتّى يعود والداي... ألم تفهم؟».

ثم سحبه ودفع به نحو الجدار...

سامر رفع رجله وسدّد ركلةً بركبته إلى وليد، فقام هذا الأخير بلكم سامر بعنف على خدّه المشوّه...

وليد قال وهو يلصق سامر بالجدار بقوة:

«لن أسمح لرغد بالزواج منك... أفهمتَ؟ لا تستحق رجلاً مشوّهاً مثلكَ».

قال سامر:

«نعم، فالأفضل لها الزواج مِنْ القتلة المجرمين».

وما إنْ قال سامر ذلك حتى تحوّل وليد إلى وحش.. نعم وحش.. فهو أقلّ وصفٍ يمكنني نعته به...

صرختُ:

«توقّفا».

لكن الاثنين دخلا في عراك مميت...

أسرعتُ أجري بحثاً عن دانة... فوجدتُها في غرفتها تتحدّث إلى خطيبها... صرختُ:

«أسرعي دانة... يتقاتلان مجدّداً».

دانة تركتْ السماعة وجاءتْ تركض معي...

حاولنا التدخّل لفض العراك الجنوني إلا أننا فشلنا تماماً... وأخذتْ كل واحدة منا تصرخ مِنْ جهة دون جدوى...

يد الغلبة كانت بطبيعة الحال لوليد الذي كان يفوق سامر بدانةً وبنية وقوّة...

«توقفا.. يكفي».

لكن أحدهما لم يكن ليستجيب لي...

قلتُ:
«أنا سأتزوّج مِنْ سامر... في نفس الموعد... هذا قراري».
غير أنّ ذلك لم يزد الحرب إلا وطيساً... دانة التفتتْ نحوي وصرختْ في وجهي:
«هذا كلّه بسببك أنتِ... أيتها اللعينة الخسيسة رغد ابتعدي عن وجهي الآن...».
ودفعتْ بي نحو الخارج عنوة...
ركضت أنا نحو غرفتي وجعلت أبكي بصراخ... وأنادي أمي وأبي...

- وليد -

لو لم يكن أخي... ابن أمي وأبي... شقيقي... مَنْ تجري دماؤه في عروقي ويختزن حبّه في قلبي... لكنتُ قضيتُ على هذا الرجل المشوّه الذي كان يعانق رغد قبل قليل عناقاً حميماً جداً...

وأرسلتُه إلى العالم الآخر...

لقد جُنّ جنوني... وفقدتُ أدنى معاني الرأفة والإنسانية... وأوسعتُه ضرباً أشدّ وأقسى وأعنف مِنْ الدرس الذي لقّنتُه إيّاه صباح هذا اليوم...

إنه جزاء مَنْ يقترب مِنْ صغيرتي أنا... نعم، إنها فتاتي أنا... ولن أسمح لأي رجل مهما كان... بأنْ يقترب منها مسافة تقل عن ميل كامل... مِنْ الآن فصاعداً...

لقد كانتْ دانة تقف قربنا محاولةً حشر نفسها بيننا ولو لم أسيطر على نفسي لدفعتُها بقوة هي الأخرى...

إنني الآن في أشدّ لحظات عمري جنوناً وثورة... وإنْ يقع في يدي أي سلاح، فسأفتك بكل مَنْ يعترضني بدون تفكير...

والشيء الذي وقع في يدي كان مجرّد علبة حديدية هوتْ مِنْ على المكتب أثناء عراكنا...

كنتُ مطبقاً على سامر الواقع على الأرض، وعائقاً إيّاه عن الحركة... بثقل جسمي الضخم...

رفعتُ يدي بما حملتْ، بالأداة الحديدية على أهبّة الجنون لضرب رأسه بها...

سامر كان يحاول التملّص منّي دون جدوى، وينظر إلى العلبة الحديدية ويصرخ:

«ماذا ستفعل يا مجنون؟».

«سأحطّم جمجمتك...».

«وليد... ستقتلني؟».

دانة أقبلتْ مسرعةً وأمسكتْ بذراعي تعيقني عما كنتُ بجنون مُقدماً عليه... تركتُ العلبة تسقط مِنْ يدي...

وحملقتُ في عيني أخي المذعورتين... ووجهه المصفر الغارق في العرق... وعصفتْ بوجهي أنفاسه اللاهثة... وطرق مسامعي صدى صوته شبه المخنوق:

«وليد... ستقتلني؟؟».

حينها فجأة أفقتُ مِنْ جنوني واكتشفتُ أنّني كنتُ على وشك قتل أخي... كما قتلتُ عمّار...

قفزتُ واقفاً بسرعة... ونظرتُ مِنْ حولي... وأنا أتوهم سماع صوت ضحكاته... وصوت بكاء رغد... كان صوتهما يعلو ويعلو... حتى أصبح دوياً مجلجلاً في رأسي...

رفعتُ يديَّ وضغطتُ على صدغيَّ وصرختُ:

«كفى».

ثمّ جثوتُ على ركبتيّ بجانب أخي وانحنيتُ حتّى ألصقتُ رأسي برأسه وقلتُ:

«أنا لم أقتل ذلك النذل... وأضيّع مِنْ عمري كل تلك السنين مرمياً في السجن... وأخسر ماضيَّ ومستقبلي... لأخرج وأراكَ تتزوّج مِنْ صغيرتي رغماً عنها... وإنْ حاولتَ إيذاءها بأي شكل... فسأرسلكَ إليه... لأنَّ هذا هو جزاء مَنْ يؤذي صغيرتي... الموت... أفهمتَ يا سامر؟ سأقتلك... وأقتلكم جميعاً إنْ تجرّأتم على إيذاء صغيرتي ولو حتّى بمجرّد الكلام... أفهمتَ؟؟».

وضربتُ رأسي برأسه، ثمّ نهضتُ...

ترنّحتُ في مشيتي مِنْ شدّة الإعياء.. وتوجّهتُ نحو الباب سائراً على غير هدى... رأيتُ دانة تنظر إليَّ بذهول وفزع...

خرجت مِنْ الغرفة تاركاً المذهول مذهولاً... والمجروح مجروحاً... والمحطم محطّماً...

ذهبتُ رأساً إلى غرفة رغد والتي قفزتْ مذعورةً ما أنْ رأتني... وجعلتْ ترتجف...

لحظتها فقط أدركتُ إلى أي مدى خرجتُ عن طوري... وأنني شوّهتُ أي صورة حسنة يمكن أنْ تكون لا تزال باقيةً في رأس رغد عني...

«رغد».

سماعها لكلمتي جعلها تنتفض خوفاً... ربمّا كان صوتي مرعباً... ربمّا كان شكلي مُفزعاً... ربّما كنتُ أشكّل بالنسبة إليها هذه اللحظة وحشاً مخيفاً...

وقفتُ متسّمراً في مكاني أراقب الفتاة المذعورة... سمحتُ للأرض التي تلامس قدميّ بامتصاص الباقي مِنْ غضبي وثورتي...

وتنفستُ أنفاساً عميقة تطرد الشرَّ مِنْ صدري... وأرخيتُ ما كنتُ أشدّه مِنْ الأعصاب والعضلات... وقلتُ بصوتٍ حاولتُ جعله حنوناً بقدر ما أمكنني في ساعة الوحشية تلك:

«صغيرتي رغد... لا تفزعي منّي... أنا آسف».

لكن القشعريرة والرعشة لم تفارقا يديها وفكها الأسفل...

«أرجوكِ لا تفزعي منّي... أخبريني فقط بما تودّين منّي القيام به وأنا رهن إشارتك».

رغد تكلّمتْ بارتجاف:

«انصرف... دعني وحدي».

وقفتُ لحظة في مكاني عاجزاً على تحريك قدمي، بعد كل تلك القوة التي أفرغتُها في بدن شقيقي...

«سامحيني يا رغد.. أنا وليد كما تعرفينني».
«أنتَ لستَ وليد... أنتَ وحش... غادر غرفتي...».
وغادرت غرفتها بل والمنزل أيضاً...
عندما عدتُ إلى هناك، كان ذلك في عصر اليوم التالي. رأيتُ سيارة نوّار عند باب المنزل لكن سيارة سامر لم تكن موجودة.
حينما دخلتُ، وجدتُه ودانة يجلسان في غرفة المعيشة... ألقيتُ التحية، فرد نوّار بينما أشاحتْ دانة بوجهها عني.
سألتُ:
«أين سامر؟».
لم تجب، فردّ نوّار:
«عاد إلى شقته».
«متى غادر؟؟».
قال:
«أعتقد عند الظهيرة».
قلتُ موجّهاً كلامي إلى دانة:
«وأين ابنة عمّك؟».
لم تجب... كرّرتُ سؤالي:
«أين ابنة عمك يا دانة؟؟».
التفتتْ إلي دانة بغضب وازدراء وقالتْ:
«لو سمحتَ... لا تتحدّث معي بعد الآن».
نوّار بدا محرجاً وقال بصوت خافت:
«دانة.. أعصابكِ!».
إلا أن دانة صرختْ:
«أنا بريئةٌ مِنْ هذا الرجل ولا أريد أنْ يتحدّث معي مِنْ الآن فصاعداً».
تركتُهما وذهبت لأفتّش عن رغد. لم أجدها في أي مكان، فعدتُ إليهما مجدّداً وسألتُ:
«أخبريني يا دانة أين ابنة عمك؟».
لم تجبني، فتدخّل نوّار قائلاً:
«أظن أنّها ذهبتْ إلى بيت أقاربها... فقد جاء حسام قبل فترة واصطحبها معه».
انزعجتُ منْ ذلك، وقلتُ:
«وحده؟».
قالتْ دانة بحدّهٍ:
«نعم وحده. اتصلتْ به وطلبتْ منه الحضور ليأخذها إلى بيته خالتها. ماذا بعد؟».

«لِمَ لَمْ تنتظرني؟».

«ولماذا عليها أنْ تنتظركَ؟ لقد ذهبتْ مع ابن خالتها وانتهى الأمر».

«دانة.. كيف تتركينها تخرج هكذا؟».

«وهل كنتَ تنتظر منّي أنْ أذهب معهما أم ماذا؟؟».

ثم أضافت:

«ليس عليك أنْ تقلق فهي في المكان الذي تحبّ التواجد فيه... مع أحبابها».

قلتُ:

«إلامَ تشيرين؟؟».

قالتْ بنفاذ صبر:

«ماذا؟؟ ألم تخبركَ أيضاً بأنها تريد التخلّي عن شقيقي والتسبب بكل هذه المشاكل مِنْ أجل ابن خالتها العزيز؟ فلتشبع به إذن».

فوجئتُ... ذهلتُ... أصبتُ بالهول لدى سماعي ما قالتْه.. وانفغر فوهي عن كلمات مبعثرة:

«مَنْ؟ ماذا؟ ما الذي تقولينه؟».

دانة عضتْ على أسنانها وشدّت على قبضتيها وقالتْ حانقة:

«اللعينة... الخبيثة... لن أسامحها على ما فعلتْ بأخي أبداً... لن أسامحكَ أنتَ أيضاً... عسى الله ألا يوفّقها مع حطّمتْ قلب شقيقي مِنْ أجله... أبداً... أبداً يا رب».

الحلقة الرابعة والعشرون

الليلة الحمراء

- رغد -

كلما تذكّرتُ الدمعة الحبيسة في عين سامر، التي كاد يطلقها لحظة عناقنا الأخير... تفجّرتْ عوضاً عنها عشرات الدموع منْ محجري.

لم يكن ما فعلتُه شيئاً يُغتفر... إنّه سامر رفيق الطفولة والصبا والمراهقة... إنّه أعزُّ إنسان لديَّ... لكنه ليس الأحب...

في صباح اليوم، عندما رأيتُه... تلوّت أمعائي وأصابني مغصٌ شديد للكدمات التي شوّهت ما لَمْ يكن مشوّهاً منْ جسده النحيل.

حين حاولتُ التحدّث إليه لم يرد علي، حتى بدأتُ أُقنع نفسي بأنَّ اللكمات التي تلقّاها فكّه قد أخرستْه، إلا أنّه تحدّث مع دانة التي انفردتْ به مطوّلاً في غرفتها.

بالتأكيد كان حوارهما يدور حولي وحول ما سبّبتُه منْ مشكلة معقّدة بغبائي وتهوّري...

وكل هذا، لأنني اكتشفتُ أنني أحبُّ وليد!

أحبُّ رجلاً وحشاً مفترساً... لم يسبّبْ لي منذ ظهوره في حياتي مِنْ جديد غير الألم والمعاناة...

ولو استهلكتُ كل كلمات الندم الموجودة على وجه الأرض، ما كفاني ذلك لأعبّر عما أشعره هذه اللحظة مِنْ الذنب...

الآن، أنا فتاةٌ طائشةٌ أنانيةٌ خبيثةٌ ناكرةٌ للجميل والمعروف، حطّمتْ قلب الرجل الذي يحبّها ويتلهّف لإسعادها، مِنْ أجل رجلٍ لم تعرفْ عن حقيقته شيئاً أكيداً، غير أنها تحبّه... وتتمنّاه... وحينما يعود والداي، ويرحل وليد، كما رحل سامر، فإنَّ كل شيء سينتهي... وأفقد عائلتي... وأعود يتيمةً وحيدةً كما قدُمتُ إليهم قبل ستّة عشر عاماً...

بين الفينة وقرينتها تجيء ابنة خالتي نهلة لتتفقدني، فتراني كما تركتني... أهيم في أفكار بائسةٍ لانهائية... في ضياع وتشتُّت...

كنتُ أحاول النوم على سريرها، إذ أنني قضيتُ الليلة الماضية ساهرةً سهر النجوم... وحيدةً وحدة القمر... باكيةً بكاء المطر... تعيسةً تعاسة السواد المخيّم على السماء... تتلاعب بي الأفكار تلاعب الرياح بورقة شجر صفراء جافّة... فقدتْ فرعها وأصلها وجذرها وتاهتْ في صحراء لا نهاية لا... ولا بداية...

«أما زلتِ مستيقظة؟».

سألتني نهلة والقلق الشديد يتملّكها ويحوّل وجهها البشوش الصريح إلى مغارة مِنْ الغموض والحيرة...

قلتُ:

«أنّى لعينيَّ النوم يا نهلة، وقد فعلتُ ما فعلتُ؟... غداً مساءً يعود والداي... فماذا أقول لهما؟ يا إلهي لا أريد أنْ أريهما وجهي...».

«هوّني عليكِ يا رغد، لستِ أوّل ولا آخر فتاة تفكّر في حلِّ ارتباطها مِنْ خطيبها بعد سنين مِنْ الخطوبة! لا عليك يا ابنة خالتي... هل تعتقدين أنهم سيطردونكِ مِنْ المنزل مثلاً جرّاء فعلتكِ هذه؟».

قلتُ:

«لا أستحقُّ العيش تحت كنفهم بعد الآن... بل لا أجرؤ على العودة إليهم! أوه لو رأيتِ الطريقة التي خاطبتني بها دانة...».

وتذكّرتُ كلماتها القاسية التي وجّهتها إليَّ بعد مغادرة سامر، مكسور الخاطر.

قالتْ نهلة:

«ومنذ متى كانتْ طيّبة معكِ! إنها دائماً قاسية عليك، دعكِ منها... لكن عندما تعود أمّكِ يا رغد، أخبريها بحقيقة الأمر... أخبريها بأنّك لمْ تحبّي سامر يوماً وأنّكِ... تحبين وليدا!».

قلتُ بأسى واعتراض:

«مستحيل! لا يمكن أبداً... ولا بشكلٍ مِنْ الأشكال! كيف يا نهلة كيف؟؟ وماذا سأجني مِنْ قول هذا؟ أم تظنين أنها ستقول: لا بأس، سننقلكِ مِنْ سامر إلى وليد، بهذه البساطة؟؟».

وجعلت أندبُ حظي الذي أوقعني في مأزقٍ كهذا...

«ليتَه لمْ يسافر ويتركني... ليتُه لم يعدْ! ليتَني أستطيع التوقّف عنْ التفكير به! ليتَه يحسّ بي... ليتَ معجزةً سماويةً تجعله يرتبط بي وتجعل سامر ينساني... ليتَه يختفي مِنْ حياتي وقلبي... أو... ليتَه يظهر الآن وينتشلني مِنْ كل هذا».

وحشودٌ مِنْ الأمنيات تمنّيتُها في عجزٍ عنْ تحقيق أيٍ منها... أو حتّى تخيّل تحقيقها... إلا أنَّ واحدةً منها تحقّقتْ فوراً!

طُرِقَ الباب هاهنا ودخلتْ سارة وقالتْ:

«قريبكِ الكبير أتى يا رغد».

نظرتُ نحو سارة بقلقٍ مفاجئ وانعقد لساني، فتحدّثتْ نهلة بالنيابة وقالتْ:

«مَنْ تعنين سارة؟».

قالتْ:

«وليد الطويل!».

أنا ونهلة تبادلنا النظرات ذات المعنى، ثمّ قلتُ:

«ماذا يريد؟».

سارة قالتْ وهي مبتهجة:

«سأل أولاً عن والدي وأخي، وكلاهما غير موجود! ثمَّ قال: («هل ابنة عمي رغد هنا؟») قلتُ: («نعم»)، قال: («هل لا استدعيتِها مِنْ فضلكِ يا آنسة؟»)... قال عنّي آنسة!».

وبدتْ مسرورةً بهذا الاكتشاف العظيم! إنها آنسة! ما أشدّ فراغ رأس هذه الفتاة!

يبدو أنها المرة الأولى التي تسمع فيها أحداً يطلق عليها هذا اللقب!

قلتُ:

«أين هو؟».

قالتْ:

«في الخارج! عند الباب».

نظرتُ إلى نهلة وقلتُ:

«لا أريد العودة إلى البيت... لا بد أنّه جاء لاصطحابي إلى هناك. لن أذهب».

وسرعان ما كانتْ سارة على وشك الذهاب إليه وهي تقول:

«سأخبره بذلك».

نهلة صرختْ:

«انتظري سارة! ما بالكِ ما أنْ تلتقط أذناك كلمةً حتى يُسرعَ لسنك ببثّها؟ اذهبي وأخبري أمّي عن قدومه حتى تتصرف!».

وانصرفت سارة مذعنةً للأمر! وبكل سرور! بعد ثوان حضرتْ خالتي، وقالتْ:

«سأذهب للتحدّث إليه، لا تقلقي».

إلا أنَّ قلقي بدأ يتضاعف هذه اللحظة. ذهبت خالتي ثمَّ عادتْ بعد دقائق تقول:

«يرغب في التحدّث معك، تركته واقفاً في الحديقة».

هممتُ بالنهوض، فقالتْ:

«ما لَمْ ترغبي في ذلك فسأصرفه».

قلتُ:

«لا داعي خالتي. سأصرفه بنفسي».

وتلوتُ بعض الآيات في صدري لتمنحني القوّة على الوقوف أمامه مِنْ جديد!

في الحديقة الصغيرة الأمامية للمنزل، وجدتُ وليد واقفاً على مقربة مِنْ الباب. سرتُ إليه أجرُّ قدميَّ جراً... في خوفٍ واضطراب فاضحين.

كنتُ أعلم أنَّ خالتي وابنتيها كنَّ يراقبنني مِنْ النافذة! حينما صرتُ أمامه، بادَرَ هو بإلقاء التحية، ثمَّ سألني:

«أأنتِ بخير؟؟».

إنه سؤالٌ عاديٌّ جداً يتداوله الناس عشرات المرات في اليوم لعشرات الأسباب، لكنني احتجتُ وقتاً طويلاً للتفكير في الإجابة!

هل أنا بخير؟؟

لمّا رأى وليد تردّدي وحيرتي قال:

«تبدين بحال أفضل...».

نطقتُ لا إرادياً بصوتٍ خفيف:

«نعم».

قال:

«هل نعود إلى البيت إذن؟؟».

هنا تحدّثتُ بصوتٍ عالٍ مندفع:

«لا!».

فوجئ وليد بردي فقال:

«لِمَ؟ إنها الثامنة... هل تودين البقاء أكثر؟؟».

قلتُ:

«نعم».

«إلى متى؟ تأخّر الوقت، دعينا نعود فقد تركتُ دانة بمفردها».

«لا!».

بعد وهلة واصل وليد كلامه:

«هل تنوين المبيت هنا؟؟».

«نعم».

«لهذه الليلة فقط؟».

«لا».

«كل ليلة؟؟».

«نعم».

«أتمزحين؟؟».

«لا».

«إذن فأنت جادّة؟؟».

«نعم».

«وهل تظنين أنني سأسمح بهذا؟».

«لا».

لَم أكن أنظر إلى وليد بل إلى الحشيش الأخضر المغطّي للأرض... في تشتُّت... لكنّه حين قال:

«لا أم نعم؟؟».

انتبهتُ لسؤاله الأخير، ولجوابي الأخير... ورفعتُ عيني إليه بارتباك وقلتُ مصحّحة:

«نعم... أعني بالطبع نعم».
قال:
«بالطبع لا».
كانتْ نظرته مليئةً بالإصرار... قال:
«فلنعد إلى البيت يا رغد».
قلتُ:
«لا».
قال:
«أليس لديكِ تعليقٌ غير نعم ولا؟ دعينا نذهب الآن لأنني لا أريد ترك دانة بمفردها أطول مِنْ هذا».
«لا أريد العودة، سأبقى هنا».
«لماذا؟».
«أريد البقاء مع خالتي... أريد بعض الهدوء والطمأنينة بعيداً عنكم».
يبدو أنَّ كلماتي قد ضايقتْ وليد لأنَّ تعبيرات وجهه الآن تغيّرتْ... قال:
«غداً سيعود والداي ونضع حداً لكل شيء. ستسوَّى الأمور بالشكل الذي تريدينه أنتِ... لا تقلقي ولا تضطرّي نفسكِ للتضحية...».
قلتُ:
«لكن سامر لا يستحق... لا يستحق ما سببتُه له، ولا ما فعلتَ أنتَ به... مسكين سامر...».
وحتى تعاطفي مع سامر أزعجه وزاد مِنْ حدّة تعبيرات وجهه الغاضبة... قال:
«ستُسوّى الأمور غداً أو بعده مباشرة. لن أسافر قبل أنْ أتأكّد مِنْ أنَّ كلَّ شيءٍ يسير على خير ما يرام».
وكلمة أسافر هذه دقَّتْ نواقيس الخوف في صدري... قلتُ بسرعة:
«تسافر؟ هل ستسافر؟».
قال:
«سيعود والداي وتنتهي مهمّتي».
وكم قتلتني جملته هذه... ألا يكفيني ما أنا به حتّى يزيدني هماً فوق هم؟؟
قلتُ:
«وزفاف دانة؟».
تنهّد ونظر إلى السماء... ولم يجب. قال بعدها:
«هيا رغد».
لم أشأ العودة... فلأجل أي شيءٍ أعود؟ لأجل أنْ أذرف المزيد مِنْ الدموع... لأجل أنْ أعيش المزيد مِنْ الحسرة؟؟ ألأجل أنْ أراه وهو يرحل مِنْ جديد؟؟ نعم، فهو قد جاء في مهمة

محددة أنجزها وسيغادر...

أم مِنْ أجل أنْ... أتلقّى طعنات دانة القاسية... ونظراتها المتّهمة؟؟

كرّر:

«هيا يا رغد!».

قلتُ باعتراض:

«لن أذهب معكَ. سأبقى هنا لحين عودة أمي».

ازداد استياؤه وقال بما تبقّى له مِنْ صبر:

«رجاءً يا رغد... هيا فأنالا أحبّذ أنْ تباتي خارج المنزل».

«لكنه بيت خالتي وقد اعتدتُ على هذا».

«عندما يعود أبي افعلي ما تشائين ولكن وأنتِ تحت رعايتي أنا، لا أريد أنْ تباتي في مكانٍ بعيد عنْ عيني».

«لماذا؟».

«لن أشعر بالراحة لذلك وأنا متعبٌ بما يكفي، ولا ينقصني المزيد مِنْ القلق. تعالي معي الآن».

شعرتُ بالغيظ مِنْ كلامه. مَنْ يظنُّ نفسه ليُملي عليَّ أوامره؟ إذا كان أبي لا يمانع مِنْ مبيتي في بيت خالتي مِنْ حينٍ لآخر فما دخله هو؟؟

«لن آتي».

قلتها بتحدٍ، فنظر إلي بعصبيّة وهتف بحدّة:

«رغــد!!».

فإذا بفرائضي ترتعد مِنْ جرّاء صرخته... وإذا بعينيَّ تحدّقان به مذعورتين... وإذا بنبضات قلبي تتسابق لطرد الدماء خارجهُ عشوائياً...

عيناه كانتا متمركزتين على عينيَّ وحاجباه كانا مقطبين ووجهه كان غاضباً عابساً مرعباً... يثير الفزع في نفس مَنْ لا يهاب الوحوش!

تراجعتُ إلى الوراء خطوتين في هلع... كنتُ أتمنّى لو تستطيع رجلاي الركض، غير أنَّ الفزع صلّب عضلاتهما وجمّد حركاتهما...

وليد مدَّ يده نحوي فارتعدتُ خشيةً مِنْ أنْ يلطمني... لكن يده توقّفَتْ في منتصف الطريق...

شهقتُ، وجفلتُ في موضعي... ونظراته تلسعني لسعاً...

«ســـ... أحضر... حـــ... ـقيبتي».

قلتُ، واستدرتُ مرعوبةً وجريتُ بضع خطوات فارّة، إلا أنّه ناداني مجدّداً:

«رغد».

تصلّبتُ في مكاني ورجلي معلّقةٌ فوق الأرض... ثمَّ التفتُّ إليه بخوف يفوق سابقه... ماذا

الآن؟ هل ينوي صفعي أو ماذا؟؟

أراه يقترب منّي أكثر ولا أقوى على الفرار... حين صار أمامي مباشرة نظر إلي بعمق... وقال:

«رغد... ما بالكِ فزعتِ هكذا؟؟».

لم أنطق ولم يخرج مِنْ فمي غير تيارات الهواء السريعة اللاهثة... وليد حدّق بي بانزعاج ومرارة وقال:

«رغد! هل تظنين أنني سأؤذيكِ بشكل مِنْ الأشكال؟؟».

ثمَّ تابعَ:

«أنتِ ساذجةٌ إنْ فكّرتِ هكذا».

نظر إلى أصابعي المتوترة المرتعشة، ثمَّ إلى عيني المفزوعة ثمَّ تنهد بضيق وقال:

«حسناً، سوف أمرُّ بكِ غداً قبل أنْ نذهب لاستقبال والديَّ... لكن إذا أردتِ الحضور قبل ذلك فأعلميني ولا تطلبي ذلك مِنْ ابن خالتك...».

ما زلتُ أحدّق به نصف مستوعبة لما يقول... قال بصوتٍ خفيف دافئ:

«اعتني بنفسكِ... صغيرتي».

واستدار... وسار مبتعداً... وغادر. بقيتُ أراقبه حتّى غاب... وغاب معه قلبي وحسّي...

سرتُ ببطء عائدةً إلى الداخل فوجدتُ الثلاث في انتظاري... سألتْ خالتي:

«إذن ماذا؟».

قلتُ:

«سيأتي غداً...».

وصعدتُ أنا ونهلة إلى غرفتها مِنْ جديد...

قالتْ:

«بدوتِ مضطربةً رغد! ماذا قال لكِ؟؟».

أمسكتُ بيديها وقلتُ:

«نهلة... سأُجنُّ... لا أعرف لِمَ أصبح هكذا؟ إنه مخيف!».

«رغد! ماذا قال؟؟».

«لا أذكر ما قال! ماذا قال؟؟ آه... لا أدري نهلة إنني أفقد تركيزي حين يكون على مقربة! لا أعرف ما الذي يصيبني؟؟».

ولم أتمالك نفسي... ارتميتُ في حضنها وجعلتُ أشهق وأزفر أنفاسي بقوّة... كانتْ نهلة تحسُّ بالرعشة في جسدي...

«رغد... عزيزتي تماسكي».

«إنه سيسافر... مِنْ جديد... سأُحرَم مِنْ وجوده... مِنْ رعايته... مِنْ أنْ أراه... وأتعلّق به... وأسمعه يناديني (يا صغيرتي) كما كان يفعل منذ طفولتي... لا أحد يناديني هكذا حتى

الآن... كيف سأتحمّل عودة حياتي خالية منه وقلبي أجوف لا يسكنه أحد؟ سأُجَنُّ يا نهلة إنْ تركني وغادر... لا أتحمّل ذلك... أنا أحبُّه كثيراً... لا أعرف كيف ولماذا وإلى متى... لكنني متلهّفةٌ عليه... حتّى لو كذب عليَّ وعاملني بقسوة أو تجاهل... حتّى لو لَمْ يحس بي... حتّى وإنْ كان غريب الأطوار ومرعب... قلبي مشدودٌ إليه بجنون... رغماً عنّي... أصبح كل شيءٍ بالنسبة لي... ما أنا فاعلةٌ مِنْ بعده؟ أخبريني ماذا أفعل؟ ماذا؟»

ولَمْ أرَ غير الظلام والسواد الذي غلّف حياتي وبطّنها أسفاً على وليد قلبي...

ورغم الآلام والتعب... والإعياء الذي أعانيه... ضلَّ النعاس طريقه إلى عينيَّ حتّى ساعةٍ متأخّرة مِنْ تلك الليلة المشؤومة...

- وليد -

كنتُ أتمنّى الذهاب إلى مكان واسع... رحيب... تعبث تيّارات الهواء في سمائه بحرية... إلى البحر... حيث أرمي بأثقال جسدي وهموم صدري الضائق الحزن...

غير أنني عدتُ إلى المنزل الكئيب وجدرانه العائقة... لأبقى رفيقاً لشقيقتي الغاضبة...

كانتْ في غرفتها، حمدتُ الله أنْ لم تسنح الفرصة للقائنا مجدّداً، فبعد الذي أثارتْه هذا اليوم، كرهتُ نفسي وكرهتُ انتسابي لهذا البيت...

كانتْ قد أتتْني بعدما غادر نوّار عند المغرب، ومزيجٌ مِنْ الشرر والغضب والذهول وعدم التصديق يتربّع على وجهها...

«سؤالٌ واحد، أجبني عليه... وبعدها إنسَ أنَّ لكَ أختاً... يا وليد، قُلْ لي... أنتَ... كنتَ... حبيساً في السجن؟؟»

وتلا السؤال (الواحد) عشرات الأسئلة... أسئلةٌ بدا أنها عرفتْ الإجابة عليها مِنْ سامر، والذي بالتأكيد خضع لاستجوابٍ مكثّف مِنْ قِبَلِها قبل رحيله...

وأسئلةٌ أخرى تهرّبتُ مِنْ الإجابة عليها... فما رأيتُه في عينيها مِنْ الغضب والازدراء والنفور كان كافٍ لقتل أي رغبة في الدفاع أو التبرير في نفسي...

«لا أصدّق ذلك!! أخي أنا... قاتلٌ خرّيج سجون؟؟ وأنا مَنْ كنتُ أظنُّه رجل أعمالٍ كبير درس في الخارج!!! أنا مَنْ كنتُ أتباهى بكَ بين صديقاتي...! كيف أواجه خطيبي وأهله بحقيقة مُخزيةٍ كهذه؟... لذلك كنتَ دائماً تتحاشى الحديث عن نفسكَ! كم أنا مصدومةٌ بحقيقتكَ!»

عندما صوّبتُ نظري إليها، أشاحتْ بوجهها الباكي وركضتْ إلى غرفتها تواري الألم... وتدفن الواقع المخزي...

وها هي الآن... منعزلةٌ في ذات الغرفة منذ ساعات...

وبدوري، انزويتُ في غرفة حسام مع حشد مِنْ الأفكار الكئيبة... تولّى قيادتها وسيادتها... صغيرتي رغد...

وكلما تذكّرتُ الخوف الذي تملّكها وهي تقف أمامي... أكره نفسي ووجودي وكياني...

إذا لَمْ أكن على الأقل أُمثِّل مصدر الطمأنينة والأمان لصغيرتي... فماذا يعني وجودي في هذا الكون؟؟

ماذا تبقّى لي...؟ ها قد خسرتُ أهلي أيضاً... سامر وتشاجرتُ معه وحطّمتُ قلبه وعلاقتي به... ودانة ووقعتُ مِنْ عينيها وصارتْ تزدريني... ورغد... رغد الحبيبة... تنفر منّي وترتجف خوفاً؟؟

كيف جعلتها تذعر منّي هكذا وتفقد ثقتها بي؟؟

أي موقف ستتّخذ مني متى عرفتْ عن سجني وجريمتي؟؟

هل ستحتقرني مثل دانة؟؟

لا يا رغد أرجوك... فأنا لن أتحمّل ذلك أبداً... وأفضِّل الموت على العيش لحظةً واحدةً تنظرين فيها إليّ بذرّة ازدراء واحدة... مهما كانتْ جريمتي وآثامي...

ليتكِ لا تعلمين...

يا رغد... سامحيني...

ربّما لم أعد وليد الذي عرفتِه وتعلّقتِ به صغيرة، بفخر ومعزّة وثقة... لكنني لا أزال وليد الذي يحبّك ويتوق إليك... يهتم بكل شؤونك بهوس...

ليتكِ تعلمين...

نمتُ أخيراً على خيال الذكريات الجميلة الماضية... فهي الشيء الوحيد الجميل في حياتي... والذي يمكن لقلبي المنفطر الشعور بالسعادة والراحة حين تذكره...

فجأة، صحوتُ مِنْ النوم مفزوعاً على دوي شديد زلزل الغرفة بما فيها...

فتحتُ عينيّ فإذا بي أرى الليل نهاراً... والسواد ناراً... والسكون زلزالاً... والهدوء ضجيجاً عظيماً... مهولاً...

وأرى الأشياء مِنْ حولي تهتزُّ وتتطاير وتقع أرضاً... وسريري يتذبذب...

للوهلة الأولى لم أستوعبْ شيئاً، أهو كابوس أم ماذا؟؟

وسرعان ما صدر صوتُ انفجارٍ مجلجل أرجَحَ جدران المنزل...

قفزتُ مِنْ على سريري أترنّح مع الاهتزازات، وخرجتُ مسرعاً مِنْ الغرفة وإذا بي أرى شقيقتي تأتي مسرعةً نحوي وهي تصرخ مذعورة:

«قنابل...؟؟؟ هلكنا».

وللمرّة الثالثة دوي صوت انفجار ضخم وأضيئتْ الدنيا بشعاع النيران... وعبقتْ الأجواء بالدخان وروائح الحريق...

كانتْ الأرض تهتزُّ مِنْ تحتنا فأسرعتُ بالإمساك بشقيقتي وانبطحنا أرضاً... وشهدنا زجاج النوافذ يتحطم وتقتحم ألسنة النيران المنزل... وتتوزّع حارقةً كل ما تقع عليه...

اندلع الحريق مِنْ حولنا في أماكن متفرّقة فجأةً... وتوالتْ أصواتْ الانفجار مرّة بعد

أخرى بعد أخرى... بشكل متواصل ومندفع...

شيءٌ ما اخترق السقف فجأةً وهوى أرضاً، أمام أعيننا... وانفجر...!!

ركضتُ أنا ودانة مبتعدين بسرعة عن ذلك الشيء وهي تصرخ... وبدأ السقف يهوي فوق رأسينا...

هربنا فزعين راكضَين مُسرعين ناجيين بنفسينا مُتَّجهَيْن نحو مدخل المنزل... لا يعرف أحدنا أي شيءٍ تطأ قدماه...

ونحن نعبر الردهة... توقفتُ فجأةً وصرختُ:

«رغـــد!!!».

قفزتُ قفزاً نحو غرفة رغد وأنا أصرخ بأعلى صوتي:

«رغـــد... رغـــــــــد».

ودون أنْ أنتظر فتحتُ الباب بسرعة واقتحمتُ الغرفة ولم أرَ غير النيران تلتهم الأثاث... وتحرق السرير...

«رغـــد...!!!!».

كاد قلبي يتوقف، بل إنّه توقّف، وكدتُ أسلم نفسي للنيران تلتهمني... إلا أنني فجأةً تذكّرتُ أنها لم تبتْ هنا الليلة... ولا أعرف ما الذي دفعني لنسيان أو تذكر هذه المعلومة... هذه اللحظة...

صرخات دانة وصلتي رغم الدوي المجلل الطاغي على أي صوت في الوجود، ووجدتها مقبلةً نحوي بذعر تقول:

«تهدّم السقف... سنموت... قُضِيَ علينا».

ثم نظرتُ نحو سرير رغد المشتعل نارا وصرختُ:

«رغـــد».

وبدتْ وكأنها دخلتْ في نوبة فزع هستيرية، أمسكتُ بها وقلتُ:

«ليست هنا، لنخرج فوراً».

وعِوَضاً عن التوجُّه إلى الردهة ثمَّ المخرج، توجّهتُ إلى غرفتي إذ أنَّ فكري قادني تلقائياً إلى مفاتيح السيارة الموضوعة على المنضدة...

سحبتُها وسحبتُ المحفظة التي كانتْ بجوارها وأطلقتُ ساقي للرياح، مُمسكاً بيد شقيقتي الصارخة بذعر...

فتحنا الباب وخرجنا إلى الفناء وخرجتْ معنا الأدخنة التي نفثها الحريق داخل المنزل... ورأينا السماء تسبح في الدخان، والليل نهاراً مُلتهبا... أحمر... والحجر يتساقط مِنْ حولنا كالمطر... بينما تعجُّ الدنيا بأصوات انفجارات متتالية... وتتزلزل الأرض مع كل انفجار... أيما زلزلة...

وعندما فتحتُ الباب الخارجي، رأيتُ ما لَمْ تره عيناي مِنْ قبل... ولا مِنْ بعد...

رأيتُ النيران مندلعةً في كل الأنحاء... والمنازل تتهدّم... والأرض تتصدّع وتتشقّق... والناس... يركضون في كل الاتجاهات فارّين صارخين مذعورين... يصطدم بعضهم ببعض ويدوس بعضهم على بعض...

ومِنْ السماء المشتعلة، كانتْ تتساقط صواريخ وقنابل أشبه بالشهب والنيازك، ترتطم بأي ما يعترض طريقها، وتدمّره...

وتغزو أعيننا الشظايا وذرّات الغبار وفتات الدمار... التي حوّلتْ الأجواء إلى ضبابٍ كثيف أسود...

وتسدُّ أنوفنا الأدخنة القوية وروائح الحريق والغازات التي تخلّفها القنابل...

لقد كانتْ المرّة الأولى التي أشهدُ فيها قصفاً جوياً... وجهاً لوجه... كنّا في موعدٍ مع الموت...

تسمّرتْ دانة في مكانها مذعورةً فَزِعَةً... ترقَب شُعلةً ناريّةً تهوي مِنْ السماء ثمَّ تسقط فوق منزلنا...

شددتُ على يدها وسحبتُها مسرعاً إلى خارج المنزل، نحو السيارة... ونحن حفاة الأقدام ومجردين إلا مِنْ لباس النوم...

ما كدتُ أفتح باب السيارة حتّى تفجّر المنزل... وهطلتْ الحجارة والشظايا والشرار فوق رأسينا...

«اركبي بسرعة».

دفعتُ بشقيقتي إلى داخل السيارة وقفزتُ إلى الباب الآخر، ركبتُ وانطلقتُ مسرعاً مبتعداً عن المنزل... في عكس اتجاه الطريق، أدوس على الأرصفة اصطدِم بكل ما يعترض طريقي، وأحطّم كل ما يصادفني...

الشوارع كانتْ تعجُّ بالناس الفارّين مِنْ النيران... إلى النيران... والقليل مِنْ السيارات التي تسير باتجاهات مختلفةٍ عشوائية على غير هدى...

سلكتُ أسرع طريقٍ يؤدّي إلى منزل أبي حسام، غير آبهٍ بالشهب التي ترمي بها السماء مِنْ فوقي ومِنْ حولي، لا أرى مِنْ الأهوال الدائرة مِنْ حولي شيئاً...

لا أرى إلا صورة رغد مطبوعة على زجاج النافذة أمامي...

كل ذلك كان في دقائقٍ لا أعرف عددها ولا أمدها...

وصلتُ أخيراً إلى منزل أبي حسام ورأيتُ النار تأكل رأسه...

«رغـد... رغـــد... لا... لا...».

صرختُ كالمجنون... هبطتُ مِنْ السيارة راكضاً نحو بوابة سور الحديقة... ضربتُه بعنفٍ حطّم زجاجَهُ ثمَّ فتحتُه واقتحمتُ المنزل وأنا أنادي بأعلى صوتي وبكل جنوني:

«رغـد... رغـــد...».

كنتُ متوجِّهاً إلى باب المنزل الداخلي والذي أراه أمامي مفتوحاً... تخرج منه ألسنةُ

النار... وأنا أناديها بفزع... ورهبة... ممّا قد تكون الجدران تخبّئه خلفها والأقدار تخفيه على بعد خطوات...

يا رب... لا تفجعني بصغيرتي واحرقني أنا قبل أنْ تلمِس النيران شعرةً منها...

يا رب... إنْ كنتَ اخترتها فأنزل قنبلةً فوق رأسي تفجّرني هذه اللحظة قبل أنْ أدخل وأراها جثّة...

«رغـد... رغـد...».

صرختُ وصرختُ وصرختُ... صراخًا شعرتُ به أقوى وأفظع مِنْ دوي القنابل المتفجّرة مِنْ حولي... وأنا أركض نحو النيران...

ما كدتُ أصل إلى الباب حتّى سمعتُ صوت رغد يناديني...

«وليـــد».

التفتُّ يمنةً ويُسرةً أبحث عن مصدر الصوت كالمجنون... أدور حول نفسي وأصرخ بقوة:

«رغـــد... رغـــد».

وعند زاويةٍ في طرف الحديقة، رأيتُ رغد وعائلة خالتها جميعاً مكوّمين قرب بعضهم البعض متشابكي الأيدي ينتظرون المصير المجهول...

مع الإضاءة التي أحدثها انفجار قنبلة خارج المنزل، استطعتُ أنْ أرى رغد جيداً وهي تقف هناك... ثمّ تأتي راكضةً مُسرعة نحوي... وتمسك بذراعي...

«رغد... أأنتِ بخير؟؟ الحمد لله... الحمد لله».

«وليد... أنتما حيّان؟؟».

والتفتُّ للخلف فرأيتُ شقيقتي تصرخ:

«رغد».

وتحرر رغد ذراعي وترتمي في حضن دانة وهي تهتف باكيةً:

«أنتما حيّان... أنتما حيّان».

جذبتُ الاثنتين وضممتُهما إليّ... لا أعرف مَنْ منّا نحن الثلاثة كان أكثر فزعاً مِنْ الآخرين...

انفجار آخر دوي الأجواء، فانبطحنا أرضاً وجعلتْ الأرض تهزُّ أجسادنا كما تهزُّ أفئدتنا المذعورة...

وأخذ الجميع يتصايح ويصرخ... وامتزجتْ الأصوات والهزات والاصطدامات...

توقّفتْ النوبة برهةً، وقفنا وأنا ممسكٌ بالفتاتين وحثثتُهما على السير بسرعة نحو المخرج...

صوت حسام يصرخ:

«إلى أين؟؟».

قلتُ:

«سنغادر المدينة بسرعة».

«الزم مكانك يا مجنون! ستُقتل».

قلتُ للفتاتين:

«هيا بنا».

صرخ حسام وعائلته:

«كلاّ... ابقوا في أماكنكم... القصف لم ينتهِ... لا تذهبوا...».

لكني مضيتُ في طريقي...

حسام يصرخ:

«رغـــد عودي إلى هنا... عودي يا رغـــد...».

رغد تتشبثْ بي أكثر، وأنا أتمسّك بيدها بقوّة وأمضي بها وبدانة إلى السيارة...

بابا السيارة الأماميان كانا مفتوحين، جعلتُ رغد تدخل بسرعة، وأنا أفتح الباب الخلفي لدانة وأدخلها سريعاً، ثمَّ أقفز نحو باب المقود، فأجلس وأطير بالسيارة حتى قبل أنْ أغلق الباب...

لم تكن باللحظة التي يستطيع فيها دماغ أي بشر، غبي أو عبقري، أنْ يفكّر...

انطلقتُ بالسرعة القصوى للسيارة أجتاز كل ما أعبر به، محاولاً تحاشي الاصطدام بما يصادفني قدر الإمكان...

أرى الناس يخرجون مِنْ كل ناحية أفواجاً أفواجا، رجالاً ونساءً وأطفالاً... متخبّطين في سيرهم يركضون باتجاهات عشوائية... يهيمون على الأرض على غير هدى... يصرخون ويهيجون ويموجون باعتباط وفوضوية... وفي نواحٍ متفرقة تتناثر مخلّفات الدمار... الحجارة والشظايا والأشلاء... والجثث... تحرقها النيران... وتفوح روائح كريهة لا تستطيع الأنوف إلا استنشاقها مرغمة...

وكلما انفجر شيءٌ جديد، منزلٌ أو مبنى أو شارع أو سيارة... صرختْ الفتاتان وارتعشتْ يداي وانحرفتُ في سيري جاهلاً... أيّهما سيكون الأسرع لتحديد مصيرنا... قنبلةٌ ما؟ أم اصطدامٌ ما؟ أم أنَّ النجاة ستُكتب لنا بقدرة مَنْ لا تفوق قدرته قدرة، ولا يضاهي رحمته رحمة...

كنتُ أشهد أمامي تصادم السيارات المسرعة، التي فرّتْ مِنْ الموت... وإليه...

وأرى أشياء ترتطم بزجاج سيارتي وتُحدث تصدعات وكسوراً تحول دون وضوح الرؤية أمام عيني...

لم يكن باستطاعتي إلا الاستمرار في طريقي اللامُحدّد... وكما تسير الحيّة سرنا ذات اليمين وذات الشمال ننعطف كلّما ظهر شيءٌ أمامنا ونسلك كل تشعُّب نلقاه حتى انتهى بنا الطريق إلى شارع رئيسي...

حانتْ مني الآن التفاتةٌ أخيراً إلى اليمين... فرأيتُ الفتاة الجالسة إلى جانبي وقد انثنتْ بجدعها إلى الأمام حتى لامس رأسها ركبتيها ووضعتْ ذراعيها على جانبي رأسها لتحاشي رؤية أو سماع شيء... بينما أنفاسها الباكية اللاهثة تكاد تلهب قدميّ الحافيتين...

«رغد...».

لمْ تغيّر مِنْ وضعها...

التفتُ إلى الوراء لألقي نظرةً على دانة، فوجدتُها هي الأخرى مكبّة على وجهها تحتضن المقعد المجاور وتنوح وتصرخ...

«يا رب... يا رب... يا رب...».

هتفتُ بأعلى صوتي:

«يـا رب... يـــا رب... يـــــا رب».

هتفتْ رغد بصوتها المبحوح المرتجف:

«يا رب... يا رب... يا رب».

لم يكن لدينا أمل في النجاة إلا برحمة الله...

أسير في الشارع بسرعةٍ جنونية دون هدف... وسط قصف جوّي مباغت... والقنابل والصواريخ تهوي مِنْ السماء كالوابل... والأرض تتزلزل مِنْ تحتي... ومعي فتاتان مذعورتان تصرخان بفزع وهلع... والنيران تحاصرني وتحيط بي مِنْ جميع الاتجاهات... وسط ليلة غدر عجّتْ سماؤها بألسن النار والشرر... مخلّفاً منزلاً محترقاً متهدماً... ومستقبِلاً مصيراً مجهولاً مبهماً...

كم مِنْ الوقت مضى..؟؟.. لا أعرف...

كم مِنْ المسافة قطعتُ...؟ لا أعرف...

ألا زالتْ الفتاتان على قيد الحياة؟

لا أعرف.

أنجونا مِنْ الموت...؟

أيضاً لا أعرف...

الشيء الذي ألاحظه هو أنني صرتُ في وسط طريق برّي... ولمْ أعدْ أرى السماء متوهّجة... ولمْ أعدْ أحسّ بالأرض ترتعد كما لمْ أعدْ أسمع الدوي ولا الضجيج...

«رغد... دانة...».

لم تجبْ أيٌّ منهما...

«رغد... دانة أتسمعانني؟؟».

وأيضاً لمْ تردّا...

هلعتُ، رفعتُ يدي اليمنى عن المقود ومددتُها نحو رغد التي لا تزال على نفس الوضع... مُثنية جذعها إلى ركبتيها...

«رغد صغيرتي... ردّي علي...».

ببطء تحرّكتْ رغد حتّى استوتْ جالسةً وهي تخفي وجهها خلف يديها خشية النظر... وشيئاً فشيئاً فرّقتْ ما بين أصابعها وسمحتْ لنظرة منها للتسلل إلى المحيط ورؤية ما يجري...

«لقد ابتعدنا... أأنتِ بخير؟؟».

نظرتْ رغد غير مصدِّقة... إلى الشارع... إلى السماء... إلى الطريق مِنْ أمامنا... إلى دانة مِنْ خلفنا... وإليَّ...

لم تستطع النطق بأي كلمة... عادتْ تنظر إلى الوراء تريد أنْ تنادي دانة الدافنة وجهها في المقعد المجاور... إلا أنها عجزتْ عن ذلك...

نظرتُ أنا إلى دانة وهتفتُ بصوت عال:

«دانة... عزيزتي... اجلسي أرجوكِ».

دانة أدارتْ وجهها نحونا وجعلتْ تنقل بصرها بيننا... ثم جلستْ ونظرتْ عبر النافذة المغلقة ثمَّ قالتْ:

«أين نحن؟؟».

قلتُ وأنا أنظر إليها عبر المرآة:

«الله أعلم».

قالتْ:

«أين نذهب؟؟».

قلتُ:

«الله أعلم... فقط لنبتعد عن منطقة الخطر...».

نظرتْ إلى الوراء ثمَّ إليّ وقالتْ:

«هل سننجو؟».

أنَّى لي أنْ أتنبَّأ؟؟».

الله الأعلم...

دانة اقتربتْ مِنْ مسند مقعدي حتى التصقتْ به ومدتْ يدها عبر الفتحة بين المقعدين الأماميين إلى ذراعي تمسك به وتصيح:

«هل هذه حقيقة؟؟ وليد هل أنا أحلم؟؟ ألا زلتُ نائمة؟؟ هل متُّ؟؟ هل أنا حية؟؟».

رفعتُ يدي فأمسكتُ بيدها، إن لأواسها أو لأطلب منها المواساة... وكم كانتْ باردةً كالثلج...

«وليد».

هذه كانتْ رغد التي تنظر إلي ربّما طالبةً المواساة والأمان هي الأخرى... ثمَّ ضمّتْ يدها إلى أيدينا ودخلنا في نوبة طويلة وقوية... مِنْ النواح...

لقد كنتُ أنا أيضاً بحاجة لصرف الدموع مثلهما... فما رأيتُ كان مِنْ الفظاعة والشناعة ما يجعل الجبال الصخرية تخرُّ خاشعة متهدّمة...

إلا أنَّ الدموع ستحول دون الرؤية أمامي، وأنا أقود وسط الظلام بسرعة رهيبة...

تماسكتُ وركزّتُ على الطريق...

فجأة... هتفتْ دانة:

«نوّار!!».

ثم أخذتْ تلطم على وجهها وتنوح...

«يا إلهي ماذا جرى لنوّار؟؟».

ونظرتْ إليّ وهي تسأل:

«الهاتف؟؟».

ولكن الهاتف لم يكن معي...

إننا نفذنا بجلودنا والله العالم بما حلّ بمنْ بقي في المدينة...

لم تهدأ مِنْ نوبة النواح إلا بعد زمن... أظن أنَّ القنوط قد غلبها واستسلمتْ لما يخبئه لنا القدر...

انتبهتُ الآن إلى عبوة لمشروب غازي موضوعة إلى جانبي، وكنتُ قد اشتريتُها يوم أمس أثناء تجوّلي بالسيارة ثمَّ لم أشربها... مددتُ يدي إليها ولمستُ حرارتها التي استمدّتها مِنْ حرارة السيارة...

خففتُ السرعة وأخذتُ العبوة وفتحتُها بيدي اليمنى، ثمَّ مددتُها نحو رغد...

«اشربي».

إذ لا بد أنَّ حلوقنا جافة متخشّبة مِنْ هول ما مررنا به...

رغد أمسكتْ بالعبوة بكلتا يديها وقرّبتْها مِنْ فمها ورشفتْ مقدار ما رطّب جوف فمها وأعادتْها إليّ...

«دانة... خذي اشربي».

مدّتْ دانة يدها وتناولتْ العلبة وشربتْ منها ثمَّ أعادتها إليّ... وجاء دوري لأشرب...

كان ساخناً غير مستساغ المذاق غير أنَّ العطش اضطرّنا لازدراده عن آخره...

ساعة السيارة كانتْ تشير إلى الثالثة والأربعين دقيقة فجراً... عندما رأيتُ أضواء أمامي...

وطابور مِنْ السيارات الواقفة خلف بعضها البعض... ظهر لي أنها نقطة تفتيش أو ما شابه...

خففتُ السرعة تدريجياً حتى انضممتُ إلى طابور السيارات... وبدأ القلق يزداد بسرعة في نفسي ونفسَي الفتاتين...

بدأ الطابور يتحرّك ببطء... لا يتناسب وتسارع نبض قلبي وأنفاسي...

وأخيراً حان دوري...

فتحتُ نافذة بابي فقرّب الشرطي رأسه منها وطلب البطاقة والاستمارة ورخصة القيادة.

بعدها بدأ بطرح الأسئلة... عن مكان قدومي ووجهتي...

«لقد فررتُ بعائلتي مِنْ المدينة الصناعية... حيث القصف المباغت... سأنزل في أقرب مكان آمن...».

ويبدو أنها كانت إجابة معظم مَنْ في السيارات السائرة قبلي...

«مَنْ معكَ؟».

«شقيقتي وابنة عمّي».

«ألديك بطاقتاهما؟».

«لا، لم أفكّر في إحضار شيء كهذا فقد نجونا بجلودنا فقط».

الشرطي أطلّ برأسه مِنْ النافذة ناظراً نحو مَنْ يركب السيارة معي... ثمّ طلب منّي إيقاف السيارة جانباً والنزول.

ركنتُ السيارة جانباً، وهممتُ بالنزول... الفتاتان هتفتا في وقت واحد:

«وليد».

بخوف ووجل...

إنْ نسيتم فسأذكّركم بأنني أرتعد خوفاً مِنْ الشرطة والعساكر... بعد الذي لاقيتُه في السجن تلك السنين... وإنْ كنتُ سأطمئن الفتاتين فإنّ على أحدهم طمأنتي أنا بادئ ذي بدء...

قلتُ بصوت مضطرب:

«لا تقلقا... سأرى ما يريدون».

نزلتُ مِنْ السيارة ووطأتْ قدماي الحافيتان الشارع... وذهبتُ إلى حيث كان رجال الشرطة يقفون مع مجموعة مِنْ سائقي السيارات المركونة إلى جانب سيارتي...

كان الجو بارداً وكذلك الأرض... لكن رعدة جسدي الحقيقية كانتْ مِنْ أثر القصف ومنظر رجال الشرطة المُهاب..

هناك، استجوبني الرجال ودوّنوا المعلومات ثمّ طلبوا مني فتح السيارة لتفتيشها.

عدتُ إلى السيارة ومعي اثنان منهم بعد قرابة العشرين دقيقة... وفتحتُ الباب المجاور لرغد أولاً وقلتُ:

«يريدون تفتيش السيارة، اهبطا».

لم تتحرّك الفتاتان مباشرة، ثمّ هبطتْ رغد حافية القدمين أيضاً ووقفتْ إلى جواري مباشرة وحين فتحتُ الباب الخلفي، أبتْ دانة الخروج... وأشارتْ إلى شعرها...

لم تكن دانة ترتدي الحجاب مثل رغد...

نظرتُ مِنْ حولي فلم أجد شيئاً أغطّي به رأس شقيقتي... فضلاً عن قدميها... فيما الشرطيان يقفان على مقربة والناس مِنْ حولي كُثُر...

نزعتُ قميص نومي وقدّمته لها لتختمر به... وبعدما نزلتْ التصقتْ بي مِنْ جهة بينما رغد مِنْ *الجهة الأخرى*...

أمسكتُ بيدي الفتاتين وسرتُ مبتعداً عن السيارة بعض الشيء لأفسح المجال لرجُلَي الشرطة للتفتيش.

بعد فراغهما مِنْ المهمة سألتهما:

«أيمكننا الذهاب؟؟».

قال أحدهما:

«ليس بعد. فمغادرة هذه المنطقة محظورة لحين إشعار آخر».

ثم أشار إلى الناحية الأخرى مِنْ الشارع وقال:

«ابقوا هناك...».

نظرتُ إلى تلك الناحية فرأيتُ مجموعة مِنْ الناس الذين أوقفهم رجال الشرطة مثلنا يقف بعضهم ويجلس البعض الآخر على حافة الشارع، متفرقين...

شددتُ الضغط على يدي الفتاتين وعبرتُ الشارع معهما تطأ أقدامنا الحافية العارية الأرض الجرداء وتستقبل أجسادنا تيارات الهواء البارد فتقشعر... ويزداد اقترابنا مِنْ بعض وتشبُّثنا ببعض والناس في شغلٍ عن النظر إلينا... بأنفسهم وذويهم... وإلى السماء يرتفع البكاء والعويل والصراخ والنواح... مِنْ كل جانب... وإليها أرفع بصري فأرى بدر الليلة السادسة عشر مِنْ شهر الحج يشهد فاجعة شعبٍ غدر به عدّوه وانتهك حرمته في غفلة مِنْ أعين الناس... وعين الله فوق كل عينٍ شاهدةٍ... شاهدة...

الحلقة الخامسة والعشرون

مشرّدون

- وليد -

على الرمال الناعمة بمحاذاة الشارع جلستُ بين الفتاتين بعدما أعيانا طول الوقوف والانتظار...

ومِنْ حولنا أناسٌ كثر متفرقون... ونسمع بكاء النساء والأطفال...

أرى رغد تفرك يديها ببعضهما البعض بقوة وباستمرار وتهف عليهما طالبة شيئاً مِنْ الدفء. لقد كانت ترتجف برداً... أكاد أسمع اصطكاك أسنانها بعضها ببعض...

أما دانة فكان وجهها مغموراً تحت ثنايا القميص وكانتْ مستسلمة لصمتٍ موحش...

لم تكن الشمس قد أشرقتْ بعد... وكان التعب قد أخذ منا ما أخذ ونرى رجال الشرطة يجولون ذهاباً وجيئةً وأعيننا متشبّثة بهم...

التفتُّ ناحية رغد وسألتُها:

«أتشعرين بالبرد؟».

الصغيرة أجابتْ بقشعريرة سرتْ في جسدها...

أنا أيضا كنتُ أشعر بالبرد، لا يدفئ جدعي سوى سترتي الداخلية الخفيفة... لكن إنْ تحمّلتُ أنا ذلك، فأنّى لفتاة صغيرة تحمّله؟؟

ألقيتُ نظرةً على مجموعة مِنْ رجال الشرطة المتمركزين قرب السيارات ثم قلتُ:

«دعانا نذهب إلى السيارة».

ووقفتْ فوقفتْ الفتاتان مِنْ بعدي وسرتُ فسارتا خلفي تمسك كل منهما بالأخرى حتى صرتُ قرب رجال الشرطة...

نظروا إلى بتشكُّك... وسألني أحدهم عما أريد.

«أودُّ البقاء في سيارتي فقد قرصنا البرد».

«عُد مِنْ حيث أتيتَ يا هذا».

«لكن الجو باردٌ جداً لا تتحمّل قسوته الفتاتان».

الشرطي نظر إلى الفتاتين ولم يعلّق. فقال آخر:

«ابقوا حيث الآخرين».

قلتُ بإصرار:

«ستموتان برداً!».

ثم أضفتُ:

«هل تعتقدون أننا سنهرب؟ سأعطيكَ مفتاح السيارة لتتأكّد».

وأدخلتُ يدي في جيب بنطال نومي، واستخرجتُ مفاتيحي ومددتُها إليه...

الشرطي تبادل النظرة مع زملائه ثم همّ بأخذ سلسلة المفاتيح بما احتوتْ. لقد كانت المفاتيح مضمومةً في السلسلة التي أهدتْني إيّاها رغد ليلة العيد... انتزعتُ مفتاح السيارة الأصلي مِنْ بينها وقدّمتُه إلى الشرطي واحتفظتُ بالسلسلة وبقية المفاتيح.

حين أعطيتُه المفتاح، سمح لنا بالتوجُّه إلى السيارة.

عندما فتحتُ الباب الأمامي الأيمن وقفتْ الفتاتان عنده تنظران إلى بعضهما البعض، ثم تنحّتْ رغد جانباً سامحةً لدانة بالدخول... وفتحتْ هي الباب الخلفي.

حينما جلسنا في السيارة، أخذنا الصمت فترة طويلة... وبدأتْ أجسادنا تسترد شيئاً مِنْ دفئها المفقود...

لم يكن أحدنا يعرف كيف يفكّر، كنا فقط في حالة ذهول وعدم تصديق... منتظرين ما يخبئه لنا القدر خلف ظلام الليل...

أسندنا رؤوسنا إلى المقاعد علّها تمتص شيئاً مِنْ الشحنات المتعاركة في داخلها...

ومِنْ حينٍ لآخر، أُلقي نظرةً على الفتاتين أطمئنُّ عليهما... رغد اضطجعتْ على المقاعد الخلفية وربّما غلبها النوم...

أُطِلُّ مِنْ خلال النافذة على السماء فأرى خيوط الفجر تتسلّل خلسة... فيلقي الله في نفسي ذكره...

«الصلاة».

قلتُ ذلك والتفتُّ إلى دانة التي تجلس إلى جواري ملقيةً بثقل رأسها على مسند المقعد. نظرتْ إليَّ، ثم أغمضتْ عينيها.

أما رغد فلم تتحرّك.

نظرتُ إلى الناس فوجدتُ بعضهم يركعون ويسجدون... على الرمال.

قلتُ:

«سأذهب لأصلي».

فتحتْ عينيها مُجدداً ثم أغمضتْهما.

«توخّيا الحذر، دقائق وأعود».

ومددتُ يدي إلى مقبض الباب ففتحتُه وخرجتُ... أغلقتُ الباب ومشيتُ بضع خطى مبتعداً قبل أنْ أسمع صوت بابٍ ينفتح بسرعة وأسمع مَنْ يناديني...

«وليـــد».

التفتُّ إليها فرأيتُها تخرج مِنْ السيارة مسرعة، تقصدني. أتيتُ إليها فأبصرتْ في وجهها الفزع المهول...

«إلى أين تذهب؟».
قالتْ لاهثةً، فأجبتُ مُطمئِناً:
«سأصلّي مع الناس».
وأشرتُ إلى الطرف الآخر مِنْ الشارع حيث المصلين... رغد هتفتْ بسرعة:
«لا تذهب».
قلتُ:
«سأصلّي وأعود مباشرة».
«لا تذهب! لا تتركني وحدي».
قلتُ مطمئناً:
«دانة معك، لحظة فقط».
رغد حرّكتْ رأسها اعتراضاً وإصراراً وهي تقول:
«لا تذهب... ألا يكفي ما نحن فيه؟ لا تبتعد وليد أرجوكَ».
لم أستطع إلا أنْ أعود أدراجي، وأتيمّم وأؤدي الصلاة ملتصقاً بالسيارة. وما أنْ فرغتُ مِنْ ذلك، حتى سمعنا ضجيجاً يقتحم السماء...
نظرنا جميعنا إلى الأعلى فأبصرنا طائرةً تخترق سكون الفجر...
صرخ بعض الموجودين:
«قنابل!».
وهنا... انتاب الناس الذعر وبدؤوا يتصايحون ويصرخون ويركضون فارين... محدثين ضجةً وجلبةً شديدتين...
رأيتُهم جميعاً يجرون على الشارع مبتعدين... فتحتُ بابَي السيارة بسرعة وهتفتُ:
«هيا بنا».
وأمسكتُ بيدي الفتاتين وجررتُهما ليركضا معي بأسرع ما أوتينا مِنْ قوّة...
«أركضا... أركضا بسرعة».
اقتحمنا أفواج الهاربين الصارخين المستصرخين... هذا يدفع هذا وهذا يسحب هذا وذاك يصطدم بالآخر... وآخر يدوس على غيره... والحابل مختلط بالنابل...
نحن نركض ونركض دون التعقيب... دون أي التفاتة إلي الوراء... ودوي الطائرة يعلو سماءنا... ويجلجل أرضنا المهتزّة تحت أقدامنا الراكضة... الحافية... أسمع صراخا مِنْ كل ناحية... أسمع صراخ دانة ورغد... وصراخي أنا أيضاً... وأشدُّ قبضي عليهما وأطلق ساقيّ للريح...
يتعثّر مَنْ يتعثر... ينزلق مَنْ ينزلق... يتدحرج مَنْ يتدحرج... يقع مَنْ يقع وينكسر ما ينكسر ويُداس ما يُداس... لا شيء يستدعيني لأوقف انجراف رجليّ... أسابق الزمن... وأكاد أسبقه...
كان ذلك مِنْ أشدّ الأوقات هولاً وفظاعة... لن يفوقهما شدّة إلا هول يوم الحشر...

سيارات الشرطة وسيارات أخرى رأيناها تشق الطريق فراراً سابقةً إيانا... وسمعنا أصوات رشق ناري زادنا رعباً على رعب وصراخاً فوق صراخ...

قطعتُ مسافة لا علم لي بطولها، أسحب الفتاتين خلفي وهما عاجزتان عن مجاراة خطواتي الواسعة، تقفزان قفزاً بل تطيران طيرانا...

فجأة وقعتْ رغد أرضاً فصرتُ أسحبها سحباً إلى أنْ تمكّنتُ مِنْ إيقاف اندفاعي الشديد في الركض...

وأقبل الناس مِنْ خلفنا يرتطمون بنا وداسها أحدهم في طريقه...

صرختُ:

«قومي رغد».

إلا أنها كانتْ تمسك بقدمها وتتلوّى ألماً وتصرخ:

«قدمي... قدمي...».

جثوتُ أمامها وأمسكتُ بقدمها الحافية فإذا بقطعة مِنْ الزجاج مغروسة فيها والدماء تتدفّق مِنْ الجرح...

لا بد أنها داستْ عنوة على كسرة الزجاج هذه أثناء جرينا المبهم...

أمسكتُ بقطعة الزجاج بين إصبعي وانتزعتُها بعنف ورغد تصرخ بشدّة... بعد ذلك سحبتُها مِنْ يدها لنستوي واقفين وطرتُ راكضاً مُمسكاً بالفتاتين... عنوة...

رغد كانتْ تصرخ ألماً وتركض على أطراف أصابع قدمها المصابة فيما الدماء تقطر منها وتهتف:

«لا أستطيع... آي... لا أستطيع».

ممّا أبطأ سرعة انطلاقنا...

ثم عادتْ وهوتْ أرضاً مِنْ جديد... وضغطتْ على قدمها المصابة بيدها الحرة...

«انهضي رغد بسرعة».

«لا أستطيع... قدمي تؤلمي... آي... تؤلمني بشدّة... لا أستطيع».

«هيا يا رغد لننجُ بأنفسنا».

«لا أستطيع...».

لأنْ أفكّر، لا مجال...، لأنْ أتردّد... لا مجال...، لكي أنجوَ بحياتي وحياة شقيقتي وحبيبتي... سأقدم على أي شيء...

انتشلتُ صغيرتي مِنْ على الأرض بذراعي وحملتُها على كتفي... وجهها إلى ظهري وقدماها إلى أمامي... منكبة على رأسها...

هتفتُ:

«تشبّثي بي جيداً».

وأنا أطبق عليها بقوة بإحدى يديّ خشية أنْ تنزلق، فيما أمسك بشقيقتي باليد الأخرى،

ثم أسابق الريح...

تارة أزيد وتارة أخفّف السرعة... ألتقط بعض الأنفاس وأسمح لشقيقتي بتنفس الصعداء...

كان الإعياء قد أصابنا ونال منا ما نال حين رفعتُ بصري إلى السماء فلم أبصر أية طائرة وأصغيت أذني فلم أسمع أي ضجيج... وتلفّتُ مِنْ حولي فوجدتُ الناس متهالكين على قارعة الطريق ومعظمهم مضطجعين هنا أو هناك... مِنْ فرط التعب ونفاذ الطاقة...

انحرفتُ يساراً وخرجتُ عن الشارع إلى الرمال على حافته... وهويتُ جاثياً على الأرض...

حرّرتُ رغد ودانة مِنْ قبضتيّ وارتميتُ على الرمال منكباً على وجهي وأخذتُ أتنفّس بقوّة... تجعل ذرات الرمل والغبار المتطايرة مِنْ حولي تقتحم فمي مع تيارات الهواء...

أخذتُ أسعل وأتحشرج... وقد أغلقتُ عينيّ لأحميهما مِنْ الغبار...

لزمتُ وضعي هذا لدقيقتين دون حراك... فجسدي كان منهكاً جداً وبحاجة إلى كميةٍ أكبر مِنْ الأوكسجين ليطرد غازاته الضارّة خارجاً...

عندما فتحتُ عينيّ ونظرتُ يمنةً ويسرةً، رأيتُ الفتاتين مرتميتين على الرمال مثلي... دانة متمدّدة على ظهرها تتنفّس بسرعة، ورغد جالسة تمسّد قدمها المصابة وتئنُّ ألماً...

لم أجدْ في جسدي مِنْ الطاقة ما يمكّنني الآن مِنْ النهوض...

الشمس كانتْ قد أرسلتْ أول جيوش أشعّتها الذهبية الباهتة لتغزو السماء وتطرد الظلام... وشيئاً فشيئاً بدأتْ تحتل السماء... وتنير الكون... وتكشف ما كان خافياً وتفضح ما كان مستوراً...

جلستُ بعدما استرددتُ بعض قواي... وأنا أراقب رغد المتألمة... مكشوفة الرأس...

كان الجرح لا يزال ينزف... والدماء سقتْ الرمال... كما لطّختْ ملابس رغد بل ووجدتُ بقعاً منها على ملابسي أنا أيضاً...

فقد كانت تقطر وأنا أحملها...

«دعيني أرى».

قلتُ ذلك وقرّبتُ وجهي مِنْ قدمها أتأمّل الجرح العميق... وما علق به مِنْ الرمال والشظايا والأتربة...

مسحتُ ما حولي بنظرة سريعة فلم أجد ما أغطي به هذا الجرح النازف...

نفس القميص الذي كانتْ دانة تختمر به، نزعتُ أحد كمّيه ولففتُه حول قدم رغد...

كما لففتُ خمارها – والذي كان قد تدلى على كتفها أثناء جرينا - حول رأسها بنفسي...

دانة قالتْ بانهيار:

«ماذا يحدث برب السماء؟؟ فليخبرني أحد... هل هذه حقيقة؟؟ لماذا فعلوا هذا بنا؟؟ ما حلّ بنوّار؟؟ وسامر؟؟؟».

وأجهشّتْ بكاءً... فضممتُها إلى صدري أحاول تهدئتها... وأبقيتُها بين ذراعي مقداراً مِنْ الزمن... بينما رغد تراقبنا...

أظن أنّها أيضاً كانتْ تبحث عن حضنٍ يضمّها...

بعد ذلك رأينا الناس ينهضون ويسيرون في نفس الاتجاه... فوجاً بعد فوج... وجماعةً بعد أخرى...

قلتُ:

«هيا بنا».

قالتْ دانة:

«إلى أين؟؟».

«لا أعرف... سنسير مع الآخرين».

«سنموت في الطريق...».

«لو لم توقفنا الشرطة وتخرجنا مِنْ سياراتنا لربما كنا الآن قد بلغنا مكاناً آمناً... لا أريد العودة للوراء ولا التخلف عن الآخرين... أظننا على مقربة مِنْ إحدى المدن».

فقد كانتْ اللافتة على جانب الطريق تشير إلى ذلك...

نهضتُ معهما وسرنا على مهل، ورغد تعرُج وتستند إلى دانة... وتتوقّف مِنْ حين لآخر...

قطعنا مسافةً طويلة بلا هدف... نسير زمناً ونرتاح فترة... وتعامدتْ الشمس فوق رؤوسنا ونحن تائهون في البر...

كنا نشعر بتعب شديد... ومهما نسير نجد الطريق طويلاً... ولا تعبره أية سيارات...

توقفنا بعد مدّة لنيل قسطاً مِنْ الراحة... وأي راحة؟؟

قالتْ رغد:

«أنا عطشى...».

ونظرتْ إليّ باستغاثة...

ماذا بيدي يا رغد؟؟ لو كانتْ عيني عيناً لسقيتُك منها وإنْ شربتِها كلها وأبقيتِني جافا... أو أعمى... لكنني مثلكِ، يكاد العطش يقتلني وما تبقّى بي مِنْ طاقتي لا يكفي لقطع المزيد مِنْ الطريق...

إننا سنموتُ حتماً إذا بقينا هنا... أنا أرى الناس ينهارون مِنْ حولي مِنْ التعب والعطش والجوع... ويتخلّف مَنْ يتخلّف منهم بعد مسيرتنا...

يجب أنْ نسرع وإلا هلكنا...

«هيا بنا».

قالتْ دانة:

«أنا متعبة، دعنا نرتاح قليلاً بعد».

قلتُ بإصرار:

«كلا... يجب أنْ نسرع بالفرار قبل أنْ يدركنا حتفنا».

وأجبرتُ الفتاتين على النهوض والسير مجدداً وبأسرع ما أمكنهما...

قوى رغد يبدو أنها انتهتْ... إنها تترنح في السير... تمشي ببطء... تجر قدميها جراً... تئنُّ وتلهث... تسير مغمضة العينين متدلية الذراعين... ثم أخيراً تقع أرضاً...

أسرعت إليها وأمسكتُ بكتفيها وهززتُها وأنا أقول:

«رغد... رغد تماسكي...».

رغد تدور بعينيها الغائرتين النصف مغلقتين وتنطلق حروف مِنْ فيها الفاغر مع أنفاسها الضعيفة السطحية:

«ماء... عطشى... سأموت... وليد... لا تتركني».

ثم تغيب عن الوعي...

أخذت أهزها بقوّة أكبر وأصرخ:

«رغد... أفيقي... أفيقي... هيا يا رغد تشجّعي...».

فتفتح عينيها لثوان، ثمَّ تغمضهما باستسلام...

ثم أسمع صوت ارتطام فالتفتُ، فأرى شقيقتي تهوي أرضاً هي الأخرى...

أسرع إليها وأوقظها:

«دانة انهضي... هيا قومي سنصل قريبا».

«متعبة... دعني... دعني...».

وانظر إلى الشمس فأراها تقترب مِنْ الأفق... وتنذر بقرب الرحيل... وختم النهار...

تركتهما ترتاحان فترة بسيطة، ثم جعلتُهما تنهضان... دانة تسحب قدميها سحباً... ورغد مستندة إليّ... أجرُّها معي...

وصلنا بعد ذلك إلى محطّة وقود... وصار مَنْ بقي مِنْ الناس يركضون باتجاهها ويقتحمون البقالة الصغيرة التابعة لها كالمجانين بحثاً عن الماء...

أسرعتُ أنا أيضاً بدوري إلى هناك... أسحب الفتاتين وحين اقتربتُ مِنْ الباب ورأيتُ الناس تتعارك ويرصّ بعضهم بعضا قلتُ للفتاتين:

«انتظراني هنا».

وحررتُهما مِنْ يدي وأنا أقول:

«لا تتحرّكا خطوةً واحدة».

وهممتُ بالذهاب لمزاحمة الآخرين...

رغد صرختْ صرخة حنجرة ميتة:

«لا تذهب».

قلتُ:

«سأجلب الماء... انتظريني».

وحين سرتُ خطوة مدّتْ هي يدها وأمسكتْ مستميتةً بذراعي تسحبني تجاهها وتقول في ذعر:

«لا تذهب وليد... كلا... كلا...».

حرّرتُ ذراعي مِنْ يدها وزمجرتُ:

«دعيني أدرك الماء قبل أنْ يدركنا الموت... ستموتين إنْ لمْ ألحق».

«سأموت إنْ ذهبتَ».

لا أعرف كيف أصف الشعور الذي انتابني لحظتها...

في قعر الضعف واليأس والاستسلام... أرى صغيرتي متشبّثة بي في خشية مِنْ الوحدة... بينما الموت أولى بأنْ تخشاه وتهرب منه...

قلتُ موجِّهاً كلامي لدانة:

«أمسكي بها».

ودفعتُ بيدها بعيداً عني وأسرعتُ إلى البقالة... تلاحقني صيحاتها...

غصتُ وسط الزحام ولم أستطع نيل أكثر مِنْ قارورتي ماء صغيرتين وعلبة عصير انتشلتُها انتشالاً وركلتُ مَنْ حاول سلبها منّي...

خرجتُ بغنيمتي مِنْ المعركة وجريتُ نحو الموضع الذي تركتُ الفتاتين فيه فلم أجدهما...

تلفّتُّ يمنةً ويسرة فلم أجدهما...

جُنَّ جنوني ورحتُ أهتف منادياً:

«رغد... دانة... أين أنتما؟؟».

ثمَّ سمعتُ صوت دانة تهتف:

«وليـــــد... هنا».

ووجدتها تجلس عند خازنات الوقود ورغد ملقاة أرضاً إلى جوارها...

ركضتُ نحوها فزعاً...

«ماذا حدث؟؟».

«ربما ماتتْ؟ لا أعرف إنها لا تستفيق».

أمسكتُ برغد وهززتُها بقوة وأنا أصرخ:

«رغد... أفيقي... لقد جلبتُ الماء... أفيقي هيا...».

بالكاد ترمش بعينيها... فتحتُ علبة العصير وأدخلتُ طرف الماصة بداخلها والطرف الآخر في فم رغد وضغطتُ على العلبة حتى يتدفق العصير إلى فم رغد... رغد حرّكتْ شفتيها قليلاً... ثم أخذتْ تبلع العصير... ثم تشربه...

«اشربي... اشربي...».

أما دانة فأخذتْ إحدى قارورتي الماء وشربتها كاملةً دفعة واحدة... وتقاسمتُ أنا ورغد القارورة الأخرى...

«اشربي المزيد... اشربيه كله...».

الناس كانوا يدخلون ويخرجون مِنْ البقالة كلٌ يحمل الطعام والشراب... دون مراعاة لأي حقوق... وأي لياقة... ففي وضع كالذي كنا عليه... ينسى المرء نفسه...

استردّتْ رغد وعيها الكامل... وشيئاً مِنْ قوّتها...

«أأنتِ بخير الآن رغد؟؟ أيمكنكِ النهوض؟».

أومأتْ برأسها إيجاباً فنهضنا نحن الثلاثة وأنا مسنِداً إياها...

قلتُ:

«سأجلب طعاما يمنحنا القوة لمتابعة السير».

رغد قالتْ:

«قدمي تؤلمني... لا أستطيع السير بعد...».

ونظرتُ إلى دانة، فقالتْ هي الأخرى:

«ولا أنا... دعنا نرتاح ساعة».

وفي الواقع، معظم مَنْ كانوا يسيرون جلسوا للراحة وتناول ما امتدّتْ إليه أيدهم مِنْ الطعام...

اخترنا نحن بدورنا موضعاً لنجلس فيه... بعيداً بعض الشيء عن الآخرين... ذاك أني لم أشأ جعل الفتاتين عرضة لأعين الغير...

بعدما استقررنا هناك، أردتُ العودة إلى البقالة وإحضار أي طعام... إلا أنَّ رغد منعتني... فالتزمتُ مكاني...

كنتُ أراها تضغط على جرحها مِنْ حين لآخر... وتعبيرات وجهها تتألّم وأسمعها تئن...

«أهو مؤلم جداً؟ تحمّلي صغيرتي...».

ولا يزيدها ذلك إلا أنيناً...

«أنا متعبة».

قالتْ وهي بالكاد قادرة على حمل رأسها وتكاد تسقطه... وتدور بعينيها في المكان... وتفرك يديها مِنْ البرد...

تفطّر قلبي لرؤيتها بهذا الشكل... ولم أعرف ما أفعل؟؟ إنَّ صغيرتي تتألّم وعلى حافة الموت... ماذا أفعل؟

هي رأتني أراقب تحركاتها وتململها... قالتْ:

«أريد أنْ أنام».

قلتُ:

«اضطجعي ونامي...».

حرّكتْ رأسها اعتراضاً... بينما عيناها تكادان تنغلقان رغماً عنها...

رأفتُ بحالها البائس... وقلتُ بعطف:

«اضطجعي رغد... أنتِ متعبةٌ جداً... استرخي دون حرج...».

رغد نظرت إلى دانة... ثم إلى الناس، ثم إليّ بتردّد...
قلتُ مشجِّعاً:
«هيا صغيرتي... لا تخشي شيئاً».
وبادرتْ دانة بالاضطجاع... بدورها... فتشجّعتْ رغد... وهمّتْ بالانبطاح... لكنها قالتْ قبل ذلك:
«لا تذهب إلى أي مكان وليد أرجوك».
قلتُ مطمئِناً:
«لا تقلقي، أنا باقٍ هاهنا».
ثم تمدّدتْ على الرمال... وأغمضتْ عينيها...
أنا أيضاً استلقيتُ على الرمال المجردة... طالباً بعض الراحة... وسرعان ما رأيتُ رغد تجلس وهي تنظر إليّ وتقول:
«هل ستنام؟».
قلتُ:
«كلا... سأسترخي قليلاً».
وبدتْ متردّدة...
قلتُ:
«عودي للنوم رغد... اطمئنّي».
فعادتْ واستلقتْ على الأرض... وسكنتْ قليلاً... ثمَّ عادتْ فجلستْ وألقت نظرةً عليَّ!
قلتُ:
«ماذا؟؟».
قالتْ:
«لا تنم وليد أرجوكَ».
جلستُ مستوياً، وقلتُ:
«لن أنام... نامي أنتِ وأنا سأبقى أراقب ما حولنا... اطمئني».
وأخيراً اطمأنَّ قلبها أو ربما تغلّب عليها النعاس والتعب، فاستسلمتْ للنوم بسرعة...
في العراء... ننام مفترشين الأرض الجرداء... ملتحفين السماء... تهبُّ علينا التيارات الباردة تجمّد أطرافنا... فنرتجف... وتقشعر أجسادنا وقلوبنا... ثم لا تجد ما يدفِّئها ويسكّن روعها...
كان الليل يمرُّ ساعةً بعد أخرى... دون أنْ نحسب الزمن...
عاد البدر يراقبنا ويشهد تشرّدنا... وحالاً لمْ يخلق الله مثلها حالاً...
أراقب الفتاتين فأجدهما مستغرقتين في النوم... وأنا شديد الإعياء... والسكون والظلام مخيّم على الأجواء... ومعظم الناس رقود...
النعاس غلبني أنا أيضاً... فقد نلتُ ما نلتُه مِنْ الإجهاد... لكنني كنتُ أقاومه بتحدٍ... كيف

لعينيَّ أنْ تغفوا وفتاتاي نائمتان في العراء... عرضةً لكل شيء... وأي شيء؟؟

وقفتُ كي أطرد سلطان النوم، وجعلتُ أحوم حول الفتاتين وأذرع المكان ذهاباً وجيئةً... وأقترب منهما كل حين أراقب أنفاسهما... وأطمئن إلى أنهما نائمتان وعلى قيد الحياة...

أنا متعبٌ... متعب... أكاد أنهار... رأسي دائخ والكون يدور مِنْ حولي... وعيناي تزيغان...

يا رب... إنَّ عينكَ لا تغيب ولا تغفل... ولطفكَ ورحمتك وسعا كل شيء... فاشملنا تحت حفظك...

أأغمض عينيّ لحظة واحدة؟ فقط لحظة... أهدِّئ مِنْ تهيّجهما وحرارتهما... لحظة واحدة يا رب... امنحني لحظةً واحدة...

ولم تطعني عيناي كما أبى قلبي أنْ يغفل عن الأمانة العظمى طرفة عين...

فيما أنا بهذه الحال... بعد مضي فترة مِنْ الزمن... أبصرتُ نوراً يقترب منّا قادماً مِنْ آخر الشارع...

إنها سيارة! السيارة الأولى التي تعبر هذا الشارع مذ تشرّدنا فيه...

لم تكن سوى سيارة حوض... ما أنْ رآها بعض الناس حتى أسرعوا راكضين إليها طالبين النجدة...

أسرعتُ إلى الفتاتين وأيقظتُهما:

«رغد... دانة... هيا بنا بسرعة».

فتحتا أعينهما مذعورتين، ومددتُ يدي وأمسكتُ بيديهما وسحبتُهما لتنهضا جالستين ثمَّ واقفتين في فزع...

قلتُ:

«لنلحق بالسيارة».

وركضتُ ساحباً إياهما حتى أدركنا السيارة وانضممنا إلى أفواج الناس الذين ركبوا حوضها.

سائق السيارة كان يهتف:

«انتظروا لأعبئ خزانها وقوداً».

إلا أنَّ الناس تشبثوا بها بجنون...

بعد ذلك انطلقتْ السيارة بمن حملتْ تسير بسرعة لا بأس بها... كان بعضنا جالساً ومعظمنا واقفاً، وكنا نحن الثلاثة ضمن الوقوف.

كنا واقفين عند مقدمة الحوض، الفتاتان ملتصقتان برأس السيارة وأنا أكاد ألتصق بهما، فاتحاً ذراعيّ حولهما أصدُّ الناس عن ملامستهما...

بعد مسيرة ساعة أو أكثر... لا أعلم تحديداً... بلغنا مشارف إحدى المدن... وأوقف السائق السيارة وقال:

«امضوا في سبلكم».

هبطنا وتفرّقنا... هذا هنا وهذا هناك... باحثين عن ملاجئ لهم...

وقفتُ أنا حائراً... إلى أين أذهب في هذا الليل الكئيب... ومعي هاتان الفتاتان المنكوبتان؟؟

وتلفّتُّ مِنْ حولي فرأيتُ لا فتةً تدلُّ إلى طريق المدينة الشمالية الزراعية، والكائنة على مقربة...

نجحتُ بعد جهد في إقناع السائق بإيصالنا إلى هناك، وتحديداً إلى مزرعة نديم، فهي الفكرة التي طرأتْ على رأسي المرهق هذه اللحظة... لقاء بعض المال... وشكرتُ الله أنْ جعلني أحمل محفظتي في جيبي مع المفاتيح... لحظة هروبي مِنَ المنزل...

لم تكن المسافة طويلة جداً، حالما وصلنا هبطنا مِنْ السيارة وشكرتُ السائق... ودفعتُ إليه النقود وحثثتُ الفتاتين على السير معي...

قالتْ دانة:

«إلى أين؟».

قلتُ:

«تقطن عائلة صديقي هنا، سأسألهم إيواءنا لهذه الليلة... فنحن مشرّدون وغاية في التعب».

لقد كان كل ما سبق أشبه بالكابوس... إلا أنه كان الواقع...

بوابة المزرعة كانتْ مفتوحة كالعادة، مشينا متجهين نحو المنزل... دانة تمسك بقميصي الموضوع حول رأسها، ورغد تجر قدمها المصابة... وكلاهما تمسكان بيدي مِنْ الجانبين...

عند عتبات باب المنزل... تركتاني لأصعد العتبات، ثم أقرع الجرس، ثم أسمع صوتاً يسأل عن الطارق، فأجيب:

«وليد شاكر».

ثم أرى الباب ينفتح، وتظهر مِنْ خلفه... أروى نديم.

- رغد -

اتسعتْ حدقتا الفتاة التي أطلّتْ مِنْ فتحة الباب... وألقتْ علينا نظرة مذهولة وقالتْ:

«سيّد وليد!!!».

وليد قال:

«مساء الخير... هل العمُّ إلياس موجود؟؟».

ردّت الفتاة:

«خالي في طريقه إلى هنا...».

ثم عاودتْ النظر إلينا أنا ودانة، ثم قالتْ:

«ما الأمر؟؟».

قال وليد:

«فررنا مِنْ القصف الجوي... نجونا بأعجوبة».
الفتاة وضعتْ يدها على صدرها وشهقتْ... ثم قالتْ:
«أ... أنتَ... هل أنتَ... تقيم في المدينة الصناعية؟؟».
أجاب وليد:
«نعم، مع عائلتي...».
وأشار إلينا...
ثم قال:
«تدمّرت مدينتنا... وتهدّم بيتنا... والآن... أصبحنا بلا مأوى...».
سرعان ما فتحتْ الفتاة الباب على مصراعيه وقالتْ:
«هلمّوا بالدخول».
وليد قال:
«سننتظر العم إلياس...».
إلا أنَّ الفتاة أصرّتْ:
«تفضلوا رجاء...».
ثمَّ التفتتْ إلى الداخل وأخذتْ تنادي:
«أمي...».
وليد الآن التفتَ إلينا وقال:
«تعالا».
تردّدنا برهة، غير أننا سرنا معه إلى الداخل... وطأنا أرضية المنزل بأقدامنا الحافية المتسخة...
وفي النور استطعتُ أنْ أرى وجه الفتاة الذي لم يكن جليّاً قبل قليل...
فتاة شديدة البياض والشقرة... زرقاء العينين حمراء الخدّين... أجنبية الملامح...
أقبلتْ سيدة أخرى نحونا وحين رأتْ وليد تهلّلتْ ورحّبت به بحرارة... السيدة كانتْ شديدة الشبة بالفتاة...
قالتْ الفتاة:
«هربوا مِنْ المدينة الصناعية يا أمّي!».
امتقع وجه السيدة ثم قالتْ:
«أوه ربّاه! حمداً لله على سلامتكم».
وأخذتْ الفتاة تكرّر ذلك أيضاً...
قال وليد:
«سلّمكما الله، شكراً لكما وأعتذر على حضوري إلى هنا... لكننا بحاجة لمكانٍ آمن نبات فيه ليلتنا السوداء هذه».

السيدة الكبرى أشارتْ إلى وليد بالتوقف عن الحديث وعادتْ ترحّب مِنْ جديد... والتفتتْ إلينا أنا ودانة...

وليد قال:

«شقيقتي وابنة عمّي».

قالتْ السيدة:

«وأين أبواك؟».

قلتُ:

«لم يعودا مِنْ الحج بعد... أو... لا أعرف ما حصل معهما!».

قالتْ السيدة وهي تشير بيدها نحو المقاعد:

«تفضلوا رجاءً... تفضلوا».

أنا ودانة كنا ممسكتين ببعضنا البعض... واقفتين بحذر...

وليد تحدّث إلينا قائلاً:

«تعالا... لنجلس هناك».

وسرنا معه إلى المقاعد...

وجلستْ دانة ملتصقةً به وأنا ملتصقةٌ بها...

وليد ألقى نظرةً علينا ثم قال مخاطباً الفتاة:

«هل لنا ببعض الماء مِنْ فضلك؟؟».

«فوراً».

وذهبتْ الفتاة وعادتْ تحمل قارورة كبيرة مِنْ الماء المعدني وثلاثة كؤوس...

ملأتْها بالماء وقدّمت الأول إليّ والثاني إلى دانة... فشربنا بسرعة وبنهم شديد... المزيد والمزيد والمزيد... ووليد والفتاة والسيدة يراقبوننا بشفقة!

ذهبتْ الفتاة وأحضرتْ قارورة أخرى وقدّمتْها مع الكأس الثالث إلى وليد...

«تفضّل».

وليد تناولهما وبدأ يشرب الكأس بعد الآخر حتى أفرغ محتوى القارورة في جوفه...

أيّكم جرّب عطشاً كهذا العطش؟؟

ألا لعنة الله على الظالمين...

قالتْ السيدة مخاطبةً الفتاة:

«اذهبي وحضّري بعض الطعام... حضّري الحساء والشطائر».

وأسرعتْ الفتاة منصرفة إلى حيث أُمِرتْ...

وليد قال:

«نحن آسفون يا سيدة ليندا... إننا...».

فقاطعتهُ السيدة وقالتْ:

«لا... لا داعي لقول شيء يا بُنيّ... ألف حمدٍ لله على نجاتكم...».
ثم سمعنا صوت الباب ينفتح، ويدخل منه رجلٌ عجوز...
ما أنْ دخل حتى وقف وليد فوقفنا أنا ودانة تباعاً... الرجل ذُهِل، وقال بتعجب:
«وليد؟؟».
وأقبل وليد نحوه فصافحه ثم أخبره عما حصل معنا ما دعانا للحضور إلى هنا...
والعجوز لم يقل كرماً عن السيدة والفتاة... بل رحّب بوليد وعانقه وحمد الله كثير على سلامته...
حتى هذه الساعة لا زلتُ بين الإدراك وإلا إدراك... بين الحقيقة والحلم، والتصديق والتكذيب...
ولا زلتُ أشعر بتعب لا يسمح لي بالوقوف أكثر مِنْ ذلك... خصوصاً على قدم جريحة متألمة... لذا فإنني هويتُ على المقعد وألقيتُ برأسي على مسنده...
دانة جلستْ إلى جواري وربّتتْ على كتفي وقالتْ:
«رغد... أأنتِ بخير؟؟».
أنا تنهّدت وأننتُ... وليد أقبل هو الآخر نحوي قلِقاً... وقال:
«أأنتِ على ما يرام؟؟».
أشرتُ إلى قدمي... أنا أتألم... وليد قال مخاطباً الرجل العجوز:
«أيوجد لديكم مطهراً وضماداً للجروح؟؟».
السيدة غابت ثوان ثم عادت تحمل ما يلزم... وليد قال:
«يجب غسلها أولاً...».
السيدة قالتْ:
«دورة المياه مِنْ هنا».
ألا أنني أومأتُ رأسي ممانعةً... ولزمتُ مكاني... دانة قالتْ بصوت هامس تكلّم وليد:
«أنا أريد استخدام دورة المياه».
وليد أستأذن أصحاب المنزل، ثم نهضتْ دانة واقفة، تغطّي معظم وجهها بالقميص الموضوع على رأسها...
أعتقد أنَّ الرجل العجوز انصرف هذه اللحظة... أما السيدة الأخرى فعادتْ تشير إلى ناحية الحمام:
«مِنْ هنا...».
ذهبتْ دانة إلى دورة المياه، والسيدة استأذنتْ وغادرتْ لدقائق... وبقيتُ أنا متهالكةٌ على المقعد ووليد واقف إلى جواري...
قال:
«أأنتِ بخير؟؟».

لا! كيف لي أنْ أكون بخير؟؟ إنني في حال مِنْ أسوأ الأحوال التي مرّت عليّ... بدأتُ بالبكاء إلا أنّ دموعاً لمْ تخرج مِنْ عيني...

وليد جلس بقربي وقال:

«ستكونين بخير... نجونا مِنْ الموت... الحمد لله».

شعرتُ لحظتها برغبة في الارتماء في حضنه... والبكاء على صدره... والاسترخاء بين ذراعيه... أنا متعبة وأتألّم... أريد مَنْ يواسيني ويشجّعني... أريد حضناً يشملني ويداً تربّت عليّ... أريد أمي... أريد أبي... أريد وليد... ولم أنل منه غير نظرات مشجعة...

أقبلتْ السيدة تحمل معها وشاحين... قدّمتهما إليّ...

نزعتُ عن رأسي ما كنتُ أتحجّب به، ولففتُ أحد الوشاحين حوله، دون مرأى مِنْ وليد...

وعندما عادتْ دانة، وقد غسلتْ وجهها وقدميها الحافيتين أعطيتُها الوشاح الآخر...

قالتْ:

«تعالي لأغسل جرحك رغد...».

وأيضاً لم أتحرّك... ففوق تعبي وإعيائي والدوار الذي أشعر به... أنا خائفة... نعم خائفة...

السيدة قامتْ بنفسها بإحضار وعاء يحوي ماء... ووضعتْه عند قدميّ وقالتْ:

«هل أساعدكِ؟».

دانة قالتْ:

«شكراً لكِ، سأفعل ذلك».

ثم أخذتْ تحلُّ الضماد - والذي هو عبارة عن كم قميص وليد - مِنْ حول قدمي... وغمرتها بعد ذلك في الماء النظيف الدافئ...

بدأتْ الأوجاع تتفاقم وتتزايد... وأخذتُ أئن... لكنني لم أقاوم... واستسلمتُ لما فعلته دانة بقدمي... وأنا مغمضة العينين...

عندما فتحتهما كانتْ قد انتهتْ مِنْ لف قدمي بالضماد... كما أنَّ السيدة أحضرتْ ماءا نظيفاً لأغسل قدمي الأخرى...

كل هذا وأنا ملتزمة الصمت والسكون إلا عن أنات ألم...

والآن، جاءت الفتاة تحمل صينية ملآى بالشطائر بينما يتبعها العجوز حاملاً صينية أخرى رُصّت علب العصير الورقية فوقها...

ووضعا الطعام والشراب أمامنا والفتاة تقول:

«تفضلوا هذا لحين نضج الحساء».

لم يمد أحدنا يده... ما الذي يجعلنا نفكّر بالطعام في وقتٍ كهذا؟؟ فراح أصحاب المنزل يحثوننا على الطعام...

وليد تناول اثنتين مِنْ علب العصير وقدمهما لي ولدانة، فأخذتُ علبتي وشربتُ ما بها ببطء...

أصحاب المنزل الثلاثة استأذنوا منصرفين عنا، ربما لنتصرف بحرية أكبر...
وليد أيضا وزّع الشطائر علينا إلا أنني رفضتُ تناولها...
«خذي يا رغد... لا بد أنكِ جائعةٌ جداً... كلي واحدة على الأقل».
«لا أريد».
«ستنهارين إنْ بقيتِ بلا طعام ساعةً بعد».
ولم يفلح في إقناعي... لكنه ودانة تناولا شيئاً مِنْ الطعام بصمت...
لحظات وإذا بالفتاة تقبل بأقداح الحساء الساخن... وتقدّمها إلينا ثم تنصرف...
أجبرتُ نفسي على رشف ملعقتين مِنْ الحساء... ثم أسندتُ رأسي إلى المقعد وأغمضتُ عينيّ...
كنتُ أسمع أصوات الملاعق... وحركة الأواني... وربما حتى صوت بلعهما للطعام وهضم معدتيهما له! وأسمع كذلك صوت نبضي يطن في أذني... وأنفاسي تنحشر في أنفي... والآن... صوت وليد يناديني...
«رغد».
فتحتُ عيني فوجدته ينظر إلي بقلق... ويعيد السؤال:
«أأنتِ بخير؟؟».
أجبتُ:
«أنا متعبة».
قال:
«سأتحدّث معهم...».
ثم نهض ونادى:
«أيها العم الطيب...».
ظهر الثلاثة مِنْ حيث كانوا يختبئون عنا...
قال وليد:
«اعذرونا رجاءً... إننا في غاية التعب فقد قضينا ساعات طويلة نسير في الخلاء... أين يمكننا المبيت بعد إذنكم؟؟».
قالتْ السيدة:
«ستنام ابنتي معي في غرفتي ويمكن للفتاتين المبيت في غرفتها... سنعد فراشاً أرضيا إضافياً».
وقال العجوز مخاطباً وليد:
«وأنتَ غرفتك كما هي».
قال وليد:
«هذا جيّد...».

ثم أضاف:
«أشكركم جميعاً جزيل الشكر... إنني...».
ومرّة أخرى قاطعتْه السيدة وقالتْ:
«لا داعي لكل ذلك يا سيد وليد، ألم نكن كالعائلة؟ جميعكم أبنائي...».
ثم أضافتْ مخاطبةً الفتاة:
«خذي الفتاتين إلى غرفتكِ».
الفتاة أقبلتْ نحونا وهي تبتسم وتقول:
«تفضّلا معي...».
كلانا نظرت إلى وليد بتردد... فقال الأخير:
«هيا عزيزتاي».
وأومأ برأسه مطمئناً... يبدو أنه على علاقة وطيدة بهم... ويثق بهم كثيراً...
وقفت دانة ووقفتُ معها... ثم قلتُ لوليد:
«وأنتَ؟».
قال:
«سأبات في غرفة في الخارج تابعة للمنزل».
حرّكتُ رأسي اعتراضاً... مستحيل! وعوضاً عن مرافقة الفتاة اقتربتُ منه هو، وقلتُ:
«لن تذهب وتتركنا».
قال:
«إنها غرفة خارجية اعتدتُ المبيت فيها... ملاصقة للمنزل تماماً».
قلتُ بإصرار أشد:
«لا... لا».
وليد نظر إلي بضيق وتعب وأسى... كأنه يرجوني أنْ أطلق سراحه وأدعه يرتاح...
قال:
«ستكونين بخير... هذه عائلتي».
غير أنني ازددتُ إصراراً ورفضاً وقلتُ:
«سأذهب معك».
وليد ودانة تبادلا النظرات... ولم يعرف أي منهما ما يقول...
مددتُ يدي فأمسكتُ بيده مؤكدة أكثر وأكثر بأنني لن أسمح له بالابتعاد عني...
أخيرا تكلّم وليد مخاطباً أصحاب المنزل:
«إنْ لم يكن في ذلك ما يزعجكم... فسنبيتُ في الغرفة الخارجية نحن الثلاثة... ونحن آسفون على كل ما سببناه لكم مِنْ إزعاج...».
العجوز تكلّم وقال:

«كما تشاءون يا بنيّ... سأجلب المزيد مِنْ الفرُش والبطانيات لكم».

وتحرّك الثلاثة، وأحضروا البطانيات وحملوها سائرين نحو الباب، وسرنا معهم إلى خارج المنزل...

كانتْ الغرفة المقصودة عبارة عن غرفة تابعة للمنزل مفصولة عنه بجدار مشترك... وكانتْ صغيرة نسبياً وبداخلها سريرٌ صغير وأثاثٌ بسيط، وتتبعها دورة مياه صغيرة قريبة مِنْ الباب...

الثلاثة ومعهم وليد تعاونوا على تحضير فراشين أرضيين على المساحة الحرّة مِنْ الغرفة... وحالما انتهوا، قال العجوز...

«أتمنى لكم نوماً هانئاً».

وعقّبتْ السيدة:

«تصبحون على خير».

أما الفتاة فقد أسرعتْ بالذهاب ثم العودة بصينية الشطائر وبعض العصائر... ووضعتْها على المنضدة الصغيرة التابعة لأثاث الغرفة وهي تقول:

«فيم لو احتجتم أي شيء فلا تترددوا في طلبه!».

وليد قال:

«شكراً جزيلا... هل نستطيع استخدام الهاتف؟».

قال العجوز:

«بكل تأكيد...».

فشكرهم كثيراً وكذلك فعلتْ دانة، ثم انصرفوا...

وفور خروجهم أقفل وليد الباب وأقبل إلى الهاتف... واتصل بأحد الأرقام... وكان أوّل ما نطق به بعدها وبلهفة شديدة:

«سامر يا عزيزي... أأنتَ بخير؟؟».

الحلقة السادسة والعشرون

عودي صغيرة

- رغد -

مضطجعة على السرير... في غرفة أناس غرباء...

مكان ساكن وبارد... يضيئه مصباحٌ أحمر خافت الإضاءة...

ألتحفُ لحافاً وبطانية خفيفين... لا يكادان يدفئان أطرافي كما ينبغي... أتقلّب يميناً ويساراً... محاولةً ضبط جسدي في وضع يريحه ويخفّف آلام قدمي الممتدّة إلى كامل الرجل والظهر أيضاً...

وكلّما لففتُ يمنةً... وقع نظري على تلك الكومة منْ اللحم والشحم البشري المتمددة على فراشٍ أرضي... والمدثرة بلحافٍ وبطانية شبيهين باللذين يغطياني، يخفيان الرأس ولا يكادان يصلان إلى القدمين اللتين تبرزان منْ تحتهما... بحجميهما الكبيرين وشكليهما الأشبه بالسفينة!

مسكين وليد!

لا بد أنَّ عدد الخلايا الحسية في قدمه هو أكثر بكثير منْ قدمي أنا... ولا بد أنّه تألّم أكثر منّي وهو يركض ويمشي حافياً عليها!

أوه ولكن لِمَ عليّ التفكير بقدم وليد في ساعة كهذه وحال كهذه؟؟

أمْ أنَّ الآلام التي أشعر بها في قدمي أنا جعلتني مهووسة بالأقدام؟؟

أكثر شيء أراحني، وجعلني أستلقي بطمأنينة على هذا السرير هو تحدّثي إلى والديَّ واطمئناني عليهما، وكذلك على سامر وخالتي وعائلتها...

الحمد لله أنهم جميعاً بخير...

ورغم التعب الذي كنتُ أعانيه، لم أنمْ مباشرة مثلما نام وليد ودانة على فراشيهما الأرضيين... لقد كنتُ أشعر بالبرد... رغم أنَّ جسدي متعرّق...

جلستُ... وأخذتُ أنظر نحوهما...

كانا مستغرقين في نوم عميق... لا تصدر عن أي منهما أي حركة...

نهضتُ عن سريري وتوجّهتُ نحو الخزانة الصّغيرة الموجودة في الغرفة، وأنا أعرج... بحثاً عن بطانية أخرى...

فتحتُ الخزانة وألقيتُ نظرة على ما بداخلها، لم أجد أي بطانية أو لحاف... بل كانتْ تحوي بعض الملابس الرجالية!

أثناء إغلاقي لها أصدرتْ صوتاً... فالتفتُ مباشرةً إلى النائمين أستوثق منْ عدم استيقاظهما. بسبب الصوت... دانة لم تتحرّك البتة، أمّا كومة الشحم واللحم البشرية تلك فقد تحرّكتْ... وأُزيحتْ البطانية قليلاً... فظهر الرأس... والعينان... والأنف المعقوف... والشفتان... والذقن الملتحي أيضا!

وليد نظر إلي برهة نظرة ساذجة، ربما كان نصف نائم... ثم بدأ تركيزه يحتدُّ ويشتدُّ... ثم حملق بي في قلق واستوى جالساً

«ما الأمر؟».

سألني ذلك، فقلتُ:

«آسفة... كنتُ أبحث عن بطانية أو ما شابه».

نظر وليد نحو السرير ليتأكّد مِنْ وجود بطانية مُعدّة لي، ثم إليّ... فقلتُ موضِّحة:

«إنها خفيفة...».

«أتشعرين بالبرد؟».

«نعم...».

ثم رأيتُه ينهض، ويحمل بطانيته ويضعها فوق بطانيتي...

قال:

«ستدفئين هكذا».

شعرتُ بالخجل مِنْ تصرّفه والحرج... قلتُ بسرعة:

«أوه كلاّ وليد...».

قال:

«إنني لا أشعر بالبرد على أية حال... اللحاف هذا يكفيني».

طأطأتُ رأسي خجلاً وأنا أنطق بحروف الشكر... وليد عاد إلى فراشه الأرضي وغطّى جسده باللحاف!

رجعتُ أعرج نحو السرير وتدثّرتُ بالبطانيتين مع اللحاف... واستمدّ جسمي الحرارة، لا مِنْ الأغطية المنشورة فوقي، بل مِنْ المدفئة البشرية الملتهبة التي تبعث حرارة وتقدح لهيباً في الغرفة... مكوّمة هناك... على ذلك المفرش الأرضي، ملفوفة باللحاف كالشرنقة!

ولأنه لم يعد باستطاعتي رؤية أية أقدام كلّما تلفتُ، فإنّ هوس التفكير بها غاب عنّي... وسمح لدماغي بالصفاء... وبالتالي بالاستسلام للنوم...

نومتي لم تكن بالنومة الطبيعية على الإطلاق... رأيتُ كوابيس مزعجةً جداً واستيقظتُ عدّة مرات فزِعةً... أرى نفسي في العراء... والناس تركض... والنار تحيط بنا...

أسمع صراخ الناس... ودوي الانفجارات... وأرى جنوداً يركضون نحوي...

أحاول الوقوف لأهرب، لكن قدمي المصابة تعيقني...

أصرخ وأصرخ... وأرى وليد يركض مع دانة مبتعدين... فأمدُّ يدي طالبةً العون... وما مِنْ

معين...

ثم تقترب النيران مني وتلسعني ألسنتها... فأصرخ بأعلى صوتي... ثم يظهر سامر لا أعلم مِنْ أي مكان... ووجهه يحترق... ويقول:

«لماذا فعلتِ هذا بي؟؟».

استيقظ مِنْ النوم فزعة مرعوبة، أتلفتُ إلى ما حولي، فأجد نفسي في غرفة صغيرة مظلمة... مضطجعة على سرير... وأرى وليد ودانة نائمين على مقربة مني...

أنهض عن سريري واقترب منهما لأتأكّد... أهما وليد ودانة؟؟ أأنا في حلم؟؟ فأرى وجه دانة الغارق في النوم... وشعرها المبعثر على الوسادة... نعم هي دانة...

وهي حية... وتتنفس...

ثم التفتُ ناحية وليد... المغطى باللحاف كلياً، فلا أجد ما يثبت لي أنه وليد...

وأنه حي... ويتنفس!

أبقى أراقبه بتركيز حتى ألحظ حركة طفيفة يصدرها صدره... فيطمئن قلبي إلى أنه حي... ويتنفس... لكن... هل هذا وليد؟؟

أمدُّ يدي بحذر... نحو طرف اللحاف فأزيحه قليلاً عن قدمه...

كبيرة كالسفينة!... لا شيء يدعو للشك!... إنه وليد حتماً!

يطمئنُّ قلبي وأعود أدراجي إلى سريري الدافئ... نعم أنا بخير... نعم لقد نجونا... نعم كان كابوساً... نعم أنا متعبة... وبالتأكيد سأنام...

في المرّة الأخيرة التي نهضتُ فيها... كانتْ حالتي سيئةً جداً...

– وليد –

كنتُ غارقاً في النوم لأبعد الحدود، بعد العناء الذي مررنا به... توقّعتُ ألا أنهض قبل مضي عشرين ساعة على الأقل!

إلا أنني نهضتُ على صوتٍ ما...

فتحتُ عيني وبقيتُ لحظة في سكون، إلى أنْ أفاقتْ جميع خلايا الوعي النائمة في دماغي، ثم بدأتْ حواسي تعمل بشكل جيد، وتميّز الصوت ومعناه...

كان صوت رغد... وكانتْ تناديني...

التفتُ ناحية السرير الذي كانتْ رغد تنام فوقه فرأيتُها تجلس على حافته في إعياء شديد، بالكاد تسند جدعها.

كان مظهرها ينمُّ عن التألم والإرهاق. اجتاحني القلق بغتة، وقفتُ وقلتُ:

«رغد... ما بكِ؟؟».

نبستْ شفتاها عن أنّة... تلتها تنهيدة وجع... ثم كلمة واهنة:

«متعبة... دوار...».

اقتربتُ منها قلقاً... وقلتُ:

«سلامتكِ».

فقالتْ:

«أظن أنني محمومة... أريد مسكّناً».

ثم ارتمتْ على السرير بضعف... وبدتْ مريضةً جداً...

قلتُ:

«أنذهب إلى الطبيب؟».

رغد أنّتْ... أنين مريض مرهق. فقلتُ حاسماً:

«استعدي للذهاب. سأعود في الحال».

وتوجهتُ نحو الباب، فنادتْني بوهن:

«وليد».

التفتُ إليها فوجدتُها عاجزة عن رفع رأسها عن السرير... قلتُ:

«سأطلب مِنْ العم إعارتنا سيارته».

وقبل خروجي نظرتُ إلى دانة، وناديتُها عدّة مرات غير أنها كانتْ تغطُّ في نومٍ عميق...

عندما خرجتُ مِنْ الغرفة وسرتُ باتجاه باب المنزل لمحتُ العمّ إلياس علىّ مقربة... وكان يزيل بعض الأوراق والأغصان المتساقطة مِنْ على الأرض...

إنه الصباح الباكر وهذا الرجل معتادٌ على النهوض باكراً مِنْ أجل العمل...

اقتربتُ منه وأنا أقول:

«صباح الخير أيها العم الطيب».

التفت إلي وابتسم ابتسامة جميلة ورحّب بي بكل بشاشة وبشر...

قال:

«نهضتَ باكراً! هل اكتفيتَ مِنْ النوم بهذه السرعة؟؟».

قلتُ:

«لا زلتُ متعباً أيها العم، بصعوبة أدّيتُ صلاتي قبل فوات وقتها...».

«إذن لم قمت باكراً هكذا؟».

«ابنة عمّي متعبة... أريد أخذها إلى المستوصف القريب... فهل تسمح بإعارتي سيارتك؟؟».

العم قال بسرعة:

«أيعقل أنْ تسأل هذا يا وليد؟ بل أنا مَنْ سيوصلكما إلى هناك... أنسيتَ يوم اصطحبتنا نحن إلى هناك؟ جاء وقت رد الجميل!».

«لا أريد إزعاجك أيها العم».

«عن أي إزعاجٍ تتحدّث؟ كما وأنَّ لي حاجةٌ مِنْ مكان قريب مِنْ المستوصف، أنا ذاهبٌ

لجلب السيارة أمام المنزل».

وولّى مسرعاً...

لم يكن لدى العائلة سوى سيارة حوض... زرقاء اللون، يستخدمونها رئيسياً لنقل الثمار إلى سوق الخضار...

وهي سيارة لا تتسع لأكثر مِنْ ثلاثة أشخاص...

قبل أنْ أعود إلى الغرفة، ظهرتْ الآنسة أروى خارجة مِنْ المنزل، تحمل طبقاً مسطّحا كبيراً حاوياً كمية مِنْ حبوب الأرز...

أروى حالما رأتني بادرتْ بالتحية:

«صباح الخير يا سيّد وليد».

قلتُ ببعض الحرج:

«صباح الخير سيدتي».

«أنمتم بشكل جيد؟».

«الحمد لله».

«هل نهضتْ الفتاتان؟».

«كلا، أعني نعم... أقصد واحدة نعم وواحدة لا».

«الباب مفتوح لكم لدخول المنزل أنى شئتم... سأعدُّ لكم طعام الفطور بعد قليل».

«شكراً لكم. غمرتمونا بكرمكم».

«إنه واجبنا بل مِنْ دواعي سرورنا...».

وهنا أقبل العم يقود سيارته... وأوقفها على مقربة...

سألتْ الفتاة:

«إلى أين يا خالي؟؟».

قال:

«إلى المستوصف».

«المستوصف؟؟».

قلتُ موضحاً:

«لأخذ ابنة عمّي فهي متعبة».

قالتْ:

«سلامتها».

«سلمكم الله».

شكرتها واستأذنتُ وعدتُ إلى الغرفة...

كانتْ رغد لا تزال على نفس الوضع الذي تركتُها عليه... ومغمضة العينين. حين أحسّت باقترابي فتحتهما بإعياء...

«... هيا بنا».
بصعوبة تحرّكتْ... ومشتْ خطواتها العرجاء فلما صارتْ قربي التفتتْ إلى دانة...
حرتُ في أمري...
فمِنْ جهة، لا أريد ترك دانة وحدها هنا... ومِنْ جهة أخرى لا أريد إفساد نومها العميق، كما وأن السيارة لا تتسع لها...
في النهاية قلتُ:
«سندعها نائمة...».
ولولا التعب لنطقتْ رغد بكلمات الاعتراض المرسومة على وجهها، غير أنها سارتْ باستسلام وعجز...
أغلقتُ الباب تاركاً المفتاح في الداخل... وحين أصبحنا قرب السيارة قلتُ مخاطباً الآنسة أروى:
«مِنْ فضلك سيدتي... هل لا تفقدّتِ شقيقتي بين حين وآخر؟ إنها لا تزال نائمة هناك... ولا تعرف عن خروجنا».
أروى قالتْ:
«اطمئن... لسوف أبقى في الجوار لحين عودتكما!».
قلتُ:
«شكرا لكِ، أخبريها أننا ذهبنا للمستوصف القريب وسنعود قريباً».
التفتتْ بدورها إلى رغد وقالتْ:
«سلامتك».
رغد لم تجب واكتفتْ بنظرة كئيبة نحو الآنسة أروى وإيماءة بسيطة.
قلتُ أنا:
«شيء آخر يا سيدتي وأستميحكِ عذراً على ثقل ظلّنا...».
«تفضّل دون حرج يا سيّد وليد».
نظرتُ إلى رغد في خجل وقلتُ:
«عباءة... إذا أمكن».
الآنسة أروى قالتْ:
«بالتأكيد».
وأسرعتْ إلى داخل المنزل، وعادتْ تحمل عباءة... وزوجين مِنْ الأحذية المطاطية، التي يرتدونها عادة أثناء العمل...
انتبهتُ حينها فقط إلى أنني ورغد كنا لا نزال حافيين أيضاً!
بعدما ارتدينا الأحذية المطاطية تلك، وارتدتْ رغد العباءة، تقدّمنا نحو السيارة فصعدتُ أنا أولاً ثم رغد مِنْ بعدي... وقد كادتْ تتعثّر... إنْ مِنْ شدّة التعب والدوار، أو مِنْ علو عتبة

السيارة، أو مِنْ طول العباءة التي ترتديها!

حينما بلغنا المستوصف، دخلتُه ورغد فيما ذهب العم إلى حيث أراد على اتفاق بالعودة بعد فراغه...

هناك، استلقتْ رغد على سرير الفحص وأقبلتْ الممرضة لقياس العلامات الحيوية لها، ثم قالتْ:

«حرارتها مرتفعةٌ جداً! أربعون درجة ونصف!».

وأحضرتْ كيساً يحوي مجروش الثلج ووضعتْه على رأس رغد، بينما قامتْ ممرضة أخرى باستدعاء الطبيب المسؤول.

ثوان وإذا بالطبيب يحضر... وهو رجل في نحو الثلاثين منْ العمر... ما أنْ أقبل حتى استوتْ رغد جالسة...

اتخذ الطبيب مجلسه على مقعده الوثير خلف المكتب، وأمسك بالقلم وإحدى الأوراق بين يديه وبدأ يسأل:

«مم تشكو الفتاة؟».

توليتُ أنا شرح حالتها مجملاً... وأخبرتُه عن الجرح العميق في قدمها. الآن... يقف الطبيب ويقبل نحو سرير الفحص ويقول:

«بعد إذنك».

وقفتُ أنا دون حراك، بينما حاولتْ الممرضة إغلاق الستارة حول السرير... لتحول بيني وبينه... وبادرتْ الممرضة الأخرى بفتح الضماد مِنْ حول قدم رغد المصابة...

في هذه اللحظة هتفتْ رغد:

«وليد».

لم أتحرّك مِنْ مكاني، لا للأمام ولا للخلف... والممرضة تنظر إلي منتظره ابتعادي...

قال الطبيب:

«أأنتَ شقيقها؟».

قلتُ:

«تقريباً...، ابن عمّها».

ونظرتُ إلى رغد فقرأتُ على وجهها الفزع والتوسل...

قال الطبيب:

«استلقي يا آنسة».

والذي فعلتْه رغد هو أنها همّتْ بالنهوض... اقتربتُ أنا منها فأمسكتْ بذراعي... لأساعدها على النهوض...

قلتُ:

«رغد... استلقيَ صغيرتي».

لكنها أومأتْ برأسها اعتراضاً... قال الطبيب:
«ألا تريدين مني أنْ أفحصك؟».
رغد قفزتْ مِنْ السرير واقفة على قدميها، ثم صرختْ تألما...
قلتُ:
«اصعدي رجاءً... دعيهم يرون الجرح على الأقل».
لكنها عوضاً عن ذلك تشبثتْ بي أكثر وقالتْ:
«كلا».
التفتُ إلى الطبيب الواقف جوارنا ينظر باستغراب وقلتُ:
«إنها خجولة جداً».
ثم أضفتُ:
«ألا يوجد طبيبة امرأة؟».
«للأسف لا».
ثم تنحّى جانباً... وابتعد...
تحدّثتُ إلى رغد الواقفة على قدمها بألم وقلتُ:
«أرجوكِ، لندع الممرضة تعقّم الجرح».
وأفلحتُ في إقناعها. بعدما صعدتْ على السرير، وكشفتْ الممرضة عن الجرح... تأمّلتْه ثم قالتْ موجهةً الحديث إلى الطبيب:
«دكتور... إنه ملتهبٌ جداً».
الطبيب أقبل مِنْ جديد يريد إلقاء نظرة على الجرح فرفضتْ رغد ذلك ودلّت رجليها أسفلاً...
قال الطبيب يحدّث الممرضة:
«خرّاج؟».
«نعم يا دكتور... ملوّث جداً».
الكلمات أقلقتني... قلتُ مخاطباً رغد:
«دعيه يلقي نظرة... هيا رغد فنحن جئنا للعلاج...».
وخاطبتُ الطبيب:
«أرجوكم طهّروه واعتنوا به كما يجب».
بصعوبة سمحتْ رغد للطبيب بإلقاء نظرة عن كثب على الجرح... وما أنْ رآه حتى قال:
«بحاجة إلى تنظيف جراحي».
قلتُ قلقاً:
«تنظيف جراحي؟؟».
«نعم، في غرفة العمليات الصغرى... ولا بد مِنْ أدوية قوية لأنّ الجرح ملتهبٌ للغاية».

الخوف تملّكني أنا ربما أكثر مِنْ رغد المذعورة بين يدي...
رغد... جرح... التهاب... عملية... أدوية...؟؟ ألطف يا رب...
قلتُ:
«ماذا علينا فعله؟؟».
«ننقلها إلى غرفة العمليات الصغرى الآن، وتحت المخدّر الموضعي يقوم الجراح بتنظيف الجرح وتعقيمه...».
نظرتُ إلى رغد... والرفض الصارخ منْ عينيها... فقلتُ:
«رغد».
ولم أتم، إذ أنها هتفتْ فجأة مقاطعة:
«كلاّ!».
واجهتُ وقتاً عصيباً مع هذه الفتاة حتى وصلنا إلى غرفة العمليات المعنية، وخرقتُ القوانين بدخولي رغم عدم السماح بذلك...
ورغم المخدّر الموضعي الذي حُقنتْ به، إلا أنها تألّمَتْ بشدة وصرختْ مراراً...
أنظر إليها وأتألّم معها...
وأتمنّى... لو أنَّ الجرح كان في قدمي أنا... في قدميّ الاثنتين... في كل جسدي... يقطعني ويحرقني ويكويني... ولا أنْ يصيب خدشٌ واحد حتى أحد أظافر قدمها...
كم كنتُ قاسيا يوم جعلتها تركض حافية القدمين وعرّضتها لكل هذا...
أما كان باستطاعتي حملها طوال المشوار؟؟ أأعجز عن رفع صغيرتي عن أذى الأرض... وهي التي تربّت متعلقة بعنقي؟؟
ما ينفعني الندم الآن... وقد سمحتُ للآهة بالانطلاق مِنْ صدرها... وللدموع بالانسكاب مِنْ محجريها... وللألم باعتصار قدمها وتعذيبها كل هذا الوقت...
يا رغد...
إنك إنْ تصرخي مرّة تصرخ شرايين قلبي ألف مرّة... وإنْ تبكي دمعة يبكي قلبي بحراً مِنْ الدم... وإنْ تتلوّي ألماً فإنَّ أحشائي في داخلي تتمزّق إرباً إرباً...
وإنْ تغرسي أظافركِ في بدني فأنا مغروسٌ في حبّك بعمق طبقات الأرض كلها...
في نهاية الأمر اضطرّ الطبيب لحقنها بمخدر منوّم... ثوانٍ وإذا بي أشعر بأظافرها تخرج منْ جسدي... وقبضتها تخف الضغط علي... وعضلاتها ترتخي... وشيئاً فشيئاً تسقط يديها على جانبيها ويترنح رأسها للأسفل...
أسندتُ رأس صغيرتي إلى الوسادة... وتأمّلتُ وجهها ببقايا مِنْ القلق... كانتْ هناك دمعتان معلّقتان على خدّيها... آخر السيل... مددتُ يدي ومسحتُهما...
وظللتُ أراقب الطبيب ومَنْ معه وهم يعقّمون الجرح... وحالما فرغوا قال الجرّاح:
«أنصح بنقلها إلى مستشفى حيث يتم إدخالها وإعطائها الجرعات اللازمة مِنْ الأدوية

الوريدية لفترةٍ مِنْ الزمن».

قلتُ:

«لِمَ يا دكتور؟ هل التهاب قدمها خطيرٌ لهذا الحد؟؟».

«الجرح ملتهبٌ بشكلٍ سيِّئ... نحن نظّفناه وعقّمناه جيداً وحقناها بمضادات السموم ولكنها بحاجة إلى أدوية أخرى لإتمام العلاج».

فيما بعد، نُقلتْ رغد إلى غرفة للملاحظة... فإضافة إلى جرحها الملتهب، هي مصابة بالجفاف.

كانتْ غرفة صغيرة حاوية على سريرين تفصل بينهما ستارة قماشية.

لم تحس رغد بالدنيا مِنْ حولها مذ حُقنتْ بالمخدر... وضعناها على السرير واستبدلتْ الممرضة قارورة السائل الوريدي الفارغة بقارورة أخرى أكبر حجماً... ثم انصرف الجميع تاركينها نائمة وأنا جالس على مقعد إلى جوارها...

كانتْ هادئة جداً... وغارقة في النوم لأبعد الحدود... كطفلٍ بريء... رؤيتها هكذا قلّبتْ في رأسي ذكريات الماضي... ذكريات صغيرتي الحبيبة...

كم وكم مِنْ المرات... كنتُ أتسلّل خلسةً إلى غرفة طفلتي ألقي عليها نظرةً وهي نائمةٌ بسلام... وأحياناً أجلس بقربها... وأداعب خصلات شعرها الأملس... وفي أحيانٍ أخرى... كنتُ أطبع قبلةً خفيفة على جبينها وأهمس في أذنها:

(«أحلاماً سعيدة صغيرتي»).

لم أحتمل ألم هذه الذكرى...

فاضتْ دمعاتي رغماً عنّي... شاقة طريقها النهائي إلى الموت... لو كان الزمان يعود للوراء عشر سنين فقط... عشر سنين فقط... لكنتُ اقتربتُ مِنْ صغيرتي النائمة على هذا السرير... وأخذتُها بين ذراعي... وضممتُها إلى صدري بقوة... بقوة... أواسيها... أشجّعها... أُشعِرها بالأمان والطمأنينة... والحنان والحب... بالدفء والحرارة...

آه لو يرجع الزمان للوراء...

آه لو يرجع...

وفيما أنا في نوبة الذكرى هذه، طُرِق الباب ثم أقبلتْ إحدى الممرضات تقول:

«معذرةً هل اسمك السيد وليد شاكر؟؟».

هببتُ واقفاً مجيباً:

«نعم».

«هناك رجلٌ عجوز يسأل عنك في الخارج».

وتذكّرتُ لحظتها إلياس واتفاقي معه!

خرجتُ معها فرأيتُ العم إلياس يقف عند الممر... ما أنْ رآني حتى بادر بسؤالي عن حال قريبتي...

«الحمد لله... ستتحسّن».

«هل تحتاج للبقاء هنا؟».

«أنا آسف لأنني عطّلتُ مشاغلكَ يا عمّي، إنها تتلقّى مصلاً وريدياً الآن... وقد يطول هذا لساعة أو ربما أكثر...».

«لا بأس عليكم. أهناك ما تودُّ مني فعله يا بنيَّ؟؟».

«شكراً لكَ عمّاه، فعلتَ الكثير... أرجوكَ أنهِ مشاغلكَ وأنا سأبقى معها لحين تحسّنها... سأستقل سيارة أجرة أو أتصل بكم حين فراغنا».

وعلى هذا افترقنا. عمدتُ إلى هاتف وجدتُه أمامي فاتصلتُ بمنزل نديم واطمأننتُ على دانة، والتي كما أُخبِرتُ كانتْ لا تزال نائمة!

عدتُ مِنْ ثمَّ إلى صغيرتي فوجدتها كما تركتها، نائمة كالملاك... غير أنها رفعتْ ذراعها فوق الوسادة، في وضع اعتقدتُ أنه يعيق جريان السائل الوريدي إلى عروقها...

لذا اقتربتُ منها وبهدوء حرّكتُ يدها لأمد ذراعها إلى جنبها...

في هذه اللحظة فتحتْ رغد عينها نصف فتحة... فوقعتُ في أمري وتسارعتْ ضربات قلبي... دافعة الدماء إلى وجهي بعنف وغزارة!

تركتُ يدها تنزلق مِنْ بين أصابعي خجلاً...

رغد قالتْ بصوت خفيف غير طبيعي:

«وليد... أنتَ لم تُضيّع السلسلة أليس كذلك؟؟».

لم استوعب ما قالتْ... قلتُ:

«عفواً؟».

لكن رغد أغمضتْ عينيها وبدتْ غارقةً في النوم!

«رغد...؟؟».

لم تجبني... ما جعلني استنتج أنها ربما كانتْ تحلم... وأنها لم تكن واعية... وأنها لن تتذكّر هذا!!

الحمد لله!

عدتُ إلى مقعدي المجاور... مرّتْ الدقيقة بعد الأخرى... شعرتُ بالإعياء وعاودتني الأوجاع الجسدية التي تجاهلتها منذ نهوضي على صوت رغد هذا الصباح... وغزاني النعاس...

والنوم سلطان على مَنْ لا سلطان عليه!

- رغد -

كأنني أحلّق في عالم جميل... أطير فوق السحاب... في قمة الراحة والاسترخاء... لا ألم... لا ضيق... لا شيء سوى شعور بالدغدغة في داخلي!

فتحتُ عينيّ كي أرى الجنة التي أحسُّ بنفسي أنعم فيها... فرأيتُ جنّةً مختلفةً لا تتفق

والشعور الجميل الذي أحسّه...

أنام على سرير أبيض الألحفة... تحيط بي الستائر البيضاء... وتتدلّى قارورةٌ ما مِنْ أعلى عمودٍ ما... موصولة بأنبوب طويل ينتهي طرفه الثاني داخل وريدي!

جلستُ بسرعة أتلفّتُ مِنْ حولي... إنني في المستشفى راقدة على سرير المرض!

متى وصلتُ إلى هنا؟؟ كيف وصلتُ إلى هنا؟؟

أين وليد؟؟

أصابني الروع، دفعتُ باللحاف بعيداً عني وقفزتُ مِنْ على السرير... وطأتُ الأرض مرتكزةً على قدمي المصابة، فشعرتُ ببعض الألم...

جررتُ ذلك العمود الحديدي ذا العجلات معي وسرتُ خطوة وأنا حافية، وفتحتُ الستارة... كنتُ أتوقع رؤية وليد خلفها... لكنه لم يكن هناك...

تزايدتْ خفقات قلبي وتزاحمتْ أنفاسي وهي تعبر مجرى هوائي...

توجهتُ إلى الباب مسرعة وفتحتُه... فكشف أمامي ما خلفه... ممر... غرف... انعطافات... أناس يمشون إلى اليمين، وأناس إلى الشمال... وممرضة تقف في الجوار... تنظر إليَّ... وتتحدّث إلى طبيب ما... وآخرون يقفون على مبعدة... أناس كُثر... كُثُر... إلا أنَّ وليد ليس مِنْ بينهم...

كدتُ أنهار... كدتُ أصرخ... لكنَ الشهقة التي انحشرتْ داخل صدري حُبِست عن الخروج...

الممرضة والطبيب الآن يقتربان نحوي... أنا أتراجع... داخل الغرفة... يصلان عند الباب ويوشكان على الدخول... تبتسم الممرضة وتقول:

«هل أنتِ أفضل حالاً الآن؟؟».

يسأل الطبيب:

«كيف تشعرين؟».

أنا أنظر إليهما بذعر... يداي ترتعشان... ورجلاي أيضاً... أتعثّر وأقع أرضاً... وينشدُّ الأنبوب الموصل بوريدي خارجاً مِنْ يدي... ويترنّح في الهواء راشاً السائل مِنْ حولي...

الممرضة تنحني مادّةً يدها إليَّ... أنا أصدّها وأجزرها:

«ابتعدا عني».

يتبادلان النظرات... هي والطبيب ثم يقولان معاً:

«أأنتِ بخير؟».

أنا أهتف مستغيثة:

«وليد... وليد».

يتبادلان النظرات، ثم تقول الممرضة وهي تشير بيدها نحو الستارة:

«قريبكِ هناك!».

التفتُ نحو ما أشارتْ إليه، السرير الثاني في الغرفة وشبه المحجوب بالستارة...

أنظر إليها، ثم أحاول النهوض... تحاول هي مساعدتي فأعترض:

«لا».

أهبّ واقفةً مسرعةً نحو الستارة... أمسك بها وأفتحها باندفاع... فتقع عيناي على وليد وهو نائمٌ فوق السرير...

«وليد!».

اقتربتُ منه أكثر وأكثر... وهتفتُ:

«وليد...».

وليد لم يفق، أمسكتُ بكتفه وهززتُه وأنا أناديه لأوقظه... وليد انتبه أخيراً وفتح عينيه ونظر إليّ...

الذعر كان محفوراً على وجهي ما جعل وليد يجلس بسرعة متوتراً ويقول:

«صغيرتي ماذا جرى؟».

التصقتُ بذراعه وأنا ألتقط أنفاسي المذعورة... وهتفتُ بوجهه:

«لماذا تركتني وحدي؟».

وأضفتُ:

«لماذا وليد؟ إنهم يريدون إيذائي... لماذا تتركني وحدي؟».

وليد أمسك بيدي وحاول تهدئتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، صغيرتي أنا هنا معكِ».

صحتُ:

«لماذا تركتني وحدي؟».

«أنا هنا رغد... معكِ! غلبني النعاس فنمتُ على هذا السرير... لا تفزعي أرجوكِ».

قلتُ:

«تركتَني مع الغرباء... أنا أفزع منهم... متى تدرك ذلك؟ متى؟؟».

وليد جعلني أجلس على السرير... ووقف هو أمامي يردّد عبارات الأسف والتهدئة والطمأنة... كل هذا والطبيب والممرضة لا يزالان واقفين مندهشين في مكانيهما...

بعدما سكن قلبي مِنْ روعه واستردتُ طمأنة نفسي... سألني وليد:

«أتشعرين بتحسّن؟».

«نعم».

وليد نظر إلى الساعة المعلّقة على الحائط المقابل، وكانتْ تشير إلى الحادية عشرة والنصف...

ثمّ وجّه خطابه إلى الطبيب قائلاً:

«أيمكننا الانصراف الآن؟».

قال الطبيب:

«نعم، سأكتب للمريضة وصفة أدوية، إلا أنني أفضّل نقلها للمستشفى».
وليد نظر إليّ... ثمّ إلى الطبيب وقال:
«لا يمكننا ذلك».
«أحضرها لتطهير الجرح يومياً إذن».
ثم غادرنا المكان...
في الواقع، لم يكن يفصل بين السريرين في تلك الغرفة سوى ستارة مشتركة، وبضع أقدام...
عدنا إلى منزل صديق وليد في نفس السيارة التي قدمنا فيها... الرجل العجوز أوصلنا وغادر...
حين دخلنا إلى هناك، وعلى نفس المقاعد التي كنّا نجلس عليها البارحة رأيتُ دانة جالسةً مع السيدة الصغرى، بينما الأخرى تستقبلنا وترحّب بعودتنا...
وقفتْ دانة والفتاة لدى رؤيتنا... دانة كانتْ ترتدي عباءة أشبه بالعباءة التي أجرّها حول قدمي!
قالتْ السيدة الكبرى:
«تفضّلا».
أقبلنا نحو المقاعد وتبادلنا التحيّات، ثم تقدّمتْ دانة منّي وهي تقول بقلق:
«أأنتِ على ما يرام؟».
أجبتُ بهدوء:
«نعم».
لقد كان القلق الشديد ظاهراً على وجهها... وهذا ما أدهشني، فهي المرة الأولى التي أشعر فيها بقلق دانة عليّ!
تحدّثتْ الفتاة الآن قائلة:
«سلامتكِ يا رغد».
ألقيتُ عليها نظرة حاوية لشيء مِنْ الاستغراب... فابتسمتْ هي وقالتْ:
«اسمكِ جميل».
تأمّلتُها بعمق... وحدّثتُ نفسي... («بل أنتِ الجميلة! ما أشدّ جمال هذه الفتاة «!).
قلتُ:
«شكراً لكِ...».
قال وليد مؤكّداً:
«شكراً لكم جميعاً».
قالتْ السيدة الأخرى:
«لا شكر على واجب أيها الأعزّة، فلتتفضلوا بالجلوس».

وجلستُ قرب دانة... والتي قالتْ مخاطبةً وليد:

«اتصلتُ بوالديّ وبسامر ونوّار قبل قليل، الجميع بخير... لن يُسمح لأبويّ بدخول البلاد لحين مِنْ الزمن».

وليد قال بارتياح:

«هذا أفضل، ليبقيا بعيداً آمنين...».

وكان المسافرون قد مُنِعوا مِنْ دخول البلدة وأُلغيتْ الرحلات القادمة إليها... كما علمنا مِنْ النشرة الإخبارية عبر مذياع السيارة.

أضافتْ دانة:

«لكن سامر في طريقه إلينا».

توتّر وليد وقال:

«مجنون... أمرتُه بأنْ يلزم مكانه لحين استقرار الأمور... لماذا يعرّض نفسه للخطر الآن؟؟».

قالتْ دانة:

«فليحفظه الله... يا رب».

حلَّ الصمت علينا برهة، ثم قالتْ السيدة الكبرى:

«سيكون كل شيء بخير إنْ شاء الله».

ثم التفتتْ إلى الفتاة وقالتْ:

«أعدّي المائدة الآن بنيّتي واستدعي خالك».

وقفتْ الفتاة وهي تقول:

«في الحال أمّي».

وهمّتْ بالذهاب...

وليد قال:

«أعتقد أنَّ العم إلياس قد ذهب إلى المسجد، فهذا ما قاله ونحن في طريقنا إلى هنا».

قالتْ السيدة:

«هل تحب أنْ تنتظره أم...؟».

قال وليد:

«نعم، في الواقع سأذهب لأصلّي أنا أيضاً».

قلتُ بسرعة:

«وليد؟؟».

أتمَّ جملته:

«في الغرفة...».

وقف وليد، فوقفتُ معه... ووقفتْ دانة والسيدة أيضاً... ثمَّ نطق بعبارات الشكر والاستئذان وهمّ بالانصراف...

قالتْ الفتاة الجميلة مخاطبة إياي:

«لقد وضعتُ بعض الملابس في الخزانة لأجلكِ».

والتفتتْ إلى وليد وقالتْ:

«خالي أيضاً ترك بعضها لك يا سيّد وليد».

وليد قال:

«نحن ممتنون لكم... شكراً آنسة أروى».

ثم التفتَ إلينا أنا ودانة قائلاً:

«أتأتيان؟».

دانة تحركتْ مباشرة وسارتْ نحو وليد الذي سار بدوره نحو الباب... أما أنا فبقيتُ محدّقة في الفتاة الحسناء برهة!

(أروى)؟؟

أروى...

ألمْ أسمع بهذا الاسم على لسان وليد قبل أيام!؟

بلى سمعتُه...

إنها الفتاة التي اتصل بها وليد هاتفياً ليبارك لها يوم العيد!

إذن... فـ (أروى) تلك ليستْ طفلة كما ظننتُ...! إنها فتاة راشدة تكبرني سناً...

فتاة أقل ما يمكن أنْ توصف به هو أنها... فلقة قمر!!

الحلقة السابعة والعشرون

وانكشف الستار

- وليد -

كنتُ أجلس على السرير الوحيد في تلك الغرفة الصغيرة، بعدما فرغتُ مِنْ استحمامي وصلاتي، أمسك بيدي محفظتي وأعدُّ نقودي...

ليس لديَّ سوى مبلغٍ ضئيل لا يكفي لتوفير مأوى آخر أو طعام لنا ولفترة لا يعلم بها إلا الله...

أشعر بخجلٍ شديد مِنْ نفسي إذ جئتُ بعائلتي إلى هنا، ورغم أنَّ عائلة نديم هي عائلةٌ طيّبة كريمة لأبعد الحدود إلا أنَّ وجودنا لا يجب أنْ يطول...

عليَّ التصرف بشكلٍ مِنْ الأشكال...

دانة واقفة أمام المرآة، ثمّ تلتفتُ إليَّ وتراقبني دون أنْ اهتم لها، ثمّ تسألني بقلق:

«ماذا سنفعل؟؟».

أفكّر بعمق، وبصمت... وفي عجز عن إيجاد حلٍ منْاسب... فقد احترق بيتنا بما حوى... ونحن الآن مشرّدون وحفاة معدمون...

تكرّر دانة سؤالها:

«وليد ماذا سنفعل؟؟».

ارفع بصري إليها، وأرفع حاجبيّ وأقوّس فمي للأسفل... ماذا سنفعل؟؟ رغد كانتْ في دورة المياه...

اقتربتْ منّي دانة وقالتْ:

«نوّار وعائلته سيغادرون البلدة».

وصمتتْ... وظلّتْ تراقبيني قليلاً ثمّ قالتْ:

«ويريدون أخذي معهم».

تغيّرتْ تعبيرات وجهي وقلتُ باضطراب:

«ماذا؟؟».

«إنه نوّار... يريد أنْ... يبعدني عن البلدة والخطر...».

«والزفاف؟؟».

تنهّدتْ دانة وقالتْ:

«الزفاف؟؟ احترق مع فستانه!».

ثمّ أخذتْ تبكي...

ويحقُّ لها أنْ تبكي بمرارة... وهي العروس التي كانتْ تعدُّ لزفافها المرتقب بعد أيام فقط...

شعرتُ بقهر وغيظ في داخلي فوقفتُ وأحطتُها بذراعيّ محاولاً مواساتها...

بعد قليل قالتْ:

«دعنا نسافر نحن أيضاً».

«إلى أين؟ كيف؟ الرحلات محظورة».

«سيسافرون للمدينة المجاورة بالسيارة، ثمّ يطيرون إلى بلد بعيد وآمِن... دعنا ننضمُّ إليهم وليد».

«كيف يا دانة كيف؟؟ إننا حتى لا نملك جوازات سفر أو بطاقات شخصية! لا أنتِ ولا رغد على الأقل».

وهنا سمعنا صوت المفتاح يُدار في باب دورة المياه... فأسرعتُ أنا بالخروج مِنْ الغرفة لأدع المجال لرغد للتصرف دون حرج...

في الخارج صادفتُ الآنسة أروى مقبلةً نحو الغرفة... قالتْ:

«مرحباً».

«مرحباً سيدتي».

«لقد أعددنا المائدة... هل لا استدعيتَ الفتاتين؟».

«شكراً».

«وخالي ينتظرك أيضاً في المجلس».

«لا نعرف كيف نفيكم حق الشكر؟».

«لِمَ عليك تكرير ذلك يا سيّد وليد؟؟ بل نحن مَنْ يتوجب علينا شكرك... لقد قدّمت لنا الكثير مِنْ المساعدات طوال عدّة أسابيع! أنتَ شخصٌ نبيل الخلق وتستحق التكريم».

شعرتُ بالخجل مِنْ كلماتها وكلامها معي... خفضتُ بصري حرجاً نحو الأرض... وحرتُ... ماذا عليّ أنْ أقول؟؟

هنا فُتِح باب الغرفة وظهرتْ منْه رغد...

رغد وقفتْ تنظر إليّ برهة في صمت، ثمّ تنظر إلى الآنسة أروى. الأخيرة ابتسمتْ وقالتْ:

«كيف حالك الآن يا رغد؟؟».

«بخير... شكراً لكِ على كل شيء».

قالتْ أروى:

«لا داع للشكر أرجوكِ. المائدة جاهزة... أين أختكِ؟».

قالتْ رغد:

«دانة أخت وليد... ابن عمّي».

ولم أجدْ الرد منْاسباً للسؤال! قالتْ أروى:

«نعم أعرف! ولكنها كانتْ تتحدّثُ عنكِ بوصف أختي!».

ظهرتْ دانة الآن مِنْ خلف رغد... فحيّتْها أروى وكرّرتْ دعوتنا إلى المائدة...

ذهبنا إلى المنْزل، أنا والعم إلياس في المجلس، والنسوة في غرفة المائدة، وتناولنا وجبة شهية مغذية بعد طول الجوع والعطش...

بعد ذلك تحدّثتُ وإلياس سارداً ما حصل لنا بشيء مِنْ التفصيل... فأبدى تعاطفه الشديد ورحّب ببقائنا في ضيافته إلى أنْ نجد حلاً آخر... وأنا وعدتُه بأنْ أبدأ العمل في المزرعة منْذ اليوم...

ورغم اعتراضه، ألا أنني أصررتُ على ذلك ونفّذتُه.

كان ذلك بعد الغذاء بثلاث ساعات... تركتُ الفتاتين نائمتين في الغرفة، تعوّضان حرمانهما السابق مِنْ النوم، وخرجتُ إلى ساحة المزرعة وباشرتُ العمل...

كانتْ هناك شتلات شجيرات صغيرة جديدة مطلوب غرسها في الأرض... وتوليتُ أنا هذه المهمة...

أحفر الأرض، وأغرس الشجيرات، وأسوي التراب...

العم إلياس وكذلك أروى كانا أيضا يعملان مِنْ حولي...

كنتُ أشعر بالتعب والإعياء فأنا لم أنلْ قِسطي الوافي مِنْ النوم والراحة بعد، إلا أنني لمْ أطق تأجيل العمل إلى الغد...

الآنسة أروى كانتْ تساعدني... وتتحدّث معي مِنْ حين لآخر...

إنها فتاة جريئة بالفعل!

فيما أنا جاثٍ على الأرض أغرس إحدى الشجيرات في الأرض وأهيل عليها التراب... وهي واقفةٌ قربي وممسكةٌ بالطرف العلوي لتلك الشجيرة... سمعتُها تقول:

«أهلاً رغد!».

رفعتُ رأسي إليها فرأيتُها تنظر في اتجاه معيّن...

التفتُ إلى ذلك الاتجاه فرأيتُ رغد واقفةً تنظر إليّ... ولمْ تكن تعبيرات وجهها مريحة... البتّة.

وقفتُ ببطء... ونفضتُ يدي وثيابي مما علق بها مِنْ التراب... ثمّ قلتُ:

«أهلاً صغيرتي...».

النظرات التي رشقتْني بها رغد جعلتْني انصهر حرجاً... وأهرب ببصري بعيداً عنها...

كانتْ مذهولةً مصعوقة... تحدّق بي بدهشةٍ لا تضاهيها دهشة...

آلمتني نظراتها وغرستْ في صدري ألف خنجر... لم أجرؤ على إعادة بصري إليها مِنْ جديد...

سألتْ بدهشة:

«وليد... ماذا تفعل؟؟».

ماذا أفعل؟؟ ماذا أفعل يا رغد؟؟

ألا ترين؟؟

أزرع الأرض... ألوّثُ يدي وملابسي وجسدي بالأتربة والسماد... والوحل أيضاً...

نعم... أجثو على الأرض ضئيلاً منْخفضاً وضيع الشأن... بسيط الحال... محني الهامة... عوضاً عن علو السماء... والمركز... والمنْصب...

احتقرتُ نفسي لحظتها أيما احتقار... وتمنّيتُ لو أنني دفنتُ جسدي عوضاً عن الأشجار...

ماذا تظنين يا رغد؟؟

أنني أصبحتُ شخصاً مرموقاً عالي الشأن؟ هذه هي حقيقتي... مجرّد مزارع بسيط يعمل بجد فقط مِنْ أجل وجبة طعام ومأوى...

«وليد... ماذا تفعل؟؟».

أجبرتُ عيني على النظر إليها، فهالني ما رأيتُ على وجهها...

أرجوكِ كفى يا رغد... أنتِ تذبحينني... كفى... كفى...

اعترفتُ بخجل:

«أفلح الأرض... فهذا هو عملي منْذ زمنْ».

ولن أصف لكم كيف تحوّل وجه رغد إلى غابة ذهول مخيفة...

مَنْ منْكم جرّب هذا؟؟ دعوه يصف لكم إذنْ ما أعجز أنا عن التعبير عنه...

رغد تراجعتْ للوراء... ربما لتبتعد عن صفعة الواقع الذي تكتشفه للمرة الأولى...

سارتْ إلى الوراء بعرج... وعيناها المفتوحتان أوسعهما لا تزالان ترميان خناجر الذبح نحو جسدي... مِنْ أعلاه إلى أسفله...

وفيما هي تسير إلى الوراء بهذا الذهول وأنا ساكنٌ في مكاني، رأيتُ العمَّ إلياس يقبل مِنْ ناحيتها ويشير إليّ بيده مخاطباً الرجل الذي يسير معه:

«هذا هو شقيقك!».

- رغد -

لدى سماعي صوت الرجل العجوز قادماً مِنْ خلفي، التفتُ إلى الوراء بسرعة، فرأيتُ سامر يقف أمام عيني...

شهقتُ:

«سامر!».

«رغد!».

وأسرع نحوي وجذبني إلى صدره بقوّة وعانقني بحرارةٍ شديدة...

«أوه رغد يا حبيبتي... لا أصدّق عيني... الحمد لله... الحمد لله... أنتِ حيّة؟؟ شكراً لكَ يا رب... شكراً لكَ يا رب».

وأخذ يضمّني ويقبّل يديّ ورأسي بلهفة... لم أعهدها عليه مِنْ ذي قبل...

لكنّي اكتسبتُ منه الشعور بالأمان والانتماء والألفة... بعد طول الشعور بالفزع والغربة والوحشة...

فاسترخيتُ بين ذراعيه... طالبةً الحماية مِنَ الصدمة المرعبة التي تجثو هناك على الرمال...

«آه سامر!! كدنا نموت... نجونا بأعجوبة!... لا أصدّق أننا لا نزال أحياء».

أقول ذلك وأتذكّر ما مررنا به، فأدفن رأسي في صدره وأغلق حصار ذراعي حول جدعه... وأحاول أنْ أنفض بعيداً صور الدمار... وصور الضياع... وصورة وليد الأخيرة هذه...

بعدما فرغ سامر مِنْ نوبة الشوق هذه، حررني مِنْ بين ذراعيه والتفتَ إلى وليد... وناداه بلهفة:

«وليد...».

أقبل الأخير إليه وفتح كل منْهما ذراعيه للآخر وتعانقا بحمية...

سامر بملابسه الأنيقة وهندامه المرتب النظيف، وعطره الزكي الفواح، ووليد بلباسه الرث الملوّث... ويديه المتسختين بحبيبات الرمال...

الناظر إليهما يجد فرقاً كبيراً...

غير ذاك الفرق الذي رأيتُه بينهما... في منزلنا... في الفناء... في ذلك اليوم...

كان لقاء دانة بسامر دراميا...

دانة تحبُّ سامر أكثر مِنْ وليد... السبب في ذلك أنَّ وليد غاب عنا لسنين... سنين لا أعرف أين كان فيها ولا ما عمل؟؟

إذا كانتْ الحقيقة التي أراها أمام عيني... هي حقيقة رجلٍ يعمل في فلاحة الأرض!

بعد فترة، كنا نحن الأربعة في تلك الغرفة...

وليد لم يتحدّث إليّ بل لمْ ينظر إليّ مذ رأيتُه يغرس الشجرة قبل ساعات... وأنا بدوري تحاشيتُه... وركّزتُ اهتمامي على سامر وما يقوله...

«سنذهب إلى شقّتي حالياً، ولسوف أستأجر شقّة أكبر حجماً تسِعُنا نحن والدينا مباشرةً».

كانتْ هذه فكرته، ودانة رحّبتْ بها بشدّة:

«إذنْ هيا بنا الآن».

قالتْ ذلك، إلا أنَّ وليد قال:

«اصبروا قليلاً... إنّه المساء ولا يصلح للسفر... كما أنَّ المسافة ليستْ بالقصيرة ولا بد وأنّك متعبٌ الآن يا سامر».

ردّ سامر:

«مطلقاً، رؤيتكم سالمين أزالتْ عني أي أثر للتعب...».
ثمّ نظر نحوي وقال:
«ألف حمدٍ لله على نجاتكم أيها الأحبة».
قال وليد مؤكداً:
«كما أنّ الطريق غير آمنْ... ولم يكن يجدر بكَ الحضور يا سامر وتعريض نفسك للخطر».
قال سامر:
«وهل تعتقد أنّه كان باستطاعتي البقاء هكذا؟؟».
قال وليد:
«على كلٍ... سنبقى هنا الليلة».
قال سامر، بعدما جال ببصره في أنحاء الغرفة بشيء مِنْ الاستهانة والازدراء وأشار إلى الأرض:
«هنا؟؟».
قال وليد:
«معذرة فأنا لمْ أملك مِنْ النقود ما يكفي لاستئجار شقّة».
قال سامر بثقة:
«لا تقلق بهذا الشأن...».
قالتْ دانة:
«إذنْ لِمَ لا نعجّل الخروج؟ هيا سامر دعنا نبحث عن شقة مناسبة».
جميعنا ننظر إلى وليد والذي يظهر استياء في غير محله!
أليس مِنْ الطبيعي أنْ نغادر هذا المكان شاكرين للعائلة كرم ضيافتهم؟؟
قال وليد أخيراً:
«كما تشاءون».
ومِنْ ثمّ غادر الغرفة...
أخذنا نحن الثلاثة نتحدّث عمّا مررنا به... وعمّا نحن مقبلون عليه... في الحقيقة، التزمتُ أنا جانب الصمت والاستماع معظم الوقت... فتفكيري كان قد خرج مع وليد لحظة خروجه...
رؤيته بالشكل الذي رأيتُه عليه صدمتْني كثيراً...
وليد... ذلك العملاق الضخم... الذي أرفع رأسي عالياً إذا نظرتُ إليه... الذي أشعر به سمائي... ونجمتي... وشمسي... وجبلي أيضاً... أراه جاثياً على التراب يحفر الأرض... ويغرس الشجر... ويلوّث يديه بالطين!؟
وليد؟؟
لطالما كنتُ أراه عظيماً عالياً مشرّفاً... شيئاً معلقاً في السماء...
أمّا أنْ تغوصَ يداه في الأرض... فهذا أشبه بالكابوس الذي مررتُ به يوم القصف...

فيما نحن كذلك رنَّ هاتف سامر المحمول، فتحدَّث إلى الطرف الآخر... ومِنْ حديثه معه استنتجتُ أنَّه صديق وليد (سيف).

أراد سامر أخذ الهاتف إلى وليد، فلمَّا غادر الغرفة غادرتُ مِنْ بعده...

كان الظلام قد بدأ بالحلول... وما أنْ فتحنا الباب حتى تدفَّقتْ أنسام عَطِرة مُنْعشة قادمةً مِنْ بين الأشجار والزهور الفواحة...

لحظتها فقط انتبهتُ إلى جمال المكان الذي كنا فيه... كجمال أصحابه... شكلاً وفعلاً!

في الخارج، في الساحة الواسعة أمام المنْزل، رأينا أفراد العائلة المضيفة يجلسون على بساطٍ أرضي، ووليد معهم...

الإنارة كانتْ خفيفةً صفراء مُنْبعثة مِنْ مصباح المنْزل الخارجي...

كان الرجل العجوز يجلس إلى جانب وليد ويمسك في يده سلة سعفية نصف مكتملة الصنع، ويظهر أنّه يشرح لوليد كيف يصنع مثلها...

وإلى الجانب الآخر مِنْ وليد تجلس الفتاة الحسناء... تصنع سلة أخرى هي بدورها... وتلقي بالملاحظات على الاثنين، أمّا أمّها فكانتْ منْشغلةً بتكسير بعض الثمّار الصلبة، واستخراج بذورها...

تنحنح سامر فالتفتوا نحونا... وقف وليد وأقبل إلينا... مدَّ سامر الهاتف نحوه وقال:

«صديقك الحميم يودُّ الاطمئنان عليك».

«سيف؟».

«نعم! اتصل عدَّة مرات نهاراً...».

أخذ وليد الهاتف وتحدَّث مع صديقه محادثة استمرَّتْ عدَّة دقائق... وحالما انتهى وأعاد الهاتف إلى سامر قال الأخير:

«فلنذهب الآن يا وليد...».

وليد التفتَ ناحية العائلة وقال:

«سأشكرهم وأودّعهم...».

نحن الثلاثة أقبلنا إليهم فوقفوا... وبدأ وليد يكّرر عبارات الشكر والامتنان، وهم يعبّرون عن سرورهم باستضافتنا بل ويصرّون على بقائنا حتى الصباح...

قالتْ أروى:

«إذن لن تبقى معنا؟؟ ألن تعود إلينا؟».

وكان ظاهراً على وجهها الأسف...

وليد قال:

«بلى... سأعود حالما اطمئن على سير الأمور كما يجب...».

ثمَّ أضاف:

«أنتم عائلتي وهنا عملي».

أروى ابتسمتْ بسرور... أما أنا فشعرتُ بغصّة في حلقي...
قالتْ:
«مكانكَ محجوزٌ لكَ وغرفتكَ جاهزة فأهلاً بكَ في أيٍّ وقت».
شكرها وليد... ثمَّ استدار نحونا وقال:
«أننطلق؟».
قالتْ أروى:
«لحظة».
وذهبتْ إلى المنْزل وعادتْ تحمل كيساً قدّمتْه إلى وليد وهي تقول:
«ملابسكم... نظيفة ومطوية».
فتناول وليد الكيس مِنْ يدها وشكرها. كل هذا أمام عيني... ويشعرني بالغضب!
واضحٌ أنها معتادةٌ على وليد وتخاطبه وكأنّه أحد أقاربها، لا رجلاً غريباً...
لا يعجبني هذا أبداً...!!
بعد وداع العائلة، ذهبنا إلى شقّة في مبنى قريب وقضينا فيها ليلتنا تلك، وفي الصباح غادرنا المدينة متّجهين إلى مبنى شقة سامر...
طول تلك الفترة وأنا في حالة مِنْ الذهول... لم استفق منْها بعد...
ووليد لمْ يكن يكلّمنْي... بل إنّه كان يتحاشاني عن عمد... وكأنَّ شيئاً لم يكنْ...
استأجر سامر شقة أخرى متوسّطة الحجم في نفس المبنى الذي كان يقطنه... شقّة جمعتْنا نحن الأربعة تحت سقفٍ واحد...
والداي كانا يتّصلان مرّة أو مرّتين في اليوم بنا ليطمئنّا على أحوالنا، والحظر على دخول المسافرين إلى البلد استمر عدَّة أسابيع...
شُفِيَ الجرح الذي في قدمي شيئاً فشيئاً... وقد كان سامر يصطحبني كل يوم إلى المستشفى مِنْ أجل تطهيره...
كنتُ على اتصال مستمر بعائلة خالتي، والتي بقيتْ في المدينة تعيش على ما تبقّى مِنْ حطامها...
في أحد الأيام، جاءنا نوّار خطيب دانة، يطلب أخذ دانة معه إلى الخارج... حيث سيستقرُّ هو وعائلته عدَّة أشهر إلى أنْ تهدأ الأوضاع...
نوّار كان قد تحدّث بهذا الشأن إلى والدي والذي يبدو أنّه أيّد الفكرة مِنْ باب إبعاد دانة عن البلدة... كما أيّدها سامر وتحمّستْ لها دانة كثيراً، إلا أنَّ وليد كان معارضاً.
«كيف يا دانة؟ دون زفاف؟ دون عرس؟؟ دون وجود والديَّ؟؟».
«وهل تعتقد أنني سأعيد شراء كل ما احترق مِنْ جديد؟ دعونا نقيم حفلةً بسيطة خاصة بنا... أنا أريد أنْ أغادر هذه البلدة والتعاسة المخيّمة عليها».
«ووالداي؟؟».

«إنهما يؤيّدان الفكرة... وسوف نذهب إليهما أوّلاً ثمَّ نغادر».

«كلا... سننتظر حتى يسمح لهما بالعودة، ثمَّ نقيم حفلة عرسٍ متواضعة... لن ننقصَ مِنْ قدركِ أمام ذلك المغرور!».

حينما قال وليد ذلك، اغتاظتْ دانة وقالتْ بحدة:

«مَنْ هو المغرور؟».

لزم وليد الصمت، فقالتْ:

«لا أسمح لكَ بإهانةِ خطيبي! أي قدْر هذا الذي تتحدّث عنه؟؟ أ بعْد حطّتي في القدر باكتشاف حقيقةٍ مُخجلة مُخزية عنكَ أنتَ، تجرؤ على الحديث عن القدر!».

نشبتْ مشادّة حادّة بين الاثنين، وأنا وسامر نتفرّج بصمت...

قال وليد في معرضها:

«لن تفعلي ما يحلو لكِ... وأنا المسؤول عنكِ في غياب والدي شئتِ أمْ أبيتِ».

دانة ردتْ بحدّة:

«ومَنْ قال أنني أنتظر الإذن مِنْك أو أتشرّف بمسؤوليتكَ هذه؟؟ سأسافر مع نوّار... زوجي... يعني سأسافر معه... وأنتَ عُد مِنْ حيث أتيتَ فذلك أنسب لحالكَ ومثلكَ».

وليد رفع يده وكاد يصفعها، إلا أنّه توقّف في منْتصف الطريق... وكتم غيظه...

لمْ أتمالك أنا نفسي، فقلتُ غاضبة مِنْ دانة:

«ألا تحترمين شقيقكِ الأكبر؟!».

قالتْ:

«اخرسي أنتِ... إنّه شخصٌ لا يستحق ذلك الاحترام».

جميعنا ننظر إلى دانة بغضب... وهي تدور ببصرها حولنا... سامر نطق أخيرا وقال غاضباً:

«دانة! يكفي».

قالتْ:

«أجدر بكَ ألا تخشى على مشاعره! أنسيتَ ما فعل بكَ؟».

هتف وليد:

«دانة».

صرختْ هي:

«هيّا اضربني! كما ضربتَ سامر... أليس هذا ما يتعلمه المجرمون في السجون؟؟».

وليد أمسك بكتفي دانة وهزّها بعنف وهو يصرخ:

«يكفي... إياكِ وقول المزيد... أتفهمين؟؟ إنْ نطقتِ بحرفٍ بعد فسأقطع لسانكِ... أنا خارجٌ مِنْ حياتكِ (الملكيّة) هذه... فاهنئي بِمَنْ تريدين».

وحرّرها منْ بين يده وقال مخاطباً سامر:

«افعلوا ما تشاءون... فأنا لم يعدْ يهمّني مِنْ أمركم شيئاً».
ثمّ التفتَ إليّ ففزعتُ مِنْ نظرته المرعبة... وصاح هو:
«وهذه أيضاً... تزوّجها بالمرّة وخلّصوني مِنكم جميعاً...».
وأسرع خارجاً مِنْ الشقة...
مرّتْ الساعات ولمْ يعد... وانتصف الليل ولم يعدْ... قلقتُ كثيراً عليه... خرجتُ مِنْ غرفتي في قلق فإذا بي أرى سامر يجلس في الصالة أيضاً...
«ألَمْ تنم؟».
«أشعر بالأرق».
«هل عاد وليد؟».
«كلا».
«إلى أين ذهب؟».
«لا علم لي...».
«ربّما عاد للمزرعة!».
قلتُها وأنا أضع يدي على صدري خوفاً مِنْ أنْ تكون حقيقة...
سامر نهض واقفاً... واقترب منّي وقال:
«ما رأيكِ بما قال؟».
«ما ذا تعني؟؟».
أمسكَ بيدي وقال:
«بأنْ... نتزوّج نحن أيضاً...».
هنا احتقنتْ الدماء في وجهي واضطربتْ تعبيراته... رأى سامر الرفض على وجهي وقال:
«أرجوكِ... رغد...».
هويتُ بنظري أرضاً... لماذا يعود لفتح الموضوع الآن؟ وفي هذه الأوضاع بالذات؟
لماذا يا سامر لا تعتقني...؟؟
سامر رفع وجهي بيديه كلتيهما وقال بصوت شديد الدفء والحنان:
«كدتُ أجنُّ... لما حصل معكِ... لا أريد أنْ تفترقي عنّي لحظةً واحدة... أحبكِ بجنون».
أبعدتُ وجهي عنه واستدرتُ وأنا أقول:
«كفى... أرجوكَ... ليس هذا وقته».
لكنه حاصرني... وحاولتُ الفرار ولمْ يدع لي المجال...
«رغد... لماذا؟ بالله عليكِ أخبريني بصدق... لماذا؟».
أردتُ أنْ أعود إلى غرفتي إلا أنّه منعني... كان مُلحّاً على مواجهتي...
قُرِعَ الجرس الآن... لا بد أنّه وليد... فتح سامر الباب فإذا به وليد بالفعل...
كان وجهه حزيناً كئيباً مهموماً... منْظره يثير القلق والحيرة... لَمْ يتكلّم... نظر إلينا برهة،

ثمَّ ذهب إلى غرفته...

ثوانٍ وإذا به يخرج ثانيةً، ممسكاً بمحفظته ومفاتيحه...

وسار نحو الباب...

سامر استوقفه سائلاً:

«إلى أين... وليد؟».

استدار وليد إلى سامر وقال بنبرة نامّة عن الحزن والاستسلام:

«إلى المزرعة».

دُهِشنا واشرأبَّ عنقانا عجباً...

قال سامر:

«ماذا؟؟».

قال وليد:

«فقد انتهى دوري».

وفتح الباب وهمّ بالخروج...

أسرع سامر إليه وأوقفه:

«وليد! هل تعني ما تقول؟؟ إلى المزرعة في هذا الوقت؟؟».

استدار إليه وقال:

«نعم، فهي المكان الذي يناسب أمثالي».

وخرج...

ورغم نداءات سامر ومحاولاته المستميتة لإيقافه غير أنَّ وليد أبعده، واستمرَّ في طريقه...

الجنون أصابني أنا لحظتها... ركضتُ نحو الباب وصرختُ:

«وليد... لا تذهب».

غير أنَّ وليد لم يلتفتْ إليَّ... وتظاهر بعدم سماعه لي...

«وليد... وليد عُد...».

هتفتُ وهتفتُ، لكنه ابتعد... واختفى عن أنظاري... سامر أغلق الباب... وتنهّد بأسف...

قلتُ بعصبية:

«ماذا تنتظر؟ الحق به! امنَعه!».

لكن سامر حرّك رأسه بقلّة حيلة...

تفجّرتْ دموعي وأغرقتْ وجهي كما الطوفان، وهتفتُ:

«الحق به يا سامر دعه يعود».

«لن يفعل يا رغد... لن يفعل».

رفعتُ يدي وأمسكتُ بذراعي سامر وصحتُ:

«كيف تتركه يذهب؟ ماذا إنْ أصابه مكروه؟ الحق به سامر أرجوكَ».

سامر قال بضيق:
«ألَمْ أفعل؟ لا جدوى مِنْ ذلك... أنا أعرفه».
حرّكتُ رأسي باعتراض شديد وصرختُ:
«كلاّ... كلا...».
نظر إليّ باستغراب... وقال:
«ما الأمر رغد!؟».
قلتُ بانفعال:
«سألحق به».
ذُهِل سامر، وقال:
«ماذا؟؟».
صحتُ:
«سأذهب معه... لا أريد البقاء هنا... لا أريد البقاء هنا... لماذا ذهب وتركني... لماذا؟».
سامر أمسك بذراعي بقوّة وبذهول قال وهو يحدّق بي:
«تذهبين معه... وتتركينني أنا!!؟؟».
ابتلعتُ لساني ولمْ أنطق بأي كلمة... سامر كان يحملق بي بحدّة... نظرات فاحصة مُدقّقة مُدركة مُستنتجة... قارئة لما اعترى وجهي مِنْ تعبيرات صارخة...
«رغد... تتركيني مِنْ أجله هو؟؟ أليس كذلك؟؟».
صُعِقتُ... وتوقّف قلبي عن الخفقان... ولم أشعرْ بالدنيا مِنْ حولي سوى بعيني سامر اللاسعتين ويديه القابضتين عليّ بعنف...
قال:
«تكلّمي يا رغد؟؟ أهذا هو السبب؟؟».
لم أجبه... وأخذتْ الأنفاس تعصف صدري دخولاً وخروجاً...
بدأ يهزّني بقوة حتّى آلمني...
«رغد تكلّمي... قولي ما تخفينه... اعترفي هيا».
«دعني سامر... أرجوكَ».
لكنه هزني بعنف أقوى وبحدة صاح بوجهي:
«تكلّمي يا رغد... ماذا لديكِ؟ انطقي بسرعة... اسمعيني الحقيقة بلسانكِ... لماذا قررتِ التخلّص منّي؟ قولي هيا؟».
فقدتُ السيطرة على نفسي وصرختُ:
«لأنني لا أحبُّكَ... لا أحبُّكَ يا سامر... هل ارتحتَ الآن؟».
سامر دار بي حتى ضربني بالباب... وهتف:
«... وليد؟؟».

تفجّرتُ لحظتها وصرختُ مطلقةً سراح ما حبستُه في صدري عنوةً:

«نعم أحبّه... أحبّه هو... هو... هو».

وأجهشتُ في البكاء المتواصل...

وبعد هذا الانفجار... والذي خرج مِنْ صدري دون شعور وإدراك... ووعي، وعيتُ على الواقع بصفعتين قويتين تلقيتُهما مِنْ كف سامر الثائر...

أفقتُ فجأة فرأيتُ نفسي أقف مُسنَدة إلى الباب... ودموعي تجري كشلال ضخم...

وكان سامر يقف أمامي مباشرةً... نظرتُ إلى عينيه بين دموعي فرأيتُهما مذهولتين مصعوقتين... مُحملقتين بي... تشتعلان احمراراً وتقدحان شرراً...

لم أدرك أنني أفصحتُ عمّا في قلبي إلا حينئذٍ...

«كيف... أمكنكِ... فعل هذا بي؟!».

قال سامر... ورأيتُ وميض الدمع يبرق في عينيه...

قلتُ باكيةً مُشفقة نادمة:

«أنا... آسفة».

فصاح:

«لقد كنتُ أحمقاً إذْ لمْ أُعِرْ شكوكي اهتماماً يومها... كم كنتُ غبياً... لقد كنتِ تحبّينه كل ذلك الوقت... كل ذلك الوقت يا رغد... وتستغفلينني؟».

لم أستطع النطق بأي كلمة...

تابعَ هو:

«نعم... فأنتِ ركضتِ نحوه هو يوم كنّا عند الشاطئ... وتركتِني أنا واقفاً كالأبله جواره تماماً...».

واصل وهو يعتصر ألماً:

«لهذا تريدين التخلّص منّي؟؟ آه... كيف تفعلين هذا بي يا رغد... ألا تعرفين كم أحبُّكِ؟؟ رغد... أنا أحبّكِ... كل هذه السنين وأنا أنتظر يوم زواجنا... لا يمكنني الاستغناء عنكِ رغد... أنتِ حبيبتي وشريكة عمري... ألا تفهمين؟؟».

وجعلتْني كلماته أعتصر ألماً معه...

«سامر... سامحني».

لكنه أطبق عليّ بيديه بقسوة وبدّل تعبيرات وجهه مِنْ الألم والمرارة إلى الغضب والشر وقال:

«لا!... لن أسمح لكِ بهذا أبداً!!... لن تفعلي هذا بي!».

وسحبني بعنف... وسار يجرّني إلى غرفتي، ودفع بي بقوة نحو السرير... فارتطمتُ به وتأوّهتُ ألماً...

«لن أسمح لكما بذلك... أتفهمين؟؟ أبداً يا رغد... أنتِ زوجتي... ولنْ تفلتي منّي...

أبداً...».

وخرج مِنْ الغرفة وهو يصفع بالباب...

* * *

حينما وصلتُ إلى المدينة الشمالية الزراعية... كان ذلك قبيل أذان الفجر...

دفعتُ مبلغاً كنتُ أنا الأحوج إليه إلى السائق الذي أوصلني... وأخذتُ أعدُّ ما تبقّى لديَّ مِنْ جديد...

لزمتُ المسجد لحين ارتفاع الشمس في صدر السماء... وناجيتُ الله طويلاً... شاكياً له حالي وباثاً إليه همومي وسائلاً إيّاه الرحمة واللطف...

ذهبتُ إلى المزرعة بعد ذلك واستقبلني العمُّ الطيب وابنة أخته استقبالاً حافلاً... وعلمتُ منهما أنَّ السيدة ليندا عادتْ إلى المستشفى مِنْ جديد، في نوبةٍ جديدة...

كلّما تذكّرتُ أنّني كنتُ السبب في المرض التي اعترى قلب هذه السيدة كرهتُ نفسي أكثر... وشعرتُ بمسؤولية أكبر تجاهها وتجاه المزرعة ومَنْ فيها...

قمنْا بزيارتها مساء ذلك اليوم... ففرحتْ هي بزيارتي وطلبتْ منِّي مساعدة أخيها وابنتها في العناية بالمزرعة...

عملتُ بجد واجتهاد في الأيام التي تلتْ... ولم أتّصل بأهلي إلا اليوم...

كان العم وأروى قد ذهبا لزيارة السيدة ليندا، وأنا بقيتُ في المنزل وحيداً...

تحدّث سامر إليّ وطمأنني على أحوالهم، وأخبرني أنه ورغد، كما نوّار ودانة سيحتفلون بزواجهم بعد ليلتين...

أقفلتُ السمّاعة، وحاولتُ منْع رأسي مِنْ التفكير في أي شيء...

فبعد اللقاء الحميم الذي جمعهما في المزرعة أوّل وصوله، فقدتُ أيَّ اهتمام يُذكر بشأن عرقلة هذا الزواج... سواءً كان برضا مِنْ رغد أو باضطرارٍ مِنْها...

كيف لها أنْ تجد الزوج الأنسب؟؟

وكيف أسمح لنفسي بالتفكير بها... وما أنا إلا رجل فقير معدم... لا يملك مأوى ولا قوتاً؟

وإنْ عشتُ ألف سنة بعد، لن أنسى نظرة الازدراء التي رمتْني بها يوم كنا في المزرعة...

صدقتَ يا سامر

رغد لا تستحق الزواج مِنْ مجرم قاتلٍ... فقيرٍ معدم... وحيدٍ منْبوذٍ مثلي...

عاد العم وأروى مِنْ المستشفى فرأياني شارداً سارحاً تائهاً في أفكاري... كما رأيا الدمعة التي هربتْ مِنْ مقلتَيّ...

رأيتُ في عينيهما القلق... وسألاني عمّا إذا كان شيءٌ ما قد حصل، فأجبتُهما:

«لا شيء».

الفتاة ذهبتْ إلى المطبخ أمّا العجوز فعاد يسألني:

«ما بكِ يا بنيَّ؟ تبدو في غاية الحزن؟؟».

قلتُ:

«وهل ترى في حالي ما يدعو للسرور أيها العم؟ إنني في أسوأ حال...».

«قُلْ الحمد لله يا ولدي...».

«الحمد لله».

تنهّدتُ، ثمّ قلتُ بمرارة...

«إلى متى سيظل حالي هكذا؟؟ لسوف أبحث عن عملٍ مِنْ جديد... إنني بحاجة للمال... لتكوين نفسي وبناء مستقبلي».

«ماذا عن... العمل معنا؟؟».

نظرتُ إلى الرجل العجوز نظرة امتنان وقلتُ:

«لكن إلى متى...؟؟ إنني تائهٌ! بلا بيت ولا أهل...».

«ونحن؟؟».

«أنتم... عائلتي حتماً ولكن...».

وصمتُ...

العم قال:

«ولكن لا يربطنا دمٌ ولا نسب...».

لمْ أعلّق، قال:

«مشكلةٌ سهلة الحل».

نظرتُ إليه بحيرة...

ابتسم العجوز وقال:

«إنْ كنتَ تريد لها هذا الحل».

قلتُ:

«عفواً؟؟».

العم إلياس أمسكَ بيدي وظهر الجدُّ على تعبيرات وجهه وقال:

«أزوّجكَ ابنة أختي!».

تملّكني الذهول والمفاجأة... رمقتُه بنظرةٍ بلهاء غير واعية لحقائق الأمور...

«ماذا؟».

أجاب العم:

«إذا كنتَ ترى ذلك طبعاً... مثلما نراه نحن...».

تلك الليلة لم تسمح لي الفكرة هذه بالنوم... خرجتُ مِنْ غرفتي أحمل علبة سجائري التي اشتريتُها مؤخراً... والتي عدتُ استهلكها بشراهة... بعدما كنتُ على وشك الإقلاع عنها...

سرتُ متجوّلاً في المزرعة في تفكير عميق...

قضيتُ وقتاً في الخارج، ولما عدتُ... لمحتُ أروى جالسةً على عتبات المنْزل...

لما رأتني نهضتْ واقفة... وألقتْ عليَّ التحية... ارتبكتُ... ورددتُ باضطراب...
قالتْ وهي تنظر إلى السيجارة في يدي:
«ألم تقلع عن التدخين؟؟».
«أأ... صعب...».
قالتْ:
«أنتَ تضرُّ بصحَّتك مجدّداً! لا تستحق هذه التافهة الاهتمام!».
تنهّدتُ... ونظرتُ إلى السماء ثمَّ قلتُ:
«لا شيء في حياتي يستحق الاهتمام... ولا حتّى أنا نفسي».
«أنتَ مُخطئ!».
وندمتُ على مقولتي هذه! ورأيتُ نظرات الاهتمام في عينيها...
غضضتُ بصري وقلتُ:
«بعد إذنكِ... سأعود إلى غرفتي».
وخطوتُ بضع خطوات مبتعداً، وأنا أحسُّ بها تراقبني...
التفتُ للوراء فوجدتُها بالفعل تراقبني...!!
لا أعرف مِنْ أين استمددتُ هذه الجرأة وهذه الفكرة في هذه اللحظة مِن هذه الليلة لأسألها:
«آنسة أروى...».
«نعم؟».
«أتقبلين الزواج برجلٍ مثلي؟؟».

الحلقة الثامنة والعشرون

القدر الساخر

- وليد -

«أتقبلين الزواج برجلٍ مثلي!!؟؟».

أروى حملقتْ بي لبرهة، ثمّ ابتسمتْ ونظرتْ إلى الأرض بخجل!

العرق صار يتصبّب منّي وملابسي تحترق مِنْ حرارة جسدي... أمّا لساني فانعقد تماماً!

أي جنون هذا!؟؟

ظللنا واقفين هكذا... أنا لا أجرؤ على قول شيء ولا على الانصراف، وهي لا ترفع عينيها عن الأرض...

نفحات الهواء الباردة أخذتْ تصافح جسدي وتطفئ اشتعاله... وهبّتْ على الوشاح الذي تلفّه أروى حور رأسها فتطايرتْ أطرافه... كاشفةً عن خصلات ذهبيّة ملساء انطلقتْ تتراقص مع النسيم...

غضضتُ بصري بسرعة، واستدرتُ جانباً وقلتُ:

«أنا آسف».

«لِمَ؟؟».

قالتْها بتعجّب، فكساني تعجبها تعجّباً!

أعدتُ النظر نحوها فوجدتها واقفةً في مكانها وقد ضبطت الوشاح حول رأسها بإحكام...

ولا تزال تبتسم بخجل!

تشجّعتُ حينها وقلتُ:

«ألا تمانعين مِن الزواج مِنْ رجلٍ مثلي؟».

قالتْ دون أن تنظر إليّ:

«مثلكَ... يعني ماذا!؟؟».

قلتُ:

«فقير... مشرّد... خرّيج سجون... عاطل... وضيع الشأن...».

قالتْ:

«لكنّك... رجلٌ نبيلٌ يا وليد».

ثم ألقتْ عليّ نظرةً خجولة... وانصرفتْ مسرعة!

في صباح اليوم التالي، كنّا أنا والعمُّ إلياس ننظّم أغصان بعض الأشجار... وكان الموضوع

يلعب برأسي منذ الأمس... وكنتُ أحاول التقاط أي خيطٍ مِنْ الكلام لفتحه أمام العجوز...

وربّما هو لاحظ ارتباكي غير أنّه لم يعلّق...

قلتُ:

«أليس لديكم أقارب آخرون يا عمي؟».

«هنا؟ لا يوجد. إنني وأختي كما تعلم مِنْ خارج البلدة ولا أهل لنا هنا. نديم رحمه الله كان يقطن المدينة الساحلية هو وعائلته قبل استقراره هنا في هذه المدينة قبل زمنٍ طويل... وهو الآخر لم يكن لديه أقارب كُثُر».

والمدينة الساحلية هي مدينتي الأمُّ.

قلتُ:

«وماذا عنكَ؟ ألمْ يكن لديك زوجة وأبناء؟».

قال:

«زوجة رحمها الله. لمْ أُرزق الأبناء بقضاءٍ مِنْ الله. الحمد لله».

ثم أضاف:

«لذلك أحبُّ ابنة أختي حباً جماً... وأسأل الله أنْ يرزقها زوجاً صالحاً أطمئنُّ إلى تركها معه بعد فنائي».

قلتُ بسرعة:

«أطال الله في عمركَ عمّاه».

«فقط إلى أنْ أزوّجها وأرتاح».

وغمز إليَّ بنظرة ذات معنى!

احمرَّ وجهي خجلاً... فصمتُّ، أمّا هو... فنظر بعيداً مفكّراً وقال:

«أنا قلقٌ عليها وعلى مستقبلها... إنها فتاة بلا سند... أريد أنْ أزوّجها بسرعة لرجل جدير بالثقة... أأتمنه عليها...».

ونظر نحوي... يقصدني!

قلتُ متلعثماً:

«أأ... أحقاً لا تمانع مِنْ زواجها مِنْ... مِنْ...».

أتمَّ العم الجملة التي تعذّر على لساني إتمامها:

«منكَ يا وليد؟ مطلقاً... فأنتَ رجلٌ خلوقٌ ومهذّب وأمين. بارك الله فيك».

قلتُ متردداً:

«لكنني... كما تعرف».

قاطعني:

«لا يهم، فها هي المزرعة أمامك اعمل بها عملاً شريفاً نظيفاً وإنْ كان بسيطاً... وإنْ كنتَ تودُّ العمل في مكانٍ آخر فاسع يا بُنيَّ والله يرزقكَ... العمل الشريف الحلال لا يقلّل مِنْ شأن

صاحبه مهما كان بسيطاً... والعمل الحرام لا يرفع مِنْ شأن صاحبه مهما كان مرموقاً».

طمأنني قوله كثيراً... تماماً كما كانتْ كلمات نديم رحمه الله تبعث في نفسي الطمأنينة في سني السجن...

قلتُ أخيراً:

«لكنني... خرجتُ مِنْ السجن...».

قال:

«نديم كان في السجن أيضاً، ولمْ أرَ في حياتي مَنْ هو أشرف منه ولا أحسن خُلُقاً».

ابتسمتُ... للتقدير والاحترام اللذين يكنّهما هذا الرجل لي... واللذين رفعا مِنْ معنوياتي المحطّمة بعد كلمات دانة القاسية الجارحة... ونظرات رغد المزدرية الذابحة...

العم ابتسم أيضاً وقال وهو يصافح يدي:

«أنقول على بركة الله؟؟».

- رغد -

«ماذا عني أنا؟؟ تتركيني وحدي؟؟».

سألتُ دانة التي تقف أمام المرآة تجرّب ارتداء فستان السهرة الجديد، الذي اشترتْه لارتدائه في الحفلة البسيطة... يوم الغد.

لمْ تكن تعيريني أي اهتمام... وخلال الأيام الماضية عومِلتُ معاملةً جافّة مِنْ قِبَلها وقِبَل سامر... بتهمة الخيانة والغدر!!

«دانة أحدّثكِ! ألا تسمعين؟؟».

«ماذا تريدين يا رغد؟».

«لا أريد البقاء وحدي هنا».

«سامر معكِ».

قلتُ باستياء:

«لا أريد البقاء مع سامر بمفردنا».

الآن التفتتْ إليّ وقالتْ:

«إنه خطيبكِ... زوجكِ بالأصح... فإنْ كنتِ لا تثقين به فهذه مشكلتكِ!».

شعرتُ بضعف شديد وقلّة حيلة... فوليد، الشخص الذي كان يقف إلى جانبي ويتولّى الدفاع عنّي قد اختفى... ولا بد لي مِنْ الرضوخ لقدري أخيراً...

خرجتُ مِنْ غرفتها وذهبتُ إلى غرفتي، ومِنْ هناك اتّصلت بوالديّ وطلبتُ منهما أنْ يعودا بأي وسيلة... لأنني وحيدة وتعيسة جداً...

ويا ليتني يومها لمْ أفعل...

يا ليت...

بعد ذلك، جاء سامر إلى غرفتي يحمل علبة هدّية ما...

كان يبتسم... اقترب منّي وحاول التحدّث معي بلطف وكرّر الاعتذار عمّا بدر منه تلك الليلة، لكنني صددتُه بجفاء.

«وفّر هداياك يا سامر... فأنا لنْ أقتنع بفكرة الزواج بهذا الشكل مطلقاً... وسأنتظر عودة والديَّ».

غضب سامر وتحوّل لطفه إلى خشونة، ونعومة حديثه إلى قسوة...

قال:

«حين يعود والداي سيتمُّ كل شيء».

قلتُ:

«حين يعود والداي سينتهي كل شيء».

سامر فقد السيطرة على أعصابه وزمجر بعنف:

«كل هذا مِنْ أجل وليد؟؟».

ونظرتُ إليه نظرة تحدٍ لم يستطع تجاهلها... أطبق علي بقسوة وقال:

«وإنْ تخلّيتِ عني، لنْ أسمح له بأخذكِ مطلقاً... أتفهمين؟؟».

«بل سأطلب منه أنْ يأتي لأخذي فأنا لنْ أعيش معكَ بمفردي هنا».

«رغد... رغد لا تثيري جنوني... لا تجعليني أؤذيك... إنني لا أزال أحبكِ... أتفهمين معنى أحبكِ؟».

هتفتُ:

«لكنني... لا أحبُّك... ألمْ تفهم بعد؟؟».

سامر دفع بي نحو السرير، وتناول علبة الهدية وضربها بالجدار بقوة...

قال:

«تحبّين شقيقي؟؟ بربّكِ... ماذا فعل كي يجعل قلبكِ يتحوّل إليه؟؟ ماذا تحبين فيه أصلاً؟؟ أخبريني؟؟ ماذا رأيتِ منه وجعل رأسكِ يدور هكذا؟؟».

ثم أقبل نحوي وهزّني بعنف وهو يقول:

«أتحبّين رجلاً وحشاً... قاتلاً؟ مجرماً؟ سفّاك دماء؟؟».

صرختُ بفزع:

«ما الذي تقوله؟؟».

قال مندفعاً:

«ألا تعلمين؟؟ إنها الحقيقة أيتها المغفّلة... كنتِ تظنّين أنّه سافر ليدرس في الخارج... طوال تلك السنين... أتعلمين أين كان وقتها؟؟ أتعلمين؟؟».

كان الشرر يتطاير مِنْ عيني سامر... المرّة الأولى في حياتي التي أرى فيها عينيه تشتعلان ناراً بهذا الشكل... أصابني الروع مِنْ نظراته وكلماته...

أتمَّ جملته:

«لقد كان في السجن!».

صُعِقتُ، لمْ أصدِّق... هززتُ رأسي تكذيباً، غير أنَّ سامر هزَّني وقال بحدّة:

«نعم في السجن... تسع سنوات قضاها مرمياً في السجن مع المجرمين والقتلة... ألا تصدّقين؟ اسألي والديَّ... أو اسأليه هو... في السجن يا رغد... السجن... وقد أخفينا الأمر عنكما أنتِ ودانة لصغر سنكما».

صرختُ رافضة التصديق والإصغاء...

«كلا... أنتَ تكذب!».

قال بحدّة:

«تأكدّي بنفسك... ولسوف تندمين على صرف مشاعرك على قاتلٍ متوحّش».

هتفتُ:

«كفى... توقّف... أنتَ تكذب ولن أصدّقك...».

فقال:

«أنا الكذاب؟؟ اسأليهم وتأكّدي... لن يجرؤ أحدهم على الإنكار».

نظرتُ إليه مصدومة وغير قابلة لتصديق ما يقول، ثمَّ دفعتُه بعيداً عنّي وركضتُ مسرعةً نحو غرفة دانة، التي كانت لا تزال أمام المرآة...

«دانة».

هتفتُ بقوة أجبرتها على الالتفات إليَّ بشيء مِنْ الدهشة والقلق...

قلتُ:

«وليد... وليد...».

فزعتْ دانة، قالتْ:

«ما بِه؟؟».

قلتُ:

«كان في السجن؟؟».

دانة تحملق بي في عدم استيعاب، والدهشة تقوّس حاجبيها... صرختُ:

«وليد كان في السجن؟؟ أخبريني؟؟».

ظهر سامر مِنْ خلفي فنظرتْ إليه دانة. قال:

«أخبريها فهي لا تصدّقني».

دانة جالتْ ببصرها بيننا ثمَّ قالتْ:

«أجل... لتسع سنين...».

صرختُ:

«لا!».

قالتْ:

«بلى، وبجريمة قتل».

«مستحيل!!».

لم أشأ أنْ أسمع... أنْ أفهم... أنْ أصدّق... أنْ أدرك...

دارتْ بي الدنيا وتراقصتْ الأرض وتمايلتْ الجدران... وأظلمتْ الأنوار... ولمْ أشعر بنفسي إلا وسامر يمسكني بسرعة ويجلسني أرضاً...

بدأتْ الأنوار تُضاء... وبدأتُ أسمع نداءاتهما وأرى أعينهما القلقة حولي... وأحسُّ بأيديهما الممسكة بي...

«رغد حبيبتي تماسكي».

«رغد ماذا جرى لكِ؟؟».

«ابقي مسترخية».

«اسم الله يحفظك».

حينما وعيتُ تماماً وجدتُ نفسي ممدّدة على الأرض ورأسي في حضن سامر ويدي بين يدي دانة... وكنتُ أشعر ببلل على وجهي...

قال سامر:

«أأنتِ بخير؟».

أغمضتُ عيني بمرارة وأخذتُ أتنفّس ببطء وعمق... وأحسُّ بخفقاتٍ قويّة في قلبي تهزّ جسدي...

قالتْ دانة:

«رغد...».

حينها فتحتُ عيني وحاولتُ أنْ أتكلّم، وعجزتُ إلا عن إصدار أنّات متلاحقة... لا معنى لها ولا تفسير...

ساعدني الاثنان على النهوض والتوجّه إلى غرفتي حيث استلقيتُ على سريري... وجلس الاثنان قربي... سامر يمسح على رأسي ودانة تشدُّ على يدي...

قالتْ:

«لا بأس عليك... كانتْ صدمةً قويّةً بالنسبة لي أنا أيضاً».

تحشرج صوتي في حنجرتي ثمّ انطلق ناطقاً:

«لماذا أخفيتم عني؟؟».

دانة نظرتْ إلى سامر... كأنها تنقل السؤال إليه... نظرتُ إلى سامر فرأيتُ وجهه متجهّماً حزيناً...

«لماذا؟».

سامر حار في أمره... وبعثر أنظاره فيما حولي ثمّ قال:

«كنتما صغيرتين... ثمّ... لم نشأ تقليب المواجع بعد خروجه...».
«لا أصدّق... لا أصدّق... لا يمكن...».
وانفجرتُ في بكاء أبكى دانة... وكاد يبكي سامر أيضاً...
قلتُ مخاطبة دانة:
«لماذا فعل ذلك؟؟».
وأيضاً أحالتْ السؤال إلى سامر...
قلتُ مخاطبةً سامر:
«لماذا؟؟».
هذه المرّة سامر دقّق النظر إليّ... نظرات عميقة غريبة، ثمّ قال:
«ألا تعرفين؟؟».
«أنا؟؟».
سامر قال:
«لا نعرف الحقيقة بالضبط، لكن...».
«لكن ماذا؟؟».
تردّد سامر ثمّ قال:
«إنه يخفي سراً...».
صمتَ ثوان ثمّ قال:
«سر على ما يبدو... له علاقة بـ...».
وتراجع عن إتمام جملته...
«بماذا؟؟».
سألتُ، فظلّ ينظر إلي بتمعُّن... وكأنّه يشير إليّ!
«بي أنا؟؟!!».
ولمْ ينفِ كلامي، فسألتْه دانة باستغراب:
«وما علاقة رغد بالأمر؟؟».
سامر تردّد ومِنْ ثمّ قال بنبرة غير الواثق مِنْ كلامه:
«لا أدري... القضية غامضة... ووليد رفض الكلام... كان ذاهباً لأداء امتحان قبوله في الجامعة... ولا نعرف ما حصل... وغيّر طريقه ولحق بالقتيل وتشاجر معه وضربه على رأسه فصرعه...».
وواصل:
«وجدتْ الشرطة القتيل صريعاً في الشارع... وللغرابة وجدتْ بالقرب منه حزام الزيّ المدرسي الذي كانتْ رغد ترتديه ذلك اليوم. وليد اعترف بجريمته وقال أنَّ رغد رفضتْ الذهاب للمدرسة فبقيتْ معه ونامتْ في السيارة...».

أتمّ جملته هذه ونظر إليّ...

لحظتها... تهدّم في رأسي سدُّ الذكريات القديمة فجأةً... وتدفّقتْ شلالات الذكرى المفزعة... المشؤومة... واجتاح قلبي الرعب والذعر... وتفجّرتْ شرايين وجهي فأغرقته في الدماء... انتفضتُ وشهقتُ شهقةً قويةً مقطوعة... انحبستْ أنفاسي داخل صدري عدّة ثوانٍ ثمّ انطلقتْ هاتفةً بغتة:

«عمّار!!؟؟».

الاثنان نظرا إليّ بتعجب وتساؤل وتفحّص...

جلستُ فجأةً ووضعتُ يدي الاثنتين على صدري فاتحةً عينيّ وفاغرةً فيّ بذهول وهلع ما مثلهما ذهول وهلع... وأخذتْ أنفاسي تنفخ صدري وتُفرغه مِنْ الهواء بتتابع سريع...

«رغد؟؟».

ناداني سامر، فالتفتُ إليه... ثمّ إلى دانة... ثمّ إلى سامر فدانة بشكل يثير القلق والشكوك...

عاد سامر يناديني قلِقاً:

«رغد...؟؟».

صرختُ:

«لا».

«رغد... هل... رأيتِ شيئاً؟؟».

صرختُ بفزع:

«لا».

قال:

«أتذكرين شيئاً؟؟».

«لا... لا كلا...».

وجذبتُ دانة نحوي ووضعتُ رأسي في حضنها ولففتُ ذراعيّ حولها وأنا أصرخ بجنون:

«كلا... كلا... وليد... وليد... لاااااا...».

- وليد -

في نفس اليوم، والذي عادتْ فيه السيدة ليندا من المستشفى، عقدنا قراننا أنا وأروى... العائلة كانتْ سعيدة ومبتهجة... وقد صنعتْ أروى كعكتين لذيذتين وعشاءً مميزاً، احتفالاً بالمناسبة...

لم يشاركنا الحفلة الصغيرة سوى سيّدة واحدة هي صديقة للسيدة ليندا، وابناها اللذين شهدا على العقد...

بالنسبة لي، كان حدثاً غريباً وأشبه بالوهم... نعم الوهم... لقد كنتُ هناك، لكنني لم

أكن... وانتظرتُ أنْ أصحو مِنْ هذا الحلم الغريب... إلا أنّني لم أصحُ...

بعد تناولنا العشاء... أوحتْ إلينا السيدة ليندا بأنْ نخرج للتجوّل في المزرعة... أنا كنتُ أتتصبّب عرقاً وفي غاية الخجل... ولا أجرؤ على النظر نحو أروى... ولا أعرف كيف هي حالتها وتعبيراتها...!

خرجنا معاً إلى المزرعة، وسرنا صامتين لا يلتفت أحدنا إلى الآخر...

قطعنا شوطاً طويلاً في السير... وكان الجو بارداً فسمعتُ صوت كفّي أروى يفركان بعضهما البعض... وهنا التفتُّ ونظرتُ إليها لأول مرّة...

قلتُ بتلعثم:

«أتشعرين بالبرد؟؟».

أروى ابتسمتْ ونظرتْ للأسفل وقالتْ:

«قليلاً».

«أتودّين أنْ... نعود للداخل؟».

رفعتْ نظرها إليّ وقالتْ:

«لا...».

هربتُ أنا بنظري إلى الأشجار وأنا أتنحنح وألمس عنقي بيدي... وأشعر بالحر!

حقيقةً أنا لا أعرف ما أقول ولا كيف أتصرّف!

ولا حتى كيف أفكّر! واسمعوا ما قلتُ:

«هذه الأغصان بحاجة إلى ترتيب!».

وأنا أشير إلى الشجرة التي كنتُ أنظر إليها...

أروى قالتْ:

«نعم».

«سوف أقوم بتنظيمها غداً».

«نعم».

لا أزال أحدّق في الشجرة... كأنني أفتش عن المفردات بين أوراقها! كيف يجب أنْ يتصرّف رجل عقد قرانه مِنْ فتاةٍ قبل قليل؟؟

أنا لا أعرف بالضبط، فهي تجربتي الأولى، ولكن بالتأكيد... ليس التحديق في أغصان الأشجار وأوراقها!

«وليد».

نادتني أروى... فاقشعرّ جلدي خجلاً، التفتُّ إليها بحرج... وأنا أمسح قطيرات العرق المتجمّعة على جبيني:

«نعم؟».

قالتْ:بخجل:

«هل أنتَ... مسرور بارتباطنا؟؟».
تسارع نبض قلبي... توتّرت كثيراً غير أنني قلتُ أخيراً:
«نعم، و... أتمنى أنْ تكوني أنتِ مسرورة!».
ابتسمتْ هي مومئةً إيجاباً... ثمَّ قالتْ وهي تعبث بأصابعها بارتباك:
«أنا... مُعجبة بكَ!».
أنا سكنتُ تماماً عن أيِّ حركة أو كلام... تماماً كسيارة نفذ وقودها كلياً!
صامت جامد في مكاني بينما الأشجار تتحرك والأوراق تتمايل!
الآن رفعتْ أروى بصرها إليَّ بابتسامة خجولة لتستشف ردّة فعلي... تسلّلتْ مِنْ بين شفتي هذه الكلمة:
«مُعجبة بي... أنا؟؟».
ابتسمتْ أروى ابتسامةً خفيفة وهي تقول:
«نعم أنتَ!».
قلتُ متأتئاً متلعثماً:
«أأ... لكن... أنا... شخصٌ بسيط أعني... إنني... خرّيج سجون و...».
لمْ أتم، فقد نفذتْ الحروف التي كانت مخزّنة على لساني! أروى قالتْ:
«أعرف، ولا يهمني ذلك...».
تبادلنا الآن نظرات عميقة... أمددتني بطاقة أحلّت عقدة لساني...
قلتُ:
«أروى... ألا يهمك أنْ تعرفي... لِمَ دخلتُ السجن؟؟».
أروى حرّكتْ رأسها سلباً... لكنني قلتُ:
«يجب أنْ تعرفي...».
ثم قلتُ:
«دخلتُ السجن لأنني... قتلتُ حيواناً!».
دُهِشَتْ أروى وارتفع حاجباها الأشقران للأعلى...
«ماذا؟؟».
قلتُ، وقد تبدّلت تعبيرات وجهي مِنْ الخجل والتوتر، إلى الجديّة والغضب:
«نعم حيوان... حيوان بشري... قذر... كان يجب أنْ يموت...!!».

- رغد -

لا أزال مضطجعةً على سريري أذرف الدموع الحزينة المريرة... وأعيد في رأسي تقليب الذكريات... وقد مضتْ ساعات وأنا على هذه الحال...
كلما دخل سامر أو دانة هتفتُ:

«دعوني وحدي... دعوني وحدي...».

فالصاعقة لم تكن بالشيء الهيّن...

أعوذ بذاكرتي للوراء... ذكريات مُغبرة غير واضحة، لا أستطيع سبر غورها وكشف غموضها وفهم أسرارها...

مبهمة الملامح... لا تتّضح لي صورتها كما ينبغي... فأبعدها بسرعة وأجبر رأسي على التفكير بشؤون أخرى...

مساء الغد... ستغادر دانة مع عريسها بعيداً... وأظلُّ أنا وسامر... في الشقة وحدنا... ومئات مِنْ الشحنات المتنافرة تتضارب فيما بيننا...

تموتُ الفكرة في رأسي... تحت أقدام أفكار أقوى... في وجه إعصار الذكريات التعيسة المشؤومة التي عشتها قبل عشر سنين...

أتخيّل نفسي وأنا في تلك السيّارة... أصرخ... وأصرخ... وأهتف واستنجد وأستغيث... وما مِنْ مُعين...

ما مِنْ شيء... إلا صفعات متتالية على وجهي... وكف تمتدُّ إلى وجهي وتكتم أنفي وفمي مانعةً إياي مِنْ الاستغاثة... ويد تربط أطرافي الأربعة بذلك الحزام الطويل... ثمَّ ترميني عند المدوسة... تحت المقعد...

بحَّ صوتي مِنْ الصراخ... كنتُ وحيدةً... لا أحد مِنْ أهلي حولي... ولا مِنْ الناس... في طريق برّي مخيف موحِش... بعيداً عن أدنى معاني الأمان والطمأنينة وأسمعه يقول:

«سيأتي وليد إليكِ فاخرسي».

أحاول أنْ أتحرّر مِنْ القيد... أحاول الركل والرفس... والعض... وكل شيء... دون جدوى... فقد كنتُ أضعف وأوهن مِنْ أنْ أتغلّب على ذلك الوحش القذر...

حينما ظهر وليد أخيراً... فُتِح لي الباب...

قفزتُ مِنْ السيارة راكضةً مُسرعة نحو وليد... تعلقّتُ بعنقه... أردتُ أنْ أحتمي داخل صدره... أردتُه أنْ يبعدني بسرعة عن ذلك المكان... أنْ يطير بي عالياً... إلى حيث لا تصلني يد مؤذٍ ولا نظراته...

وليد...

آه وليد...

وليد...

أخذتُ أبكي بقوّة... بكل ما أوتي جسدي المنهك المصعوق مِنْ قوّة...

سمعتْني دانة فوافتْني إلى الغرفة قلقة... اقتربتْ منِّي وهي تراني في حالة انهيار لا مثيل لها... أبكي دماً لا دموعاً...

«رغد... أرجوكِ يكفي! إلى متى ستظلّين هكذا؟؟ لِمَ لا تنامين فقد انتصف الليل».

«لماذا لم تخبروني بالحقيقة؟ لماذا كذبتم عليَّ؟ لماذا أخفيتم ما حصل عنّي كل هذه

السنين؟؟ آه يا وليد... أعيدوه إليَّ... أريد وليد... أريد وليد...».

دانة أمسكتْ بوجهي في حيرة واضطراب، وقالتْ:

«رغد! ما الذي تهذين به؟ أ عاودتكِ الحمّى مِنْ جديد؟؟».

قلتُ وأنا أنظر إليها بعمق وتشتتٌ... في تخبّط وضياع وتيه:

«لمْ أعتقد أنّه ماتَ... رأيتُه يهوي أرضاً... لمْ أفهم ما حصل... لكن وليد ضربه بسببي أنا... أنا... أنا».

وانهرتُ باكيةً بحدّة على صدرها...

دانة كانتْ تحاول إبعادي عنها ليتسنى لها النظر إلى وجهي، وقراءة ما ارتسم عليه، لكنني كنتُ أدفن رأسي في صدرها بإصرار...

«رغد... ما الذي تقولينه؟؟».

صرّحتُ:

«لمْ أفهم ذلك... لم أعِ شيئاً... كنتُ صغيرة ومرعوبة جداً... لا أذكر ماذا فعل بي... لكنّه ضربني كثيراً... وربطني بالحزام...».

«عمّ تتحدثين يا رغد بالله عليكِ وضّحي ما تقصدين؟؟».

رفعتُ رأسي أخيراً ونظرتُ إليها وانفجرتُ قائلة:

«عمّار... الحقير... الجبان... اللعين... القذر... اختطفني وحبسني في السيارة... وليد جاء لإنقاذي وضربه بالصخرة... أفهمتِ الآن؟؟ أفهمتِ؟؟ أفهمتِ؟؟».

* * *

الآن... وفي هذا الصباح الجميل... وتحت أشعّة هذه الشمس الجديدة، أشعر بأنني شخصٌ آخر... رجلٌ وُلِدَ مِنْ جديد...

ابتداءً مِنْ هذا اليوم، دخلتُ عالماً جديداً... وودّعتُ عالمي الماضي... للأبد.

أنا اليوم، وليد... المزارع البسيط الذي يعمل مع خطيبته وعائلتها في مزرعةٍ صغيرة... في مدينة بعيدة عن مدينته وأصله وأهله...

الحياة الماضية قد انتهتْ، لا رغد ولا حب ولا جنون... لا ألم ولا عذاب ولا معاناة... ولا حرب...

الليلة، ستدخل رغد قفص الزوجية، وتصبح زوجة أخي، وأقطع آخر خيط أمل في استعادتها ذات يوم...

الذكرى الحزينة أجبرتها على مغادرة رأسي، فأنا لا أريد لدمعةٍ واحدة أنْ تسيل مِنْ عيني على ما فات... ولأعشْ حياتي الجديدة كما قدّر الله لها أنْ تكون...

تخرج أروى مِنْ المنزل... مقبلةً نحوي، تحمل صينية تحوي طعاماً...

كنتُ أقف في الساحة أتنفّس الصعداء وأشمُّ رائحة الزهور الفواحة... إنه مكان يستحق أنْ يضحّي المرء بأي شيءٍ مِنْ أجل العيش فيه...

«صباح الخير... وليد».

تبتسم لي ويتورّد خداها خجلاً... فيجعلها كلوحةٍ طبيعية بديعة مِنْ صنع الإله...

أدقّق النظر إليها... فاكتشف أنها آية في الجمال... جمال لم ألحظه مسبقاً ولمْ أكن لأعيره اهتماماً...

ملوّنة مثل الزهور... وخصلات شعرها الذهبي تتراقص مع تيارات الهواء... لامعةً مثل أشعّة الشمس...

سبحان الله...

أحقاً... هذه الحسناء الفاتنة هي زوجة مستقبلي؟!!

تقبل إليّ وتقول:

«أعددتُ فطوراً خاصاً بنا».

ابتسم، وأقول:

«شكراً...».

ثم نجلس على البساط المفروش في الساحة، وننعم بفطور شهي لذيذ... فمخطوبتي هذه ماهرةٌ جداً في الطهو!

ميزة أخرى تجعلني أشعر بالزهو... إضافة إلى كونها طيبة القلب مثل والديها وخالها...

وأكرّر في نفسي:

«الحمد لله».

لقد لعبتْ الأقدار دورها الدرامي معي... وحين ألقتْ بي في السجن لتسع سنين، عرّفتني على رجلٍ عظيم، أصبحتُ في نهاية المطاف زوجاً لابنته!

أظنُّ أنَّ على المرء أنْ يشكر الله في جميع الأحوال ولا يتذمّر مِنْ شيء، فهو لا يعلم ما الحكمة مِنْ وراء بعض الأحداث التي يفرضها عليه القدر...

سبحان الله.

أكثر ما شدّني في الأمر، هو أنها اعترفتْ لي البارحة بإعجابها بي!

برغم كل عيوبي ومساوئي، ورغم جهلها بالكثير عن ماضي وأصلي... إلا أنها ببساطة قالتْ:

«أنا معجبة بك!».

أعتقد أنَّ لهذه الجملة تأثيرها الخاص... وخصوصاً على رجل يسمعها للمرة الأولى في حياته مِنْ لسان فتاة!

تجاذبنا أطراف الحديث مطوّلاً... فوجدتُها حلوة المعشر وراقية الأسلوب، واكتشفتُ أنها أنهتْ دراستها الثانوية ودرستْ في أحد المعاهد المحلية أيضا...

قلتُ:

«كان حلمي أنْ أدرس في الجامعة!».

«أي مجال؟؟».
«الإدارة والاقتصاد، كنتُ أطمح لامتهان إدارة الأعمال... تخيّلتُ نفسي رجل أعمال مرموق!».
وضحكتُ بسخرية مِنْ نفسي...
قالتْ:
«وهل تخلّيتَ عن هذا الحلم؟؟».
قلتُ بأسف:
«بل هو مَنْ تخلّى عنّي...».
ابتسمتْ أروى وقالتْ:
«إذن فطارده! وأثبتْ له جدارتك!».
«كيف؟؟».
قالتْ:
«لِمَ لا تلتحق بمعهد إداري محلي؟ أتعرف... زوج السيدة التي كانتْ معنا البارحة يدير أحد المعاهد وقد ييسّر أموركَ بتوصية مِنْ أمي!».
بدتْ لكي فكرة وهمية... كالبخار... لكن أروى تحدثتْ بجد أكبر وجعلتني انظر للفكرة بعين الاعتبار... وأنميها في رأسي...

- رغد -

أتتني دانة وأنا لا أزال على سريري وقالتْ:
«أحضر سامر الفطور... ألن تشاركينا؟؟».
لم أجب عليها، فانسحبتْ مِنْ الغرفة...
بعد قليل، طُرِقَ الباب ودخل سامر، وأغلق الباب مِنْ بعده. أقبل نحوي حتى صار جواري مباشرة، وقال بصوتٍ حنون أجش:
«رغد... هل ستبقين حبيسة الغرفة هكذا؟؟».
ولم أجبه...
جلس على السرير ومدَّ يده نحو رأسي، وأخذ يمسح على شعري بحنان...
«رغد... بالله عليكِ...».
لكنني لم أتفاعل معه...
أدار وجهي نحو وجهه وأجبرني على النظر إليه... نظراتنا كانت عميقة ذات معنى...
«رغد... أنا أتعذّب برؤيتكِ هكذا... أرجوكِ... كفى».
ولم أجب...
قال:

«أتحبّينه لهذا الحد؟؟».
لمّا سمعتُ جملته هذه لم أتمالك نفسي... وسالتْ العبرات على وجنتي...
سامر أخذ يمسح العبرات الفائضة مِنْ محجري... بلطف وعطف... ثمّ قال:
«أنا... لا أرضى عليكِ بالحزن... لا أقبل أنْ أكون سبب تعاسة أحب مخلوقة إلى قلبي...».
اعترى نظراتي الآن بعض الاهتمام...
تابع هو حديثه:
«رغد... سوف... اتّصل به الآن، واطلب منه الحضور... لأخذكِ معه».
ذُهِلتُ، وفتحتُ جفوني لأقصى حد... غير مصدقة لما التقطته أذناي...
قال:
«لا تقلقي... فأنا لن أجبركِ على الزواج منّي ولا البقاء معي... وعندما يعود والدانا... ستُحلُّ المشكلة».
نطقتُ:
«سامر...!».
سامر ابتسم ابتسامة واهنة حزينة... ثمّ قرّب رأسي مِنْ شفتيه، وقبّل جبيني قبلةً دافئة طويلة...
بعد ذلك قال:
«سأتّصل به في الحال... هيا... فدانة تنتظركِ على المائدة...».
وقام وغادر الغرفة...

- وليد -

ما كدتُ أنتهي مِنْ وجبة فطوري اللذيذة الطويلة، حتّى أقبلتْ السيدة ليندا تستدعيني...
«وليد يا بُنيَّ، اتصال هاتفي لكَ...».
تبادلتُ وأروى نظرة سريعة، ثمّ وقفتُ والاضطراب يعتريني...
قلتُ:
«مَنْ؟؟».
«شقيقكَ».
وازداد اضطرابي...
ذهبتُ إلى الهاتف والتقطتُ السماعة وتحدثتُ بقلق:
«نعم؟ هنا وليد».
«مرحباً يا وليد... كيف أنتَ؟».
«بخير...».
وصمتُ قليلاً... كنتُ متوجّساً مِنْ سماع خبر جديد سيئ، فقد كان اتصالنا الأخير قبل

ليلة فقط...

«ما الأمر سامر؟؟».

«لا تقلق! إنني فقط أريد أنْ أؤكد عليكَ الحضور الليلة...».

فكّرتُ في نفسي... ومَنْ قال إنني أودُّ الحضور؟؟؟ لم يكن ينقصني إلا أنْ أشهد يوماً تُزفُّ فيه رغد... حبيبتي الغالية... معشوقة قلبي الصغيرة إلى أخي... وأنا واقفٌ أتفرّج وأبار ك!؟؟

«آسف، لن يمكنني الحضور».

«لماذا؟؟».

«لديَّ ارتباطاتٌ أخرى... كما أنني متعبٌ ولا طاقة لي بالسفر...».

«ودانة؟؟ ألا تريد رؤيتها قبل رحيلها؟؟».

لم أجد الجواب المناسب...

ثم قلتُ:

«إنها لن تتشرّف بوجودي على أية حال».

«سأجعلها تحدّثك بنفسها».

ثم ناول الهاتف إلى دانة... فسمعتُ صوتها يحييني ويسأل عن أحوالي، ثمَّ تقول:

«تعال يا وليد... يجب أنْ تحضر عرسي».

«آسف... لا أريد إحراجكِ أمام زوجكِ وأهله... بانتسابكِ إلى رجلٍ مجرمٍ وخرّيج سجون».

هنا بدأتْ دانة بالبكاء وهي تقول:

«أرجوكَ وليد... سامحني...».

لم أعقّب... قالتْ:

«سأكون أتعس عروس ما لَمْ تحضر... ألا يكفي أنّ والديَّ لن يكونا معي؟؟ احضر مِنْ أجلي».

«ستكونين أسعد بدون حضوري».

عادتْ تبكي ثمَّ قالتْ:

«حسناً، ليس مِنْ أجلي... بل مْنْ أجل رغد».

وشعرتُ برغبة مفاجئة في التقيؤ... أأحضر مِنْ أجل زفِّ حبيبتي إلى عريسها؟؟

إنني إنْ حضرتُ سأرتكب جريمة قتل ثانية، لا محالة...

زمجرتُ:

«لن أحضر يا دانة انتهى الأمر».

«ولا مِنْ أجلها؟؟».

«ولا مِنْ أجل أي كان...».

«لكنها تريدك أنْ تحضر... وليد... أرجوكَ».

«يكفي يا دانة...».

«وليد... رغد مريضة».

هنا... تفجّر قلبي نابضاً بعنف وتوترتْ معدتي وتصلّبتْ عضلاتي واندفعتْ أنفاسي بقوة وهتفتُ:

«ما بها؟؟».

غير أنَّ دانة لم تجب... بل أجهشتْ بكاءً... ويظهر أنَّ سامر تناول السماعة مِنْ يدها. كنتُ أهتف:

«دانة اخبريني ما بها رغد؟؟ تكلمي؟؟».

جاءني صوت سامر قائلاً:

«لا تقلق، إنها متوتّرة بعض الشيء».

هتفتُ بقوة:

«سامر أصدقني القول... ما بها رغد؟؟».

«لا تخشى شيئاً يا وليد...».

«إياكما أنْ يكون أحدكما قد أذاها في شيء أو أجبرها على شيء؟؟».

«لا، شقيقكِ ليس وغداً ليُجبر فتاة على الزواج منه، وهي كارهة».

كأنَّ كتلة كبيرة مِنْ الثلج وقعتْ فوق رأسي... أفقدتني السيطرة على لساني وعلى أطرافي بل وعيني كذلك...

كأنه أغشى عليَّ... كأني فقدتُ الوعي والإدراك... كأنني سبحتُ في فضاء رحيب مِنْ الوهم والخيال...

إنني فعلاً على وشك إفراغ كل ما ابتلعتُه على الفطور خارجاً مِنْ معدتي... ومِنْ فمي...

والشيء الذي خرج مِنْ فمي كان صوتاً مبحوحاً ضعيفاً مخنوقاً سائلاً:

«ألن... تتزوّجا الليلة؟».

سامر لمْ يجب مباشرة، ثمَّ قال:

«كلا... إلا إذا عادتْ العروس وغيّرتْ رأيها قبل المساء...».

بعدما أنهيتُ المكالمة تهالكتُ على معقدٍ قريب... وأغمضتُ عيني...

كنتُ أريد فقط أنْ أتنفّس... كان صدري يتحرّك بقوة، تماماً كقوّة اندفاع الدم خارجاً مِنْ قلبي...

رغد لن تتزوّج الليلة...

رغد لا تزال طليقة...

رغد لا تزال بين يدي...

وشعرتُ بشيء يلامس يدي...

فتحتُ عيني ولساني يكاد يصرخ:

(«رغد!»).

فوقعتْ عيناي على أروى... واقفةً أمامي مباشرة تلامس يدي... وتقول بابتسامة ممزوجة ببعض القلق:

«ما الأمر وليد؟؟».

كدتُ أضحك!

نعم إنني أريد الآن أنْ أضحك لسخرية القدر مني!

بل بدأتُ بالضحك فعلاً...

وأروى ضحكتْ لضحكي... وهي تجهل ما حقائق الأمور...

قالتْ:

«ما يضحككَ وليد؟ أضحكني معكَ؟؟».

حدّقتُ بها فرأيتُ ما لم أتمنّى أنْ أراه...

قلتُ:

«أختي دانة ستتزوّج الليلة...».

اتّسعتْ ابتسامتها وقالتْ:

«صحيح؟ أين؟ مبروك!».

هززتُ رأسي ساخراً مِنْ حالي المضحك، وقلتُ:

«حفلة صغيرة جداً، في الشقة التي يسكنون فيها... وهي تريد مني الحضور».

اتّسعتْ ابتسامتها أكثر وقالتْ مبتهجة:

«عظيم! رائع! أيمكنني الذهاب معكَ؟؟».

الحلقة التاسعة والعشرون

زلزلة القلوب

- رغد -

أعدُّ الدقائق واحدةً تلو الأخرى، في انتظار وصول وليد...

رغم أنها مجرّد أيام، تلك التي فصلتْ بيننا مذ لقائنا الأخير، غير أنني أشعر بها كالشهور... لا بل كالسنين... نعم كالسنين التي قضيتها محرومةً منْ رؤيته، ومعتقدةً بأنه سافر يدرس... بينما كان...؟

كلما جالتْ هذه الخاطرة برأسي طردتها مسرعة، وأجبرتُ نفسي على الفرح... فهو سيصل اليوم في أية لحظة...

سامر تحاشى الحديث معي منذ الصباح، إنّه فقط مهتمٌ بالإعدادات للحفلة البسيطة، وقد قام هو ودانة بترتيب مائدة في الصالة، لاستقبال الرجال، وأخرى في غرفة المجلس، لاستقبال السيدات.

حاولتُ مساعدتهم لنني كنتُ متعبة منْ آثار الصدمة التي تلقيتُها مؤخراً ولم تسعفني قواي البدنية على فعل شيء أكثر منْ المراقبة عن كثب...

بعد تأدية صلاة العشاء، أتتني دانة لتتحدّث معي الحديث الأخير... قبل فراقنا...

ابتداءً منْ هذه الليلة، سوف لن يكون لدي أختٌ أتشاجر معها! منْ سيعلّق على مظهري كلّما ارتديتُ شيئاً جديداً؟؟ منْ سيوبّخني كلّما أخطأتُ؟! منْ سيغار مني وأغار منه ويشاكسني وأشاكسه؟؟

مّنْ سيعلّمني أشياءً أجهلها ويفتح عيني على الحياة...؟؟ دانة كانتْ بالنسبة لي... الباب إلى الحياة، فأنا لم أعرف منْ هذه الدنيا شيئاً إلا عن طريقها...

ورغم أنَّ الفرق بين عمرينا هو سنتان ونصف، إلا أنني أشعر بنفسي صغيرةً جداً أمامها... وأحسّها أختي الكبرى ومعلّمتي الحبيبة...

لذا، عندما دخلتْ الغرفة وأنا لا أزال مرتدية حجاب الصلاة وقالتْ:

«سأتخلّص منكِ أخيراً!».

انفجرنا ضحكاً، ثمّ بكاءً... شديداً جداً... جعل سامر يقف عند الباب مذهولاً حائراً!

«لمن ستتركينني دانة؟ سأبقى وحيدة منعزلة عن العالم منْ بعدكِ!».

«هنيئاً لكِ! ستنفردين برعاية أبي وتدليله وغنجه! أنتِ مثل القطة رغد! مهما كبرتِ تظلين متدلّلة! كان الله في عون الرجل الذي ستتزوجينه!».

الآن صارتْ تشير إليه بالمجهول! لم تذكر اسم سامر... فهي إذن اقتنعتْ أخيراً بأنَّ سامر لمْ يعد لي...

نظرتُ أنا نحو سامر فوجدتُ وجهه المشوّه غارقاً في الحزن... وكرهتُ نفسي... كرهتُ قدري... وظروفي التي انتهتْ بي وبه إلى هذه الحال...

أعدتُ نظري إلى دانة... نظرة استغاثة... استنجاد... أريد منْ ينقذني منْ هذا كله... فوجدتُ على وجهها ابتسامة خفيفة، وسمعتُها تهمس:

«على كلٍ، هو يحب تدليلكِ أيضاً!».

ابتسمتُ، وضممتُها إليَّ، وأنا أشعر بأنها المرّة الأولى التي تفهمني فيها...

ربّاه! كيف تغيّرتْ بهذا الشكل بين ليلة وضحاها؟؟

هل يعني هذا أنها موافقة على وراضية عن انفصالي عن سامر، وتعلّقي بوليد؟؟

هل تدرك هي أنني أحبُّ وليد؟؟ ووليد فقط؟؟

وليد قلبي...

آه كم أنا متلهفة لرؤيتكَ...

عُد بسرعة... اظهر فوراً... فقد أضناني الشوق والحرمان...

قمتُ بعد ذلك ولبستُ فستاناً أهداني إيّاه سامر منْ أجل الحفلة، ووضعتُ بعض الحلي، والتي أيضاً أهداني إياها سامر... وارتديتُ حذاءً عالي الكعب جداً، كالعادة، وبصراحة... أهداني إياه سامر أيضاً!

سامر اشترى لنا أنا ودانة الكثير منْ الحاجيات بمقتضى الحال...

لمْ أضع شيئاً منْ المساحيق على وجهي، فأنا أريد مقابلة وليد قلبي اليوم وجهاً لوجه...

بدوتُ مسرورةً، أحوم كالفراشة... وعندما حضر الضيوف أحسنتُ استقبالهم وقدتُ النساء إلى المجلس... كانتْ أمُّ نوار وأخواته، في غاية الأناقة والجمال... يرتدين ملابس مبهرة وحلياً كثيرة... وقد تلوّنت وجوههن بالماكياج المتقن جداً!

شعرتُ ببعض الخجل منْ نفسي لكوني بلا ألوان، في ليلة عرس أختي الوحيدة! لكن مع ذلك، أبدو جميلة فلا تلتفتوا لهذا الأمر!

حضرتْ العروس بعد ذلك إلى مجلس النساء، في قمة جمالها وروعتها... وأخذنا نلتقط العديد منْ الصور التذكارية، وسأظهر أنا أيضاً جميلةً رغم كل شيء!

مرَّ الوقت... ومع انقضاء كل ساعة ينقضي خيط أمل في حضور وليد... لماذا لم يحضر بعد؟؟ أحقاً سيأتي أم أنّه...؟؟

ذهبتُ إلى المطبخ لجلب المزيد منْ العصائر فإذا بي أصادف سامر هناك، يحمل أطباق الجلي...

قلتُ:

«ألم يحضر وليد؟؟».

سامر تظاهر بالابتسام وقال:

«ليس بعد».

قلتُ:

«هل أنتَ واثق منْ حضوره؟ هل قال أنه آتٍ بالفعل؟؟».

«قال أنَّ لديه ارتباطاتٌ ومشاغل أخرى، لكنه سيحاول الحضور...».

نظرتُ إلى الساعة المعلّقة على جدار المطبخ بيأس...

قال سامر:

«لا يزال الوقت مبكراً... لا تقلقي...».

ثم غادر المطبخ...

- سامر -

اعتقد إنّ منْ حقّي أنْ آخذ هذه المساحة بين السطور... لأصف لكم مشاعري المجروحة...

إذا كان هناك رجلٌ تعيسٌ في الدنيا فهو أنا... كيف لا وأنا أرى مخطوبتي... محبوبتي... عروسي رغد... تعدّ الدقائق بلهفة في انتظار عودة وليد... شقيقي... حبيب قلبها...؟؟

أصبتُ بالجنون، حين اعترفتْ لي وبلسانها أنها تحبه هو... وأنّه هو السبب في قرارها بالانفصال عنّي، في آخر الأيام، بعد خطوبة استمرتْ أربع سنوات أو يزيد...

أربع سنوات منْ الشوق واللهفة... والحبِّ والهيام... في انتظار الليلة التي تجمعنا أنا وهي... عريسين في عش الزوجية... ثمّ يأتي وليد... وفي غضون شهور أو ربما أيام... يسرق قلبها منّي!

رغد لمْ تقل لي منْ قبل (أنا أحبّكَ) ولكنها أيضاً لمْ تقلْ (أنا لا أحبّكَ)...

بل كانتْ الأمور فيما بيننا تجري على خير ما يرام... حتى أخبرني وليد نفسه ذات ليلة بأنها ترغب في تأجيل زواجنا...

الشيء الذي لا أعرفه حتى هذه اللحظة، ما إذا كان وليد يعرف بحبها له أو يبادلها الشعور ذاته، أم لا...

أنا أعرف أنّه يحبّها ويهتمّ بها كأخت... أو ابنة عم... أما كحبيبة... كزوجة... فهذا ما لا أعرفه ولن أحتمل صدمة معرفته، إنْ كان يحبّها بالطريقة التي أحبها أنا بها...

أتذكّر أنها في اليوم الذي عُرِضَ عليها ارتباطنا قبل سنين قالتْ: (لننتظر وليد أولاً).

ولأنه كان منْ المفترض ألا يعود إلا بعد أكثر منْ عشر سنين منْ ذلك الوقت، فإننا عقدنا قراننا بموافقة الجميع...

وأنا أنظر إليها هذه اللحظة وهي تراقب الساعة، أشعر بأنَّ خلايا قلبي تتمزّق خلية خلية، بل... وأنويتها تنشطر... وذراتها تتفكك وتتبعثر كالغبار في مهبِّ الريح...

لماذا فعلتِ هذا بي يا رغد؟؟

إنْ كنتِ تجهلين، فأنا أحبّك حباً لا يمكن لأيِّ رجل في الدنيا أنْ يحمل في قلبه حباً مثله... حباً يجعلني أدوس على مشاعري وأحرق أحاسيسي رغماً عنها، لأجعلكِ تحيين الحياة التي تريدينها مع الشخص الذي تختارينه...

وليته كان أنا...

وإنْ اكتشفتُ أنَّ وليد لا يكترث لكِ، فإنني لن أقف صامتاً، وأدعكِ تبعثرين مشاعرَ أنا الأولى بها منْ أي رجل على وجه المعمورة، بل سآخذكِ معي... وأحيطكِ بكل ما أودع الله قلوب البشر منْ حبٍ ومودّة، وأحملكِ إلى السحاب... وإنْ شئتِ... أتحوّل إلى وليد... أو إلى أي رجلٍ آخر تريدين أنْ تصبي مشاعركِ في قلبه...

فقط... اقبلي بي...

غادرتُ المطبخ على عجل، لئلا أدع الفرصة لرغد لرؤية العبرة المتلألئة في محجري...

نعم، سأبكي لتضحكي أنتِ... وسأحزن لتفرحي أنتِ... وسأنكسر لتنجبري أنتِ... وسأموت... لتحيَي أنتِ... يا حبيبة لمْ يعرف الفؤاد قبلها حبيبة... ولا بعدها حبيبة... ولا مثلها حبيبة... وسيفنى الفؤاد، وتبقى هي الحبيبة... وهي الحبيبة... وهي الحبيبة...

عندما وصل وليد، كانتْ الساعة تشير إلى الحادية عشر وخمس وأربعون دقيقة، أي قبل ربع ساعة منْ ولادة يوم جديد... خالٍ منْ رغد...

قُرِعَ الجرس، فأقبلتُ نحو الباب وسألتُ عن الطارق، فأجاب:

«أنا وليد».

جمّدتُ مشاعري تحتَ طبقة منْ الجليد، لا تقلُّ سماكةً عن الطبقات التي تغطّي المحيط المتجمّد الجنوبي... وفتحتُ الباب...

تلك الطبقة انصهرتْ شيئاً فشيئاً، لا بل دفعةً واحدةً حين وقعتْ عيناي على الشخصين الواقفين خلفه، وليد، والفتاة الشقراء!

«مرحباً... سامر...».

بصعوبة تمكّنتُ منْ ردِّ التحية ودعوتهما للدخول... وعلامات التعجّب والتساؤل تدور حول رأسي!!

وليد كان يرى الدهشة عليَّ مجردةً مِنْ أي مداراة مفتعلة! قال، وهو يشير إلى الفتاة الواقفة إلى جانبه تبتسم بهدوء:

«أروى نديم، تعرفها».

قلتُ:

«أأأ... أجل...».

قال:

«خطيبتي».

ومِنْ القطب الجنوبي، إلى أفريقيا الاستوائية!

اعتقد أنكم تستطيعون تصوّر الموقف خيراً مِنْ أي وصف أنقله لكم!

«خـ.. ـطيبتكَ!!».

«نعم، ارتبطنا البارحة».

نظرتُ إلى الفتاة غير مصدّق، أطلب منها تأكيداً على الكلام، ابتسمتْ هي ونظرتْ نحو وليد...

وليد قال:

«ألن تبارك لنا؟؟».

«أأأ... نعم... طبعاً... لكنني تفاجأتُ، تفضّلا على العموم، مبروكٌ لكما...».

وقدتُهما أولاً نحو المجلس، حيث النسوة...

طرقتُ الباب وأنا أنادي أختي دانة... فتحتْ هذه الأخيرة لي الباب وخرجتْ مِنْ فتحته الضيّقة، وحالما أغلقتْه انتبهتْ لوليد...

«وليد!!».

أشرق وجهها وتفجّرتْ الأسارير عليه... ثمّ فتحتْ ذراعيها وأطبقتْ عليه معانقةً إيّاه عناقاً حميماً ساخناً جداً...

«نعم... كنتُ أعلم بأنك ستأتي ولن تخذلني، فأنتَ لمْ تخذلني ليلة خطوبتي... أنا سعيدةٌ جداً...».

وليد قال:

«مبروك عزيزتي... أتمّ الله سعادتكِ وباركَ لكِ زواجك...».

بعد ذلك، رفعتْ رأسها لتنظر إليه، ثمّ دفنتْه في صدره وهي تقول:

«سامحني... لمْ أكن أعلم... سامحني يا أخي الحبيب... كنتُ مغفّلة جاهلة حمقاء... أنا فخورة بكَ... وأتباهى أمام جميع المخلوقات... بأنَّ لي أخاً مثلك... يشرّفني وافتخر به... سامحني...!!».

وليد ربَّتَ على ظهر دانة بحنان، وإنْ كانتْ الدهشة والحيرة تعلوان وجهه، وقال مواسياً:

«لا بأس عزيزتي... لا تبكي وإلا أفسدتِ زينتكِ، وغيّر المغرور رأيه بكِ!».

رفعتْ دانة رأسها وانفجرتْ ضحكاً، ووكزته بمرفقها وهي تقول:

«لمْ تتغيّر! سوف أطلب مِنْ نوّار أنْ يضربكَ قبل خروجنا!».

قلتُ أنا:

«احذري! وإلا خرج عريسكِ بعاهةٍ مستديمة!».

وضحكنا بانفعال نحن الثلاثة...

التفتَ وليد للوراء حتى ظهرتْ خطيبته الجديدة، والتي كانت تقف على بعد خطوات...

قال:

«اقتربي أروى».

اقتربتْ الفتاة وهي تنظر نحو العروس، وتحييها...
«مبروك دانة! كم أنتِ جميلة!».
دانة حملقتْ في الفتاة قليلاً ثمّ قالتْ محدّثة وليد:
«هل حضرتْ عائلة المزارع؟؟».
وليد قال:
«أروى فقط...».
فتعجّبتْ دانة، فوضّح:
«خطيبتي».
طغى الذهول على وجهها ربما أكثر مني، قالتْ باستغراب شديد:
«خطيبتك!!».
قال وليد:
«نعم، عقدنا قراننا البارحة... باركي لنا نحن أيضاً».
الاضطراب تملّك دانة، وحارتْ في أمرها ولزمتْ الصمت لوهلة، إلا أنها أخيراً تحدّثت:
«فاجأتماني... بشدّة!... مبروك على كل حال».
وكان واضحا لنا، أو على الأقل واضحاً لي استياؤها مِنْ المفاجأة...
قلتُ:
«فلتتفضّل الآنسة...».
دانة التفتتْ إلى أروى وقالتْ:
«تفضلي».
وفتحتْ الباب لتسمح لها بالدخول... وقالتْ مخاطبةً إيّاي:
«رغد في غرفتها... ذهبتْ لاستبدال فيلم الكاميرا...».
وكان القلق جلياً على ملامحها...
قال وليد:
«جيّد! أأستطيع رؤيتها؟؟».
تبادلنا أنا ودانة النظرات ذات المعنى... وقالتْ هي:
«نعم، سأدخل لأقدّم أروى للجميع».
ودخلتْ الغرفة وأغلقتْ الباب تاركةً إياي في المأزق بمفردي!
وليد التفتَ إليّ وقال:
«أريد إلقاء التحية عليها... إنْ أمكن».
أنا يا مَنْ كنتُ أدرك أنها تنتظره بلهفة منذ ساعات... وأنها ستطير فرحاً متى ما رأته... لم أملك مِنْ الأمر شيئاً... ولمْ تخطر ببالي أي حيلة...
قلتُ باستسلام:

«أجل، تفضّل...».

وقدتُ بنفسي، حبيب خطيبتي إلى غرفتها لكي تقابله...

طرقتُ الباب وقلتُ:

«رغد... وليد معي».

قاصداً أنْ أنبّهها لحضوره، لكي ترتدي حجابها...

إلا أنني ما كدتُ أتمُّ الجملة، حتى انفتح الباب باندفاع سريع، وظهرتْ مِنْ خلفه رغد... وهتفتْ بقوّة:

«وليـــد!».

أي رجلٍ في هذا العالم، يحمل ذرة حبٍ واحدة فقط لخطيبته، أو حتى ذرة شعور بالملكيّة والغيرة، فإنه في لحظةٍ كهذه سيرفع كفّيه ويصفع وجهي الشخصين الماثلين أمامه في مشهدٍ عاطفي حميم كهذا... لكنني أنا... سامر العاشق المسلوب الحبيبة... المغطّي لمشاعره بطبقة مِنْ الجليد... وقفتُ ساكناً بلا حراك وبلا أي ردّة فعل... أراقب خطيبتي وهي ترتمي في حضن أخي بقوة... وتهتف بانفعال:

«وليد... لماذا لم تخبرني... لماذا... لماذا..؟؟».

- وليد -

وإنْ كنتُ أتظاهر بالبرود والصمود، فإنَّ ما بداخلي كان يشتعل كالحمم...

وإنْ كنتُ أتظاهر بأنني فقط أودُّ إلقاء التحية، فإنَّ حقيقة ما بداخلي هي أنني متلهفٌ لرؤية صغيرتي الحبيبة والإحساس بوجودها قريبةً مني...

لقد كنتُ أسير خطوة خطوة... ومع كل خطوة أفقد مقداراً مِنْ قوّتي كما يفقد قلبي السيطرة على خفقاته، فتأتي هذه الأخيرة عشوائية غير منظمة... تسبق الواحدة منها الأخرى...

وحين فُتِحَ الباب... كنتُ قد أحرقتُ آخر عصب مِنْ جسدي مِنْ شدة التوتّر... لدرجة أنني لمْ أعد أحسُّ بشيء...

أي شيء...!

لمْ أعِ إلا وقذيفة ملتهبة قوية تضرب صدري... تكاد تكسر ضلوعي وتخترق قلبي...

بل إنها اخترقته...

فرغد لم تكن تقف أمامي بل... كانتْ تجلس في قلبي متربعةً على عرش الحكم... تزيد وتنقص ضرباته قدر ما تشاء... تعبث بأعصابه كيفما تريد... تسيّر أحاسيسه حسبما ترغب...

ولأنني كنتُ مذهولاً وفاقداً للسيطرة على حركاتي تماماً، فقد بقيتُ ساكناً... دون أي ردّة فعل...

كان صدري مثل البحر... غاصتْ صغيرتي في أعماقه وقطعته طولاً وعرضاً... وخرجتْ منه مبللة بالدموع وهي تنظر إليّ وتهتف:

«لماذا لمْ تخبرني؟؟ لماذا يا وليد؟ لِمَ أخفيتَ عنّي كل هذه السنين؟؟».

شيءٌ ما بدأ يتحرّك في دماغي المغلق... ويفتح أبواب الوعي والإدراك لما يدور مِنْ حولي...

بدأتُ أنتبه لما تقوله صغيرتي... وبدأتُ أحسُّ بأظافرها المغروسة في لوحي كتفيَّ كالمسامير... وبدأتُ أرى اللآلئ المتناثرة مِنْ محجريها... أغلى ما في كوني...

لا شعورياً رفعتُ يدي إلى وجهها أردم سيل العبر...

«لا تبكي صغيرتي أرجوكِ...».

فأنا أتحمّل أيَّ شيء في هذه الدنيا، إلا أنْ أرى دموع غاليتي تتبعثر سدى...

إنني أشعر بحرارة شديدة أجهل مصدرها الحقيقي...

أهو داخلي؟ أم حضن صغيرتي؟ أم الشرر المتطاير مِنْ عينَي أخي، اللتين تحملقان بنا بحدّة...؟؟

رغد أزاحتْ يديها عنّي، وابتعدتْ خطوة... وذلك أثار شحنةً متوتّرة في المسافة التي بيننا... تماماً كالتوتر الذي يولّده ابتعاد قطعة حديد صغيرة عن مغناطيس!

قالتْ:

«لقد اكتشفتُ ذلك الآن فقط... لماذا لمْ تخبرني بأنّكَ... بأنّكَ... كنتَ في السجن؟؟».

وإنْ كانتْ مشاعري قبل قليل مخدّرةً مِنْ تأثير قرب رغد، فإنها استيقظتْ كلّها دفعةً واحدة فجأةً... وتهيّجتْ... فصرتُ أشعر بكلِّ شيء، حتى بحرارة البراكين الخامدة في اليابان!

نقلتُ نظري مِنْ رغد، إلى سامر، إلى رغد، إلى سامر... وحين استقرّتْ عيناي عليه، رأيتُ قنبلة متوهّجة، على وشك الانفجار...

لطفكَ يا رب...!!

قلتُ أخيراً:

«أنتَ مَنْ أخبرها؟؟».

سامر لمْ يجبْ بكلمة، بل بإيماءة وتنهيدة نفثها صدره... أحسستُ بحرارتها هي أيضاً...

أعدتُ النظر إلى رغد... فاسترسلتْ في سؤالي:

«لماذا لمْ تخبرني؟؟».

أخبركِ؟؟ بأي شيءٍ يا رغد؟؟ ألمْ ترَي الطريقة التي عاملتني بها دانة، بل والناس أجمعون؟

أتراكِ تنظرين إليَّ الآن مثلهم؟؟

لا يا رغد... أرجوك لا...

قلتُ بلا حول ولا قوّة:

«ما حصل...، لكن... أرجو ألا يغيّر ذلك أي شيء؟؟».

وانتظرتُ إجابتها بقلق...

قالتْ:

«بل يغيّر كل شيء...».
وأذهلتْني هذه الإجابة بوضوحها وغموضها المقترنين في آن واحد...
قالتْ:
«وليد... وليد أنا...».
ولمْ تتم، إذ أنّ دانة ظهرتْ في الصورة الآن مقبلةً نحو غرفة رغد... وتكسوها علامات القلق...
جالتْ بمقلتيها بيننا نحن الثلاثة واستقرّتْ على سامر... شعرتُ أنا بأنَّ هناك شيءٌ ما يدور في الخفاء أجهله...
سألتُ:
«ما الأمر؟؟».
لم يُجب أي منهم بادئ ذي بدء إلا أنَّ دانة قالتْ أخيراً، مديرةً دفّة الحديث لمنعطف آخر:
«رغد! الكاميرا! سنستدعي نوّار الآن!».
ثم التفتتْ نحو سامر:
«إنّه منتصف الليل! هيا استدعِه!».
ويبدو أنَّ ترتيباتهم كانتْ على هذا النحو، أنْ يدخل العريس إلى تلك الغرفة لالتقاط بعض الصور مع العروس ومع والدته وشقيقاته قبل المغادرة.
سامر نطق أخيراً:
«سأستدعيه... أخبريهن».
ورغد تحرّكتْ الآن مِنْ أمامي متّجهةً نحو المنضدة ومِنْ فوقها تناولتْ الكاميرا وأقبلتْ نحو دانة ومدّتْ الكاميرا إليها، فقالتْ دانة:
«أعطيها لسامر الآن...».
التفتتْ رغد نحو سامر... وقدّمتها إليه...
سامر نظر إلى رغد نظرة عميقة... جعلتْها تطأطئ رأسها أرضاً... أخذ سامر الكاميرا منها... وقال..
«سنلتقط له معنا بعض الصور ثمّ نعيدها إليكن...».
قال ذلك ووجّه خطاه نحو الصالة...
هممتُ أنا باللحاق به... إلا أنني توقفتُ، والتفتُ إلى رغد... وقلتُ:
«كيف قدمكِ الآن؟».
رغد والتي كانتْ لا تزال مطأطئةً برأسها رفعته أخيراً ونظرتْ إليّ مبتسمة وقالتْ:
«طاب الجرح...».
«الحمد لله».

ثم أوليتُها ظهري منصرفاً إلى حيث انصرف أخي...

- رغد -

كنتُ مجنونةً، لكنني لم أتمالك نفسي بعدما رأيتُ وليد يقف أمامي... بطوله وعرضه... وجسده وأطرافه... وعينيه وأنفه المعقوف أيضاً...

كأنَّ سنيناً قد انقضتْ مذ رأيتُه آخر مرّة، ينصرف مِنْ هذه الشقة جريحاً مكسور الخاطر...

اندفعتُ إليه بجنون... وأي جنون!

ظللتُ أراقبه وهو يوّلي... حتى اختفى عن ناظريَّ... وبقيتُ محدّقة في الموضع الذي كان كتفاه العريضان يظهران عنده قبل اختفائه، وكأنني لا زلتُ أبصر الكتفين أمامي!

«رغد!».

نادتْني دانة، فحرّرتُ أنظاري مِنْ ذلك الموضع والتفتُ إليها... ورأيتُها تحدّق بي وعلامات غريبة على وجهها...

أنا ابتسمتُ... لقد قُرّتْ عيناي برؤية وليد قلبي... ولأنه هنا...، فقط لأنه هنا، فإنَّ هذا يعطيني أكبر سبب في الحياة لأبتسم!

لا أعرف لِمْ كانتْ نظرة دانة غريبةً... ممزوجة بالأسى والقلق... قلتُ:

«ما بكِ؟».

«لا... لا شيء».

«سأغسل وجهي وأوافيكن...».

وأسرعتُ قاصدة الحمّام... طائرة كالحمامة!

بعد ذلك، ذهبتُ إلى غرفة المجلس... مرتدية حجابي، إذ أنّني سأبقى لأتفرّج على العريسين ولمياء - شقيقة نوار - تلتقط الصور لهما...

جميعهن كنَّ يجلسن في أماكنهن كما تركتهنَّ قبل قليل، نظرن إليَّ جميعا حالما دخلتُ... فابتسمتُ في وجوههنَّ...

فجأةً لمحتُ وجهاً غريباً في غير موقعه!

وجه أروى الحسناء!

دُهشتُ وعلاني التعجُب! وقفتْ هي مبتسمةً وقائلة:

«مرحباً رغد! كيف حالكِ؟ وكيف صحّتكِ؟؟».

«أروى!!».

«مفاجأة أليسَ كذلك؟؟».

اقتربتُ منها وصافحتُها والدهشة تتملّكني... ونظرتُ في أوجه الأخريات بحثاً عن وجه أمِّ أروى... أو حتى وجه العجوز!

قلتُ:

«أهلاً بكِ! أحضرتِ بمفردكِ؟؟».

ابتسمتْ وقالتْ:

«مع وليد».

مع مَنْ؟؟ ماذا قالتْ؟؟ مع وليد؟؟ ماذا تقصد هذه الفتاة؟؟

«مع وليد؟؟».

ازدادتْ ابتسامتها اتساعاً ووجنتاها حمرةً وعيناها بريقاً... والتفتتْ نحو دانة ثمّ نحوي وقالتْ:

«ألمْ تخبركِ دانة؟؟».

التفتُّ نحو دانة وأنا في غاية الدهشة والقلق... ورميتُها بنظرات متسائلة حائرة... دانة أيضاً نظرتْ إليَّ بنفس القلق... ثمّ قالتْ:

«إنها... إنها ووليد...».

ولمْ تتمْ...

نظرتُ إلى أروى، فسمعتُها تقول متمّة جملة دانة، تلك الجملة التي قضتْ عليّ وأرسلتني إلى غابة الهلاك فوراً:

«ارتبطنا... البارحة».

عفواً؟؟ عفواً؟؟ فأنا ما عدتُ أسمع جيداً مِنْ هول ما سمعتْ أذناي مؤخراً! دوي الانفجارات... القنابل... الأشياء تتحطّم وتتكسّر... الصدمات... المفاجآت...

ماذا تقول هذه الفتاة؟؟

«ماذا؟؟».

ورأيتُها تبتسم وتقول:

«مفاجأة! أليسَ كذلك؟؟».

نظرتُ إلى دانة لتسعفني...

دانة أنقذيني ممّا تهذي به هذه... ما الذي تقوله فلغتها غريبة... وشكلها غريبٌ... ووجودها في هذا المكان غريبٌ أيضاً...

دانة نظرتْ إليَّ بحزن، لا... بل بشفقة، ثمّ أرسلتْ أنظارها إلى الأرض...

غير صحيح!

غير ممكن... مستحيل... لا لنْ أصدّق...

«أنتِ و... وليد ماذا؟؟ ار... تبطـ... ـتما؟؟».

«نعم، البارحة... وجئتُ معه كي أبارك للعريسين زواجهما...».

خطوةٌ إلى الوراء، ثمّ خطوة أخرى... يقترب الباب منّي، ثمّ ينفتح... ثمّ أرى نفسي أخرج عبره... ثمّ أرى الجدران تتمايل... والسقف يهوي... والأرض تقترب مني... والدنيا تظلم... تظلم... تظلم... ويختفي كلُّ شيء...

«سامر... تعال بسرعة».

هتافُ شخصٍ ما... يدوي في رأسي... أيدي أشخاصٍ ما تمسك بي... أذرع أشخاصٍ ما تحملني... وتضعني فوق شيءٍ ما... مريح وواسع...

أكففٌ تضرب وجهي... أصواتٌ تناديني... صياح... دموع... لا ليستْ دموع... إنها قطرات مِنْ الماء تُرشُّ على وجهي... أفتح عينَيَّ... فأرى الصورة غير واضحة... كل شيءٍ ممّا حولي يتمايل ويتداخل ببعضه البعض... الوجوه، الأيدي... السقف... الجدران... أغمض عيني بشدَّة... أحرّك يدي وأضعها فوق جفوني... لا أتحمّل النور المتسلّل عبرها... أشعر بدوار... سأتقيّأ... ابتعدوا... ابتعدوا...

* * *

عندما استردّتْ رغد وعيها كاملاً، كان ذلك بعد عدّة دقائق مِنْ حضورنا إلى الممر ورؤيتنا لها مرميّة على الأرض...

كنا قد سمعنا صوت ارتطام، شيءٍ ما بالأرض، ثمّ سمعنا صوت دانة تهتف:

«سامر... تعال بسرعة».

قفزنا نحن الاثنان، أنا وسامر هو يهرول وأنا أهرول خلفه تلقائياً حتى وصلنا إلى هناك...

دانة كانتْ ترفع رأس رغد وتضعه على رجلها وتضرب وجهها محاولة إيقاظها... ورغد كانتْ مغشي عليها...

أسرعنا إليها، ومددتُ أنا يدي وانتشلتُها عن الأرض بسرعة ونقلتُها إلى سريرها وجميعنا نهتف

«رغد... أفيقي...».

هتفتُ:

«ماذا حدث لها؟؟».

دانة أسرعتْ نحو دورة المياه، وعادتْ بمنديل مبلّل عصرتْه فوق وجه رغد، والتي كانتْ تفتح عينيها وتغمضهما مراراً...

استردّتْ رغد وعيها وأخذتْ تجول ببصرها فيما حولها... وتنظر إلينا واحداً عقب الآخر... ولم يبدُ أنّها تميّزنا...

قال سامر:

«سلامتكِ حبيبتي... هل تأذيتِ؟؟».

قالتْ دانة:

«أأنتِ على ما يرام رغد؟؟».

قلتُ أنا:

«ماذا حدث صغيرتي؟؟».

نظرتْ رغد نحوي نظرة سارحة... ثمّ ركّزتْ النظر عليَّ... ثمّ جلستْ وصاحتْ:

«سأتقيأ».

بعدما هدأتْ مِنْ نوبة التقيؤ، وضعتْ رأسها على صدر سامر وطوّقته بذراعيها وأخذتْ تبكي...

سامر أخذ يمسح على رأسها المغطّى بالحجاب... ويتمتم:

«لا بأس عليكِ حبيبتي، اهدئي أرجوك... فداكِ أي شيء...».

قلتُ:

«صغيرتي؟؟».

رغد غمرتْ وجهها في صدر سامر... مبللة ملابسه بالدموع...

«صغيرتي..؟؟».

«دعوني وحدي... دعوني وحدي...».

وأجهشتْ بكاءً شديداً...

لمْ أعزم الحراك ولمْ أستطعه، إلا أنّ دانة قالتْ لي:

«لنخرج وليد».

قلتُ بقلق:

«ماذا حدث يا دانة؟؟».

قالتْ:

«قلتُ لكَ... إنها مريضة! هذه المرة الثالثة التي يُغشى عليها فيها منذ الأمس...».

صعقني هذا النبأ...

قلتُ مخاطباً رغد:

«رغد هل أنتِ بخير...؟؟».

لمْ تلتفت إليّ، بل غاصتْ برأسها أكثر وأكثر في صدر سامر وقالتْ:

«دعوني وحدي... دعوني وحدي...».

يد دانة الآن أمسكتْ بيدي، وحثّتني على السير إلى الخارج، ثمّ أغلقتْ الباب... حاولتُ التحدّث معها إلا أنها اعترضتْ حديثي قائلة:

«سوف أعود لأطمئن ضيفاتي... وليد استدعِ نوّار...».

وانصرفتْ...

بقيتُ واقفاً عند باب غرفة رغد غير قادر على التزحزح خطوةً واحدة... ماذا حلّ بصغيرتي؟؟ ولماذا تتشبّثْ بسامر بهذا الشكل؟؟ هل صحّتها في خطر؟ هل عدلتْ عن فكّ ارتباطها به؟ ماذا يحدث مِنْ حولي..؟؟

لحظات وإذا بي أرى دانة تظهر مِنْ جديد.

«وليد ألمْ تتحرّك بعد! هيّا استدعه».

«حسناً...».

وعدتُ إلى صالة الرجال، ورأيتُهم أيضاً متوتّرين يتساءلون عمّا حدث، طمأنتهم واستدعيتُ العريس وقدتُه إلى مجلس النساء... حيث قامتْ والدته أو إحدى شقيقاته بالتقاط الصور التذكارية لهنْ مع العريسين...

أروى كانتْ في الداخل أيضاً...

عدتُ إلى بقية الضيوف وأنا مشغول البال... بالكاد ابتسم ابتسامة مُفتعلة في وجه مَنْ ينظر إليَّ...

فيما بعد، جاء نوّار وقال:

«سننطلق إلى الفندق الآن...».

وكان مِنْ المفروض أنْ يسير موكب العريسين إلى أحد الفنادق الراقية، حيث سيقضي العريسان ليلتهما قبل السفر يوم الغد مع بقيّة أفراد عائلة العريس إلى البلدة المجاورة لزيارة والديَّ، ومنْ ثمّ يستغلون طائرة راحلين إلى الخارج...

سامر كان مِنْ المفترض أنْ يقود هذا الموكب... ذهبتُ إلى غرفة رغد... وطرقتُ الباب...

«سامر... العريسان يودّان الذهاب الآن...».

فُتح الباب، وخرج سامر... ينظر إلّي بنظرة ريب...

قلتُ:

«كيف رغد؟؟».

قال بجمود:

«أفضل قليلاً».

أردتُ أنْ أدخل للاطمئنان عليها، لكن سامر كان يقف ساداً الباب... حائلاً دون تقدّمي وتحرّجتُ مِنْ استئذانه بالدخول...

قلتُ:

«إنهما يودّان الانصراف الآن...».

سامر نظر إليّ بحيرة... ثمّ قال:

«أتستطيع مرافقتهما؟؟».

«أنا؟؟».

«نعم يا وليد، فرغد لن تتمكّن مِنْ الذهاب معنا وعليَّ البقاء معها».

«أهي بحالة سيئة؟».

«لا، لكنها لن ترافقنا، بالتالي سأبقى هنا».

«إنني أجهل الطريق...».

«اطلب مِنْ أحد أقاربه مرافقتكم...».

لم تبدُ لي فكرةً حسنة، قلتُ معترضاً:

«اذهب أنتَ يا سامر، وأنا باقٍ هنا مع رغد وأروى...».

أقبلتْ دانة الآن، وسألتْ عن حال رغد، ثمّ دخلتْ إلى غرفتها...

- رغد -

«أنا تعيسةٌ جداً!!».

كان هذا جوابي على سؤال دانة التي أتتني بقلق لتطمئن عليّ...

دانة جلستْ إلى جواري على السرير وأخذتْ تواسيني... إلا أنَّ شيئاً لا يمكنه مواساتي في الصاعقة التي أحلّت بي...

«أرجوكِ يا رغد... كفى عزيزتي... ألن تودّعينني؟ إنني راحلةٌ عنكِ للأبد!».

وجاءتْ جملتها قاصمةً لظهري...

«لا! لا تذهبي وتتركيني! سأكون وحيدةً! لا أم ولا أب ولا أخت ولا رفيقة... آه... أنا تعيسة للغاية... أريد أمّي... أريد أمّي...».

وبكيتُ بتهيّج...

«يكفي يا رغد ستجعلينني أبكي وأنا عروس في ليلة زفافي التعسة هذه!».

انتبهتُ لنفسي أخيراً... كيف سمحتُ لنفسي بإتعاس أختي العروس في أهمِّ ليالي عمرها؟ ألا يكفي أنها حُرمتْ مِنْ حفل الزفاف الضخم الذي كانتْ تعدُّ له منذ شهور... وخسرتْ كل ملابسها وحليّها وأغراض زفافها... واحترق فستان الزفاف تحت أنقاب المدينة المدمّرة!؟

طردتُ بسرعة الدموع المتطفّلة على وجهي، وأظهرتُ ابتسامةً مفتعلة لا أساس لها مِنْ الصحة وقلتُ:

«عزيزتي سأفتقدكِ! ألف مبروك دانة».

تعانقنا عناقاً طويلاً... عناق الفراق... فبعد أكثر مِنْ ستّة عشر عاماً مِنْ الملازمة المستمرّة ثلاثين يوماً في الشهر، نفترق... ودموعنا مختلطة مع القبل...

قدم سامر... وقال:

«هيا دانة...».

صافحتُها وقبّلتها للمرّة الأخيرة... ثمّ جاء دور سامر، ومِنْ ثمّ الرجل الضخم الذي كان يقف في الخارج عند الباب مباشرة...

لمْ أستطع أنْ ألقي عليه ولا نظرةً واحدةً... لمْ أشأ أنْ أنهار مِنْ جديد... اضطجعتُ على سريري، وسحبتُ الغطاء حتى أخفيتُ وجهي أسفل منه...

سمعتُ سامر يقول:

«سآخذهما للفندق وأعود مباشرةً... وليد وخطيبته سيبقيان معكِ».

ولمْ تهز فيِّ هذه الجملة شعرةً واحدة، بل أغمضتُ عيني وأنا أقول:

«سأنام...».

أحسستُ بالجميع يغادرون الغرفة ويغلقون الباب، ثمّ اختفتْ الأصوات والحركات... لقد

غادر جميع الضيوف... وفي الشقة لم يبقَ إلا أنا... ووليد... والأجنبية الدخيلة...
دخلتُ في نومٍ عميق أشبه بالغيبوبة... لكنّني في لحظةٍ ما... أحسستُ بدخول شخصٍ ما إلى الغرفة... واقترابه منّي... ثمّ شعرتُ بيدٍ تمتدُّ إلى لحافي فتضبطه فوقي، ثمّ تمسح على رأسي مِنْ فوق حجابي الذي لم أنزعه، ثمّ توهّمتُ سماع همسٍ في أذني...
«أحلاماً سعيدة يا حبيبتي».
وابتعد المجهول... وسمعتُ صوت انغلاق الباب...
فتحتُ عيني الآن فوجدتُ الغرفة غارقةً في السكون والظلام... هل كان ذلك وهماً؟؟ هل كان تهيؤاً؟؟ حلماً؟؟
لست أكيدة...
وإنْ كان حقيقة، فالشيء الذي سأكون أكيدة منه، هو أنَّ الشخص كان سامر...

- وليد -

استخدمتُ غرفتي السابقة بينما جعلتُ أروى تستعمل غرفة العروس، للمبيت تلك الليلة... لقد كنتُ شديد القلق على صغيرتي... ولمْ أنم كما يجب...
كنا قد قرّرنا البقاء ليومين قبل معاودة الرحيل، وكان هذان اليومان مِنْ أسوأ أيّام حياتي!
رغد كانتْ مريضةً جداً وملازمةً للفراش، وسامر كان يمنعني مِنْ الدخول إلى غرفتها أغلب المرات، وفي المرات القليلة التي سمح لي بإلقاء نظرة، كنتُ أرى رغد شاحبةً جداً ومكتئبة للغاية، ترفض الحديث معي وتطلب منّا تركها بمفردها.
ضاق صدري للحالة التي كانتْ عليها وسألتُ سامر:
«ماذا حدث لها؟ هل حدث شيءٌ تخفونه عنّي؟ لِمَ هي كئيبة هكذا؟؟ هل آذاها أحدٌ بشيء؟؟».
قال سامر:
«إنها كئيبةٌ لفراق دانة، فكما تعرف كانتْ تلازمها كالظل...».
«لكن ليس لهذا الحد... أنا أشعر بأنَّ في الأمر سرٌّ ما...».
نظر إليَّ شقيقي نظرة ارتياب وقال:
«أي سر؟؟».
«ليتني أعرف...».
كنّا خلال هذين اليومين نتناول وجباتنا أنا وأروى في المطاعم، وفي الليلة الأخيرة، عندما عدنا مِنْ المطعم، وجدنا رغد وسامر في غرفة المائدة يتناولان العشاء...
فرحتُ كثيراً، فهي علامة جيدة مشيرة إلى تحسّن الصغيرة..
قلتُ:
«صغيرتي... حمداً لله على سلامتكِ، أتشعرين بتحسُّن؟؟».

رغد نظرتْ نحوي بجمود، ثمّ نحو أروى، ثمّ وقفتْ، وغادرتْ الغرفة ذاهبة إلى غرفة نومها...

وقف سامر الآن ونظر إليّ بعصبية:

«أهذا جيّد؟ ما كدتُ أصدق أنها قبلتْ أخيراً تناول وجبة...».

قلتُ بانزعاج:

«هذه حال لا يُصبر عليها، لسوف آخذها إلى الطبيب...».

وسرتُ مسرعاً نحو غرفتها، فأقبل شقيقي مِنْ بعدي مسرعاً:

«هيه أنتَ... إلى أين؟؟».

التفتُ إليه وقلتُ:

«سآخذ الفتاة للمستشفى».

قال بغيظ:

«مَنْ تظن نفسكَ؟ ألا تراني أمامكَ؟؟ خطيبتكِ هي تلك وليست هذه».

قلتُ مزمجراً:

«قبل أنْ تكون خطيبتك هي ابنة عمّي، وإنْ كنتَ نسيتَ فأذكّركَ بأنها كانتْ ترغب في الانفصال عنكَ، وأنَّ والدي أوكلني أنا برعايتها في غيابه، ولتعلمْ بأنَّ أمورها كلّها تهمّني واعتبر نفسي مسؤولا عنها كلياً، مثل والدي تماماً».

وهممتُ بمدِّ يدي لطرق الباب ومِنْ ثمّ فتحه، إلا أنَّ سامر ثار... وأمسك بيدي وأبعدها بقوة...

تحرّرت مِنْ مسكته وهممتُ بفتح الباب إلا أنّه صرخ:

«ابتعد».

وقرن الصرخة بانقضاضٍ على ذراعي، وسحبٍ لي بقوّة...

دفعتُ به بعيداً عني فارتطم بالجدار ثمّ ارتدّ إليَّ ولكمني بقبضته في بطني لكمةً عنيفة...

اشتعلتْ المعركة فيما بيننا ودخلنا في دوامة جنونية مِنْ الضرب والركل واللطم والرفس...

أروى واقفة تنظر إلينا بذهول... وباب غرفة رغد انفتح... وظهرتْ منه رغد مفزوعةً تنظر إلينا باستنكار...

«سامر... وليد... يكفي...».

غير أنَّ أحدنا لم يتوقّف...

في العراك السابق كان سامر يستسلم لضرباتي... أما الآن، فأجده شانا الهجوم علي ويضربني بغيظ وبغض... كأن بداخله ثأرا يود اقتصاصه مني...

بعد لحظاتٍ مِنْ العراك، ويد الغلبة لي، وأنا ممسكٌ بذراع أخي ألويها للوراء، جاءتْ رغد تركض نحوي صارخة:

«أترك خطيبي أيّها المتوحّش».
ورأيتُ يديها تمتدان إليّ، تحاولان تخليص سامر مِنْ بين يدي...
أمسكتْ بذراعي وشدّتني بقوّة، فحرّرتُ أخي مِنْ قبضتي واستدرتُ لأواجهها...
صرختْ بوجهي:
«متوحّش... مفترس... معدوم الإحساس... أكرهكَ... أكرهكَ... أكرهكَ».
وبقبضتيها كلتيهما راحتْ تضربني على صدري بانفعال ضربةً بعد ضربة بعد ضربة... وأنا واقفٌ كالجبل بلا حراك... أشاهد... وأسمع... وأحس... وأتألم... وأحترق... وأموت...

الحلقة الثلاثون

أنا اليتيمة

- رغد -

بعد سيل الضربات القوية التي وجّهتُها إلى صدر وليد، بانفعال وثورة... بغضب وغيظ وقهر... شعرتُ بألم في يديَّ كان هو ما جعلني أوقف ذلك السيل...

رفعتُ رأسي إليه، فرأيتُه ينظر إليَّ بجمود... لم تهزّه ضرباتي ولم توجعه!

منْ أيِّ نوع منَ الحجر أنتَ مخلوقٌ؟؟ منْ أيِّ نوعٍ منَ المعادن صدرك مصنوعٌ؟؟ ألا تحسُّ بي؟؟

عيناي كانتا مغرورقتين بالعبرات الحارقة... تمنيتُ لو يمسحها... تمنيتُ لو يضمني إلى صدره...

تمنيتُ... لو أصحو منَ النوم، فأكتشف أنَّ أروى هذه هي مجرّد حلم... وهم... لا وجود له... وكم كانتْ أمانٍ مستحيلة التحقق...

كان وليد ينظر إليَّ بعمق، كانتْ نظراته تنم عن الحزن... والاستسلام... فهو لمْ يقاومني ولم يبعدني... بل تركني في ثورة غضبي أفرغ على صدره دون إدراك... كل ما كتمتُه منْ غيظ مذ علمتُ بنبأ ارتباطه...

ضربتُ ذات الصدر الذي سبحتُ بين ضلوعه تلك الليلة... في تناقضٍ بين الشوق والغضب...

ابتعدتُ عنه، التفتُّ إلى سامر، ثمّ إلى أروى، ثمّ إلى وليد مجدداً... ثمّ ركضتُ داخلةً غرفتي وصافعةً الباب بقوة...

لم أسمح لسامر بالدخول عندما أراد ذلك بعد قليل، وبقيتُ بمفردي لساعات...

في اليوم التالي، عندما خرجتُ منْ غرفتي قاصدةً المطبخ، لمحتُ غرفة دانة سابقاً، الدخيلة حالياً مفتوحة الباب...

اقتربتُ منها بحذر... وألقيتُ نظرةً شاملةً عليها كانتْ خالية منْ أي أحد...

أسرعتُ نحو غرفة وليد... فوجدتُها الأخرى مفتوحةً ولا وجود لأي شيءٍ يشير إلى أنَّ وليد لمْ يرحل...

ركضتُ بسرعة نحو الصالة، رأيتُ سامر يجلس هناك شارداً... حين رآني ابتسم ووقف وألقى علي تحية الصباح...

قلتُ بسرعة:

«أين وليد؟؟».
ألقى عليّ سامر نظرة متألمّة ثمّ قال:
«رحل».
صُعِقتُ... هتفتُ:
«رحل؟؟ متى؟؟».
«قبل قليل...».
مستحيل! لا... غير ممكن...
«لماذا تركتَه يرحل؟؟».
نظر إليّ سامر بحيرة... هتفتُ مجدداً:
«لماذا تركتَه يرحل؟؟».
قال سامر مستاءً:
«وهل كنتِ تتوقعين مني أنْ أربطه إلى المقعد حتى لا يذهب؟ أخذ خطيبته وأغراضهما وولاّ خارجين دون سلام».
«كان يجب أنْ تمنعه! الحق به... دعه يعود... أعده إليّ حالاً».
سامر هتف بعصبية:
«لا تثيري جنوني يا رغد... ماذا تريدين به بعد؟ ها هو قد تزوّج مِنْ أخرى... وقُضِيَ الأمر».
صرختُ بقوة:
«لا».
«رغد!».
«لن أصدّق... إنكم تكذبون... كلكم تكذبون... وليد لمْ يرتبط بأحد... وليد لمْ يدخل السجن... وليد لمْ يقتل أحداً... وليد لنْ يتخلّى عنّي... إنّه لا يكذب عليّ... لقد جاء مِنْ أجلي أنا... هو مهتمٌ بي أنا... دائماً يهتم بي أنا... لن يكترث لفتاةٍ غيري... أعيدوه إليَّ... أعيدوه إليَّ...».
وانهرتُ باكيةً... حسرةً على وليد قلبي...
وعلى هذه الحال بقيتُ أياماً... اشتدَّ عليّ المرض والسقم... وتدهورتْ حالتي النفسية كثيراً... كما ساءتْ حالة سامر وأصبح عصبياً جداً... وصرنا نتشاجر كل يوم... والحال بيننا لا تطاق...
ما زاد الأمر سوءاً هو أننا كلّما اتصلنا بوالدينا وجدنا الهاتف مغلقاً، وعندما اتصلنا بالفندق الذي كانا ينزلان به أُبلغنا بأنهما قد غادراه...
انقطعتْ أخبارهما عنا عدّة أيّام وحلّ التوتُّر الفظيع علينا وامتزجتْ المشاكل والمخاوف والمشاجرات مع بعضها البعض، وتحوّلتْ حياتنا أنا وسامر إلى جحيم... وجحيمنا صار يتفاقم

ويتضاعف يوماً بعد يوم، إلى أنْ طغى الطوفان المدمّر وحلّتْ الطامّة الكبرى... أخيراً...

- وليد -

التحقتُ بمعهدٍ إداري في مبنىً قريب منَ المزرعة، وبتوفيقٍ منَ الله أولاً، ثمّ بمساعدة منَ العم إلياس والسيدة ليندا، أصبحتُ طالباً رسمياً في المعهد.

الحياة بدتْ مختلفة، وكل شيءٍ سار على خير ما يرام، حظيتُ أخيراً بشيءٍ منَ الراحة والسعادة...

خطيبتي... كانتْ إنساناً رائعاً جداً... في الأخلاق والطيبة والمشاعر والجمال وكل شيء... نعمة منْ ربِّ السماء...

حاولتُ جاهداً أنْ أصرف مشاعري نحوها... وأودِع فيها ما يكنّه قلبي منَ الحبِّ والحنان، لكن رغد... لمْ تسمح لي بذلك...

فقد كانتْ محتلةً القلب منْ أوّل وريدٍ إلى آخر شريان... وبُعدها وصحّتها المتدهورة ما زاداني إلاّ تعلقاً بها ولهفةً عليها... والطريقة التي استقبلتْني بها... ثمّ الطريقة التي فارقتْني بها... جعلتا قلبي يتأرجح كزورقٍ صغير وسط زوبعة بحرية...

وكلما تسللتْ إحدى يديَّ إلى الهاتف، وأدارتْ رقم الشقّة، ذكّرني عقلي بكلماتها الأخيرة القاتلة... فأغلقتْ اليد الأخرى السماعة...

لمْ أتّصل للسؤال عنْ أي فرد منْ أسرتي، وأقنعتُ نفسي بأنني لم أعدْ أنتمي إليهم... وأنَّ عائلتي الحقيقية هي عائلة نديم رحمه الله...

لذلك، حين وردتْني مكالمة منْ سامر بعد أيّام حاولتُ تصريفها، لكن أروى ألحّتْ علي بالإجابة... وهي تقول:

«لو كان لدي أخٌ أو أختٌ لكنتُ فعلتُ أي شيءٍ منْ أجله مهما تعارك معي أو حتى قتلني!».

تناولتُ السماعة منْ يدها وأنا أشعر بالخجل منْ هروبي هذا... قرّبتُها منْ أذني وفمي وتحدّثتُ:

«نعم يا سامر؟؟».

«كيف حالك؟».

«بخير...».

وساد صمت استمر عدة ثواني...

قلتُ:

«أهناك شيء؟؟».

فأنا لا أتوقّع أنْ يتّصل ليسأل عنّي فقط، خصوصاً بعد شجارنا الأخير... قال سامر:

«يجب أنْ تحضر إلى هنا يا وليد».

ذهلتُ منْ عبارته، قلتُ متوتِّراً وقد انتابني القلق المفاجئ:

«خير؟ هل حصل شيءٌ؟؟».

«نعم، ولا بد مِنْ حضورك».

هوى قلبي على الأرض... منَ القلق، قلتُ وأنا بالكاد أحرك شفتيّ:

«أَرغدٌ بخير؟؟ أأصابها مكروه؟؟».

سامر صمت، ما جعلني أوشك على الموت... قلتُ:

«ما بها رغد أخبرني؟؟».

قال:

«وليد أريد حضورك فوراً...».

التقطتُ بعض أنفاسي وقلتُ:

«لِمَ سامر؟ أخبرني ماذا حصل؟؟».

«لن أخبرك على الهاتف، تعال بأسرع وقت يا وليد... الأمر غايةٌ في الأهمية».

لم أستطع بعد تلك المكالمة السكون برهةً واحدة، تحرّكتُ بعصبية كالمجنون... ومِنْ فوري ذهبتُ لأبحث عن سيارة للتأجير، إذ أنني لم أكن أملك سيّارة كما تعلمون...

أرادتْ أروى مرافقتي غير أنني عارضتُ ذلك، وخلال ساعة، كنتُ أشق طريقي نحو شقة سامر... وقلبي شديد الانقباض... لا بد أنَّ مكروهاً قد حلّ بصغيرتي وإنْ كان كذلك، فلن أسامح نفسي على البقاء بعيداً بينما هي مريضة...

قطعتُ المسافة في زمنٍ قياسي، وحين وصلتُ أخيراً إلى الشقة، قرعتُ جرس الباب بشكلٍ متواصل إلى أنْ فتحه أخي أخيراً...

مِنَ النظرة الأولى إلى وجهه أدركتُ أنَّ الموضوع أخطر مما تصوّرتُ... كانت عيناه حمراوان وجفونه وارمة، ووجهه شديد الكآبة... والسواد أيضاً...

منظره أوقع قلبي تحت قدميّ في الحال...

وقبل أي كلمة أخرى هتفتُ مفزوعاً:

«أين رغد؟؟».

وركضتُ إلى الداخل مسرعاً وأنا أنادي:

«رغد... رغد...».

وحين بلغتُ غرفتها طرقتُ الباب بقوة... وأنا أهتف بفزع...

«رغد...أأنتِ هنا؟».

فُتِح الباب وظهرتْ رغد... وما أنْ وقعتْ أعيننا على بعضها البعض حتى كدتُ أخرُّ صريعاً...

«رغد!».

«وليد...».

«أأنتِ بخير صغيرتي؟؟ أأنتِ بخير؟؟».

انفجرتْ رغد فجأة بالبكاء والصراخ بقوّة، التفتُّ إلى الوراء فإذا بسامر يقف خلفي، هتفتُ:

«ماذا يحصل؟! أخبراني؟؟».

رغد ازداد بكاؤها... وتحوّل إلى نحيب... ونظرتُ إلى سامر في انتظار ما يوشك على التلفّظ به...

سامر حرّك شفتاه وقال أخيراً:

«أُصيب والدانا في الغارة على الحدود».

صُعقتُ، شهقتُ:

«ماذا؟؟».

طأطأ سامر رأسه للأسفل، فقلتُ بسرعة:

«سامر؟؟».

لمْ يرفع عينيه في البداية، لكنه حين رفعهما كانتا غارقتين في الدموع، وقال أخيراً:

«قتلوهما...».

* * *

شهرٌ كامل قد مضى، وأنا مقيمٌ مع أخي ورغد في هذه الشقة... نسبح في بحر الدموع والألم...

لا يقوى أحدنا حتى على النهوض مِنَ المقعد الذي يجلس عليه... أسوأ اللحظات... كانتْ تلك اللحظات التي رأيتُ فيه رغد تلطم وجهها وتصرخ وتنوح وتصيح...

«لماذا كُتِبَ عليَّ أنْ أُيتّم مرتين؟؟ مَنْ بقي لي بعدهما؟؟ أريد أنْ ألحق بهما...

أمي... أبي... أنا مدللتكما العزيزة... كيف تفعلان هذا بي؟؟ كيف تتركاني يتيمةً مِنْ جديد؟ وأنا في أمسِّ الحاجة إليكما... لقد وعدتُماني بالعودة... كنتُ أنتظركما... أنا أنتظركما منذ لحظة ذهابكما... تعالا لتباركا زفافي... سأفعل ما تطلبان... أرجوكما... تعالا وانتشلاني ممّا أنا فيه... لقد تهدّم بيتنا... وسافرتْ دانة... وتشاجرتُ مع سامر... ومع وليد... أنا بلا مأوى ولا نصير... ليتني متُّ منذ صغري... ليتني احترقتُ مع المنزل ولم أعش هذا اليوم... أمّاه... أبتاه... آآآآه... واحسرتاه...».

كانتْ تجول في الشقة وتصرخ وتنادي كالمجنونة... وتصفع رأسها بما تصادفه في طريقها...

وكنتُ أمشي خلفها، محاولاً تهدئتها ومواساتها، بينما أنا الأكثر حاجة للمواساة...

أَبعد حرماني منهما لتسع سنين... تسع سنين متواصلة... كان مِنَ الممكن أنْ أقضيها تحت رعايتهما وحبّهما... اللذين مهما كبرتُ سأبقى بحاجة إليهما، أفقدهما بهذا الشكل؟؟

حينما أتذكّر يوم وداعهما...

آه يا أمي... ويا أبي...

لو كنتُ أعرف أنّه اللقاء الأخير... ما كنتُ تركتكما تخرجان...

أتذكر وصايا أمي... (اعتنِ بشقيقتيك جيداً لحين عودتنا)... أماه... ها أنا قد اعتنيتُ بهما وإنْ قصّرتُ... فأين عودتكِ؟؟

لو كنتُ أعلم أنه آخر العهد لي بكما... ما فارقتكما لحظةً واحدة حتى أموت دونكما أو معكما...

ما كنتُ خرجتُ مِنَ السجن أصلاً... لأشهد رحيلكما عن هذه الدنيا...

لكنه قضاء الله... ومشيئة الله... ولا حول ولا قوّة إلا بالله...

يا رب... فكما جاءاك ملبيين طائفين حول بيتك المشرّف، يا رب فأكرمهما بنعيم الجنة التي وعدتَ بها عبادك المؤمنين...

شهرٌ كامل قد انقضى ولم تتحسّن أحوالنا النفسية شيئاً يُذكر...

وهل يمكن أنْ يندمل جرحٌ كهذا؟؟

لقد كانا في حافلة مع مجموعة مِنَ الحجيج عائدين إلى البلد، بعدما نفذ صبر الجميع ودفعهم الحنين لأهلهم للإقدام على السفر براً... وكانتْ مجازفةً أودتْ بحياتهم جميعاً...

نحن... ويا مَنْ كنا غارقين في بحر الحزن والمآسي... ويا مَنْ تشرّدنا... وتشتّتنا... وتفرّقنا وانتكستْ أحوالنا وتنافرت قلوبنا... وكنّا ننتظر عودة والدينا لعلّ الله يصلح الحال بوجودهما... يأتينا نبأ مصرعهما المفاجئ المفجع... وينسف ما بقي لنا مِنْ قوة وقدرة...

السلطات اتّصلتْ بأخي سامر وأبلغته الخبر المفجع، ليذهب لاستلام الجثتين مِنْ إحدى المستشفيات، والتي نُقِل إليها جميع راكبي الحافلة، والذين قُتِلوا جميعاً دون استثناء...

كنتُ أريد الذهاب... فقط لألقي نظرةً... فقط لأقبّل أي شيءٍ منهما... رأسيهما... جبينيهما... أيديهما... إقدامهما... أو حتى ملابسهما... أي شيءٍ منهما ولهما... لكني بقيتُ رغماً عني ملازماً لرغد في المستشفى... متوقّعاً أنْ أفقدها هي الأخرى... بين لحظة وأخرى...

كانتْ مِنْ أفظع أيام حياتي...

كانتْ نائمةً معظم الوقت، وكلما أفاقتْ سألتني:

«أين أبي؟؟ أين أمي؟؟ ألا أزال حية؟؟ متى سأموت؟؟».

ولا أجد شيئاً أواسيها به غير آهات تنطلق مِنْ صدري، وشلالات تتدفق مِنْ عيني... ونيران تحرق جسدي وترديني فتاتاً... رماداً... غباراً...

عندما عاد أخي... كنتُ أنظر إلى عينيه بتمعّن... أحدّق بهما بجنون... علّ صورة والديّ قد انطبعت عليهما... علّني أرى طيف ما رآه...

أخذتُ أضمُّه، وأشمّه وأقبّله... فقد كان معهما... وربّما علق به شيء منهما... أي شيء... أي شيء...

وحين سألني عن رغد... أجبتُ منهاراً:

«ستموت! إنني أراها تموت بين يديَّ... ماذا أستطيع أنْ أفعل؟ ليتني متُّ قبل هذا».

وحين تحدَّث معها، سألته بلهفة:

«أين هما؟؟ هل عادا معك؟؟ هل عادا للمنزل؟ أعدني إليهما... فأنا أريد أنْ يشهدا عرسي... وليس مثل دانة!».

أي عرسٍ يا رغد... أي فرح... أي لقاء تتحدثين عنه؟؟

لقد انتهى كل شيء... والحبيبان اللذان كانا يدللانك ويحيطاننا بالحبِّ والرعاية... ذهبا إلى رعاية مَنْ لا يُحمد على مكروه قضى به سواه...

اللهم لا اعتراض على قضائك...

وإنا لله... وإنا إليه راجعون...

* * *

اليوم، وكما قرّرتُ أخيراً، سأذهب إلى المزرعة... فلا بدَّ لي مِنْ مواصلة العمل، والدراسة في ذلك المعهد...

سامر... كان قد أهداني سيّارةً صغيرة قبل أيّام، جاءتْ مُنقِذةً لي في وقت الحاجة الحقيقية... شكرتُه كثيراً... وأذكر أنَّه يومها ابتسم ابتسامة واهية وقال:

«ولِمَ كل هذا الشكر! إنها مجرّد سيارة... بلا روح ولا مشاعر!».

استغربتُ مِنْ ردّه، لكنّي لمْ أعره اهتماماً كبيراً.

زرتُ المزرعة مرّةً واحدة فقط مذ قدمتُ إلى هنا... فقد كان بقائي قرب رغد هو مركز اهتمامي وبؤرته... أمّا أحوال العائلة هناك فكانتْ مستقرة.

أجمع أشيائي في حقيبة أضعها على السرير، باب الغرفة مفتوح، يطلُّ منه أخي سامر... ويتحدّث...

«أحقاً سترحل وليد؟؟».

استدير إليه وأقول:

«كما ترى».

مشيراً إلى الحقيبة... وأضيف:

«سأعود إلى عملي، ودراستي... غبتُ طويلاً».

يظلُّ واقفاً عند الباب، ثمّ يخطو خطوتين إلى الداخل ويقول بصوت خافت:

«أنا أيضاً سأعود إلى عملي... انتهتْ إجازتي الممدّدة».

التفتُ إليه وأنا أدرك ما يعني، بل هو أكثر ما يشغل تفكيري على الإطلاق، لكنني أقول:

«وإذاً؟؟».

يقول:

«رغد...».

نعم، لا زلنا ومنذ زمن... نقف عند هذه النقطة... رغد...

قال:

«لا يمكن تركها وحيدةً هنا...».

وجذب نفساً قوياً ثمّ أضاف:

«خُذها معك».

فاجأني هذا الطلب، فهو آخر ما كنتُ أتوقّع أنْ يطلبه أخي مني...

لقد كانتْ الفكرة تدور في رأسي، بين القبول والرفض... وخشيتُ إنْ أنا طرحتُها على سامر أنْ أعقّد الأمور أكثر في وقتٍ نحن فيه في غنىً تام عن أي تشويش يزيدنا ألماً فوق ألم...

قلتُ:

«معي أنا؟؟».

«نعم يا وليد... لقد فكّرتُ في الأمر ملياً... هناك حيث تقيم، لديكَ عائلةٌ يمكن لرغد أنْ تظل تحت رعايتهم أثناء غيابك... لكن هنا في هذه الشقة...».

لمْ يتم كلامه...

لقد كان هذا الموضوع هو شغلي الشاغل منذ قرّرتُ العودة للمزرعة، إلا أنني لم أكن أعرف الطريق لفتحه أمام سامر، خطيب رغد...

قلتُ:

«ما كنتَ فاعلاً لو أنكما تزوجتما إذن؟».

قال:

«ربمّا... أتركها في بيتنا مع والديَّ».

والكلمة قرصتْ قلبينا... وعصرتْ شعورنا...

تابع:

«إلا أنه... لا والدين لنا الآن... ولا بيت...».

«يكفي أرجوك...».

قلتُ ذلك محاولاً إبعاد غيمة الهمِّ عني، فقد اكتفيتُ مِنْ كل ذلك... اكتفيتُ مِنَ الهموم التي جثتْ على صدري مذ ارتكبتُ جريمتي وحتى هذا اليوم...

بدَّدتُ أشباح الذكرى المؤلمة بعيداً عن رأسي... وقلتُ:

«لكنّها مسؤولية كبيرة... لقد لاقيتُ وقتاً عصيباً معها ودانة في الفترة السابقة. إنها صعبة المزاج والإرضاء».

«أعرف».

«وقد لا يعجبها أنْ تقيم في مكانٍ متواضع كالمزرعة».

«ربّما...».

«كما أنّ الأمور بيني وبينها مضطربة ومتذبذبة... ربّما لن تتقبّلني... أتظنّها ترحّب

بالفكرة؟؟».

ابتسم سامر ابتسامة مائلة للسخرية وقال:

«جرّب سؤالها بنفسك...».

ورمقني بنظرة حادة، ثمّ غادر الغرفة...

بعدما انتهيتُ مِنْ جمع أشيائي، ذهبتُ إلى غرفة رغد...

طوال الأيام الماضية لمْ تكن تغادرها... حتى القليل مِنَ الطعام الذي كانتْ تعيش عليه، تتناوله على سريرها... حالتها كانتْ سيئةً جداً ولازمتْ المستشفى لفترة، وكنا نتناوب أنا وسامر على رعايتها... غير أنها تحسّنتْ في الآونة الأخيرة... وأحضرناها إلى هنا... والحمد لله.

فلو أصابها شيء... هي الأخرى، فسوف أهلك فوراً... لن يقوى قلبي على تحمّل صدمةً أخرى... وخصوصاً للحبيبة رغد... لا قدّر الله...

طرقتُ الباب وذكرتُ اسمي، ثوان، ثمّ أذِنتْ لي بالدخول...

دخلتُ، فرأيتُها جالسةً على السرير، كالعادة، وكانتْ ترسم شيئاً ما في كراستها...

اقتربتُ لألقي نظرةً على ما ترسم... صورتين وهميّتين لوالديَّ رحمهما الله... مرسومتين بالقلم الرصاصي، وبمعالم غامضة مبهمة...

«كيف أنتِ صغيرتي؟».

لم ترفع عينيها عن الرسمة، قالتْ:

«كما أنا».

وهو جوابٌ يقتلني... إنْ كنتم لا تعلمون...

قلتُ:

«أنتِ بخير، أليس كذلك؟ الحمد لله...».

قالتْ:

«نعم، بخير... يتيمة مرّتين، وحيدة بلا أهل... ولا مأوى... ولا مال... ولا مَنْ يتولّى رعايتي... عالة على ابن عمّي...».

فاجأتني ومزّقتني كلماتها هذه، قلتُ:

«ماذا!؟ عالة على خطيبكِ!؟ زوجكِ؟!».

قالتْ مصححة:

«ابن عمّي... فأنا لن أتزوّجه... ما لمْ يحضر والداي ويباركا زواجنا...».

كادتْ الدمعة تقفز مِنْ عيني... اقتربتُ منها أكثر... وقلتُ محاولاً المواساة:

«حتّى لو لمْ تتزوّجيه، يبقى ابن عمّك ومسؤولاً عنكِ... فلا تأتي بذكر كلمة عالة هذه مرة أخرى».

الآن، قامتْ بالخربشة على الصورتين بخطوط عشوائية حادة، ثم... نزعتْ الورقة مِنَ الكراسة، ثمّ مزّقتها...

أخيراً نظرتْ إليّ:
«لِمَ لا ترسلاني إلى دار لرعاية الأيتام؟».
«رغد بالله عليك... لِمَ تقولين ذلك؟؟».
«نعم فهو المكان الأنسب لي، سامر يريد العودة للعمل وأنا أعيقه».
قلتُ بألم:
«وأنا؟».
رمقتْني بنظرة مبهمة، ثمّ قالتْ:
«وأنتَ ستعود إلى عملك، وفتاتك... ودانة تزوّجتْ واستقرّتْ مع زوجها في الخارج...
بلا بيت... ولا والدين حقيقيين... ولا أبوين كافلين... ولا أهل... ولا مال... ولا شيء... كيف تنتظر منّي أنْ أكون؟؟... وماذا تتوقّع منّي أنْ أقول...؟ إمّا أنْ ترسلاني لبيت خالتي، أو لدار الأيتام».
اغتظتُ، وقلتُ بعصبية:
«كفّي عن ذلك يا رغد، بالله عليكِ... أتظنّين أنني سأتخلّى عنكِ بهذه السهولة؟! هل تظنّين أنّنا بهذا المستوى مِنَ الأخلاق واللامسؤولية لنرسل ابنة عمّنا إلى دار الأيتام؟؟!! أي فكرة مجنونة؟؟».
رغد حدّقتْ بي، متشكّكة مرتابة...
قلتُ:
«أبداً يا رغد! لا تظنّي... أنّه بوفاة والدي رحمه الله... لم يعد لكِ وليٌّ مسؤول...! كيف تساورك شكوكٌ وأنتِ شرعاً زوجة سامر؟ حتّى لو تكوني كذلك... أنتِ تحت مسؤوليّتي... بصفتي الابن الأكبر... ولي العهد والأمانة... أنتِ مِنَ الآن فصاعداً، لا... بل مِنْ يوم وفاة أبي فصاعداً... بل حتّى مِنْ يوم وفاة والديك الحقيقيين فصاعداً... أمانة في عنقي أنا...».
لا تزال تحملق بي بريبة... قلتُ:
«ومِنْ هذه اللحظة، اعتبريني أمّكِ وأباك وأخاك وكل شيء...».
شيءٌ مِنَ التصديق ظهر على وجهها... أرادتْ التحدّث غير أنها منعتْ نفسها... قلتُ مؤكداً:
«نعم صغيرتي، ولتكوني واثقةً مائة بالمائة... مِنْ أنّك ستبقين تحت مسؤوليّتي وملازمة لي كعينيَّ هاتين... ولسوف أفقأهما قبل أنْ أبعدكِ عني متراً واحداً!».
الآن رغد راحتْ تنظر إلى المسافة التي تفصل بيننا، بضع خطوات تتجاوز المتر... ثمّ تنظر إليّ...
نظرتُ أنا إلى حيث نظرتْ، ثمّ خطوتُ خطوتين للأمام مقترباً منها، وقلتُ:
«متر! أليس كذلك؟؟».
هنا... ارتسمتْ ابتسامة خفيفة غير متوقعة على وجه رغد... ابتسامة صغيرة كصغر

حجمها... وقصيرة كقصر المسافة التي بيننا هذه اللحظة... ومبهجة كبهجة العيد!

لم أستطع منع نفسي مِنَ الابتسام... وهل هناك أجمل مِنْ ابتسامة عفوية تشقُّ طريقها بين الدموع والهموم؟؟

لما رأيتُ منها هذا التجاوب، فرحتُ كثيراً... فابتسامة رغد ليست بالأمر السهل... إنها أعجوبةٌ حصلتْ في زمن المرض والمآسي والنكبات...

قلتُ:

«بما أنَّ سامر سيبدأ العمل وسينشغل ثمان ساعات على الأقل مِنَ النهار خارج الشقة، وأنا لا بد لي مِنَ العودة لعملي، فقد ارتأينا أنْ تأتي معي... فهل تقبلين؟؟».

قالتْ:

«وهل هناك خيارٌ أفضل؟؟».

فقلتُ:

«إلى أنْ نوجد خياراً أفضل ذات يوم...».

فلاذتْ بالصمت برهة ثمّ سألتْ:

«وهل سيبقى سامر هنا يبقى وحيداً؟».

قلتُ:

«سنأتي أسبوعياً لزيارته أو يأتينا هو... ربّما تتحسّن ظروفنا فيما بعد... ونستقر جميعاً في مكانٍ واحد... لكن في الوقت الراهن... هذا أفضل الحلول... ما رأيكِ؟».

نظرتْ إلى الأرض، ثمّ قالتْ:

«حسناً».

أثلج صدري، ارتختْ عضلاتي وارتاح قلبي مِنْ توتره... قلتُ:

«إذن اجمعي أشياءك الآن، سنذهب عصراً».

وقفتْ رغد مباشرة، وبدأتْ بجمع قصاصات الورقة التي مزّقتها قبل قليل... أخذتْ تنظر إليها وشردتْ...

قلتُ مداعباً:

«اطمئني يا رغد... سترين... أي نوع مِنَ الآباء والأمهات سأكون!».

- رغد -

لم يكن لدي الكثير مِنَ الأشياء، لذا لم احتج أكثر مِنْ حقيبة صغيرة جمعتُ حاجياتي فيها، ووضعتها قرب الباب...

وليد ذهب إلى الحلاق، وحينما يعود... سنغادر...

سوف لن أتحدّث عن فاجعة موت والديَّ لأنني لا أريد لدموعي ودموعكم أنْ تنهمر... فقد اكتفيتُ... تشبّعتُ للحد الذي لم تعد فيه الدموع تحمل أي معنى...

لقد كنتُ أنا مَنْ أصرّ عليهما بالحضور بأية وسيلة... وربما إصراري هو ما دفعهما لسلك الطريق البري الخطر...

لقد كنتُ في حالةٍ سيئة كما تعلمون... موضوع الانفصال عن سامر... فاجعة القصف وبيتنا المدمّر... تشرّدي مِنْ مكان إلى مكان... سفر دانة عنّي... وأخيراً ارتباط وليد بالفتاة المزارعة... كلّها أمور فاقتْ قدرتي على التحمّل...

أنا الآن فتاةٌ يتيمةٌ مرتين... بلا ولي ولا أهل، غير خطيبٍ لن أتزوجه يوماً... وابن عمٍ لن يتزوجني يوماً... لكنه لن يتخلّى عني...

أجهل طبيعة الحياة التي سأعيشها مِنَ الآن فصاعداً... وما ستؤول إليه الأمور مستقبلاً... لكنني لا أملك مِنَ الأمر شيئاً... ولا يتّسع رأسي للمزيد مِنَ التفكير...

لكن... إذا ما كُتِبتْ لي العودة إلى المدينة الصناعية ذات يوم، فلسوف استقرُّ في بيت خالتي...

حتّى يومنا هذا، والحظر الشديد مستمرٌ على المدينة الصناعية ومجموعة مِنَ المدن التي تعرّضتْ أو لا تزال تتعرّض للقصف والتدمير مِنْ قبل العدو...

أمّا هذه المدنية، وكذلك المدينة الشمالية الزراعية، فهما بعيدتان عن دائرة الحرب... على الأقل... حتّى الآن.

ارتديتُ عباءتي، مستعدةً للخروج... ولمحتُ سامر يقبل نحوي... وقفتُ أنظر إليه وهو ينظر إليَّ... وكانتْ النظرات أبلغ مِنَ الكلمات...

قال:

«سأفتقدكِ».

قلتُ:

«وأنا كذلك... سنأتي لزيارتكَ كل أسبوع».

ابتسم ابتسامة واهنة ومِنْ ثمّ قال:

«هل ستكونين على ما يرام هناك؟؟».

لم أرد... فأنا لا أعلم ما الذي ينتظرني...

«أينما كنتِ يا رغد... أتمنّى لكِ السعادة والراحة».

نظرتُ إليه نظرة امتنان... أمسك بيدي بحنان وقال:

«سأكون هنا... متى ما احتجتِني... دائماً في انتظاركِ ورهن إشارتكِ...».

لم أملك إلا أنْ طوّقته بيدي الأخرى... وقلتُ:

«يا عزيزي...».

وتعانقنا عناقاً هادئاً صامتاً... طويلاً...

بعد مدّة، عاد وليد...

ودّعنا سامر... وركبنا السيارة، سيارة وليد الجديدة، هو في المقدمة وأنا خلفه... وانطلقنا...

لكي يقطع الوقت ويقتل الملل، أدار المذياع... فأخذتُ أصغي إلى كل شيء وأي شيء... كما كنتُ أراقب الطريق... ورغم الصمت الذي كان رفيق لسانينا، إلا أنني شعرتُ به يكلّمني...

أكاد أسمع صوته، وأحس بأنفاسه... والحرارة المنبعثة مِنْ جسده الضخم... كان هو مركِّزاً على الطريق... بينما أنا أغلب الأحيان مركِّزة عليه هو...

الآن، وبعد كل الأحداث التي مررتُ بها... أعترف بأنني لا أزال أحبه...

حتّى وإنْ ارتبط بالفتاة المزارعة... وإنْ لم يكن يعرف حقيقة مشاعري تجاهه... ولا يبادلني الحب... ولا ينظر إليّ كما أنظر إليه أنا... أنا مستغرقةٌ في الانجذاب إليه... ولا أستطيع المقاومة...

وصلنا إلى نقطة تفتيش... ما أنْ لمحتُها حتى أُصبتُ بالهلع... فبعد الذي عشتُه تلك الفترة... صرتُ أرتجف خوفاً مِنْ مثل هذه الأمور...

الشرطي طلب مِنْ وليد البطاقة الشخصية ورخصة القيادة... ثمّ سأله عني...

«ابنة عمي».

«أين بطاقتها؟».

«إنها لا تحمل بطاقة خاصة، فهي قاصر».

«إذن بطاقة والدها».

«والدها متوفٍ، ووالدي الكافل كذلك، توفي مؤخراً... إلا أنها مضافة إلى بطاقة شقيقي، خطيبها حالياً... وليس عندي صورة لبطاقته».

قال الشرطي متشكّكاً:

«هل هذا صحيح؟؟».

قال وليد:

«طبعاً!».

الشرطي التفت إليّ أنا وقال:

«هل هذا ابن عمّك؟».

قلتُ بوجل:

«أجل».

«أهو خطيبك؟».

«لا! شقيق خطيبي...».

«وأين خطيبك أو ولي أمركِ؟».

«لم يأتِ معنا، لكنه على علم بسفرنا وأذن به».

«صحيح؟».

وليد قال بعصبية وضيق:

«وهل تظنّني اختطفتُها مثلاً؟ بربّك! إنها مثل ابنتي!».

ابتعد الشرطي متردِّداً ثمّ سمح لنا بالعبور...

أنا كنتُ أنظر إلى وليد عبر المرآة... مندهشة ومستنكرة جملته الأخيرة! ابنته!؟ أنا مثل ابنته؟؟

فارق السن بيننا لا يبلغ العشر سنين!

وليد أبي!؟... بابا وليد!

وشعرتُ برغبة مفاجئة في الضحك!

غير أنَّ هذه الرغبة تحوّلتْ إلى حرجٍ شديد جداً... عندما أصدرتْ معدتي نداء الجوع!

مباشرةً نظر وليد عبر المرآة فالتقتْ أنظارنا... وأبعدتُ عيني بسرعة في خجلٍ شديد...

تكلّم وليد قائلاً:

«لم تأكلي شيئاً منذ الصباح... أليس كذلك؟».

تحرّجتُ مِنَ الرد عليه... وعلتْني حمرة الخجل... لم أكن في الآونة الأخيرة أتناول أكثر مِنْ وجبة واحدة في اليوم... وكنتُ أجبر نفسي على أكلها فقط لأبقى حيّة...

أتذكر الآن... الطبخات اللذيذة التي كانتْ أمّي، ودانة تعدّانها...

آه أماه...

إنني مشتاقة لأي شيءٍ مِنْ يديك... حتّى ولو كان السمك المشوي الذي تعدّينه، وأهرب أنا مِنَ المائدة كرهاً له...

أمّاه... أحقاً... أنّكِ لن تعودي ثانيةً؟؟ أحقاً أنتِ الآن... في العالم الآخر؟؟ هل أصدّق أنّني لن أراكِ مجدّداً... وأنّني لن أعود لأعمل معكِ في المطبخ واستمع لتوبيخك... وأبكي في حضنك... واستمدُّ منكِ الحنان والدفء...؟؟

كنتُ سأدخل إلى متاهة الذكرى المؤلمة، لولا أنَّ صوت وليد أغلق أبواب المتاهة حين قال:

«سآخذكِ إلى مطعمٍ جيّد في المدينة الزراعية... سيعجبكِ طعامه».

المشوار كان طويلاً... والهدوء جعل النعاس يطغى علي... فمنتُ لبعض الوقت...

صحوتُ مِنَ النوم على صوت وليد يهمس باسمي...

«رغد... رغد صغيرتي...».

فتحتُ عيني... فوجدتُه ملتفتاً إلى الوراء يناديني... وتلفتُّ مِنْ حولي فرأيتُ السيارة واقفة...

قال وليد:

«وصلنا».

قلتُ:

«المزرعة؟».

وأنا أطالع ما حولي... باستغراب...

قال:

«المطعم».

قلتُ:

«ماذا؟».

«المطعم... نتناول عشاءنا ثمّ نذهب إلى المزرعة».

وتذكّرتُ أنني كنتُ جائعة! كان الوقت لا يزال باكراً. وليد فتح بابه وخرج مِنَ السيارة، ثمّ فتح الباب لي...

هبطتُ وصافحتْني أنسام الهواء الباردة... فضممتُ ذراعيّ إلى بعضهما البعض...

«أتشعرين بالبرد؟».

«قليلاً».

«المكان دافئ في الداخل... هيا بنا».

سرنا جنباً إلى جنب، أنا بقامتي الصغيرة ورأسي المنحني للأسفل، وهو بجسده العملاق... ورأسه العالي فوق هامته الطويلة! ثنائي عجيب متناقض! دخلنا المطعم... كان تصميم مدخله جميلاً... والكبائن متباعدة ومتقنة الهندسة... لا أعرف لماذا كانتْ عيناي تلاحظان كل شيء... وكأنّهما متلهفتين لرؤية الألوان والجمال، بعد أمدٍ مِنَ السواد والكآبة.

اختار وليد كبينةً بعيدة، وجلسنا متقابلين، لكن ليس وجهاً لوجه!

شغلنا نفسينا بتقليب صفحات الكتيّب الصغير، الحاوي لقوائم الأطعمة والمشروبات...

قال وليد:

«ماذا تريدين؟».

في هذه اللحظة، وأنا في توتري هذا، والإحساس بقرب وليد يشويني... قلتُ:

«دورة المياه».

«عفواً!؟».

تركتُ الكتيّب مِنْ يدي، قام وليد وقال:

«تفضلي...».

كانتْ دورة المياه النسائية في الطرف الآخر... وعلى مقربة مِنَ الباب توقّف وليد... وتركني أمشي وحدي...

التفتُّ إليه... قال:

«سأنتظر هنا».

لم أشعر بالطمأنينة... تراجعتُ... وقلتُ:

«لنعد».

قال:

«هيا رغد! سأبقى واقفاً في مكاني...».

وليد نظر إلى الرفض في عيني ثمّ إلى ما حولنا ثمّ قال:

«حسنا، سأقترب أكثر».

ومشى معي حتى بلغنا الباب...

وأنا أفتح الباب قلتُ:

«إياك أنْ تبتعد!».

وعندما خرجتُ وجدتُه واقفاً بالضبط عند نفس النقطة!

عدنا إلى تلك الكابينة وطلب لي وليد وجبةً كبيرة، مليئة بالبطاطا المقلية! لا أعرف أي شهية تلك التي تفجّرتْ في جوفي، والتهمتُها تقريباً كاملة...!

ولو كان طلب طبقاً آخر بعد، لربما التهمتُه أيضاً عن آخره... أنا متعطّشة لوليد... ويكفي أنْ يكون قريباً منّي، حتى أشعر برغبة في التهام الدنيا كلها...

بعد العشاء... قمنا بجولة بالسيارة في المنطقة، بين المزارع... أراني وليد بعض معالم المدينة، وكذلك المعهد الذي يدرس فيه، والسوق الذي تُباع فيه الخضراوات...

منذ زمن... وأنا حبيسة الشقة والمستشفى، لا أرى الشمس ولا أتنفس الهواء النقي... لذلك فإنّ الجولة السريعة هذه روّحتْ عن نفسي كثيراً...

كان كلّما تحدّث عن أو أشار إلى شيء، أصغيتُ له باهتمام... ودقّقتُ بتمعّن، وكأنّه درس عليَّ حفظه قبل الامتحان!

قبيل وصولنا إلى المزرعة، سألني:

«أتودين بعض البوظة...؟».

وكان ينظر إلي عبر المرآة... قلتُ منفعلة مباشرة:

«ماذا!؟ البوظة مجدداً! كلاّ أرجوك! أنا يتيمة بلا مأوى الآن!؟؟».

وليد، حدّق بي برهة، ثمّ انفجر ضاحكاً!

أنا كذلك، لم أقوَ على كبت الضحكة في صدري، فأطلقتها بعفوية... نعم! فلن تغريني البوظة مرّة أخرى ولن أنخدع بها!

عندما وصلنا إلى المزرعة كانتْ الساعة تقريباً التاسعة مساءً... مباشرة توجّهنا إلى المنزل، وقرع وليد الجرس، ففتح العجوز الباب... تهلل وجهه لدى رؤية وليد وصافحه وعانقه، ثمّ رحّب بي ترحيباً كريماً...

قال وليد:

«ابنة عمي... تحت وصايتي الآن... وإنْ لم يكن في ذلك أي إزعاج... فهي ستبقى معي هنا حتى نجد حلاً آخر...».

شعرتُ أنا بالحرج، ولكن ترحيب العجوز خفّف عليَّ ذلك، قال:

«عظّم الله أجركِ يا بنيّتي، على الرحب والسعة، وإنْ لم تتّسع المزرعة لكما نحملكما على رؤوسنا...».

ابتسمتُ للعجوز وشكرته. قال العجوز مخاطباً وليد، الذي كان يجول ببصره فيما حوله:
«في المطبخ... تفضّلا».

لم يتغيّر في ذلك المنزل أي شيء. سرتُ تابعةً لوليد الذي تقدّم نحو إحدى الغرف، والتي يبدو أنها المطبخ... والعجوز خلفنا.

هناك... وجدنا أروى وأمّها تجلسان على الأرض حول سفرة العشاء... وبادرتا بالنهوض بمجرّد رؤيتنا...

وحانتْ اللحظة التي كنتُ أخشى حينها... ما أنْ وقع نظري على أروى... حتى شعرتُ بشيءٍ ما يتفجّر في صدري... شيءٍ حارقٍ موجع...

كانتْ تجلس ببساطة على الأرض، مرتديةً بنطالاً ضيّقاً وبلوزة قصيرة الكمين واسعة الجيب، وشعرها الذهبي الأملس الطويل مربوط بخصلة منه، وينساب على كتفيها وظهرها كذيل الفرس!

رحّبتْ الاثنتان بنا، ثمّ توجّهتْ أروى نحو المغسل، وغسلتْ يدها ونشفتها، ثمّ أقبلتْ نحو وليد ومدّتْ يدها لتصافحه! وليد ببساطة مدّ يده وصافحها! مصافحة حميمة جداً...

«حمداً لله على سلامتكما! كيف حالكما؟».

قالتْ ذلك وهي تشد على يد وليد، ووليد يبتسم ويطمئنها، وأنا أسلط أنظاري على يديهما، ثمّ عينيهما، ثمّ أعود إلى يديهما، ثمّ أعض على شفتي السفلى بغيظ...

إلى متى ستظل هذه ممسكة بيد ابن عمّي؟؟ هيا ابتعدي!

«مرحباً بكِ يا رغد، عظّم الله أجركِ».

رفعتْ بصري عن يديهما ونظرتُ إليها ببغض، ومددتُ يدي لأصافحها... أعني لأجبرها على ترك يد وليد...

«أجرنا وأجركم، غفر الله لنا ولكم».

قالتْ:

«كيف صحّتكِ الآن؟».

«بخير ولله الحمد».

عادتْ تنظر إلى وليد، وتخاطبه:

«هل كانتْ رحلتكما متعبة؟».

قال:

«لا، كانتْ ممتعة».

نظرتُ إلى وليد فرأيتُه ينظر إليّ ويبتسم...

قالتْ أروى:

«تفضلا... شاركانا العشاء».

وكرّرتْ أمُّها الجملة ذاتها. قال وليد:

«بالهناء والعافية، تناولنا عشاءنا في أحد المطاعم... أتموا أنتم طعامكم ونحن سنجلس في المجلس».

وعلى هذا ذهبنا إلى المجلس، وبقي الثلاثة حول السفرة... ويبدو أنَّ وليد صار يتحرَّك في المنزل بحرية كيفما يشاء...

جلس على أحد المقعدين الكبيرين المتقابلين الموجودين في المجلس، فجلستُ أنا على الطرف الآخر مِن المقعد... وسكتّنا عن أي كلام أو حركة لبضع دقائق... ثمّ تحدّث وليد:

«رغد».

نظرتُ إليه... فرأيتُ ملامح الجدية والقلق على وجهه... قال:

«أنا آسف ولكنّني في الوقت الحالي لا أستطيع توفير سكنٍ آخر... كما وأنَّ الظروف لن تمكننا مِنَ العيش في شقة مستقلة، لأنَّ عملي هنا وأقضي كل ساعات النهار هنا...».

لم أعلّق، فقال:

«هل هذا يروق لكِ؟».

قلتُ:

«لكن... أخشى أنْ يسبِّب وجودي الضيق لهم...».

«لا، إنهم أناسٌ طيبون جداً... وكرماء لأقصى حد... لن يزعجهم وجودك، أريد أنْ أعرف... هل يزعجكِ أنتِ ذلك؟؟».

قلتُ:

«سأبقى حيث ما تبقى أنتَ... ليس أمامي خيارٌ أفضل... ألستَ المسؤول عنّي الآن؟».

ظهر الضيق على وجه وليد، مال بجدعه للأمام وقال:

«رغد يا صغيرتي... الأمر ليس متروكاً لظروفي أنا، بل هو حسب رغبتك أنتِ... إذا رغبتِ بأي شيء آخر فأبلغيني وسأنفذه حتماً بعون الله».

قلتُ:

«أحقاً وليد؟؟».

قال:

«طبعاً، بدون شك... تعرفين أنني مِنْ أجلك أفعل أي شيء...».

شعرتُ بالصدق ينبع مِنْ عينيه... وآه مِنْ عينيه...

لو تعرف يا وليد... أنا لا أريد مِنْ هذه الدنيا غيركَ أنتَ... لقد فقدتُ كل شيء...

والداي ماتا... وتيتّمتُ مرّتين... وأختي رحلتْ... وسامر تركتُه جريحاً متألماً... وخالتي وعائلتها ظلوا بعيدين عنّي... لم يبقَ أمامي إلا أنتَ...

أنتَ الدنيا في عيني...

أنا أريد أنْ أبقى معكَ، قريبةً منكَ وتحت رعايتكَ وحبّكَ ما حييتُ... أينما كنتُ... هنا أو في أي مكانٍ في المجرّة... فقط أبقِني قربكَ... وأشعرني باهتمامكَ وحبّكَ...

«وليد...».
همستُ بصوت أجش... وليد أجابني مسرعاً:
«نعم صغيرتي؟».
قلتُ:
«أنا... أنا...».
ولمْ أتم، إذ أنَّ أروى أقبلتْ الآن، تحمل أقداح الشاي...
«تفضّلا...».
لم تكن لديَّ أدنى رغبة في احتساء الشاي ولكنني فعلتُ مِنْ باب المجاملة. أروى جلستْ على المقعد المجاور، قرب وليد...
تبادلا حديثاً قصيراً، ثمّ قالتْ مخاطبةً إياي:
«يمكنك استخدام غرفتي، وأنا سأنام مع أمّي لحين ترتيب غرفة خاصّة بكِ».
نظرتُ إلى وليد وقلتُ:
«وأنتَ؟».
قال:
«في غرفتي ذاتها».
هززتُ رأسي اعتراضاً...
وليد قال:
«لا تخشي شيئاً يا رغد... المكان آمنٌ هنا وموثوق كبيتنا تماماً».
«لا! لن أبقى وحدي هنا».
«يمكن لأروى البقاء معكِ في الغرفة...».
«إذن خذني لمكانٍ آخر».
تبادل وليد وأروى النظرات، ثمّ نظر إلى المقعد الذي نجلس عليه، ثمّ قال:
«حسناً... سأبات أنا على هذا... داخل المنزل».
لمْ تعجبني الفكرة أيضاً... فنظرتُ إليه باعتراض وعدم اقتناع...
قال:
«هذه الليلة على الأقل... ثمّ نجد حلاً آخر».
فاستسلمتُ للأمر...
ذهبتْ أروى بعد ذلك لإعداد فراشٍ لي في غرفتها... عندها قلتُ لوليد:
«وليد... لا تبتعد عني أرجوك».
وليد نظر إلي بعطف وقال:
«لا تخشي شيئاً صغيرتي... أتظنين أنّه لو كان مكاناً غير آمِن، كنتُ تركتُك تباتين فيه؟».
«لكنّي أخاف... أخاف كثيراً... المكان غريب والناس كذلك... لا تبتعد عنّي».

كنتُ أقول ذلك وأنا متوتّرة... ولمّا لحظ وليد حركة أصابعي المضطربة... قال:

«اطمئني رغد... ولسوف أبقي الباب مفتوحاً».

ذهبنا أنا ووليد وأروى للتعرّف على أرجاء المنزل وانتهينا إلى غرفة أروى... غرفة بسيطة كسائر المنزل، أثاثها متواضع ولا تحوي شيئاً مميزاً...

كان الفراش دافئاً... وجسدي متعباً غير أنَّ القلق لم يسمح لي بالنوم...

أروى نامتْ بسرعة... أما أنا فتلاعبتْ بي الهواجس حتّى بدأتْ أوصالي ترتعد خوفاً...

ارتديتُ عباءتي... وخرجتُ مِنَ الغرفة بحذر... شققتُ طريقي بهدوء تام نحو المجلس... كان الباب نصف مغلق، ووليد كان نائماً على المقعد الكبير... وبصيص خفيف مِنَ الضوء يتسلّل إلى الغرفة عبر فتحة الباب... وعبرها تسلّلتُ أنا أيضاً إلى الداخل... وأوصدتُه مِنْ بعدي...

لأنه طويل جداً، فإنَّ قدميه الكبيرتين كانتا تبرزان مِنْ فوق ذراع المقعد... أمّا ذراعاه فقد كانتا مرفوعتين فوق رأسه، إذ أنَّ مساحة المقعد لا تكفي لضمهما على جانبيه!

مسكين وليد! لا بد أنَّ جسده غير مرتاح في نومته هذه البتة! ومع ذلك كان يغطُّ في نومٍ عميق...!

جلستُ أنا على المعقد الكبير الآخر... لبضع دقائق... شاعرةً بالأمان والطمأنينة، والدفء أيضاً... فبقرب وليد يطيب لقلبي البقاء ولعضلاتي الاسترخاء ولعيني الإغماض... استلقيتُ على المعقد... وسمحتُ للنوم بالسيطرة عليَّ... بكل سهولة!

- وليد -

وضعتُ المنبّه على المنضدة قرب المقعد، ونمتُ بعد أرق، لأنني كنتُ قلقاً على رغد... أفكّر... هل ستتقبّل الحياة هنا...؟ هل ستألف الأوضاع وترضى بها؟ هل سيسرُّها العيش في منزلٍ متواضع، وحال متوسطة، وهي ابنة العزِّ والدلال والترف...؟؟

إنَّ عليَّ أنْ أجدَّ أكثر مِنْ أجل تحسين وضعي المالي والعام... فرغد لم تعتد حياة الفقر والحاجة... ولا تستحقُّ حياة كهذه...

استيقظتُ على رنين المنبّه المزعج... كنتُ قد ضبطتُه لإيقاظي وقت الفجر لأصلي...

حينما جلستُ لمحتُ شيئاً يتحرّك على المقعد الكبير الآخر والموازي للمقعد الذي نمتُ عليه...! وذلك الشيء جلس أيضاً.

دقّقتُ النظر إليه... أظنُّه خيال رغد! أو ربّما هوسي بها جعلني أتهيّأ خيالها في كل مكان!؟ في اليقظة والمنام!

قلتُ متسائلاً:

«رغد؟».

ذلك الشيء تكلّم مصدراً صوتاً ناعساً، يشبه صوت رغد!

«نعم».

قلتُ:

«رغد صغيرتي! أهذه أنتِ؟؟».

«نعم، أريد أنْ أنام».

واستلقتْ على المقعد مجدّداً!

نهضتُ أنا عن مقعدي ووقفتُ أمدّد أطرافي... شاعراً بالإعياء... إنَّ هذا المقعد صغير ولا يتّسع لجسد رجلٍ مثلي! تقدّمتُ نحوها:

«رغد! ما الذي تفعلينه هنا؟».

قالتْ وهي شبه نائمة:

«كنتُ خائفة».

«ممَّ؟».

«مِنَ الأشباح».

ماذا!؟ أهي نائمة أم تهذي؟؟

«أي أشباح؟؟».

جلستْ رغد فجأة ونظرتْ مِنْ حولها يميناً وشمالاً... وهي تقول:

«أشباح؟؟ أين؟ أين؟».

ويبدو أنها استفاقتْ أخيراً... ثمّ نظرتْ إليَّ... ثمّ قالتْ:

«وليد...».

«نعم...».

«نحن في منزل أروى أليس كذلك؟».

«نعم، هل كنتِ تحلمين؟».

أخذتْ تفرك عينيها...

قلتُ:

«لِمَ أنتِ هنا؟».

«لم أشعر بالطمأنينة هناك...».

«لِمَ صغيرتي؟».

قالتْ وهي تنظر إلي برجاء:

«أريد أنْ أبقى معك... المكان غريبٌ عليَّ...».

«ستعتادينه... لا تقلقي».

«لكن يا وليد...».

هنا طُرِقَ الباب وسمعتُ صوت العمِّ يناديني...

«وليد... انهض بنيَّ... الصلاة».

وكاد يفتح الباب، لكنَّه كان موصداً! إنها رغد! صغيرتي المجنونة!
أجبتُ:
«نعم عمي أنا مستيقظ».
قال:
«هيا إذنْ».
قالتْ رغد:
«إلى أين؟».
«إلى المسجد».
قالتْ معترضة:
«وتتركني وحدي؟؟ سآتي معكَ».
كنتُ أعرف أنها ستقول ذلك!
ذهبتُ إلى الباب مسرعاً وفتحتُه فرأيتُ العمَّ إلياس يسير نحو المخرج... وكنا قد اعتدنا الذهاب للصلاة في المسجد المجاور سيراً على الأقدام...
قلتُ:
«عمّي... اذهب أنتَ سأصلي هنا».
تعجّب العم وقال:
«لِمَ يا ولدي؟».
«أخبركَ لاحقاً... تقبّل الله منكم».
تركتُ الباب شبه مغلق وعدتُ إلى رغد التي بادرتني بالسؤال:
«هل دورة المياه قرب الغرفة؟».
«نعم».
وهمّتْ بالخروج قاصدة إياها...
«انتظري رغد».
نظرتْ إليّ بتساؤل...
قلتُ:
«حتّى يخرج العم...».
وعدتُ أنظر مِنْ فتحة الباب حتّى إذا استوثقتُ مِنْ مغادرة العم، فتحته واستدرتُ إلى رغد قائلاً:
«تفضلي...».
رغد سارتْ ببطء وهي تنظر إلى الأرض بخجل... ولما صارتْ قربي... رفعتْ رأسها إليّ وقالتْ:
«أنا آسفة».

لمْ يتجرَّأ لساني على الردِّ بشيء... فأخفيتُ نظري تحت الأرض... منتظراً منها الخروج... غير أنها بقيتْ واقفةً قربي هكذا لوهلة... وأنا شديد الحرج، ثمّ قالتْ:

«لكنّك... أصبحتَ أبي الآن! أليس كذلك!».

رفعتُ نظري إليها وارتفع حاجباي تعجُّباً!

كانتْ تنظر إليَّ، والآن... ابتسامة مرسومة على شفتيها أستطيع أنْ أرى عذوبتها رغم الظلام...

قالتْ:

«بابا وليد!».

وأسرعتْ خارجةً مِنَ الغرفة... تاركةً إياي في ذهولٍ وجنون!

إذا كانتْ... هذه الفتاة... اليتيمة المدللة... الحبيبة الغالية... ستعيش معي وتحت رعايتي أنا في بيتٍ واحد... فإنني وبدون أدنى شك... سأفقد عقلي وأتحوَّل خلال أيام، بل خلال ساعات... إلى مجنون لمْ يخلق الله مثل جنونه جنونا... وأنتم ستشهدون!

الحلقة الواحدة والثلاثون

ابتعدي عن حبيبي

- رغد -

رغم أنني كنتُ نعسى في البداية، غير أنَّ النوم خاصمني ذلك الصباح... وليد جلس في الصالة يقرأ القرآن، وجلستُ على مقربة أنصتُ إليه...

إلى أنْ عاد الرجل العجوز بعد طلوع الشمس... فختم وليد قراءته وراح يتحدّث معه.

كانا يتحدثان بشأن المزرعة وما سيفعلانه هذا اليوم... وكنتُ أستمع إليهما ببلاهة! فأنا لا أفقه كثيراً مما يذكرون!

وليد التفتَ إليّ الآن وقال:

«سوف أخرج للمزرعة الآن، أتأتين معي؟؟».

وقفتُ مِنْ فوري وتقدّمتُ ناحيته... قال مُتمّاً عبارته السابقة ببطء:

«أم تفضلين العودة للنوم؟».

«سآتي معك...».

وخرجتُ معه إلى المزرعة. الهواء كان بارداً وكنتُ أرتدي العباءة فوق ملابس النوم، لذا شعرتُ بالبرودة تخترق عظامي.

قال وليد:

«سنبدأ بجولة تفقدية».

حذائي كان عالي الكعب ولا يصلح للسير على الرمال، لذلك طلب منّي وليد ارتداء أحد الأحذية المطاطية الموجودة عند مدخل المنزل...

سرنا في اتجاه شروق الشمس... وكم كان منظراً جميلاً لم أرَ مثله منذ زمن. الرياح كانتْ في مواجهتنا، تغزو أنفي رغماً عني، وتزيد مِنْ شعوري بالبرد. أخذتُ أفرك يدي بتكرار. أمّا وليد فكان يسير بثبات في وجه الريح، ولا يبدو على جسمه أنّه يتأثر بها!

كالجبل تماما! قال لي:

«الجو بارد... أتفضلين العودة للمنزل؟».

«ماذا عنك؟».

قال:

«سأبدأ حرث منطقة معيّنة هنا، سنقوم بزرع بذور حولية جديدة فيها...».

وأشار إلى المنطقة المقصودة...

تأمّلتُه برهة... وشعرتُ بالأسى على وليد... الذي كنتُ أظنّه يعمل عملاً مرموقاً، وها هو أمامي يريد حرث الأرض...

قلتُ:

«أنتَ تحرثها؟؟».

ويبدو أنَّ سؤالي إضافةً إلى نظرتي تلك ضايقاه وأحرجاه... نظر إليَّ صامتاً ثمَّ قال وهو يحدّق في تلك المنطقة:

«نعم أنا أحرثها يا رغد... فهذا هو عملي هنا... ومِنْ هذا العمل البسيط أعيش وأعيل نفسي... وصغيرتي...».

ثم التفتَ إليَّ وقال:

«فهل يصيبكِ هذا بخيبة أمل أو... اشمئزاز؟».

قلتُ بسرعة:

«لا! لمْ أقصد ذلك... إنّما...».

«إنّما؟».

«تعرف يا وليد... فخلال العشر سنين الماضية كنتُ أعتقد أنَّكَ...».

وبترتُ جملتي... فقد أحسستُ أنَّ هذا يؤلمه... وإذا تألّم وليد قلبي فأنا أموتُ...

قلتُ:

«لكن، ألا يمكنكَ مواصلة الدراسة الآن؟؟».

قال:

«إنني أدرس الآن في معهد محلّي، وإنْ تخرجتُ منه بشهادة معتبرة فستكون لدي فرص أفضل للعمل، لكن إلى ذلك الوقت سأظل مزارعاً».

لم يعجبني ذلك، فأنا لا أريد لوليد أنْ يغمر يديه في التراب... بل أنْ يعلو السحاب، لكني لم أشأ إحراجه، فقلتُ:

«أتمنى لك التوفيق».

ابتسم وليد ابتسامة رضا، وتابعنا الطريق...

بقيتُ أراقبه وهو يعمل، تارةً شاعره بإعجاب به، وتارةً شاعرة بشفقة عليه، وتارةً بغضب مِنَ الأقدار التي أوصلتْ ابن عمّي إلى هذا المستوى...

ليتني أستطيع منحه تسع سنين مِنْ عمري، تعويضاً عمَّا خسر... بل ليتني أهديه عمري كله... وكل ما أملك...

وهل أملك شيئاً؟؟

الحماس الذي تملّكني أثناء مراقبة وليد، والحرارة التي تنبعث مِن جسده وهو يعمل بجهد، ومِنْ صدره وهو يتنفّس بعمق، ومِنْ عينيه وهو ينظر إليّ، كل هذه تجمعتْ معاً متّحدة مع أشعة الشمس التي ترتفع في السماء، وأكسبتني دفئاً وحيويّة لا نظير لهما!...

بعد فترة، أقبلتْ أروى...

والآن، لستُ فقط أشعر بالدفء، بل وبالاشتعال، والاحتراق أيضا...

«صباح الخير رغد! نهضتِ باكرة!».

باكرة جداً! كم تبدين حيوية ونشطة بعد نوم هانئ! أنا لمْ أنم كما ينبغي...

قلتُ:

«صباح الخير».

وليد كان مولياً ظهره إلينا هذه اللحظة، رفعتْ أروى صوتها، وكذلك يدها وهتفتْ وهي تلوّح:

«صباح الخير يا وليد».

وليد استدار ونظر إليها ورد التحية...

هتفتْ:

«تعال، فقد أعددنا الفطور».

قال:

«حسناً، أمهليني دقيقتين اثنتين».

وأتمّ عاجلاً ما كان يقوم به. أروى التفتْ إليّ وقالتْ:

«أعددتُ فطوراً مميزاً مِنْ أجلكِ! آمل أنْ يعجبكِ طهو يدي! الجميع يصفني بالطاهية الماهرة، ووليد يعشق أطباقي!».

وليد ماذا؟

يعشق أطباقها؟؟ يا للمغرورة!

قلتُ:

«وليد يعشق أطباق والدتي فهي لا تقارن بشيء!».

أروى قالتْ:

«رحمها الله».

وتذكّرتُ أنّه لمْ يعد لديَّ والدة! ولمْ يعد بإمكان وليد تذوّق تلك الطبخات اللذيذة التي يلتهمها عن آخرها...

ضاق صدري لهذه الذكرى... وأحنيتُ رأسي إلى الأسفل بحزن... أورى لاحظتْ ذلك فقالتْ:

«آسفة...».

لمْ أتجاوب معها... قالتْ:

«كم كنتُ متشوّقة للتعرّف إليها فقد حدّثني وليد عنها كثيراً... وكان ينتظر عودتها بفارغ الصبر...».

رفعتُ نظري الآن إليها، ليس الحزن هو البادي على وجهي بل الغيظ!

لماذا تتحدّثْ عن وليد أمامي؟؟ ولماذا يتحدّثُ إليها وليد عن أمّي؟ أو عن أي شيءٍ آخر في الدنيا؟؟ هذه الدخيلة لا تمتُّ إلينا بصلة ولا أريد لمواضيعنا أنْ تُذكر على مسمعٍ منها...

وليد كان يمشي مقبلاً نحونا... وحين وصل، شبكتْ أروى ذراعها اليمنى بذراعه اليسرى وهي تبتسم بسرور...

وقفتُ أحدّق بهما بغيظ وتحذير! ما لمْ تفرّقا ذراعيكما عن بعض فسأقطعهما!

لمْ يفهما تحذيري، بل سارا جنباً إلى جنب على هذا الوضع... سرتُ أنا إلى الجانب الأيمن مِنْ وليد... وسرنا ونحن ندوس على ظلالنا... والتي يظهر فيها جلياً تشابك ذراعيهما...

حسناً! مَنْ تظنُّ هذه نفسها؟ وليد ابن عمّي أنا وولي أمري أنا!

وبدون تفكير، رفعتُ أنا ذراعي وأمسكتُ بذراع وليد اليمني بنفس الطريقة، وبكل تحدي!

وليد نظر إليَّ بسرعة وبنفس السرعة أضاع أنظاره في الرمال التي نسير فوقها... وبدا وجهه محمراً! لكنه لم يسحبْ ذراعه منّي...

تابعنا السير وأنا أراقب الظل أمامي... ولمْ أترك يده حتّى فعلتْ هي ذلك...!

صحيح أنَّ الفطور كان شهياً لكنني أصبتُ بعسر هضم مِنْ مشاهدة العلاقة الحميمة بين وليد وأروى... كانا يجلسان متقابلين، وتجلس أمُّ أروى على رأس المائدة، وأنا إلى جانب وليد، أمّا العجوز فلم يكن معنا بطبيعة الحال...

لا أريد منهما أنْ يجلسا متقابلين، ولا متجاورين، ولا في نفس المنزل، ولا حتى نفس الكوكب...

فيما بعد، عاد وليد للعمل في المزرعة وأروى تشاركه، وأنا أتفرّج عليهما بغضب... وأحاول الإنصات جيداً لكل ما يقولان...

أراد وليد بعد ذلك الذهاب إلى مكانٍ ما لإحضار بعض الأشياء، وسألني إنْ كنتُ أرغب في مرافقته، أجبتُ بسرعة:

«طبعاً سأذهب معك! هل ستتركني وحدي؟؟».

أتذكرون سيّارة الحوض الزرقاء التي ركبتُها ذات يوم، للذهاب إلى المستوصف؟

إنها هي... نفس السيارة التي يحتاجها وليد في مشواره. فيما كنا نقترب منها أقبلتْ أروى مرتدية عباءتها ووشاحها الملون، قائلة:

«أوصلني للسوق سأشتري بعض الحاجيات».

واقتربتْ مِنَ الباب الأيمن وفتحته، فسار وليد نحو باب المقود... وقبل أنْ ترفع أروى رجلها إلى العتبة، أسرعتُ أنا وركبتُ السيارة لأجلس فاصلاً بينهما! هذا ابن عمي أنا... وأنا الأقرب إليه مِنْ كل بنات حواء، وأبناء آدم أيضا... أليس كذلك؟؟

ومن السوق اشتريتُ أنا أيضا بعض الأشياء، من ضمنها عدّة للرسم، فالمزرعة ومناظرها البديعة أعجبتني كثيرا... ولسوف أقضي صباح الغد في رسم مناظر خلابة منها، عوضا عن

مراقبة وليد وهو يعمل...

عندما عدنا، وجدنا ترتيب أثاث الصالة قد تغيّر، لقد قام العجوز وأخته بنقل المقاعد مِنَ المجلس إلى الصالة، ونقل سرير وليد مِنَ الغرفة الخارجية إلى المجلس!

استغرب... أي قوّة يملك هذا العجوز ليحرّك هذه الأثقال!... ما شاء الله!

قالتْ أم أروى:

«ها قد أصبحتْ لديك غرفة داخليّة يا وليد... هل تحسُّ بالاطمئنان على ابنة عمّك الآن؟؟».

وليد ابتسم، ووجهه متوردٌ... وشكر الاثنين... ثمَّ التفتَ إليَّ. كنتُ أقف إلى جواره... رفعتُ رأسي وهمستُ في أذنه:

«لكن ابقِ الباب مفتوحاً».

وليد ابتسم، وقال:

«حاضر».

همستُ:

«وقمْ بإعادة أحد المقعدين الكبيرين إلى داخل الغرفة».

«لِمَ؟!».

«احتياط! ربما تظهر الأشباح ثانية».

ضحك وليد، والبقية أخذوا ينظرون إليه باستغراب!

قال:

«حاضر!».

قلتُ هامسة:

«قبل الليل».

قال:

«حاضر سيدتي! كما تأمرين...».

وحين يقول وليد قلبي ذلك... فأنا أشعر بدغدغة ناعمة تسري في جسدي ابتداء مِنْ باطن قدميَّ وحتى رموش عينيَّ!

ومِنْ أطراف تلك الرموش ألقيتُ بنظرةٍ حادَّة على أروى وأنا أخاطبها في رأسي:

(«أرأيتِ؟ ستعرفين مَنْ تكون رغد بالنسبة لوليد... ولنْ أكون رغد ما لَمْ أزحكِ عن طريقي!»).

- وليد -

مضتْ الأيام هادئةً ومستقرة، وانشغالي بالعمل جعلني أتناسى وفاة والديَّ والحزن الذي خلّفته...

بشق الأنفس تمكّنتُ مِنْ إقناع رغد بالبقاء في المزرعة أثناء غيابي كل يوم في فترة الدراسة... ولأنها كانتْ فترة صباحية، ولخمسة أيام في الأسبوع، فإننا لَمْ نعد نلتقي إلا عند الظهيرة...

وأثناء عملي في المزرعة، تقوم هي بمراقبتي أو برسم بعض اللوحات... بينما أروى تساعدني أو تساعد أمها في شؤون المنزل...

كنتُ أقوم بعمل مضاعف وبأقصى ما أمكنني، ولساعات أطول... ورسمتُ بعض الخطط لتطوير المزرعة والاستعانة ببعض العمال الثابتين.

رغد بدأتْ تتأقلم مع العائلة وتشعر بالانتماء إليها بعد فترة مِنَ الزمن. وصارتْ تساهم في بعض أعمال المنزل البسيطة، والتي لمْ أكن أنا أريد تحميلها عبئها، لولا أنَّ الظروف قضتْ بذلك.

تعذّر علينا زيارة سامر نهاية الأسبوع الأول، فزرناه في الأسبوع التالي، وفي الواقع خرجتُ مِنْ تلك الزيارة متضايقاً لما أثارته في قلبي من الذكرى الأليمة... ذكرى والديَّ...

سامر لم يبدُ أنّه خرج مِنَ الأزمة بعد، بل كان غارقاً في الحزن، وحتى زيارتنا له لمْ تحرز تقدماً معه.

أما دانة، فاتصلتُ بها مرات ثلاث خلال الأسبوعين، وأعطتْني الانطباع بأنها امتصَّتْ الصدمة وفي طور النقاهة. عدا عن ذلك، فهي سعيدةٌ ومرتاحة مع زوجها وعائلته في تلك البلد.

الأوضاع الأمنية في بلدنا لمْ تتحسن، بل بقيتْ بين كرٍ وفرٍ... مدٍ وجزر... أمداً طويلاً.

الشيء الذي بدأ يقلقني مؤخّراً هو الملاحظة التي أبدتها لي أروى إذ قالتْ:

«يبدو أنَّ رغد تعاني اضطراباً نفسياً يا وليد! إنها لا تنام بسهولة بل تبقى لما لا يقل عن الساعة تتقلّب في الفراش، وأحيانا تجلس وتنهض وتذرع الغرفة جيئةً وذهاباً في توتّر... وفي أحيان أخرى، أسمعها تتحدّث أثناء النوم... وترى الكوابيس ليلياً... وتصحو مفزوعة... وأحياناً تبكي وتنادي أمّها! أعتقد أنَّ وفاة والدتها قد أثّرتْ عليها كثيراً...».

سألتُها يومها:

«هل يتكرّر ذلك كثيراً؟؟».

«تقريباً كل ليلة! كما وأنها تصر على إبقاء مصباح النوم مضاءً بينما أنزعج أنا مِنَ النوم مع وجود النور!».

هذه الأمور لاحظتْها أروى التي تشارك رغد في الغرفة، والتي يبدو أنها تعاني منها منذ فترة دون أنْ يلحظها أحد...

وهذه الأمور جعلتني أقلق بشأنها، وأفكّر في طريقة تجعلها تنام بطمأنينة ونوماً هادئاً. وهداني الله إلى هذه الفكرة...

عندما كانتْ صغيرة، رغد كانتْ تعشق سماع القصص. وتطالبني بها كل ليلة حتى تنام

بهدوء وقرّة عين.

ولأنها كبرتْ الآن، فلم يعد هناك مجال لتك القصص! ولكن لدينا كتابٌ هو أجلُّ وأعظم مِنْ أي كتاب، وبذكر ما فيه تطمئن القلوب... إنه القرآن الكريم.

في كل ليلة، قبيل نومهما أبقى مع رغد وأروى في غرفتهما وأتلو ما تيّسر مِنْ آيات الذكر الحكيم... وتظل رغد منصتة إليّ، إلى أنْ يغلبها النعاس فتنام بهدوء وسكينة.

في إحدى الليالي، وبعدما نامتْ رغد، خرجنا أنا وأروى مِنَ الغرفة. لم نكن نشعر بالنعاس وقتها، فطلبتْ منّي أروى القيام بجولة قصيرة معها في المزرعة.

«لكن... رغد تمانع خروجي وهي بالداخل، أو دخولي وهي بالخارج...».

«لكنها نائمة الآن».

«نعم ولكن...».

«هيا يا وليد! إننا لمْ نتحدّثْ مع بعضنا منذ حضورها! لمْ تفارقك ساعةً واحدة إلا للنوم!».

استأتُ مِنْ كلام أروى وقلتُ:

«أرجو ألا يكون وجودها قد أزعجكِ بشيء؟».

«لا لا، لا تسئ فهمي، أقصد أنني أريد التحدث معك حديثاً خاصا بنا أنا وأنت! كأي خطيبين».

وأمسكتْ بيدي وحثّتني على السير معها إلى الخارج.

حديثنا كان في بعض شؤوننا الخاصة، وكانتْ أروى تتكلّم بسرور، بل كانتْ في قمّة السعادة. وأخذنا الحديث لساعة مِنَ الزمن.

فجأة، سمعتُ صوت رغد يناديني...

«وليـــــــد».

سحبتُ يدي مِنْ يد أروى وركضتُ مسرعاً نحو المنزل... رغد كانت تقف في الساحة الأمامية تتلفّتْ يمنة ويسرة...

«أنا هنا رغد».

ولوّحتُ بيدي، وأنا راكضٌ باتجاهها. لما رأتني... وضعتْ يدها على صدرها وتنهدّتْ بقوة...

وحين صرتُ أمامها مباشرة، أمكنني رؤية علامات الفزع على وجهها والذعر الصارخ في عينيها...

«صغيرتي ماذا حصل؟؟».

«إلى أين ذهبتَ؟؟».

«هنا في المزرعة، أتمشى قليلاً».

وظهرتْ الآن أروى فألقتْ عليها رغد نظرة... ثمّ نظرتْ إليّ... وبدأتْ تعبيرات وجهها تتغيّر حتّى صارتْ إلى الحزن والمرارة.

«صغيرتي ما بكِ؟».
قالتْ رغد فجأة:
«إذن هذا ما تفعله؟ تتركني أنام وحدي وتخرج للتنزه مع خطيبتكَ؟؟».
فوجئتُ بقولها، أردتُ أنْ أوضّح لها أنّها المرّة الأولى التي نخرج فيها... لم تعطني المجال، بل قالتْ وهي منفعلة للغاية:
«إذا لمْ تكن متفرّغاً لرعايتي فارسلني إلى خالتي... إذا كنتُ عبئاً يعوق دون تنزّهك مع خطيبتك فخذني لبيت خالتي وتخلّص منّي!».
لم استوعب كلامها أوّل الأمر... قلتُ مندهشاً:
«رغد! ما الذي تقولينه!؟».
«كنتُ أعرف أنها نهايتي... ضعتُ بعد والديَّ... لماذا ذهبا وتركاني؟ لِمَنْ تركتماني يا أمّي ويا أبي؟ يا لهواني على الناس أجمعين... خذني يا رب إليهما... خذني يا رب إليهما».
لم أتحمّل سماعها تدعو على نفسها هكذا... وهذه بهذه الحال الغريبة... هتفتُ:
«كفى يا رغد...! ماذا حصل لكل هذا؟؟».
«أوَ تسأل؟؟».
«فقط لأنّني خرجتُ مِنَ المنزل وأنتِ نائمة؟».
هنا قالتْ أروى:
«أنا مَنْ طلب منه ذلك، لم أكن أتوقّع أنْ يضايقكِ الأمر لهذا الحد».
رغد نظرتْ إلى أروى نظرة غضب وصرختْ:
«اسكتي أنتِ».
قالتْ أروى:
«... أنا آسفة».
لكن رغد عادتْ تصرخ:
«قلتُ اسكتي أنتِ... ألا تسمعين؟؟».
أروى شعرتْ بالحرج، فغادرتْ الساحة عائدة إلى المنزل. لَمْ يكن تصرفاً طبيعياً ولا لائقاً... وأعرف أنه ليس بالوقت المناسب لأعاتب رغد عليه... لكنني قلتُ:
«إنها قلقةٌ بشأنكِ».
ويبدو أنها لم تكن الجملة المناسبة، لأنَّ وجه رغد اشتطّتْ غضباً، وقالتْ:
«هل تخشى على مشاعرها لهذا الحد؟ إذن هيا اذهب وطيّب خاطرها... ودعني أنا أناجي الميتين، فلربّما سمعاني وأحسّا بهواني وضياعي بعدهما، وخرجا مِنْ قبريهما وأتيا إليَّ... وأخذاني معهما.. وأرحتُكَ مني».
رددتُ هاتفاً:
«كفى يا رغد كفى... أي هراء!؟».

رغد صرختْ:

«لا تصرخ بوجهي».

«أنتِ تثيرين جنوني... كيف تتفوّهين بهذا أمامي؟؟».

وعوضاً عن التراجع، رفعتْ بصرها ويديها إلى السماء وراحتْ تهتف بصوت عال:

«يا رب خذني إليهما... يا رب خذني إليهما... يا رب خذني إليهما».

ثم جثتْ على الأرض وصارتْ تنوح بمرارة... مخفيةً وجهها خلف يديها. لمْ أعرف لِمَ كل ذلك... كما لم أتحمّله... ربّما رأتْ كابوساً أفزعها لهذه الدرجة. هويتُ إلى جانبها، وناديتُها بلطف، ولمْ تجبني... أبعدتُ يديها عن وجهها وقلتُ بعطف:

«يكفي يا رغد... أكان كابوساً؟؟».

نظرتْ إليّ نظرةً لم أفهم طلاسمها... مددتُ يدي ومسحتُ على رأسها مِنْ فوق الحجاب، وقلتُ:

«أنا آسف يا صغيرتي... أعدكِ بألاّ أخرج مِنَ المنزل ما دمتِ فيه دون علمكِ ورضاكِ... لن أكرّرها ثانيةً».

تحدّثتْ أخيراً:

«وإنْ طلبتْ منك الشقراء ذلك؟».

قلتُ:

«لا تهتمي...».

بدأتْ تهدأ ثمّ قالتْ موضّحة:

«أنا أرى كوابيس مفزعة... أمّي... أبي... الحرب... النار... الحريق... الجمر... كلهم يعبثون بأحلامي... لا أحد ليشعرني بالأمان... سأموتُ مِنَ الخوف ذات ليلة... سيتوقّف قلبي وأموتُ فزعاً... ولا أحد قربي...».

أمسكتُ بيدها بقوّة... كحصن منيع يعوق أي نسمة عابرة مِنْ أذيتها...

«أعوذ بالله... بعد ألف شر وشر يا عزيزتي... لا تذكري الموت ثانيةً أرجوك يا رغد... رأيتُ منه ما يكفي...».

نعم، رأيتُ مِنَ الموت ما يكفي... ابتداءً بعمّار... ومروراً بنديم ورفقاء السجن... وعبوراً على المدينة المدمّرة... وانتهاءً بوالديَّ الحبيبين...

أطلقتُ يدها فنظرتْ إليّ وقالتْ:

«لقد قلتَ متراً، ألم تقلْ ذلك؟».

«أي متر؟!».

«هذا الذي ستفقأ عينيكَ إذا ما ازداد طوله فيما بيننا».

وتذكّرتُ حينها الجملة التي قلتُها قبل أسابيع، في آخر يوم لنا في شقة سامر قبل الرحيل!

والآن ماذا؟؟

رغد تمدُّ يدها اليمنى، وقد أبرزتْ إصبعيها السبابة والوسطى، وثنتْ الأصابع الأخرى، وتحرّكها بسرعة نحو وجهي وتوقفها أمام عيني مباشرة، وتقول:

«أأفقأهما لكَ الآن؟؟».

- رغد -

هذه كانتْ البداية، أول شحنة متوترة بيني وبين الدخيلة الشقراء. لكن الأمور أخذتْ تضطرب شيئاً فشيئاً ودائرة المشاحنات فيما بيننا آخذة بالتوسع حتى استرعتْ اهتمام الجميع.

لم أكن أسمح لهما بالبقاء بمفرديهما إلا نادراً ولأوقات قصيرة. فأنا جزءٌ تابعٌ لوليد وأذهب معه حيثما يذهب، وخصوصاً إذا كانت الشقراء معه.

وليد هو ابن عمي أنا... نعم أنا...

في أحد الأيام، وكان يوم أربعاء، وكنّا في الحقل، وليد وأروى يعملان، وأنا أراقبهما، والوقت كان المغرب... إذا بي أسمع مَنْ يناديني من خلفي، وألتفتُّ فإذا به سامر!

كنا نزور سامر مرة كل أسبوع أو أسبوعين، وكان يفترض أنْ نذهب إليه غداً غير أنه فاجأني بحضوره!

«سامر!».

سامر فتح ذراعيه وهو يبتسم... فابتسمتُ أنا وعانقته عناقاً خفيفاً...

«إنها مفاجأة! كيف حالكِ؟».

«بخير... هكذا أكون عندما أراكِ».

«لم تُعلِمنا بقدومك! كنا سنوافيك غداً».

«أحببتُ أنْ أزور المكان الذي فيه تعيشين وأرى أحوالكِ هنا».

ابتسمتُ وقلتُ:

«الحمد لله بخير».

قال وقد علاه الجدُّ والقلق:

«هل أنتِ مرتاحة هنا؟».

«نعم... طبعاً».

ولا أدري إنْ كان ردِّي هذا أراحه أم أزعجه، لأنَّ التعبيرات التي كستْ وجهه كانتْ غريبة وغامضة...

سمعنا الآن صوت ضحكات قادمة مِنْ ناحية وليد وأروى، واللذين كانا وسط الحقل، فالتفتنا إليهما...

شعرتُ بالغيظ، ولا شعورياً قلتُ:

«تباً!».

ثم انتبهتُ إلى أنَّ سامر يقف قربي. خجلتُ مِنْ نفسي، ولأبدِّد الخجل رحتُ أنادي:

«وليـــــد، تعال... حضر سامر».

التفتَ وليد إلينا، ولما رأى سامر تهلّل وجهه وترك المعول مِنْ يده وجاء مسرعاً، وصافحه وعانقه...

أروى أيضاً جاءتْ، وهي تضبط وشاحها الملوّن حول رأسها. لم تكن أروى تخرج مِنَ المنزل إلا محجبة... حتى أثناء العمل الشاق في المزرعة! لكنها في الداخل، تتصرّف بحريّة وترتدي ما تشاء وتتزين كيفما ترغب... ويزداد حنقي كلما رأيتها تفعل ذلك، فيما أنا ملفوفةٌ بالسواد مِنْ رأسي إلى قدمي كإصبع بسكويت مغطى بالشوكولا!

حالما صارتْ قربنا ألقتْ التحية على سامر، ثمَّ ذهبنا نحن الأربعة إلى المقاعد الموجودة حول طاولة على مقربة، وجلسنا سوية نتبادل الأحاديث...

أنا عملتُ هذه الساعة كبرج مراقبة، أراقب الجميع ابتداءً مِنْ أروى الحسناء، وانتهاءً بسامر المشوّه! كل حركة، كل كلمة، أو حتى كحّة تصدر مِنْ أي مِنَ الثلاثة ألتقطها بعيني وأذني وقلبي أيضاً... وأستطيع أنْ أخبركم، بأنَّ أروى كانتْ مسرورةً، ووليد فرح جداً، وسامر... حزين ومكتئب، رغم كل الضحكات والابتسامات التي يتبادلونها...

أروى، حسابي معها سأصفيه لاحقاً، الآن... سأصبُّ جل اهتمامي على سامر إذ أنَّ حدسي ينبئني بأنه يخفي شيئاً... شيئاً يجعل صدره متكدِّراً كما هو واضحٌ أمام عيني...

وجود سامر اعتبر مناسبة تستحقُّ الاحتفال! ولذا، صنعتْ أروى وأمها أطعمة خاصة مِنْ أجله على العشاء، ولأنني لا أجيد الطهو، ولا أجيد أعمال المزرعة، كما لا أجيد أعمال المنزل، وواقعاً لا أجيد شيئاً غير الرسم، فقد ساعدتُ فقط في الأكل، وتنظيف بعض الصحون!

ألحّتْ العائلة على سامر لقضاء الليلة معنا، رغم اعتراضه إلاّ أنّ إصرارنا أحرجه فقبل أخيراً...

وتعرفون أين سينام!

طبعاً في الغرفة الخارجية تلك!

بعد العشاء، اقترحتْ أروى أنْ نذهب للتنزه عند الكورنيش... بالنسبة لي كانتْ فكرة جميلة، فأيّدتها، إلا أنني ندمتُ على ذلك حينما وجدتها أروى فرصةً ذهبيةً للاختلاء بوليد بعيداً عنّي. ذهبا يسيران معاً، وتركاني وسامر وحدنا...

الأمر في أعين الجميع يبدو طبيعياً... إذ أنهما خطيبان، ونحن خطيبان، غير أنني اشتططتُ غضباً وصرتُ أراقبهما بعين ملؤها الشرر...

سامر كان يتحدّث معي، غير أنّني لم أكن مركّزة معه، بل على ذينك اللئيمين... وسوف ترى أروى ما سأفعل انتقاماً لهذه اللحظات...

«هل تسمعينني؟؟».

التفتُ إلى سامر... فوجدته يحدّق بي بحزن... لم أكنْ قد انتبهتُ لآخر جملة قالها قلتُ:

«عفواً... ماذا قلتَ سامر؟».

سامر رمقني بنظرة ذات معنى، شديدة الكآبة ثمّ قال:

«لا، لا شيء».

«أرجوك سامر... أعِدْ ما قلتَ فقد كنتُ...».

أتمّ هو الجملة:

«كنتِ تراقبينهما بشغف».

خجلتُ مِنْ نفسي، ونظرتُ إلى البساط الذي كنا نجلس فوقه. سامر قال:

«ألا زلتِ تفكّرين به؟».

تسارعتْ ضربات قلبي، ولم أجرؤ على رفع بصري إليه كما لم أقدر على التفوّه بأي كلمة...

قال سامر:

«تؤذين نفسكِ يا رغد، وتهذرين مشاعركِ... ألمْ تدركي بعد أنّه رجلٌ مرتبطٌ ولديه زوجة...؟؟ وزوجةٌ حسناء تغنيه عن التفكير بأي امرأة أخرى».

بانفعال وبدون تفكير قلتُ بسرعة:

«وهل يجب أنْ تكون المرأة بكل هذا القدر مِنَ الجمال حتى يلتفت إليها؟ أنا لستُ أقلّ منها جمالاً لهذا الحد... فهل يجب أنْ أصبغ شعري وأضع عدستين زرقاوين، وألوّن وجهي حتى أنال إعجابه؟؟».

وانتبهتُ لخطورة ما قلتُ، بعد فوات الأوان...

سامر أخذ ينظر إليّ بألم... نعم بألم... إنْ بسبب تجاهلي له واهتمامي بوليد، أو بسبب المرارة التي يراها منبعثة مِنْ صدري وأنا أراقبهما في حسرة...

لكن عطفه عليّ غلب عطفه على نفسه، فقال مواسياً:

«ليس الأمر كذلك، لا أظن وليد خطبها مِنْ أجل جمالها... بل ربما لأنه يعمل هنا وأراد توثيق علاقته بأصحاب المزرعة...».

التفتُّ إليهما، ونظرتُ وأنا أضيق فتحة عيني وأعض على أسناني وأقول:

«أو ربّما...».

وتابعتُ:

«لأنه يحبّها».

وهذه الفكرة تجعلني أصاب بالجنون، وأتحوّل إلى لبؤة تريد الانقضاض على القطط الجميلة الملونة... الناعمة الشقراء... ونتف وبرها شعرة شعرة، وتمزيق أعضائها بمخالبها وأسنانها الحادة، قطعةً قطعة...

سامر قال:

«أ تريدين أنْ أتحدّث معه؟».

التفتُّ إليه بسرعة وأنا مندهشة، وقلتُ:

«ماذا؟؟».
نظر إليَّ نظرة تأكيد... فقلتُ مسرعة:
«لا! كلا، كلا!!».
فلمْ يكن ينقصني إلا أنْ يتدخّل سامر ليلفت انتباه وليد إليّ!
قال:
«ما الجدوى إذن... في صرف مشاعرك عليه... إنْ كان سيتزوّج مِنْ أخرى؟».
قلتُ بحدة:
«لن يتزوّج منها».
سامر شعر بالقلق، ونظر إليَّ بحيرة وخوف، وقال:
«كيف؟».
قلتُ بتحدٍ:
«لن أسمح لأي امرأة بالزواج مِنْ وليد... أبداً».
سامر قال:
«رغد!».
«مهما كانتْ».
«الأمر ليس متروكاً لسماحكِ مِنْ عدمه! ليس حسبما ترغبين أنتِ!».
وقفتُ بعصبية، وقلتُ بعناد:
«بل حسبما أريد أنا... فوليد ابن عمّي أنا... وهو لي أنا... وسوف لنْ يتخلّى عنّي... وإنْ حاولتْ أي امرأة سرقته منّي فسوف أشوّه وجهها... وإنْ حاول هو التخلّص منّي فسوف أفقأ عينيه!».

اعتقد أنني بالغتُ في التعبير عن مشاعري المكبوتة، خصوصاً أمام سامر الذي أدرك تماماً أنه يعشقني بهوس... وأنه لا يزال خطيبي!

التفتُ إليه شاعرةً بالندم على تهوّري، فرأيتُ آثار الصدمة المؤلمة مرسومة على وجهه... تزيده كآبة فوق كآبة...

ما كان عليَّ التفوّه بما تفوّهتُ به على مسمع منه... لكن... لِمَنْ أعبّر عن مشاعري؟؟ لم يعد لديَّ شخصٌ مقرّب... صديق أتحدّث معه... فدانة رحلتْ، ونهلة بعيدة، وأمي... في عالم الأموات...

لمن أبثّ همومي وأعبّر عمّا يختلج صدري مِنْ مشاعر ثائرة، وأنا أرى وليد قلبي يلهو مع تلك الحسناء الدخيلة... وأعيش علاقتهما لحظةً بعد أخرى...؟؟

قلتُ، محاولةً تبديد أثر تهديدي الجنوني ذاك:
«دعنا نمشي بمحاذاة البحر نحن أيضا».
ومشينا سوية، في الاتجاه الآخر مبتعدين عن الثنائي المزعج!

سمحتُ لنفسي بالهدوء، وأجّلتُ انفعالي لما بعد، فهي لحظاتٌ جميلة لا تستحق الإهمال... الجو لطيف، يداعب الوجوه، وأمواج البحر رائعة... تدغدغ الأقدام... وصوت البحر عذب، يطرب الآذان... فترقص القلوب مبتهجةً وفرحةً...

وقفتُ أتأمل جمال الكون... وطبيعته الخلابة، وبديع صنع الله، متحاشيةً قدر الإمكان النظر في أي شيء يعكّر صفو هذه اللحظة، خصوصاً وجوه البشر، وبالأخص مِنَ النوع ذوي الأنوف المعقوفة، أو العيون الزرقاء!

أمضينا وقتاً، سأعترف بأنه كان ممتعاً، مع الكثير مِنَ الشوائب! وكانتْ الساعة قد تجاوزتْ الواحدة والنصف ليلاً حين قرّرنا العودة إلى المزرعة. وليد يقود سيارته الصغيرة وسامر إلى جانبه، وأنا خلفه، والحسناء إلى جانبي... أكاد أعصب عينيها بعصابة سوداء داكنة سميكة جدا، لأمنعها من النظر إلى وليد عبر المرآة!

في اليوم التالي، لم يعمل وليد في المزرعة إلا لوقتٍ قصير، وقضى بقية النهار معنا.

وفي العصر، قبيل مغادرة سامر، خرجنا جميعاً إلى المزرعة نتجوّل مثنىً مثنى!

وليد والحسناء في المقدمة، نتبعهما أنا وسامر على بعد عدة أمتار، يتبعنا العجوز وأم أروى على مبعدة... وسيري خلفهما جعلني أعود لممارسة جولات عيني الاستطلاعية بل التدقيقية التفتيشية على أقل حركة تصدر من أي منهما...

عادتْ البغيضة لتشبيك ذراعيهما ببعضهما البعض! يا إلهي! هل أركض نحوهما وأقف جداراً بينهما؟

قلتُ مخاطبة سامر:

«دعنا نسرع».

«لم؟».

اخترعتُ أي سبب، ولا سبب!

«أريد أنْ أعطي شيئاً لأروى».

«أي شيء؟؟».

نظرتُ مِنْ حولي، فوجدتُ مجموعة مِنَ الزهور الجميلة الملونة، أسرعتُ باقتطاف بعضها وقلتُ:

«هذه، فهي ملونة مثلها وتصلح طوقاً على شعرها الذهبي!».

وناديتُها مباشرة!

التفتَ كلٌ مِنْ وليد وأروى استجابةً لندائي، فحثثتُ السير إليهما حتى إذا ما بلغتُهما قلتُ وأنا أرسم ابتسامة مفتعلة على شفتي:

«انظري يا أروى! هذه الورود تشبهك!».

أروى بدتْ مستغربة مِنْ مقولتي، ثمَّ ابتسمتْ وشكرتني بعفوية!

قلتُ:

«اصنعي منها تاجاً لشعرك! ستبدين لوحة مذهلة!».
أورى ابتسمتْ ثانية، وكرّرتْ شكرها وإنْ علاها بعض الشك! التفتُّ إلى وليد وقلتُ:
«أليس كذلك يا وليد؟؟».
وليد قال:
«بلى، بالتأكيد».
بالتأكيد؟؟ بالتأكيد يا وليد؟؟
أنا بالتأكيد سأفقأ عينيك!
أخذتْ أورى بعض الورود، وتركتْ في يدي البعض الآخر... ثمَّ استدارا ليتابعا طريقهما...
وقفتُ أنا على الجمر المتقد... ازداد اشتعالاً واحتراقاً... وأرمقهما بنظرات حادة خطرة وهما يبتعدان... وربما ذبلتْ الورود التي في يدي مِنْ شدة حرارتي!
شعرتُ بشيءٍ يلمس كتفي فاستدرتُ بسرعة، كان سامر...
سامر أوقف يده معلقة في الهواء... لا أعرف لماذا؟ ربما لأنها احترقتْ مِنْ ملامستي؟؟ لكني لمحتُ عينيه تركزان في الساعة...
قال:
«يجب أنْ أذهب الآن...».
أعدتُ النظر إليهما، ثمَّ إليه... ثمَّ إلى الثنائي الأخير الذي يقترب منا، العجوز وأخته... ثمَّ عدتُ أنظر إلى سامر:
«الآن؟».
«نعم، قبل حلول الظلام».
نظرتُ بيأس نحو الورود التي بين يدي... ولأنها أصبحتْ تمثّل أروى في نظري، كدتُ أرميها وأدوسها مِنَ الغيظ... إلا أنَّ سامر أخذها مِنْ بين أصابعي وقال:
«هذه تصلح لكِ أنتِ... أنتِ فقط».
رفعتُ بصري إليه وأبديتُ استيائي مِنْ جملته، ولما رأى هو ذلك قال:
«أو ربّما لي أنا! لمعادلة قبح وجهي! سأحتفظ بها للذكرى».
ابتسمتُ... لطالما كان سامر خفيف الظل، غير أنّه في الفترة الأخيرة، بعد كل الذي حصل معنا، تغيّر كثيراً!
قلتُ:
«أنتَ لستَ قبيحاً يا سامر! هذه الندبة لا تؤثّر عليك مطلقاً! إنها أجمل مِنْ هذه الورود».
ابتسم سامر بامتنان:
«شكراً!».
عدتُ أنا فألقيتُ نظرة على الثنائي المزعج اللئيم، ثمَّ نظرتُ إلى سامر...
سامر كان يشعر بتوتّري، ويلحظ انجراف أنظاري نحو وليد وأروى... وهو شيء لا أملك

منع نفسي مِنَ الانقياد له!

سامر الآن نظر إليَّ نظرةً جدية كئيبة، أخفتْ أي أثر وهمي للابتسامة التي كانتْ على وجهه قبل برهة، وقال:

«رغد...».

مِنْ نبرته، شعرتُ بأنه سيقول شيئاً مهمّاً... أصغيتُ أذني... وركّزتُ معه...

قال:

«ابتداءً مِنَ اليوم... اعتبري نفسكِ في حلٍ مِنْ قيدي...».

دهشتُ... أوقفتُ أنفاسي.. وحملقتُ به بعيني المفتوحتين لحد الحاجبين!

قال:

«سأبدأ إجراءات انفصالنا... إذْ أنّني لنْ أقبل لنفسي ولا لكِ المزيد مِنَ الأذى... أنا تعبت...».

مأخوذة بهول المفاجأة وغير مصدِّقة لما تسمع أذناي... سامر سيحرّرني مِنْ رباطنا؟؟ أحقاً سيفعل ذلك؟؟

قلتُ لا شعورياً:

«ستطلّقني؟!».

سامر ابتسم بسخرية وقال:

«وهل تزوّجتكِ حتّى أطلّقكِ؟؟».

ونظر إلى الزهور التي في يده، ثمَّ قال:

«سيتعيّن على وليد مراجعة الشؤون المدنية لنقل اسمكِ إلى بطاقته، باعتباره ولي أمركِ الرسمي الجديد».

وسكتَ برهة، ثمَّ قرّب الزهور مِنْ أنفه وشمّها، وتنهّد، ثمَّ نظر إلي وقال:

«أتمنى لكِ حياةً سعيدة، مليئةً بالزهور الجميلة... الرائعة مثلكِ...».

لمْ أتمالك نفسي، وكادتْ الدمعة تقفز مِنْ عيني غير أنني كبتها بصعوبة... امتدتْ يده الآن إلى يدي، فأمسك بي بلطف... وهمس بصوت أجش رقيق:

«حبيبتي...».

وسكتَ، وتنهّد بأسى... ثمَّ تابع:

«أتسمحين بأنْ... أعانقكِ للمرّة الأخيرة؟؟».

حملقتُ بعينيه، فرأيتُ الرجاء الشديد ينبع مِنْ بؤبؤيهما... لم أتحمَّل، انطلقتْ العبرة المكبوتة مِنْ عيني فجأة وهتفتُ:

«سامر! سامحني!!».

وارتميتُ في حضنه وأحطتُه بذراعيَّ... في عناقٍ حميم... حقيقي... طويل... مليء بالمشاعر والدموع... ومتوّج... بالورود التي امتزج عبيرها الأخاذ بأنفاس صدرينا الملتهبة...

ومحفوف بأنسام الهواء العليلة وأوراق الشجر المتطايرة مِنْ حولنا... والتي حضرتْ لتشهد آخر لحظات وجودي في قفص سامر... قبل أنْ أنطلق في الهواء حرّة... وأحلّق في السماء مرفرفةً بجناحيَّ... ميمِّمةً وجهي شطر الشجرة الضخمة الطويلة... التي امتدّتْ جذورها في قلبي منذ الطفولة... والتي عليها سأعشِّش وأقيم لآخر العمر، طاردةً بعيداً أي فراشةٍ ملوّنة دخيلةٍ تحاول الاقتراب مِنْ بيتي، ليبقى وليد... وليد قلبي... لي وحدي أنا... وأنا فقط...

الحلقة الثانية والثلاثون

كيد النون

- أروى -

لأنَّ الظروف لم تسمح لنا قبل الآن بشراء خاتمَي الخطوبة، وأقصد بذلك ظروف وليد، فإنني فتحتُ الموضوع معه مؤخراً، بعدما مضتْ فترةٌ على وفاة والديه، رحمهما الله. قررنا أنْ نذهب لشراء الخاتمين والشبْكة غداً. لن نقيم أي احتفال، إنما عشاء خاص بي معه.

وليد، هو رجلٌ رائعٌ بكل المقاييس. ربما كان التعويض الذي أرسله الله لي عوضاً عمّا فقدتُ.

في مظهره، وسيم، جذّاب! طويل القامة، عريض المنكبين، ممتلئ الجسم والوجه!

في أخلاقه، كريم... لطيف... نبيل... مهذّب...

في عمله، مخلص، صادق... أمين... مجتهد... متفانٍ ومقدام.

في أوّل مرة التقينا، كان ذلك قبل عدّة أشهر، حين دخل رجلٌ غريب إلى المنزل وهو يستنجد!

عندما أتذكر ذلك اليوم، ورغم المرارة التي كانتْ فيه، أضحك! لقد خرجتُ مِنَ المنزل راكضة إلى أمّي بملابسي المجرّدة!

حينما عرض علي الزواج، فرحتُ كثيراً... أمّي وخالي كانا يمدحانه أمامي باستمرار، وأنا كنتُ ألحظ إعجابهما بخلقه وطبعه، وأعجبتُ به مثلهما...

علاقتي بوليد كانتْ بالكاد قد بدأتْ تنشأ وتتطوّر، غير أنَّ تطوّرها أخذ منحىً آخر حين حضرتْ رغد للعيش معنا. وهذه الرغد فتاةٌ غريبة الأطوار!

أوّل الأمر كانتْ غارقة في الحزن، ثمَّ بدأتْ تتفتّح للحياة، والآن بفرض وجودها في ساحة وليد!

إنه يهتم بها كثيراً جداً، ويعاملها وكأنها ملكة! تصدر الأوامر وهو ينفّذ... حتى أنّه يفكّر جدياً في شراء طقم غرفة النوم الباهظ الذي أشارتْ إليه اليوم...!

ويريد تحويل إحدى غرف المنزل إلى غرفة خاصة بها، بعدما طلبتْ هي مؤخراً أنْ تنام في غرفة مستقلة!

أنها فتاةٌ مدللة جداً، ووجودها أبعد وليد عني، وجعله يصرف جلَّ الاهتمام لها هي ويهملني.

اليوم ذهبنا إلى الأسواق تنفيذاً لرغبتها، حيث اختارتْ طقم غرفة النوم ذاك، واشترتْ

العديد مِنَ الأشياء... بمبالغ كبيرة!

أنا أخشى أنْ أتحدّث معها أو مع وليد حول هذه النقطة، حتى لا أسبّب مشكلةً ويتّهمني أحدٌ بشيء، لكن...

نحن في وضع مالي متواضع! وهي، كانتْ مِنْ عائلة ثرية معتادة على نيل ما تريد بسهولة... ولا أعلم، متى سيمكنها أنْ تدرك تماماً أنَّ أبويها الكافلين قد توفّيا... وأنها لمْ تعد تتربّى في عزّهما ودلالهما!

ورغم ما أنفقته رغد هذا اليوم، فأنا لم أتنازل عن رغبتي في شراء خاتَمي الخطوبة وطقم الشبكة، فهي مِنْ حقّي، وقد وعدني وليد بالذهاب بي لأسواق المجوهرات وشرائها...

- وليد -

العلاقة بين رغد وأروى تزداد اضطراباً مرّة بعد أخرى، وهذا يقلقني كثيراً. رغد، في أحيان ليست بالقليلة تتصرّف بغرابة، لا أعرف وصفاً دقيقاً أذكره لكم، لكن... إنها... تتدلّل كثيراً وتريد الإنفراد بالدلال والغنج!

ولأنها معتادة على أنْ تُنفّذ جميع رغباتها دون استثناء، ولأنني الشخص الوحيد المتبقّي أمامها مِنَ العائلة، فإنها... باختصار تتدلل عليَّ!

نعم حينما كانتْ صغيرة كنتُ أعشق تدليلها وأقبل على ذلك بشغف، لكنَّ الأمر تغيّر الآن... إنها لم تعد طفلةً كما أنني... إنني...

ماذا أقول؟؟

لستُ أباها، أو أخاها، أو زوجها أو حتّى ابنها لأستطيع مجاراتها ببساطة في كل تصرفاتها...

كما أنّني لستُ على وضع مادّي كافٍ لإشباع رغباتها... ومِنْ جهةٍ أخرى لا أريد لها أنْ تشعر بالحرمان والبؤس...

أنا حائرٌ... حائرٌ جداً!

البارحة، وبعدما عدنا مِنَ السوق، وقد اشترتْ هي العديد مِنَ الأشياء، فوجئتُ بها قادمة نحوي، وقد تغيّر لون عينيها إلى الأزرق! وإذا بها تسألني:

«كيف أبدو؟».

كنتُ أجلس وأروى في الصالة، نتحدّثُ عن الخاتمين اللذين تصرُّ أروى على شرائهما، وأظنُّ هذا مِنْ حقّها فهي تودُّ وضع خاتم للخطوبة مثل أي فتاة!

اعتقد أنَّ الفتيات يهتممنَ بأمور تبدو - في نظر الرجال، أو لنقل في نظري أنا كواحدٍ مِنْ معشر الرجال... لا تغضبن! - سخيفةً أحياناً!

نظرتُ إلى أروى ثمَّ إلى رغد مندهشاً... وكانتْ لا تزال تنتظر رأيي في لون عينيها الجديد! شعرتُ بالحرج الشديد... فقلتُ:

«هل صبغتِهما بالفرشاة!».

قاصداً أنْ تبدو دعابةً خفيفةً تلطّف الجو، لكن رغد نظرتْ إلى أروى وقالتْ:
«وهل أنتِ صبغتِ عينيكِ بالفرشاة؟».
قالتْ: أروى:
«لا، صبغهما الله لي هكذا، لذا فهما تناسباني تماماً».
الجملة أزعجتْ رغد، فقالتْ: بغيظ:
«تعنين أنَّ لون عدستيَّ الآن لا يناسبني؟».
صمتتْ أروى، ونظرتْ إليّ، تقصد تحويل السؤال إليّ... ولذا نظرتْ رغد نحوي وأنا أرى الغضب يتطاير مِنْ عينيها هاتين... ولم أجد جواباً مناسباً لكنني لمْ أشأ إحراجها فقلتُ:
«وإنْ ناسبتاك، فالأصل هو الأنسب دائماً».
وإجابتي الغبيّة هذه لمْ تزد الطين إلا بلّه! قالتْ: غاضبة:
«نعم الأصل هو الأنسب دائماً، هذا ما يجب أنْ تدركه أنتَ!».
ولم أفهم ما ترمي إليه! ثمّ أضافتْ:
«لو كان سامر هنا، لصفّر إعجاباً وإطراءً».
ثم استدارتْ وغادرتْ الصالة. تضايقتُ مِنْ هذا الموقف، والتزمتُ الصمت مدّة. أروى قطعتْ الصمت بعدها قائلة:
«ألمْ أقل لكَ!؟ إنها تغار مني!».
التفتُ إليها وقلتُ:
«لا، ليس الأمر كذلك! لكنكِ لا تعرفين كم كانتْ مدللة تفعل ما تشاء في بيت أبي... كان رحمه الله يدللها كثيراً».
قالتْ: أروى:
«وها أنتَ ورثتَه!».
التفتُ إلى أروى، فأشاحتْ بوجهها عني... وكأنها غاضبة منّي...
قلتُ:
«ما بكِ أروى؟ ماذا يزعجكِ؟».
التفتتْ إليَّ وأجابتْ:
«ألستَ تدللها أنتَ أيضاً؟».
«ألأنني سمحتُ لها بشراء كل ما أرادتْ؟ تعلمين أنَّ أغراضنا احترقتْ في بيتنا وهي بحاجة لأشياء عدّة!».
«أشياء عدّة كالملابس الباهظة التي اشترتها والحلي أيضاً؟؟ بربّك ما هي فاعلة بها وهي قابعةٌ في هذا المنزل بالحجاب والعباءة!».
سكتتْ قليلاً ثمّ قالتْ:
«لِمَ لا ترسلها إلى خطيبها لبعض الوقت؟ أظنّها في حنين إليه».

وقفتُ منزعجاً ورميتُ أروى بنظرة ثاقبة، جعلتْها تعتذر.

«لم أقصد شيئاً يا وليد إنما...».

قلتُ مقاطعاً:

«يجب أنْ تعرفي يا أروى... أنَّ رغد هي جزءٌ مِنْ مسؤولياتي أنا، الجزء الأكبر... ومتى ما شعرتِ بالضيق مِنْ وجودها فأعلميني، وفي الحال سآخذها ونرحل».

ظهر الذهول على ملامح أروى، فوقفتْ وقالتْ:

«وليد!».

«نعم، نرحل سوية... لأنّه لا يوجد سبب في هذا العالم يجعلني أتخلّى عن ابنة عمّي ساعة واحدة، مهما كان».

وكان هذا بمثابة التحذير...

قالتْ أروى:

«و... حين نتزوّج؟».

صمتُ فترةً، ثمَّ قلتُ:

«لن يكون زواجنا قبل زواجها هي، بحالٍ مِنَ الأحوال».

«و... متى ستتزوج هي وأخوك؟».

قلتُ بسرعة وبغضب:

«ليس الآن، لا أعرف، ربّما بعد عام أو عشرة... أو حتّى مئة، لكن ما أعرفه هو أنّني لن أتزّوج قبلها مطلقاً».

وتركتُ أورى، وانصرفتُ قاصداً رغد. نعم رغد، فهي مَنْ يشغل تفكيري هذه الساعة، وكل ساعة...

كنتُ أعرف أنني سأراها حزينة... وهكذا رأيتُها بالفعل... وقد نزعتْ العدستين الزرقاوين، وتحوّل بياض عينيها إلى احمرار شديد...

«صغيرتي... يكفي!».

طالعتني بنظرة غاضبة، وقالتْ:

«كنتما تسخران منّي، أليس كذلك؟».

«لا أبداً! لا يا رغد!».

قالتْ بانفعال:

«لو كان سامر هنا، لقال قولاً لطيفاً ولو مِنْ باب المجاملة...».

وذكر اسم سامر يجعلني أتكهرب! قلتُ بدون تفكير:

«أنتِ رائعةٌ إنْ بهما أو بدونهما يا رغد».

وابتلعتُ لساني بسرعة!

رغد تأمّلتْ عيني، وربّما سرّها ما قلتُ... قالتْ:

«حقاً؟ هل بدوتُ رائعة؟».
اضطربتُ، حرتُ في أمري... بم أجيب...؟؟
يا رغد أنتِ تثيرين جنوني... ماذا تتوقعين منّي؟ أنا... وللأسف، وبكل أسف... لستُ زوجكِ حتى يحلّ لي أنْ أُعجب بكِ وأُبدي إعجابي لكِ... كيف لي أنْ أصرّح أمامكِ: (أنتِ رائعة)، وأنتِ لستِ ملكي...؟ أنّى لي أنْ أتأمّلكِ وأنتِ لستِ زوجتي أنا؟؟
يا رغد... أنتِ لستِ امرأتي وأنا لا أستطيع تخطي الحدود التي يجب أنْ تبقى بيننا...
وإنْ لمْ أرَ روعتكِ، ولمْ أتأملها ولم أعلّق عليها، فلتعلمي بأنكِ في قلبي أروع مخلوقة أوجدها الله في حياتي... مهما كان مظهركِ...
لا تزال تنظر إليّ منتظرةً الإجابة... كطفلةٍ صغيرة بحاجة إلى كلمةٍ طيبة مِنْ أحد... قلتُ:
«بالطبع! أنتِ دائماً رائعة منذ صغركِ!».
رغد ابتسمتْ، أظن بفرح... ثمَّ قامتْ واتجهتْ إلى أحد الأكياس التي تحوي ما اشترته مِنَ السوق، وأخرجتْ بعض الأشياء لتريني إياها!
أرتني أحد الفساتين، وهي تقول:
«هذا سيدهشكَ! انظر... ما رأيكَ؟؟».
الفستان كان أنيقاً، وفي الواقع أنا لستُ خبيراً بمثل هذه الأمور، لكني أظنُّ أنه مِنَ النوع الذي يعجب النساء!
قالتْ:
«سيغدو أجمل حين أرتديه!».
وقرّبته مِنْ جسمها وذهبتْ لتشاهد ذلك أمام المرآة... كانتْ تبدو سعيدة... قالتْ تخاطب المرآة:
«متأكِّدة... سيبهر دانة حين تراه! وستشعر بالغيظ!».
ثم اكفهرَّ وجهها فجأة... وشردتْ برهة، واستدارتْ إليَّ... ورمتْ بالفستان على السرير... قلتُ:
«ما الأمر؟».
قالتْ:
«أريد أنْ أرتديه».
«إذن افعلي!».
«أرتديه لأبقى حبيسة في هذه الغرفة؟».
وصمتتْ قليلا ثمّ أضافتْ:
«لو كان والداي حيّين... لكُنّا الآن هناك، في بيتنا... أريهما أشيائي هذه، وأسمع تعليقاتهما...».
«رغد...».

«ولكنتُ ارتديتُ ما أشاء... وتزيّنتُ كيفما أريد... بكل حرية...».

«رغد صغيرتي...».

«ولكنتُ اشتريتُ ما يحلو لي دون حساب... ولطلبتُ مِنْ والدي تجديد طقم غرفة نومي... لم يكن ليتضايق مِنْ طلباتي... فقد كان يحبني كثيراً... ويدللني كثيراً... ويحرص على مشاعري كثيراً... أكثر مِنْ أي أبٍ آخر في الدنيا...».

وارتمتْ فوق الفستان المرمي على السرير، وأخذتْ تبكي بحرقة...

تمزّق قلبي... وانعصر دمه لهذا الموقف الأليم المرير... ورغما عنّي تمخّضت مقلتي عن دمعة كبيرة...

اقتربتُ منها محاولاً المواساة:

«أرجوكِ يا رغد... هذا يكفي...».

لكنّها استمرتْ، ولم تنظر إليّ وقالتْ وسط الآهات:

«لن يشعر أحدٌ بما أشعر به... حبيسة ومقيّدة في هذا المكان...

ليتهما يعودان للحياة... ويعيداني معهما إلى البيت... وأنا سأتخلى عن كل شيء فقط لأعيش معهما!».

مسحتُ دمعتي، وقلتُ بصوت ألطف وأحن:

«بالله عليك يا رغد... لقد تفطّر قلبي».

رغد استدارتْ نحوي، وأخذتْ تنظر إلي مطولاً... ثمَّ قالتْ:

«هل تحسُّ بما أحسُّه يا وليد؟؟ أتعرف معنى أنْ تفقد والديك، ومرّتين، وبيتك وعائلتك، ومدينتك وجامعتك، وتبقى مشرّداً عالةً متطفلاً على غرباء؟ في مكانٍ لا يوفّر لكَ أبسط حقوقك: أنْ ترتدي ما تشاء!».

«رغد! ماذا بيدي؟ أخبريني؟ ماذا أستطيع أنْ أفعل؟ وحتى لو خرجنا مِنْ هذا المنزل وسكنّا منزلاً آخر... لا حل للمشكلة!».

«بلى!».

قالتْ رغد ذلك بسرعة، فقلتُ أنا مسرعاً:

«ما هو؟».

رغد الآن... عقدتْ لسانها وهي تنظر إلي نظرات عميقة، كأنها تفكّر فيما تودُّ قوله. ثمَّ قالتْ للقهر:

«أرسلني إلى بيت خالتي!».

دهِشتُ لسماع هذه الجملة، وترنحّتُ قليلا، ثمَّ سألتُ:

«إلى بيت خالتك؟؟ كيف؟ وزوج خالتك؟ وحسام؟؟».

فكّرتْ رغد قليلاً ثمّ إذا بها تقول:

«الزواج يحلُّ المشكلة».

هنا... توقّف قلبي عن النبض، وتوقّفتْ عيناي عن الرؤية، وأذناي عن السمع، وكل حواسي عن العمل، بل وقارب الساعة عن الدوران...

لم أسترد شيئاً مِنْ حواسي المفقودة إلا بعد فترة، وأنا في المزرعة. وكان أوّل شيءٍ استعدتُه هو الشم، إذ غزتْ رائحة السيجارة أنفي وأيقظتْ إحساسه عنوة...

قلبتْني جملتها هذه رأساً على عقب... وبعد أنْ كنتُ شديد الحزن والتعاطف معها، أصبحتُ أرغب في خنقها...

حسام؟ نعم حسام... لا بد وإنه الحبيب السرِّي الذي يعيش في قلب رغد منذ الطفولة... ليس في قلبها فقط، بل وفي صندوق أمانيها الذي لم أنسه يوماً...

أهذا ما تريدين يا رغد؟؟

لم تمضِ تلك الليلة بسلام... ظلَّ قلبي ينزف... مِنَ الطعنة العميقة التي سدّدتها رغد إلى صدري...

لذا فإنني عاملتُها بشيء مِنَ الجفاء في اليوم التالي، وحين هممنا أنا وأروى بالذهاب إلى السوق لشراء الخاتمين والعقد، وسألتْني إذا كنا نسمح بذهابها، أجبتُ:

«أروى تريد أنْ نذهب بمفردينا».

«وتتركاني وحدي؟؟».

«لا، بل مع الخالة ليندا».

ولم أسمح لها بإطالة الحديث، بل انصرفتُ مباشرة...

– أروى –

وليته أحضرها عوضاً عن كل هذا!

فبدلاً مِنْ تأمّل المجوهرات، يتأمّل الساعة بين الفينة والأخرى... واتّصل مرّتين لسؤال أمي عنها!

بصراحة، وليد يبالغ في اهتمامه بها وأنا منزعجةٌ مِنْ هذا الأمر... وأتمنى لو يأتي خطيبها ويعتني بها لبعض الوقت، حتى نتنفّس!

تجوّلنا كثيراً، بحثاً عن طقم يناسبنا... ووليد لم يكن مركّزاً معي، بل كان يقول عن أي كل عقد أسأله عن رأيه به:

«جميل، دعينا نشتريه!».

اخترنا في النهاية طقماً جميلاً مناسباً، بالإضافة إلى خاتمي الخطوبة... وأراد وليد أنْ نعود للمزرعة لكنني ألححتُ عليه بالذهاب إلى مطعم وتناول العشاء هناك...

إنها فرصةٌ ذهبية بالنسبة لي، لا وجود لرغد معنا!

«فيم تفكّر؟».

سألتُه وأنا أراه شارداً، قال:

«أأأ... في المزرعة، تعرفين أننا تركنا عمل اليوم غير منجز... حالما أعود فسأنجزه».
قلتُ:
«أوه وليد! أتفكّر بالعمل حتى وأنتَ معي هنا؟ دع عنكَ المزرعة وشؤونها ولنتحدّث في أمور تخصّنا».
لم تظهر عليه أمارة مشجّعة، تضايقتُ مِنْ شروده عني، قلتُ:
«وليد! أنا معك! هل تراني؟».
الآن ابتسم وقال:
«طبعاً أروى! أنا آسف... فيم تودّين الحديث؟».
قلتُ ببعض الخجل:
«في أمور بيتنا وخطط مستقبلنا!».
قال وليد:
«أخبرتكِ بأننا لن نتزوّج قبل رغد».
رميتُ بالملعقة التي كانتْ بين أصابعي، أتناول بها طبق المهلبية الباردة... وقلتُ بانفعال:
«رغد ثانية! أوه... رغد، رغد، رغد! وليد! هل لا توقّفتَ عن ذكرها أمامي كل ساعة؟؟».
قال وليد وهو مرتبكٌ:
«أروى! ما حلَّ بكِ؟؟».
«ما حلّ بكَ أنتَ؟؟ ألا تشعر بأنّكَ تهملني مِنْ أجلها؟ إنني خطيبتك!».
«أنا آسف يا أروى، لكنكِ... لا تعلمين ما تعنيه رغد بالنسبة لي...».
«ماذا تعني؟؟».
وليد غيّر الجملة وقلب السؤال، إلى ما يعنيه هو بالنسبة لها، إذ قال:
«إنها فتاةٌ يتيمة، وبلا بيت ولا عائلة ولا ولي غيري، إنْ أهملتُك أنتِ، فباستطاعتكِ اللجوء إلى أمكِ أو خالكِ، أما إنْ قصّرتُ مع ابنة عمي اليتيمة الوحيدة، فإلى مِنْ ستلجأ؟؟».
أنا قلتُ مباشرة:
«إلى خطيبها».
ولا أدري لم انزعج وليد فجأة وقال:
«لنغيّر الحديث، ماذا كنتِ تودين قوله بشأن المزرعة؟؟».
«أي مزرعة؟؟».
«المزرعة! ألم تتحدثي عن المزرعة ومستقبلنا فيها؟».
اشتططتُ غضباً وقلتُ:
«بل عن عش الزوجية وخططنا المستقبلية فيه».
احمرّ وجه وليد، وتمتم بجمل الاعتذار...
لكن، أي اعتذار يا وليد؟ إنني أشعر بأنك لا تشعر بوجودي... وكأنني لستُ خطيبتك...

وكأننا لن نتزوّج ذات يوم!

عندما عدنا إلى المزرعة، ولم أكن أنا سعيدة بالقدر الذي تمنيتُ، دخلتُ إلى المنزل مباشرة، أما وليد فذهب لينجز أعمال اليوم التي اضطر لتركها مِنْ أجل مرافقتي...

في الصالة، وجدتُ رغد جالسة تقرأ أحد الكتب...

«تأخّرتما».

«نعم، فقد ذهبنا إلى المطعم... وتنزهنا لبعض الوقت».

وظهر الاستياء على وجهها، وقالتْ:

«وهل اشتريتما الخاتمين؟».

«أجل».

«هل أستطيع رؤيتهما؟».

قلتُ بحنق:

«نعم طبعاً، لكن غداً، بعدما نلبسهما أنا ووليد لبعضنا البعض».

قالتْ:

«وأين وليد؟».

«في المزرعة، سيعمل لبعض الوقت».

واستأذنتُ وذهبتُ إلى غرفتي...

- رغد -

تركتني في غيظي، اشتعل ناراً كجهنم... أكاد أحرق أوراق الكتاب الذي بين يدي...

ولكن لا! لن أفوّت هذا بسهولة! ولسوف أفسد عليهما سهرة الغد وأحرمهما مِنَ الهناء بخاتميهما!

نزعتُ الخاتم الذي ظلَّ بنصري الأيمن محبوساً به لأربع سنين...

لم أكن قد نزعتُه قبل الليلة، كما لم أكن قد أبلغتُ وليد عن انفصالي عن سامر...

لم أكنْ أريده أنْ يشعرني بأنّه مهتمٌ بي فقط وفقط لأنّه ليس لدي مَنْ يهتم بي غيره... كنتُ أودُّ أنْ أشعر... بأنّه يهتم بي ويحبني ويريد بقائي معه حتى لو كان والداي على قيد الحياة، وليس فقط حتى مع وجود خطيبٍ لي...

عندما سألني بالأمس:

(«ماذا بيدي؟ ما حلّ المشكلة»).

كدتُ أقول:

(«تزوّجني!»).

وكم كنتُ سأبدو بلهاء غبية وأنا أعرض على ابن عمّي، والمرتبط، والذي نعيش في بيت خطيبته أنْ يتزوّجني!

أردتُ أنْ ألفت نظره إلى وجود حل اسمه الزواج، فقلتُ:

(«الزواج يحلُّ المشكلة»).

وانتظرتُ ردة فعله، انتظرتُ أنْ يفهمني... أنْ يعبّر عن مقدار اهتمامه بي... ورغبته في بقائي معه... غير أنّه التزم الصمت، ثمَّ غادر...

أحياناً... أشعر بأنه يهتم بي ويحبني كثيراً... لكن... مثل حُبِّهِ لدانة... وأنا أريده أنْ يحبّني مثلما أحبّه أنا... وأنْ يُعجب بي أنا... وألاّ ينظر إلى عيني امرأة غيري أنا!

وإنْ كان يريد رؤية عيون زرقاء، أو خضراء، أو حتى صفراء... فأنا سأغيّر لون عيني وشعري ووجهي وكل شيء لإرضاء ذوقه!

لقد قال إنني رائعة منذ الطفولة! كم أشعر بالسعادة كلما تذكرتُ هذه الجملة! إنها كنزي الثمين الذي أفتحه وأنعش مشاعري به كلما أصابني اليأس...

وليد وأروى يخططان لقضاء سهرة خاصة بهما ليلة الغد، للبس الخاتمين... وأنا... أخطّط لأنْ أمرض غداً، وأُقلق وليد بشأني، وأصرف تفكيره عن السهرة الخاصة، وأحرم أروى مما تصبو نفسها إليه!

سترين يا أروى!

- وليد -

لأنني لا أحبُّ تأجيل عمل اليوم إلى الغد، ولأنني سأضطر لاختصار ساعات العمل غداً أيضاً، مِنْ أجل السهرة التي تريدها أروى احتفالاً بوضع الخاتمين، فإنني قررتُ أنْ أقضي ساعات في العمل في المزرعة الآن...

كنتُ متعبا، فقد قمتُ بعدة أشياء منذ الصباح، وكان يوماً حافلاً بالمهام التي كان عليَّ إنجازها... عدا عن هذا، فهناك فتاةٌ صغيرة تلعب في دماغي منذ الأمس، وتسبُّب لي صداعاً رهيباً!

انتصف الليل، وأنا لا أزال في المزرعة أبذل مجهوداً بدنياً لا يتناسب والظلام والتوقيت، بيد أنني لم أشأ المغادرة قبل إتمامه...

كنتُ سأنقل بعض الأشياء إلى السيارة الحوض، لكنني حين وجدتها على مبعدة، تقاعستُ عن تحريكها، فآخر شيء أفكر به هو قيادة سيارة الآن، لذا قمتُ بحمل بعض تلك الأشياء بجهد إلى الحوض، وتركتُ البقية لأنقلها في اليوم التالي، فقد أُرهقتُ كثيرا جداً...

كنتُ أتصبّب عرقاً، وأشعر بإعياء شديد، وبحاجة ماسة وفورية للاستحمام، والنوم مباشرة...

عدتُ إلى المنزل منهك القوى شديد التعب، متوقعاً أنْ يكون الجميع نياماً في مثل هذا الوقت، لذا دُهِشتُ حين رأيتُ رغد جالسةً في الصالة تقرأ كتاباً!

«ألم تنامي بعد؟».

رفعتْ رغد عينيها عن الكتاب، وقالتْ:

«ليس بعد».
وكانتْ نظراتها حادة توحي برغبة منها في الشجار!
وهو شيء أفضِّل الغرق في المحيط عليه، خصوصاً وأنا بهذا الحال والتعب!
«تصبحين على خير».
قلتُ ذلك، وتوجّهتُ نحو غرفة نومي، لأنفذ بجلدي، ولكنني ما كدتُ أخطو بضع خطوات حتى سمعتها تناديني:
«وليـــــد».
يا رب!
لستُ بمزاج جيّد لتلقي أي لوم وعتاب على تركِكِ وحدكِ كل هذه الساعات! أجّلي كل هذا للغد يا رغد! وأعدكِ بأنني سأتلقى هجومك بأوسع صدر!
التفتُ إلى الوراء، ولم أجب... لكن لسان حالي أجاب: (نعم؟).
أغلقتْ هي الكتاب الذي بين يديها، ووقفتْ... إنه التأهّب للهجوم! رغد أرجوكِ الرحمة! هذه الليلة فقط!
«أنا جائعة».
هل سمعتم شيئاً كالذي سمعتُ؟؟ تقول جائعة!
«ماذا؟».
«أنا جائعة!».
تلفتُّ يميناً وشمالاً... أبحث عن شخصٍ يؤكّد لي ما سمعتُ!
«ألم تتناولي عشاءً؟».
«كلا».
«حسنا، لم لا تذهبين للمطبخ وتحضّرين وجبةً لكِ؟؟».
قالتْ:
«أشتهي البيتزا».
«البيتزا؟».
«نعم! البيتزا».
قلتُ:
«ولكن تحضيرها سيستغرق وقتاً! لِمَ لمْ تعدّيها قبل الآن؟».
«لا أعرف طريقة لتحضيرها، ولا أريد أنْ أعرف، كما وأنني شعرتُ بالجوع الآن فقط».
وبالتالي ماذا؟؟
قلتُ:
«حسنا، حضّري شيئاً آخر...».
«أريد بيتزا».

«رغد! وهل تعتقدين أنني أستطيع تحضير بيتزا؟؟».

«تستطيع شراءها مِنَ المطعم».

نظرتُ إلى الساعة، كانتْ الواحدة ليلاً!

«مطعم؟ الآن؟؟».

«نعم، لا بد أنّه يوجد مطعمٌ واحدٌ على الأقل مفتوح الآن».

وهذا يعني أنَّ عليّ أنا الذهاب للبحث عن مطعمٍ ما وجلب البيتزا! آخر عمل أفكّر في القيام به على الإطلاق!

«الوقت متأخر وأنا متعب... كُلي أيَّ شيءٍ الآن، وغداً آخذكِ إلى المطعم».

قالتْ:

«معكما أنتَ وأروى؟».

ورمقتني بنظرة حادة... ثمَّ أضافتْ:

«هل تقبل العروس؟».

تنهّدتُ، وقلتُ خاتماً الموضوع:

«أمامك المطبخ بما حوى... تصبحين على خير».

واستدرتُ وتابعتُ طريقي، ولما بلغتُ الباب وفتحتُه سمعتُها تقول:

«لو كان سامر هنا، لما سمح بأنْ أنام وأنا جائعة! ولكان لفّ العالم ليحضر لي ما أريد».

أفلتتْ أعصابي، صفعتُ الباب بقوّة وأنا أستدير إليها، وأراها تجلس على المقعد وتحني رأسها إلى الأرض...

سرتُ إليها ووقفتُ قربها وقلتُ بعصبية:

«حسناً... أنا ذاهب لإحضار ما تريدين».

وسكتُ لأتنفس، ثمَّ تابعتُ:

«إيّاكِ أنْ تستفزّيني هكذا ثانية!».

رفعتْ رأسها ونظرتْ إليّ، ربما نظرة استغراب أو اعتذار، لم أكد أميّزها لأنني سرعان ما استدرتُ وذهبتُ نحو باب المدخل، وما أنْ فتحتُه حتى وصلني صوتها وهي تقول:

«مع عيدان البطاطا المقلية...!».

التفتُ إليها فوجدتها تبتسم! وبكل بساطة وبراءة!

لمْ يكن العثور على مطعم مفتوح أمراً سهلاً، لكنني اشتريتُ لصغيرتي المدللة هذه ما تريد، وخلال أربعين دقيقة، عدتُ إلى المنزل...

كانتْ لا تزال جالسة على نفس المقعد، والكتاب في حضنها ويداها موضوعتين على صفحتيه...

لمْ تنهض لدى دخولي... قلتُ:

«وصل عشاؤك!».

لم ترد... اقتربتُ منها، فوجدتُ عينيها مغمضتين... كانتْ نائمة!

«رغد...».

لم تجب، اقتربتُ أكثر وهمستُ:

«رغد هل نمتِ؟».

ولمْ تستفق. ماذا أفعل مع هذه الفتاة؟! جعلتْني أجوب الطرقات في منتصف الليل لجلب البيتزا لها وها هي نائمة الآن!!

في منتصف الكتاب المفتوح، لمحتُ شيئاً يلمع... اقتربتُ أكثر، إنه ليس إلا خاتم خطوبة رغد...! مددتُ يدي وأخذتُ الخاتم... ودققتُ النظر إليه... محفور بباطنه الحرفان الأولان مِنْ اسمي رغد وسامر، مع تاريخ الخطوبة...

بقيتُ واقفاً في مكاني أعبث بذلك الخاتم، وأتمنى أنْ أمحيه مِنَ الوجود، وأمحي معه كل علاقة ربطتْ بين سامر ورغد... حتى رابطة الدم!

في آخر مرّة زارنا فيها سامر... في آخر لحظة قضاها معنا... في المزرعة، وآخر صورة التقطتها عيناي لهما هو ورغد، كانا في عناق حميم... حلّل كل خلايا الدم الجارية في عروقي... وأصابني بأنيميا حادة فتّاكة...

لكني حتى هذه اللحظة، أجهل مصير هذه العلاقة ولا أجسر على التحدّث مع رغد بشأنها...

التفتُ الآن إلى رغد، نائمة بعمق وهدوء... وتعرفون كم تطيب لي مشاهدتها هكذا... وتعرفون كم أعاني وأجاهد نفسي لأقف عند الحدود فيما بيننا...

اقتربتُ منها أكثر، وهمستُ:

«رغد... قومي إلى غرفتكِ».

لكنها لم تتحرك. مددتُ يدي وربّتُ بخفة على يدها، رغد تحركتْ، ومالتْ بجدعها على المقعد حتى أسندتْ رأسها على ذراعه وهي تقول:

«أوه أروى حلّي عني، أكرهكِ!».

وصمتتْ!

دهشتُ! بِمَ تحلم هذه اللحظة؟؟

«هذا أنا وليد، أنتِ تنامين في الصالة، قومي إلى غرفتكِ».

ابتسمتْ رغد، وهي نائمة، ثمّ قالتْ:

«بابا... حبيبي...».

وغطتْ في سكون عميق!

ليتني أدخل حلمكِ وأرى... بما ومَنْ تحلمين!

نوماً هنيئاً... صغيرتي...

- رغد -

عندما نهضتُ، وعلى صوت منبّه مزعج، رأيتُ نفسي نائمةً على المقعد مغطّاة ببطانيّة وفي وضع غير مريح! وعلى المنضدة الموضوعة أمام المقعد، وجدتُ كيساً لأحد المطاعم!

نهضتُ ونظرتُ مِنْ حولي فلم أرَ أحداً، لكنني كنتُ أسمع صوت المنبّه القوي قادماً مِنْ ناحية غرفة وليد!

مددتُ يدي نحو الكيس أولاً وتفقّدتُ ما به.

«إنها البيتزا!».

وصوّبتُ نظري ناحية غرفة وليد، فوجدتُ الباب مفتوحاً على مصراعيه... وكان المنبّه يرنُّ باستمرار... دون أنْ ينهض وليد...

قمتُ أنا وتسلّلتُ إلى الغرفة، وأوقفتُه، وألقيتُ نظرةً على وليد...

كان مستلقٍ على السرير وأطرافه الأربعة موزّعة على جميع الزوايا! كان يبدو غارقاً في النوم جداً!

ومع ذلك ما أنْ نطقتُ باسمه:

«وليد».

حتى فتح عينيه بسرعة، ثمّ نهض جالساً باندفاع!

هل صوتي مفزعٌ لهذا الحد؟؟ لقد كان المنبّه يرنُّ حد البحة ولم يوقظه!

وليد تلفّت يميناً وشمالاً ثمّ نظر إليَّ.

«رغد؟ ما بك؟».

إنه بالفعل فزع!

قلتُ:

«لا شيء! إنه وقت الصلاة!».

خرجتُ مِنْ غرفته، وذهبتُ إلى غرفة أروى، التي لا أزال أشاركها فيها، حاملةً معي كيس المطعم!

وجدتُ الباب موصداً مِنَ الداخل!

«أروى! تباً لكِ! سأعتبره طرداً!».

بعد قليل، وقد خرج وليد مع العجوز كالعادة للصلاة في المسجد، حملتُ كيسي والبطانية، وذهبتُ إلى غرفة وليد وتابعتُ نومي على المقعد!

وجدتُها فرصةً ذهبيةً لتوسيع دائرة الخلاف بيننا، أنا وأروى... قلتُ مخاطبةً وليد بعد عدة ساعات:

«إنها لا تريدني في غرفتها، ولا في بيتها ولا مزرعتها، أخرجني مِنْ هذا المكان».

وليد كان متضايقاً جداً، قال:

«لا يمكن أنْ تتعمّد أروى إيصاد الباب دونك! ربما أقفلته خطأً».

«طبعاً ستقول هي أنه خطأ، لكني متأكدّة مِنْ أنّه مقصود، وليد لا أريد العيش في هذا المكان...».

امتقع وجه وليد وكأبتْ ملامحه بشدّة... وفرك جبينه براحة يده ثمّ قال:

«إلى أين نذهب إذن؟».

«دعنا نعود إلى شقّة سامر».

لمْ ترق الفكرة لوليد، وقال:

«وعملي؟».

«فتّش عن عملٍ آخر، إنّه عملٌ مُتعب ولا يستحق اهتمامك ومجهودك على أية حال».

وليد حزن مِنْ قولي هذا، كما تجلّى على وجهه، ثمّ قال:

«سأحاول إيجاد حلٍ آخر...».

وصمتَ قليلاً، ثمّ تابع وهو يضيق فتحة عينيه:

«لكنني لن أسمح لكِ بالزواج قبل بضع سنين!».

دهِشتُ مِنْ تعقيبه، ومِنْ نظرته فحملقتُ به بفضول، وسألتُ:

«ما دخل الزواج الآن بالموضوع؟».

«إذا كنتِ تفكّرين فيه... أنتِ لا تزالين صغيرة، وستظلين صغيرة لبضع سنين».

بشكلٍ تلقائي، رفعتُ يدي اليمنى مبرزة إصبعي البنصر، لأثبت له أنني مخطوبة يعني كبيرة! وللدهشة، لم أجدْ الخاتم!

تبدّلتْ ملامحي، وأخذتُ أقلّب كفّي ظهراً وبطناً وأفتّش عن الخاتم في أصابعي العشرة! لا، بل العشرين!

وليد كان يراقبني، ورآني وأنا أضطرب، ثمّ أذهب نحو المقعد وأفتّش ما حوله...

أقبل وليد يسير ببطء، حتى وقف خلفي مباشرة، وكنتُ أنا جالسة على الأرض محنية رأسي للأسفل، أتحسس بيدي الأرضية تحت المقعد...

يا إلهي أين اختفى!؟

«عمّ تبحثين؟».

رفعتُ نظري إلى الجبل الطويل الواقف خلفي، فرأيتُ ميلاً بسيطاً لإحدى زاويتي فمه للأعلى، يعني، شبه ابتسامة ماكرة!

قلتُ وأنا لا أزال في وضعي أنظر إليه كمَنْ ينظر للسقف!

«هل رأيتَه؟».

«ما هو؟؟».

«محبسي!».

«أي محبس؟؟».

«خاتم خطوبتي... تركته على الكتاب البارحة!».

تغيّرتْ تعبيرات وليد وقال:

«هل يعني لكِ فقده شيئاً مهماً؟؟».

قلتُ مستغربة:

«طبعاً! إنه ليس مجرّد خاتم!».

وليد عبس بعض الشيء، ثمَّ مدَّ يده في أحد جيوبه، وأخرج الخاتم... ووضعه على المنضدة...

نهضتُ ونظرتُ إلى الخاتم، ثمَّ إلى وليد... وحرتُ في أمره...

ولّى وليد مدبراً خارجاً مِنَ المنزل وحين بلغ الباب استدار وقال:

«لن تضعي شيئاً كهذا في يدكِ اليسرى قبل مضي بضع سنين... مهما كان الطرف الآخر. أنتِ لا تزالين صغيرة».

وانصرف!

- أروى -

أخيراً حلّ الليل. كم أنا مسرورةٌ وفي قمة السعادة... فالليلة سنضع أنا ووليد خاتمَي الخطوبة أخيراً. قضيتُ فترة طويلة على غير العادة أمام المرآة أتزيّن. أعددتُ لأمسية جميلة ورومانسية مع خطيبي، في الغرفة الخارجية...

والإعداد يشمل العشاء، وطبق التحلية، والشموع الحمراء، وفستاني الأزرق الداكن، وتسريحتي الجميلة، وخاتمَي الخطوبة، وطقم الشبكة، وأيضاً الكلام اللطيف الذي حضّرته لأقوله لوليد. وهو أهم ما في السهرة، فإنَّ في قلبي مشاعر أودُّ التعبير عنها...

بصراحة حتى الآن لا أشعر بأنني كبقية الفتيات المخطوبات، لأنَّ ظروف وليد لمْ تسمح لنا بالاستمتاع بأيام خطوبتنا كما ينبغي... كيف نهنأ ووالداه توفيا قبل فترة تعتبر وجيزة...؟؟

والآن بعدما استرد كيانه، واجتاز الصدمة، حلّتْ رغد... كعائقٍ دون انفرادي بخطيبي.

واليوم هي مستاءةٌ منّي لأنني نسيتُ باب غرفتي موصداً، بعد استبدال ملابسي، وأويتُ للنوم تاركة إياها في الخارج...

على كلٍ استياؤها هذا جاء بفائدة ألا وهي بقاؤها بعيدة بعض الشيء... وبالتالي فسح المجال لي ولخطيبي للانفراد ببعضنا البعض.

فُتِح الباب أخيراً ودخل وليد... خطيبي العزيز... وانبهر بكل ما حوله، فقد صنعتُ جواً رومانسياً رائعاً!

«جميل! ذوقك جميل!».

«شكراً وليد. تفضّل بالجلوس».

اتخذنا مجلسينا متقابلين تفصلنا مائدة العشاء المميز... وإلى جانبنا منضدة صغيرة

وضعتُ عليها علبة الخاتمين والعقد...

تبادلنا أطراف الحديث، الهادئ اللطيف، والابتسامات الناعمة! وبمجرّد أنْ نلبس الخاتمين، سأقول له: (أحبّكَ يا وليد!).

كم تتخيلون كان مقدار سعادتي؟؟ وماذا تتصوّرون لون وجهي؟؟

وهل لديكم فكرة عن سرعة دقّات قلبي؟؟

ليتكم كنتم معنا...

تناول وليد علبة الخاتمين، وأمسك بخاتمي الذهبي، وهمَّ بإلباسي إياه...

إنها اللحظة الحاسمة التي كنتُ انتظرها... وأحلم بها...

حينها، سمعنا طرقاً سريعاً على الباب جعلنا نفزع وننهض واقفين بسرعة...

«وليد...».

وانفتح الباب، فإذا بها أمّي تُقبِل مسرعةً...

«أمي... ماذا حدث؟؟».

أمّي كانتْ تنظر إلى وليد وهي مقبلةٌ نحوه ومخاطبة له بقول:

«وليد... إنّها رغد... متعبةٌ جداً!».

وليد، لمْ ينتظر حتى إلى أنْ تنهي أمي جملتَها، رمى بالخاتم بسرعة فوقع في كأس العصير... وقفز خارجاً مِنَ الغرفة يركض بقوة... كمتسابقٍ في الماراثون...

لم تكن غير ثانية، أو ربّما عُشُر الثانية أو حتّى جزء مِن مئة جزء منها، إلا واختفى وليد... وتلاشى كل شيء...

وخيّم سكون على الغرفة... لا يعكّره إلا رنين الخاتم المصطدم بالكأس...

وظلام لا يوتّره إلا لهيب الشمع المنصهر أمام عيني...

وبقايا أمسية... انتهتْ قبل أنْ تبدأ...

وسعادة اختفتْ قبل أنْ تظهر...

ولسان خرس قبل أنْ ينطق...

(أحبك يا وليد)...

الحلقة الثالثة والثلاثون

أرجوحة الزمن

- رغد -

بعد الانتصار الذي حقّقته، ليلة أنْ أفسدتُ على أروى سعادتها، شعرتُ بنشوةٍ كبيرة!

كيف لا، وليلتها... بقى وليد قلبي معي في المستشفى، يحيطني بالرعاية والعطف!

لقد زالتْ جميع الآلام المفتعلة التي أرغمتُ معدتي على التظاهر والإحساس بها، بمجرّد أنْ رأيتُ وليد مقبلاً نحوي بقلق... وتحوّلتْ إلى رقص عندما رأيتُ أصابع يده خالية مِنْ أي محابس!

سألتُه بعد ذلك، ونحن في المستشفى، وأنا أنظر إلى يده اليمنى:

«أين خاتمك؟».

وليد فكّر قليلا ثمَّ قال:

«في علبته!».

شعرتُ بسعادة كدتُ معها أضحك بقوة! لكنني منعتُ نفسي لئلا يكتشف وليد بأنني لا أشكو مِنْ أي شيء!

إلا مْنْ غيرتي العمياء مِنَ الدخيلة، ورغبتي في إبعادها عنه نهائياً.

أخفضتُ نظري لئلا يقرأ وليد ما بعيني مِنْ فرح ومكر... وبقيتُ كذلك بضع ثوان، إلى أنْ سمعته يقول:

«وأنتِ؟؟».

رفعتُ نظري إليه، في بلاهة! ماذا يعني؟؟

قال:

«أين خاتمك؟».

ومِنْ عينيه إلى يدي اليمنى مباشرة! لم أرتده مذ خلعته تلك الليلة. قال:

«لا تقولي أنّك أضعتِه مجدّداً!».

قلتُ مداعبة:

«هل وجدتَه؟؟».

وليد اندهش وقال مستغرباً:

«أحقاً أضعته ثانيةً؟! ألم تصفيه بأنّه ليس مجرّد خاتم؟ أي فتاةٍ أنتِ؟!».

قلتُ مباشرة:

«أنا رغد!».

«حقاً!؟ كدتُ أنسى! كنتِ تضيعين ألعابك وتأتين إليَّ طالبةً منّي البحث عنها!».

ابتسمتُ بخجل... قال:

«لكنها كانتْ ألعاباً... أما هذا...».

وبتر جملته...

وظلّ ينظر إلي بصمت برهة... ثمَّ وجّه عينيه نحو الجدار...

«وليد..».

ناديتُه بصوت خافت هامس، التفتَ إلي وأجاب:

«نعم؟».

«هل... ستظل تعتني بي... فيما لو بقيتُ دون زواج عشر سنين أخرى؟».

استغرب وليد مِنْ سؤالي، ثمَّ قال:

«وعشرين، وخمسين، ومئة!».

قلتُ بخجل:

«أحقاً وليد؟».

«طبعاً صغيرتي! إنكِ جزءٌ مني!».

كدتُ أقول بسرعة:

«وأنتَ كلّي!».

ولكنني خدّرتُ الجملة في لساني. قلتُ وأنا أعبث بأصابعي:

«وليد...».

وأتممتُ:

«لقد... تخلّصتُ مِنَ الخاتم».

ونظرت إليه لأرى تعبيرات وجهه... بدا مستغرباً غير فاهم.

قلتُ موضّحة أكثر:

«سامر حلَّ رباطنا ولذلك... خلعتُه».

هي تعبيرات غاية في الغموض، تلك التي ارتسمتْ على وجه وليد لحظتها... ذهول مفاجأة، صدمة، استياء... عدم تصديق، أو... لا أدري... لا أدري ما كان معناها...

بعد صمت الاستيعاب والتفكير، قال:

«إذن.. إذن... أنتِ وسامر...».

أتممتُ جملته:

«لمْ نعد مرتبطين».

وليد وقف فجأة، وأخذ يحوم... في الغرفة، يفكّر... ثمَّ استدار إلي فجأة وسألني:

«لماذا يا رغد؟».

تبادلنا نظرة عميقة، ثمّ أحنيتُ رأسي وأخفضتُ عيني نحو الأسفل... خشية أنْ تصرخ الجملة مِنْ عيني: (لأني أحبكَ أنتَ!).

التزمتُ الصمت، ولمْ أرفع بصري إليه مجدَّداَ... فما كان منه إلا أنْ أقبل نحو الستارة ليغلقها.

بعدما أغلقها حول سريري، قال جملة أخيرة:

«مهما كان السبب، ولأنكِ تحت رعايتي الآن، فاحذفي فكرة الزواج مِنْ رأسكِ نهائياَ... طوال السنين المقبلة».

– وليد –

الآن، وأخيراً... أصبحتْ رغد حرّة!

اتصلتُ بسامر وعلمتُ مِنْه بالتفاصيل، وواقعاً أنَبتُه على الإقدام على فكِّ الخطوبة في الوقت الراهن، ودون سابق إعلامي والأخذ برأيي. صحيح أنّه كان حلمي... أنْ تتحرّر رغد... لكن ليس في مثل هذه الظروف غير المستقرّة...

والجملتان اللتان ظلّتا معلقتين في رأسي مِن كلمات أخير كانتْ أولاهما:

«لا داعي لأنْ تأتيا لزيارتي، لا أريد أنْ أراها».

أما الثانية، فهي:

«تستطيع أنْ تتزوّج الآن ممّن أرادتْ».

«مَنْ تعني؟».

«اسألها!».

كل هذا أكدَّ لي، أنَّ رغد بالفعل انفصلتْ عن سامر مِنْ أجل رجلٍ آخر... وهذا الآخر لنْ يكون غير ابن خالتها، حسام...

لكن... مهما كانتْ العقبات، ومهما عاندتْ الظروف، فسوف لنْ أسمح لأي رجلٍ بدخول حياتها وسرقتها منّي مجدداً... ولنْ تكون في النهاية إلا لي أنا...

توالتْ الأيام، ورُفِع الحظر أخيراً عن المدينة الصناعية وصار بإمكان الناس التحرك منها وإليها دون خطورة... وما إنْ حدث ذلك، حتى طالبتْي رغد بأخذها إلى بيت خالتها وألحّت عليّ بالطلب، الأمر الذي جعل الشكوك في رأسي تكبر وتتفاقم وأصبحتُ مهووساً باسم حسام حتى صرتُ أراه في الكوابيس...

وبعد إلحاحٍ شديد منها وافقتُ على اصطحابها لزيارة عائلة خالتها بمجرّد انتهاء موسم الحصاد.

- رغد -

بعد أيام، سيأخذني وليد لرؤية خالتي ونهلة والبقية. كم اشتقتُ إليهم! كم مِنَ الشهور مضتْ مذ افترقنا في تلك الليلة الحمراء...

كنتُ رغم ذلك على اتصال شبه يومي بنهلة أخبرها عن كل شيء يدور مِنْ حولي وداخلي...

في أحد الأيام، كان وليد يعمل في المزرعة كالعادة، وكنتُ أراقبه وأرسم منظراً جميلاً على مقربة منه، الشقراء كانتْ داخل المنزل مشغولة ببعض الأمور مع والدتها.

فجأة، إذا بي أرى أناساً غرباء يدخلون المزرعة، ويعبرون الممر ويقتربون منّي. كانوا أربعة رجال... تقدّم أحدهم نحوي أكثر وسأل:

«أأنتِ الآنسة أروى نديم البحري؟؟».

قال آخر مُقاطعاً:

«أرأيتَ؟ كما توقّعتُ! إنها فتاةٌ قاصر!».

قال الرجل الأول وهو يقترب أكثر:

«أنتِ هي؟».

تراجعتُ أنا للوراء، ووضعتُ الفرشاة وعلبة الألوان جانباً وهتفتُ مناديةً:

«وليـــــد».

وليد كان يعمل في الجوار... وحين سمع ندائي أقبل مسرعاً... فلمّا ظهر أمام عيني هرولتُ إليه في قلق...

«رغد.. ماذا هناك؟».

ونظر إلى الرجال الغرباء... ثم سألهم:

«مَنْ أنتم؟؟».

قال الرجل الذي تحدّث إليّ:

«أنا المحامي يونس المنذر، وهؤلاء رجال قانون أتباعي، أتينا بحثاً عن الآنسة أروى نديم البحري».

ونظر باتجاهي أنا. تواريتُ أنا خلف وليد، وأطللتُ برأسي لأراهم. قال المتحدّث:

«أهي هذهِ؟».

قال وليد:

«لا، لكن هل لي أنْ أعرف ماذا تريدون منها؟».

قال المتحدّث:

«أهي هنا؟ أهذه مزرعة المرحوم نديم وجيه؟».

«نعم. فماذا تريدون منها؟».

«عفواً مَنْ تكون يا سيّد؟».
«وليد شاكر، زوج أروى نديم».
تبادل الرجال جميعهم النظرات، ثمَّ قال المتحدّث:
«هل يمكننا التحدّث إلى السيدة أروى؟ فالأمر مهم».
قال وليد:
«هل لي أنْ أعرف... الموضوع؟؟».
قال الرجل:
«الموضوع يتعلق بإرثها، ولكن لا أريد مناقشته دون حضورها شخصياً ومع البطاقة المدنية، بعد إذنك».
وليد استدار ليتحدّث معي...
«رغد، مِنْ فضلك، استدعي أروى، واطلبي منها إحضار بطاقتها، واحضري بطاقتي مِنْ محفظتي، تجدينها في أوّل أدراج الخزانة في غرفتي».
أذعنتُ للأمر وذهبتُ مسرعةً نحو أروى، وأخبرتها بالأمر، ثمَّ أسرعتُ إلى غرفة وليد أفتّش عن محفظته.
استخرجتُ المحفظة مِنْ أحد أدراج الخزانة، وأخرجتُ البطاقة منها وأثناء ذلك، لمحتُ شيئاً داخل المحفظة أثار فضولي!
مجموعة مِنْ قصاصات الورق مرصوصة خلف بعضها البعض ومدسوسة خلف البطاقة!
بفضول سحبتُ واحدة منها فاكتشفتُ أنها جزءٌ ممزّق مِنْ صورةٍ فوتوغرافية ما!
استخرجتُ القصاصة الثانية، والثالثة، والجميع، حتى وجدتُ قطعة حاوية على وجه شخص!
رتبّتُ القصاصات... حتى اكتملتْ الصورة، وصارتْ جليّة أمامي...
صورة لفتاة صغيرة، تجلس على الأرض، وأمامها علبة ألوان ودفتر تلوين تلّون رسومه... صورة لا يقل عمرها عن ثلاثة عشر عاماً كما لا يزيد عمر الطفلة الظاهرة فيها عن خمس سنين!
إنها صورتي أنا!!
«رغد».
سمعتُ صوت أروى مقبلاً نحوي فأعدتُ القصاصات بسرعة كيفما اتفق، وأخذتُ البطاقة وخرجتُ مسرعةً مِنَ الغرفة...
«ها أنا».
خرجنا سوية مِنَ المنزل إلى المزرعة، فوجدنا وليد والرجال الأربعة وقد جلسوا على المقاعد الموجودة حول طاولة موضوعة على مقربة مِنَ المنزل...
حينما أقبلنا... وقف الجميع... وقال وليد مشيراً إلى أروى:

«هذه هي أروى نديم وجيه».
وبعد أنْ استوثق الرجال مِنَ البطاقة، قال ذلك الرجل نفسه:
«إذن فأنتِ لستِ فتاةً قاصراً كما اعتقدنا».
قالتْ أروى:
«أنا في الرابعة والعشرين مِنَ العمر!».
قال الرجل:
«هذا سيسهِّل مهمّة استلامكِ للإرث».
أورى ووليد تبادلا نظرة التعجب، ثمَّ قالتْ:
«الإرث؟ أي إرث؟ والدي رحمه الله لم يترك لنا غير هذه المزرعة!».
وأشارتْ بيدها إلى ما حولها. الرجل تحدّث قائلاً:
«لا أتحدّث عن إرث والدك رحمه الله».
تعجّبتْ أروى، وسألتْ:
«مَنْ إذن؟؟».
قال الرجل:
«عمّكِ المرحوم عاطف وجيه البحري».
حملقنا نحن الثلاثة في وجوه بعضنا البعض، في منتهى الدهشة والاستغراب، وإنْ كنتُ أنا أقلّهم استغراباً!
قال وليد:
«عاطف وجيه؟؟ أبو عمّار!».
أجاب الرجل:
«نعم أبو عمّار، رحمهما الله».
وليد وأروى نظرا إلى بعضهما... ثمَّ إلى الرجل الغريب... سألتْ أروى:
«عمّي عاطف! عجباً! لقد ماتَ قبل زمن! هل ذكرني في وصيته!؟».
الرجل قال:
«لمْ يترك المرحوم وصية، كما لمْ يترك وريثاً، لكنّه ترك ثروة!».
ازداد تحديق وليد وأروى في بعضهما البعض، ثمَّ سألتْ أروى:
«ثروة؟».
قال الرجل:
«نعم، ولكِ منها نصيبٌ كبير».
حلّ الصمت برهة، ثمَّ قالتْ أروى:
«ما يصل إلى كم تقريباً؟».
قال الرجل بصوت تعمّد أنْ يكون واضحاً رنّاناً:

«ما يصل إلى الملايين يا سيدتي!!».

فغرتْ أروى فاها، وكذلك وليد وأنا... كلنا فغرنا أفواهنا مِنَ الذهول... وقالتْ أروى غير مصدّقة:

«ملا...ــيين؟؟ تركها لي..!!».

قال الرجل:

«نعم ملايين!».

هزّتْ أروى رأسها غير مصدّقة... وهي تضع يدها على صدرها مِنَ الذهول...

قال الرجل:

«يبدو أنك لم تكوني على علمٍ يا سيّدتي.. بأنَّ عمّكِ المرحوم عاطف وجيه كان مليونيراً فاحش الثراء!».

- وليد -

لقد كانتْ مفاجأةً هزّتْ كياننا جميعاً...

عاطف وجيه، هو والد عمّار القذر، الذي قتلتُه بيدي قبل عشر سنين..

وعاطف هذا، كان رجلاً شديد الثراء ويملك العديد مِنَ الأملاك... ومِنْ بينها مصنعٌ كبير لمواد البناء، كان يضاهي معظم مصانع المدينة الساحلية، وهو مصنع لم تلمسه يد الحرب، كما فعلتْ بمصانع أخرى، منها مصنع والدي.

حقيقةً، كان حدثاً مزلزلا شلَّ حركتنا وأفكارنا طوال عدّة أيام...

والفتاة الفقيرة التي ارتبطتُ بها، والتي قبلتْ بي على حالي وعللي، وفتحتْ قلبها وبيتها وكل ما لديها مِنْ أجلي، والتي كنتُ أفكّر بالانسحاب مِنْ حياتها مِنْ أجل رغد... أصبحتْ الآن.. مالكةً لثروةٍ كبيرة!

يا للأيام...

يا للزمن... الذي يؤرجحنا ومصائرنا إياباً وذهاباً... علواً وهبوطاً... مستقبلاً وماضٍ!

كان يفترض عليها السفر إلى المدينة الساحلية مِنْ أجل إتمام الإجراءات اللازمة شخصياً... واستلام نصيبها العظيم مِنْ تلك الثروة...

وكان عليَّ أنا ترتيب الأمور مِنْ أجل هذه الرحلة، إلى المدينة الساحلية، مدينتي الأصلية، والتي لمْ أزرها منذ زمن...

«هل تصدّق يا وليد؟؟ إنني لا أكاد أصدّق! كأنّه حلم! آخر شيء كنتُ أتوقّعه في الوجود على الإطلاق... هو أنْ أرث شيئاً ومِنْ ثروة عمّي الذي لمْ أره في حياتي غير بضع مرّات عابرة!».

قالتْ ذلك، وهي بين التصديق والتكذيب.. تشعُّ عيناها فرحاً وابتهاجاً...

قلتُ:

«سبحان الله!».

أروى، مدّتْ يديها وأمسكتْ بيدي وقالتْ:

«شدّ على يدي بقوّة يا وليد! دعني أحس بالألم لأتأكّد مِنْ أنها حقيقة».

ابتسمتُ لها وقلتُ:

«إنها حقيقة مذهلة! صدّقي يا أروى! أصبحتِ ثريّة!».

أروى نظرتْ إليّ بسعادة، واغرورقتْ عيناها بالدمع، ثمّ ارتمتْ في حضني...

«ضمّني بقوّة يا وليد.. فأنا أريد أنْ أشعر بأنها الحقيقة... بأنني لا أحلم... بأنّني في الواقع... وبأنّك معي!».

أحطتُها بذراعي مشجعاً... ومؤكداً لها ما أعجز أنا نفسي عن تصديقه... ومكرّراً:

«سبحان الله... سبحان الله».

أغمضتُ عيني، ونحن متعانقين، وسبحتُ في بحر الذكرى البعيدة... استعرض شريط حياتي والمفاجآت التي اختزنها القدر لي، وصدمني بها مرةً تلو أخرى...

قالتْ أروى:

«ماذا سنفعل الآن؟؟».

«لا أعرف! لا زلنا في أوّل الطريق!».

ابتعدتْ أروى عن صدري قليلاً، ونظرتْ إليّ مطوّلا، وابتسمتْ وقالتْ:

«لا حاجة للقلق... ما دمتَ معي».

ابتسمتُ لها، فعادتْ وغمرتْ رأسها في صدري بارتياح...

أمّا أنا فأغمضتُ عيني في حيرة وضياع... ماذا سأفعل الآن؟؟ ماذا ينتظرني بعد؟؟ ماذا تخبئين لي أيتها الأقدار؟؟

وعندما فتحتهما... لمحتُ عينين حمراوين... تنظران إليّ بألم، مطلّتين مِنْ فتحة الباب... وما أنْ رأيتُهما... حتى انسحبتْ صاحبتهما مبتعدة... تاركةً إياي في بحر مِنَ التشتّت...

لم أستطع البقاء مكاني لحظة بعد... أبعدتُ أروى عني قليلاً وقلتُ:

«دعيني أذهب لترتيب بعض الأمور... مِنْ أجل السفر».

أروى ابتسمتْ وقالتْ:

«وأنا أيضاً سأرتّب بعض أموري... لا أدري كم سنغيب هناك!».

وتركتُها وتسلّلتُ نحو غرفة رغد، الغرفة التي أعددناها لها مؤخراً.

طرقتُ الباب مراراً لكنها لم تجبني، وحين هممتُ بالانصراف رأيتُ مقبض الباب يتحرّك أخيراً...

في الداخل، وجدتُ رغد غارقة في الحزن والكآبة... فتصدّع فؤادي وطار عقلي خوفاً عليها...

«ما بكِ صغيرتي؟؟ ماذا حصل؟».

رمتني رغد بنظرةٍ ثاقبة... لمْ يكفها تمزيق أحشائي بل وثقبتْ الجدار الذي خلفي مِنْ حدّتها...

«رغد!؟».

قالتْ:

«متى ستسافران؟».

«خلال أيام معدودة».

«هل يجب أنْ تذهب أنتَ؟».

استغربتُ سؤالها وأجبتُ:

«طبعاً! فأروى ستكون بحاجة إليّ بالتأكيد!».

قالتْ بنبرة حزينة:

«وأنا؟».

نظرتُ إليها بتعجّب، وقلتُ:

«بالطبع ستكونين معنا!».

رغد لمْ تعقّب، بل أحنتْ رأسها للأسفل بحزن...

اقتربتُ منها أكثر، ثمّ قلتُ:

«رغد! وهل كنتِ تظنّين أنّني سأتركِ هنا وأذهب؟؟».

رغد رفعتْ رأسها ونظرتْ إليّ نظرة جعلتْ قواي تخور فجأة... قلتُ بصوت ضعيف واهن:

«أرجوكِ يا رغد.. ماذا تقصدين؟ أخبريني بلسانك فلغة العيون هذه... ترسلني إلى الجنون».

قالتْ رغد:

«ستصبحان ثريين!».

ثم أضافتْ:

«هنيئاً لكما!».

وأشاحتْ بوجهها عنّي وأطلقتْ تنهيدة مريرة.

«أرجوكِ يا رغد، لِمَ كل هذا؟؟ ماذا يجول برأسكِ الآن؟؟».

قالتْ دون أنْ تنظر إليَّ:

«دعني وحدي».

لمْ أقبل، قلتُ مصرّاً:

«ما بكِ الآن؟ أفصحي حتّى أفهمكِ... أنتِ غامضة عليَّ؟؟».

نظرتْ إليّ وقالتْ:

«أريد الذهاب إلى خالتي! هل لا أخذتَني إلى هناك؟».

* * *

رتبنا الأمور للسفر براً، أنا ورغد وأروى والخالة ليندا، فيما ظلّ العمُّ إلياس في المزرعة، يهتم بأمورها بمساعدة الأشخاص الذين عيّنتُهم للعمل عندنا قبل مدّة.

خطة سفرنا كانتْ تقتضي منّا التعريج على المدينة الصناعية أولاً، مِنْ أجل زيارة عائلة أبي حسام، كما ترغب رغد وتلحُّ، ومِنْ ثمَّ الذهاب إلى المدينة الساحلية.

في السيارة، كانتْ أروى تجلس على المقعد المجاور لي، وكنّا نتبادل الأحاديث معظم الوقت، بينما يخيّم صمتٌ غريب على المقعدين الخلفيين، رغد والخالة!

الخالة سرعان ما غلبها النعاس فنامتْ، أما الصغيرة الحبيبة، فكلّما ألقيتُ نظرةً عبر المرآة إليها وجدتُها تحدّق بي بحدّة! وكلّما حاولتُ إشراكها في الحديث معنا ردّتْ رداً مقتضباً سريعا مبتوراً!

المشوار إلى المدينة الصناعية المنكوبة لمْ يكن طويلاً جداً، لكنَّ الشارع كان خالياً مِنْ أية سيّارات، الأمر الذي يثير الوجل في قلوب عابريه!

عبرنا على نفس محطّة الوقود التي بتنا عندها تلك الليلة... ونحن مشرّدون في العراء!

المحطّة كانتْ مهجورة، والبقالة مقفلة... المكان ساكنٌ وهادئ، لا يحرّكه شيءٌ غير الريح الخفيفة تعبثُ بأشياءٍ مرميّة على الأرض...

كم كان يومنا مأساويا...

خفّفتُ السرعة، وجعلتُ أراقب ما حولي وأستعرض شريط الذكريات... لقد نجونا بأعجوبة! سبحان الله...

«وليد...».

كان هذا صوت رغد، تناديني بوجل... وكأنَّ الذكرى أثارتْ في قلبها الفزع... التفتُّ إليها فوجدتُها تكاد تلتصق بمقعدي! وعلامات التوتر والخوف مستعمرةٌ تقاسيم وجهها الدائري...

قلتُ مشجعاً:

«نجونا... بفضل الله...».

وسبحنا في بحر عميقٍ مِنَ الهدوء الموحش...

تابعنا طريقنا، والذكرى تجول في رأسينا... هنا مشينا حفاةً... هنا ركضنا... هنا وقفنا... هنا حملتُ رغد... هنا وقعتْ رغد... هنا أصيبتْ رغد! آه... ما كان أفظع ذلك الجرح!...

وهنا...

هنا...

ماذا تتوقّعون هنا؟؟

إنها سيارتي القديمة!

«وليد!».

نادتني رغد وهي ترى سيارتي القديمة واقفة إلى جانب الطريق، مع سيارات أخرى في نفس المكان!

أوقفتُ السيارة، وأخذتُ أتأمّل على سيارتي القديمة هناك! التفتُّ إلى رغد فوجدتُها تنظر إليّ...

يا للأيام! بل يا للشهور! أما زالتْ سيارتي القديمة واقفةً في انتظار عودتي في مكانها!

فتحتُ الباب وهممتُ بالنزول، ناوٍ الذهاب وتفحّصها عن كثب!

«إلى أين وليد؟؟».

سألتْني رغد، أجبتُ:

«سألقي نظرة!».

وقبل أنْ أخرج كانتْ رغد قد فتحت بابها وسبقتني!

«سآتي معك!».

ذهبنا سوية، واقتربنا من السيارة.

فتحتُ الأبواب غير الموصدة، وتفحصتُ ما بالداخل... ورغد إلى جانبي...

«كما هي! لم يتغير شيءٌ! أ رأيتِ يا رغد؟؟».

لم تعقّب، بل ظلّتْ تتفحّصها بعينيها، وربما تستعيد الذكرى المرعبة. ركبتُ مقعدي الأمامي، فأسرعتْ هي لركوب المقعد المجاور... وأغلقتْ الباب.

«كما هي... تماماً كما تركناها ذلك اليوم! أتصدّقين ذلك! سبحان الله!».

رغد قالتْ:

«هيا بنا... ننطلق للخلف، ونعود مِنْ حيث أتينا تلك الليلة، ونعود بالزمان للوراء، وننسى ما حصل انطلاقاً مِنْ هذه النقطة!».

ابتسمتُ وقلتُ:

«يا ليت...».

وتنهّدتُ وأضفتُ:

«يا ليتنا بعدما وصلنا إلى هذه النقطة، رجعنا للوراء، ورجع كل شيء كما كان...».

وأسندتُ رأسي إلى مسند المقعد... وأغمضتُ عينيّ...

لستُ أريد العودة للوراء بضعة اشهر، بل عشر سنين، بل... بل ستّة عشر عاماً...

إلى ذلك اليوم الذي اقتحمتْ فيه مخلوقةٌ صغيرة حياتي فجأةً! وملأتْها صراخاً، وبكاءً، ودموعاً... وألماً...

وبسببها تغيّر مجرى حياتي وانعطف بي الطريق إلى حيث لا رجعة...

فتحتُ عيني والتفتُّ إلى رغد، فوجدتُها تنظر إليّ بقلق...

إنها هي ذاتها... المخلوقة التي غزتْ عالمي منذ سنين... ذاتها التي تجلس قربي الآن، لا

يفصلني عنها سوى بضع بوصات...

تنظر إليّ نظرتها للعالم بأسره، وأمثّل بالنسبة لها كل الناس...

«رغد..».

«نعم؟».

«كيف تشعرين الآن؟؟».

قالتْ:

«الآن الآن؟».

«نعم الآن!؟».

ابتسمتْ وقالتْ:

«بالسرور!».

عجباً! أمر هذه الصغيرة كلّه محيّر!

بعد ذلك، أقفلتُ أبواب السيارة، وودّعناها على أمل العودة لها ذات يوم، وتابعنا مشوارنا نحو المدينة...

ما إنْ أطللنا على مشارفها، حتّى رأينا الدمار والخراب يعشّش على شوارعها وأجوائها...

اضطررتُ لسلك طرقٍ ملتوية ومعقّدة لأصل إلى قلبها...

المباني المتهدّمة، الأشجار المحترقة، الشوارع المدمّرة، والأشياء المبعثرة هنا وهناك...

كلها، مناظر تثير الرعب في قلب الصخر...

عبرنا أخيراً على الشارع المؤدّي إلى منزلنا... وآه مِنْ ألم المنظر... آه بعد ألف آهٍ وآه...

بيتنا... المنزل الدافئ الذي لمّ شملنا واحتضن عواطفنا الأُسريّة... صار كتلةً مِنَ الفحم الأسود... محاطةً بطبقةٍ مِنَ الرماد والغبار...

تحوّل ذلك المنزل الصغير الهادئ، الحبيب... إلى شبحٍ ميِّت... لا أثر فيه ولا معلم مِنْ معالم الحياة والروح...

«يا إلهي!».

قالتْ رغد ذلك، ووضعتْ يدها على وجهها لتحاشي رؤية المنظر المؤلم... وتخفي الدموع التي ساحتْ على الجانبين... رثاءً وعزاءً...

لم أستطع أنْ أمرَّ مِنْ هنا مرور الكرام، أوقفتُ سيارتي عند الباب، المكان الذي اعتدتُ أنْ أوقف سيارتي فيه... ونظرتُ مِنْ حولي...

شعرتُ باختناق شديدٍ في صدري، وكأنَّ ذرات الغبار والرماد قد سدّتْ حويصلاته ومنعتْ جزيئات الهواء مِنَ الدخول...

مع ذلك، لم أتمالك منع نفسي مِنَ المضي قدماً... فتحتُ الباب، وقلتُ:

«سألقي نظرة».

والتفتُّ إلى رغد... كانت لا تزال تخفي وجهها خلف يديها... قلتُ:

«رغد.. أتأتين؟؟».

أردتُها أنْ تأتي معي... كشيءٍ حي يتحرّك معي في سكون ذلك الشبح الميت، أردتُ أنْ أشعر ببعض الحياة... ببعض الأمان والألفة... بأنَّ هناك مَنْ لا يزال حياً معي... رغم موت مَنْ مات... وفناء مَنْ فني...

أروى قالتْ:

«سآتي معك!».

رغد بسرعة أبعدتْ يديها عن وجهها وفتحتْ الباب! خالتي الأخرى أيضاً تبعتنا... وسرنا نحن الأربعة نحو الداخل...

الأبواب كانتْ مفتوحةً، كما تركناها أنا ودانة ليلة هروبنا...

سرنا ندوس على الرماد، ونتنفس الغبار... ورائحة الخراب والوحشة... تقرصنا الذكريات وتصفعنا المناظر المؤسفة، وتحني ظهورنا الحسرة على ما كان وما لمْ يعد...

رغد أمسكتْ بيدي، وكلما سرنا خطوةً شدَّتْ ضغطها عليَّ... وكلّما رأتْ شيئاً أغمضتْ عينيها بقوّة وعصرتْ الدموع المتجمعة في محجريها...

حتّى إذا ما بلغنا الردهة المؤدية إلى غرفة والديّ، حرّرتْ يدي مِنْ بين أصابعها، وهرولتْ نحو الباب وفتحته باندفاع...

«أمــــــي... أبــــــي... أنا هنا».

حينها فقط، أدركتُ كم كنتُ مجنوناً حين سمحتُ للفضول بالتغلّب عليَّ... ووقفتُ عند المنزل...

اقتحمتْ رغد الغرفة وهي تهتف:

«أمي... أبي...».

وانهارتْ على السرير، تحضن الوسائد وتبكي بحرارة ومرارة... بكاءً عالياً صدّع الحجر... وأدمع الجدران... وزلزل الأرض...

«أنا أنتظركما! لماذا لا تعودان؟ أي حجٍ هذا الذي لا يعود الحجيج فيه مِنْ بيت الله!.. الله! يا الله.. أنتَ ترى بيتي الآن! أنتَ رب البيت وأنا لا بيت لي... وأنتَ رب الناس وأنا لا ناس لي! أتاك جميع الآباء والأمهات... وأنا لا أب لي ولا أم! يا رب... لا أب لي ولا أم! يتّمتَني مرّتين يا رب... مرّتين يا رب... مرّتين أفقد فيهما أعظم ما أعطيتَني إيّاه... بل أربع مرّات! أمّان وأبوان! أنا أربعة أيتام في بيتٍ خرب محروق!».

كيف احتّمل أنا... وليد... كلاماً كهذا مِنْ رغد؟؟

انهمرتْ دموعي معها بلا شعور... وأي شعور يبقى للمرء وهو يرى ما نراه...؟ حسبنا الله ونعم الوكيل...

مِنْ وسادةٍ إلى وسادة، ومِنْ زاوية إلى زاوية، ومِنْ شيءٍ إلى شيء، أخذتْ صغيرتي تتنقّل وهي تهتف:

«أمّـي... أبـي... عودا إليَّ... أحتاجكما... لا تتركاني وحدي... خذاني معكما».

تفتِّش حطام الخزائن، وتستخرج الخرق المحروقة المتبقية مِنْ ملابسهما وتحضنها وتقبّلها وتصرخ... وقلبي يصرخ معها... وتتمزَّق، وقلبي يتمزّق معها... وتنهار وقلبي ينهار معها أيما انهيار...

«يكفي رغد.. بالله عليكِ، دعينا نرحل».

أبتْ رغد الحراك، بل زاد تشبُّثها حتَّى ببقايا الستائر... وشبّاك النوافذ...

أروى والخالة بكتا لبكاء رغد، ووقفتا في الخارج في حزنٍ وأسفٍ على ما حلّ ببيتنا.. وبوالدينا...

رغد، أقبلتْ فجأةً نحو الأدراج الموجودة أسفل المرآة... وأخذتْ تفتح الواحد تلو الآخر... وتستخرج أشياء أمِّي، ما تبقّى منها وتضمُّ ما تضمُّ، وتقبّل ما تقبّل، وتضع في حقيبتها ما تضع...

«هنا كانتْ أمِّي تجلس كل يوم تسرّح شعرها!».

«وليد انظر! هذا سوار أمّي المفضل!».

«وليد هل تعتقد أنها قد تغضب إنْ احتفظتُ به!؟».

«أريد أنْ آخذ هذا معي! وهذا... وهذا وهذا وهذا!».

«هل تعرف وليد؟؟ أمّي وأبي كانا يدلّلاني أكثر مِنْ دانة... رغم أنّني لستُ ابنتهما الحقيقيّة... كانا يحبّاني جداً... لمْ يكونا يرغبان في السفر دوني... لكنّهما رحلا وتركاني يا وليد!! تركاني نهائياً يا وليد!!».

«لا أريد أنْ أخرج مِنْ هنا! ليتَني كنتُ هنا واحترقتُ قبل رحيلهما... ليتَني بتُّ هنا وفجّرتني القنابل ولمْ أعش ساعة حيّةً بدونهما!».

ومرّة أخرى أسمعها تدعو على نفسها بالموت... هتفتُ متوسلاً:

«يكفي يا رغد، هيا نغادر المكان أرجوك فلم أعد أحتمل المزيد».

اقتربتُ منها وأمسكتُ بذراعها وأرغمتُها على الخروج مِنَ الغرفة، رغم مقاومتها...

كانت رغد تبكي بكاءً شديداً، واستمرّتْ في نوبتها هذه ونحن واقفان عند الباب، لا توافق على التزحزح عنه خطوة بعد...

«رغد.. صغيرتي...».

ناديتُها بأتعس صوتٍ صدر مِنْ حنجرتي الكئيبة... على الإطلاق...

نظرتْ إليَّ وقالتْ بأسى:

«مَنْ بقي لي بعدهما؟ مَنْ بقي لي؟».

قلتُ:

«أنا يا رغد... لكِ ومعكِ دائماً... أنا يا رغد... أنا...».

رغد نظرتْ إليَّ نظرةً حزينة قاتلة، وفكُّها الأسفل يرتجف مِنَ البكاء... والدموع تقطر منه...

«رغد...».

«وليد... ضُمَّني».

وقفتُ كالأبله، لا أفهم ولا أفكر ولا أتصرف!

قالتْ وفكها لا يزال ترتجف:

«ضُمَّني... ألستَ أبي وأمي الآن؟ ألستَ مَنْ بقي لي؟... أنا بحاجة لحضنٍ أبكي فيه».

لحظتها... تمنّيتُ لو أتحوّل إلى جدار، يكون أكثر نفعاً مني... كأيّ جدارٍ عانقته وتشبّثتْ به... كأي جدارٍ ربّما، ومع كونه جماداً لا روح فيه ولا حياة، أشعَرَها بالدفء والعطف والأمان... أمّا أنا... وأنا واقفٌ أمامها كالشبح الميّت، غير المُجدي... فلم يكن منّي إلا أنْ أحنيتُ رأسي للأمام في عجزٍ عن فعل شيءٍ أكثر أهميّة وحرارةً ونفعاً مِنَ الجدران...

لن أسامح نفسي ما حييتُ، على خذلاني لصغيرتي في لحظةٍ كهذه...

بعد ذلك، ورغم أنّني كنتُ مصراً على المغادرة فوراً، بيد أنّ رغد كانتْ مصرّة على دخول غرفتها وتفقّد أشيائها...

السرير كان محروقاً، ولا زلتُ أشكر الله ألف مرّة لأنّ رغد ليلتها كانتْ نائمةً في بيت خالتها...

ألف حمدٍ لك يا رب...

الأثاث، في موضعه السابق، غير أنّه مكتسٍ باللون الأسود المتفحّم... ومغطّى بذرّات الرماد وفتات المحروقات...

لم أشأ دخول الغرفة، وقفتُ عن الباب أراقب رغد وهي تتحسّس أشياءها المحروقة... حتّى إذا ما انتهتْ إلى مجموعة لوحاتها الكبيرة، جعلتْ تتفقدها بسرعة ووله، وتهتف بألم:

«لا، لا... لا...».

ثم نظرتْ إليّ وقالتْ بين دموعها:

«وليد.. لقد احترقتْ صورتك!».

وأخذتْ تحضن الرماد... والبقايا... أخيراً قرّرتُ الدخول، وحين صرتُ قربها مباشرةً قالتْ وهي تنثر الرماد مِنْ حولها:

«أنظر... لقد احترقتْ حتى الصورة! آآآآه... لماذا؟ يا إلهي ماذا تبقّى لي؟ ماذا تبقى لي؟؟».

«دعونا نغادر المكان ونختصر الألم أرجوكما».

كان ذلك صوت أروى التي كانتْ واقفةً عند الباب.. قالتْ رغد:

«ارحلوا واتركوني... أريد الموت هنا... آه يا رب... لماذا عشتُ أنا وماتا هما؟ حتّى الصور احترقتْ! ماذا تبقّى لي؟؟».

أروى تقدّمتْ نحونا وأمسكتْ بيد رغد محاولةً مواساتها وتشجيعها، غير أنّ رغد نهرتْها بقسوة، ورمتْها ببعض الكلمات الجارحة، ربما مِنْ شدّة حزنها...

ولمْ تسمح لنا رغد بمغادرة المنزل حتى تفقدّته غرفةً غرفة وممراً ممراً وزاويةً زاوية...
حتّى المطبخ جلستْ فيه فترةً طويلة تستعيد الذكرى وتقلّب المواجع، وتكرر...
«هنا كانتْ أمّي تطهو الطعام، وهنا كان أبي يدوّن ملاحظاته في المفكرة! وهناك كانتْ دانة تزين كعكاتها بالشكولا!... وسامر يقف هناك، يتحدّث عبر الهاتف، وعند هذه الطاولة كنتُ أنا أجلس لأقشّر البطاطا!

ليت ذلك يعود...

ولو يوماً واحداً فقط...

أعيش فيه وسط عائلتي... بين أمي وأبي، ودانة وسامر... يوماً واحداً فقط... عسى أنْ يكون آخر أيام حياتي...».

بل إنّ هذا سيكون آخر أيام حياتي أنا، ما لمْ تتوقّفي عن ذلك يا رغد... ارحميني...

حملتْ رغد معها تذكاراً مِنْ كل مكان وعن كل شخص... حتى سامر... كما أخذتْ حليها وحلي أمّي ودانة، بل وما بقي مِنْ فستان زفاف دانة المحروق أيضاً!

«سأعطيه لأختي حين تعود! كانتْ مهووسة به... وتعتبره كنزها الثمين! مسكينة يا دانة!».

خرجنا مِنْ ذلك الحطام الكئيب بعدما أغرقناه بالدموع وملأناه بالألم... إنْ كنتُ، الشخص الذي لم يعش في هذا المنزل فترةً طويلة، ولمْ يحمل معه سوى القليل مِنَ الذكريات، وأنا أكاد أنصهر مِنْ حرارة ما بداخلي، فكيف برغد...؟؟

ابتعدنا عنه وقلوبنا معلّقة عنده، وأنظارنا متشبّثة به حتى اللحظة الأخيرة... وأخذنا معنا ما غلا مما نجا، وما نجا مما غلا.

لمْ تتوقف سيل الدموع حتّى بعدما وصلنا إلى منزل أبي حسام، وكان الآخر محترقاً، غير أنّه أحسن حالاً مِنْ بيتنا المدمّر...

حين قرعنا الباب، فُتح وظهر مِنْ خلفه أفراد العائلة جميعاً، والذين كانوا في انتظارنا منذ ساعات...

ما إنْ رأتْ رغد خالتها حتى صرختْ... وانهارتْ في حضنها بحرارة...

اللقاء كان مِنْ أقسى اللقاءات التي مررتُ بها في حياتي... لا يضاهيه أي لقاء، عدا لقائي بأهلي بعد خروجي مِنَ السجن، مع فارق ضخم، هو أنّه لا أهل أمامي لأعود إليهم وأعانقهم وأبكي فوق صدورهم...

استهلكنا كميةً كبيرة مِنَ الدموع حتّى أوشكنا على الجفاف، صعدتْ رغد بعد ذلك مع ابنة خالتها إلى الطابق العلوي، وذهبتْ النساء إلى غرفة أخرى، وبقينا نحن الرجال في غرفة المعيشة نقلّب الأحزان ونتجرّع الآهات ونتبادل التعازي...

حينما حلَّ الظلام، أردتُ أخذ عائلتي إلى فندق لقضاء الليلة قبل متابعة السير غداً، مع أنّني لستُ واثقاً مِنْ إمكانية العثور على مكانٍ مناسب في مدينة مدمّرة، وطلبتُ مِنْ حسام

استدعاء الثلاث...

ذهب حسام وعاد بعد قليل مع أمّه وأروى وأمّها، فسألتُ عن رغد، فأخبرتْني أمُّ حسام أنها أرسلتْ ابنتها الصغرى لاستدعائها...

لحظات وإذا بالفتاة الصغيرة (سارة) تأتي نحونا وتقول:

«تقول رغد إنها ستبقى معنا ولن ترحل مع وليد وخطيبته الشقراء الدخيلة وأمّها!».

تبادلنا جميعا النظرات المتعجّبة، وحملقنا في الفتاة الصغيرة... ثمَّ سألتْها أمها:

«سارة! هل هذا ما قالتْه؟؟ وهل طلبتْ منكِ نقل هذا إلينا؟؟».

وهنا أقبلتْ الآنسة نهلة، ونظرتْ إلى أختها بغضب، ثمَّ إلينا أنا وأروى وقالتْ:

«رغد ستبات معي الليلة».

شعرتُ بالضيق الشديد مِنْ ذلك، فقلتُ:

«أين هي؟ أودُّ ا لتحدّث معها فهل لا استدعيتِها؟».

قالتْ:

«إنها لا تريد الخروج الآن...».

ضقتُ أكثر وقلتُ:

«أرجوكِ آنستي، هل لا استدعيتِها».

وما كدتُ أنهي الجملة حتى طارتْ الصغيرة سارة لاستدعائها! ثوان وإذا بها تعود قائلة:

«لن تذهب معك! ارحل واتركها وشأنها».

هتفتْ الآنسة نهلة:

«سارة! تباً لكِ! لا تتدخلي أنتِ وابقي في مكانك».

قلتُ:

«هل أخبرتِها بأنّني أريد التحدّث معها؟؟».

موجِّهاً الخطاب إلى الفتاة الصغيرة، فابتسمتْ الأخيرة وقالتْ:

«نعم! وقالتْ إنها لا تريد التحدّث معك، وإنَّ عليّ إخباركَ بأنها لن تذهب معكم فارحلوا!».

أمُّ حسام ذهبتْ الآن إلى غرفة ابنتها وعادتْ بعد قليل قائلة:

«دعها تنام هنا الليلة، إنها في حالةٍ سيئة».

وعبارة (حالة سيئة) أزعجتْني وأقلقتْني أكثر...

«أرجوكِ يا سيدتي، استدعيها لأتحدّث معها الآن».

وحالما أنهيتُ جملتي هذه رأيتُ رغد تظهر أمامي، ثمَّ تقول:

«سأبقى هنا في بيت خالتي! لن أرحل معكم».

اجتاحني الهلع، فقلتُ:

«تعنين الليلة؟».

قالتْ:

«بل كل ليلة، سوف أعيش هنا بقية عمري».

نظرتُ إليها، وإلى جميع مِنْ حولي في عدم تصديق... ثمّ سألتُها:

«ماذا تعنين يا رغد؟ لا يمكنكِ ذلك!».

«بلى، يمكنني».

«رغد! مستحيل!».

قالتْ بتحدٍ:

«بلى يا وليد، سأبقى أنا مع عائلتي الحقيقية، وارحل أنتَ مع عائلتك الجديدة... في أمان الله».

الحلقة الرابعة والثلاثون

لا فكاك عنّي

- رغد -

لأنني كنتُ أريد أنْ أبتعد عنه، وعن أروى التي تقترب منه أكثر يوماً بعد يوم، ولأنّني أُصِبتُ بإحباط شديد بعد نزول الثروة المفاجئة على أروى، رفضتُ متابعة سفري مع وليد...

لم أعد اتحمّل المزيد، إنَّ الذي ينبض بداخلي هو قلبٌ وليس محرّك سيارات! لا أتحمّل رؤية أروى معه، أختنق كلما أبصرتها عيني، أريدها أنْ تتحول إلى خربشةٍ مرسومةٍ بقلم الرصاص، حتّى أمحوها بممحاتي مِنَ الوجود نهائياً!

وليد وأروى وأمها، وأفراد عائلة خالتي، كانوا جميعا يقفون ناظرين إلي، وأنا أكرر:

«سأبقى هنا بقية عمري».

وليد وقف أولاً صامتاً، ذلك الصمت الذي يستلزمه استيعاب الأمور، ثم قال:

«مستحيل!».

نشبتْ مشادّة فيما بيننا، وتدخّلتْ خالتي، وحسام ونهلة، واقفين إلى صفّي، يطلبون مِنْ وليد تركي معهم... لكنَّ وليد قال بغضب:

«هيا يا رغد فأنا متعبٌ ما يكفي وأريد أنْ أرتاح».

بدأتْ العبرات تتناثر مِنْ مقلتي على مرأى مِنَ الجميع، ورقّتْ قلوب أقاربي لي، وساورتهم الشكوك بأنني غير مرتاحةٍ مع، أو لا ألقى معاملةً حسنة مِنْ قبل وليد!

قالتْ خالتي:

«دعها تباتُ عندنا الليلة على الأقل، وغداً نناقش الأمر».

قال حسام:

«إنّه المكان الطبيعي الذي تأوي إليه بعد وفاة والديكما. ألا ترى ذلك؟؟».

تدخّل أبو حسام قائلاً:

«ليس هذا وقت التحدّث بهذا الشأن».

التفتَ إليه حسام وقال:

«بلى يا والدي، كان يجب أنْ تحضر إلى هنا منذ شهور، لولا الحظر الذي أعاق تحرّكنا».

وليد تحدّث بنفاذ صبر قائلاً:

«تتحدّثون عن الأمر وكأنّكم قد خطّطتم له مُسبقاً! هل تعتقدون أنني سأقبل بهذا؟».

حسام قال:

«ليستْ مسألة تقبل أم لا تقبل! هذا ما يجب أنْ يحدث كما وأنها رغبة رغد».

والتفتَ إليّ، طالباً التأييد، كما التفتَ إليّ وليد والجميع!

قلتُ:

«نعم، أريد الإقامة هنا مع خالتي».

وجه وليد تحوّل إلى كتلة مِنَ النار... الأوداج التي تجانب رقبته وجبينه انتفختْ لحد يُخيّل للمرء إنها على وشك الانفجار! عيناه تقذفان حمماً بركانية حامية!

رباه!

كم هو مرعبٌ! يكاد شعر رأسي يخترق حجابي ويشع مِنْ رأسي كالشمس السوداء!

قال:

«هذا ليس وقته الآن، وأنا لن أتزحزح عن هذا المكان خطوة واحدةً إلا وأنتِ معي».

قلتُ متحدّيةً:

«وهل سترغمني عنوةً على الذهاب معكَ؟؟».

فأجاب بوضوح وتحذير:

«نعم، إنْ اضطررتُ لذلك... بكل تأكيد».

حلَّ السكوت برهةً ظلَّ فيها صدى جملته الأخيرة يطنُّ في آذاننا.

وفي لحظة حاسمة مرعبة كهذه، يتسلّل تعليق غبي مِنْ ابنة خالتي الصغرى، حين تقول:

«إذن... نمْ معنا!».

جميعنا نظرنا إلى سارة نظرةً مستهجنة، تلتْها نظرة تفكير، تلتها نظرة استحسان!

قالتْ خالتي:

«فكرة حسنة! لِمَ لا تقضون هذه الليلة معنا؟».

وليد اعترض مباشرة، وكذلك أروى... وبعد نقاش قصير، نظر إليّ وليد وقال:

«لهذه الليلة فقط».

معلناً بذلك موافقته على المبيت في بيت خالتي، وإصراره على عدم الخروج مِنَ الباب إلا وأنا معه!

بعد أنْ نام الجميع، ومضى الوقت... وأنا في عجز كلّي عن النوم، ووليد يلعب فوق جفوني، نهضتُ عن السرير وذهبتُ إلى الطابق السفلي، بحثاً عنه.

لمحتُه جالساً في نفس المكان الذي كان يجلس فيه أثناء (شجارنا) وكان يبدو غارقاً في التفكير العميق...

انسحبتُ بحذر، إذ إنني لم أكنْ أريد الظهور أمامه... فظهوري سيفتح باباً للمشادة! لكنني، بعدما رأيتُه، أستطيع أنْ أنام قريرة العين!

«تصبح على خير... يا وليد قلبي...».

- وليد -

وافقتُ كارهاً على قضاء الليلة في بيت أبي حسام، ولم أنم غير ساعتين، لأنَّ أفكاري كانتْ تعبثْ بدماغي طوال الوقت.

ماذا إنْ أصرَّتْ رغد على البقاء هنا؟ أتعتقد هي أنني سأسمح بهذا؟؟

مطلقاً يا رغد مطلقاً... وإنْ كان آخر عمل في حياتي، فأنا لن أدعك تبتعدين عنِّي...

تناولنا فطورنا في وقتٍ متأخِّر، الرجال في مكان والنساء في مكانٍ آخر... وحين فرغنا منه، طلبتْ أم حسام أنْ تتحدّث معي حديثاً مطوّلاً، فجلسنا أنا وهي، وابنتها الصغيرة في غرفة المجلس... وكنتُ أعلم مسبقاً عن أي شيء سيدور الحديث!

«وليد يا بنيَّ... إنَّ ما مرّتْ به رغد لهو تجربة عنيفة، احترق بيتها، وتشرّدتْ، ثم ماتَ والداها، ثم انفصلتْ عن خطيبها، وعاشتْ في مكانٍ غريب مع أناسٍ غرباء! هذا كثير على فتاة صغيرة يا بنيَّ!».

التزمتُ الصمت في انتظار التتمة.

«إنَّه لمِنَ الخطأ جعلها تستمرُّ في العيش هناك، إنَّها بحاجة إلى رعاية أمومية وأبوية... لذلك يجب أنْ تبقى معنا».

هززتُ رأسي اعتراضاً مباشرةً... فقالتْ:

«لِمْ لا؟».

«لا يمكنني تركها هنا».

«ولكن لماذا؟ إنَّه المكان الطبيعي الذي يجب أنْ تكون فيه بعدما فقدتْ والديك، مع خالتها وعائلة خالتها، التي تربَّتْ بينهم منذ طفولتها... ليس مِنَ اللائق أنْ تقيم معكَ ومع خطيبتكَ وعائلتها... نحن لا نعرف مَنْ يكونون...».

وتابعتْ:

«لقد فوجئنا بخبر انفصالها عن سامر في ظرفٍ كهذا... وعلمنا منه أنّه تركها تحت وصايتكَ ورعايتكَ مع خطيبتكَ وأهلها الغرباء... والذين لمْ نسمع عنهم إلا منه. لقد أنّبناه على تصرّفه هذا... كان مِنَ الأجدر به جلبها إلينا... أليس كذلك؟».

قلتُ مستنكراً:

«لا تحاولي يا أمّ حسام، الموضوع منتهٍ».

استاءتْ أم حسام وقالتْ:

«كيف تقول ذلك؟ أترى تصرّفه حكيماً؟؟ لماذا يكلّفكَ أنتَ بالوصاية عليها؟».

قلتُ:

«لأنني أنا الابن الأكبر، وبعد وفاة أبي تنتقل كفالة ابنة عمّي إلى عاتقي».

«حتّى وإنْ صرتَ الوصي شرعاً... الوضع الطبيعي أنْ تقيم رغد معي أنا خالتها. كيف

نجعلها تعيش معكَ أنتَ، ابن عمّها الغريب، وخطيبته وأمّها الأجنبيتين، وتترك خالتها وابنتَي خالتها!؟».

اشتدّ انزعاجي مِنْ كلامها... كيف تصفني بالغريب؟؟

«أنا ابن عمّها ولستُ بالرجل الغريب».

«وابن عمّها ماذا يعني؟ لو كان سامر لكان الأمر مختلفاً... بل إنّه حتّى مع سامر لا يمكنها العيش بعدما انفصلا... وليته تروّى قليلاً قبل فكّ ارتباطهما. أنتَ لستَ محرماً لها يا وليد».

استفزّتني الجملة، فقلتُ بغضب:

«ولا حسام ولا أباه!».

أمُ حسام ابتسمتْ ابتسامةً خفيفة وهي تقول:

«لكنني هنا!».

«وإنْ؟... أروى وأمها أيضاً هناك».

«لا مجال للمقارنة! بربّك وليد!! أتقارنني وابنتَيَّ بهاتين الأجنبيتين الغريبتين؟؟».

قلتُ مدافعاً:

«للعلم فإنّ خطيبتي وأمّها يعاملان رغد أحسن معاملة... كمعاملة الأخت والأم».

أم حسام صمتتْ برهة ثم سألتْ:

«منذ متى وأنتَ مرتبطٌ بخطيبتك؟».

«منذ بضعة أشهر... قبل وفاة والديَّ بمدّة قصيرة».

«ومنذ متى ورغد معك؟».

«انضمّتْ إلينا بعد وفاة والدينا ببضعة أسابيع... وهي قد أَلِفتْ العيش معنا. نقيم في مزرعة صغيرة بها منزل صغير... لكنه مكانٌ مليءٌ بالمحبة والألفة الأُسريَّة. وتحظى رغد بكل الاهتمام والرعاية فلا تقلقي بشأنها».

لكنّ كلامي لمْ يقنع الخالة، وإذا بها تقول:

«لن أشعر بالأمان على ابنة أختي إلاّ هنا معي. سأعتني بها وأرعاها بنفسي إلى أنْ أزوّجها وأسلّمها إلى زوجها ذات يوم».

عقّبتُ:

«أنا آسف، أقدّر مشاعركِ، ولا يسعني إلا أنْ أشكركِ على حرصكِ على رغد. وأؤكّد لكِ أنّها ستبقى معي، وستكون بخير».

وهببتُ واقفاً وخطوتُ منصرفاً نحو الباب.

«وليد! إلى أين!؟ لم ينته حديثنا».

استدرتُ إليها وقلتُ:

«ماذا بعد؟؟».

ولمْ تجسر أمُّ حسام على التفوّه بشيء. ربّما ألجم لسانها رؤية الشرر يتطاير مِنْ عيني.

تابعتُ طريقي وأمام وجهي، رأيتُ حسام، واقفاً عند الباب، ينتظر نتاج اللقاء الودّي بيني وبين أمّه.

لما رآني في حالٍ يوحي للناظر بشدة انزعاجي، ورأى أمّه مقبلة مِنْ بعدي، سأل بقلق:

«ماذا حصل؟».

لمْ يجب أيّنا. نظر حسام إلى أمّه وسألها:

«هل حدّثتِه عن موضوعي؟؟».

ولمْ تجبْ. ابتعدتُ عنهما خطوتين، ثمّ التفتُّ إلى سارة الصغيرة الجالسة داخل الغرفة وطلبتُ منها استدعاء رغد وأروى والخالة ليندا.

«اخبريهنَّ بأننا سنغادر الآن».

وركضتْ الفتاة إلى حيث كنَّ يجلسن... في إحدى الغرف. أم حسام تقدّمتْ نحوي قائلةً:

«وليد! يهديكَ الله يا بنيَّ، ما أنتَ فاعل؟».

«راحلٌ مع عائلتي، وشكراً لكم على استضافتنا وجُزيتم خيراً».

حسام والذي كان يقف بجواري عند الباب خاطب أمّه سائلاً:

«ألمْ تحدّثيه؟».

أجابتْ:

«ليس وقته الآن يا سامر».

قال حسام:

«متى وقته إذنْ؟ ألا ترين أنّه يريد أخذها معه؟».

ثمَّ نظر إليَّ وقال:

«وليد هل لا أصغيتَ إليَّ؟».

اكتفيتُ هذه المرّة بإلقاء نظرة حادة فقأتُ بها عينيه... لذا تردّد، لكنه تشجّع ونطق:

«منذ زمن كنتُ أفكّر في...».

ضيّقتُ فتحتي عيني وقلتُ:

«في ماذا؟».

أمّ حسام حاولتْ ثني ابنها عن الكلام لكنّه تجاهلها وقال:

«دع رغد تبقى هنا، فأنا... أنا... إنّني أرغب في الزواج منها».

تسمّرتُ على موضعي وأنا محدّقٌ في هذا الفتى المتهوّر الجريء... الذي يجسر على الإعراب عن رغبته في الزواج مِنْ رغد... فتاتي أنا... أمامي أنا!

والآن بدا كل شيء لي واضحاً. وأدركتُ المؤامرة التي حاكها حسام ورغد... لإزاحة سامر عن طريقهما. للحظة كبتُّ غيظي في قبضة يدي، وتظاهرتُ بعدم سماع شيء... واستدرتُ مبعِداً عيني عن حسام. لكنّه عاد يتحدّث وقال:

«أنا أحبّها وأرغب في الزواج منها منذ سنين... وهي تعرف ذلك...».

اشتعلتْ النار في صدري والحمم في قبضتي أكثر فأكثر... وأوشكتْ على الانفجار. تابع هو:

«وبما أنّها انفصلتْ عن سامر... فأنا أريد الارتباط بها بأسرع ما يمكن».

وبأسرع ما يمكن، استدرتُ إليه ورفعتُ قبضتي وأوشكتُ على تسديد لكمةٍ عنيفة إلى وجهه، غير أنّني غيّرتُ مسارها في آخر لحظة وسدّدتُها إلى الباب وأنا أهتف:

«أيها اللئيم!!».

فاجأتْ اللكمة سامر، فازدرد ريقه وألجم لسانه، ووقف متسمّراً محملقاً فيّ في دهشةٍ! كنتُ لا أزال أشعر بشحنةٍ كبيرة في يدي بحاجة إلى التفريغ! وليتَني أفرغتُها فوراً في أي شيء... حسام، الباب، الجدار، الأرض، الشجر، الحجر، الحديد... أي شيء... ولا أنْ أكبتُها لذلك الوقت...

عادتْ سارة، ومعها أروى وأمُّها.

نقلتُ نظري بين الثلاث ولم أكد أسأل، إذ أنّ سارة قالتُ:

«رغد تقول: ارحلوا، فهي لن تأتي معكم أبداً!».

تحدّثتْ أروى الآن قائلةً:

«إنها مصرّة على البقاء هنا واعتقد، أنها تشعر بالراحة والسعادة مع خالتها وابنتيها!».

واستدارتْ إلى أمّها متممة:

«أليس كذلك أمي؟».

قالتْ خالتي ليندا:

«بلى، مسكينة، لقد مرّتْ بظروفٍ صعبة جداً، لِمَ لا تتركها هنا لبعض الوقت يا وليد؟».

عند هذا الحد، وثار البركان...

الجميع مِنْ حولي يقفون إلى صفّها ضدّي، الكل يطلب منّي ترك رغد هنا... ويرى أنّه التصرف السليم، وقد يكون كذلك، وقد يصدر مِنْ أي إنسانٍ عاقل متّزن حكيم، أما أنا... وفي هذه اللحظة بالذات فمجنون، وحين يتعلّق الأمر برغد فأنا أصبح أجنّ المجانين...

سألتُ الصغيرة سارة:

«أين هي؟».

أشارتْ إلى الغرفة التي كانتْ النساء يجلسن فيها. قلتُ:

«أأستطيع الدخول؟».

فنظرتْ إليّ سارة ببلاهة، أشحتُ بأنظاري عنها ونظرتُ إلى أروى محوّلاً السؤال إليها، وكرّرتُ:

«أأستطيع الدخول؟».

قالتْ أروى:

«أجل...».

وسرتُ نحو الغرفة، وأنا أنادى بصوت عالٍ مسموعٍ:

«رغد... رغد».

حتى أنبّهها وابنة خالتها إلى قدومي. طرقتُ الباب، ثم فتحتُه بنفسي، وأنا مستمرٌ في النداء...

الجميع تبعني، ورموني بنظرات مختلفة المعاني، لا تهمّني، كما لا يهمّكم سردها هنا. وجدتُ صغيرتي واقفةً وإلى جانبها ابنة خالتها، وعلى وجهيهما بدا القلق والارتباك. قلتُ:

«رغد، هيَّا بنا...».

هزّتْ رأسها اعتراضاً وممانعةً، فقلتُ بصوتٍ جعلتُه أكثر حدّة وخشونة:

«رغد، هيا بنا، سنرحل فوراً».

رغد تكلّمتْ قائلة:

«لن أرحل معكم، اذهبوا واتركوني هاهنا».

رفعتُ صوتي أكثر وقلتُ بلهجة الإنذار الأخير وأنا أضغط على كلامي:

«رغد، أقول هيا بنا، لأنّه حان وقت الرحيل، وأنا لن أخرج مِنْ هنا إلا وأنتِ معي... وكُفّي عن العناد لأنّه لنْ يشفع لكِ الساعة».

قالتْ رغد بتحدٍ:

«لن أذهب... يعني لن أذهب!».

في هذه اللحظة، استخدمتُ بقايا الشحنة المكبوتة في يدي... على حبيبة قلبي، رغد...

أسرعتُ نحوها، وأمسكتُ بذراعها بعنف، وشددتُها رغماً عنها وأرغمتُها على السير معي نحو الباب...

مِنْ حولي كان الجميع يهتف ويستنكر ويعترض، ولكنني أبعدتُ كل الأيادي التي اعترضتْني، ودفعتُ بحسام دفعةً قويّة صفعتْهُ بالجدار، حين حاول تحرير ذراع رغد مِنْ قبضتي.

أُمُّ حسام حاولتْ استيقافي وصرختْ في وجهي، ومدّتْ رغد ذراعها الأخرى وتشبّثتْ بخالتها، وبابنة خالتها إلا أنّني سحبتُها مِنْ بين أيديهما بخشونة.

أروى وأمُّها حاولتا ثنيي عمَّا أقدمتُ عليه فكان نصيبها زجرةً قويةً فجّرتُها في وجهيهما كالقنبلة...

نحو المخرج سرتُ ولحق بي حسام والبقية مِنْ بعده فأنذرتُه:

«عن طريقي ابتعد لأنني لا أريد أنْ تصيبك كسورٌ أنتَ في غنىً عنها».

«مَنْ تظن نفسك!؟ اترك ابنة خالتي وإلا...».

استخرجتُ المفتاح مِنْ جيبي وفتحتُ باب السيارة المجاور لمقعد السائق، ودفعتُ رغد عنوةً إلى الداخل، وأقفلته مِنْ بعدها.

والآن... عليّ أنْ ألقّن حسام درساً، ليعرف جزاء مَنْ يتجرّأ على خطبة حبيبتي منّي...

كنتُ أنوي إيساعه ضرباً، إلا أنّ تدخُّل الآخرين جعلني أكتفي ببعض اللكمات التي لا تسمن ولا تغني مِنْ جوع، ولا تخمد بركاناً جنونياً ثار في داخلي بلا هوادة.

وسط المعمة والبلبلة والصراخ والهتاف، واستغاثة رغد وضرباتها المتتالية على نافذة السيارة، والفوضى التي عمّتْ الأجواء، التفتُّ أنا إلى أروى والخالة ليندا وهتفتُ بقوة:

«ماذا تنتظران؟ هيا إلى السيارة».

وتوجّهتُ إليها باندفاع، فركبتُها وفتحتُ الأقفال لتركب الاثنتان، وأوصدها مجدداً، ودستُ على المكابح وانطلقت بأقصى سرعة...

«أنتِ مَنْ اضطرّني لتصرّفٍ كهذا... لقد حذّرتُكِ».

صرختُ في وجه رغد وأنا أقود بعصبية، وأكاد أفلتْ مقود السيّارة مِنْ يدي.

«عنادكِ لا يُجدي معي... تجعلينني أفقد توازني وهذه هي النتيجة... هل يعجبكِ ذلك؟؟».

«اذكُر الله يا بنيّ... نعوذ بالله مِنَ الشيطان. أنتَ تقود سيارة».

كانتْ هذه كلمات الخالة ليندا، والتي على أثرها التزمتُ الصمتَ وأرخيتُ أعصابي المشدودة قدر ما أمكنني.

* * *

قطعنا مسافةً طويلة، ونحن في صمتٍ يشوبه صوت محرّك السيارة، وصوت الهواء المتدفق مِنْ فتحة نافذتي الضيّقة، وصوت بكاء رغد المتواصل...

لم أتخيّل نفسي... أقسو على صغيرتي بهذا الشكل... ولكن... جُنَّ جنوني لفكرة أنها تريد البقاء مع حسام أو تخطط معه للزواج مستقبلاً.

وإنْ يكن آخر عملٍ في حياتي، فأنا سأعرقل أي شخصٍ يحاول أخذكِ منّي. لن أسمح لأحدٍ بإبعادكِ عنّي مهما كان... ومهما كانتْ الظروف... ومصيركِ يا رغد إليَّ أنا...

«أما اكتفيتِ بكاءً؟ هيا توقّفي فلا جدوى مِنْ هذر الدموع...».

قلتُ ذلك بأسلوب جاف، جعل أروى تمدُّ يدها مِنْ خلفي، وتلامس كتفي قاصدة أنْ أصمتَ وأدعَ رغد وشأنها...

صمتُّ فترةً لا بأس بها، بعدها فقدتُ أي قدرة لي على التركيز في القيادة، وأنا أرى رغد مستمرة في البكاء إلى جانبي...

أوقفتُ السيارة على جانب الطريق، والتفتُّ إليها...

كانت تسند رأسها إلى النافذة، في وضع تخشع له قلوب الجبابرة... فكيف بقلب وليد؟

«صغيرتي...».

ألقتْ عليَّ نظرة إحباط وخيبة أمل أوشكتُ معها أنْ أستدير وأعود أدراجي وأوصلها إلى بيت خالتها... إلا أنني تمالكت نفسي...

«رغد... أنا آسف...».

لم تعرْ جملتي أية أهمية، وظلّتْ على ما كانتْ عليه...

«أرجوكِ يا رغد... قدّري موقفي، لا أستطيع تركَكِ في مدينة وأسافر أنا إلى أخرى! إنّكِ تحت مسؤوليتي ولا يمكنني الابتعاد عنكِ ليلةً واحدة».

لم أرَ منها أي تجاوب، مددتُ يدي بعد تردُّد وأمسكتُ بيدها، فسحبتْ يدها بقوة وغضب:

«أتركني...».

قلتُ:

«لا أستطيع أنْ أتركَكِ في أي مكان...».

رغد أجابتْ بانفعال:

«وأنا لا أريد الذهاب معكَ! أهو جبر؟ لا أريد السفر معكَ... أعدني إلى خالتي... أنتَ لا تدرك كم أحتاج إليها... إنّها بمثابة أمّي الآن... ألا ترى أنّني بلا أُم؟؟ ألا يكفي ما حصل معي؟؟».

وأجهشتْ بكاءً قوياً. كلماتها وبكاؤها وأنّاتها مزقتْ قلبي... وقلّبتْ مواجعي... وظهرتْ صورتها وهي غارقة في الحزن والدموع في بيتنا المحروق... ورنّت في أذني كلماتها وهي تطلب منّي أنْ أضمّها...

كم كنتُ قاسياً...

صمتُّ دقيقة أو يزيد... ثمَّ تنهّدتُ وقلتُ بصوتٍ حنون عطوف:

«سنعود لزيارتها حين ننهي مهمتنا، وسنبقى هناك القدر الذي تريدين... أعدكِ بذلك».

لكن رغد صرختْ في المقابل:

«الذي أريده هو أنْ أعيش معهم مدى الحياة! هل تعد بذلك؟».

قلتُ:

«مدى الحياة يعني ماذا؟».

فردّتْ:

«يعني مدى الحياة. ألا تفهم؟؟ أريد أنْ أعيش بينهم بقية عمري. ألمْ تفهم بعد؟؟».

والذي ذهب إليه فهمي تلك الساعة هو الإشارة إلى رغبتها في الارتباط بابن خالتها، تلميحاً. لذا تلاشى العطف مِنْ قسمات وجهي وحلّ الغضب مكانه.

أمسكتُ بيد رغد رغماً عنها وشددتُ قبضتي عليها وقلتُ بحدة وأنا أضغط على أسناني كأني أمزّق حقيقة أكرهها بين نابيّ:

«اسمعي يا رغد... لن أدع لكِ الفرصة لتحقيق ما يدور برأسكِ... وإنْ كان ابن خالتكِ المعتوه هذا يطمع بكِ، فعليه أنْ ينتظر عشر سنوات على الأقل حتّى أسمح له بمجرّد طرح فكرة الزواج، وإنْ تجرّأ على إعادة عرضه ثانيةً قبل ذلك الأوان... فو الذي لمْ يخلق في داخلي قلبين اثنين، لألقننّه درساً ينسيه حروف اسمه... أتفهمين؟؟».

لم أدرك تماماً خطورة ما تفوّهتُ به، إلا بعد أنْ رأيتُ رغد تحملق بي بذهول شديد، وقد تبخّرتْ الدموع التي كانتْ تجري على وجنتيها... وألجم حديثي لسانها ومنعها حتى عن

التأوّه مِنْ شدة قبضي على يدها.

ربما أكون قد كسرتُ أحد عظامها أو خلعتُ أحد مفاصلها... لقد كنتُ أضغط بقوة شديدة... أصابتْ عضلات يدي أنا بالإعياء.

سكون تام خيّم علينا، ما عاد هناك صوت للمحرك، ولا للهواء، ولا لرغد، ولا لأي شيء آخر...

حررتُ يد رغد مِنْ قبضتي، فرأيتها محمرّة... وبالتأكيد مؤلمة...

إلا أنَّ رغد لمْ يظهر عليها الألم، ولمْ تسحب يدها بعيداً عني، كما لمْ ترفع عينيها المذهولتين عن عيني...

- أروى -

طوال الأشهر الماضية، كنتُ انظر إلى خطيبي وليد نظرة إعجاب شديد، أكاد معها أجزم بأنه أفضل رجل على وجه الأرض، ولا أرى منه أو فيه أي عيب أو نقص. وكانت جميع خصاله وطباعه تعجبني، وسلوكه وتصرفاته كلها مثار إعجابي وانبهاري.

وفي هذا اليوم، رأيتُ شيئاً أذهلني وفاجأني...

لمْ أتصوّر أنْ يكون وليد بهذا التسلّط أو هذه القسوة! لمْ أتوقع أنْ يصدر منه أي تصرّف وحشي... كنتُ أراه إنساناً هادئ الطباع ومسالماً... وعظيم الخلق...

الطريقة التي سحب بها رغد رغماً عنها، والطريقة التي زجرنا بها حين حاولنا ثنيه عما كان مقبلاً عليه، والطريقة التي خاطب بها رغد ونحن في طريقنا الطويل إلى المدينة الساحلية، كلها أثارتْ في قلبي الخوف والحذر...

وذكّرتني، بأنَّ خطيبي هذا قد قتل شخصاً ما ذات يوم...!

كان الطريق إلى المدينة الساحلية طويلاً جداً، ومملاً جداً... وقد سيطر الصمت الموحش علينا نحن الأربعة...

والدتي سرعان ما نامتْ، وبقيتُ أنا أراقب الطريق، وأحاول النظر إلى وليد، غير أنه كان مركّزاً في الطريق تركيزاً تاماً، وكان يسير بسرعة مخيفة!

«هل لا خففتَ السرعة يا وليد!».

طلبتُ منه ذلك، فقد شعرتُ بالخوف مِنْ انفعاله... غير أنّه لمْ يخففها بل قال:

«طريقنا طويل جداً... أجدر بي زيادتها».

ثمَّ التفتَ إلى رغد، والتي كانتْ مشيحةً بوجهها نحو النافذة ومسندةً رأسها إليها، وخاطبها قائلاً:

«اربطي حزام الأمان».

لمْ أرَ مِنْ رغد أي حركة، أهي نائمة؟ أمْ لمْ تسمع؟ أمْ ماذا؟؟

عاد وليد يقول:

«رغد... اربطي حزام الأمان».
رأيتُها تتحرّك، ثم سمعتُها تقول:
«لماذا؟ هل تنوي أنْ تصدمنا بشاحنة أو جبل؟».
بدا على وليد، مِنْ نبرة صوته، نفاذ الصبر والاستياء، إذ قال:
«لا قدّر الله، فقط اربطيه للسلامة».
قالتْ رغد:
«لا تخشَ على سلامتي! مرحباً بالموت في أي وقت... أنا انتظره بشوق».
الجملة هذه أربكتْ وليد فانحرف في مسيره قليلاً وأفزعنا! ثم خفّف السرعة تدريجياً، حتى أوقف السيارة... والتفتَ إلى رغد قائلاً:
«توقّفي عن ذكر الموت يا رغد... تجرّعتُ منه ما يكفي... ويزيد... ألمْ أنهكِ عن هذا؟؟ إيّاك وتكرارها ثانيةً».
لم تعقّب رغد، بل أسندتْ رأسها إلى النافذة مِنْ جديد...
قال وليد:
«أربطي الحزام».
قالتْ:
«لن أفعل!».
«رغد! هيا!».
«لن أربطه!».
«إذن، أنا سأربطه!».
ورأيتُ وليد يمدُّ يده باتجاه الحزام، ثم رأيتُها ترتدُّ بسرعة إليه! أظن أنَّ رغد قد دفعتها بعيداً، ثمَّ سمعتُ صوت اصطكاك لسان الحزام بفكّه!
لقد ربطته بنفسها! ثمَّ سمعتُ وليد يقول:
«فتاة مطيعة».
ويعاود الانطلاق بالسيارة بأقصى سرعة!
بعد فترة، توقّف وليد عند إحدى محطّات الوقود، مِنْ أجل الوقود، والطعام، والصلاة. خاطبنا مشيراً إلى مبنىً على جانبنا:
«يوجد هنا مصلى للسيدات، حينما تفرغن عدن إلى السيارة، ثم نذهب إلى المطعم».
أنا ووالدتي فتحنا البابين الخلفيين، ونزلنا...
وليد فتح بابه... ثمَّ التفت إلى رغد... والتي كانتْ لا تزال جالسةً مكانها لا تصدر منها أي حركة تشير إلى عزمها على النهوض!...
«ألنْ تنزلي؟».
سألها، فسمعتُها ترد بسؤال:

«إلى أين ستذهب أنتَ؟».

«إلى المسجد».

وأشار بيده إلى نفس البناية، والتي تحوي مصلى صغيراً خاصاً بالرجال، وآخر بالنساء، يفصلهما جدار، ويقع باباهما في الطرفين المتضادين...

يظهر أنّ الفكرة لمْ ترق لرغد (الفتاة المدللة) وأبتْ إلا أنْ يقف وليد عند مدخل المصلى النسائي، حارساً على الباب!

بعد ذلك، اقترح وليد أنْ ندخل إلى المطعم المجاور لتناول الطعام، فلم يعجبها الاقتراح، فاقترح أنْ يذهب هو لإحضاره ونبقى نحن في السيارة، وأيضاً لمْ يعجبها الاقتراح! فتاةٌ عنيدة...! لقد بدأتُ أشعر بالضيق مِنْ تصرّفاتها! إنها بالفعل مجرّد طفلة كبيرة!

أتدرون ما فعلتْ في النهاية؟

أصرّتْ على الذهاب معه، وتركتنا أنا وأمي نعود للسيارة!

ركبتُ أنا المقعد الأمامي، وأمّي خلفي مباشرة، وقلتُ مستاءةً:

«إنّه يدللها بشكل يثير سخطي يا أمّي... أستغربُ... لِمَ لَمْ يتركها في بيت خالتها كما أرادتْ وأصرّتْ! إنه ينفذ جميع رغباتها بلا استثناء».

قالتْ والدتي:

«هذا لأنه يشعر بالمسؤولية الكاملة تجاهها، لا تنسي يا ابنتي أنها يتيمة ووحيدة».

«هل سمعتِ ما قاله؟ يبدو أنّ ابن خالتها يخطط للزواج منها، بعدما انفصلتْ عن خطيبها السابق! أظنه حلاً ممتازاً لمثل وضعها! لِمَ يعارضه وليد؟».

«هو الأدرى بالمصلحة يا أروى، لا تتدخّلي في الموضوع بنيّتي».

وفي الواقع، الموضوع كان يشغل تفكيري طوال الساعات الماضية. بعد قليل، أقبل وليد يحمل كيساً حاوياً للطعام، وإلى جانبه تسير مدلّلته الصغيرة...

مِنْ خلال النافذة، ألقتْ رغد علي نظرة غيظ لا أفهم لها سبباً، ثمّ ركبتْ السيارة إلى جوار والدتي...

وليد بعدما جلس، أخذ يوزّع علينا حصصنا مِنَ الطعام، والذي كان عبارة عن (شطائر اللحم) وبعض العصير. وحين جاء دور (المدللة)، التفتَ إليها ماداً يده، مقدّماً علبة البطاطا المقلية...

«تفضلي رغد... وجبتكِ».

الفتاة التي تجلس خلف وليد مباشرة قالتْ:

«لا أريد! كُلهُ أنتَ!».

وليد بدا مستغرباً! وقال:

«ألَمْ تطلبي بطاطا مقلية!؟».

«بلى، غيّرتُ رأيي، احتفظ به».

وليد مدّ إليها بعلبة (شطيرة اللحم) الخاصة به...
«خذي هذه إذن».
قالتْ:
«لا أريد! شكراً».
«ولكن هل ستبقين دون طعام؟ ماذا تريدين أنْ أُحضِر لكِ؟؟».
«لا شيء! لا أشتهي شيئاً ولا أريد شيئاً!».
«وهذه البطاطا؟؟».
«كُلها! أو... أطعمها مخطوبتك!».
وأسندتْ رأسها إلى النافذة، معلنةً نهاية الحوار!
وليد أعاد علبتي البطاطا و(شطيرة اللحم) إلى داخل الكيس، وانطلق بالسيارة. باختصار، أنا وأمّي كنا الشخصين اللذين تناولا وجبتيهما!
عدّة مواقف حصلتْ أثناء الرحلة الطويلة الشاقة، ورغد إنْ خاطبتني تخاطبني بطريقة جافة وخشنة، كأنها تصب جم غضبها عليَّ أنا!
بعد مرور ساعات أخرى، ووسط الظلام، استسلمتُ أنا للنوم...
حينما أفقتُ بعد مدَّة لمْ أحسبها، وجدتُ السيارة موقفة، ووجدتُ أمّي نائمةً خلفي، ووليد ورغد يجلسان في الخارج، على الرمال، ويتحدّثان فيما لا يعلم به إلا الله...

- وليد -

لأن النعاس غلبني، كما غلب جميع مَنْ معي، أوقفتُ السيارة وفي نيّتي الخروج للمشي ثمَّ وتجديد نشاطي...
استدرتُ للخلف، فرأيتُ رغد تنظر إليّ مباشرة!
«لماذا توقّفتَ!؟».
«ألمْ تنامي؟ أشعر بالتعب، سأمشي قليلاً...».
وما إنْ سرتُ بضع خطوات، حتى تبعتني...
لَمْ نتحدّث، وأخذتُ أسير ببطء... على الرمال مبتعداً عن السيارة عدّة أمتار... وأشعر بها تسير خلفي، دون أنْ ألتفتَ إليها...
بعد مسافة قصيرة، استدرتُ قاصداً العودة، فوقعتْ عيناي على عينيها مباشرة...
أعتقد أنَّ الزمن توقّف عن السير تلك اللحظة... لو تعرفون ما الذي تفعله، نظرة واحدة إلى عيني رغد بي... لربما برّرتم التصرفات الغريبة التي تصدر مني!
إنها ترسلني إلى الجنون... فهل يُلام مجنونٌ على ما يفعل؟؟
بعد أنْ تابع الزمن سيره، تقدّمتُ نحوها... عائداً إلى حيث السيارة... رغد بقيتْ واقفةً مكانها، إلى أنْ تجاوزتها ببضع خطوات، ثم أحسستُ بها تسير خلفي...

مشاعر كثيرة شعرتُ بها وأنا أغرس حذائي في الرمال... خطوة بعد خطوة...

الشعور بالقلق لما يخبّئه القدر لي، الشعور بالغيظ مِنْ رغبة رغد في البقاء مع خالتها... وبالندم مِنْ قسوتي معها... بالرغبة في الاعتذار... وبالشوق لأنْ أواسيها وأعيد إلى نفسها الطمأنينة والأمان والثقة بي... وبالحزن ممّا قد يكون الآن دائراً في رأسها حولي... وبرغبة جنونية، في أنْ أستدير إليها الآن واهتف في وجهها (أنا أحبك!)...

وبشعور أخير... إنْ تمكّنتُ مِنَ السيطرة على جميع مشاعري وكبتها، لا يمكنني الصمود في وجه هذا الشعور بالذات!

إنه قارس وقارص!

أنا جائع!

صدر نداء استغاثة مِنْ معدتي، سألتُ الله عشر مرات ألا يكون قد وصل إلى مسامع رغد!

حينما وصلتُ إلى السيارة، أسرعتُ الخطى إلى (نافذتي) المفتوحة فمددتُ يدي واستخرجتُ الكيس، قبل أنْ تصل رغد...

عدتُ إلى الرمال، وجلستُ عليها... وفتحتُ الكيس واستخرجتُ العلب الثلاث المتبقية فيه، علبة البطاطا المقلية، و(شطيرة اللحم)، والعصير!

رغد وقفتْ على مقربة تنظر إليّ! لا بد أنها متعجبة مني! رفعتُ رأسي إليها وقلتُ:

«تعالي وشاركيني!».

وقمتُ بتقسيم الشطيرة إلى نصفين... ومددتُ يدي بأحدهما إليها... كانتْ لا تزال تنظر إليّ باستغراب... قلتُ:

«صحيح باردة، ولكنها تبقى طيّبة المذاق».

تردّدتْ رغد، ثم جاءتْ، وجلستْ إلى جانبي... وتناولتْ (نصف الشطيرة) مِنْ يدي... قرّبتُ منها علبة البطاطا، وكذلك العصير، فرفضتْهما...

بدأتُ أقضم حصّتي مِنَ الشطيرة، وأبتلع أصابع البطاطا الباردة، وأشرب العصير، وأتلذّذ بوجبتي هذه!

قلتُ وأنا أمضغ إصبع بطاطا:

«لذيذ! جرّبيه!».

وأمسكتُ أحد الأصابع وقرّبته منها... كنتُ أنتظر أنْ تمد يدها لتمسك به بأصابعها، إلا أنها مدّتْ رأسها وأمسكته بأسنانها! وبدأتْ تمضغه، ويبدو أنه أعجبها لذلك ابتسمتْ!

أنْ أراها تبتسم، وإنْ كانتْ ابتسامة خفيفة باهتة سطحية، لهو أمرٌ يكفي لأن يجعلني أنسى عمري الماضي...

الماضي... آه... الماضي...

في الماضي، كنتُ أطعمها أصابع البطاطا بهذه اليد... نفس اليد كانت تمد إليها بإصبع

البطاطا قبل ثوان...

نفس اليد، التي تتوق لأن تمسح على رأسها وتطبطب على كتفيها وتضمها إلى صدري...

نفس اليد، التي شدّتها بعنف وقسوة، وأجبرتْها على ركوب السيارة رغم مقاومتها...

إنها نفس اليد التي قتلتُ بها عمّار... وضربتُ بها سامر... ولكمتُ بها حسام... وسأذبح بها أي رجل يحاول الاقتراب منك يا رغد...

وبهذه اليد ذاتها، سأبقى ممسكاً ومتمسّكاً بكِ لآخر نسمة هواء تدخل إلى صدري، أو تخرج منه...

انهينا وجبتنا الباردة، وفي داخلي شعورٌ غريب بالسعادة والرضا، والاسترخاء، والشبع أيضاً!

وعوضاً عن تجديد نشاطي، تملّكتني رغبةٌ عارمةٌ في النوم!

(فرشتُ) الكيس على الرمال، وعليها تمددتُ وأسندتُ رأسي إلى ذراعي... وأغمضتُ عينَيّ...

أنا متأكّد مِنْ أنني لو بقيتُ على هذا الوضع دقيقتين اثنتين، لدخلتُ في سبات عميق وفوري...

الذي حصل هو أنَّ صغيرتي وبمجرد أنْ أغمضتُ عيني نادتني بقلق:

«هل ستنام وليد؟؟».

قلتُ وأنا أتثاءب:

«أنا نعسان بالفعل! سوف أسترخي لدقائق».

«وليد! اجلس!».

صدر هذا الأمر مِنْ صاحبة الدلال والسيادة، جعلني انهض فوراً، وأصحو تماماً! التفتُّ إليها فوجدتها تنظر إليّ بقلق...

«دعنا نعود إلى السيارة ونمْ هناك».

«حسناً... إذن هيا بنا».

ونهضنا وعدنا إلى مقعدينا...

«هل يضايقك أنْ أزيح مسند مقعدي للوراء يا رغد؟».

«كلا... خُذ راحتكَ».

«شكراً».

صمتُ برهة ثمّ عدتُ أقول:

«أنا متعبٌ بالفعل، قد أنام طويلاً! إذا نهضتِ ووجدتِ الشمس توشك على الشروق، فلتوقظيني».

«حسناً».

«نوماً هنيئاً، صغيرتي».

- أروى -

لمْ ينته الأمر هنا...

صحيح أنَّ وليد قد نام بسرعة، إلا أنَّ رغد ظلتْ تتحرك، وأشعر بحركتها لفترة...

كنتُ أتظاهر بالنوم... ومِنْ حين لآخر أفتح عينيّ قليلاً، خصوصاً إذا أحسستُ بحركةٍ ما...

هذه المرّة فتحتُها فتحةً صغيرة، فرأيتُ يد رغد تمتدُّ إلى مقعد وليد، ورأسها يستند عليه...

هذا لا شيء...!

فالشيء... الذي أيقظ كل الخلايا الحسية والوجدانية في جسدي، في ساعة كنتُ فيها في غاية التعب والنعاس، وأرسَلَ أفكاري إلى الجحيم... هو جملتها الهامسة التالية:

«نوماً هنيئاً... وليد قلبي...!!».

الحلقة الخامسة والثلاثون

إلى مهد الذكريات

- وليد -

لم أكن أريد أنْ يدركنا الظلام، سرتُ بأقصى سرعة ممكنة، لكن الشمس سبقتني بالغياب. حين وصلتُ إلى المدينة الساحلية، مسقط رأسي، كان الظلام قد غطى الأجواء.

تسارعتْ نبضات قلبي وأنا أسير في الطريق المؤدِّي إلى بيتنا... كلّما وقفتُ عند إشارة مرور، توقّفتُ الذكريات عند حدث معيّن.

شوارع المدينة لمْ تتغيّر... الكثير مِنَ الحفريات والإصلاحات مبعثرة عليها... لا تزال بعض المباني منهارة كما خلّفتْها يد الحرب... ولا تزال المناظر تثير الرهبة في قلوب الناظرين.

«هنا مدينتنا».

قلتُ ذلك، مخاطباً أروى التي كانتْ تشاهد المناظر مِنْ حولها... وكأنّه واقعٌ مخيفٌ مرير أخشى تلقيه بمفردي.

«إنها آثار الحرب!».

عقّبتْ أروى، فقلتُ:

«وأي آثار...! تحمل هذه المدينة مِنْ ألم الذكرى وبصمات الماضي ما يجعل قلبي يتصدّع مِنْ مجرد ذكر اسمها».

وأي ذكرى أقسى مِنْ... ذلك اليوم المشؤوم... الذي غيّر مجرى حياتي نهائياً. كأني به يعود للوراء... كأني بعمار اللعين... ينبعث مِنْ قبره... كأني أراه يبتسم ابتسامته الشرسة القذرة... ويرمي بالحزام في الهواء... كأني... برغد تصرخ... تركض إليَّ... تتشبّث بي... تخترق صدري، وخلايا جسدي... تمزّق قلبي... تحرق أعصابي عصباً عصباً... وتفجّر في داخلي رغبةً عارمةً مزلزلة... منطلقة بعنف وسرعة... ككتلة نارية قذفها بركان ثائر هائج... آبيةً إلا أنْ تنتهي بضربة بشعة فتاكة على رأس عمّار... خاتمةً بها آخر أعماله القذرة.

لمْ أتمالك نفسي، دستُ بقدمي بقوة... انطلقتْ السيارة بسرعة... كنتُ أراه أمامي... وكنتُ أريد أنْ أدوسه وأسحقه تحت العجلات... مرّة بعد مرّة... بعد مرّة...

«وليد! خفف رجاءً».

هذه المرة كانتْ أمُّ أروى هي المتحدّثة... أعادتْني إلى الواقع، فوجدتُ نفسي أقود سيارة في شارع داخلي لا يخلو مِنَ النتوءات والحفر بسرعة لا تتناسب معه.

خفّفتُ السرعة، وألقيتُ نظرةً على رغد مِنْ خلال المرآة... كانتْ هي الأخرى مشغولة

بمراقبة الطريق... أتراها تذكر؟؟

الآن انتقل بصرها إليّ... أشارتْ إلى الخارج عبر النافذة وقالتْ:

«إنها مدرستي!».

نعم إنها هي!

نعم إنها تذكر... حاولتْ أنْ أستشف مِنْ عينيها مدى تأثرها... وإلى أين وصلتْ بها الذكرى... حدّقتْ في مبنى المدرسة... ثمّ حدّقتْ بي.

كيف تشعرين يا رغد؟؟ هل يؤلمك شيء كما يؤلمني؟؟

هل تطوف في مخيلتكِ ذكريات ذلك اليوم النحس، كما هي مسيطرة عليَّ الآن...؟؟

لو أملك يا رغد... لمحوتُ ذلك الماضي من ذاكرتك نهائياً... لو أملك يا رغد لاستأصلتُ ذلك اليوم مِنْ عمرك... واقتلعته مِنْ أصل جذوره... لو أملك يا رغد... لقتلتُ عمّار قبل أنْ تلده أمّه... وما تركتُ له الفرصة ليؤذي أغلى مخلوقة لدي... بأبشع طريقة...

المسافة تقصر... النهاية تقترب... المباني تمرُّ بنا وتنصرف... واحداً تلو الآخر... إلى أنْ ظهر أخيراً... مبنىً كبيرٌ قديم... مهجورٌ وغارقٌ في الظلام... موصد الأبواب والنوافذ... كئيب ميّت ومرعب... تحفُّ به أشجارٌ جافة بلا أوراق ولا ثمر... أشجارٌ ماتتْ واقفةً... شامخة... وبعثرتْ الريح أوراقها على العالم منذ سنين... وظلّتْ واقفة... وقامتْ الحرب... وقعدتْ الحرب... وظلّتْ هي واقفة... في انتظار عودة سيِّدَي المنزل... لتنحني أمامهما... محيِّية مرحِّبة... يا أشجار بيتي العزيز... ستظلين واقفةً ما امتدَّ بكِ الدهر... لأنَّ السيدين... اللذَين تنتظرين عودتهما... لن يعودا أبداً...

عند الباب مباشرة، أوقفتُ سيارتي أخيراً. بقيتُ قابعاً في مكاني لا أجرؤ على الحراك... مركزاً بصري على البوابة... كأنني أستأذنها بالدخول... كأنها تستغرب عودتي... كأنها نسيتني!

مرّتْ لحظات ليستْ كاللحظات، وأنا في سكون شارد... تحدّثتْ أروى قائلةً بعد أنْ طال بنا البقاء:

«أليس هذا هو المنزل؟ ألن ننزل؟؟».

التفتُّ إليها ومنها إلى الوراء، حيث تجلس صغيرتي بتعبيرات وجهها المضطربة ونظراتها المتوجسة.

قلتُ بصوت يكاد يختنق في حنجرتي:

«منزلنا يا رغد!».

رأيتُ يدها تمتد مِنْ موضعها على صدرها إلى عنقها... كأنها تمنع صرخة مِنَ الانبثاق قهراً مِنْ أعماق حنجرتها الصغيرة...

تحدّثتْ خالتي أم أروى الآن قائلة:

«هل سننزل هنا؟ هل تملك مفاتيح للمنزل؟؟».

أجبتُها بتحريك المفاتيح المتدلية مِنْ مقود السيارة، والتي تضم مفاتيح المنزل المهجور.

عدتُ بنظراتي إلى رغد... فهي أهم ما يعنيني في الأمر... لطالما كانتْ هي الأهم... قلتُ:

«هيا بنا... توكّلنا على الله».

بدا على صغيرتي المزيد مِنَ التوتر والقلق، أخيراً فتحنا الأبواب وهبطنا أرضاً. صغيرتي وقفتْ وسارتْ شبه ملتصقة بي، وكأنها تخشى شيئاً.

فتحتُ البوابة الرئيسية أخيراً... وسمحتُ لطوفان الذكريات باجتياحنا.

الحديقة الخارجية... التي لطالما كانتْ غنّاء خضراء زاهية... هي الآن مجرد صحراء موحشة تعذّر حتى على الأشواك البرية العيش في رحابها.

لمْ أكن أشعر بقدمي وهي تسير خطوةً بعد خطوة نحو الداخل... اقتربنا مِنَ الساحة المرصوفة بقطع الرخام... في هذه الساحة... كانتْ فيها رغد تقود دراجة سامر فيما مضى... تجاوزنا الباب الخارجي للمنزل، وسرنا متابعين طريقنا... حتى بلغنا الساحة الخلفية للمنزل... ومِنْ خلال بصيص خفيف للضوء، وقعتْ أنظارنا على أدوات الشواء المركونة هناك في زاوية الساحة منذ سنين... ما أنْ رأتها رغد، حتى رفعتْ يدها اليمنى وأمسكتْ بذراعها الأيسر... كأنها شعرتْ بلسعة الجمر تحرق ذراعها... مكان الندبة القديمة... قلتُ بعطف:

«رغد! أأنت على ما يرام؟؟».

وبالرغم مِنَ الظلام، استطعتُ أنْ ألمح القلق المرسوم على وجهها الصغير. قلتُ:

«دعونا ندخل إلى الداخل».

ورأيتُ يد رغد اليمنى وهي تترك ذراعها الأيسر... وتقترب شيئاً فشيئاً مِنْ يدي، وتلتحم بها!

أظنها كانتْ طلباً للأمان، فقد كان المكان موحشاً، عدا عن الذكريات الأليمة التي يثيرها... ونحن ما استفقنا بعد مِنْ صدمة بيتنا المحروق الذي خلفناه في المدينة الصناعية... تركتُ يدي أسيرة يديها حتى بلغنا الباب الداخلي، وأردتُ استخدام يدي في فتح الباب، إلا أنها لمْ تطلق سراحها... بيدي الأخرى فتحتُ القفل والباب، وخطوتُ الخطوة الأولى نحو الداخل... وظلّتْ يدي اليسرى مسحوبة إلى الوراء، مربوطة بيد رغد.

كان المنزل غارقاً في الظلام... مددتُ يدي نحو الجدار متحسّساً المكابس، حتى أضأت المصباح... ولحسن الحظ، بل للعجب، كان يعمل...! الإنارة سمحتْ لنا برؤية أكوام الغبار التي تغطي الأرضية الرخامية عند المدخل. شددتُ يدي اليسرى ومعها شددتُ صغيرتي نحو الداخل وأنا أقول:

«أدخلن».

رغد خطتْ خطوة نحو الداخل وأخذتْ تدور برأسها في المكان... وتشدُّ ضغطها على يدي، وعلى صدرها من فرط التأثر.

إنْ قضيتُ الوقت في وصف المنزل فإنني لن أنتهي.

لكن... وإنْ تجاهلتُ وصفي للمنزل وذكرياته، فهل أجسر على تجاهل وصف تعبيرات رغد؟؟ إنها وقفتْ على مقربة مِنَ الدرج... وهي لا تزال ممسكة بيدي، وقالتْ:

«يا إلهي... إنه بيتنا! لم يتغيّر يا وليد! أنا أذكره!».

ثم قفزتْ دمعة مِنْ عينيها فجأة.

أتذكرين يا رغد؟؟

أتذكرين هذا المنزل، الذي تربينا فيه سوية؟؟

أتذكرين حين كنتُ أحملكِ على كتفي وأجول بكِ أرجاء المنزل، وأنتِ تضحكين بفرح؟؟

كمْ وكمْ مِنَ الذكريات أحمل في صدري... ذكريات طفلتي الحبيبة المدلّلة التي تركتُها نائمةً على سريرها ذات يوم، وعدتُ بعد تسع سنين، ولمْ أجدها.

تسع سنين يا رغد... كان يمكن أنْ أعيشها معكِ لحظةً بلحظة يوماً بيوم وسنةً بسنة... قضيتُها هناك في السجن... برفقة المجرمين المذنبين، أُضرَب وأُهان ويُكسر أنفي، وآكل الطعام الرديء الممزوج بالحشرات، وأنام على سرير خشبي قاسٍ ووسادة أشبه بالحجر، بينما أنتِ في حضن شقيقي... تنعمين بالحبِّ والدلال والرفاهية!

آه يا رغد... آه ثمّ آه ثمّ آه...

قطع سيل الذكريات صوت أروى قائلةً:

«أين غرف النوم؟ أهي مؤثثة؟ أودُّ أنْ أستلقي فأنا مرهقةٌ جداً».

طبعاً، جميعنا مصابون بالإرهاق بعد سفر طويل وشاق. قلتُ:

«في الأعلى».

وهممتُ بالصعود.

كلّما صعدتُ خطوة تصاعدت الدماء إلى وجهي، وتزايدتْ نبضات قلبي، وكلما أنرتُ مصباحاً تفجّرتْ ذكريات أخرى في رأسي... حتى إذا ما بلغتُ الردهة الرئيسية... شعرتُ بمفاصلي تتساقط أرضاً.

وجهاً لوجه، مِنْ جديد... أمام البابين المتجاورين... لغرفتي أنا وغرفة رغد. وجهاً لوجه، وعلى بعد خطوات معدودة مِنْ بؤرة الذكريات... لهذا الحد وتوقّف كل شيء عن الحركة مِنْ حولي... وتجمّد الكون... وتصلّبت الأشياء... وخزٌ قويٌّ شعرتُ به في راحة يدي، سببه ضغط أظافر رغد الشديد على يدي. هنا... التفتُ إليها... رأيتُ على شفتيها كلمةً لا تكاد تنطلق...

«غرفتي! غرفتي يا وليد!! بعد كل تلك السنين... أعود إلى هنا!!».

حاولتُ تحريك يدي، وتقريب سلسلة المفاتيح مِنْ عيني لاختيار المفتاح المناسب، إلا أنَّ رعشة قوية سرتْ ببدني... جعلتْ السلسلة تنزلق مِنْ بين أصابعي وتسقط أرضاً، محدثةً رنيناً تخلخل عظامي. وقفتُ متسمّراً في مكاني عاجزاً عن الانثناء والتقاط المفاتيح. رغد تحرّكتْ والتقطتْ المفاتيح بنفسها ومدّتْ يدها إليَّ... تحشرج صوتي عن كلمة:

«افتحيه».

لا أعرف كيف ظهرتْ حروفها. نظرتْ رغد إليَّ بتردُّد، ثمَّ التفتتْ نحو باب غرفتها، وتقدّمتْ خطوة... وبدأتْ تجرّب المفاتيح.

وأخيراً انفتح القفل. وحرّكتْ رغد الباب للأمام قليلاً. كانتْ الغرفة غاطّة في السبات العميق المظلم، منذ عشر سنين!

لمْ تتحرك رغد، بل توقّفتْ في مكانها لا تملك مِنَ الشجاعة ما يكفي لأنْ تدخل. أما أنا، فقد أصاب ركبتَيّ تصلّب حاد عجزتُ معه عن تحريك أيٍ منهما.

«أنا خائفة».

قالتْ ذلك رغد وهي تلتفتُ نحوي.

«لا تقلقي! لا يوجد أشباح!».

قلتُ ذلك، وأنا أرتجف خوفاً مِنْ أشباح الماضي. ولما رأيتُ في عينيها التردد... أجبرتُ قدمي على السير للأمام... ووقفتُ إلى جانبها مباشرة... أمام الباب. دفعتُ به بهدوء حتى فتحتُه... وأنا مغمض العينين! مَنْ سأرى في الداخل؟؟ لا بد أنها طفلتي الصغيرة الحبيبة، نائمة على سريرها... كالملاك! فتحتُ عيني... كانتْ الغرفة تسبح في الظلام... مددتُ يدي وأضأتُ المصباح... وأخيراً... رأيتُ كل شيء... وآه مما رأيتُ... هناك... إلى اليمين، يرقد سرير رغد القديم، تماماً كما فارقتُه منذ سنين. لقد كنتُ أنا مَنْ وضع السرير في مكانه، كما رتّبتُ أثاث الغرفة بنفسي.

سمعتُ شهقة ضعيفة انطلقتْ مِنْ صدر رغد... الواقفة إلى جواري. لكنني لمْ ألتفتْ إليها... لقد كنتُ مأخوذاً بسحر الذكرى الماضية.

تقدّمتُ نحو سرير رغد... أجرُّ قدميّ جراً... حتى إذا ما بلغتُه انثنيتُ عليه وأخذتُ أتحسّسه. طافتْ بي الذكرى... وتخيّلتُ رؤية رغد نائمةً هناك... وهُيّأ لي أنني لمستُ شعرها الناعم... وأحسستُ بأنفاسها القصيرة... شعرتُ بجسمها الضئيل يتحرك!

«رغد صغيرتي!».

انطلق الاسم مِنْ لساني عفوياً... يا للأيام! بعد كل هذه السنين... أعود إليكِ!؟

داهمتني رغبة في أنْ أحتضن السرير برمته... في أنْ أطوّقه بذراعي... في أنْ أقبّل دعائمه...

«هل كانتْ هذه غرفتك يا رغد؟».

صوت أروى، أيقظني مِنَ السبات، فهو صوتٌ لم أعتد على سماعه في هذا البيت!

«نعم».

أجابتْ رغد وهي تتقدّم نحوي. التفتُّ إليها فإذا بي أراها تحدّق في شيءٍ ما وهي تقول:

«وليد!».

التفتُ إلى ذلك الشيء، فإذا به ورقة صغيرة... مُلصقة بالجدار بشريط لاصق، مرسومٌ عليها صورة لشخصٍ ما، وقد امتدّ خط طويل تحت أنفه!

إنها الصورة التي رسمتْها لي رغد عندما كنّا هنا، قبل زمن! وهذا الخط الطويل... هو (الشارب) الذي تخيّلتْه ينبُت لي، عندما أكبر! أتذكرون ذلك؟؟

مددتُ يدي وانتزعتُ الورقة ونظرتُ إليها ملياً... رباه! ألا تزال هذه الصورة حيّة حتى الآن!!

نظرتُ إلى رغد... أعساها تذكرها؟؟

سمعتُها تقول:

«تشبهكَ! أليس كذلك؟».

وتبتسم! رفعتُ يدي إلى شاربي أتحسسه، ثمّ قلتُ:

«إلى حد ما!».

ثم نظرتُ إليها... وتعرفون ما حصل؟؟

انفجرنا ضاحكين...!!

ذلك الضحك الذي أعاد الحياة فجأةً إلى بيتٍ ميّت منذ سنين.

بدتْ الأجواء الآن أكثر حيوية، وجالتْ رغد في غرفتها بمرح تتحسس الأشياء مِنْ حولها وتنفض يديها من الغبار!

«لا شيء تغيّر وليد!».

لا شيء... سوى أنَّ عشر سنوات قد أُضيفتْ إلى عمركِ ومنعتْني مِنْ أنْ أحملكِ على ذراعيَّ وأدور بكِ في الغرفة كما كنتُ أفعل سابقاً!

«دعنا نرى غرفتكَ!».

قالتْ ذلك رغد فالتفتُّ إلى الباب، وحينها فقط تذكّرتُ أنَّ أروى وأمُّها كانتا موجودتين معنا!

بعد ذلك، فتحتُ باب غرفتي الملاصقة لغرفة رغد وما إنْ أضأتُ المصباح حتّى وقعتْ عيني مباشرة على ذلك الشيء المجعّد الملقى هناك عند تلك الزاوية!

التفتُّ إلى رغد... أتراها رأته؟ أتراها تذكّرته؟؟ أتراها تذكر الأمنيات التي... حبستُها فيه قبل سنين؟؟

لكن رغد لمْ يبدُ عليها أنها انتبهتْ لوجوده، وهو محشور عند تلك الزاوية.

تسلّلتْ إلى الداخل وجالتْ ببصرها في أنحاء الغرفة جولة سريعة ثمَّ وضعتْ يديها على وجهها وتنهّدتْ:

«يا إلهي!!».

ثمَّ رفعتْ يدها وقالتْ:

«لقد منعتْني أمّي مِنْ دخولها بعد رحيلك! لا أصدِّق أنني دخلتُها مجدداً!!».

ثم التفتتْ فجأة ناحية الباب وقالتْ:

«لقد تركتُ رسالة ها هنا».

قلتُ:

«نعم لقد رأيتها. لم أكن لأصل إليكم لولاها يا رغد! شكراً لكِ».

وكانتْ رغد قد كتبتْ رسالةً وضعتْها أسفل الباب، تذكُر فيها انتقالهم إلى المدينة الصناعية، واكتشفتُ أنا وجودها ليلة عودتي إلى المنزل، بعد خروجي مِنَ السجن، العام الماضي.

رغد عادتْ تتأمّل الغرفة إلا أنها لمْ تلمح ذلك الصندوق... ويبدو أنَّه لمْ يكن ليخطر لها على بال... بل وربما لمْ تعد تذكره.. وهذا، جعلني أتألّم كثيراً... وكنتُ سأنبِّهها إليه لولا أنَّ الخالة ليندا قالتْ لحظتها:

«أضنانا التعب يا بُنيَّ، أرنا أين يمكننا المبيت؟».

قالتْ رغد مباشرة:

«أنا سأنام في غرفتي!».

ورُتب الأمر بحيث أنام أنا في غرفتي، ورغد في غرفتها، وأروى والخالة في الصالة العلوية. كان التعب قد نال منَّا ما نال، للدرجة التي، ورغم كل ما أثارته الذكريات مِنَ الآلام نمتُ فيها بسرعة. أظنُّ أنني كنتُ أحلم بشيءٍ ما... وأظنُّه كان شيئاً جميلاً... وأظنُّ أنَّ رغد كانتْ هي مضمون حلمي.

فجأة سمعتُ نقراً على الباب... استويتُ جالساً وأخذتُ أحدِّق في الظلام مِنْ حولي... تذكّرتُ أنني أنام على سريري في منزلي القديم. لمْ أصدِّق أنها الحقيقة... النقر كان يصل أذني... أستطيع أنْ أسمعه جيداً... إنه ليس بالحلم... وحين أنهض... وأفتح الباب... سوف لن أجد خيال رغد الطفلة الصغيرة... وأسمعها تقول:

(«وليد أنا خائفة! دعني أنام معكَ»).

هذا الحلم يتكرّر عليَّ... وأصحو فزِعاً... وحينما أفتح الباب أكتشف أنّه قد تبخّر...

إنني لا أزال أسمع النقر... لا أستطيع إلا أنْ أنهض وأتوجّه لفتح الباب...

تقدّمتُ نحو الباب بتردِّد...أحقاً ستظهر رغد؟ أأنتِ خلف الباب يا رغد؟ أعُدتِ للظهور كما في السابق؟ هل رجع الزمن للوراء... فقط عشر سنين؟؟ أمْ أنني لن أرى غير البخار...؟؟

أمسكتُ بمقبض الباب وأدرتُه وأنا أنظر إلى الأسفل... إلى حيث أتوقّع أنْ أجد عينَي صغيرتي الخائفة... يا رب... حقِّقْ حلمي هذه المرة... أتوسّل إليكَ... ولو لدقيقة واحدة... ولو لمرة أخيرة... أرى فيها صغيرتي الحبيبة وأضمُّها إليّ...

فتحتُ الباب، فوقعتْ عيناي على اليد التي كانتْ تطرقه. رفعتُها بصري للأعلى فإذا بي أرى وجهاً كالذي تمنيتُ رؤيته... أغمضتُ برهة ثمَّ عدتُ أحدِّق بعينيها... أأنا أحلم؟ أم هذه حقيقة؟؟ ألن... يتبخّر كل شيء؟؟

«رغد!! أهذه أنتِ؟؟».

همستُ بصوت لمْ أكد أسمعه. ارتفعتْ يد رغد قرب عنقها، وتنهّد صدرها ثمَّ سمعتُها تقول:

«وليد... أنا خائفة... دعني أبقى قربكَ».

أَنْتَ لي

رواية

د. منى المرشود

ظلّتْ رغد تنام في غرفتي لحين إشعار آخر.

في الواقع لمْ يزعجني الأمر، فهي لمْ تعدْ تنهض مفزوعة وتصرخ في الليل إلا نادراً...

كنتُ أقرأ إحدى المجلات وأنا مضطجعٌ على سريري، وكانتْ الساعة العاشرة ليلاً، وكانتْ رغد تغط في نوم هادئ.

ويبدو أنها رأتْ حلماً مزعجاً لأنها نهضتْ فجأة وأخذتْ تبكي بفزع...

أسرعتُ إليها وانتشلتُها مِنْ على السرير وأخذتُ أهدئ مِن روعها. كان بكاؤها غريباً... وحزيناً...

«اهدئي يا صغيرتي... هيا عودي للنوم!».

وبين أناتها وبكاؤها قالتْ:

«ماما».

نظرتُ إلى الصغيرة وشعرتُ بالحزن... ربما تكون قد رأتْ والدتها في الحلم.

«أتريدين الـ ماما أيتها الصغيرة؟».

«ماما».

ضممتُها إلى صدري بعطف، فهذه اليتيمة فقدتْ أغلى مَنْ في الكون قبل أنْ تفهم معناهما...

جعلتُ أطبطب عليها، وأهزُها في حجري وأغني لها إلى أنْ استسلمتْ للنوم.

تأمّلتُ وجهها البريء الجميل... وشعرتُ بالأسى مِنْ أجلها. تمنيتُ لحظتها لو كان باستطاعتي أنْ أتحوّل إلى أمّها أو أبيها لأعوّضها عما فقدتْ.

صممتُ في قرارة نفسي أنْ أرعى هذه اليتيمة وأفعل كل ما يمكن مِنْ أجلها...

وقد فعلتُ الكثير...

والأيام... ستثبتُ ذلك

ISBN 978-614-01-1249-0
9 786140 112490

أطياف للنشر والتوزيع
هاتف/فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦+
القطيف - شارع القدس
ص.ب. ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail atyaf-pd@hotmail.com